المنظمة العربية للترجمة

إريك هوبْزْباوْم

عصر رأس المال

(1848 ـ 1875)

ترجمة

د. فايز الصُيّـــاغ

مؤسســـة ترجمـــان

توزيع: مركز دراسات الوحدة العربية

عصر رأس المال

(1875 - 1848)

لجنة العلوم الإنسانية والاجتماعية

المنظمة العربية للترجمة

إريك هوبْزْباوْم

عصر رأس المال

(1848 ـ 1875)

ترجمة

د. فايز الصُيّــاغ

تقديم

د. محمد المصري

الفهرسة أثناء النشر - إعداد المنظمة العربية للترجمة
هوبْزْباوْم، إريك
عصر رأس المال (1848 ـ 1875)/ إريك هوبْزْباوْم؛ ترجمة فايز الصُيّاغ؛ تقديم محمد المصري.
627 ص. ـ (علوم إنسانية واجتماعية)
ببليوغرافية: ص 581 ـ 599.
يشتمل على فهرس.
ISBN 978-9953-0-1152-3
1. التاريخ الحديث ـ القرن التاسع عشر. 2. الاقتصاد التاريخي. 3. الرأسمالية. أ. العنوان. ب. الصُيّاغ، فايز (مترجم). ج. المصري، محمد (مقدّم). د. السلسلة.
909.81

Hobsbawm, Eric
The Age of Capital, 1848 - 1875
First Published by Weidenfeld & Nicolson Ltd, London, 1975.



المنظمة العربية للترجمة

بناية «بيت النهضة»، شارع البصرة، ص. ب: 5996 ـ 113
الحمراء ـ بيروت 2090 1103 ـ لبنان
هاتف: 753031 ـ 753024 (9611) / فاكس: 753032 (9611)
e-mail: info@aot.org.lb - http://www.aot.org.lb

يصدر هذا الكتاب بدعم من البنك الأردني الكويتي وشركة أرامكس

توزيع: **مركز دراسات الوحدة العربية**
بناية «بيت النهضة»، شارع البصرة، ص. ب: 6001 ـ 113
الحمراء ـ بيروت 2407 2034 ـ لبنان
تلفون: 750084 ـ 750085 ـ 750086 (9611)
برقياً: «مرعربي» ـ بيروت / فاكس: 750088 (9611)
e-mail: info@caus.org.lb - Web Site: http://www.caus.org.lb

الطبعة الأولى: بيروت، كانون الثاني (يناير) 2008

الإهداء

إلى مارلين، أندرو، وجوليا



المحتويات

القسم الثالث
النتائج

تقديم الطبعة العربية

«رأس المال»:
بين «الثورة» و«الإمبراطورية»

بصدور **عصر رأس المال** بعد **عصر الثورة**[1]، تكون الحلقة الثانية من مشروع إريك هوْبزْباوْم الكبير لكتابة مرحلة مهمة من تاريخ البشرية تمتد ما بين (1789 ـ 1914) قد وجدت مكانها في المكتبة العربية. وعندما تصدر قريباً الحلقة الثالثة والأخيرة، **عصر الإمبراطورية**، من هذه المراجع المَعْلَمية عن التاريخ الحضاري والاقتصادي والسياسي لأوروبا، وانعكاساته على العالمين العربي والإسلامي، ستملأ هذه الثلاثية[2] فراغاً واضحاً في المكتبة التاريخية العربية. وستكون مصدراً مرجعياً للطلبة والهيئات التعليمية الجامعية والباحثين ومحبي التاريخ والقراء العاديين المهتمين بفهم سيرورة عالمنا الحالي وكيف استقر على ما هو عليه. إن

(1) إريك هوْبزْباوْم، **عصر الثورة (أوروبا 1789- 1848)**، ترجمة فايز الصُيّاغ؛ تقديم مصطفى الحمارنة (بيروت: المنظمة العربية للترجمة، 2007).

(2) استكملت «الثلاثية»، فغَدَتْ «رباعية» عام 1994، عندما أصدر هوْبزْباوْم **عصر التطرف: وجيز القرن العشرين، 1914 - 1991** (*The Age of Extremes: The Short Twentieth Century, 1914 - 1991*). وفيه يقدم تحليلاً لما وصفه بالتداعيات والنتائج «الكارثية» التي ترتبت على إخفاق كل من الرأسمالية، وشيوعية الدولة، والحركات القومية، وتقهقر حركة التقدم الاجتماعي والسياسي في النصف الثاني من القرن العشرين.

كثيراً من الأحداث التاريخية والتفاعلات الاقتصادية والاجتماعية التي مر بها العالم في السنين الخمسين الماضية بل والتطورات التقنية والمدارس الفكرية والفنية والثقافية، إنما تعود جذورها إلى تاريخ القرن التاسع عشر.

وإذا كان هذا صحيحاً إلى حد كبير في ما يتعلق بالعالم اليوم فإنه يصدق كذلك على العالم الثالث ـ بما فيه منطقتنا العربية. إن كثيراً من المسارات التاريخية التي مرت بها البلدان العربية، والانعطافات السياسية، والتحولات في البنى الاقتصادية والاجتماعية، ونمو قوى فكرية وثقافات متنوعة، قد يجد جذوره في القرن التاسع عشر. لقد كان ذلك القرن سلسلة من المراحل المتتالية للنظام الرأسمالي الذي ولد في أوروبا ومساعيه إلى أن يشق طريقه ويبسط هيمنته على العالم كله، ويصبح، من ثم، نظاماً اقتصادياً يمد لنفسه جذوراً في أقاصي الأرض غربها وشرقها، وشمالها وجنوبها، ويغزو أكثر المناطق عزلة، ويوحدها على اختلافها وتنوعها في إطار عمليات إنتاج وتبادل رأسمالي، فحلّ بذلك محل النظم الاقتصادية القديمة كافة، واستبدلها بمنظومة جديدة يصر دعاتها على التأكيد بأن هذا التحول غير قابل للتوقف.

لا عجب، إذاً، أن مؤرخاً عالمياً كبيراً مثل إريك هوبزباوم ما زال، منذ عقود، يحتل موقعاً فريداً ومتميزاً بين مؤرخي عصره بفعل تنوع كتاباته وغزارتها وجديتها، وأن يفرد كتاباً خاصاً للربع الثالث من القرن التاسع عشر ويطلق عليه اسم **عصر رأس المال**، ففي أعقاب فشل الثورة التي اجتاحت أوروبا (1847 ـ 1848) جاءت فترة تاريخية اتسمت بالاستقرار، واستمرارية إعادة ترتيب البيت الداخلي وتنظيم علاقات القوى الاجتماعية والاقتصادية والسياسية في أوروبا وغيرها من مناطق العالم، من دون الدخول في أتون حروب أو هزات ثورية شبه شاملة وشبه عالمية. وعلى الرغم من حروب عصفت بمناطق متعددة من العالم بما فيها أوروبا، إلا أن هذه الاضطرابات لم يكن لها طابع الشمولية

مثل تلك الهزات العنيفة قبل فترة الكتاب أو الحروب العالمية التي شهدها وتأثر بها العالم كله في القرن العشرين. ويضع هوبزباوم القارئ أمام تحليل نوعي لحروب مرحلة عصر رأس المال، وبخاصة تلك التي جرت في أوروبا، بأنها حروب ذات طبيعة محدودة، حيث تقوم الدول، وبمرونة عالية، بإعلانها وخوضها، ثم تقوم بإيقافها بالدرجة نفسها من المرونة. وتندرج حروب إيطاليا وحروب بسمارك التوحيدية والأوروبية في هذا الإطار. وعلى الرغم من الاستقرار الذي عاشه العالم بسبب عدم شمولية الصراع، فقد شُنّت حربٌ شاملة وشرسة عمل فيها رأس المال على قدم وساق في توحيد الكرة الأرضية وربطها بعضها ببعض بطريقة لم تتح ولم تتحقق من قبل، حتى في موجات الفتوحات أو الهجرات الكبرى التي شهدها تاريخ العالم، مثل فتوحات الإسكندر الكبير أو الإسلام أو الرومان والمغول وما رافقها من هجرات بشرية كبيرة. إن سيرورة ربط العالم ضمن السيطرة المطلقة لرأس المال لم تقتصر على تحويل السلطة السياسية والاقتصادية والاجتماعية من أيدي جماعة إلى أيدي أطراف وقوى أخرى تدير شؤون أقاليم كانت منعزلة فحسب، بل كانت تحطيم بنى اجتماعية واقتصادية أو تحويلها لتكون في خدمة علاقات إنتاج وتبادل رأسمالية. إن ربط العالم في عصر رأس المال لم يجرِ عبر تجريد حملات عسكرية تضمن استمرارية السيطرة العسكرية لإمبراطورية على أقاليم مترامية، وإنما بربط الأقاليم العالمية المتباعدة بعجلة نظام اقتصادي ستتأثر الفئات الاجتماعية بأي أزمة فيه وبأي انجازات أو منافع يجنيها. ومع التأسيس للنظام العالمي في الربع الثالث من القرن التاسع عشر، أصبحت مناعة أي جزء من العالم لتأثير ما يجري في بقية العالم ضربا من ضروب الوهم، وبخاصة عندما يتعلق الأمر بالتطورات أو الأزمات الاقتصادية وانعكاساتها الاجتماعية والسياسية.

من هنا، لا يصح القول إن هوبزباوم في هذا الكتاب قد قام بالتأريخ للعالم خلال الربع الثالث من ذلك القرن. إن همه ليس

السرد التاريخي الوصفي لأحداث مهمة حدثت هنا وهناك، بل إن الهدف من هذا الكتاب هو التحليل التاريخي لمرحلة سيطر فيها «رأس المال» واخترق أرجاء العالم كافة، في حقبة تاريخية حفلت بالثورات الشاملة والحروب الكبرى التي انتهت بفشل الحركة الثورية في أوروبا واندحار برامجها لتأسيس نظام اقتصادي واجتماعي مختلف. إنها عصر ما بعد الثورة وقبل دخول النظام الرأسمالي أزمته الاقتصادية. وهي تمثل ولادة المرحلة الإمبريالية بمعناها الاقتصادي والاجتماعي والسياسي، التي ترتكز على تأسيس الكارتيلات والتحالفات ما بين رأس المال البنكي ورأس المال الصناعي والتجاري، وعلى نحو موازٍ للتوسع الكبير في النشاط الاستعماري - وهو ما أفرد له هوبزباوم كتابه الثالث **عصر الإمبراطورية**. ولذا فإن هذا الكتاب يرصد وبشكل يأخذ القارئ والباحث إلى دوامة التطورات التي شهدها العالم في إطار سيادة رأس المال وتحقيقه لمشروعه في دخول بقاع الأرض الأكثر استعصاءً، يحدوه في ذلك كله مزيج من التفاؤل - المفرط أحياناً - والمطامح والمطامع الجشعة، واعتقاد الرأسماليين بأن لا شيء سيقف في طريق التطور الرأسمالي وربط العالم بعلاقات إنتاجيه وتبادلية. وهوبزباوم، في تصدّيه لمثل هذه المهمة الصعبة التي تستلزم معرفة موسوعية وعميقة بمجريات الأحداث التاريخية وتطور البنى الاجتماعية في العالم، لم يغفل حتى الدوافع الشخصية والمبادرات التي يمكن أن توصف بأنها متهورة أحياناً لرواد الرأسمالية في قلب الرأسمالية في أوروبا، أو في بقاع العالم الجديد والقديم. ويقدم الكتاب معلومات غنية عن مدى التطور الرأسمالي العالمي، سواء على صعيد قوى الإنتاج أو المبادلات التجارية بين الدول الرأسمالية الرئيسة وبينها وبين مناطق العالم المختلفة. وتعزز هذا التطور بأشواط من التقدم التقني السريع الذي كان سرعان ما يسخّر لخدمة التوسع الرأسمالي، ويساعد قوى رأس المال على أن تدق أبواب الأراضي البكر والأقاليم الأكثر بعداً. وتبدو

ثنائية مشروع رأس المال وتوسعه واضحة في كل فصل من فصول الكتاب: الوصول إلى المواد الخام، وفتح أسواق جديدة لمنتجات العالم الصناعي.

إن التاريخ، كما يؤكد هوبزباوم، لا يستمزج المؤرخين حول ما يناسبهم من مراحل يحددون بها مدوّناتهم وتحليلاتهم للماضي، واستقراءهم للحاضر، واستشفافهم للمستقبل، مع أن بعضهم لا يدرك ذلك دائماً. ومع أن إعادة كتابة تاريخ مرحلة سيادة رأس المال تتركز على تاريخ المناطق التي شهدت ولادة الرأسمالية، أي أوروبا الغربية والشمالية ومن ثَمَّ الولايات المتحدة الأمريكية، فإن هوبزباوم بقى أميناً على إطاره الفكري والأيديولوجي الرافض للتمحور حول (الارتكازية)، التي تعتبر أوروبا هي الأساس لتاريخ العالم في العصر الحديث، أو كما يدعي بعض المؤرخين، أن التاريخ الحديث للعالم هو تاريخ الغرب، ضارباً عرض الحائط بتاريخ المعمورة كلها. ولذلك، يقدم الكتاب ربطاً عميقاً وتحليلاً للتحولات التاريخية والقوى السياسية والاجتماعية في مناطق العالم المختلفة من اليابان والصين والهند شرقاً إلى المنطقة العربية وأفريقيا، إضافة إلى رصد لأمريكا اللاتينية. ويستخدم المؤلف المعرفة الموسوعية التي يتحلّى بها ليقدم التفاصيل عن تحالفات القوى الاجتماعية، والمشروعات الإصلاحية، ومراحل المقاومة والمهادنة، وربما الاستسلام لهجمة رأس المال واقتحامه لأصقاع جغرافية واقتصادية وثقافية جديدة في العالم.

إن **عصر رأس المال** ليس محاكاة لمدرسة التاريخ السردي الوصفي التي سادت حقباً زمنية طويلة في العالم كله. كما أنه ليس متابعة للتغيرات في الهرم السياسي، وفي رصد الحروب، وتبدل الدول والأدوار المضخمة للزعماء في صناعة التاريخ. إنه ينتمي إلى المدرسة التاريخية التي تعنى برصد التحولات الاقتصادية والاجتماعية في المكان والزمان وانعكاسها على البنى السياسية وصراعات الفئات الاجتماعية

في بقع جغرافية محددة، ومضاعفاتها في العالم أجمع. إنه تحليل عميق للتحولات في البنى الاجتماعية والاقتصادية، ولظهور قوى سياسية واجتماعية جديدة تتفاعل مع تلك القديمة في إطار نظام اقتصادي جديد في نشاطه ليكون هو المسيطر والناظم لكافة قوى وعلاقات الإنتاج. وإعادة تركيب الحدث التاريخي في هذا السياق، لم تقد هوبزباوم، وهو الماركسي، إلى الوقوع في شرك التفسير الاقتصادي الفج (الاقتصادَويّ) لتحولات الربع الثالث من القرن التاسع عشر، فمع إعطائه لقوى الإنتاج وعلاقات الإنتاج دورها في صياغة تاريخ تلك الفترة، فإنه لم يغفل دور العوامل الأخرى في توجيه أو تحييد المسارات التاريخية. وعلى الرغم من الإطار الجدلي العام الذي تدور فيه تحليلات هوبزباوم، فإنه يرفض رد التحولات والأحداث التاريخية إلى المكوِّن الاقتصادي بوصفه العامل الوحيد لحركة التاريخ. بل إنه، في سياق نقاشه لبعض حروب تلك الحقبة التاريخية، يرفض بعض المقولات الرائجة عن أن أساس تلك الصراعات اقتصادية فقط. وينطبق ذلك على حروب بروسيا والحرب الأهلية الأمريكية والنزاعات مع الصين.

كما أنه يتقصى أبعاد الثقافات السائدة، بما فيها مجالات الإبداع الأدبي والفني، والتوترات التي حكمت مجتمعات أوروبية وغير أوروبية بين القيم الأخلاقية للرأسمالية الصاعدة من ناحية، والمنظومة القيمية الموروثة المرتبطة بالتكافل بين الأفراد. ويقدم تحليلاً ووصفاً غير مسبوقين للتحولات الثقافية لفئات اجتماعية بعينها، أو للمجتمعات بصفة عامة، فينتقل من التحولات السياسية والاقتصادية إلى إقحام للفن ودوره، وسياحة الطبقات الوسطى، وثقافة الجنس في الإطار البيوريتاني (الطهراني)، وثقافة الطبقات العمالية.

ويتطرق هوبزباوم إلى منظومة العوامل التي أدّت دوراً أساسياً في صياغة تاريخ تلك المرحلة مثل عوامل بناء الدولة/ الأمة التي يميزها بشكل ذكي عن العامل القومي، فهو يخرج تلك الوحدتين من الإطار

التاريخي الحتمي إلى التاريخي التفاعلي، موضحاً التوافقات والمفارقات ما بين هذين العاملين. ويجد القارئ العربي الكثير من التحليلات العميقة لمساريْ الوحدة الألمانية والإيطالية، خصوصًا أن هذين المثلين قد استخدما بكثرة من قبل النخب المثقفة والقومية في المنطقة العربية خلال القرن العشرين.

وعلى الدرجة نفسها من الأهمية، يقدم هوبزباوم تحليلاً ممتعاً ومرناً لليبرالية باعتبارها قوة سياسية ضاغطة أدّت دوراً أساسياً في صياغة تاريخ الحقبة، وفي التأسيس أيضاً لأنظمة سياسية ديمقراطية لا زلنا نراها إلى اليوم. ويتطرق العرض إلى دخول القوى السياسية، ومنها المحافظة، إلى حلبة الصراع السياسي مع قوى ثورية وديمقراطية وليبرالية، وتحقيقها لإنجازات ديمقراطية مهمة ـ كان بعضها في صلب برنامج الليبراليين، لتحول دون وصول الليبراليين والثوريين إلى سدة الحكم. إن هاجس استمرارية الاستقرار وهامش المناورة الكبيرة لبعض السياسيين في غرب أوروبا قد ساهم في إحداث تحولات ديمقراطية كبيرة مهدت للمزيد من التغيرات في الحقب التاريخية اللاحقة. ولعل في هذا فائدة للمواطن العربي في تجربته الحالية للتحول الديمقراطي والإصلاح السياسي.

ولعل من أكثر موضوعات الكتاب إثارة لاهتمام الباحث العربي العلاقة التي تأسست في هذه الحقبة الزمنية بين «مكان ولادة الرأسمالية الأصلي» (أوروبا) والعالم الذي اخترقته وتغلغلت فيه (أي باقي العالم) أو ـ بحسب مفردات الكاتب المتسقة مع الفترة التاريخية آنذاك ـ الدول النامية والدول الأقل نمواً. إن هذه العلاقة تمثل إحدى الإشكالات التاريخية التي ما زالت حتى اليوم تلقي بظلالها على طبيعة العلاقة بين ما يسمى بالعالم الثالث والعالم الرأسمالي المتقدم، أو تعيد إنتاج هذه العلاقة المشوهة بين العالمين، ففي هذا الإطار، يوضح الكتاب الطابع الشمولي في إستراتيجية اختراق رأس المال لمناطق العالم كافة؛ فلا فرق بين أمريكا اللاتينية وأفريقيا والمنطقة العربية والهند والصين. بل إن ردود

الفعل التي أطلقتها نخب هذه المجتمعات وشعوبها كانت على قدر كبير من التشابه، فالانقسام بين الرافضين لدخول رأس المال أو «الغَربَنة» من جهة، والمحابين من جهة ثانية، كان ظاهراً ممتداً في مجتمعات ما يسمى اليوم دول العالم الثالث.

وضمن هذا الانقسام بين المعارض والمحابي، كان هنالك سؤال يتكرر على ألسنة النخب على اختلاف تكوينها الأيديولوجي: كيف يمكن أن يتحقق التطور والتنمية التي تحققت في الغرب الأوروبي؟ وقد برزت صياغات وتأطيرات فكرية متعددة في مناطق العالم المختلفة. ويستعرض المؤلف تجارب القوى الاجتماعية الجديدة التي دخلت في تحالفات مع قوى قديمة، وأثرت في المسارات التاريخية لأمريكا اللاتينية والهند والصين.

ويتطرق الكتاب بتحليل موجز وعميق في الوقت نفسه إلى ردود الفعل المتباينة في المنطقة العربية ومصر والجزائر اللتين كانتا أول المجتمعات العربية التي وقعت في نطاق اختراق رأس المال الغربي[3]. ويخلص هوبزباوم إلى أن دعوة جمال الدين الأفغاني لإحياء الإسلام السني، هي أيضاً لم تكن مرتكزة على العودة إلى الماضي، وإنما إلى استحداث عوامل ثقافية ودينية وفكرية ذات وزن في المنطقة العربية ولدى المسلمين لخلق مجتمعات جديدة ومتطورة ومساوية للدول الغربية النامية. وهي بذلك تقع في سياق ردود الفعل في أمريكا اللاتينية أو الهند أو الصين نفسه. في معرض تحليل هذه التيارات يبقى هوبزباوم أميناً لمنهجيته التاريخية في إعادة تركيب الحدث التاريخي كما هو، بعيداً عن إسقاط التحليل الأيديولوجي الراهن أو الحدث التاريخي الحاضر عليه، عندما ينبه إلى أن مواقف من كانوا يدعون للغَرْبَنة في ذلك

---

(3) انظر التصدير التحليلي المسهب الذي وضعه هوبزباوم لهذه «الثلاثية»، خصوصاً للطبعة العربية، ونشر كمقدمة لـ **عصر الثورة**.

الوقت ينبغي ألا تُقرأ أو تُفسر بحسب معايير حركات التحرر الوطني، وهي سمة من سمات المراحل التاريخية اللاحقة لعصر رأس المال.

ويوضح هوبزباوم بأن الثمن الذي دفعته المجتمعات غير الغربية لاختراقها من قبل رأس المال من خلال تدمير بناها الاجتماعية القديمة وخلق بنى اقتصادية واجتماعية لخدمة متطلبات النظام الرأسمالي العالمي كان باهظاً، لا سيما أن أملها في إعادة صياغة مجتمعاتها ودولها على شاكلة الغرب المتقدم لم يتحقق. وقد اشتركت كل دول العالم الثالث بهذه النهاية التراجيدية مع الاستثناء الوحيد، وهو اليابان. ويعرّج هوبزباوم هنا على السؤال: «لماذا اليابان»؟ وهو أحد الإشكالات الحاضرة في ذهن المؤرخ أو المثقف العربي، وبخاصة عندما يعاد طرح السؤال بصيغة أخرى: «لماذا اليابان وليس مصر»؟ ويقدم الكتاب ربطاً محكماً لعوامل ربما ساعدت اليابان التي استقبلت الرأسمالية من الخارج ولم تولد فيها، إلى أن دخلت في عداد الدول الرأسمالية ولم تنزلق إلى مرتبة الرأسمالية التابعة. ويتحدث في هذا السياق عن عوامل داخلية ذات علاقة بالبنية الاقتصادية والاجتماعية القديمة في اليابان الأقرب في طبيعتها إلى الإقطاع الأوروبي من غيرها من دول العالم الأخرى. ويضاف إلى ذلك التحولات الاجتماعية والاقتصادية التي مرت بها اليابان قبيل استهدافها من قبل رأس المال، علاوة على بعدها النسبي عن مركز رأس المال، وفقرها النسبي كذلك، مقارنةً بمصر ذات الموقع الإستراتيجي والموارد الطبيعية الوفيرة، ووجودها على مرمى البصر من مكان ميلاد الرأسمالية في أوروبا.

ويرى إريك هوبزباوم أن «الكساد الكبير» الذي اجتاح أوروبا في أوائل السبعينيات، بعد اندحار كومونة باريس الاشتراكية، والغزو البروسّي لفرنسا، وانهيار الإمبراطورية الثانية، وتنحي نابليون الثالث، إنما كان مجرد فاصل بين عصرين: عصر التوسع الاقتصادي، والتقدم العلمي والتقني، ومرحلة الربع الأخير من ذلك القرن الذي وضع

أوروبا والعالم على أعتاب القرن العشرين. وخلافاً للكساد الذي وقع في ثلاثينيات القرن العشرين، بلغت المصاعب الاقتصادية نفسها حدّاً من التعقيد والحدة، دفع المؤرخين إلى الشك في ما إذا كان لاستخدام مصطلح «الكساد» ما يبرره لوصف السنين العشرين التي أعقبت الانتهاء من هذه المرحلة. وهم يجانبون الصواب في ذلك، غير أن في شكوكهم ما يكفي لتحذيرنا من الغلو والإثارة في معالجة هذه المرحلة. إن بنية العالم الرأسمالي في منتصف القرن التاسع عشر لم تتفسخ لا اقتصادياً ولا سياسياً، فقد دخل ذلك العالم طوراً جديداً، ولكن حتى في شكل الليبرالية المعدل بالتدريج، فإن مجالات التوسع كانت مفتوحة. وكان الوضع مختلفاً عما هو عليه في البلدان الفقيرة المقموعة المتخلفة الناقصة النمو، أو في تلك الواقعة، مثل روسيا، بين عالم المنتصرين وعالم الضحايا، ففي تلك البلدان كان «الكساد الكبير» استهلالاً لثورة وشيكة. ولكن عالم البرجوازية الظافرة بدا محتفظاً بصلابته، وربما كان أقل ثقة بنفسه مما كان من قبل؛ ومع ذلك، كانت الآمال العريضة التي راودت أغلب النخب والقوى السياسية والاجتماعية على حد سواء هي أن القرن الجديد سيكون أكثر عظمة ونجاحاً من القرن التاسع عشر. غير أن المؤشرات لم تكن توحي بالكثير من الثقة.

إن **عصر رأس المال**، الذي نشر لأول مرة عام 1975، وتوالت طبعاته تِباعاً خلال العقود الثلاثة الماضية، ما زال ذا أهمية محورية بالغة؛ ذلك أن الكثير من الأسئلة والإشكالات والأحداث التاريخية التي يتعرض لها ما زالت مدار نقاش في عالمنا العربي. وقد يساهم نشر هذا الكتاب باللغة العربية في إطلاق نقاش وحوار جدي حول بعض الموضوعات المهمة عالمياً وذات العلاقة بمنطقتنا. كما أنه سيكون مرجعاً أساسياً للكثير من المهتمين بتلك الفترة، وأولئك المتعطشين لإجابات حول المساقات التاريخية التي مرت بها المنطقة العربية في الربع الثالث من القرن التاسع عشر، وأسست لمراحل تاريخية لاحقة. يضاف إلى ذلك، أن هذا الكتاب، شأنه شأن مؤلّفات إريك هوبزْباوم الأخرى، يطرح

بمنظاره الشمولي الموضوعي المعمق نموذجاً متقدماً من أساليب الدراسة التحليلية لكتابة التاريخ، وربما لفهمه، بوصفه، في جوهره، سيرورة حضارية دينامية تتكامل فيها المكونات الاقتصادية، والسياسية، والاجتماعية، والثقافية.

د. محمد المصري

مركز الدراسات الاستراتيجية ـ الجامعة الأردنية



تصدير

على الرغم من أن المقصود من هذا الكتاب أن يكون له كيان مستقل بمفرده، شأنه شأن المجلدات الأخرى من سلسلة «تاريخ الحضارات» التي يمثل إحدى حلقاتها، فإن العمل الذي يغطّي المرحلة السابقة على المرحلة التي يتناولها هذا الكتاب قد وضعه المؤلف نفسه[1]. من هنا، فإن الذين يقرأون **عصر رأس المال** ربما يكونون قد اطلعوا على **عصر الثورة، أوروبا 1789 ـ 1848** أو لم يطلعوا. وأرجو أن تقبل تلك الفئة الأولى اعتذاري؛ لأنني أكرر، هنا وهناك، مادةً هم على علم بها، لأزود الثانية بالمعلومات الخلفية الضرورية. وقد حاولت التقليل من هذه الازدواجية إلى أدنى حد ممكن وجعلها مستساغة لدى القارئ، فوزعتها في تضاعيف النص بأكمله. وآمل أن يقرأ هذا الكتاب باعتباره وحدة مستقلة. بل إن قراءته قد لا تتطلب أكثر من ثقافة عامة مناسبة؛ لأنه موجه إلى القارئ غير الخبير، فإذا ما أراد المؤرخون أن يبرروا الموارد التي يكرسها المجتمع لموضوعهم، على تواضعها، فإن عليهم أن يقصروا ما يكتبونه على المؤرخين الآخرين فحسب. غير أن الإلمام الأولي البسيط بالتاريخ الأوروبي سيكون ميزة إضافية. وأحسب أن بوسع القارئ عند الحاجة أن يتدبر الأمر من دون أن يكون على علم سابق بسقوط الباستيل

(1) Eric John Hobsbawm, *The Age of Revolution: Europe 1789-1848* (London: Weidenfeld and Nicolson, 1962).

أو بالحروب النابليونية، إلا أن مثل هذه المعرفة ستكون ذات نماء.

إن الفترة التي يعالجها هذا الكتاب قصيرة نسبياً، غير أنها تتميز باتساع رقعتها الجغرافية. ولا ضير في الكتابة عن العالم بين الأعوام 1789 و1848، وعن بريطانيا وفرنسا تحديداً. غير أن من العبث كتابة تاريخ أوروبا فحسب من دون أن نولي اهتماماً خاصاً بالقارات الأخرى؛ ذلك أن المحور الأساسي في فترة ما بعد عام 1848 هو امتداد الاقتصاد الرأسمالي ليشمل العالم بأسره، ما يستحيل معه كتابة تاريخ أوروبي صرف. وتضم معالجتي لهذا الموضوع ثلاثة أقسام. إن ثورات 1848 تمثل بداية تمهيدية لقسم يتناول التطورات الأساسية في تلك الفترة. وذلك ما أتناوله بالنقاش على صعيد القارة الأوروبية، ومن منظار عالمي عند الضرورة، لا بوصفه سلسلة مستقلة ذاتياً من التواريخ «الوطنية». وتقسم الفصول بحسب الموضوعات، لا وفق التسلسل الزمني، مع أن بالإمكان أن نتبين، على نحو جليّ، الملامح الأساسية للفترات الفرعية التي تتمثل، على العموم، بخمسينيات القرن التاسع عشر الهادئة ولكن التوسعية، وستينيات ذلك القرن الأكثر فوراناً، والازدهار ثم الكساد في أوائل السبعينيات. أما القسم الثالث من هذا الكتاب فيتألف من قطاعات عرضية متداخلة من العناصر الاقتصادية، والمجتمعية، والثقافية التي تميز بها الربع الثالث من القرن التاسع عشر.

وليس بوسعي أن أدّعي لنفسي الخبرة بغير جانب ضئيل من المادة الهائلة التي يعالجها هذا الكتاب، فقد اعتمدت بصورة تكاد تكون كاملة على معلومات استخدمت أو أعيد استخدامها أكثر من مرة من قبل، وذلك أمر لا مناص منه، فقد توافرت عن القرن التاسع عشر أكداس بالغة الفخامة من المعلومات تتزايد حجماً وارتفاعاً سنة بعد سنة وتراكمت المطبوعات المتخصصة بهذا الجانب أو ذاك لتصل عنان السماء. وكلما اتسعت وتعددت اهتمامات المؤرخين لتشمل، من الوجهة العملية، كل جانب من جوانب الحياة التي تهم المرء في أواخر القرن

العشرين، تعاظمت كمية المعلومات التي يتعذر استيعابها على أكثر العلماء الموسوعيين قدرةً وألمعية. وحتى عندما يكون العالم أو العالمة على معرفة تامة بها، فإنها، في سياق توليفة واسعة متعددة العناصر، تختزل في أغلب الأحيان في فقرة أو اثنتين، أو في سطر واحد، أو إشارة عابرة، بل إنها قد تتعرض مع الأسف للحذف. ولا بد من ثمَّ للمرء أن يعتمد بصورة روتينية اعتماداً مطرداً على أعمال الآخرين.

ومن المتعذر، لسوء الحظ، اتّباع النهج الذي درج عليه الدارسون وحرصوا عليه كل الحرص بالإقرار بمصادرهم، وبفضل الآخرين عليهم بصورة خاصة، بحيث لا يستطيع إلا المؤلفون الأصليون الادعاء بملكية ما توصلوا إليه من نتائج غدت في متناول الجميع مجاناً. وأشك أولاً في أن بوسعي أن أتقصى الخواطر والأفكار كلها التي استعرتها بكل حرية، وأذكر مظانّها الأصلية في الكتب، والمقالات، واللقاءات والمناقشات. ولا يسعني في هذا المقام إلا أن أطلب العذر من جميع الذين نهبت أفكارهم، عن وعي أو عن غير وعي، على فظاظتي هذه. ومن ناحية ثانية، فإنني حتى لو حاولت ذلك، سأثقل كاهل الكتاب بأدوات تعليمية غير مناسبة، فهو لا يهدف أساساً إلى تلخيص حقائق معروفة - أي إلى إحالة القراء إلى معالجات تفصيلية لمختلف الموضوعات، بل يرمي إلى جمع هذه الحقائق في توليفة تاريخية عامة؛ أي إلى «فهم» الربع الأخير من القرن التاسع عشر، وتقصّي جذور العالم الراهن في تلك الفترة بقدر ما يسمح به التفكير العقلاني. غير أنني أرفقت في الصفحات الأخيرة من الكتاب ثبتاً عاماً بقراءات إضافية يضم بعض الكتب التي وجدتها أكثر نفعاً، وهي التي أقر لها أيضاً بالفضل في وضع هذا الكتاب.

وقد قصرت الإشارات والإحالات بصورة تكاد تكون حصرية على المصادر التي أخذت منها المقتبسات، والجداول الإحصائية، وبعض الأرقام الأخرى، وكذلك بعض العبارات والمقولات المثيرة للجدل

وللدهشة. كما أنني لم أذكر بالتحديد مصادر الأرقام المتناثرة التي استقيتها من مراجع قياسية، أو من مصادر لا يمكن الاستغناء عنها مثل **قاموس الإحصاء** (*Dictionary of Statistics*) الذي وضعه مالهول (Mulhall). أما الإشارات للأعمال الأدبية، مثل الروايات الروسية، التي صدرت في طبعات منوعة، فتدل على عناوينها وحسب. ذلك أن من الهيِّن تحديد الطبعة المحددة التي استخدمها المؤلف، وقد لا تكون متوفرة لدى القارئ. وعند الرجوع إلى كتابات ماركس وإنجلز (K. Marx and F. Engels) (1798 ـ 1860)، وهما من المعلقِين الأساسيين المعاصرين لتلك الفترة، فإننا نشير إلى العنوان المألوف للعمل أو إلى تاريخ الرسالة، والمجلد والصفحة في الطبعة المعهودة (ك. ماركس وف. إنجلز، **الأعمال** (*Werke*) [برلين الشرقية 1956 ـ 1971]، ويشار إليها في هذا الكتاب باسم **الأعمال**). وقد أُعطيت الأماكن والمواقع أسماءها كما هي بالإنجليزية حيثما وجدت، أو، على العموم، كما وردت في المطبوعات التي صدرت آنذاك. ولا يشي ذلك بأي نزعة إلى التحيّز القومي بأي شكل من الأشكال. وقد يضاف الاسم الحديث إلى القديم بين قوسين، كما في لايباخ (لوبليانا).

لقد تكرّم سيغورد زيناو (Sigurd Zienau) وفرانسيس هاسكل (Francis Haskell) بتصحيح فصول هذا الكتاب المتعلقة بالعلوم والآداب، وبتصحيح بعض أخطائي الأخرى؛ وأجاب تشارلز كيروين عن أسئلتي المتعلقة بالصين. ولا يتحمل أحد غيري مسؤولية ما أرتكبه من أخطاء أو هفوات. وقد قدم لي و. ر. روجرز (W. R. Rodgers)، وكارمن كلودين (Carmen Claudin)، وماريا مويزا (Maria Moisá) مساعدة ضخمة بصفتهما باحثين مساعدين في أوقات مختلفة. وأعانني أندرو هوبزباوم وجوليا هوبزباوم، وكذلك جوليا براون (Julia Brown) على اختيار الرسوم الإيضاحية. كما أنني مدين بالشكر لمحررة عملي هذا، سوزان لودن.

إ. ج. هـ.

المقدمة

في ستينيات القرن التاسع عشر، دخلت القاموس الاقتصادي والسياسي كلمة جديدة: «الرأسمالية»[1] (Capitalism). من هنا، يبدو مستغرباً أن تعطي هذا الكتاب عنوان **رأس المال** الذي يذكرنا بالعمل الرئيسي لناقد الرأسمالية الأشد قسوة، وهو كارل ماركس في مؤلَّفه المعروف **رأس المال** (*Das Kapital*) (1867) الذي نشر خلال تلك الفترة، ذلك أن انتصار الرأسمالية عالمياً أصبح هو موضوع التاريخ الأساسي في العقود التي تلت عام 1848، وكان انتصاراً لمجتمع يعتقد أن التوسع الاقتصادي يكمن في المشروع الاقتصادي التنافسي الخاص، وفي النجاح بابتياع أي شيء في أرخص سوق (بما في ذلك العمل)، ثم بيعه بالسعر الأعلى. وكان يُعتقد أن اقتصاداً كهذا، قائماً على هذه الأسس، ومرتكزاً بالطبع على قواعد راسخة هي البورجوازيين الذين يجمعون بين النشاط، والجدارة، والذكاء، لن يقتصر على خلق عالم تتوزع فيه الوفرة المادية فحسب، بل سيولّد حركة متزايدة للتنوير،

(1) قد يعود استعمالها إلى ما قبل عام 1848، كما أشرنا في **عصر الثورة** (*The Age of Revolution*) (المقدمة)، غير أن الاستقصاء التفصيلي يدل على أن هذه الكلمة قلما وردت قبل عام 1849، أو انتشرت بصورة واسعة قبل ستينيات ذلك القرن. انظر: Jean Dubois, *Le Vocabulaire politique et social en France de 1869 à 1872, à travers les oeuvres des écrivains, les revues et les journaux*, thèse. Lettres. Paris. 1963 (Paris: Larousse, 1962).

والتفكير العقلي، والفرص الإنسانية، وازدهاراً في العلوم والآداب؛ أي، باختصار، عالماً يتصف بالتقدم المادي والأخلاقي المتسارع المطّرد. وسيصار إلى إزالة البقية الباقية من العوائق التي تقف حجر عثرة في سبيل التنمية السلسة للمشروع الخاص. وستتطور المؤسسات في العالم، بل في بقاع العالم التي لم تكبلها التقاليد والخرافات، أو تلك التي شاء حظها العاثر أن لا يكون أهلها من ذوي البشرة البيضاء (وتحديداً من منطقة أواسط أوروبا وشمال غربها)، وستتحول هذه المؤسسات إلى ما يماثل النموذج العالمي لأمة/ دولة تقوم على مساحة محددة من الأرض. وسيكون لها دستور يضمن حق المِلْكية والحقوق المدنية، ومجالس تمثيلية منتخبة تخضع الحكومات للمساءلة أمامها، وستمارس فيها، حيثما كان ذلك مناسباً، المشاركة السياسية من جانب عامة الناس، ولكن في الحدود التي تضمن استمرار النظام الاجتماعي البورجوازي وتحول دون تقويضه. إن هذا الكتاب لا يهدف إلى تقصي المراحل الأولى لنشوء هذا المجتمع، ويكفي في هذا المقام أن نتذكر أن هذا المجتمع حقق اختراقه التاريخي، إذا جاز التعبير، على الجبهات الاقتصادية والسياسية الأيديولوجية في العقود الستة التي سبقت عام 1848. لقد هيمنت على الفترة الممتدة بين الأعوام 1789 و1848 ثورة مزدوجة (وقد ناقشت ذلك في مؤلَّف سابق[2]، (وسأحيل القارئ إلى ذلك الكتاب بين الفينة والفينة). وقد تمثل أحد جانبي هذه الثورة في التحولات الصناعية التي انطلقت بداياتها الرائدة في بريطانيا وظلت، على العموم، داخل حدودها. وتجسد الجانب الآخر في التحولات السياسية التي ارتبطت بفرنسا، وظلت أيضاً على العموم داخل حدودها. وكانت هذه التحولات انتصاراً لمجتمع جديد، إلا أن تحول هذا المجتمع إلى انتصار للرأسمالية الليبرالية، أو ما دعاه أحد المؤرخين الفرنسيين «البورجوازية

---

(2) انظر التصدير في الصفحات الأولى من: Eric John Hobsbawm, *The Age of Revolution: Europe 1789-1848* (London: Weidenfeld and Nicolson, 1962).

الظافرة» (The Conquering Bourgeois)، كان في نظر معاصري تلك الفترة أبعد احتمالاً مما هو في نظرنا اليوم. وخلف الدعاة السياسيين البورجوازيين، اصطفت الجماهير التي كانت قد عقدت العزم على تحويل الثورات الليبرالية المعتدلة إلى ثورات اجتماعية. وتحت قيادة طبقة أصحاب المشروعات الرأسمالية وحولهم، كانت جماهير «الكادحين الفقراء» الساخطة المهمشة تتململ وتتهيأ للانتفاض. وكانت الثلاثينيات والأربعينيات من القرن التاسع عشر عقوداً مأزومة لم يستطع التكهن بنتائجها إلا المتفائلون.

على الرغم من ذلك، فإن ازدواجية الثورة الممتدة بين عام 1789 ـ 1848 تضفي على تاريخ تلك الفترة طابع الوحدة والتوازن. ومن السهل، على نحو ما، أن نكتب عنها ونقرأ عنها؛ لأن لها، على ما يبدو، موضوعاً واضحاً وشكلاً واضحاً، كما أن تُخومها الزمنية محددة بوضوح ولا يحق لنا أن نتوقع أكثر منها في ما يتعلق بشؤون البشر، ففي ثورة 1848، التي نستهل بها هذا المجلَّد، انهار التوازن الذي شهدنا بداياته من قبل، كما تغير الشكل. وتقهقرت الثورة السياسية، وتقدمت الثورة الصناعية. لقد كانت سنة ألف وثمانمئة وثمانٍ وأربعين، وهي «ربيع الشعوب الشهير» هي الثورة الأوروبية الأولى والأخيرة، بالمعنى الحرفي للكلمة (تقريباً)، وكانت التحقق المؤقت لأحلام اليسار، ولكوابيس اليمين، والإطاحة المتزامنة تقريباً بأنظمة الحكم القديمة في أغلب القارة الأوروبية غرب الإمبراطوريتين الروسية والتركية، من كوبنهاغن إلى باليرمو، ومن براسوف إلى برشلونة. كان ذلك متوقعاً، وقد سبق التكهّن به. وبدا أن ذلك تتويج ونتيجة منطقية لحقبة الثورة الثنائية المزدوجة.

بيد أن تلك الثورة منيت بالفشل، بصورة كلية، وسريعة، وكذلك بصورة مؤكدة ـ مع أن اللاجئين السياسيين لم يدركوا ذلك لسنوات عدة. ولم يعد ثمة فرصة لقيام الثورة الاجتماعية الشاملة المأمولة قبل عام 1848 في دول العالم «المتقدمة». وعوضاً عن ذلك، قيّض لمركز الثقل

لهذه الحركات الاجتماعية الثورية، ومن ثم للأنظمة الاشتراكية والشيوعية في القرن العشرين، أن يكون في البقاع الهامشية المتخلفة، وذلك على الرغم من أن الحركات من هذا النوع كانت في الفترة التي يعالجها هذا الكتاب عَرَضية عتيقة «متدنية النمو». وقدم توسع الاقتصاد الرأسمالي العالمي المفاجئ، العريض الذي لا تحده حدود في الظاهر، بدائل في الأقطار «المتقدمة». لقد ابتلعت الثورة الصناعية (البريطانية) الثورة السياسية (الفرنسية).

من هنا، فإن تاريخ تلك الفترة مقلوب رأساً على عقب، فهو، أساساً، تاريخ التقدم الهائل للاقتصاد العالمي للرأسمالية الصناعية، والنظام الاجتماعي الذي يمثله، وللأفكار والمعتقدات التي ظهر أنها تشرعنُهُ وتصادق عليه: في ميادين الفكر، والعلم، والتقدم، والليبرالية. إنها حقبة البورجوازية الظافرة، مع أن البورجوازية الأوروبية ترددت في الالتزام بالحكم السياسي العام. وإلى هذا الحد، وربما إلى هذا الحد فحسب، فإن عصر الثورة لم يكن قد لفظ أنفاسه الأخيرة بعد، فقد ارتعبت الطبقات الوسطى في أوروبا، وظل يساورها الرعب من الشعب: إذ كان من المعتقد أن «الديمقراطية» ما هي إلا خطوة مؤكدة لِـ «الاشتراكية» القادمة سريعاً لا محالة. وكان الرجال الذين أمسكوا بزمام الأمور رسمياً في النظام البورجوازي الظافر، في أزهى مراحل انتصاره، جماعةً من نبلاء الأرياف الرجعيين في بروسيا، ونسخة مصطنعةً مزيفة لإمبراطورٍ في فرنسا، وسلسلة متعاقبة من المُلاّك الأرستقراطيين في بريطانيا. وكان الخوف من الثورة حقيقياً، والشعور بعدم الأمان الذي أثارته عميقاً. وعند نهاية الفترة التي نعالجها، أسفر مثال واحد للثورة في دولة متقدمة، وهو انتفاضة قصيرة الأمد ومحلية تقريباً في باريس، عن وقوع حمام دم أعظم مما شهدته أحداث 1848 كلها، وأدى إلى موجة من المناوشات الدبلوماسية المتشنجة. لكن حكام الدول المتقدمة في أوروبا بدأوا بعد بعض التردد يوقنون في تلك الآونة أن «الديمقراطية»؛ أي البرلمان الدستوري الذي يعتمد على الاقتراع

العريض، كان أمراً لا مناص منه، وأنه قد يكون أمراً مزعجاً، ولكنه لا يلحق الضرر من الوجهة السياسية. وكان حكام الولايات المتحدة قد أنجزوا هذا الاكتشاف منذ أمد بعيد.

إن السنين الممتدة بين عام 1848 وأواسط السبعينيات من القرن التاسع عشر ليست، من ثم، من الفترات التي تلهب خيال القارئ الذي تستهويه المشاهد الدرامية والبطولية بالمعنى التقليدي للكلمة. ذلك أن حروب هذه الفترة ـ التي شهدت معارك حربية أكثر عدداً مما شهدته السنون الثلاثون السابقة، والسنون الأربعون اللاحقة، كانت إما عملياتٍ قصيرةً يحسمها التفوق التقاني والتنظيمي، مثل أكثر الحملات الأوروبية في ما وراء البحار، والمعارك السريعة الحاسمة التي قامت على أساسها الإمبراطورية الجرمانية بين عامي 1846 ـ 1871؛ أو مذابح اعتباطية لم تدَّعِ شرف ارتكابها حتى أكثر الأطراف المتحاربة وطنيةً، مثل حرب القرم بين عامي 1854 ـ 1856. وكانت أعظم الحروب في ذلك العهد، هي الحرب الأهلية الأمريكية، قد تكللت بالنصر في التحليل الأخير نظراً لثقل القدرة الاقتصادية والموارد المتفوقة. وكان للجنوب الخاسر جيش أفضل، وجنرالات أفضل. وقد برزت خلال تلك الفترة لحظات رومانطيقية. تجلت فيها، على ندرتها، مشاهد البطولة الباهرة، ومنها صورة غاريبالدي (Garibaldi) بخصلات شعره المنسابة وقميصه الأحمر. كما لم تكن ثمة عناصر درامية في الحياة السياسية حيث حُدِّدت معايير النجاح، وفق تعريف والتر بيجهوت (Walter Bagehot)، بأنها حيازة «آراء عادية، وقدرات غير عادية». و كان نابليون الثالث (Napoleon III) يحس بالضيق لدى ارتدائه معطف عمه العظيم نابليون الأول. كما كان لنكولن (Lincoln) وبسمارك (Bismarck)، اللذان استفادت صورتهما العامة من تجاعيد الوجه وجمال الأسلوب النثري لدى كل منهما، رجليْن عظيمين بالفعل، غير أن إنجازاتهما الفعلية كانت نتيجة مواهبهما بصفتهما سياسييْن ودبلوماسييْن، شأنهما شأن كافور في إيطاليا.

تجلت أكثر العناصر الدرامية في تلك الفترة في المجالين الاقتصادي والتقاني في: حديد يصب ويتدفق بملايين الأطنان إلى أرجاء العالم، ويتلوى في أشرطة من السكة الحديدية عبر القارة الأوروبية، والكوابل التي تمتد تحت الماء عبر المحيط الأطلسي، وحفر قناة السويس، وقيام مدن كبرى، مثل شيكاغو، تنبت في التربة العذراء في الغرب الأوسط الأمريكي، وموجات ضخمة من المهاجرين، لقد كانت هي دراما السطوة الأوروبية والأمريكية وقد جثا العالم عند أقدامها. غير أن الذين تولوا استغلال هذا العالم المقهور كانوا، عدا قلة قليلة من المغامرين والرواد في المناطق النائية، رجالاً رصينين، يرتدون ملابس وقورة، ويستدعون الاحترام في الوقت الذين يعرضون فيه مصانع إنتاج الغاز، وخطوط السكة الحديد، والقروض، مقرونةً بمشاعر التفوق العرفي.

كانت هذه هي دراما التقدم، الكلمة المفتاح في ذلك العصر؛ التقدم الكاسح، المستنير، الواثق من نفسه، الراضي عن نفسه، وفوق هذا وذاك، الحتميّ. ولم يكن بين ذوي السلطة والنفوذ، وفي أي موقع أو سياق في العالم الغربي من يستطيع حينئذ أن يصده أو يقف في وجهه. ولم يستطع غير قلة من المفكرين، وربما عدد أكبر من ذلك بقليل من النقاد المتبصرين أن يتنبأوا بأن هذا التقدم الحتمي سيولّد عالماً مختلفاً كل الاختلاف بل مغايراً تماماً للعالم الذي كان يبدو أنه سيؤدي إليه، ولم يتوقع أيٌّ من هؤلاء، حتى ماركس نفسه الذي تكهن بثورة اجتماعية عام 1848 وخلال عقد من الزمان بعد ذلك، أن أي تغير فوري بالاتجاه المعاكس. بل إن توقعاته بدأت، بحلول الستينيات من ذلك القرن، تدور حول التطورات في المدى البعيد.

إن «دراما التقدم» هي استعارة بيانية. غير أنها كانت واقعاً حَرْفياً لدى فئتين من الناس، فقد كانت بالنسبة إلى ملايين الفقراء الذين نُقلوا إلى عالم جديد، وعبر الحدود والمحيطات في أغلب الأحيان، تعني تغيراً جذرياً في الحياة وإلى شعوب العالم غير الرأسمالي، التي اكتسحتها هذه

الدراما وهزت كيانها، فإنها كانت تعني الخيار بين مقاومة خاسرة ضد ما يهدد تقاليدها وسبل عيشها القديمة، والانخراط في عملية مؤلمة لاكتساب أسلحة الغرب ثم توجيهها ضد الغزاة، أي إما بفهم «التقدم» والتفاهم معه، أو بالتلاعب به، فقد كان الربع الثالث من القرن التاسع عشر يضم عالمين: واحداً للمنتصرين، وآخر للضحايا المهزومين. وكانت الدراما التي ينطوي عليها تشكل مأزقاً صعباً، لا للطرف الأول، بل للثاني في المقام الأول.

ليس بوسع المؤرخ أن يكون موضوعياً إزاء الفترة التي تشكل موضوع دراسته. وهو يختلف في ذلك (ولصالحه من الناحية الفكرية) عن الدعاة الأيديولوجيين المعتادين الذين كانوا يعتقدون أن تقدم التقانة؛ أي «العلم الوضعي»، والمجتمع سيمكنهم من أن يدرسوا حاضرهم بحيدةٍ منزهة على نحو ما يفعل العالم الطبيعي الذي يزعمون (خطأً) أنهم يفهمون منهجه. ولا يخفي مؤلف هذا الكتاب ما يحس به من الامتعاض، بل ربما بعض الازدراء، تجاه الموضوع الذي يدرسه، مع أن موقفه هذا ينطوي على قدر من الإعجاب بمنجزات ذلك العصر المادية الجبارة، مع محاولة من جانبه لفهم حتى ما لا يحبه. كما أن هذا المؤلف لا يخامره التوق المشوق إلى اليقين، وإلى الثقة بالنفس اللذين تميز بهما عالم البورجوازية في أواسط القرن التاسع عشر، واللذان يغريان الكثيرين الذين يحنّون إلى ذلك العالم عندما ينظرون إليه بعد قرن من الزمان من عالم الغرب الذي تتناوشه المآزق والأزمات. إن هذا المؤلف لا يخفي تعاطفه مع أولئك الذين لم يلقوا آذاناً صاغية إلا من قلة قليلة قبل قرن. لقد كان اليقين والثقة بالنفس كلاهما على خطأ على أي حال، فقد كان العالم البورجوازي غير دائم وقصير العمر. وفي اللحظة التي بدا فيها كاملاً مكتملاً، تبين أنه لم يكن متماسكاً، بل كانت تنخره الشقوق. وفي أوائل السبعينيات من القرن التاسع عشر، كان التوسع الاقتصادي والليبرالي أمراً لا يمكن مقاومته. غير أنه لم يعد كذلك مع نهاية ذلك العقد.

إن نقطة الانعطاف هذه تشكل نهاية الحقبة التي يتناولها هذا الكتاب.

وخلافاً لعام 1848 الذي يمثل نقطة البداية، فإنها لا ترتبط بتاريخ محدد مناسب. وإذا اختبر مثل هذا التاريخ فإنه سيكون عام 1873 الذي يعادل، في سياق المرحلة الفيكتورية، انهيار عام 1929 في وول ستريت، فقد بدأت في تلك السنة، بتعبير أحد المراقبين المعاصرين «حال في غاية الغرابة وغير مسبوقة من أكثر من ناحية، ساد فيها الاضطراب والكساد مجالات التجارة والمتاجرة والصناعة»، أسماها المعاصرون «الكساد الكبير»، الذي يؤرخ عادة في الفترة الممتدة بين عامي 1873 ـ 1896.

«إن الجانب البارز الأكثر غرابة في هذه الحال [كما يقول هذا المراقب نفسه] هو طابعها الشمولي؛ إذ إنها تركت آثارها في الدول التي شاركت بالحرب، وسلكت طريق السلام على حد سواء؛ وكانت لها عملات مستقرة . . . أو غير مستقرة . . .؛ وتلك التي تعيش في ظل نظام التبادل الحر للسلع، ويخضع فيها التبادل للقيود بصورة أو بأخرى. وكانت ثقيلة الوطأة على المجتمعات القديمة في إنجلترا وألمانيا، وباهظة كذلك على أستراليا، وجنوب أفريقيا، وكاليفورنيا التي تمثل مجتمعات جديدة؛ لقد كانت كارثة لم يكن ليتحمل أعباءها سكان نيوفوندلاند ولابرادور القاحلتين، ولا جزر الهند الشرقية والغربية المشمسة الزاخرة بالسكّر والثمر؛ إنها لم تجلب الثراء لمن يعيشون في مراكز التبادل العالمية التي تصل فيها المكاسب في العادة إلى حدودها القصوى عندما تتولى التجارة أشد حالات التقلب والالتباس[3].

ذلك ما كتبه أمريكي شمالي مرموق في السنة نفسها التي أُسست فيها، بتأثير من كارل ماركس، «الأممية العمالية الاشتراكية». لقد بدأ الكساد حقبة جديدة، ويمكن، على هذا الأساس، اعتباره خاتمة مناسبة للحقبة القديمة.

---

(3) David Ames Wells, *Recent Economic Changes, and their Effect on the Production and Distribution of Wealth and the Well-being of Society* (New York: D. Appleton and Company, 1889), p. 1.

القســم الأول

استهلال ثوري



الفصل الأول

«ربيع الشعوب»

أرجو أن تقرأ الصحف بعناية تامة ـ فهي تستحق القراءة هذه الأيام. . . هذه الثورة ستغيّر شكل الأرض ـ وذلك هو ما يتوجب وينبغي عليها أن تفعله! ـ عاشت الثورة!

الشاعر غيورغ ويرْث (Georg Weerth) إلى والدته،
11 آذار/ مارس 1848[1].

الحقيقة أنني لو كنت أكثر شباباً وأكثر ثراءً مما أنا عليه الآن مع الأسف، لكنت هاجرت إلى أمريكا اليوم. لا جبناً ـ لأن الأيام لا يمكن أن تلحق بي ضرراً أشد مما سألحقه بها ـ بل للتغلب على إحساسي بالاشمئزاز إزاء الفساد الأخلاقي الذي، على حد قول شكسبير، تتصاعد روائحه النتنة إلى عنان السماء.

الشاعر جوزيف فون آيخندورف (Joseph von Eichendorff)
إلى مراسل، الأول من آب/ أغسطس 1849[2].

---

(1) Peter Goldammer, Hrsg., *1848 Augenzeugen der Revolution; Briefe, Tagebücher, Reden, Berichte* (Berlin: Rütten & Loening, [1973]), p. 58.

(2) المصدر نفسه، ص 666.

I

في أوائل عام 1848، وقف المفكر السياسي الفرنسي البارز ألكسيس دو توكفيل (Alexis de Tocqueville) في مجلس النواب ليعرب عن المشاعر التي كانت تخالج أكثر الأوروبيين: «إننا نرقد على فوّهة بركان . . . ألا تلاحظون ارتجاج الأرض من جديد؟ إن رياح الثورة أخذت بالهبوب، والعاصفة تكتسح الأفق». وفي الوقت نفسه، كان اثنان من الألمان المنفيين: كارل ماركس ذو الثلاثين عاماً، وفريدريخ إنجلز البالغ ثمانية وعشرين عاماً، يبثان مبادئ الثورة البروليتارية التي كان دي توكفيل يحذر زملاءه منها، في البرنامج الذي كانت الرابطة الشيوعية الألمانية قد طلبت منهما أن يضعا مسوَّدةً له قبل ثلاثة أسابيع، ونشر غُفْلاً من التوقيع في لندن يوم 24 شباط/ فبراير 1848 تحت العنوان (الألماني) **بيان الحزب الشيوعي** (*Manifesto of the Communist Party*)، الذي سينشر باللغات الإنجليزية، والفرنسية، والألمانية، والإيطالية، والفلمنكية، والدانماركية»[3] وفي غضون أسابيع، بل في غضون ساعات في حالة «المانيفستو»، كانت آمال المتنبئين ومخاوفهم على وشك التحقق. لقد أطاحت انتفاضة بالملكية في فرنسا وأعلنت الجمهورية، وبدأت الثورة الأوروبية.

نشبت ثورات عديدة أكبر من تلك في العالم الحديث، وثورات عديدة أخرى أكثر نجاحاً. غير أن أياً منها على الإطلاق لم يندلع بمثل هذه السرعة وبمثل هذا الاتساع، ولم ينتشر انتشار النار في الهشيم عبر الحدود والأقطار وحتى المحيطات، ففي فرنسا[4]، أعلنت الجمهورية في

---

(3) لقد ترجم في الواقع كذلك إلى البولندية والسويدية خلال تلك السنة، مع أن الإنصاف يقتضي القول إن أصداءه السياسية لم تتردد خارج أوساط الثوريين الألمان الضيقة إلا بعد أن أعيد إصداره في أوائل السبعينيات من القرن الثامن عشر.

(4) انظر الفصل السادس، ص 120 من: Eric John Hobsbawm, *The Age of Revolution: Europe 1789-1848* (London: Weidenfeld and Nicolson, 1962).

24 شباط/ فبراير. وفي الثاني من آذار/ مارس، اندلعت الثورة في جنوب غرب ألمانيا، ثم 6 آذار/ مارس في بافاريا، و11 آذار/ مارس في برلين، و13 آذار/ مارس في فيينا وفي هنغاريا في الوقت نفسه تقريباً، وفي 18 آذار/ مارس في ميلان ومن ثَم إيطاليا (حيث كانت ثورة مستقلة قد قامت في صقلية). وفي ذلك الوقت، لم يكن بوسع الخدمة الإعلامية الأسرع في متناول أي شخص (وهي بنك روتشيلد)، أن تنقل الأخبار من باريس إلى فيينا في أقل من خمسة أيام. وإن هي إلا أسابيع حتى كانت أركان كل الحكومات قد تزعزعت في مناطق أوروبا التي تقوم فيها، جزئياً، أو كلياً، عشر دول[5]، بالإضافة إلى المضاعفات الأقل حدة في عدد من البلدان الأخرى. وعلاوة على ذلك، شهد عام 1848 أول ثورة ممكنة على الصعيد العالمي، لأننا يمكن أن نتلمس آثارها المباشرة في انتفاضة 1848 في بيرنامبيوكو (البرازيل) وفي كولومبيا النائية بعد ذلك بسنوات عديدة. وبمعنى من المعاني، كانت تطرح منظومة المعطيات التي تمثل «الثورة العالمية» التي أصبح الثوار منذئذٍ يحلمون بها، ويعتقدون أن بوسعهم تحقيقها، ولا سيما في لحظات نادرة مثلما حصل في أعقاب الحروب الكبرى. والواقع أن مثل هذه الانفجارات المتزامنة قلما تحدث على الصعيدين القارّي أو العالمي، فالثورة في أوروبا عام 1848 هي الوحيدة التي امتدت إلى البقاع «المتقدمة» والمتخلفة في القارة على حد سواء. وكانت هي الأوسع انتشاراً والأقل نجاحاً من الثورات كلها، ففي غضون ست سنوات، كان انهيارها التام متوقعاً تماماً، بل إن أنظمة الحكم التي أطاحت بها كانت، عدا واحداً منها، قد استعادت عافيتها بعد ثمانية عشر شهراً من سقوطها. وكانت تلك الحالة

---

(5) فرنسا، ألمانيا الغربية، النمسا، إيطاليا، تشيكوسلوفاكيا، هنغاريا، جانب من بولندا، يوغوسلافيا، ورومانيا. [بحسب الواقع الجيوسياسي لأوروبا عند تأليف الكتاب عام 1975 (المترجم)]. ويمكن كذلك القول إن الآثار السياسية للثورة كانت جسيمة في بلجيكا، وسويسرا، والدانمارك.

الاستثنائية ـ (وهي الثورة الفرنسية) قد نأت بنفسها، قدر المستطاع، عن الانتفاضة التي تدين لها بوجودها أصلاً.

إن ثورات 1848، إذاً، تقف في مفارقة غريبة إزاء مضمون هذا الكتاب. غير أن حدوثها، أو التخوف من تجدد حدوثها، كان سيغير مسار التاريخ الأوروبي تغييراً كاملاً خلال السنين الخمس والعشرين اللاحقة. إن السنة الثامنة والأربعين بعد ثمانمئة وألف كانت بعيدة كل البعد عن كونها «المنعطف الذي أخفقت أوروبا في الوصول إليه». وما أخفقت أوروبا في فعله هو الانعطاف على نحو ثوري. وحيث إنها لم تفعل ذلك، فإن سنة الثورة تلك تقف وحدها بمعزل عما حولها، بوصفها مدخلاً لمسرحية لا تتواصل وقائعها وحلقاتها، وبوابة لطراز من المعمار لا تشي بما يمكن لعابريها أن يتوقعوا مشاهدته وهم يجتازون الممرات والمعابر واحداً بعد الآخر.

II

لقد انتصرت الثورات التي اندلعت في البؤرة الكبيرة الوسطى في أوروبا، لا في محيطها، وشملت بلداناً كانت من البعد أو العزلة في تاريخها بحيث لم تكن مهيأة للتأثر بها، على نحو مباشر أو فوري، بأي صورة من الصور (مثل شبه الجزيرة الآيبيرية، والسويد، واليونان)، أو كانت من التخلف بحيث لم تكن فيها طبقات متفجرة سياسياً في بيئة ثورية (مثل روسيا والإمبراطورية العثمانية)، إلا أنها أيضاً لم تَطَلْ بلداناً صناعية كانت اللعبة السياسية تجري فيها وفق قواعد مختلفة، مثل بريطانيا وبلجيكا[6]. بيد أن النطاق الثوري الذي ضم، أساساً، كلاً من فرنسا، والكونفيدرالية الألمانية، والإمبراطورية النمساوية، وامتد إلى

---

(6) كذلك كانت حالة بولندا، التي تقاسمتها منذ عام 1796 كل من روسيا، والنمسا، وبروسيا. وكانت ستشارك في الثورة لولا أن حكامها الروس والنمساويين نجحوا في تأليب الفلاحين ضد الوجهاء (الثوريين). انظر ص 47 ـ 48 من هذا الفصل.

عمق المناطق الجنوبية الغربية من أوروبا وإيطاليا، كان يتسم بالتنافر وعدم الانسجام؛ فقد كان يضم مناطق متفاوتة التخلف والاختلاف مثل كالابريا وترانسلفانيا، وأخرى نامية مثل الراينلاند وسكسونيا، وبقاعاً يشيع فيها العلم مثل بروسيا، وأخرى تنتشر فيها الأمية مثل صقلية، أو مدناً متباعدة بعضها عن بعض مثل كييل وباليرمو، وبيرينيان وبوخارست. وتخضع أكثر هذه المناطق للملوك أو أمراء يحكمون، على العموم، حكماً مطلقاً، غير أن فرنسا كانت آنذاك مملكة دستورية بورجوازية. والجمهورية الوحيدة التي كانت ذات شأن في ذلك الوقت هي الاتحاد السويسري الذي استهل السنة الأولى من الثورة بحرب أهلية قصيرة في أواخر عام 1847. وتراوحت أحجام الدول التي تأثرت بالثورة بين فرنسا التي كان عدد سكانها نحو 35 مليون نسمة، والمقاطعات المتناهية الصغر في وسط ألمانيا التي لم يكن تعداد سكانها يزيد على بضعة آلاف، وتفاوتت مكانتها لتشمل الدول المستقلة الكبرى في العالم، والبلدان والإقطاعيات التابعة والخاضعة لقوى أجنبية، وتنوعت أنماطها بين إدارة مركزية موحدة، وتجمعات إدارية مترامية الأطراف.

وفوق هذا وذاك، فإن التاريخ ـ أي البنى الاجتماعية والاقتصادية والسياسات قد قسمت النطاق الثوري إلى قسمين متباعدين لا يكاد يجمعهما جامع؛ ذلك أن البنية الاجتماعية فيهما كانت تختلف كل الاختلاف، باستثناء الحالات العامة التي كانت الغلبة فيها لأهل الريف على أهل المدن، أو للبلدات الصغيرة على المدن الكبيرة. وكثيراً ما يجري إغفال هذا الأمر؛ لأن السكان الحضر، ولا سيما في المدن الكبرى، هم الأكثر نفوذاً إلى درجة متعاظمة في المجال السياسي[7]. وكان

---

(7) من بين المندوبين الأعضاء في «البرلمان التمهيدي» من الراينلاند، كان ثمة خمسة وأربعون ممثلاً من المدن الكبيرة، وأربعة وعشرون من البلدات الصغيرة، وعشرة فقط من الأرياف التي كان يقيم فيها 73 في المئة من السكان. انظر: Konrad Repgen, =

الفلاحون في المناطق الغربية أحراراً من الوجهة القانونية، بينما كانت الإقطاعيات الكبيرة قليلة الأهمية؛ أما في الشرق، فكان الفلاحون أرقاء، كما أن ملكية الأرض كانت تتركز، إلى حد بعيد، في أيدي النبلاء الملاّك (انظر الفصل العاشر من هذا الكتاب). وفي الغرب، كانت «الطبقة الوسطى» تعني أصحاب البنوك، والتجار، والرأسماليين أصحاب المشروعات الاقتصادية، والذين يزاولون «المهن الحرة»، وكبار المسؤولين (بمن فيهم أساتذة الجامعات)، على الرغم من أن بعض هؤلاء كانوا يشعرون بأنهم ينتمون إلى طبقة عليا (Haute bourgeoisie) مستعدة لمنافسة النبلاء الملاّك، وعلى الأقل في الإنفاق. أما في الشرق، فإن ما يعادل الطبقة الحضرية كان يتألف أساساً من فئات وطنية محلية متميزة عن السكان الأصليين، مثل الألمان، واليهود، وكانت هي الأقل عدداً في الأحوال كلها. أما المعادل الحقيقي لِـ «الطبقة الوسطى»، فكان يضم قطاع المتعلمين و/أو ذوي العقلية التجارية من وجهاء الأرياف وصغار النبلاء - ويمثل هؤلاء طبقة عريضة إلى درجة مدهشة في بعض المناطق[8]. وقد جمعت الدائرة المركزية الوسطى الممتدة من بروسيا شمالاً إلى شمال وسط إيطاليا في الجنوب، وهي التي كانت تمثل، على نحو ما، بؤرة النطاق الثوري، خصائص المناطق «المتقدمة» والمتخلفة على السواء، وفي أكثر من ناحية.

من الوجهة السياسية، كان النطاق الثوري متغاير الخصائص بالقدر نفسه، فباستثناء، فرنسا، لم يكن بيت القصيد يتمثل في مضمون الدول السياسي والاجتماعي فحسب، بل في شكل هذه الدول أو حتى وجودها أصلاً. لقد جهد الألمان لبناء «ألمانيا» ما - وهل هي وحدوية أم فيدرالية؟ - من مجموعة من المقاطعات الألمانية العديدة المتفاوتة الأحجام

Märzbewegung und Maiwahlen des Revolutionsjahres 1848 im Rheinland, Bonner = historische Forschungen; Bd. 4 (Bonn: L. Rohrscheid, 1955), p. 118.

(8) Hobsbawm, Ibid., pp. 16, and 183-184.

والخصائص. وحاول الإيطاليون بالمثل أن يحولوا ما وصفه المستشار النمساوي ميترنيخ (Metternich)، بازدراء ولكن بحق، بأنه «مجرد تعبير جغرافي»، إلى إيطاليا موحّدة. وتميز الاتجاهان، بما فيهما من تحيز للرؤية القومية بعنصر مشترك هو استدراج شعوب لم تكن، في أكثر الأحيان، تعتبر نفسها ألمانية أو إيطالية خلافاً لما كان يشعر به التشيكيون. لقد وجد الألمان، والإيطاليون، بل الحركات الوطنية كلها التي شاركت في الثورة، ما عدا الفرنسيين، أنفسهم يواجهون جبروت إمبراطورية آل هابسبيرغ الضخمة المتعددة الجنسيات التي امتدت إلى ألمانيا وإيطاليا، وأخضعت كذلك جانباً من التشيكيين، والهنغاريين، وجمهرة مهمة من البولنديين، واليوغوسلافيين، والشعوب السلافية الأخرى. ورأى بعض هؤلاء، أو الناطقون السياسيون بلسانهم على الأقل، أن «الإمبراطورية» كانت أكثر جاذبية من الانصهار في تجمع قومي توسعي مثل الذي يدعو له الألمانيون أو المجريون. ويُروى عن البروفيسور بالاكي (Palacky)، الناطق بلسان التشيكيين، قوله «لو لم تكن النمسا موجودة، لكان من الضروري اختراعها». وعبر هذا النطاق الثوري، كان النشاط السياسي، إذاً، يعمل بصورة متزامنة على مسارات عدة.

صحيح أن الراديكاليين طرحوا حلاً بسيطاً: جمهورية ديمقراطية مركزية موحدة في كل من ألمانيا، وإيطاليا، وهنغاريا، أو أي دولة أخرى، تقوم على أساس المبادئ المجربة للثورة الفرنسية على أنقاض حكم الملوك والأمراء، وترفع راياتها الخاصة الثلاثية الألوان، على غرار النموذج الفرنسي كالمعتاد، الذي سيكون هو الأساس لعلم وطني[9]. أما المعتدلون، من جهة أخرى، فقد انخرطوا في شبكة من الحسابات المعقدة التي تنطلق في أساسها من التخوف من الديمقراطية التي كانت، في نظرهم، مرادفةً للثورة الاجتماعية. وبما أن الجماهير لم تقم بالانقضاض على حكم الأمراء، فليس من الحكمة تشجيعها على تقويض

(9) المصدر نفسه، ص 128-129.

النظام الاجتماعي. أما إذا كانت قد أطاحتهم، فإن من المرغوب فيه إزاحتها وطردها من الشوارع، وإزالة تلك المتاريس التي تمثل الرموز الأساسية لعام 1848. من هنا، كان السؤال المطروح هو: مَن مِن الأمراء، الذين أصابهم الشلل ولكن الثورة لم تطحه بعد، يمكن إقناعه بدعم القضية العليا؟ كيف يمكن، بالتحديد، بناء ألمانيا أو إيطاليا فيدرالية وليبرالية، وإقامتها على أي صيغة دستورية، وتحت ظلال أي سلطة؟ هل يمكن أن تضم ملك بروسيا وإمبراطور النمسا (كما كان يعتقد المعتدلون المؤمنون بإقامة «جرمانيا العظمى» ـ وينبغي ألا نخلط بينهم وبين الراديكاليين الديمقراطيين الذين كانوا، بحكم التعريف، من دعاة «جرمانيا الصغرى»، أي إن النمسا لا تكون جزءاً منها؟ وبالمثل، مارس المعتدلون في إمبراطورية هابسبيرغ لعبة ابتكار دساتير فيدرالية لدول متعددة القوميات ـ وهي اللعبة التي لم تتوقف إلا عند نهاية تلك الإمبراطورية 1918. وعند اندلاع الثورة أو نشوب الحرب، لم يكن ثمة وقت لمثل هذه التأملات الدستورية. وعندما لم تكن ثمة ثورة ولا حرب، كما كانت الحال في أغلبية ألمانيا، فإن هذه التأملات بلغت حدودها القصوى. وحيث إن جانباً كبيراً من الليبراليين المعتدلين هناك كانوا من أساتذة الجامعات والموظفين الحكوميين ـ إذ إن 68 في المئة من النواب في الجمعية العامة في فرانكفورت كانوا من المسؤولين، و12 في المئة من العاملين في مجال «المهن الحرة» ـ فإن المداولات في ذلك البرلمان القصير الأجل لم تكن أكثر من جولات من اللغو الذكي العقيم.

إن ثورات 1848، إذاً، تستدعي دراسة تفصيلية لكل دولة، وكل شعب، وكل إقليم على حِدة، ولا مجال لذلك في هذا الكتاب. غير أن هذه الثورات تشترك في جملة من الخصائص ليس أقلها أنها حدثت بصورة متزامنة تقريباً، وأن مصائرها مترابطة وآخذٌ بعضها برقاب بعض، وأن طبائعها وأساليبها كانت متماثلة، واكتنفتها أجواء رومانطيقية ـ يوتوبية وارتفعت فيها شعارات خطابية متشابهة اخترع الفرنسيون لها مصطلح الثمانربعينات (quarante - huitard). ويتعرف

كل مؤرخ إلى رموزها من أول وهلة: اللحى، وربطات العنق المنسابة والقبعات العريضة الجوانب التي كان يعتمرها المناضلون، والرايات الثلاثية الألوان، والمتاريس المنتشرة في كل مكان، والإحساس الأولي بالتحرر، وبالأمل الغامر، والارتباك المتفائل. لقد جسدت تلك الفترة «ربيع الشعوب»، وكانت، كالربيع، قصيرة الأجل. وعلينا الآن أن نستعرض بإيجاز القسمات المشتركة لتلك الثورات.

ولا بد من الإقرار، باديء ذي بدء، أن تلك الثورات قد حققت نجاحاً سريعاً، ثم منيت أيضاً بفشل ذريع سريعاً. لقد اندحرت الحكومات كلها في النطاق الثوري في الأشهر الأولى وأصيبت بعجز كامل، وانهارت كلها أو تراجعت من دون أن تبدي أي مقاومة تقريباً. غير أن الثورات فقدت خلال فترة وجيزة نسبياً روح المبادرة في كل مكان، في فرنسا بحلول نهاية نيسان/ أبريل، وفي أنحاء أوروبا الثورية الأخرى خلال الصيف، وذلك على الرغم من أن الحركة احتفظت بما تبقّى من قدرتها للقيام بهجوم معاكس في فيينا، وهنغاريا، وإيطاليا. وكان المؤشر الأول على انبعاث النزعة المحافظة في فرنسا هو الانتخابات التي جرت في أواخر نيسان/ أبريل. فالاقتراح العام، الذي أسفر عن فوز أقلية قليلة من الموالين الملكيين، أرسل إلى باريس أغلبية عريضة من المحافظين صوّت لها فلاحون غير رجعيين بل لا خبرة سياسية لديهم، في وقت لم يكن اليسار الحضري الصافي يعرف فيه أساليب الاستئناف. (والحقيقة أن المناطق «الجمهورية» واليسارية في الريف الفرنسي، كما هو معروف في أوساط دارسي السياسات الفرنسية في تلك الآونة، كانت بحلول عام 1849 قد اتضحت معالمها. وأبدت تلك المناطق، ومنها بروفانس على سبيل المثال، مقاومة مريرة لإلغاء الجمهورية عام 1851). وتجلى المؤشر الثاني في عزلة العمال الثوريين وهزيمتهم في باريس في انتفاضة حزيران/ يونيو[10].

(10) انظر ص 48 وما يليها من هذا الفصل.

في وسط أوروبا، جاءت نقطة الانعطاف عندما سمح لجيش هابسبيرغ، الذي ازدادت قدرته على المناورة بهرب الإمبراطور في أيار/ مايو، بأن يعيد تنظيم نفسه ويهزم انتفاضة راديكالية في براغ، بمساعدة من الطبقة الوسطى المعتدلة ـ التشيكية والألمانية، فاستطاع بذلك استعادة أراضي بوهيميا التي تمثل النواة الاقتصادية للإمبراطورية، وتمكنت بعد ذلك بوقت قصير من استعادة السيطرة على شمال إيطاليا، وقضى التدخل الروسي والتركي على ثورة متأخرة قصيرة الأجل في مقاطعات الدانوب.

في الفترة الممتدة بين صيف ذلك العام ونهايته، استعادت أنظمة الحكم القديمة سلطتها في ألمانيا والنمسا، مع أنه كان من الضروري إعادة إخضاع مدينة فيينا الثورية بقوة السلاح في تشرين الأول/ أكتوبر بعد أن دفع أكثر من أربعة آلاف شخص حياتهم ثمناً لذلك. وبعد ذلك، استجمع ملك بروسيا قواه وأعاد سيطرته على أهالي برلين المتمردين ثم على بقية ألمانيا من دون صعوبة (باستثناء بعض المعارضة في الجنوب الغربي)، وترك البرلمان الألماني، أو بالأحرى الجمعية الدستورية، والمجالس الأخرى التي انتخبت في الربيع الحافل بالأمل، والمجالس البروسية والأخرى الأكثر راديكالية، تتداول الرأي في ما بينها بانتظار حلِّها. وبحلول الشتاء، لم يكن تحت سيطرة الثورة غير إقليمين اثنين، هما أجزاء من إيطاليا وهنغاريا. إلا أنهما أُخضعا مرة أخرى في أواسط ذلك العام بعد أنشطة ثورية متواضعة في ربيع 1849.

بعد استسلام الهنغاريين وأهالي البندقية في آب/ أغسطس 1849، لفظت الثورة آخر أنفاسها. وباستثناء فرنسا، كان حكام العهد السابق جميعهم قد استعادوا سلطاتهم، بل إنهم في بعض الحالات، مثل إمبراطورية الهابسبيرغ، ازدادوا سطوة، وتشتت الثوريون في المنافي. وفيما عدا فرنسا، مرة أخرى، تبددت وتلاشت التغيرات المؤسسية كلها، وكل الأحلام السياسية والاجتماعية التي ازدهرت في ربيع عام

1848، بل إن النظام الجمهوري في فرنسا نفسها لم يكن له من بقية العمر غير سنتين ونصف السنة. ولم يبق سوى تغيير أساسي واحد لا عودة عنه، ألا وهو إلغاء نظام القنانة في إمبراطورية الهابسبيرغ[11]. وباستثناء هذا الإنجاز المفرد، على أهميته، فإن عام 1848 كان هو الثورة الوحيدة في تاريخ أوروبا الحديث الذي جمع، في آنٍ معاً، الوعد الأعظم، والمجال الأوسع، والنجاح الأولي الفوري الأكبر، والإخفاق الذريع السريع غير المشروط. لقد كانت، على نحو ما، مشابهة للظاهرة الجماهيرية الأخرى في أربعينيات القرن التاسع عشر، وهي الحركة الميثاقية في بريطانيا؛ ذلك أن أهدافها المحددة تحققت فيما بعد، ولكن ليس عن طريق الثورة أو في سياق ثوري. كما أن تطلعاتها الكبرى لم تتبدد، إلا أن الحركات التي تبنتها ودعت إليها كانت تختلف تماماً عن تلك التي برزت عام 1848. ولم يكن من قبيل المصادفة إذاً أن تكون الوثيقة التي أُصدرت تلك السنة وأحدثت الأثر الأبلغ والأبقى على تاريخ العالم هي **البيان الشيوعي**.

اتسمت تلك الثورات كلها بصفة أخرى مشتركة ساهمت، إلى حد بعيد، في فشلها. لقد كانت، في واقع الأمر أو على مستوى الآمال المعقودة عليها آنذاك، ثورات اجتماعية لمصلحة الكادحين الفقراء. وقد أفزعت لذلك الليبراليين المعتدلين الذين دفعهم هؤلاء الكادحون إلى مواقع السلطة والنفوذ، ومنهم بعض السياسيين الراديكاليين، وحتى بعض أنصار أنظمة الحكم القديمة. وقد وضع الكونت كافور (Cavour)، حاكم بيدمونت الذي أصبح هو المهندس الرئيسي للوحدة

(11) يمكن القول، بصفة عامة، إن إلغاء نظام القنانة والسخرة وحقوق السيادة على الفلاحين في بقية أنحاء أوروبا الغربية والوسطى (بما فيها بروسيا)، قد بدأت خلال الثورة الفرنسية والحروب النابليونية (1789 ـ 1815)، مع أن بقية الأنظمة التبعية قد ألغيت في ألمانيا عام 1848. واستمرت القنانة والسخرة في روسيا ورومانيا حتى ستينيات القرن الثامن عشر (انظر الفصل العاشر من هذا الكتاب).

الإيطالية، إصبعه على موطن الضعف هذا قبل ذلك ببضع سنين (1846):

«إذا قُدِّر للنظام الاجتماعي أن يتعرض لخطر حقيقي، وإذا قدر للمبادئ العظيمة التي قام على أساسها أن تواجه مخاطرة جسيمة، فإننا نعتقد أن كثيراً من أشد المعارضين صلابة، وأكثر الجمهوريين حماسة، سيكونون أول من ينضمون إلى حزب المحافظين»[12].

إن القائمين بالثورة الآن هم، بلا شك، الكادحون الفقرا، فهم الذين لقوا مصرعهم على المتاريس في المراكز الحضرية: في برلين كان هناك خمسة عشر ممثلاً من ممثلي الطبقات المتعلمة، ونحو ثلاثين من أرباب الحرف، من أصل الضحايا الثلاثمئة في مسيرة آذار/مارس. ومن أصل الثلاثمئة وخمسين قتيلاً في انتفاضة ميلانو، كان ثمة اثنا عشر طالباً وعاملاً من ذوي الياقات البيض أو ملاك الأراضي فحسب[13]. والجوع الذي كانوا يعانونه هو الذي ألهب التظاهرات التي تحولت إلى ثورات. وكانت الأرياف في مناطق الثورة الغربية هادئة نسبياً، على الرغم من أن المقاطعات الجنوبية الغربية من ألمانيا شهدت من الانتفاضات الفلاحية أكثر بكثير مما هو مدوّن في العادة، إلا أن التخوف من الثورة الزراعية في الأماكن الأخرى كان من الحدة بحيث أصبح أكثر قوة من الواقع. ومع ذلك، فإن الفلاحين في مناطق عديدة، مثل جنوب إيطاليا، قاموا بالفعل بمسيرات تلقائية رفعوا فيها الرايات

---

(12) *Rinascita, Il 1848, Raccolta di Saggi e Testimonianze* (Rome: [n. pb.], 1948).

(13) Ruth Hoppe and Jürgen Kuczynski, «Eine Berufs- bzw. Klassen- und Schichtanalyse der Märzgefallenen 1848 in Berlin,» *Jahrbuch für Wirtschaftsgeschichte*, vol. IV (1964), pp. 200-276, und D. Cantimori, in: François Fejtö, ed., *The Opening of an Era, 1848: An Historical Symposium*, With an Introd. by A. J. P. Taylor (London: A. Wingate, [1948]).

وقرعوا الطبول مطالبين بتقسيم الإقطاعيات الكبيرة. بيد أن الخوف وحده كان كافياً ليجمع بين قلوب ملاك الأراضي ويوحّد صفوفهم على نحو مدهش. لقد أفزعتهم شائعات كاذبة عن قيام الأقنان بتمرد واسع تحت زعامة الشاعر س. بيتوفي (S. Petöfi) (1823 ـ 1849)، فأقدم مجلس الدايت (البرلمان) الهنغاري المؤلف في معظمه من الملاّك، على إلغاء نظام القنانة فوراً في وقت مبكر من أواسط آذار/ مارس، ولكن قبل أيام قليلة من إصدار الحكومة الإمبراطورية، التي كانت تسعى إلى عزل الثوريين عن قواعدهم الفلاحية، مرسوماً بإلغاء القنانة كلياً في غاليقيا، وإلغاء السخرة والعمل القسري والالتزامات الإقطاعية الأخرى في الأراضي التشيكية. ولم يكن ثمة شك في أن «النظام الاجتماعي» كان في خطر. ولم يكن بهذه الحدة نفسها في المناطق كلها، فقد كان بوسع الحكومات المحافظة، كما حصل بالفعل، شراء ولاء الفلاحين، وبخاصة عندما ينتمي القيّمون على أمرهم من الملاّك، أو التجار، أو الدائنين إلى جنسية أخرى غير «ثورية»، سواء أكانت بولندية، أم هنغارية، أم ألمانية. ولم يكن من المعقول أن الطبقات الوسطى الألمانية، بمن فيها رجال الأعمال الذين كان يشقون طريقهم بثقة في الراينلاند، كانت تخامرها المخاوف والهواجس من شيوعية بروليتارية وشيكة أو حتى سلطة بروليتارية مؤثرة إلا في كولون (التي اتخذها ماركس مقراً له) وفي برلين التي قام فيها عامل المطبعة ستيفان بورن (Stefan Born) بتنظيم حركة ذات شأن في أوساط الطبقة العاملة. ولكن مثلما كانت الطبقات العاملة الأوروبية تعتقد في أربعينيات ذلك القرن أنها تعرف طبيعة المشكلات الاجتماعية التي تنتظرها في المستقبل في شتاء لانكشير الممطر الملبد بالدخان، فإنها كانت تعتقد أنها تعرف شكل المستقبل الذي ينتظرها خلف متاريس باريس ـ وهي المهد الذي ترعرعت فيه الثورة وشعّت منه في شتى الاتجاهات. ولم تكن ثورة شباط/ فبراير «البروليتارية» فحسب، بل ثورة اجتماعية واعية. ولم يكن هدفها إقامة جمهورية ما، بل «جمهورية ديمقراطية اجتماعية». وكان قادتها اشتراكيين

وشيوعيين، بل إن حكومتها الانتقالية ضمت عاملاً حقيقياً، هو الميكانيكي ألبرت. ولم يكن مؤكداً خلال أيام عديدة ما إذا كان علمُها مثلث الألوان أم أنه كان علم الثورة الاجتماعية الأحمر نفسه.

وفيما عدا المجالات التي كانت فيها قضايا الحكم الوطني والاستقلال موضع نظر، فإن المعارضة المعتدلة في أربعينبات ذلك القرن لم تكن ترغب في الثورة أو تسعى إلى اندلاعها بصورة جدية، بل إن المعتدلين كانوا يؤثرون المفاوضات والأساليب الدبلوماسية على المواجهة حتى في القضايا الوطنية. ولا ريب في أنهم كانوا يفضلون المزيد في هذا الاتجاه، غير أنهم كانوا مستعدين للقبول بتنازلات يمكن القول إن أكثر أرباب السلطة المطلقة غباءً وثقةً بالنفس سيضطر إلى منحها، إن عاجلاً أو آجلاً، أو القبول بتغيّرات عالمية قد ترضى بها عصبة «القوى العظمى» صاحبة الأمر والنهي إن آجلاً أو عاجلاً كذلك. وبعد أن دفعتهم إلى الثورة قوى الفقراء و/أو مثال باريس، حاولوا بطبيعة الحال أن يوجهوا وضعاً مواتياً لم يتوقعوه وجهة تحقق لهم المنفعة القصوى. غير أنهم في التحليل الأخير بالتأكيد، بل منذ البداية في معظم الأحيان، كان ينتابهم القلق من الخطر الذي يمثله اليسار أكثر من التهديد الذي تمثله أنظمة الحكم القديمة. ومنذ اللحظة التي ارتفعت فيها المتاريس في باريس، غدا الليبراليون المعتدلون (وكذلك، كما لاحظ كافور، نسبة معتبرة من الراديكاليين) قوة محافظة مُضْمرة. وفيما كانت مواقف المعتدلين تتقلب من جانب إلى آخر على نحو متسارع أو تختفي كلياً، كان العمال، الذين يمثلون العناصر المتحررة في أوساط الراديكاليين الديمقراطيين، يعانون العزلة أو ما هو أدهى من ذلك، وهو مواجهة تحالف ضم المحافظين، والقوى المعتدلة السابقة التي وقفت إلى جانب النظام القديم: إنهم، على حد وصف الفرنسيين يمثلون «حزب النظام العام». لقد فشلت ثورة 1848 لأنه تبين أن المواجهة الحاسمة لم تكن بين أنظمة الحكم القديمة و«قوى التقدم» المتحدة، بل بين «النظام» و«الثورة الاجتماعية». ولم تحدث هذه المواجهة الفاصلة في

باريس شباط/ فبراير بل في باريس حزيران/ يونيو، عندما تعرض العمال للهزيمة وللمذبحة، بعد أن أرغموا على القيام بانتفاضة معزولة عزلاء. لقد حاربوا ولقوا مصرعهم بعد نضال مرير، وسقط 1500 منهم في قتال شوارع ـ وكان نحو الثلثين منهم إلى جانب الحكومة. وكان من السمات المميزة لشراسة الأغنياء وحقدهم على الفقراء أن نحو ثلاثة آلاف شخص ذُبحوا ذبحاً بعد الهزيمة، بينما اعتقل اثنا عشر ألفاً، ونفي أكثرهم إلى معسكرات العمل في الجزائر[14].

لقد حافظت الثورة بالتالي على ما فيها من زخم عندما كان الراديكاليون من القوة ومتانة الروابط مع الحركة الشعبية بحيث دفعوا المعتدلين إلى الأمام أو استغنوا عنهم نهائياً. وقد حدث ذلك على الأغلب في البلدان التي كان التحرر الوطني هو القضية الأساسية التي كان من الضروري حشد الجماهير وتعبئتها لتحقيق هذا الغرض. ولهذا السبب، كانت الثورة هي الأطول عمراً في إيطاليا، وأكثر من ذلك في هنغاريا[15].

وفي إيطاليا، تصدّر المعتدلون الكفاح ضد الحكم القمعي، بعد أن استمالوا ملك بيدمونت المعادي للنمسا، وانضمت إليهم، في أعقاب انتفاضة ميلان، بعض المقاطعات الصغيرة بعد تحفظ ضمني واضح.

(14) قتل في ثورة شباط/ فبراير في باريس نحو 370 شخصاً. انظر: Roger Ikor, *L'Insurrection ouvrière de juin 1848 ou la première commune*, épisodes et vies révolutionnaires. Nouv. série (Paris: Bureau d'éd., 1936).

(15) لم تكن قضايا الوحدة الوطنية والاستقلال من جملة القضايا المطروحة في فرنسا. أما القومية الألمانية فسعت إلى توحيد العديد من الدول المتباعدة. غير أن ما حال دون تحقيق ذلك لم يكن الهيمنة الأجنبية، بل موقف دولتين عظميين كانتا تعتبران ألمانيتين، وهما بروسيا والنمسا. وكانت التطلعات القومية السلافية تقف موقف المعارضة منذ البداية من الشعوب «الثورية» مثل الألمان والمجر، ومن ثم قمعت هذه التطلعات إلا ما كان منها مناوئاً للثورة. بل إن اليسار التشيكي كان يعتبر إمبراطورية الهابسبيرغ حامية لهم من الانصهار في دولة ألمانية وطنية. أما البولنديون، فلم يقوموا بأي دور لهم على الإطلاق في هذه الثورة.

وكانوا في تلك الأثناء يتوجسون شراً من الجمهوريين ومن الثورة الاجتماعية. غير أن الجيش النمساوي الذي أعاد تنظيم صفوفه ألحق بهم هزيمة منكرة في كستوزا في تموز/ يوليو، جراء الضعف العسكري للدول الإيطالية، وتردد بيدمونت، وربما، فوق ذلك كله، رفضهم لطلب المعونة من الفرنسيين الذين كان من المعتقد أنهم سيعززون موقف الجمهوريين. (ويمكننا في هذا السياق أن نلاحظ أن الجمهوري الكبير ج. ماتزيني (G. Mazzini) [1805 ـ 1872]، بغريزته التي لا تخطئ في انتهاج السبل العقيمة سياسياً، قد عارض توجيه نداء استغاثة للفرنسيين. وقد شوهت الهزيمة سمعة المعتدلين، ووضعت قيادة التحرير الوطني بين أيدي الراديكاليين الذين آلت إليهم السلطة في دول إيطالية عديدة. وتمكن هؤلاء في أوائل عام 1849 من إقامة جمهورية في روما، ما أتاح لماتزيني الفرصة للغلوّ في رفع الشعارات الطنانة. (وكانت البندقية، بقيادة المحامي الحصيف دانييل مانين (Daniele Manin) [1804 ـ 1857]، قد أُعلنت جمهورية مستقلة، ما جنّبها الكثير من المتاعب والصعوبات إلى أن لقيت مصيرها المحتوم عندما أعاد النمساويون غزوها، حتى بعد أن سبقهم إلى ذلك الهنغاريون، في نهاية شهر آب/ أغسطس عام 1849). ولم يكن الراديكاليون يضاهون النمسا قوةً عسكرية؛ فعندما أعلنت بيدمونت الحرب مرة أخرى عام 1849، حقق النمساويون نصراً سهلاً عليهم في نوفارا في شهر آذار/ مارس. كما أنهم، على الرغم من كونهم أكثر تصميماً وإصراراً على طرد النمساويين وتوحيد إيطاليا، كانوا يشاركون المعتدلين تخوفهم من الثورة الاجتماعية. بل إن ماتزيني، الشديد التعلّق بالناس العاديين، كان يفضل أن يقصروا اهتمامهم على الشؤون الروحية. كما أنه كان يمقت الاشتراكية ويعارض أي تدخل في الملكية الخاصة. ومن ثم فإن الثورة الإيطالية ظلت، بعد فشلها الأولي، تلعب في الوقت الضائع. ومن المفارقات أنه كان من بين من قمعوها جيوش فرنسا التي كانت قد فقدت طابعها الثوري آنذاك، وأعادت السيطرة على روما في أوائل أيار/ أيار. وكانت الحملة على روما

محاولة لتأكيد نفوذ الدبلوماسية الفرنسية على شبه الجزيرة الإيطالية مقابل النمسا. كما أنها تمتعت بميزة إضافية هي شعبيتها في أوساط الكاثوليك الذين كان يعتمد عليهم النظام السابق على الثورة.

خلافاً لإيطاليا، كانت هنغاريا كياناً سياسياً موحداً بشكل أو بآخر (أراضي تاج سانت ستيفن)، وذات دستور فاعل، ودرجة عالية من الاستقلال الذاتي، واجتمعت فيها، في واقع الأمر، أكثر العناصر اللازمة لدولة ذات سيادة ما عدا الاستقلال. أما موطن الضعف فيها فهو أن الأرستقراطية المجرية التي حكمت تلك المناطق الشاسعة والأراضي الزراعية في أغلبها لم تمارس سلطتها على الفلاحين المجريين في السهول العريضة فحسب، بل على شعب يمثل ستين في المئة منه خليط من الكرواتيين، والسلوفاكيين، والرومانيين، والأوكرانيين، بالإضافة إلى أقلية ألمانية ذات شأن. ولم تكن هذه الجموع الفلاحية مجافية للثورة التي حررت الأقنان، إلا أن روح العداء استشرت بينها جراء رفض أكثر الراديكاليين في بودابست تقديم أي تنازلات لاختلاف أصولهم ومنابتهم الوطنية عن المجريين. كذلك فإن الناطقين باسمهم قد استثيرت حفيظتهم بسبب سياسة «التهجير» الكاسحة، وإدماج الأقاليم الحدودية التي كانت تتمتع بما يشبه الاستقلال الذاتي ضمن نطاق دولة مجرية موحدة ومركزية الإدارة. وقد دعمهم البلاط في فيينا، تنفيذاً للسياسة الإمبراطورية المعهودة التي ترتكز على قاعدة «فرقْ تسدْ». غير أن جيشاً كرواتياً، يقوده البارون يللاتشيك، صديق رائد القومية اليوغوسلافية غاي، هو الذي قاد الهجوم على فيينا الثورية وهنغاريا الثورية.

وعلى الرغم من ذلك، فإن الثورة، في المنطقة التي تحتلها هنغاريا تقريباً في أيامنا هذه، حافظت على التأييد الجماهيري من جانب الشعب (المجري)، لأسباب وطنية واجتماعية على السواء. فقد رأى الفلاحون أن من منحهم الحرية لم يكن الإمبراطور بل الدايت (البرلمان) الهنغاري.

وكانت هنغاريا هي المنطقة الوحيدة في أوروبا التي نشبت فيها في أعقاب هزيمة الثورة انتفاضة فلاحية أشبه بحرب عصابات تزعمها قاطع الطريق المشهور ساندور روسزا لسنوات عديدة. وعندما اندلعت الثورة، فإن الدايت، المؤلف من هيئة تشريعية عليا تضم الأقطاب المهادنين أو المعتدلين، ومجلس نيابي يسيطر عليه أعيان الريف والمحامون الراديكاليون، استعاض عن العمل المباشر بالاحتجاج فقط. وقد لجأوا إلى هذا الموقف فوراً لأغراض عملية، بزعامة محام قدير وصحفي وخطيب مفوّه هو لويس كوسوث (Louis Kossuth) (1802 ـ 1894) الذي أصبح من الشخصيات الثورية المعروفة عالمياً عام 1848. وقد بقيت هنغاريا، بقيادة حكومة ائتلافية بين المعتدلين والراديكاليين الذين اعترفت بهم فيينا على مضض، دولةً مستقلةً إصلاحية، حتى تمكنت أسرة هابسبيرغ من إعادة السيطرة عليها على الأقل. ولم تتمكن من ذلك إلا بعد معركة كوستوزا. وبعد أن قامت بإلغاء قوانين آذار/ مارس الإصلاحية الهنغارية، خيّرت فيينا الهنغاريين بين الاستسلام أو التطرف الراديكالي، فإن هنغاريا، بزعامة كوسوث، أحرقَت مراكبها، وعزلت الإمبراطور في نيسان/ أبريل 1849 (ولكنها لم تعلن الجمهورية رسمياً). وقد تضافرت المساندة الشعبية وقدرة الجنرال جورجي (Görgei) العسكرية ومكنت الهنغاريين من الصمود والتصدي للجيش النمساوي. ولم يمنوا بالهزيمة إلا عندما أقدمت فيينا اليائسة على استدعاء ترسانة الرجعية العظمى وهي الجيش الروسي الذي أدّى الدور الحاسم. وفي 13 آب/ أغسطس، استسلمت فلول الجيش الهنغاري، لا للنمساويين، بل للقائد الروسي. وبين الثورات كلها التي حدثت عام 1848، كانت الثورة الهنغارية هي الوحيدة التي لم تسقط، بل لم تكن تبدي أعراض الانهيار بسبب مواطن الضعف أو الصراعات الداخلية، بل بسبب الغزو العسكري القاهر. وغني عن البيان، بطبيعة الحال، أن تحاشي مثل هذا الغزو بعد انهيار كل شيء آخر كان أمراً محالاً.

ترى، هل كان ثمة بدائل لهذه النكسة الشاملة؟ كلا بالتأكيد،

فمن بين الفئات الاجتماعية الرئيسية التي شاركت في الثورة، اكتشفت البورجوازية، كما رأينا، أن من الأفضل لها المحافظة على النظام العام بدلاً من اغتنام الفرصة لتنفيذ برنامجها كاملاً إذا كان في ذلك تهديد لأملاكها، فقد رص الليبراليون المعتدلون والمحافظون صفوفهم في مواجهة الثورة «الحمراء». وفي فرنسا، أوقف «الوجهاء»؛ أي زعماء العائلات المحترمة الثرية المتنفذة الذين كانوا في سدة الحكم، المناحرات التي كانت تدور بين مناصري أسرة البوربون، وأسرة أورليان، وحتى الجمهوريين، ونما في أوساطهم وعي طبقي وطني عبر تنظيم جديد ناشئ هو «حزب النظام العام». وكان من بين الرموز الرئيسية في حكم أسرة هابسبيرغ التي استعيدت سلطتها وزير الداخلية ألكسندر باخ (Alexander Bach) (1806 ـ 1867)، وهو انتهازي من الليبراليين المعتدلين سابقاً، وكذلك ك. فون بروك (K. Von Bruck)، وهو من أساطين الشحن والتجارة، وشخصية بارزة في ميناء ترييست الآخذ بالازدهار. وكان أصحاب البنوك وأرباب المشروعات الممثلون للبورجوازية الليبرالية البروسية في الراينلاد يفضلون إقامة نظام ملكي دستوري محدود، غير أنهم اكتفوا وارتاحوا لأدوارهم بوصفهم من أركان بروسيا المستعادة التي تنأى بنفسها في الأحوال كلها عن الاقتراع الديمقراطي. ومقابل ذلك، كانت الأنظمة المحافظة المستعادة مستعدة تماماً لتقديم تنازلات في المجالات الاقتصادية والقانونية، وحتى الليبرالية الثقافية لأصحاب الأعمال طالما أن هذه التنازلات لا تتضمن أي تراجع سياسي. وكما سنلاحظ لاحقاً، فإن خمسينيات القرن التاسع عشر الرجعية ستكون، من الوجهة الاقتصادية، هي سنوات التحرير التجاري المنهجي. ولهذا السبب، حقق الليبراليون المعتدلون في عامي 1848 و1849 اكتشافين مهمين في أوروبا الغربية: **أولهما** أن الثورة كانت خطيرة، و**ثانيهما** أنه يمكن تلبية جانب من مطالبهم الأساسية (وبخاصة الاقتصادية منها) دونما ثورة. ومن ثم لم تعد البورجوازية قوة ثورية.

لقد تشكلت قوة ثورية ذات شأن، ولكنها قلما طُرحت كبديل سياسي. وضمت هذه القوة في صفوفها القطاع العريض للشرائح الدنيا من الطبقات الوسطى، والحرفيين الساخطين، وصغار التجار... وغيرهم، وحتى المزارعين الذين كان المثقفون ولا سيما الشباب والمهمشون وزعماؤهم الناطقون باسمهم. وكان هؤلاء على العموم يقفون في معسكر اليسار الديمقراطي. وطالب اليسار الألماني بانتخابات جديدة؛ لأن التيار الراديكالي بينهم كان قد أثبت حضوراً قوياً في مناطق عديدة في أواخر عام 1848 وأوائل عام 1849، مع أنه كان بعيداً عن مراكز المدن الكبرى التي تولى الرجعيون موقع الصدارة فيها مرة أخرى. وفي فرنسا، حصل الديمقراطيون الراديكاليون على مليوني صوت، مقابل ثلاثة ملايين للملكيين، وثمانمئة ألف للمعتدلين. وقد دفع المثقفون بنشطائهم إلى الساحة، على الرغم من أن «كتائب الأكاديميين» لم يشكلوا قوة قتالية ضاربة فعلية إلا في فيينا. وثمة خطأ فادح في اعتبار 1848 عام «ثورة المثقفين». فلم يكن بروز هؤلاء في تلك الثورة أكثر من ظهورهم في أكثر الثورات الأخرى التي تحدث غالباً في بلدان متخلفة نسبياً يتألف فيها الجانب العريض من الطبقات الوسطى من أشخاص يتميزون بقدر من التعليم وبالتمكن من الكتابة، من بينهم: خريجو الجامعات على اختلافهم، والصحافيون، والمدرسون، والموظفون الحكوميون. إلا أنه كان ثمة مثقفون بارزون لا ريب، وشعراء مثل بيتوفي في هنغاريا، هيرفيغ (Herwegh) وفريلغراث (Freiligrath) في ألمانيا (وكان في هيئة التحرير لصحيفة ماركس *Neue Rheinische Zeitung*)، فيكتور هوغو (Victor Hugo) والمعتدل الدائم لامارتين (Lamartine) في فرنسا؛ والأكاديميون بأعداد كبيرة

(16) كان المدرسون الفرنسيون، وهم موضع شبهة من جانب الحكومات، قد التزموا الصمت خلال فترة الحكم الملكي، إلا أنهم سرعان ما انضموا إلى صفوف المدافعين عن «النظام العام» عام 1848.

(وخصوصاً في صفوف المعتدلين) في ألمانيا[16]؛ والأطباء مثل س. ج. جاكوبي (C. G. Jacoby) (1804 ـ 1851) في بروسيا، وأدولف فيخوف (Adolf Fischhof) (1816 ـ 1893) في النمسا؛ والعلماء من أمثال ف. ف. راسبيل (F. V. Raspail) (1794 ـ 1878)؛ وأعداد ضخمة من الصحافيين والدعاة الذين كان كوسوث هو الأشهر، وماركس هو الأخطر بينهم آنذاك.

كان بوسع هؤلاء الأشخاص، بوصفهم أفراداً، أن يؤدوا دوراً حاسماً؛ ولكن ليس بوصفهم أعضاء في طبقة اجتماعية معينة أو ممثلين للبورجوازية الصغيرة الراديكالية. كان هؤلاء «الرجال الصغار» يؤمنون بديمقراطية حقيقية، على الرغم من أن الأزمة الاجتماعية التي هددت أسلوب الحياة لدى الحرفيين الفنيين وأمثالهم، والكساد الاقتصادي الموقت قد أضفيا على هذه النزعة الديمقراطية طابع المرارة. وقد وجد التيار الراديكالي تعبيراً عنه في المطالبة بـِ «دستور ديمقراطي للدولة، سواء أكانت دستورية أم جمهورية. يعطي الأغلبية لهم ولحلفائهم الفلاحين، وكذلك حكماً محلياً ديمقراطياً يمكنهم من السيطرة على الأملاك البلدية، وعلى سلسلة من المهمات التي يقوم بها البيروقراطيون»[17]. أما المثقفون، فإن جذور الراديكالية لديهم كانت أقل عمقاً، فقد بنيت أساساً على عجز المجتمع البورجوازي الجديد قبل عام 1848 (وهو عجز موقت كما تبين في ما بعد) عن إيجاد وظائف مناسبة في السلم الاجتماعي للمتعلمين الذين خلقتهم بأعداد غير مسبوقة، وكانت المكافآت الممنوحة لهم أدنى بكثير مما كانوا يطمحون إليه. ما الذي حدث لطلاب 1848 الراديكاليين في سنوات الازدهار في الخمسينيات والستينيات من ذلك القرن؟ لقد اختطوا لحياتهم السبيل المعهود المألوف في القارة الأوروبية؛ إذ زرع أولئك الأولاد

(17) Karl Marx, *Karl Marx, Friedrich Engels. Werke* (Berlin: Dietz, 1956-), vol. VII, p. 247: Adress to the Communist League (March 1850).

البورجوازيون بذور نزعاتهم السياسية والجنسية الجامحة عندما كانوا في ريعان الشباب، ثم «استقروا» فيما بعد. وتوافرت لهم فرص عديدة لهذا الاستقرار، ولا سيما أن تقهقر فئة النبلاء القدامى وتحول البورجوازية الاقتصادية إلى الكسب المالي قد فتحا مجالاً واسعاً أمام من كانت مؤهلاتهم دراسية وأكاديمية في المقام الأول. ففي عام 1848، كان عشرة في المئة من معلمي المدارس الثانوية [الليسيه] الفرنسية من أبناء «الوجهاء»، ولكن هذه النسبة انخفضت إلى الصفر عام 1877. وكان عدد خريجي المدارس الثانوية (Bacheliers) في فرنسا عام 1868 يقارب عددهم في ثلاثينيات ذلك القرن أو يكاد. غير أن أعداداً أكبر من ذلك بكثير كانت تدخل مجالات العمل في البنوك، والتجارة، والصحافة الناجحة، ثم، بعد عام 1870، السياسة الاحترافية[18].

وإضافة إلى ذلك، كان حتى الديمقراطيون الراديكاليون، عند اقتراب الثورة الحمراء، يلجأون إلى الشعارات الخطابية الطنانة، بعد أن غدوا في حيرة من أمرهم بين التعاطف مع «الشعب» من جهة، وحرصهم على أملاكهم وأموالهم من جهة أخرى. وخلافاً للبورجوازية الليبرالية، لم تتقلب مواقفهم بين هذا وذاك، بل إنهم راوحوا في موقفهم، من دون أن يتطرفوا في ميلهم إلى اليمين.

أما الكادحون الفقراء، فقد كانوا يفتقرون إلى التنظيم، والنضج، والقيادة، وربما الأهم من ذلك كله إلى لحظة التأزم التاريخية اللازمة لتمكينهم من طرح البديل السياسي. لقد كانوا من القوة بحيث أظهروا أن مستقبل الثورة الاجتماعية يبدو في ظاهره حقيقياً وحافلاً بالمخاطر، غير أنهم كانوا أيضاً من الضعف بحيث اقتصروا على إفزاع أعدائهم

---

(18) Paul Gerbod, *La Condition universitaire en France au XIXe siècle*, publications de la faculté des lettres et sciences humaines de Paris. Série recherches; 26 (Paris: Presses universitaires de France, 1965).

فحسب. على أن قوتهم كانت فاعلة بصورة لا تناسب فيها؛ لأن انتشارهم تركّز في أوساط الجماهير الجائعة في المناطق الأكثر حساسية من الوجهة السياسية، وهي المدن الكبيرة، وبخاصة العواصم. وقد أخفى ذلك بعض مواطن الضعف الأساسية، ومنها ضآلة عددهم ـ إذ إنهم لم يشكلوا على الدوام الأغلبية في المدن التي كانت بدورها لا تضم إلا أقلية متواضعة من السكان. ومن هذه العيوب كذلك فجاجتهم السياسية والأيديولوجية. فقد كانت الشريحة الأنشط والأكثر وعياً من الوجهة السياسية بينهم تضم الحرفيين الفنيين قبل الصناعيين (ونحن نستخدم هذا المصطلح بالمعنى البريطاني المعاصر الذي يشمل عمال المياومة البارعين، والحرفيين، والعمال اليدويين المهرة في المشاغل غير المُمَكْننة، وغيرها). وقد جرفتهم الأيديولوجيات الثورية الاجتماعية، وحتى الاشتراكية والشيوعية في ما تبقى في فرنسا من تيارات اليعاقبة اللامتسرولين فغدت أهدافهم الجماهيرية متواضعة بصورة متميزة في ألمانيا ـ وذلك ما اكتشفه صاحب المطبعة الشيوعي ستيفان بورن في برلين. ذلك أن الفقراء والمهرة في المدن، وكذلك جمهرة البروليتاريا في المصانع والمناجم في بريطانيا، لم يكن قد ترعرعت بينهم بعد أي أيديولوجيا سياسية. كما أن النزعة الجمهورية في المنطقة الصناعية من شمال فرنسا لم تكن قد شهدت أي تحركات قبل نهاية الجمهورية الثانية. وعام 1848، كانت مدينتا ليل وروبيه منشغلتين بمشكلاتهما الاقتصادية، ولم يستهدف مثيرو الشغب فيهما الملوك والبورجوازية، بل وجهت ضد العمال البلجيكيين المهاجرين الذين كانوا أكثر إملاقاً وجوعاً منهم.

إن سكان المراكز الحضرية والبروليتاريين الجدد في حالات نادرة، أصبحوا قوة سياسية، باعتبارها حركات شغب على الأقل، حالما دخلوا دائرة الأيديولوجيا اليعقوبية أو الاشتراكية أو الجمهورية ـ الديمقراطية أو اختلطوا، كما كانت الحال في فيينا، بأوساط الطلبة النشيطين. (وكانت مشاركتهم بالانتخابات ضئيلة ومتقلبة حتى ذلك الحين، خلافاً للأوضاع

في سكسونيا وبريطانيا التي كان العمال الريفيون المعوزون فيهما يتميزون بنزعة راديكالية عارمة). ومن المفارقات أن مثل هذه الأوضاع كانت نادرة في فرنسا اليعقوبية خارج باريس بينما كانت الرابطة الشيوعية التي تزعمها ماركس في ألمانيا تمثل العناصر اللازمة لإقامة شبكة تشمل اليسار المتطرف، أما خارج دائرة النفوذ تلك، فإن الكادحين الفقراء لم تكن لهم أهمية تذكر من الوجهة السياسية.

وعلينا بالطبع أن لا نقلل من قدرة «بروليتاريا» عام 1848 باعتبارها قوة سياسية فتية، على ما فيها من عدم النضج، مع أنها لم تكن حتى ذلك الحين قد طورت وعيها لنفسها باعتبارها طبقة اجتماعية. بل إن طاقتها الثورية آنذاك كانت، على نحو ما، أقوى مما أصبحت عليه في وقت لاحق. وبعد انتشار الإملاق والتأزم قبل عام 1848، لم تقتنع إلا قلة قليلة بأن الرأسمالية ستؤدي، أو يجب أن تؤدي، إلى مستويات معيشية لائقة. بل إنها ستكون قادرة على البقاء والاستمرار. وكانت الطبقة العاملة غريرة وضعيفة الجناح وتترعرع آنذاك في أوساط جماهير الكادحين الفقراء وكبار الحرفيين المستقلين وصغار التجار. وحالت هذه الأوضاع كلها دون التركيز على مطالبهم الاقتصادية، ولا سيما في المناطق المعزولة التي يعمّها الجهل. غير أن المطالب السياسية التي لا تقوم من دونها الثورة حتى وإن كانت مجرد ثورة اجتماعية، قد تنامت في هذه الأوضاع. وكانت الأهداف الشعبية عام 1848، وهي «الجمهورية الديمقراطية الاجتماعية»، اجتماعية وسياسية على حد سواء. وقد أدخلت فيها تجربة الطبقة العاملة، وبخاصة في فرنسا، عناصر مؤسسية جديدة تنطلق من ممارسات النقابات العمالية والتعاونيات على الرغم من أنها لم تخلف عناصر فيها من الجدة والقوة ما في السوفياتات التي نشأت في روسيا في أوائل القرن العشرين.

من جهة أخرى، تميز التنظيم، والأيديولوجيا، والقيادة بالتخلف الشديد، بل إن أبسط أشكال التنظيم، وهو النقابة، لم يكن يضم إلا

بضع مئات أو بضعة آلاف من الأعضاء في أحسن الحالات. وكانت جمعيات رواد العمل النقابي المدربين تظهر أول مرة خلال الثورة ـ مثل نقابة عمال المطابع في ألمانيا، وصانعي القبعات في فرنسا. وكان عدد الاشتراكيين والشيوعيين المنظمين أكثر هزالاً، بضع عشرات أو بضع مئات على أكثر تقدير. ومع ذلك، كانت ثورة 1848 هي الأولى التي شارك فيها الاشتراكيون بل الشيوعيون؛ لأن اشتراكية ما قبل 1848 كانت حركة محايدة سياسياً إلى حد بعيد، ومعنّية بإقامة التعاونيات اليوتوبية. وقد تصدر هؤلاء مقدمة المسرح منذ البداية. ولم تكن 1842 هي سنة كوسوث، و أ. ليدرو ـ رولان (A. Ledru- Rollin) (1807 ـ 1874)، وماتزيني فحسب، بل كانت كذلك سنة كارل ماركس (1818 ـ 1883)، لويس بلانك (Louis Blanc) (1811 ـ 1882)، و ل. أ. بلانكي (L. A. Blanqui) (المتحرر الصارم الذي لم يكن يغادر السجن الذي أمضى فيه جل حياته إلا عندما تحرره الثورات لفترات وجيزة)، وباكونين (Bakunin)، وحتى برودون (Proudhon). ولكن ما الذي كانت تعنيه الاشتراكية للملتزمين بها غير كونها اسماً لطبقة عاملة واعية لنفسها تتطلع إلى إقامة مجتمع مختلف بعد الإطاحة بالرأسمالية؟ بل إن دعاة الاشتراكية لم يكن لهم تعريف واضح، فقد كثر الحديث في ذلك الوقت عن «طبقة عاملة» بل عن «بروليتاريا». غير أن الحديث لم يتطرق خلال الثورة نفسها إلى «الرأسمالية» على الإطلاق.

ترى، كيف كان المنظور السياسي لطبقة عاملة اشتراكية؟ إن كارل ماركس نفسه لم يكن يعتقد أن ثمة ثورة بروليتارية على الأبواب. وحتى في فرنسا، «كانت بروليتاريا باريس عاجزة عندئذ عن تجاوز حدود الجمهورية البورجوازية إلا في الفكر، وفي الخيال». «إن احتياجاتها الفورية المعلنة لم تدفعها إلى الرغبة في تحقيق النصر بإطاحة البورجوازية بالقوة، ولم تكن قادرة على ذلك». وأقصى ما يمكن إنجازه آنذاك هو إقامة جمهورية بورجوازية تكشف النقاب عن طبيعة نضال المستقبل الحقيقية ـ بين البروليتاريا والبورجوازية ـ وتجمع بدورها بقية الطبقات

الوسطى والعمال سوياً «لأن أوضاعها ستصبح فوق قدرتها على الاحتمال، وعداءها للبورجوازية سيغدو أكثر حدةً»[19]. لقد كانت أول الأمر جمهورية ديمقراطية، ثم تحولت إلى انتقال من بورجوازية ناقصة إلى ثورة شعبية بروليتارية، ثم، في نهاية المطاف، إلى دكتاتورية البروليتاريا أو، وفق التعبير الذي لا بد أن ماركس استعاره من بلانكي الذي يدل على مدى التقارب المؤقت بين الثوريين العظماء في أعقاب عام 1848 مباشرة، إلى «الثورة الدائمة». بيد أن ماركس، خلافاً لما فعله لينين (Lenin) عام 1917، لم يفكر في الاستعاضة عن الثورة البورجوازية بثورة بروليتارية إلا بعد هزيمة 1848؛ وعلى الرغم من أنه تبنى يومذاك وجهة نظر قريبة من موقف لينين لاحقاً (بما فيها «مساندة الثورة بطبعة جديدة من حرب الفلاحين» على حد قول إنجلز، فإنه لم يتمسك طويلاً بهذا الرأي؛ ذلك أن 1848 لم تتكرر في طبعة جديدة في أواسط أوروبا وغربها. وسرعان ما أدرك عنده أنه لا بد للطبقة العاملة من أن تسلك طريقاً مختلفة.

لقد هبت ثورات 1848، إذاً، واندلعت باعتبارها موجة عظيمة، ولم تترك وراءها إلا الأسطورة والوعد. «وكان عليها أن تكون» ثورات بورجوازية، غير أن البورجوازية انسحبت منها. وربما عززت إحداها الأخرى بزعامة فرنسا عن طريق منع أو تأجيل استعادة الحكام السابقين لمقاليد السلطة، والتصدي لقيصر روسيا. بيد أن البورجوازية الفرنسية آثرت الاستقرار الاجتماعي الداخلي وفضلته على المكاسب أو المخاطر التي قد ينطوي عليها كونها «الأمة العظيمة» (La Grande nation). من هنا فإن زعماء الثورة المعتدلين ترددوا في المطالبة بتدخل الفرنسيين ولم يكن ثمة قوة اجتماعية أخرى قادرة على مساندتهم وتعزيز حماستهم، باستثناء حركات النضال ضد القوى المهيمنة سياسياً من أجل تحقيق

(19) Karl Marx, *The Class Struggles in France 1848 to 1850*, in: Marx, Ibid., vol. VII, pp. 30-31.

الاستقلال الوطني. بل إن هذه الحركات قد فشلت كذلك؛ لأن حركات الكفاح الوطني كانت معزولة، وفي الحالات كلها أضعف من أن تصمد أمام قوة الدول الكبرى العسكرية. وقد أدت شخصيات 1848 البارزة المعروفة أدواراً بطولية على المسرح الأوروبي لشهور عدة، ثم اختفت إلى الأبد، ما عدا غاريبالدي، الذي قدر له بعد اثنتي عشرة سنة أن يشهد أياماً أكثر تألقاً وعظمة. أما كوسوث وماتزيني، فقد عاشا ما تبقى من العمر في المنفى، ولم يسهما إلا بالقليل لتحقيق الاستقلال أو الوحدة لبلديهما، مع أنهما احتلا مكانة كريمة وعالية في الوطنية. ولم يعرف ليدرو ـ رولان وراسبيل لحظات أخرى تستحق الاحتفاء والتمجيد مثل الجمهورية الثانية، وعاد الأساتذة الفصحاء في برلمان فرانكفورت إلى دراساتهم ومحاضراتهم. وفي خمسينيات ذلك القرن، ومن جملة المنفيين المتحمسين الذين كانوا يضعون الخطط، ويشكلون في المنفى وفي ضباب لندن حكومات منافسة لحكومات بلدانهم، لم يبق من الآثار إلا ما وضعه اثنان من أكثر الناس عزلة وخروجاً عن المألوف، وهما كارل ماركس وفريدريخ إنجلز. غير أن 1848 لم يكن مجرد حادث تاريخي وجيز من دون تداعيات. فقد كانت التغيرات التي أفضى إليها عميقة كل العمق، حتى وإن لم تكن هي التي سعى إلى تحقيقها الثوريون، أو التي يمكن تحديدها في نطاق الأنظمة السياسية، والقوانين، والمؤسسات. لقد شكل ذلك العام، في غرب أوروبا على الأقل، نهاية للتقاليد السياسية التي توهمت الأنظمة الملكية أن شعوبها (باستثناء الطبقات الوسطى الساخطة) ستقبل، بل سترحب بها، ونهاية للسلالات الحاكمة التي اعتبرت نفسها ظل الله على الأرض وقيّماً على مجتمعات مقسمة وفق تراتب طبقي، بمباركة من المؤسسات الدينية التقليدية، ونهاية للإيمان بالحقوق والواجبات الأبوية التي يتمتع بها السادة المتفوقون اجتماعياً واقتصادياً. وعلى حد تعبير الشاعر غريلبارزر (Grillparzer)، الذي لم يكن ثورياً؛ بأي حال من الأحوال، في قصيدة ساخرة يفترض أنه وضعها ـ عن ميترنيخ:

هنا يرقد، بعد أن آلت أمجاده إلى الزوال

دون كيخوته فقيه الشرعية الشهير

الذي دأب على تزييف الحقائق والوقائع

واعتقد أنه هو رمز الحكمة.

وانتهى به الأمر إلى تصديق الأكاذيب التي اخترعها؛

هذا المخرف العجوز،

الذي كان مخادعاً وغْداً في شبابه:

كان أعجز من أن يدرك الحقيقة[20].

من هنا، كان على قوى المحافظة والامتيازات، والثورة أن تدافع عن نفسها بانتهاج وسائل جديدة. فخلافاً لما درج عليه الناس، حتى الفلاحون العابسون الجهلة في جنوب إيطاليا قبل خمسين سنة، فإنهم توقفوا في ربيع 1848 عن تمجيد الحكم المطلق. وعندما زحفوا لاحتلال الأرض، لم يعربوا إلا لماماً عن عدائهم تجاه «الدستور».

لقد تعيّن على المدافعين عن النظام الاجتماعي أن يتعلموا السياسات التي يؤمن بها الشعب. وكان ذلك هو الابتكار الرئيسي الذي نجم عن ثورات 1848، حتى إن أعضاء الأرستقراطية الإقطاعية البروسية المغرقين في الرجعية اكتشفوا تلك السنة أنهم بحاجة إلى صحيفة قادرة على التأثير في «الرأي العام» ـ وهو، بحد ذاته، مفهوم مرتبط بالليبرالية ومناقض للتراتبية الهرمية التقليدية. وقد شرح أذكى الرجعيين البروسيين عام 1848، أوتو فون بسمارك (1815 ـ 1898)، في

(20) Franz Grillparzer, *Sämtliche Werke, ausgewählte Briefe*, 4 vols. (München: C. Hanser, [1960-1965]), vol. 1, p. 137.

وقت لاحق، فهمه الواضح لطبيعة السياسات الخاصة بالمجتمع البورجوازي وبين تمكنه من أساليب تطبيقها. غير أن فرنسا هي التي شهدت أكثر الابتكارات أهمية في هذا المجال.

كانت هزيمة انتفاضة الطبقة العمالية هناك في حزيران/ يونيو قد أسفرت عن قيام «حزب النظام العام» القوي، القادر على دحر الثورة الاجتماعية والعاجز، في الوقت نفسه، عن كسب التأييد من الجماهير، وحتى من كثير من المحافظين الذين لم يريدوا من دفاعهم عن «النظام» أن يمثل التزامات من جانبهم بنوع محدد من التيار الجمهوري المعتدل الذي كان في سدة الحكم آنذاك. وكانت حالة التحشيد في الأوساط الشعبية تحول دون السماح بتقييد الانتخابات، فلم يتم حتى عام 1850 حرمان قسم مهم من «الجمهرة الشريرة» من حق الاقتراع. وكان هؤلاء يمثلون الثلث في فرنسا، ونحو الثلثين في باريس الراديكالية. وإذا كان الفرنسيون في كانون الأول/ ديسمبر قد انتخبوا سياسياً معتدلاً لرئاسة الجمهورية، فإنهم، على الأقل، لم ينتخبوا رئيساً راديكالياً. (ولم يكن ثمة مرشح ملكي). وكان الفائز بأغلبية ساحقة تبلغ خمسة ملايين ونصف مليون مقترع من أصل سبعة ملايين وأربعة أعشار المليون من جملة الناخبين، هو لويس نابليون، ابن شقيق الإمبراطور العظيم. وعلى الرغم من أنه أثبت في ما بعد دهاءه السياسي، فلم يكن له عند مجيئه إلى فرنسا في أواخر أيلول/ سبتمبر أي موارد غير اسم العائلة الطنان، والدعم البنكي الذي قدمته له عشيقته الإنجليزية المخلصة. ومن الواضح أنه لم يكن ثورياً اجتماعياً، ولم يكن محافظاً كذلك؛ بل إن أنصاره لعبوا على وترٍ حساسٍ هو ولعه في شبابه بالسان سيمونية، وتعاطفه المزعوم مع الفقراء. غير أنه فاز في الانتخابات؛ لأن الفلاحين صوتوا لمصلحته بقوة تحت شعار: «لا ضرائب بعد اليوم، ليسقط الأغنياء، لتسقط الجمهورية، يحيا الإمبراطور». وبعبارة أخرى؛ فإن العمال، كما لاحظ ماركس، صوتوا له ضد جمهورية الأغنياء؛ لأنه كان في نظرهم يعني «عزل كافينياك (Cavaignac) [الذي قمع انتفاضة حزيران/ يونيو]،

وإزالة النزعة البورجوازية الجمهورية، وإلغاء انتصار حزيران/ يونيو»[21]، والبورجوازية الصغيرة؛ لأنه لم يكن، على ما يبدو، يمثل البورجوازية الكبيرة.

دلّ انتخاب لويس نابليون على أنه يمكن حتى للديمقراطية وحق الاقتراع الشامل، والمؤسسات المرتبطة بالثورة أن تنسجم والمحافظة على النظام الاجتماعي. ولم تكن جمهرة الأغلبية الساخطة ملزمة بانتخاب حكام يعتزمون القيام بـِ «انقلاب مجتمعي». ولم تجر الاستفادة من الدروس الكبيرة المستقاة من تلك التجربة على الفور؛ لأن لويس نابليون سارع إلى إلغاء الجمهورية، وسمّى نفسه إمبراطوراً، مع أنه لم ينسَ الميزات والفوائد المترتبة على حق الاقتراع العام ـ الذي أعاد إقراره مجدداً ـ إذا أحسنت إدارته. لقد كان أول رئيس للدولة في العصر الحديث يحكم لا بقوة السلاح فحسب، بل بنوع من الغوغائية والعلاقات العامة التي تسهل إدارتها من قمة الدولة أكثر من أي طرف آخر. ولم تقتصر تجربته على التأكيد بأن مفهوم «النظام الاجتماعي» يمكن أن يتنكر ويغدو قوة مؤثرة قادرة على استهواء أنصار «اليسار»، بل إنه يجب التعامل مع هذا المفهوم على هذا النحو في بلد وعصر يُحشد فيهما المواطنون للمشاركة في الأنشطة السياسية. لقد بينت ثورات عام 1848 أن الطبقات الوسطى، والليبرالية، والديمقراطية السياسية، والقومية، وحتى الطبقات العاملة، إنما تمثل كلها الملامح الدائمة للمشهد السياسي. وقد تفضي هزيمة الثورات إلى إخفائها عن الأنظار بعض الوقت، بيد أنها، عندما عادت إلى الظهور، حددت المواقف التي اتخذها حتى رجال الدولة الذين لم يظهروا أي تعاطف معها في الماضي.

---

(21) Marx, Ibid., vol. VII, p. 44.

القســـم الثانـــي

التطورات



الفصل الثاني

الازدهار العظيم

«هنا، يقوم الرجل المتنفذ في مجال أسلحة السلام، ورأس المال، والآلات باستخدامها لتوفير الراحة والمتعة للجمهور الذي يخدمه، وهو بذلك يجلب بهذه السلع الثراء لنفسه وللآخرين».

وليام وِيولْ (William Whewell)، 1852[1].

«يمكن لشعب ما أن يحقق الرفاه المادي من دون اللجوء إلى وسائل مدمرة إذا كان أفراده راغبين في التعلم، والعمل الجاد، متفائلين على الدوام في تحسين أحوالهم بأنفسهم».

من القانون الأساسي لِـ «جمعية مكافحة الجهل» التي أسسها كليرمون ـ فيرّان (Clermont-Ferrand) 1869[2].

«إن البقاع المأهولة في هذا العالم تتسع بسرعة. وثمة مجتمعات جديدة، أي أسواق جديدة، تنبثق كل يوم في ما كان حتى عهد

---

(1) ورد في: *Ideas and Beliefs of the Victorians; an Historic Revaluation of the Victorian Age* ([London]: Sylvan Press, [1949]), p. 51.

(2) أنا مدين بهذه الإحالة للبروفيسور سانفورد إلويت (Sanford Elwitt).

قريب مناطق صحراوية في «العالم الجديد» في «الغرب» وفي الجزر الخصيبة في «العالم القديم» في «الشرق».

«فيلوبونوس»، 1850[3].

I

لم يكن لغير قلة قليلة من المراقبين أن يتكهنوا عام 1849 بأن عام 1848 سيشهد آخر ثورة عامة في الغرب، فقد تحققت المطالب السياسية لليبرالية، والديمقراطية الراديكالية والقومية، باستثناء «الجمهورية الاجتماعية» تدريجياً على مدى السنين السبعين اللاحقة من دون أي فورات داخلية. وأثبتت البنية الاجتماعية في الأجزاء المتقدمة من القارة الأوروبية قدرتها على المقاومة والصمود في وجه الضربات الكارثية التي حملها القرن العشرون، وحتى أواسط السبعينيات منه على الأقل. ويكمن السبب الرئيسي لذلك في التحول والتوسع الاقتصادي الخارق بين 1848 وأوائل السبعينيات من القرن التاسع عشر - وهي الفترة التي يعالجها هذا الفصل، فهذه هي المرحلة التي أصبح فيها العالم رأسمالياً، والأقلية المهمة من البلدان «المتقدمة» اقتصادات صناعية.

وقد بدأ عصر الارتقاء الاقتصادي غير المسبوق هذا بازدهار باهر كان، إذا جاز التعبير، حبيساً بعض الوقت في ثنايا أحداث العام 1848. لقد كان ما أشعل الثورات هو الأزمة الاقتصادية الأخيرة، وربما الأعظم، من النوع القديم، الذي يمت بصلة إلى عالم يعتمد على التقلب في مواسم المحاصيل والفصول. وعالم «الدورة التجارية» الجديد، الذي استطاع الاشتراكيون وحدهم أن يحددوا قسماته بوصفه ممثلاً للإيقاع ونمط التشغيل الأساسيين للاقتصاد

---

(3) «Philoponos,» in: *The Great Exhibition of 1851; or the Wealth of the World in its Workshops* (London: [n. pb.], 1850), p. 120.

الرأسمالي، كان له أنماطه الخاصة من حيث التقلبات الاقتصادية والمصاعب في عالم الواقع، إلا أن الفترة المظلمة المبهمة للتنمية الرأسمالية بدت في أواسط العقد الخامس من القرن التاسع عشر وكأنها شارفت على النهاية في اللحظة التي أوشكت فيها الوثبة الكبرى على الانطلاق. لقد شهد العامان 1847 ـ 1848 كساداً حاداً في الدورة التجارية ربما زاد من تفاقمه أنه تزامن والمصاعب التي عاناها النوع القديم. ومع ذلك، فإنه كان من وجهة النظر الرأسمالية المحضة مجرد انتكاسة غائرة العمق في ما كان يبدو خطاً بيانياً متصاعداً. إن جيمس دو روتشيلد (James de Rothschild)، الذي نظر إلى الوضع الاقتصادي في أوائل عام 1848 باستلطاف ملحوظ، كان اقتصادياً حصيفاً، مع أنه كان، من الوجهة السياسية، متنبئاً فاشلاً. لقد انتهت حال «الرعب» القصوى، وظهرت للمستقبل صورة وردية في المدى البعيد. وعلى الرغم من ذلك، ومع أن الإنتاج الصناعي قد استعاد عافيته بشكل كاف حتى بعد ما يشبه حالة الشلل التي أصابته خلال الأشهر الثورية، فإن المناخ العام ظل مبهماً. وليس بوسعنا أن نحدد بداية الازدهار الكوكبي قبل عام 1850.

ما تلا ذلك كان أمراً خارقاً للعادة حتى إن الناس أخذوا، في غمرة حيرتهم، يبحثون عن أوضاع سابقة يسترشدون بها، فلم يحدث، على سبيل المثال، أن ازدادت في العقد السادس من ذلك القرن. ومن ثم فإن السلع القطنية البريطانية، التي كانت قد تصدرت عملية اختراق السوق على مدى نصف قرن، زادت معدلات نموها بالفعل مقارنة بالعقود السابقة، وتضاعفت مرتين بين عام 1850 و1860. ويغدو هذا الأداء أدعى للدهشة إذا نظرنا إليه بالأرقام المطلقة؛ فبين الأعوام 1820 ـ 1850، ازدادت صادرات بريطانيا منها بما يقرب من 1,100 مليون ياردة، ولكنها ارتفعت بصورة ملموسة، خلال عقد واحد بين الأعوام 1850 و1860 بنمو 1,300 مليون ياردة، وتزايدت أعداد عمال القطن

بنحو مئة ألف عامل بين الفترتين 1819/ 1821 و1844/ 1846، ولكن ضَعُف هذا المعدل في الخمسينيات[4]. ونحن نتعامل هنا مع صناعة ضخمة وعريقة كانت، بالإضافة إلى ذلك، قد فقدت في الواقع أسواقها في أوروبا خلال ذلك العقد جراء تسارع التنمية المحلية. ونجد مؤشرات مشابهة على الازدهار أينما توجهنا. فقد زادت صادرات الحديد من بلجيكا على الضعف بين الأعوام 1851 و1856. وفي بروسيا، أُسست 67 شركة مساهمة، يبلغ رأسمالها 45 مليون ثالر في ربع القرن قبل عام 1850، غير أن 115 من هذه الشركات أُنشئت في الفترة بين الأعوام 1851 ـ 1857 وحدها، عدا شركات القطارات، برأسمال إجمالي يبلغ 114 مليوناً ونصف المليون؛ وأسست كلها تقريباً في السنوات الجميلة بين الأعوام 1853 ـ 1857[5] وليس من الضروري ضرب هذه الأرقام بعضها ببعض، على الرغم من أن معاصريها من رجال الأعمال، ولا سيما مروّجو الشركات، أدمنوا متابعتها.

إن اجتماع رأس المال الرخيص والارتفاع السريع في الأسعار خلال فترة الازدهار تلك هو الذي أشاع الرضى في نفوس رجال الأعمال المتعطشين للربح، فالكساد (في نوع محدد من الدورة التجارية) كان دائماً يعني انخفاضاً في الأسعار في الحالات كلها في القرن التاسع عشر. أما أوضاع الازدهار فتجلب التضخم. وحتى في هذه الحالة، كان ارتفاع مستوى الأسعار بنحو الثلث في بريطانيا كبيراً للغاية بين الأعوام 1848 ـ 1850 وعام 1857. ومن ثَمَّ لم يكن هناك مجال لمقاومة الأرباح التي كانت تنتظر المنتجين، والتجار، والأهم من ذلك، المروّجين. وفي إحدى

(4) Thomas Ellison, *The Cotton Trade of Great Britain. Including a History of the Liverpool Cotton Market and of the Liverpool Cotton Brokers' Association* (London: E. Wilson, 1886), pp. 63, and 66.

(5) Horst Thieme, «Statistische Materialien zur Konzessionierung von Aktienge- sellschaften in Preussen bis 1867,» *Jahrbuch für Wirtschaftsgeschichte*, vol. II (1960), p. 285.

اللحظات في تلك الفترة المدهشة، ارتفع معدل الربح على رأس المال المدفوع في مركز الاعتمادات المنقولة في باريس، وهو شركة التمويل التي كانت رمزاً للتوسع الرأسمالي في تلك المرحلة، إلى ما يقرب من خمسين في المئة[6]. ولم تكن الأرباح من نصيب رجال الأعمال وحدهم. فالعمالة، كما أسلفنا، تزايدت مجالاتها في قفزات سريعة، على صعيد أوروبا، وما وراء البحار، حيث كان الرجال والنساء يهاجرون آنذاك بأعداد متعاظمة[7]. ولا نكاد نعرف شيئاً عن نسبة البطالة الفعلية في ذلك الوقت، غير أن ثمة دليلاً قاطعاً على ثباتها، حتى في أوروبا، فالارتفاع الحاد في كلفة الحبوب (أي العنصر الرئيسي في كلفة المعيشة) بين الأعوام 1853 و1855 لم يعد يثير أعمال الشغب في أوساط الجياع في أي مكان، باستثناء بعض المناطق المتخلفة جداً، مثل شمال إيطاليا (بيدمونت)، وإسبانيا، حيث ساهمت ربما في اندلاع ثورة 1854. وقد أدى ارتفاع نسبة العمالة والاستعداد للتنازل موقتاً عن زيادة الأجور عند الضرورة إلى تآكل حدة السخط. إلا أن الأيدي العاملة المتوافرة الآن في سوق العمل كانت، بالنسبة للرأسماليين، رخيصة نسبياً.

كان لحالة الازدهار تلك تداعيات بعيدة المدى. فقد أعطت الحكومات التي هزتها الثورة فرصة لا تقدر بثمن لالتقاط الأنفاس، لكنها، في الوقت نفسه، بددت آمال الثوريين. فقد انقرضت الميثاقية في بريطانيا، مع أن احتضارها استمر فترة أطول مما افترضه المؤرخون. بل إن زعيمها للفترة الأطول إرنست جونز (Ernest Jones) (1819 ـ 1869) تخلى عن محاولاته لإحياء حركة مستقلة للطبقات العاملة حتى أواخر الخمسينيات من ذلك القرن، وانضم، شأنه شأن أغلب الميثاقيين القدامى، إلى صفوف من أرادوا تنظيم العمال بوصفهم قوة ضاغطة إلى

(6) Jean Bouvier, François Furet et Marcel Gillet, *Le Mouvement du profit en France au XIXe siècle: Matériaux et études* (Hague: [n. pb.], 1955), p. 444.
أنظر الفصل الثاني عشر من هذا الكتاب.

(7) انظر الفصل الحادي عشر من هذا الكتاب.

جانب اليسار الراديكالي لليبرالية. ولم يعد الإصلاح البرلماني يشغل بال الساسة البريطانيين لبعض الوقت، ما منحهم الحرية لممارسة ألاعيبهم البرلمانية المعقدة. بل إن راديكاليي الطبقة الوسطى، ومنهم كوبدن (Cobden) وبرايت (Bright)، بعد نجاحهم في إلغاء قوانين الذرة (Corn Laws) عام 1846، غدوا الآن أقلية هامشية معزولة في الميدان السياسي.

كانت فرصة التقاط الأنفاس هي أهم وأكثر ضرورة للملكيات التي استعادت سلطتها في القارة الأوروبية ولإمبراطورية نابليون الثالث الثانية، وليدة الثورة الفرنسية التي لم تدر بخلد أحد. لقد أعطت هذه الفرص لنابليون، أغلبية انتخابية حقيقية ومؤثرة إلى حد كبير، وأضفت لمسة خاصة على زعمه بأنه إمبراطور «ديمقراطي». كما أنها منحت الملكيات القديمة والمقاطعات وقتاً كافياً لاستعادة نفوذها ولإقرار شرعية الاستقرار والازدهار، التي غدت من الوجهة السياسية الآن أكثر أهمية من شرعية السلالات الحاكمة. كذلك وفرت لهم الريع، وأغنتهم عن الحاجة للتشاور مع الهيئات والمجالس التمثيلية والمصالح المُتعبة الأخرى، وتركت المنفيين السياسيين يعضّون نواجذهم ندماً في منافيهم العقيمة وينشب أحدهم أظافره بوجه الآخر بضراوة. وقد تركتهم هذه الفرص ضعفاء في ميدان الشؤون الدولية، ولكن أقوياء في الداخل. بل إن إمبراطورية الهابسبيرغ، التي استعادت نفوذها بفضل تدخل الجيش الروسي، أصبح بوسعها الآن، للمرة الأولى والأخيرة في تاريخها، أن تدير الأقاليم كلها التابعة لها ـ بما فيها أراضي الهنغاريين الحرونين ـ تحت سيطرة حكم بيروقراطي مركزي واحد مطلق.

بيد أن فترة الهدوء تلك آلت إلى نهايتها مع كساد عام 1857. وكانت تلك الأزمة، اقتصادياً، مجرد انقطاع في مسيرة التوسع الاقتصادي التي استؤنفت، على نطاق أوسع، في الستينيات، وبلغت أوجها في ازدهار الأعوام 1871 ـ 1873. وقد تحول معها الوضع من الناحية السياسية. وصحيح أنها أحبطت آمال الثوريين، الذين كانوا يتوقعون منها أن تولد ثورة شبيهة بالتي اندلعت عام 1848، على الرغم

من إقرارهم بأن «الجماهير ستتولاها البلادة اللعينة نتيجة هذا الازدهار المديد»[8]. إلا أن النشاط السياسي انتعش. وفي خلال فترة قصيرة من الزمن، عادت إلى الأجندة، مرة أخرى، القضايا القديمة كلها التي واجهتها السياسات الليبرالية ـ التوحيد القومي في ألمانيا وإيطاليا، الإصلاح الدستوري، الحريات المدنية، وغيرها. وبينما كان التوسع الاقتصادي للأعوام 1851 ـ 1857 قد تم في فراغ سياسي، مُطِيلاً بذلك مرحلة الانحدار والإنهاك للعامين 1848/ 1849، فإنه بعد عام 1859 تزامن مع بداية نشاط سياسي متعاظم الشدة. ومن جهة أخرى كان العقد السابع مستقراً نسبياً من الوجهة الاقتصادية، على الرغم من بعض العوامل الخارجية المختلفة التي اعترضت سبيله، مثل الحرب الأهلية الأمريكية بين الأعوام 1861 ـ 1865. ولم يكن كساد الدورة التجارية اللاحقة (الذي وقع، بحسب المواقف والمواقع، في أوقات متفاوتة بين الأعوام 1866 و1868) على المستوى نفسه من التمركز، أو العولمة، أو الإثارة، مثلما كانت الحال في 1857/ 1858. وباختصار، انتعش النشاط السياسي خلال مرحلة التوسع، غير أنه لم يعد نشاطاً سياسياً حول الثورة.

II

إذا كانت تلك الفترة تمثل لأوروبا حقبة أمراء الفخامة، فلا عجب أن تكون حافلة بالحفلات التنكرية، والمواكب، والأوبرات التي تتضافر كل رموزها لتضع أمام الحكام وبين أيديهم مشاهد النصر الاقتصادي وآيات التقدم الصناعي. وكان ثمة رموز تشهد بانتصار عالم الرأسمالية. ولقد دَشّنت هذه المرحلة وأكدت معالمها تَمَظْهراتٌ شعائرية عملاقة، مثل المعارض العالمية الكبرى التي أقيمت في صروح باذخة توحي بالثروة والتقدم التقني، ومنها قصر «كريستال بالاس» في لندن

(8) Karl Marx, *Karl Marx, Friedrich Engels. Werke* (Berlin: Dietz, 1956-), vol. XXIX, p. 211: Engels to Marx (5 November 1857).

(1851)، وصرح «روتوندا» (الأضخم من كاتدرائية القديس بطرس في روما) في فيينا. وتجلت في كل من هذه البدائع العمرانية أعداد متزايدة من شتى الصناعات والحرف، وتدفق لمشاهدتها السّواح بأعداد كبيرة من داخل تلك البلدان وخارجها. فقد أقامت أربعة عشر ألف شركة معارض لها في لندن عام 1851، ودشنت معارض مماثلة تناسب المقام في عرين الرأسمالية: 24,000 في باريس عام 1855، و29,000 في لندن عام 1862، و50,000 في باريس عام 1867. غير أن المعرض الأضخم منها كلها بما لا يقاس كان «مئوية فيلادلفيا» في الولايات المتحدة عام 1876. وقد افتتحه الرئيس بحضور إمبراطور وإمبراطورة البرازيل، فطأطأت الرؤوس المتوّجة لتتملّى منتجات الصناعة، وسط تهليل ما يقرب من 130,000 مواطن. وكان هؤلاء يمثلون الموجة الأولى من عشرة ملايين زائر قدموا في تلك الأيام للاحتفال بـِ"تقدم العصر».

ترى، ما هي الأسباب الكامنة وراء هذا التقدم؟ لم كان هذا التسارع في التوسع الاقتصادي في تلك الفترة على هذا النحو المدهش؟ ويجب أن يطرح هذا السؤال معكوساً. إن ما يفاجئنا عندما نستحضر النصف الأول من القرن التاسع عشر هو المفارقة بين الطاقة الإنتاجية الضخمة المتعاظمة النمو للتصنيع الرأسمالي من جهة، وعجزها، إذا جاز التعبير، عن توسيع قاعدتها وفك الأغلال التي تكبلها. لقد تنامت بصورة مثيرة، غير أنها بدت غير قادرة على توسيع السوق أمام منتجاتها، وهي المنافذ الوحيدة المربحة التي تمكنها من مراكمة رأس المال، ناهيك عن أنها هي التي توفر فرص العمل والاستخدام بمعدلات مماثلة أو بمستويات أجور ملائمة. ومن المفيد أن نتذكر أن المراقبين المطلعين الأذكياء في ألمانيا حتى في أواخر الأربعينيات من ذلك القرن، وعشية الانفجار الصناعي الذي شهدته تلك البلاد، افترضوا، كما يفعلون اليوم في البلدان الناقصة النمو، أنه لا يمكننا أن نتصور أن التصنيع سيوفر فرص العمل لـِ"فائض السكان» العريض المتعاظم في قطاع الفقراء. ولهذا السبب، كانت الأربعينيات والخمسينيات في ذلك

القرن فترة مأزومة. وكان الثوريون يأملون في أن تكون هي نهاية المطاف، بل إن رجال الأعمال أنفسهم كانوا يتخوفون من أنها قد تخنق نظامهم الصناعي[9]. ولسببين رئيسيين، تبين أن لا أساس لهذه الآمال والمخاوف على حد سواء، فمن جهة، اكتشف الاقتصاد الصناعي في مراحله الأولى - وبفضل ضغوط تراكم رأس المال الساعي إلى تحقيق المزيد من الربح - ما أسماه ماركس «تتويج منجزاتها" ؛ أي السكك الحديد. ومن جهة أخرى، وبفضل السكك الحديد جزئياً، فإن السفينة البخارية والتلغراف «اللتين كانتا آخر الأمر تمثلان وسائل للاتصال تناسب وسائل الإنتاج الحديثة»[10]، إضافة إلى المساحة الجغرافية للاقتصاد الرأسمالي، أصبح بوسعها أن تتضاعف فجأة مع تزايد كثافة المعاملات التجارية التي تعتمد عليها. لقد غدت الكرة الأرضية برمتها جزءاً من ذلك الاقتصاد. وربما كان خلق عالم وحيد مترامي الأطراف هو التطور الأهم في تلك الفترة[11]. وعندما نظر هـ. م. هيندمان (H. M. Hyndman)، وهو رجل أعمال من العصر الفيكتوري، ومفكر ماركسي (وهما دوران ينطويان على تناقض داخلي)، إلى تلك التطورات بعد نحو نصف قرن، فإنه أجرى مقارنة صحيحة بين العقد الممتد بين الأعوام 1847 و1857 من جهة، وحقبة «الاكتشافات والفتوحات الجغرافية الكبرى التي اجترحها كولومبوس (Columbus)، وفاسكو دا غاما (Vasco da Gama)، وكورتيز (Cortez) وبيتزارو (Pizarro). ومع أنه لم تجرِ اكتشافات جديدة مثيرة، ولم تحدث (عدا استثناءات بسيطة نسبياً) إلا غزوات قليلة على يد الغزاة العسكريين، فإن عالماً اقتصادياً جديداً بأكمله قد أضيف من الناحية العملية إلى القديم واندمج فيه.

(9) انظر الفصل السادس من: Eric John Hobsbawm, *The Age of Revolution: Europe 1789-1848* (London: Weidenfeld and Nicolson, 1962).

(10) انظر: Marx to Danielson (10 April 1879). in: Marx, Ibid., vol. XXXIV, pp. 370-375.

(11) انظر الفصل الثالث من هذا الكتاب.

كان ذلك أمراً غاية في الأهمية، وبخاصة للتنمية الاقتصادية لأنها أرست الأسس لفورة تصدير عملاقة، للبضائع، ورأس المال، والبشر على السواء، ما ساهم إسهاماً واسعاً في ذلك التوسع في الأحوال كلها في البلد الذي كان آنذاك الدولة الرأسمالية الأساسية، وهي بريطانيا. أما اقتصاد المجتمع الاستهلاكي الجماعي فلم يبرز إلا في المستقبل، ربما باستثناء الولايات المتحدة. ولم يكن سوق الفقراء المحلي قد تحول بعد إلى قاعدة أساسية حقيقية لتقدم اقتصادي مرموق لأن الفلاحين وصغار الحرفيين لم يكونوا من المورِّدين إليه[12]. كما لم يكن من الممكن تجاهله يوم كان سكان العالم النامي قد تزايدوا بسرعة، وربما ارتفع مستوى المعيشة لهم[13] غير أنه لم يكن ممكناً الاستغناء عن التمدد الجانبي الضخم في السوق لكل من السلع الاستهلاكية ـ وربما الأهم من ذلك ـ السلع المطلوبة لبناء المعامل الصناعية الجديدة، ومشروعات وسائل النقل، والمرافق العامة والمدن. لقد غدا العالم كله الآن تحت تصرف الرأسمالية، كما أنها أصبحت تتحكم بالتوسع بإجراءات التجارة الدولية والاستثمار العالمي على حد سواء، وتحدد زخم الاندفاع على هذين المسارين، ففي الفترة بين الأعوام 1800 ـ و1840 لم يتضاعف معدل التجارة في العالم. غير أنه تزايد بين الأعوام 1850 و1870 بنسبة 260 في المئة. فقد بيع كل ما يمكن ابتياعه، بما فيه البضائع التي وجهت بمقاومة متميزة من البلدان المستوردة، مثل الأفيون الذي تزايدت كمية ما صدر منه من الهند البريطانية إلى الصين إلى أكثر من الضعفين، وارتفعت قيمتها إلى ما يقرب

---

(12) زادت كمية صادرات البضائع القطنية البريطانية ثلاثة أضعاف بين الأعوام 1850 و1875، بينما ارتفع استهلاك القطن في السوق المحلية في بريطانيا بنسبة الثلثين فحسب. انظر: Ellison, *The Cotton Trade of Great Britain. Including a History of the Liverpool Cotton Market and of the Liverpool Cotton Brokers' Association*, Table II,

باستخدام مضاعفات الجدول المنشور على ص 111.

(13) انظر الفصل الثاني عشر من هذا الكتاب.

من ثلاثة أضعاف[14]. وبحلول عام 1875، كانت بريطانيا قد استثمرت في الخارج ما يعادل ألف مليون جنيه إسترليني - وثلاثة أرباع منذ 1850 - بينما زادت الاستثمارات الفرنسية أكثر من عشرة أضعاف بين الأعوام 1850 و1880. ولا بد أن المراقبين المعاصرين لتلك الفترة، الذين ركزوا اهتمامهم على جوانب أقل أهمية في الاقتصاد، قد شددوا بالتأكيد على عامل ثالث: اكتشافات الذهب الكبرى في كاليفورنيا، وأستراليا ومناطق أخرى بعد عام 1848[15]. وقد أدت إلى تضاعف وسائل دفع الأموال المتاحة للاقتصاد العالمي، وأزالت ما كان يعتبره كثرٌ من رجال الأعمال تشدداً يشلُّ الحركة، وخفضت معدلات الفائدة وشجعت على التوسع في الاعتمادات. وفي غضون سبع سنوات، تزايد العرض بين ست إلى سبع مرات، وزادت كمية مسكوكات بريطانيا، وفرنسا والولايات المتحدة من العملة الذهبية ما معدله 4,9 مليون جنيه إسترليني في 1848/ 1849 إلى 28,1 مليون في السنة بين الأعوام 1850 و1856. وما زال دور السبائك الذهبية في الاقتصاد العالمي حتى اليوم موضع جدال حماسي لا نود الخوض فيه الآن. وربما لم يؤدِّ غيابه إلى تعثر جدي في التجارة مثلما كان يعتقد آنذاك، لأن وسائل أخرى للدفع مثل الشيكات - وهي أداة حديثة العهد نسبياً - والكمبيالات . . . إلخ، كانت قابلة للاتساع والتكاثر بمعدلات لا بأس بها. بيد أن لعروض الذهب ثلاثة جوانب لا جدال فيها.

لقد أسهمت هذه العروض **أولاً**، وبشكل حاسم، في توليد وضع نادر نسبياً في الفترة الممتدة من عام 1810 تقريباً حتى نهاية القرن التاسع عشر، اتّسم بأسعار مرتفعة ومعدلات تضخم معتدلة، وإن كانت

---

(14) كان معدل عدد حزم الأفيون المصدرة من البنغال 43,000 سنوياً بين الأعوام 1844- 1849، وارتفع إلى 43,000 في السنة بين 1869 و1874. انظر: Frederick Storrs Turner, *British Opium Policy and its Results to India and China* (London: S. Low, 1876), p. 305.

(15) انظر الفصل الثالث من هذا الكتاب.

متقلبة. وكان ذلك القرن يتميز، أساساً، بالانكماش جراء ميل التقانة المطرد إلى تخفيض أسعار المنتجات المصنعة، ومصادر الغذاء والمواد الخام الحديثة العهد إلى تقليل أسعار المنتجات الأولية (وإن بصورة متقطعة). ولم يلحق التضخم البعيد المدى ـ أي ضغط هامش الربح ـ ضرراً ملموساً بمصالح رجال الأعمال لأنهم كانوا يصنعون ويبيعون كميات أكثر ضخامة. غير أن التضخم لم يكن، حتى ما بعد نهاية الفترة التي ندرسها، ذا نفع كبير للعمال، إما لأن كلفة المعيشة بالنسبة إليهم لم تنخفض إلى المستوى نفسه، أو أن دخولهم كانت من الضآلة إلى حد لم يسمح لهم بتحقيق فائدة ذات بال. ومن جهة أخرى، أدى التضخم من دون شك إلى توسيع هوامش الربح، ومن ثم إلى تنشيط العمل التجاري. لقد كانت هذه المرحلة، في أساسها، بمثابة فاصل من الانكماش تخلل قرناً من التضخم.

أما العامل **الثاني**، فإن توفر السبائك الذهبية بكميات كبيرة ساعد في تأسيس تلك المقاييس النقدية المستقرة الموثوق بها، والقائمة على الجنيه الإسترليني (المرتبط بما يساوي قيمته الشرائية ذهباً)، الذي كانت التجارة الدولية بغيره أكثر عسراً، وتعقيداً، وتقلباً. وذلك ما أثبتته التجربة في ثلاثينيات ذلك القرن وسبعينياته. ويتجلى العامل **الثالث** في أن هجمات الذهب نفسها فتحت مجالات جديدة، ولاسيما في المحيط الهادي، لتكثيف النشاط الاقتصادي. فعملت بذلك على «خلق أسواق من لا شيء»، على حد قول إنجلز في إحدى رسائله إلى ماركس. وبحلول أواسط السبعينيات، لم يكن من الممكن بأي حال تجاهل كاليفورنيا وأستراليا والبقاع الأخرى في «التخوم المعدنية» الجديدة، فقد قطن هاتين المنطقتين أكثر من ثلاثة ملايين نسمة توفرت بين أيديهم أموال نقدية أكثر مما كان لدى السكان في مناطق تماثلهما مساحةً.

ولا بد أن المعاصرين لتلك الفترة كذلك قد شددوا بالتأكيد على عامل آخر وهو تحرير المشروع التجاري الخاص، أي القوة المحركة التي

تولت، كما يجمع الجميع، دفع التقدم الصناعي. ذلك أنه لم يكن ثمة إجماع كاسح على أي قضية في أوساط علماء الاقتصاد، وكذلك السياسيين والإداريين الأذكياء، مثلما كان على وَصْفة النمو الاقتصادي، ألا وهي الحرية الاقتصادية، فقد انهارت، أمام الهجمة العالمية، الحواجز المؤسسية الباقية التي تعرقل حرية الحركة أمام عوامل الإنتاج، والمشروع الاقتصادي الحر، وأي عائق آخر يمكن أن تعترض هذه العمليات المربحة. ومن أبرز السمات التي تميز بها رفع الحواجز هذا أنه لم يقتصر على الدول التي كانت فيها الليبرالية الاقتصادية قد حققت النصر أو حتى النفوذ، فقد كان أكثر حدةً وعمقاً في أنظمة الحكم الملكية المطلقة والمقاطعات المستعادة في أوروبا مما كانت عليه في انجلترا، وفرنسا والأراضي المنخفضة لأنه ما زال فيها الكثير الذي يجب إزالته منها هناك. وقد ضعفت سيطرة النقابات والهيئات على إنتاج الحرفيين الفنيين، وأفسحت الطريق أمام حرية النشاط التجاري (Gewerbefreiheit) ـ أي حرية الانخراط والممارسة لأي عمل أو مهنة ـ في النمسا عام 1859، وفي بقية ألمانيا في أواسط العقد السابع من ذلك القرن. وترسخت هذه الحرية في نهاية المطاف كاملةً في الاتحاد الألماني الشمالي (1869) وفي الإمبراطورية الألمانية؛ وأثار ذلك الامتعاض في نفوس العديد من الحرفيين الفنيين الذين وقفوا في ما بعد موقف العداء المتزايد من الليبرالية، ثم وفروا بعد ذلك قاعدة سياسية للحركات اليمينية اعتباراً من السبعينيات. وقد أشاعت السويد، التي ألغت النقابات عام 1847، هذه الحرية كاملة أيضاً عام 1864؛ وألغت الدانمارك تشريعات النقابات القديمة الأعوام 1849 و1857؛ وفي روسيا، التي لم تعرف أكثر الأقاليم فيها نظام النقابات المهنية على الإطلاق، أزيلت الآثار الأخيرة لواحدة منها في البلدان (الألمانية) في الأقاليم البلطيقية (1866)، مع أنها استمرت، لأسباب سياسية، في تقييد حرية اليهود في ممارسة التجارة والنشاط الاقتصادي وحصرها في مجال محدد، هو ما يسمى «حظيرة التسوية المالية».

لم تقتصر التصفية القانونية في الفترات القروسطية والتجارية الميركنتيلية على التشريعات المتصلة بالحرف. وألغيت قوانين مكافحة الرِّبا، التي كانت حبراً على ورق منذ أمد بعيد، في بريطانيا، وهولندا، وبلجيكا، وشمال ألمانيا بين الأعوام 1854 و1867. وتوقفت الحكومات تقريباً عن ممارسة الرقابة المشددة على المناجم، بما في ذلك عملية التشغيل الفعلي لها. ومن ذلك ما حدث في بروسيا بين الأعوام 1851 و1865، حيث أصبح بوسع أي من المستثمرين المبادرين (بإذاً من الحكومة)، أن يتمتع بحق استغلال أي معادن يعثر عليها، ويدير عملياته على النحو الذي يرتأيه. وبالمثل، تيسر إلى حد بعيد، وبمنأى عن السيطرة البيروقراطية، تأسيس الشركات التجارية (ولا سيما الشركات المساهمة المحدودة المسؤولية أو ما يماثلها). وتولت بريطانيا وفرنسا مكان الصدارة في هذا السبيل، مع أن ألمانيا لم تؤسس التسجيل التلقائي للشركات إلا عام 1870. وجرى تعديل القانون التجاري لينسجم وأجواء التوسع الاقتصادي الجريء السائدة آنذاك.

غير أن اللافت آنذاك، في نواح عدة، هو التحرك لتحقيق الحرية الكاملة للتجارة. صحيح أن بريطانيا وحدها (بعد 1846) هي التي تخلت عن النزعة الحمائية كلياً، وحافظت على المكوس الجمركي ـ نظرياً على الأقل ـ ولأغراض السياسة النقدية فحسب. وعلى الرغم من ذلك، فإن سلسلة من اتفاقيات «التجارة الحرة» أسهمت على نحو أساسي في إزالة حواجز التعريفة الجمركية بين الدول الصناعية المتقدمة في الستينيات. يضاف إلى ذلك إلغاء أو تخفيف القيود . . . إلخ، على الممرات المائية الدولية مثل الدانوب (1857) ومضيق الساوند بين الدانمارك والسويد، وتبسيط النظام النقدي الدولي عن طريق خلق نطاقات نقدية أوسع (مثل الاتحاد اللاتيني النقدي بين فرنسا، وبلجيكا، وسويسرا، وإيطاليا عام 1865). بل إن روسيا (1863) وإسبانيا (1868) انضمتا، إلى حد ما، إلى هذه الحركة. وظلت الولايات المتحدة وحدها، التي اعتمدت صناعتها اعتماداً كبيراً على سوق محلية محمية، وقليلاً على الصادرات، تمثل

الحصن الحصين للنزعة الحمائية، وطرأ، حتى في الساحة الأمريكية، تحسن متواضع في أوائل سبعينيات القرن.

بوسعنا أن نذهب إلى ما هو أبعد من ذلك. لقد ظلت حتى الاقتصادات الرأسمالية الأكثر جرأة وشراسة تتردد في الاعتماد الكلي على السوق الحرة التي كانت قد التزمتها نظرياً، وبخاصة في ما يتصل بالعلاقة بين أرباب العمل والعمال. إلا أن هذا الجانب القسري الحساس وغير الاقتصادي نفسه قد تراجع، ففي بريطانيا، تغير قانون «السيد والخادم» ليحقق المساواة في التعامل بين هذين الطرفين؛ فقد ألغي «الرباط السنوي» لعمال المناجم في شمال إنجلترا، وهو عقد الاستخدام المعتاد الذي شاع تطبيقه بصورة متزايدة، وكان يمكن بموجبه إنهاء الخدمات (بالنسبة للعامل) بإشعار قصير الأمد. واللافت، للوهلة الأولى، أن الفترة بين الأعوام 1867 و 1875 شهدت، من دون أدنى ضجة، إلغاء العوائق القانونية المهمة كلها التي تعترض نشاط النقابات العمالية وحق الإضراب[16]. وظلت دول كثيرة أخرى تتردد حتى ذلك الحين في منح مثل هذه الحرية للمنظمات العمالية، مع أن نابليون الثالث خفف من الخطر القانوني على النقابات بصورة كبيرة. وعلى الرغم من ذلك، أصبح الوضع العام في البلدان المتقدمة أقرب إلى ما وصفه مبدأ «حرية النشاط التجاري» في ألمانيا عام 1869: «إن التعاقد الحر هو الذي يقرر العلاقة بين من يمارسون المهن والأعمال التجارية بصورة مستقلة من جهة، ومن يعملون معهم من عمال المياومة، والمساعدين، والمتدربين الأغرار». لقد أصبحت الأسواق هي وحدها التي تتحكم ببيع قوة العمل وشرائها، شأنها شأن كل شيء آخر.

وما من شك في أن سيرورة التحرير العريضة هذه قد شجعت المشروع الاقتصادي الخاص، كما أن تحرير التجارة أسهم في التوسع الاقتصادي، مع أن علينا أن لا ننسى أنه لم يكن ثمة ضرورة للكثير من

---

(16) انظر الفصل السادس من هذا الكتاب.

التحرير الرسمي. إن حرية أنواع معينة من الحركة، التي تتعرض للرقابة والضبط في العالم هذه الأيام، وعلى رأسها حركة المال، والأيدي العاملة، أي الهجرة، كانت أمراً مفروغاً منه إلى حد لم تكن فيه مدعاة للنقاش[17]. ومن ناحية أخرى، فإن السؤال حول التغيرات المؤسسية أو القانونية التي تعزز أو تعوق التنمية الاقتصادية كان مسألة غاية في التعقيد بالنسبة إلى المعادلة الاقتصادية البسيطة في أواسط القرن التاسع عشر: «إن التحرير هو الذي يولّد التقدم الاقتصادي»، فقد بدأت حقبة التوسع حتى قبل إبطال قانون الذرة في بريطانيا عام 1846. ولا مراء في أن التحرير قد جلب أنواعاً عديدة من النتائج الإيجابية المحددة. ذلك أن كوبنهاغن أخذت تتنامى بسرعة باعتبارها مدينة بعد إلغاء «ضريبة ساوند» التي أعاقت دخول السفن إلى البلطيق (1827). وسيبقى السؤال مطروحاً حول ما إذا كان التحرك العالمي باتجاه التحرير سبباً أو ملازماً أم نتيجة التوسع الاقتصادي. غير أن من المؤكد أنه، حتى في غياب أسس أخرى لتطور الرأسمالية، فإن هذا التحرير لم يحقق شيئاً بنفسه، فلم يكن ثمة تحرير اقتصادي أكثر راديكالية مما فعلته جمهورية نيوغرانادا (كولومبيا) بين الأعوام 1848 و1854. غير أننا لا نستطيع القول إن ما كان يراود الساسة هناك من آمال في الازدهار، قد تحقق على الفور، أو تحقق على الإطلاق.

على الرغم من ذلك كله، أشارت هذه التغيرات في أوروبا إلى ثقة لافتة بالليبرالية الاقتصادية، وكان لها ما يبررها على ما يبدو، في الأحوال كلها لجيل كامل. ولم يكن ذلك مفاجئاً في كل بلد على حدة، لأن المشروع الرأسمالي الحر أنعش بصورة واضحة ومؤثرة حرية التعاقد بالنسبة للعمال، بما فيها التساهل مع النقابات العمالية التي كانت من القوة بحيث أثبتت وجودها من خلال القوة التفاوضية لعمالها. لكنها لم تكن تشكل تهديداً للأرباح. ويعود ذلك إلى أن «جيش العمال الاحتياطي» (كما أسماه ماركس)، المؤلف أساساً من الجماهير الريفية،

---

(17) انظر الفصل الحادي عشر من هذا الكتاب.

والحرفيين الفنيين السابقين وغيرهم ممن كانوا يتدفقون على المدن والمراكز الصناعية، بدوا وكأنهم يحافظون على الأجور في حدود متواضعة بما فيه الكفاية[18]. ومن الوهلة الأولى، تبدو الحماسة لحرية التجارة العالمية مدعاة للعجب، إلا ما كان عليه حال البريطانيين الذين كان هذا الأمر يعني، بالدرجة الأولى، السماح لهم بحرية البيع بسعر أقل مما يبيع الآخرون جميعاً في أسواق العالم كلها. كما يعني، من ناحية ثانية، تشجيع البلدان الناقصة النمو على أن تبيع لهم منتجاتها - والمواد الغذائية والمواد الخام أساساً - بأسعار زهيدة وبكميات ضخمة، ما سيوفر لها الدخل الكافي لشراء المنتجات الصناعية البريطانية. ولكن، لماذا قبل منافسو بريطانيا (باستثناء الولايات المتحدة) بهذا الترتيب الظاهر الإجحاف؟ (بالنسبة إلى الدول الناقصة النمو، التي لم تكن تسعى إلى المنافسة الصناعية، كان الأمر جذاباً بطبيعة الحال، كانت الولايات الجنوبية في الولايات المتحدة، على سبيل المثال، راضية تماماً بأن تكون لها في بريطانيا سوق لا حدود لها لبيع ما تنتجه من قطن، وبقيت بالتالي مرتبطة ارتباطاً وثيقاً بالتجارة الحرة إلى أن هزمتها الولايات الشمالية). ومن المبالغة القول إن التجارة العالمية الحرة قد أحرزت التقدم. ويعود ذلك إلى أن اليوتوبيا الليبرالية كانت، في تلك الفترة الوجيزة، قد جرفت فعلاً حتى الحكومات، ولو بقوة الاعتقاد بحتميتها التاريخية؛ ولا ريب أنها قد تأثرت تأثراً عميقاً بالحجج الاقتصادية التي بدت وكأن لها قوة القوانين الطبيعية. غير أن القناعات الفكرية قلما تغلب المصلحة الذاتية. والواقع أنه كان بوسع أغلب الاقتصادات الآخذة بالتصنيع آنذاك أن تتلمس ميزتين إيجابيتين في التجارة الحرة، فالتوسع العام في التجارة العالمية - بعد بلوغه مستويات مشهودة بالمقارنة مع الفترة السابقة على أربعينيات ذلك القرن - جلب المنفعة للجميع، مع أنها أفادت البريطانيين بصورة لا تناسب فيها. وكان من المرغوب فيه بصورة واضحة أن يستمر التصدير التجاري بكميات ضخمة

---

(18) انظر الفصلين الحادي عشر والثاني عشر من هذا الكتاب.

دونما عائق، ويتواصل الطلب دونما انقطاع أيضاً على المواد الغذائية والمواد الخام عن طريق الاستيراد عند الضرورة. وإذا كانت بعض المصالح المتخصصة قد تأثرت سلبياً، فإن تحرير التجارة قد أفاد مصالح أخرى. ومن جهة ثانية، فمهما كانت نتيجة المنافسة بين الاقتصادات الرأسمالية في المستقبل، فإن القدرة على الانتفاع بالمعدات، وبالموارد، وبالخبرات البريطانية في تلك المرحلة من التصنيع كانت مفيدة على نحو متميّز. وإذا أخذنا مثالاً واحداً على ذلك، كما يتجلى في الجدول التالي،

الصادرات البريطانية من حديد السكك الحديد، والفولاذ والمعدات (الإجمالي لكل خمس سنوات: بآلاف الأطنان)[19]

	حديد وفولاذ السكك	المعدات والآلات	
1845ـ 1849	1,291	4,9	(1846ـ1850)
1850ـ 1854	2,846	8,6	
1856ـ 1860	2,333	17,7	
1861ـ 1865	2,067	22,7	
1866ـ 1870	3,809	24,9	
1870ـ 1875	4,040	44,1	

فإن الحديد والآلات اللازمة للسكك الحديد، التي بلغت صادرات بريطانيا منها شأواً بعيداً، لم تؤد في البلدان الأخرى إلى كبح عملية التصنيع بل إلى تيسيرها.

(19) Brian Redman Mitchell and Phyllis Deane, *Abstract of British Historical Statistics* (Cambridge: University Press, 1962), pp. 146-147.

III

وهكذا، توافر للاقتصاد الرأسمالي بصورة متزامنة (وذلك لا يعني بالمصادفة) عدد من الحوافز البالغة القوة، فماذا كانت النتيجة؟ إن المعيار الأنسب لقياس التوسع الاقتصادي هو الإحصاءات، أما في القرن التاسع فإن بالإمكان حسابه بقوة الطاقة البخارية. (لأن المحرك البخاري كان هو الشكل النموذجي للطاقة)، وكذلك بالطاقة الناجمة عن منتجات الفحم والحديد. لقد كان منتصف القرن التاسع عشر هو عصر الدخان والطاقة في المقام الأول. ودرجت العادة على قياس مُخرجات الفحم بملايين الأطنان، غير أنها غدت الآن تقاس بعشرات الملايين من الأطنان لكل دولة على حدة، وبمئات الملايين للعالم كله. وكان نحو نصف الفحم، بل أكثر من ذلك في بداية الفترة التي نعالجها، جاء من المنتج الأكبرمن دون منازع، وهو بريطانيا العظمى. ومن جهة أخرى، بلغ إنتاج الحديد أعلى مستوياته بحيث تجاوز ملايين الأطنان في ثلاثينيات القرن التاسع عشر (ووصل إلى مليونين ونصف المليون من الأطنان عام 1850) في بريطانيا وليس في أي بلد آخر. وبحلول عام 1870 كانت كل من فرنسا، وألمانيا، والولايات المتحدة تنتج مليوناً أو مليونين من الأطنان، إلا أن بريطانيا، التي كانت حتى ذلك الحين «مَشْغل العالم» ظلت تسبق الجميع بأشواط بعيدة، وتنتج نحو ستة ملايين طن، أي ما يقرب من نصف إنتاج العالم من الحديد. وفي غضون تلك السنين العشرين، تضاعف إنتاج العالم من الفحم مرتين ونصف المرة، وإنتاج الحديد أربعة أضعاف. كما أن الطاقة البخارية تضاعفت أربع مرات ونصف المرة، وارتفعت مما يقرب من أربعة ملايين حصان عام 1850 إلى نحو ثمانية عشر ونصف المليون حصان عام 1870.

إن هذه البيانات التقديرية لا تدل على أكثر من أن التصنيع كان يمضي قدماً إلى الأمام. والمهم في ذلك أن هذا التقدم قد انتشر، جغرافياً، على نطاق واسع جداً، وإن بدرجات متفاوتة كل التفاوت. إن انتشار السكك الحديد، والسفن البخارية إلى حد أقل، قد أدخل الطاقة

الآلية إلى القارات كلها، وإلى بلدان لم تكن حينئذٍ مصنعة. وكان وصول القطارات بحد ذاته[20]. رمزاً وإنجازاً ثوريين، لأن دمج العالم كله في اقتصاد واحد متفاعل كان، من نواح عدة، الجانب الأبعد أثراً والأكثر خطراً بالتأكيد في عملية التصنيع. بيد أن «الآلة الثابتة» نفسها، في المصنع، والمنجم، أو المحددة حققت تقدماً مثيراً. فلم يكن في سويسرا عام 1850 غير أربع وثلاثين آلة من هذا النوع، إلا أنها ارتفعت إلى نحو ألف بحلول عام 1870؛ وارتفع العدد في النمسا من 671 (1852) إلى 9,160 (1870) مع زيادة الطاقة بالأحصنة خمس عشرة مرة. (وللمقارنة، كان في بلد متخلف بالفعل مثل البرتغال سبعون آلة فحسب، بطاقة 1,200 حصان حتى في عام 1873). وارتفعت الطاقة البخارية في هولندا ثلاثة عشر ضعفاً.

وهناك مناطق صغيرة صناعية، واقتصاديات أوروبية مثل السويد كان التصنيع بالكاد قد بدأ فيها على نحو كبير، إلا أن الأمر الأهم هو تفاوت درجة النمو في المراكز الرئيسية. ففي مطلع تلك الفترة، كانت بريطانيا وبلجيكا الدولتين الوحيدتين اللتين تطورت فيهما الصناعة بصورة كثيفة، وظلت كلتاهما الأكثر تصنيعاً للفرد. وكان استهلاك الحديد 37 و90 رطلاً إنجليزياً للفرد في هذين البلدين على التوالي عام 1850، مقارنة بنحو 56 رطلاً في الولايات المتحدة، و37 في فرنسا، و27 في ألمانيا. وكان لبلجيكا اقتصاد صغير، ولكنه مهم نسبياً: وقد أنتجت عام 1873 من الحديد نحو نصف ما أنتجته جارتها الأكبر فرنسا. وكانت بريطانيا، بالطبع، هي الدولة الصناعية بامتياز، وتمكنت، كما شهدنا، من الحفاظ على مكانتها النسبية، مع أن الطاقة البخارية الإنتاجية فيها كانت قد بدأت بالتراجع على نحو جدي. فعام 1850، كان فيها ما ينوف كثيراً على ثلث طاقة العالم البخارية (المتأتية من «الآلات الثابتة»)، بينما انخفض هذا المعدل عام 1870 إلى أقل من

(20) انظر الفصل الثالث من هذا الكتاب.

الربع، أي إلى 900 ألف حصان من أصل أربعة ملايين وعشر المليون. وكانت المستويات في الولايات المتحدة، من حيث الكميات فحسب، أعلى قليلاً عام 1850، غير أنها تفوقت على البلد القديم بما يزيد على ضعف الطاقة الآلية. إلا أن التوسع الاقتصادي الأمريكي، على الرغم من مستوياته الاستثنائية، كان يبدو لافتاً إلى درجة أقل مما كان في ألمانيا، فقد كانت الطاقة البخارية الثابتة في الأخيرة غاية في التواضع عام 1850 ـ وربما في حدود 40 ألف حصان في مجملها، أي تقل 10 في المئة عن مثيلتها في بريطانيا، وارتفعت في 1870 إلى 900 ألف، أي بالنسبة نفسها في بريطانيا، ولكنها، بالمناسبة، متقدمة كثيراً على فرنسا التي كان فيها مستوى الطاقة أعلى من ذلك بكثير في 1850 (67 ألف حصان)، لكنها لم تتعدَّ 341 ألفاً عام 1870 ـ أي أقل من ضعفي بلجيكا.

كان تصنيع ألمانيا حدثاً أساسياً في التاريخ، وكانت له بالإضافة إلى أهميته الاقتصادية، تداعيات سياسية بعيدة المدى. ففي عام 1850، كان عدد السكان في الاتحاد الألماني يقارب ما كان في فرنسا، ولكنه الطاقة الصناعية كانت أقل من ذلك بما لا يقاس. وبحلول عام 1871، كانت الإمبراطورية الألمانية الموحدة أكثر سكاناً من فرنسا، ولكنها أقوى بكثير من الوجهة الصناعية. وحيث إن القوة السياسية والعسكرية قد غدت تقوم آنذاك على الطاقة الصناعية، والقدرة التقنية، والخبرة، فإن النتائج السياسية للتنمية الصناعية كانت أكثر خطراً مما كانت عليه من قبل. ومن ثم لم يكن بوسع أي دولة بغيرها أن تحافظ على موقعها في نادي «الدول الكبرى».

كانت المنتجات البارزة التي تميز بها ذلك العصر هي الحديد والفحم. وقد جمعت السكة الحديد، وهي الرمز الأكثر إبهاراً في تلك الأيام، هذين العنصرين سوياً. وبالمقارنة، كان نمو صناعة المنسوجات أقل من ذلك في المرحلة الأولى للتصنيع. واستهلاك القطن الذي ازداد في خمسينيات القرن بنحو 60 في المئة عما كان عليه في الأربعينيات،

ظل ثابتاً تقريباً في الستينيات (لأن الصناعة تأثرت جرّاء الحرب الأهلية الأمريكية) وازداد بنحو 50 في المئة في السبعينيات. أما إنتاج الصوف فكان في السبعينيات ضعف ما كان عليه في الأربعينيات. غير أن إنتاج الفحم وسبائك الحديد تضاعف خمس مرات عما كان عليه في الأربعينيات، بينما أصبح إنتاج الفولاذ بالجملة، مجدياً للمرة الأولى. والحال أن الابتكارات التقنية في صناعة الحديد والفولاذ في تلك الفترة أدت دوراً يماثل دور الابتكارات التي سبقتها في صناعة النسيج. وفي الخمسينيات، استعيض عن الفحم الحجري بالفحم النباتي كوقود في عملية الصهر في أوروبا (باستثناء بلجيكا التي كان فيها الأول قيد الاستعمال منذ أمدٍ بعيد). وبدأت في كل مكان سيرورات جديدة: محوّل بيسيمر (1856)، وأتّون سيمنز ـ مارتن المفتوح الذي يسّر إنتاج فولاذ رخيص حل في ما بعد مكان الحديد المطاوع. غير أن أهمية ذلك تجلت في وقت لاحق. إذ لم يتحول عام 1870 غير 15 في المئة من الحديد المصنع المنتج في ألمانيا إلى فولاذ. إن تلك الفترة لم تكن عصر الفولاذ بعد، حتى في صناعة السلاح، التي أعطت زخماً كبيراً لتلك المادة الجديدة. لقد كانت هذه المرحلة تمثل عصر الحديد.

وعلى الرغم من أن «الصناعة الثقيلة» الجديدة قد مهدت لتقانة المستقبل الثورية؛ فإنها قد لا تكون ثورية على نحو خاص، إلا من حيث الحجم، فالثورة الصناعية، على الصعيد العالمي، ظلت حتى سبعينيات القرن التاسع عشر مندفعة بالزخم الذي ولّدته الابتكارات التقنية التي تحققت في الفترة الممتدة من عام 1760 ـ 1840، ومع ذلك، نشأ في العقود الوسطى من ذلك القرن نوعان من الصناعة على أساس تقانة أكثر ثورية بما لا يُقاس، وهي التقانة الكيماوية والكهربائية (بقدر ما كان للأجهزة من أثر في الاتصالات).

إن الاختراعات التقنية الأساسية خلال المرحلة الصناعية الأولى، عدا استثناءات قليلة، لم تحقق تقدماً كبيراً في ميدان المعرفة العلمية.

والواقع أنها لحسن حظ بريطانيا كانت في متناول رجال عمليين اعتمدوا على الخبرة، والمنطق السليم، مثل جورج ستيفنسون (George Stephenson)، باني السكة الحديد الكبير، وتغير الوضع اعتباراً من منتصف القرن التاسع عشر، فقد ارتبط التلغراف ارتباطاً وثيقاً بالعلوم الأكاديمية، من خلال رجال، مثل ش. ويتستون (C. Wheatstone) (1802 ـ 1875)، ووليام طومبسون (W. Thompson) (اللورد كلفن) (1824 ـ 1907) في غلاسغو. إن صناعة مواد الصبغ الاصطناعية انتقلت من المختبر إلى المصنع، مع أن مُنتَجها الأول (وهو اللون البنفسجي الزاهي) لم يكن من الوجهة الجمالية موضع ترحيب من جانب الجميع. وكذلك كان حال المتفجرات، والتصوير الفوتوغرافي. غير أن واحداً على الأقل من الابتكارات المهمة في صناعة الفولاذ، وهو عملية غيلكريست ـ توماس «الأساسية» كانت حصيلة للدراسات العليا. وكما نشاهد في روايات جول فيرن(Jules Verne) (1828 ـ 1905)؛ فإن «البروفيسور» غدا أكثر من أي وقت مضى من الشخصيات الصناعية المهمة. وكما سنوضح في صفحات قادمة؛ فإن منتجي النبيذ في فرنسا ناشدوا لويس باستور (L. Pasteur) (1822 ـ 1895) العظيم أن يحل لهم مشكلة عويصة. وعلاوة على ذلك، أصبح مختبر البحوث الآن جزءاً لا يتجزأ من التنمية الصناعية، وقد ظل ملحقاً بالجامعات أو مؤسسات مشابهة في أوروبا، مثل مختبر إرنست أبي (Ernst Abbe) في يينا (Jena) التي تحولت بالفعل إلى مشاغل زايس الصناعية. غير أن المختبرات التجارية كانت قد ظهرت في أعقاب بروز شركات التلغراف. وسرعان ما أصبح المختبر من المعالم الشهيرة بعد أن أجرى توماس ألفا أديسون (Thomas Alva Edison) (1847 ـ 1931) تجاربه فيه.

كان من النتائج المهمة لتغلغل العلوم في الصناعة أن النظام التعليمي أصبح منذئذٍ من المكونات المهمة في التنمية الصناعية. لقد تصدرت بريطانيا، وبلجيكا مكان الريادة لمرحلة التصنيع الأولى، غير أن الشعب في كلتيهما لم يكن من الأكثر تعلماً مُقارنة بالشعوب الأخرى.

كما أنه لم يكن لهما سجل مرموق (باستثناء سكوتلاندا) في ميدان الدراسات العليا والتقنية. وأصبح من المستحيل تقريباً على أي بلد منذ ذلك الحين أن يكوّن اقتصادياً «حديثاً»؛ وعلى العكس من ذلك، أصبح بوسع دول فقيرة مُتردية الحال، وذات نظام تعليمي مُتقدم، مثل السويد، أن تشق طريقها إلى التنمية[21].

وتتضح هنا القيمة العملية لأثر التعليم الابتدائي القوي في التقانات القائمة على العلم من الوجهتين الاقتصادية، والعسكرية على السواءكان من أسباب انتصار البروسيين على الفرنسيين عام 1870/ 1871 أن مستوى التحصيل العلمي للطرف الأول كان أعلى بكثير مما كان للثاني. ومن جهة أخرى؛ فإن ما كانت تحتاجه التنمية الاقتصادية إلى درجة أعلى من ذلك لم يكن الأصالة والتقدم العلميان ـ وهما ما يمكن استعارته ـ بقدر ما كان القدرة على استيعاب العلوم والتمكن منها والتصرف بها؛ أي التنمية لا البحث، فقد كانت الجامعات والمعاهد الفنية في الولايات المتحدة لا تضاهي على الإطلاق كامبريدج البريطانية أو البوليتكنيك، على سبيل المثال. غير أنها كانت متفوقة على المعاهد البريطانية اقتصادياً لأنها كانت تقدم للمهندسين تعليماً منهجياً لم يكن قد

(21)

نسبة الأمية بين الرجال في بلدان أوروبية مختارة					
إنجلترا	(1875)*	17 في المئة	السويد	(1875)**	1 في المئة
فرنسا	(1875)**	18 في المئة	الدانمارك	(1859/ 1860)**	3 في المئة
بلجيكا	(1875)**	23 في المئة	إيطاليا	(1875)**	52 في المئة
اسكوتلندا	(1875)*	90 في المئة	النمسا	(1875)**	42 في المئة
سويسرا	(1879)**	6 في المئة	روسيا	(1875)**	79 في المئة
ألمانيا	(1875)**	2 في المئة	إسبانيا	(1877)**	63 في المئة

* عرسان أمّيون. ** مجندون أمّيون.

انظر: Carlo M. Cipolla, *Literacy and Development in the West*, Pelican Books; A1027 (Harmondsworth: Penguin, 1969), Table 1, Appendix II, and III.

توفر حتى ذلك الحين في دول العالم القديم[22]. وكان الأمريكيون يتفوقون على الفرنسيين لأنهم خرّجوا، بالجملة، مهندسين من ذوي المستويات الملائمة بدلاً من تخريج أعداد قليلة من المهندسين ذوي الذكاء الخارق والتعليم الراقي. واعتمد الألمان في هذا المجال على مدارسهم الثانوية الممتازة أكثر مما اعتمدوا على جامعاتهم. واستحدثوا في خمسينيات القرن ما يسمى ريالشوله (Realschule)، وهي مدارس ثانوية غير كلاسيكية تُركز على المناهج الفنية. وعندما طُلب من أصحاب المراكز الصناعية «المتعلمين» الذائعي الصيت في الراينلاند عام 1867 أن يتبرعوا لإحياء الذكرى السنوية الخمسين لإقامة جامعة بون، رفضوا ذلك، عدا واحداً فحسب، أن يقوموا بذلك في أربع عشرة مدينة صناعية؛ لأن «أرباب الصناعات المحلية المرموقين هؤلاء أنفسهم لم يتلقوا تعليماً أكاديمياً عالياً (wissenschaftlich)، كما أنهم لم يدفعوا أولادهم إلى متابعة دراستهم على ذلك المستوى»[23].

غير أن التقانة ظلت، على العموم، قائمة على العلوم. ومن المدهش أنه قد جرى التبني الواسع السريع للابتكارات التي قام بها عدد قليل نسبياً من العلماء الرواد، حالما استقر الرأي على أنها ستترجم إلى معدات وآلات. وتزايدت أهمية المواد الخام الجديدة، التي كانت في أغلب الأحيان تستخلص من خارج أوروبا ـ وهي الأهمية التي لم تتضح إلا في الفترة المتأخرة من الحملات الاستعمارية[24]. وهكذا؛ فإن الزيت لفت انتباه اليانكي الحاذقين بوصفه وقوداً للقناديل؛ إلا أنه استعمل بسرعة في

---

(22) حتى عام 1898؛ كان السبيل الوحيد لدخول مهنة الهندسة في بريطانيا هو التدريب والخبرة.

(23) F. Zunkel, «Industriebürgertum in Westdeutschland,» in: Hans Ulrich Wehler, ed., *Moderne Deutsche Sozialgeschichte,* Neue wissenschaftliche Bibliotek; 10 (Köln; Berlin: Kiepenheuer u. Witsch, 1966), p. 323.

(24) ازدهر كذلك مخزون المواد الكيمياوية الخام في أوروبا. فقد أنتجت مستودعات ألمانيا من البوتاس 58 ألف طن بين العامين (1861 ـ 1865)، 545 ألفاً (1871 ـ 1875)، وأكثر من مليون طن (1881 ـ 1885).

استخدامات جديدة بعد معالجة كيمياوية. وعام 1859، أقتصر الإنتاج على ألفي برميل، غير أنه وصل عام 1874 إلى نحو (11) مليون برميل (وكان أكثره من بنسلفانيا ونيويورك، ما مكّن جون د. روكفلر (John D. Rockefeller من إقامة طوق مانع حول الصناعة الجديدة عندما سيطر، من خلال شركته ستاندرد أويل، على حركة المواصلات والنقل في المنطقة.

على الرغم من ذلك كله؛ فإن هذه الابتكارات تبدو عند استحضارنا للماضي اليوم أكثر أهمية مما كانت عليه آنذاك، ففي أواخر الستينيات من القرن التاسع عشر، كان الخبير يعتقد أن المعادن الوحيدة التي ستحتفظ بأهميتها في اقتصاد المستقبل هي التي عرفها القدماء: الحديد، والنحاس، والتنك، والرصاص، والزئبق، والذهب، والفضة. أما المنغنيز، والنيكل، والكوبالت، والألمنيوم، فلم يكن مُقدراً لها، في ظنّه «أن تؤدي دوراً مهماً مثل سابقاتها»[25]. لقد كان ارتفاع واردات بريطانيا من المطاط من 7,600 طن عام 1850 إلى 159,000 طن عام 1876 أمراً له دلالته، غير أن تلك الكميات غدت لا تستحق الاهتمام إذا قورنت حتى بالمقاييس اللاحقة بعد عشرين سنة، فاستخدامات تلك المادة التي كانت تُجمع في الغالب بأسلوب همجي في أمريكا الجنوبية، وكادت تقتصر على الملابس المقاومة للماء والمط. وعام 1876، كان ثمة (200) جهاز هاتف بالضبط عاملة في أوروبا، و(380) في الولايات المتحدة. وكان تشغيل المضخة بالكهرباء حدثاً مشهوداً في معرض فيينا الدولي. وإذا نظرنا إلى الوراء، لأدركنا أن عهد الاختراقات كان على الأبواب؛ إذ كان العالم يوشك على الدخول في عصر النور الكهربائي، والطاقة، والفولاذ، وأشابات الفولاذ العالية السرعة، والهاتف، والحاكي، والطوربينات، ومحركات الاحتراق الداخلي. غير أن العالم لم يكن قد دخل هذه المرحلة بعد في أواسط السبعينيات.

---

(25) Louis Simonin, *Mines and Miners or Underground Life* (London: [n. pb.], 1868), p. 290.

ربما كان الابتكار الصناعي الرئيسي الآخر؛ بالإضافة إلى المجالات القائمة على العلم التي أسلفنا ذكرها، هو الإنتاج بالجملة للمعدات التي صنعها الحرفيون البارعون على نحو ما كانوا يصنعون السفن والعربات. وقد وفدت أغلب العناصر في هندسة الإنتاج الجماعي من الولايات المتحدة، الرائدة في صنع مسدسات كولت، وبندقية وينشستر، والساعات المُنتجة بالجملة، وآلة الخياطة، (وعلى غرار المسالخ في سنسناتي وشيكاغو في الستينيات من القرن التاسع عشر) نظام التجميع الحديث؛ أي النقل الآلي للسلعة المُصنعة من عملية إلى أخرى. وكان من موجبات إنتاج الآلات التي تصنعها الآلات (التي تُعنى بتطوير الأدوات الآلية الأوتوماتيكية أو شبه الأوتوماتيكية)؛ أنها كانت ضرورية لإنتاج كميات هائلة من السلع الموحدة المواصفات لم يكن بوسع الصناع الأفراد إنتاجها خارج الشركات والمؤسسات، ذلك أنه لم يكن في العالم كله عام 1875 أكثر من 62,000 عربة متحركة. ولكن هل يمكن مقارنة ذلك بنحو 4000,000 ساعة نحاسية، أُنتجت بالجملة في الولايات المتحدة في سنة واحدة (1855)، وبالبنادق المطلوبة لنحو ثلاثة ملايين من الجنود الفيدراليين، والكونفيدراليين الذين حشدوا بين الأعوام 1861 ـ 1885 لخوض الحرب الأهلية الأمريكية؟ ومن ثَمّ فإن المُنتجات التي كان من الممكن إنتاجها بالجملة هي التي كانت تستخدمها أعداد ضخمة من صغار المُنتجين، مثل: المزارعين، والخياطات (آلات الخياطة)، وفي المكاتب، مثل الطابعات. والسلع الاستهلاكية، مثل الساعات، وفوق هذا وذلك، الأسلحة الصغيرة والذخيرة. وكانت هذه المُنتجات تخصصية بعض الشيء وذات مواصفات غير موحدة حتى ذلك الحين. غير أنها أثارت القلق في نفوس الأذكياء الأوروبيين الذين كانوا في الستينيات قد لاحظوا تفوق الولايات المتحدة التقني في الإنتاج بالجملة؛ إلا أنها لم تُقلق «الرجال العمليين» الذين اكتفوا بالاعتقاد بأن الأمريكيين لم يكونوا ليفكروا باختراع الآلات لإنتاج سلع متدنية لو توفر لديهم الحرفيون والصناع المهرة كالأوروبيين. ألم

يزعم أحد المسؤولين الفرنسيين حتى أواخر القرن التاسع عشر؛ أنه بينما لم تكن بمقدور فرنسا مضاهاة الدول الأخرى في الإنتاج الصناعي بالجملة؛ فإنها استطاعت أن تحافظ على مكانتها المُتميزة في صناعة يؤدي فيها الإبداع والبراعة دوراً حاسماً؛ ألاّ وهي صنع السيارات؟

IV

عندما نظر رجال الأعمال إلى العالم حولهم في مطلع العقد الثامن من القرن التاسع عشر؛ فإن نفوسهم لم تعد مليئة بالثقة، ولا بالاطمئنان. لكن كان هذا مبرراً. إن مفعول جرعة الطاقة التي تناولها العالم في أربعينيات ذلك القرن لم تدم طويلاً، على الرغم من الاستمرار والتسارع في التوسع الهائل في الاقتصاد العالمي الذي أصبح يعتمد الآن كلياً على التصنيع في دول عدة، وعلى تدفق حقيقي للسلع، ورأس المال، والبشر على الصعيد العالمي، فالعالم الجديد الذي فتح أبوابه للمشروع الرأسمالي سيواصل النمو، بيد أنه سيكون عالماً جديداً كل الجِّدة. (والواقع أنه حالما بدأت منتجات بعض الدول، مثل: الحبوب، والقمح، من السهول الأمريكية، ومن السهول الروسية بالتدفق إلى العالم القديم في السبعينيات والثمانينيات حتى بدأت تشيع الارتباك والاضطراب في القطاع الزراعي في بلدان العالمين القديم والحديث).

واستمر بناء السكك الحديد لجيل كامل في العالم. ولكن ما الذي سيحدث عندما لا يعود فيها هذا العمل شاملاً مثلما كان في الماضي؛ لأن أكثر الخطوط الحديدية تكون قد استكملت آنذاك؟ إن الإمكانات التقنية للثورة الصناعية الأولى، البريطانية التي كان قوامها القطن، والفحم، والمحركات التجارية، كانت من الضخامة بما يكفي. ولم تكن قد استغلت كل الاستغلال على الإطلاق خارج بريطانيا قبل عام 1848، بل إن استغلالها لم يكتمل حتى في بريطانيا. وقد نجد العذر للجيل الذي بدأ باستغلالها آنذاك لاعتقاده بأنها غير قابلة للنضوب. غير أنها لم تكن كذلك؛ إذ إن حدودها كانت ظاهرة للعيان في السبعينيات، فما

الذي كان سيحدث إذا ما نضبت بالفعل؟

عندما دخل العالم في سبعينيات ذلك القرن، كانت هذه الهواجس القائمة تُعتبر نوعاً من التخريف. صحيح أن عواقب عملية التوسع، كما تكشفت للجميع الآن، كانت كارثية. ذلك أن حالات من الكساد الحاد، والمفاجئ أحياناً، والمطرد الاتساع على الصعيد العالمي قد أعقبت مراحل الازدهار الخارقة تلك، إلى أن انهارت الأسعار على حد تهاوت معه الأسواق المُتخمة، ومهدت الطريق للشركات المُفلسة، وإلى أن بدأ رجال الأعمال يستثمرون ويوسعون أعمالهم لتجديد الدورة الاقتصادية. وفي ستينيات القرن التاسع عشر، بعد الحلقة الأولى من مسلسل الكساد الحقيقي في العالم[26]، تمكن علم الاقتصاد الأكاديمي، مُمثلاً بالعلاّمة الفرنسي الألمعي كليمنت جوغلر (Clement Juglar) (1819 ـ 1905) من استكشاف وقياس حقيقة الانتظام الدوري في هذه «الدورة التجارية» التي عُرفت بهذا الاسم في الأساس بين الاشتراكيين والهراطقة الآخرين. وعلى الرغم من التعثر المُثير الذي أنتاب هذا التوسع؛ فإنه كان عابراً وموقتاً. وقد بلغت الغبطة الاقتصادية في أوساط رجال الأعمال حداً غير مسبوق على الإطلاق في أوائل العقد الثامن، (وهي سنوات ترويج الشركات الشهيرة (Gründerjahre) في ألمانيا)، وهي الفترة التي كانت فيها الإعلانات الترويجية عن الشركات الأكثر زيفاً وسفاهة قادرة على أن تجد أعداداً لا حصر لها من المُمولين الجشعين لتصديق وعودها وتلبية دعواتها. وعلى حد تعبير أحد الصحافيين في فيينا، كانت تلك هي الأيام «التي تؤسس فيها الشركات لتنقل الشفق القطبي الشمالي بالأنابيب إلى ساحة سانت ستيفن، وتنجح في أن تبيع، بالجملة، الطلاء الذي نستعمله لتلميع أحذيتنا، على السكان الأصليين في جزر البحر الجنوب»[27].

---

(26) انظر الصفحات اللاحقة من هذا الكتاب.

(27) Daniel Spitzer, *Gesammelte schriften*, 3 vols., Herausgegeben von Max Kalbeck und Otto Erich Deutsch (München: Leipzig, G. Müller, 1912-1914), vol. 2: *Wiener Spaziergänge II*, 1912, p. 60.

ثم كان الانهيار. وكان غاية في الإثارة، حتى في تلك المرحلة التي اعتادت على ما تحمله حالات الازدهار الاقتصادي من تقلبات ونزوات. لقد تهاوى (21) ألف ميل من الخطوط الحديدية الأمريكية، وأفلس. وهبطت قيمة الأسهم الألمانية من الذروة بنسبة (60) في المئة؛ إلى أن بلغت أدنى مستوياتها عام 1877، وكان أبلغ هذه التطورات وقعاً أن ما يقرب من نصف أتّونات الصَّهر في دول العالم الرئيسية المُنتجة للحديد توقفت عن العمل. وتحول طوفان الهجرة إلى «العالم الجديد» إلى جدول صغير متواضع، ففي الفترة بين عام 1865 ـ 1873، كان أكثر من (200) ألف مهاجر يصلون إلى ميناء نيويورك؛ فانكمش عددهم إلى (63) ألفاً عام 1877. ولكن لم يكن يبدو أن ثمة نهاية لحالة الكساد هذه، خلافاً لمثيلاتها في وقت سابق. ففي فترة متأخرة، لاحظت دراسة ألمانية أطلقت على نفسها اسم «مدخل إلى الدراسات الاقتصادية للمسؤولين ورجال الأعمال» عام 1889؛ أنه «منذ انهيار سوق الأوراق المالية عام 1873. ظلت كلمة (الأزمة) تتردد على لسان الجميع على الدوام؛ باستثناء فترات وجيزة من الانقطاع»[28]. وقد حدث ذلك في ألمانيا، البلد الذي كان قد واصل النمو الاقتصادي تحقيق تقدم مشهود في تلك الفترة. وقد تشكك المؤرخون في حدوث ما سمي «الكساد الكبير» في الفترة بين عام 1873 ـ 1896. وهو لم يكن بطبيعة الحال مدوياً لِما حدث في وقت لاحق بين عام 1929 ـ 1934؛ عندما تهاوى الاقتصاد الرأسمالي العالمي برمته تقريباً. غير أن معاصري تلك المرحلة لم يكونوا على شك في أن الازدهار الكبير قد أعقبه كساد كبير.

استُهِلّ كساد السبعينيات من القرن التاسع عشر حقبة تاريخية جديدة في المجالين الاقتصادي والسياسي على السواء. وتقع هذه الحقبة خارج الحدود التي رسمتها لهذا الكتاب، مع أن بوسعنا أن نُذكر، في

---

(28) Jürgen Kuczynski, *Die Geschichte der Lage der Arbeiter unter dem Kapitalismus*, 38 vols. (Berlin: Akademie-Verlag, 1960-1972), vol. XII, 1961, p. 29.

ملاحظة عابرة؛ أنها قوضت أو دمرت الأسس التي كانت قد قامت عليها الليبرالية في أواسط القرن التاسع عشر، بعد أن بدت آنذاك راسخة عميقة الجذور. لقد أثبتت الفترة بين أواخر الأربعينيات وأواسط السبعينيات، وخلافاً لِما شاع عنها في تلك الأيام؛ أنها لم تكن مثالاً للنمو الاقتصادي، والتنمية السياسية، والتقدم الفكري، والإنجاز التقاني الذي سيدوم ويستمر، مع ما يقتضيه من تحسينات، ويواصل مسيرته على طريق لا نهاية له في المستقبل. لقد كانت هذه الفترة في واقع الأمر، أشبه بفاصل من نوع خاص بين مرحلتين. بيد أن ما تحقق فيها من مُنجزات كان لافتاً ومؤثراً كل التأثير، فهي الحقبة التي أصبحت فيها الرأسمالية الصناعية هي الاقتصاد العالمي الحقيقي، وتحوّل فيها كوكبنا الأرضي؛ وبالتالي من تعبير جغرافي إلى واقع عملي ثابت، وأصبح التاريخ منذ هذه اللحظة هو تاريخ العالم.



الفصل الثالث

العالم موحّداً

من نتائج التحسين السريع لأدوات الإنتاج كلها، عبر وسائل الاتصالات المسهلة بصورة هائلة، أن البورجوازية تجر الجميع، حتى الأمم الأكثر بربريةً، إلى حلبة الحضارة... إنها، باختصار، تقوم بخلق عالم على صورتها هي.

كارل ماركس وفريدريخ إنجلز 1848[1].

قد تغير كل شيء بفعل التجارة، والتعليم، والنقل السريع للفكر والمادة، عن طريق التلغراف والبخار، إلى حد يدفعني إلى الاعتقاد بأن الصانع الأعظم عاكف على إعداد العالم لأن يصبح أمة واحدة، تتكلم لغة واحدة، وصولاً إلى ذروة لا تعود الجيوش والقوى البحرية معها ضرورية.

الرئيس يوليسيس س. غرانت (Ulysses S. Grant)، 1873[2].

«يجب أن تكون قد سمعت كل ما قاله، كنت سأعيش على قمة أحد

(1) Karl Marx and Friedrich Engels, *Manifesto of the Communist Party* (London: [n. pb.], 1848).

(2) U. S. Grant, Inaugural Message to Congress (1873).

الجبال، سأذهب إلى مصر أو إلى أمريكا».

«حسناً، وماذا في ذلك؟» علق سولز ببرود، «يمكنك أن تكون في مصر خلال أسبوعين وفي أمريكا في غضون ثلاثة أسابيع».

«ومن يهب إلى أمريكا أو مصر؟ الإنجليز يفعلون ذلك؛ لأن تلك هي الطريقة التي صنعهم بها الرب الإله، إضافة إلى أنهم لا يملكون فسحة يعيشون فيها في وطنهم، ولكن من منا يمكنه أن يحلم بالذهاب؟ ربما شخص ما يائس، لا تساوي حياته شيئاً في نظره».

إ. غونتشاروف (I. Goncharov)، 1859[3].

I

حين نكتب «تاريخ العالم» عن فترات مبكرة؛ فإننا نتحدث في واقع الأمر إضافة إلى تواريخ أجزاء العالم المختلفة التي لا تكون، على الرغم من معرفة بعضها ببعض، مترابطة في ما بينها إلا بصورة هامشية وسطحية، ما لم يكن سكان منطقة معينة قد سبق لهم أن اجتاحوا منطقة أخرى واستعمروها، كما فعل الأوروبيون الغربيون بالأمريكتين. ومن الممكن تماماً أن يكتب المرء تاريخ أفريقيا الأسبق من دون الإشارة إلى الشرق الأقصى إلا بصورة عابرة، مع إشارة قليلة إلى أوروبا (باستثناء الساحل الغربي ورأس الرجاء الصالح)، ولكن مع إشارة مطردة تماماً إلى العالم الإسلامي. أما ما كان يحدث في الصين فقد بقي، حتى القرن الثامن عشر، غير ذي أهمية بالنسبة إلى الحكام السياسيين في أوروبا، وإلى الروس باستثناء بعض الجماعات التجارية المتخصصة؛ وما كان يحدث في اليابان كان خارج نطاق المعرفة المباشرة للجميع باستثناء حفنة من التجار الهولنديين الذين سُمح لهم بأن يتمتعوا بموطئ قدم هناك بين القرن السادس عشر ومنتصف القرن التاسع عشر. وعلى النقيض من

(3) Ivan Goncharov, *Oblomov* ([n. p.: n. pb.], 1859).

ذلك فإن أوروبا لم تكن بنظر إمبراطورية السماء الصينية إلا منطقة مأهولة بالغرباء المتوحشين البعيدين لحسن الحظ، بما يحول دون التقييم الدقيق لمدى خضوعهم المؤكد للإمبراطور، على الرغم من إثارتهم لبعض مشكلات الإدارة الثانوية بالنسبة إلى الموظفين المسؤولين عن إدارة بعض الموانئ. من هنا، كان إغفال أشياء كثيرة من دون حرج أمراً ممكناً، حتى في المناطق التي كانت تشهد قدراً لا بأس به من التفاعل. تُرى، مَن مِن الأوروبيين الغربيين، التجار والساسة، كان مهتماً قيد أنملة بما كان يجري على قمم جبال مقدونيا وبطون أوديتها؟ ولو ابتلعت كارثة طبيعية ما، فمن سيبدي أي اهتمام بذلك، حتى في الإمبراطورية العثمانية التي كانت جزءاً منها رسمياً، وبين صفوف تجار مختلف الأمم في شرق المتوسط.

إن غياب التبعية المتبادلة بين مختلف أجزاء كوكب الأرض لم ينجم عن الجهل فحسب، على الرغم من أن جهل «الداخل» كان لا يزال كبيراً، خارج المنطقة المعنية بل وداخلها غالباً بطبيعة الحال. فحتى في عام 1848 كانت مساحات شاسعة من القارات المختلفة تُترك بيضاء حتى على الخرائط الأوروبية، ولا سيما في أفريقيا، وآسيا الوسطى، وعمق أمريكا الجنوبية وأجزاء من أمريكا الشمالية واستراليا، ناهيك بالقطبين المتجمدين الشمالي والجنوبي غير المكتشفين بصورة شبه كلية. وكان من شأن الخرائط التي قد يرسمها جغرافيون وآخرون أن تبين حتى مساحات أوسع من المناطق المجهولة؛ إذا كان رسميو الصين أو الكشافون الأميون، وتجار وقاطنو غابات كل عمق قاري داخلي، يعرفون قدراً أكبر بكثير عن مناطقهم، كبيرة أكانت أم صغيرة، مقارنة بما كان يعرفه الأوروبيون عنها، فالمجموع الإجمالي لمعرفتهم الجغرافية كان أكثر ضآلة بما لا يقاس. وعلى أي حال فإن من شأن مجرد الجمع الحسابي لكل ما كان أي خبير يعرفه عن العالم أن يكون تدبيراً أكاديمياً خالصاً. ومثل هذه المعرفة لم تكن متوافرة عموماً: لم يكن ثمة أي عالم واحد، حتى على صعيد المعرفة الجغرافية.

كان الجهل عَرَضاً من أعراض غياب وحدة العالم لا سبباً من أسبابه يعكس غياب جملة العلاقات الدبلوماسية، والسياسية، والإدارية، التي بقيت هزيلة حقاً[4]، من جهة، وضعف الروابط الاقتصادية من جهة ثانية. ومن المؤكد أن «السوق العالمية»، وهي الشرط المسبق والميزة الضرورية للمجتمع الرأسمالي، دائبة على التطور منذ أمد بعيد. والتجارة الدولية[5] تضاعف حجمها أكثر من مرة بين عام 1720 ـ 1780. وكان هذا الحجم قد تضاعف خلال فترة الثورة المزدوجة (1780 ـ 1840) أكثر من ثلاث مرات، غير أن مثل هذا النمو الكبير كان متواضعاً بمعايير فترتنا. وبحلول عام 1870، كانت قيمة التجارة الخارجية بالنسبة إلى كل مواطن في المملكة المتحدة، وفرنسا، وألمانيا، والنمسا واسكندنافيا تتراوح بين أربعة وخمسة أضعاف حجمها في عام 1830، وبالنسبة إلى كل من هولندا وبلجيكا نحو ثلاثة أضعاف. وحتى بالنسبة إلى كل مواطن في الولايات المتحدة، تلك البلاد التي لم تكن التجارة فيها تنطوي إلا على قدر هامشي من الأهمية، إذ بلغت أكثر من الضعف بشكل ملحوظ. في سبعينيات القرن التاسع عشر، كان ما يقرب من 88 مليوناً من الأطنان من السلع المشحونة بحراً يجري تبادلها بين الدول الكبرى، مقارنة بعشرين مليوناً عام 1840. وعبر المحيطات 31 مليوناً من أطنان الفحم مقابل ما هو أقل من مليونين؛ وستة ملايين من الأطنان من الحديد، مقارنة بمليون واحد؛ وعلى سبيل التمهيد لما سيحدث في القرن العشرين، عبرت البحار كل سنة كمية 1,4 مليون

---

(4) إن المرجع الرئيسي لقضايا الدبلوماسية والسياسة ولشؤون السلالات، وهو Almanach de Gotha الحريص على تسجيل القليل المعروف عن المستعمرات السابقة التي تحولت الآن إلى جمهوريات أمريكية، لم يذكر بلاد فارس قبل عام 1883، والصين قبل 1861، واليابان قبل 1863، وليبيريا قبل 1868، ومراكش قبل عام 1871. أما سيام، فلم تدخل هذا السجل إلا عام 1880.

(5) أي الإجمالي الكلي لصادرات كل البلدان المشمولة في الإحصائيات الاقتصادية الأوروبية خلال تلك الفترة.

من أطنان النفط الذي لم يكن معروفاً في دنيا تجارة ما وراء البحار عام 1840، طيلة سبعينيات القرن التاسع عشر.

وإذا قسنا، بمزيد من الدقة، الشبكة التي تزداد كثافة للمبادلات الاقتصادية بين أجزاء العالم البعيدة بعضها عن بعض لوجدنا أن الصادرات البريطانية إلى تركيا والشرق الأوسط قد ارتفعت من 3,5 مليون من الأرطال الإنجليزية عام 1848، إلى ذروة قاربت 16 مليوناً عام 1870؛ وإلى آسيا من 7 ملايين إلى 41 مليوناً عام 1875؛ وإلى أمريكا الوسطى والجنوبية من 6 ملايين إلى 25 مليوناً عام 1872؛ وإلى الهند من نحو 5 ملايين إلى 24 مليوناً عام 1875؛ وإلى أستراليا من 1,5 مليون إلى حوالى 20 مليوناً عام 1875. وبعبارة أخرى، يمكن القول إن قيمة المبادلات بين الاقتصاد الأكثر تصنيعاً وأبعد أو أكثر المناطق تخلفاً في العالم كانت، في غضون خمس وثلاثين سنة تقريباً، قد تضاعفت نحو ست مرات. وحتى هذا ليس مدهشاً كثيراً، بالطبع، إذا ما نظرنا إليه من منطلق المعايير الحالية. غير أنه، من حيث الحجم المجرد، فاق كل ما سبق للناس أن تصوروه أو حلموا به. ومن الواضح أن الشبكة الرابطة بين أقاليم العالم المختلفة كانت تزداد إحكاماً وضيقاً.

ستصادفنا قضية معقدة إذا ما أردنا أن نعرف كيفية الترابط بين عملية الاستكشاف المستمرة ـ التي عبأت المساحات الفارغة على الخريطة ـ ونمو السوق العالمية، فقد كان بعضها نتاجاً جانبياً للسياسة الخارجية، أو لحماسة تبشيرية، وبعضها تلبية للفضول العلمي، وجانب منها، في نهاية الفترة التي نعالجها، لأغراض الصحافة والنشر. إلا أن البعد الاقتصادي لم يكن وينبغي ألا يكون غائباً عن بال الرحالة في أسفارهم، ومن بينهم: جاي ريتشاردسون (J. Richardson) (1787 ـ 1865)، هـ. بارث (H. Barth) (1821 ـ 1865) وأ. أوفرويغ (A. Overweg) (1822 ـ 1852)، الذين أرسلتهم وزارة الخارجية البريطانية لاكتشاف وسط أفريقيا عام 1849، وديفيد ليفنغستون (David

(Livingston العظيم (1813 ـ 1873) الذي جاب طولاً وعرضاً قلب ما كان يعرف آنذاك باسم «القارة السوداء» في الفترة بين 1840 و1873 لصالح المسيحية الكالفينية، وهنري مورتون ستانلي (Henry Morton Stanley) (1841 ـ 1904)، الصحافي الذي أرسلته صحيفة **نيويورك هيرالد** لمعرفة مكانه (لا لتتبع آثاره شخصيا!)، س. بيكر (S. W. Baker) (1821 ـ 1892)، ج. هـ. سبيك (J. H. Speke) (1827 ـ 1864) الذي كانت رحلاته أقرب إلى طابع الجغرافيا والمغامرة. وعلى حد تعبير كاهن فرنسي مهتم بالنشاط التبشيري، فإن:

«السيد الرب لا يحتاج إلى أي إنسان، ونشر الإنجيل يمضي قدماً من دون معونة بني البشر؛ وعلى الرغم من ذلك، فإن هذا المسعى سيعزز النهوض بالتجارة الأوروبية، فيما يساعد في الوقت نفسه على ردم الحواجز التي تقف في سبيل التبشير بالإنجيل...»[6].

إن الاستكشاف لم يكن يعني المعرفة فحسب، بل يعني التطوير، وهداية المجهولين؛ أي، بحكم التعريف، البرابرة المتخلفين، بنور الحضارة والتقدم؛ وستر العري الهمجي الفاضح بالقمصان والسراويل التي صنعت بفضل العناية الإلهية في بولتون وروبيه، وتصدير سلع بيرمنغهام التي لا بد أن تجر المدينة في أعقابها.

إن من نسميهم «مستكشفي» القرن التاسع عشر كانوا، في واقع الأمر، جماعة فرعية من كتلة بشرية كبيرة قامت بكشف النقاب عن كوكب الأرض. لقد كان هؤلاء الذين ذاع صيتهم على قلة عددهم هم الذين سافروا إلى مناطق لم تصل فيها مستويات فاعلية التنمية الاقتصادية والأرباح إلى درجات كافية لتمكين التاجر، ومنقب المعادن، والمساح،

---

(6) John F. Laffey, «Les Racines de l'impérialisme français en extrême-orient. A Propos des thèses de J.- F. Cady,» *Revue d'histoire moderne et contemporaine*, tome XVI (avril-juin 1969), p. 285.

وممدد سكة الحديد وخط البرق (الأوروبي) من الحلول محل «المستكشف» آخر المطاف، على صعيد معرفة ما إذا كان المناخ مناسباً للمستوطن الأبيض. وسيطر «المستكشفون» على خارطة العمق الأفريقي لأن تلك القارة لم تكن متمتعة بأي نعم اقتصادية واضحة بالنسبة إلى الغرب في ما بين تاريخ إلغاء الاتجار بالعبيد عبر الأطلسي وتاريخ اكتشاف كل من الأحجار والمعادن الكريمة أو الثمينة (في الجنوب)، من جهة، والقيمة الاقتصادية لمنتجات أولية معينة يتعذر استنباتها أو جمعها خارج المناخات المدارية والاستوائية، وما زالت بعيدة عن إنتاجها عن طريق التهجين، من جهة ثانية. ولم يكن أي منهما قد أصبح ذا أهمية كبيرة، يبشر بالخير حتى سبعينيات القرن التاسع عشر. وكان ذلك هو الوضع على الرغم من أن إبقاء قارة عملاقة ومتعرضة لهذا القدر من الإغفال على صعيد الاستفادة منها خارج دائرة إمكانية التحول إلى بؤرة للاستغلال ومصدر للربح، بدا أمراً يتعذر تصوره. إن الصادرات البريطانية إلى أفريقيا جنوب الصحراء كانت، أخيراً، قد ارتفعت من 1,5 مليون رطل في أواخر أربعينيات القرن التاسع عشر إلى نحو 5 ملايين رطل عام 1871، ثم تضاعفت خلال عقد السبعينيات لتصل إلى عشرة ملايين في أوائل الثمانينيات، بما يعني أنها كانت واعدة بالتأكيد. كما أن «المستكشفين» بسطوا سيطرتهم على فتح أستراليا؛ لأن الصحراء الداخلية كانت واسعة، وفارغة، وخالية من أي مصادر صالحة للاستغلال الاقتصادي حتى أواسط القرن العشرين. ومن جهة أخرى، توقفت المحيطات، باستثناء المتجمد الشمالي ـ فالمتجمد الجنوبي لم يثر أي قدر من الاهتمام في عصرنا ـ عن إشغال «المستكشفين»[7]. ومع ذلك، فإن التوسع الهائل

(7) كان الحافز هنا اقتصادياً في المقام الأول، وهو البحث عن معبر عملي للشحن البحري في الشمال الغربي والشمال الشرقي، بين المحيطين الأطلسي والهادي. وكان من شأن ذلك أن يوفر الكثير من الوقت، وبالتالي المال، على نحو ما تفعله الرحلات الجوية العابرة للمناطق القطبية في أيامنا هذه. ولم يكن البحث عن القطب الشمالي الفعلي قد بدأ بشكل حثيث خلال تلك الفترة.

للشحن البحري، ومد الكوابل في أعماق البحار في المقام الأول، انطوى على قدر كبير مما يمكن أن نطلق عليه اسم الاستكشاف.

ومن ثم فإن العالم عام 1875 كان معروفاً أكثر بكثير مقارنة مع وضعه من قبل. حتى على الصعيد القومي، كانت خرائط تفصيلية (رُسمت لأغراض عسكرية في الغالب) قد باتت متوفرة في العديد من البلدان المتطورة، فنشر المجهود الريادي على هذا الصعيد، وهو خرائط المسح الرسمي لإنجلترا ـ من دون اسكوتلندا وأيرلندا بعد ـ قد أُنجز عام 1862. غير أن الأهم من المعرفة المجردة لأكثر أجزاء العالم بُعداً هو أنها كانت آنذاك تترابط بوسائل الاتصالات غير المسبوقة من حيث الانتظام، من حيث القدرة على نقل كميات كبيرة من البضائع وأعداد كبيرة من الناس، وفي ما يخص السرعة قبل كل شيء، إنها وسائل الاتصالات المتمثلة بالسكك الحديد، والسفن البخارية، والبرق.

بحلول عام 1872، كانت هذه الوسائل قد أنجزت الانتصار الذي أرّخ له جول فيرن (Jules Verne): أعني إمكانية الدوران حول الأرض في ثمانين يوماً، حتى لو أخذت بالاعتبار جملة العثرات الكثيرة التي واجهها فيلياس فوغ (Phileas Fogg) الجَسور، وربما يتذكر القراء المسار الجريء الذي وقع اختيار الرحالة عليه، فقد سافر بالقطار والعبَّارة البخارية الخاصة بالقناة عبر أوروبا من لندن إلى برنديزي. من هناك تابع الرحلة بالباخرة عبر قناة السويس المفتتحة حديثاً (خلال فترة قدرت بسبعة أيام). أما الرحلة البحرية من السويس إلى بومباي فقُدِّر لها أن تستغرق ثلاثة عشر يوماً، في حين أن الرحلة بالقطار من بومباي إلى كالكوتا ما كانت لتستغرق، لولا الإخفاق في إكمال مد السكة، سوى ثلاثة أيام، ومن هناك بحراً إلى هونغ كونغ، ويوكوهاما، ثم إلى سان فرانسيسكو عبر المحيط الهادي. وكان من شأن الرحلة أن تدوم فترة واحد وأربعين يوماً طويلاً. ونظراً إلى أن السكك الحديد العابرة للقارة الأمريكية كانت قد استُكملت بحلول عام 1869، فإن رحالتنا لم تكن تفصله عن نيويورك سوى سبعة أيام عادية لم تصبح بعد خالية من أخطار الغرب ـ قطعان

البيزون، الهنود وغيرهما. أما باقي الرحلة ـ أي عبور الأطلسي إلى ليفربول والانتقال إلى لندن بالقطار ـ لم يكن ينطوي على أي مشكلات عدا العناصر المثيرة للخيال. وفي الواقع أن وكالة سياحية أمريكية مبادرة عرضت رحلة مماثلة حول العالم بعد ذلك بوقت قصير.

ترى، كم من الوقت كانت رحلة فوغ هذه ستستغرق عام 1848؟ كان سيتعين عليها، بصورة شبه كاملة أن تتم بحراً؛ لأن أي خطوط حديدية عابرة للقارة لم تكن، بعد، موجودة، كما لم تكن موجودة في أي مكان آخر عدا الولايات المتحدة، حيث لم تكن أطوالها تتجاوز مئتي ميل في العمق البري. ثم إن أسرع السفن الشراعية، قلابر الشاي الشراعية الشهيرة كانت في ذروة إنجازها الفني تستغرق مئة وعشرة أيام لقطع المسافة من كانتون حوالى عام 1870، ولم تكن مؤهلة لأن تقطع المسافة في أقل من تسعين يوماً، بينما كانت، كما هو معلوم، تدوم مئة وخمسين يوماً. ولا يسعنا أن نفترض احتمال إنجاز أي رحلة بحرية حول العالم، في ظل أفضل الظروف، خلال فترة زمنية أقل من أحد عشر شهراً، أو في غضون أربعة أضعاف المدة التي تطلبتها رحلة فوغ، من دون حساب الأوقات الضائعة في الموانئ. كان هذا التحسين في الوقت الذي تستغرقه الأسفار البعيدة المدى متواضعاً نسبياً، جرّاء التأخر في تحسين سرعة الإبحار. فقد كان معدل الوقت الذي تستغرقه سفينة بخارية لعبور الأطلسي من ليفربول إلى نيويورك عام 1851 يتراوح بين أحد عشر يوماً واثني عشر يوماً ونصف اليوم. وظل على حاله تقريباً حتى عام 1873، على الرغم من أن شركة الخطوط البحرية وايت ستار كانت تفخر لنفسها بأنها خفضت هذه الفترة إلى عشرة أيام[8]. وباستثناء الحالات التي قُصّرت فيها الطريق البحرية، كما حدث عند

(8) أخذ كثير من هذه البيانات من: William Schaw Lindsay, *History of Merchant Shipping and Ancient Commerce*, 4 vols., With... Illustrations (London: [n. pb.], 1874-1876).

شق قناة السويس، فإن فوغ لم يكن ليسافر أسرع مما كان يفعله رحالة آخر عام 1848. غير أن التحول الأساسي كان قد حدث على اليابسة، ومن خلال السكة الحديد. وحتى في هذه الناحية، فإن التحسن لم يكن نتيجة زيادة السرعة التي كانت السفن البخارية قادرة من الوجهة الفنية على السير بها، بل بسبب التوسع الهائل في شبكات السكك الحديد. إن قطارات عام 1848 كانت، على العموم، أبطأ مما أصبحت عليه في سبعينيات ذلك القرن. مع أنها كانت تصل إلى هوليهيد من لندن في غضون ثماني ساعات ونصف الساعة؛ أي أكثر بثلاث ساعات ونصف الساعة مما أصبحت عليه عام 1874. ومع ذلك، فإن السيد وليام وايلد (William Wilde) ـ وهو والد [الكاتب] أوسكار، وصياد معروف آنذاك، كان يقترح على قرّائه في لندن أن يقوموا في عطلة نهاية الأسبوع، برحلة قصيرة لصيد السمك إلى كانيمارا ذهاباً وعودة، وذلك ما يتعذر القيام به في هذا الوقت القصير اليوم إلا بركوب القطارات والسفن، (وما يصعب القيام به أيضاً إلا باستخدام الطائرات). وعلى الرغم من ذلك، فإن القاطرات التي طورت في العقد الثامن من القرن التاسع عشر كانت آلات ذات كفاءة مشهودة. ولكن لم تكن ثمة شبكة للسكة الحديد تماثل ما كان في إنجلترا عام 1848.

II

شهدت الفترة التي يتناولها هذا الكتاب بناء شبكات لرحلات للمسافات الطويلة في كل مكان في أوروبا تقريباً، وفي الولايات المتحدة، بل في بقاع قليلة أخرى من العالم. ويتحدث الجدولان التاليان عن نفسيهما؛ إذ يعرض الأول الصورة العامة، ويبين الثاني مزيداً من التفاصيل. وعام 1845، كان البعد الوحيد خارج أوروبا، الذي يملك ولو ميلاً، واحداً من خطوط السكك الحديد في البلدان «الناقصة النمو» هو كوبا. وبحلول عام 1855، كانت ثمة شبكات من هذه الخطوط في القارات الخمس، على الرغم من أنها في أمريكا

الجنوبية (البرازيل، التشيلي، والبيرو) وأستراليا كانت بالكاد ظاهرة للعيان. ومع عام 1865، دخلت أوائل خطوط السكك الحديد إلى نيوزيلندا؛ والجزائر؛ والمكسيك؛ وجنوب أفريقيا، بينما امتد في البرازيل؛ والأرجنتين؛ والبيرو؛ ومصر نحو ألف ميل من السكك الحديد أو أكثر، وكانت سيلان [سريلانكا]، وجاوه، واليابان، وحتى تاهيتي النائية قد حصلت على السكك الحديد كذلك. وفي تلك الأثناء، كان العالم بحلول عام 1875 يملك 62 ألف قاطرة، و112 ألف عربة قطار، ونحو نصف مليون حافلة، تحمل في مجموعها ما يقدر بـ 1,371 مليون راكب، و715 مليون طن من البضائع؛ أي نحو تسعة أضعاف ما نقل بحراً كل سنة (على المعدل) خلال هذا العقد. وكان الربع الثالث من القرن التاسع عشر، من الوجهة الكمية، أول عصر حقيقي للسكك الحديد.

مسافات السكك الحديد بالأميال
(بالألف ميل)[9]

	1840	1850	1860	1870	1880
أوروبا	1,7	14,5	31,9	63,3	101,7
أمريكا الشمالية	2,8	9,1	32,7	56,0	100,6
الهند	-	-	0,8	4,8	9,3
بقية آسيا	-	-	-	-	*
أستراليا	-	-	*	1,2	5,4
أمريكا اللاتينية	-	-	*	2,2	6,3

(9) Michael G. Mulhall, *The Dictionary of Statistics* (London; New York: G. Routledge and Sons, 1892), p. 495.

أفريقيا (بما فيها مصر)	-	-	*	0,6	2,9
المجموع في العالم	4,5	23,6	66,3	128,2	228,4

* أقل من 500 ميل

التقدم في بناء خطوط السكك الحديد(10)

	1845	1855	1865	1875
عدد البلدان الأوروبية التي:				
لديها خطوط للسكة الحديد	9	14	16	18
لديها أكثر من 1,000 كم من الخطوط	3	6	10	15
لديها أكثر من 10,000 من الخطوط	-	3	3	5
عدد البلدان في الأمريكتين التي:				
لديها خطوط للسكة الحديد	3	6	11	15
لديها أكثر من 1,000 كم من الخطوط	1	2	2	6
لديها أكثر من 10,000 كم من الخطوط	-	1	1	2

(10) Franz Xaver von Neumann-Spallart, *Übersichten der Weltwirtschaft* (Stuttgart: Julius Maier, 1880-), p. 336, und «Eisenbahnstatistik,» in: *Handwörterbuch der Staatswissenschaften*, 7 vols., Hrsg. von dr. J. Conrad [et al.], 2 gänzlich umgearb. Aufl. (Jena: G. Fischer, 1898-1901).

عدد البلدان الآسيوية التي :				
لديها خطوط للسكة الحديد	-	1	2	5
لديها أكثر من 1,000 كم من الخطوط	-	-	1	1
لديها أكثر من 10,000 كم من الخطوط	-	-	-	1
عدد البلدان الأفريقية التي :				
لديها خطوط للسكة الحديد	-	1	3	4
لديها أكثر من 1,000 كم من الخطوط	-	-	-	1
لديها أكثر من 10,000 كم من الخطوط	-	-	-	-

استأثرت إقامة خط السكة الحديد الرئيسي، بطبيعة الحال، بأوسع تغطية دعائية. ذلك أنها كانت، بجملتها، أضخم المشروعات المعروفة إبهاراً للأشغال العامة وأكثر الإنجازات الهندسية في التاريخ البشري حتى ذلك الحين، وعندما تجاوزت خطوط السكك الحديد تضاريس إنجلترا القاسية، أصبحت إنجازاتها أكثر تألقاً. لقد اجتاز خط السكة الحديد الجنوبي الممتد من فيينا إلى تريست معبر سمرينغ على ارتفاع نحو 3,000 قدم عام 1845؛ وعام 1871، كانت الخطوط العابرة للألب تصل إلى 4,500 قدم؛ وكانت اليونيون باسيفيك تعبر جبال روكي في الولايات المتحدة على ارتفاع 8,600 قدم عام 1869؛ وبحلول عام 1874، كان أحد أساطين الاقتصاد، وهو هنري ميغ

(Henry Meiggs) (1811 ـ 1877) قد حقق انتصاراً مشهوداً بتأسيس خط بيرو المركزي للسكة الحديد الذي يتهادى ببطء فوق مرتفعات تصل إلى 15,840 قدماً. وفيما كانت القطارات تنتقل من قمة إلى أخرى، فإنها كانت أيضاً تخترق الأنفاق الصخرية التي تضاءلت إزاءها المعابر المتواضعة التي استخدمت في المراحل الأولى للسكة الحديد في إنجلترا. وكانت أوائل الأنفاق العظيمة التي اخترقت الألب في مون سينيس قد بدأت عام 1857 واكتملت عام 1870، وامتدت نحو سبعة أميال ونصف الميل، وانسابت عبرها أول عربة للبريد، واختصرت بذلك أربعاً وعشرين ساعة من الزمن الذي تستغرقه الرحلة إلى برنديزي (وقد استخدمها، كما نذكر، فيلياس فوغ).

يستحيل علينا أن لا نشارك مشاعر الحماسة، والثقة بالنفس، والاعتزاز التي خامرت أولئك الذين عاشوا في عصر المهندسين البطولي ذاك في اللحظة التي ربطت فيها السكة الحديد بين القناة والبحر الأبيض المتوسط، فأصبح من الممكن السفر بالقطارات إلى إشبيلية، وإلى موسكو، وبرنديزي، فيما كانت الخطوط تمتد صوب الغرب عبر البراري في أمريكا الشمالية، وعبر شبه القارة الهندية في ستينيات القرن التاسع عشر، وتمضي في السبعينيات صعداً في وادي النيل، وتنطلق نحو المواقع الداخلية في أمريكا اللاتينية.

وكيف لنا أن نخفي إعجابنا بطلائع رواد التصنيع الذين تولوا بناء هذه الخطوط، وجحافل الفلاحين الذين كانوا ينظّمون في فرق تعاونية غالباً، والذين حفروا التراب والصخر بكميات فوق مستوى التخيل بالمعاول والمجارف والعمال اليدويين والمشرفين الإنجليز والأيرلنديين الذين أقاموا هذه السكك بعيداً عن مواطنهم الأصلية. ومشغلو المحركات والآليات من أهالي نيوكاسل وبولتون الذين استقروا لتشغيل خطوط السكك الجديدة في الأرجنتين أو في نيو ساوث

ويلز؟[11] وكيف يفوتنا أن نحس بالشفقة على جيوش الحمّالين الذين تركوا عظامهم في كل ميل من تلك الخطوط؟ وبوسعنا حتى اليوم من مشاهدتنا لفيلم ساتيا دجيت راي الجميل «باثر بانتشالي» (الذي اعتمد على رواية بنغالية من القرن التاسع عشر) أن نستحضر اللحظات العجائبية التي بدأ فيها تشغيل أول قاطرة بخارية على الإطلاق، ونتلمس هذا التنين الحديدي العملاق، وتلك القوة الملهمة الكاسحة الوافدة من العالم الصناعي نفسه، وهي تشق طريقها قدماً إلى بقاع لم تصلها من قبل غير العربات التي تجرها العجول، والبغال المحملة.

ولا يسعنا إلا التعاطف مع الرجال المجاهدين معتمري القبعات العالية وهم ينظمون ويوجهون هذه التحولات العظيمة في المشهد الإنساني ـ مادياً ومعنوياً. وقد كان توماس براسي (Thomas Brassey) (1805 ـ 1870)، الذي استخدم، في بعض الأحيان، ثمانين ألف رجل في القارات الخمس، هو الأكثر شهرة بين مجموعة من المولين المبادرين. وتشبه قائمة المشروعات التي تولى تنفيذها في ما وراء البحار مرصوفة من نياشين المعارك وميداليات الحرب التي كان يضعها الجنرالات على صدورهم في عهود أقل استنارة، براتو وبستونيا ليون وأفنيون، السكة الحديد النرويجية، اليوتلاند، خط السكك الرئيسي في كندا، بلباو وميراندا، شرق البنغال، موريشيوس، كوينزلاند، الأرجنتين الوسطى، لامبيرغ وتشيرنوفيتس، سكة حديد دلهي، بوكا وبراكاس، وارسو وتيرسبول، كالاو دوكس.

---

(11) تتلمس آثارها في أوساط رجال العمال الناجحين، من أمثال ميكانيكي السيارات وليام باتيسون في نيو كاسل، فقد سافر إلى الخارج للعمل مشرفاً على عمليات الصيانة في شركة فرنسية للسكة الحديد، وساعد، عام 1852، في تشكيل ما أصبح بعيد ذلك ثاني أكبر شركة للهندسة الميكانيكية في إيطاليا. انظر: Luigi De Rosa, *Iniziativa e capitale straniero nell'industria metalmeccanica del Mezzogiorno, 1840-1904*..., Economia e società; 1 (Napoli: Giannini, 1968), p. 67.

إن «رومانس الصناعة»، عبارة ترددت على ألسنة أجيال من الخطباء في المجال العام، والتجار الذين يهنئون أنفسهم بأنفسهم، حتى أفرغوها من مضمونها الأصلي، بل من كل دلالة. وقد تداولها حتى أصحاب البنوك والممولون الذين اقتصر دورهم على توفير الأموال اللازمة لخطوط السكة الحديد. وقد آلت إلى الإفلاس الانطلاقات الصاروخية التي جلبت الثروة والمكانة الاجتماعية المرموقة ذات يوم لمستثمرين أخذتهم العزة بالنجاح لا بمواردهم المالية الملتوية مثل جورج هدسون (George Hudson) (1800 ـ 1871) أو بارثل ستروسبيرغ (Barthel Strousberg) (1823 ـ 1844). وقد غدا انهيارهم من المعالم الرئيسية في التاريخ الاقتصادي. (ولا صفح ولا مغفرة لـِ «البارونات اللصوص» في صفوف أصحاب السكك الحديد الأمريكيين الذين ابتاعوا ونهبوا الخطوط القائمة وكل ما وقع تحت أيديهم، من أمثال جيم فيسك (Jim Fisk) [1834 ـ 1872]؛ وجاي غولد (Jay Gould) [1836 ـ 1892]؛ وكومودور فاندربيلت (Commodore Vanderbilt) [1794 ـ 1877] . . .وغيرهم. ولا يمكننا في هذا السياق أن نخفي إعجابنا، وإن على مضض، بأكثر المحتالين بروزاً بين بُناة خطوط السكك الحديد العظام، فقد كان هنري ميغ مغامراً مخادعاً بأي مقياس، وترك خلفه أكداساً من الفواتير والرشاوى، وذكريات الإنفاق المرفَّه على امتداد السواحل الغربية للأمريكتين بأكملها، وفي بلاده نفسها في مراكز الانحطاط والاستغلال مثل سان فرانسيسكو، وبنما، ولكن ليس في أوساط رجال الأعمال المحترمين. غير أن أحداً ممن شاهدوا الخط المركزي للسكة الحديد في بيرو لا يمكنه أن ينكر عظمة المفهوم والإنجاز اللذين اجترحتهما عنهما مخيلة هذا الرجل الرومانسية الخسيسة في آنٍ معاً.

وربما تجلى الجمع بين الرومانطيقية، والمبادرة الاقتصادية، والمال بالصورة الأكثر دراماتيكية في الطائفة السان سيمونية الغربية في فرنسا. لقد تتلمذ حواريّو التصنيع، وبخاصة بعد فشل ثورة 1848، على

منظومة من المعتقدات التي أدخلتهم كتب التاريخ بوصفهم «اشتراكيين يوتوبيين»، وأدخلتهم كذلك ساحة المبادرة الاقتصادية المغامرة الدينامية باعتبارهم «أرباب الصناعة»، ولكن فوق هذا وذاك، بوصفهم بناة صرح الاتصالات. إنهم لم يكونوا الوحيدين الذين حلموا بعالم تترابط أجزاؤه بفعل التجارة والتقانة. فإن واحداً من أكثر المراكز بعداً عن المشاركة في الأنشطة الاقتصادية العالمية، وهي إمبراطورية الهابسبيرغ التي تحوطها اليابسة من كل جانب، هي التي أقامت شركة لويد النمسا في تريبست، وسمّت اثنتين من سفنها «بومبي» و«كالكوتا»، انتظاراً لافتتاح قناة السويس التي لم تكن قد شُقت بعد. غير أن واحداً من السان سيمونيين، وهو ف. دو ليسبس (F. M. de Lesseps) (1805 ـ 1894) هو الذي حفر قناة السويس بالفعل، وهو الذي خطط لافتتاح قناة بنما، وهي التي كانت كارثة عليه في وقت لاحق. وقد قُدِّر للأخوين إسحق وإميل بيرير (Issac and Emile Pereire) أن يطبق اسماهما الآفاق بوصفهما، في الأساس، مموليْن مغامريْن بنيا سمعتهما في عهد نابليون الثالث. غير أن إميل نفسه هو الذي أشرف على بناء أول سكة حديد فرنسية عام 1873، وابتنى لنفسه شقة سكنية فوق المشاغل، ليبرهن على تفوق هذا النوع من وسائل المواصلات. وخلال الإمبراطورية الثانية أقام الأخوان بيرير سكك القطارات في أرجاء القارة الأوروبية كلها في منافسة ضارية مع عائلة روتشيلد أدت بهما، آخر الأمر، إلى الانهيار (1869). وقام سان سيمونيٌّ آخر هو ب. ف. تالابو (P. F. Talabot) (1789 ـ 1885)، من جملة أمور أخرى، ببناء السكك الحديد في المنطقة الجنوبية الشرقية من فرنسا، ومرافئمارسيليا، والخطوط الحديد الهنغارية، وابتاع البوارج التي كانت فائضة عن الحاجة بعد توقف الشحن على نهر الرون، على أمل استخدامها سفناً للشحن التجاري على نهر الدانوب وصولاً إلى البحر الأسود ـ وهو المشروع الذي عارضته وأحبطته إمبراطورية الهابسبيرغ. لقد كان تفكير هؤلاء الرجال يدور على مستوى القارات والمحيطات. إذ كان العالم بالنسبة

إليهم وحدةً واحدةً، تربط أطرافها بعضها إلى بعض السكك الحديد والمحركات البخارية؛ لأن آفاق العمل التجاري كانت، شأنها شأن أحلامهم، تكتنف العالم كله. وبالنسبة إلى هؤلاء الرجال، كان المصير الإنساني، والتاريخ، والربح، أمراً واحداً لا يتجزأ.

ومن وجهة النظر العالمية، كانت شبكة خطوط السكك الحديد الرئيسية مكمّلة لشبكة خطوط الشحن في العالم. وحيث إنها انتشرت في آسيا، وأستراليا، وأفريقيا، وأمريكا اللاتينية على حد سواء، فإنها كانت، من الناحية الاقتصادية، وسيلة لربط بقعة تنتج بضائع أولية بالجملة إلى ميناء تشحن منه في ما بعد إلى المراكز الحضرية والصناعية في العالم. والشحن البحري، كما رأينا، لم يصبح أسرع بكثير خلال الفترة التي نعالجها. ويتجلى تباطؤها الفني المقارن في أن السفن الشراعية، كما هو معروف، حافظت على مكانتها وصمدت إزاء السفن البخارية الجديدة على نحو مدهش، وذلك بفضل التحسينات الجوهرية في مستوى الكفاءة فيها، على الرغم من أنها لم تكن ذات شأن من الناحية التقنية. وقد ازداد استخدام البخار على نحو لافت، من 14 في المئة من قدرة النقل في العالم عام 1840 إلى 49 في المئة عام 1870، غير أن الشراع ظل الصدارة، إلى أن بدأ ينسحب من السباق في السبعينيات، وبخاصة في الثمانينيات من ذلك القرن. (وفي العقد التاسع من القرن التاسع عشر، انخفضت قدرة السفن الشراعية إلى أن وصلت إلى 25 في المئة فقط من قدرة النقل العالمية). وكان انتصار السفينة البخارية انتصاراً في المقام الأول للأسطول التجاري البريطاني، بل للاقتصاد البريطاني الذي كان يقف وراءه، فخلال الفترة من عام 1840 ـ 1850 كانت السفن البريطانية تمثل نحو الربع من الناقلات البحرية البخارية المعروفة في العالم، وارتفعت إلى ما يزيد على الثلث عام 1870، وما يربو على النصف عام 1880. وبعبارة أخرى، فإن حمولة البواخر البريطانية ازدادت بين عام 1850 ـ 1880؛ بمعدل 1,600 في المئة، فيما زادت في بقية العالم كله بنسبة 440 في المئة. وذلك أمر طبيعي؛ فإذا حُملت شحنة ما

في كالاو أو شنغهاي أو الإسكندرية؛ فإنها كانت، على الأغلب، ستتجه إلى إنجلترا. وقد حمّلت الكثير من السفن. إذ عبر قناة السويس عام 1874 مليوناً ونصف المليون طن من البضائع (منها 900 ألف طن بضاعة بريطانية) ـ بينما بلغت هذه الحمولة في السنة الأولى لتشغيل القناة أقل من نصف مليون طن. بل إن حركة النقل عبر الأطلسي كانت أوسع من ذلك، إذ وصل 5,8 مليون طن إلى الموانئ الثلاثة الرئيسية في الساحل الشرقي للولايات المتحدة عام 1875.

لقد تضافرت السكك الحديد وخطوط الشحن البحري، في ما بينهما، لنقل البضائع والناس. بيد أن التحول التقني المذهل خلال تلك الفترة كان في إيصال الرسائل عبر التلغراف الكهربائي. ويبدو أن الظروف كانت مهيأة في أواسط الثلاثينيات من ذلك القرن لاكتشاف تلك الأداة الثورية، بالطريقة الغامضة نفسها التي تتوحد فيها المشكلات لتسلك طريق الحل. لقد اكتشفها في الفترة بين 1836 و1837، وبصورة متزامنة تقريباً، عدد من الباحثين المختلفين كان كوك (Cooke) وويتستون (Wheatstone) بينهم هما الأسرع نجاحاً. وفي غضون بضع سنوات، طبقت على خطوط السكك الحديد. والأهم من ذلك كله أن النظر في الخطط الخاصة بالخطوط التَحْتبَحرية بدأ عام 1840، مع أنها لم توضع موضع التنفيذ العملي إلا بعد عام 1847 عندما اقترح فاراداي (Faraday) العظيم عزل الكوابل بمادة مطاطية. وعام 1853، أفاد النمساوي غينتل (Gintl)، ثم ستارك (Stark) بعد ذلك بسنتين، أن بالإمكان إرسال رسالتين على سلك واحد من اتجاهين؛ وفي أواخر الخمسينيات تبنت شركة التلغراف الأمريكية نظاماً يمكن من خلاله إرسال ألفي كلمة في الساعة؛ وبحلول الستينيات، سجل ويتستون براءة اختراع التلغراف الذي يطبع تلقائياً، وهو بمثابة السلف للشريط الكاتب وللتلكس.

كانت بريطانيا والولايات المتحدة قد شرعتا في أربعينيات القرن

التاسع عشر باستخدام تلك الأداة، وهي المثال الأول على تِقنيّةٍ تولت تطويرها جماعة من العلماء، ولم تكن لتُبتكر إلا بناء على نظرية علمية متقدمة. وقد سارعت الدول الأوروبية المتقدمة إلى تبنيها بعد عام 1848: النمسا وبروسيا عام 1849، بلجيكا 1850، وفرنسا 1851، وهولندا وسويسرا 1852، والسويد 1853، والدانمارك 1854، وأدخلتها النرويج وإسبانيا والبرتغال وروسيا واليونان في النصف الثاني من العقد السادس، وإيطاليا ورومانيا وتركيا في الستينيات. وتضاعفت خطوط وأعمدة التلغراف: 2,000 ميل في القارة الأوروبية عام 1849، 15,000 في 1854، 42,000 في 1859، 80,000 في 1864، و111,000 في 1869. وكذلك كان حال الرسائل، فعام 1852، أرسل أقل من ربع مليون منها في البلدان كلها التي استحدثت التلغراف في القارة. وأرسلت كل من فرنسا وألمانيا أكثر من ستة ملايين من الرسائل عام 1869، والنمسا أكثر من أربعة ملايين، وبلجيكا وإيطاليا وروسيا أكثر من مليونين، وحتى تركيا ورومانيا بين 600 ألف و700,000 رسالة لكل منهما[12].

بيد أن التطور الأبرز كان مد الكوابل التَحْتبَحرية التي دُشنت للمرة الأولى عبر القنال في أوائل خمسينيات ذلك القرن (دوفر ـ كاليه 1851، رامزغيت ـ أوستند 1853)، لكنها امتدت مسافات متزايدة الطول. واقتُرح كابل في شمال الأطلسي في أواسط الأربعينيات، ومُدَّ بالفعل في عامي 1857 و1858، غير أنه انقطع بسبب سوء العزل. أما المحاولة الثانية، التي استخدمت فيها أضخم سفينة في العالم، وهي غريت إيسترن الشهيرة لمد الكوابل، فقد تكللت بالنجاح، عام 1865. وتلت ذلك موجة مد الكوابل في العالم حتى إنها، في غضون خمس سنوات أو ست، أوشكت أن تلتف حول الكوكب الأرضي. وعام

(12) James Anderson, *Statistics of Telegraphy* (London: Waterlow & Sons, 1872).

1870 وحده، مدت الكوابل من سنغافورا إلى باتافيا، مدراس ـ بينانغ، بينانغ سنغافورا، السويس ـ عدن، عدن ـ بومباي، بنزانس ـ لشبونة، لشبونة ـ جبل طارق، جبل طارق ـ مالطا، مالطا ـ الإسكندرية، مارسيليا ـ بوني، إمدن ـ طهران (بكابل أرضي)، بوني ـ مالطا، سالكومب ـ بريست، بيتشي هيد ـ الهافر، سانتياغو دي كوبا ـ جامايكا، مُوين ـ بورنهولم ـ ليباو، وكابلان آخران عبر بحر الشمال. وبحلول عام 1872، أصبح من الممكن الاتصال عن طريق التلغراف من لندن إلى طوكيو إلى أويلايد. وقد أرسلت نتائج سباق الداربي للخيول من لندن إلى كالكوتا خلال خمس دقائق لا أكثر عام 1871. فكيف يمكن مقارنة ذلك برحلة الأيام الثمانين التي تحدث عنها فيلياس فوغ؟ ولم يقتصر الأمر على أن سرعة الاتصال هذه لا سابقة لها، أو لا يمكن مقارنتها بأي ظاهرة أخرى، بل إنها كانت تفوق كل التصورات لدى أكثر الناس عام 1848.

لقد اجتمعت في إقامة هذا النظام التلغرافي [البرقي] على اتساع العالم عناصر سياسية وتجارية على السواء، فباستثناء الولايات المتحدة أولاً، كان الاتصال البرقي على اليابسة تحت سيطرة الدولة الكاملة تقريباً، ملكيةً وتشغيلاً، بل إن بريطانيا أممته وألحقته بالبريد عام 1869، من جهة أخرى، بقيت الكوابل التَحْتبَحرية، بصورة تكاد تكون كلية، حكراً على مشروعات القطاع الخاص الذي تولى تركيبها، مع أن المؤشرات على الخارطة تدل على أن لهذه المشروعات مصالح استراتيجية مهمة على المستويات كلها لصالح الإمبراطورية البريطانية. لقد كان لها بالفعل أهمية مباشرة جداً بالنسبة إلى الحكومة، لا لأغراض عسكرية وأمنية فحسب، بل لشؤون الإدارة أيضاً. وتدل على ذلك أعداد البرقيات الضخمة المرسلة في بلدان مثل: روسيا، والنمسا، وتركيا، التي لم تكن حركة التجارة والاتصالات فيها تبرر هذه النسبة. (ظل حجم الحركة في النمسا يزيد بصورة مطردة على حجمها في شمال ألمانيا حتى أوائل الستينيات من ذلك القرن). وكلما اتسعت المنطقة ازدادت

استفادة السلطات من وسيلة سريعة للاتصال مع مراكزها البعيدة.

من الواضح أن رجال الأعمال استخدموا التلغراف بصورة مكثفة، غير أن المواطنين العاديين سرعان ما اكتشفوا أوجه استعماله، وبشكل رئيسي بطبيعة الحال، لإجراء اتصالات عاجلة، وربما في لحظات مثيرة للمشاعر، مع الأقارب. فبحلول عام 1869، كان نحو 60 في المئة من استخدامات التلغراف في بلجيكا يتم في النطاق الشخصي الخاص. ثم إن التلغراف حوّل مفهوم الأخبار، مثلما تنبأ جوليوس رويتر (Julius Reuter) (1816 ـ 1899) عندما أسس وكالة تلغرافية باسمه في إكس ـ لا ـ شابيل (آخِن) عام 1851 (وقد اقتحم السوق البريطانية التي ارتبطت بها وكالة رويترز منذ عام 1858). ومن الوجهة الصحافية، انتهت العصور الوسطى في ستينيات القرن التاسع عشر عندما أصبح بالإمكان إرسال الأخبار العالمية برقياً وبحرّية من عدد واسع من الأماكن في العالم ليتم الاطلاع عليها على مائدة الإفطار في صباح اليوم التالي. ولم تعد الخبطات الصحافية تقاس بالأيام أو بالأسابيع والشهور إذا كان مصدرها مناطق نائية، بل بالساعات، وحتى بالدقائق.

بيد أن هذا التسارع غير العادي في سرعة الاتصال أسفر عن نتيجة مناقضة، ففيما كان هذا التسارع يوسع نطاق المواقع التي تستطيع التقانة الجديدة أن تصل إليها، فإنه شدد على التخلف النسبي لبقاع أخرى في العالم ما زالت سرعة النقل والتنقل فيها مرهونة بسرعة الحصان، أو الثور، أو البغل، أو الحمّال أو القارب. وفي وقت كان بوسع نيويورك أن تتصل برقياً بطوكيو خلال دقائق أو ساعات، فإن من المفارقات الصارخة أن جريدة **نيويورك هيرالد تريبيون** لم تتسلم رسالة موجهة إليها من الرحالة ديفيد ليفنغستون في وسط أفريقيا إلا بعد ثمانية شهور أو تسعة (1871 ـ 1872)؛ وتزداد هذه المفارقة عندما تعيد صحيفة **التايمز** في لندن نشر هذه الرسالة نفسها بعد يوم واحد من نشرها في نيويورك. إن «همجية» «الغرب الهمجي»، و«سواد» «القارة

السوداء» تعودان، في جانب منهما، إلى مثل هذه المفارقات.

من هنا كان انبهار الجمهور الشديد بما فعله المستكشف والإنسان الذي أصبح فيما يعرف، بصورة متزايدة، بـِ «الرحالة» الجوال ـ أي الشخص الذي ارتحل إلى تخوم التقانة أو تجاوزها، خارج المجالات التي يتمتع فيها السائح بعناية خاصة مثل: الحجرة الممتازة في الباخرة، أو قمرة النوم في إحدى حافلات القطار (وهما من اختراعات تلك الفترة)، أو الفندق، أو النزل/ البنسيون. لقد ارتحل فيلياس فوغ إلى تلك الحدود. وكان يرمي من مغامرته تلك إلى أن يبين أن القطار، والباخرة، والتلغراف قد أحاطت تقريباً بالكوكب الأرضي والتفت حوله، ويوضح في الوقت نفسه أن هامش الشك والفجوات القائمة هي التي لا تزال تحول دون تحويل السفر حول العالم إلى مهمة يسيرة.

بيد أن «الرحالة» الذين قُرئت كتاباتهم بشغف، هم الذين تعرضوا للمخاطر في عالم المجهول، دونما معونة من التقانة الحديثة إلا ما استطاع العديد من الحمالين الشجعان من أهل البلاد الأصليين حمله على ظهورهم. لقد كانوا هم المستكشفون والمبشرون، ولا سيما من اقتحم منهم قلب القارة الأفريقية، والمغامرون، وبخاصة منهم من خاطر بدخول بلاد الإسلام المبهمة، والعلماء الطبيعيون الذين انهمكوا في اصطياد الفراش والطيور في أدغال أمريكا الجنوبية أو جزر المحيط الهادي. لقد كان الربع الثالث من القرن التاسع عشر، كما اكتشف الناشرون فيما بعد، بداية لعصر ذهبي لنوع جديد من القرّاء المسافرين على الأرائك، الذين يتلهفون للاطلاع على ما يكتبه أمثال بيرتون، وسبيك، وستانلي وليفنغستون عن صولاتهم وجولاتهم في الغابات والأدغال البدائية.

III

على الرغم من ذلك كله، فإن شبكة الاقتصاد العالمي الآخذة

بالتكاثف ربطت ربطا مباشرا، وليس أدبياً فحسب، حتى المناطق النائية جغرافياً، بأنحاء العالم الأخرى. ولم يكن العنصر المهم هو السرعة فقط ـ مع أن كثافة التنقل المطردة أسهمت في ازدياد المطالبة بالسرعة ـ بل نطاق التداعيات ومداها. ويتضح ذلك بصورة جلية في حدث اقتصادي افتتح المرحلة التي نتناولها هنا وساهم، كما يقال، في تحديد شكلها إلى حد بعيد جداً، إنه اكتشاف الذهب في كاليفورنيا (وبعدها بقليل، في أستراليا).

ففي كانون الثاني/ يناير 1848، اكتشف رجل يسمى جيمس مارشال (James Marshall) الذهب بما كان يبدو كميات ضخمة في سترزمل قرب ساكرامنتو في كاليفورنيا، وهي امتداد شمالي للمكسيك كان قد ضُمَّ على التو إلى الولايات المتحدة، ولم يكن ذا أهمية اقتصادية تذكر، إلا لبعض ملاك الضياع الكبيرة من المكسيكيين الأمريكيين، وأصحاب المزارع، وصيادي السمك والحيتان، الذين استخدموا ميناء خليج سان فرانسيسكو المناسب، الذي يوفر سبل العيش لقرية يقطنها 812 من السكان البيض. وبما أن تلك البقعة كانت تطل على المحيط الهادي، وتفصلها عن بقية الولايات المتحدة مساحات واسعة جبلية وصحراوية وجُرْدية، فإن ثروتها وجاذبيتها الطبيعية الواضحة لم تكن ذات أهمية مباشرة للمشروع الاقتصادي الرأسمالي، مع أنها كانت موضع إقرار وتقدير. وجاءت هجمة الذهب لتغير ذلك كله. ذلك أن أنباء متفرقة تسربت عنه إلى بقية الولايات المتحدة في شهر آب/ أغسطس وأيلول/ سبتمبر من تلك السنة، ولكنها لم تثر أي اهتمام إلى أن أكدها الرئيس بولك في خطابه الرئاسي في كانون الأول/ ديسمبر. من هنا أطلق على فترة الهجمة تلك اسم «التسع ـ أربعينية»، في إشارة إلى تلك السنة. وبحلول نهاية عام 1849، ارتفع عدد سكان كاليفورنيا من 14 ألف نسمة إلى ما يقل قليلاً عن مئة ألف، وفي العقود الأخيرة من عام 1852 إلى ربع مليون؛ وكانت سان فرانسيسكو قد تحولت آنذاك إلى مدينة تضم 35 ألفاً. وفي الثلاثة أرباع الأخيرة من عام 1849، رست

هناك نحو 540 سفينة قدِم نصفُها من موانئ أمريكية، والنصف الآخر من أوروبا. وعام 1850، رست 1,150 سفينة بلغت حمولتها الإجمالية نصف مليون طن.

إن الآثار الاقتصادية لهذا التطور المفاجئ هنا، واعتباراً من عام 1851 في أستراليا، ما زالت موضع جدال، غير أن معاصري تلك المرحلة لم يكن يساورهم الشك في أهميتها. وقد لاحظ إنجلز، بمرارة، في رسالة إلى ماركس عام 1852 أن «كاليفورنيا وأستراليا حالتان لم ترد إشارة لهما في [**البيان الشيوعي**]، أي إلى أن أسواقاً جديدة واسعة قد خلقت من لا شيء. وعلينا أن نتطرق إلى هذا الموضوع»[13]. ولسنا هنا في معرض تحديد الدرجة التي ساهم فيها ذلك التطور في الازدهار العام في الولايات المتحدة، وفي الفورة الاقتصادية التي شملت العالم برمته[14]، أو في الموجة المفاجئة من الهجرة الجماعية[15]. إلا أن من الواضح على كل حال، هو أن التطورات المحلية التي حدثت على بعد آلاف عديدة من الأميال من أوروبا قد تركت، بحسب ما يراه مراقبون أكفاء، آثاراً فورية تقريباً وبعيدة المدى على تلك القارة. وفي تلك الفترة، تتضح التبعية المتبادلة في الاقتصاد العالمي في أجلى مظاهرها.

لم يكن مستغرباً بالطبع أن تترك هجمات الذهب آثارها على المواقع المركزية في أوروبا، وفي المناطق الشرقية من الولايات المتحدة، وبين ذوي النظرة العالمية من التجار، والممولين وأصحاب شركات الشحن. أما ما كان بعيداً عن التوقع فهو تداعياتها الفورية على مناطق في العالم بعيدة جغرافياً، مع أن ذلك تيسَّر، إلى حد بعيد، لأنه لم يكن من الممكن الوصول إلى كاليفورنيا، لأغراض عملية، إلا بحراً؛ أي أن

---

(13) Karl Marx, *Karl Marx, Friedrich Engels. Werke* (Berlin: Dietz, 1956-), vol. XXVIII, p. 118: Engels to Marx (24 August 1852).

(14) انظر الفصل الثاني من هذا الكتاب.

(15) انظر الفصل الحادي عشر من هذا الكتاب.

المسافة لم تكن عائقاً جدياً للاتصالات. وانتشرت حمى الذهب سريعاً عبر المحيطات، فهرب البحارة من السفن التي كانت تمخر المحيط الأطلسي ليجربوا حظهم في حقول الذهب، على نحو ما فعل أهالي سان فرانسيسكو حالما بلغتهم الأخبار. وفي آب/ أغسطس 1849، سدت مئتا سفينة المداخل إلى الشاطئ بعد أن هجرتها أطقم الملاحين، فاستخدمت أخشابها في ما بعد في عمليات البناء. وحالما وصلت الأنباء إلى ساندويتش آيلاند (هاواي)، والصين، والتشيلي، فإن مغريات الإبحار شمالاً قوبلت بالرفض من جانب البحارة، والقباطنة الحكماء ـ شأنهم شأن نظرائهم الإنجليز على السفن التجارية قريباً من السواحل الغربية لأمريكا الجنوبية ـ فارتفعت كلفة شحن البضائع وأجور البحارة مثل أسعار كل ما كان يصدَّر إلى كاليفورنيا. ومع نهاية عام 1849، أَذِن مجلس الشيوخ التشيلي للسفن الأجنبية بممارسة التجارة الساحلية بصورة مؤقتة، بعد أن لاحظ أن الأغلبية العظمى من الناقلات البحرية الوطنية قد انجذبت إلى كاليفورنيا، حيث هُجرت وأوقفت عن العمل. وخلقت كاليفورنيا، للمرة الأولى، شبكة تجارية حقيقية تربط بين سواحل الأطلسي، وهي المعابر التي كانت تنقل إلى الولايات المتحدة منها الحبوب التشيلية، والكاكاو والقهوة المكسيكية، والبطاطا والمواد الغذائية الأسترالية الأخرى، والأرزّ الصيني، وحتى بعض الواردات من اليابان بعد عام 1854. (ولم يكن عبثاً أن تتنبأ مجلة **أصحاب البنوك** في بوسطن عام 1850 بأن «من المعقول أن نتوقع امتداداً جزئياً لنفوذ [المتاجرة والتجارة] حتى إلى اليابان»)[16].

والبشر، في رأينا، أهم حتى من التجارة. ذلك أنه لم تكن ثمة أهمية عددية كبيرة للمهاجرين والتشيليين، والبيروفيين، و«النقّاقين الوافدين من مختلف الجزر» (أي من جزر المحيط الهادي)[17]. (فعام

(16) *The Bankers' Magazine*, vol. V (1850-1851), p. 11

(17) *The Bankers' Magazine*, vol. IV (1849), p. 545.

1860، كان في كاليفورنيا 2,400 مهاجر، ما عدا المكسيكيين، من أمريكا اللاتينية، وأقل من 350 من جزر المحيط الهادي). من جهة أخرى، «كان من أبرز النتائج المذهلة لهذا الاكتشاف الباهر الزخم الذي أمدّت به الإمبراطورية السماوية [الصين]. إن الصينيين، الذين كانوا حتى الحين أكثر مخلوقات الدنيا سلبيةً وانطواءً، راحوا يتشوفون لأنفسهم حياة جديدة حالما نُمِيَتْ إلى علمهم أخبار الذهب، فتدفقوا على كاليفورنيا بالآلاف»[18]. لقد كانوا ستة وسبعين شخصاً فحسب عام 1849، وأصبحوا أربعة آلاف في نهاية عام 1850، وعشرين ألفاً على الأقل عام 1852. وما أن حلّ عام 1876، حتى كان عددهم مئة وأحد عشر ألفاً؛ أي ربع سكان كاليفورنيا الذين لم يولدوا في الولاية. وقد جلبوا معهم مهاراتهم، وذكاءهم، وإقبالهم على العمل، وقدموا للحضارة الغربية، بالمناسبة، واحداً من أبرز المنتجات الثقافية الشرقية، ألا وهو المطعم الصيني، الذي كانت بوادر ازدهاره قد بدأت عام 1850. وقد تعرض المهاجرون من هذا الشعب العظيم للقمع، والكراهية، والسخرية، بل للسَّحْل بين حين وآخر ـ وقُتل ثمانية وثمانون منهم خلال فترة الكساد عام 1862. غير أنهم، على الرغم من ذلك كله، أظهروا قدرتهم المعهودة على البقاء والازدهار، إلى أن صدر قانون تقييد الصينيين عام 1882 الذي يمثل ذروة التعصب العرقي الطويل، فوضع حداً لما قد يكون أول مثال في التاريخ على الهجرة الطوعية الجماعية التي يحفزها العامل الاقتصادي من مجتمع شرقي إلى آخر غربي.

في ما عدا ذلك، دفع حافز هجمة الذهب الوافدين من مصادر الهجرة التقليدية إلى الساحل الغربي. وكان من بينهم البريطانيون، والأيرلنديون، والألمان، وهم الأغلبية العظمى ـ ثم المكسيكيون.

---

(18) *The Bankers' Magazine*, vol. V (1850-1851), p. 11.

وقد وفدت الأغلبية الساحقة من هؤلاء عن طريق البحر، باستثناء بعض الأمريكيين الشماليين الذين جاءوا براً في رحلة مزعجة استغرقت ما بين ثلاثة إلى أربعة أشهر من الساحل إلى الساحل. (وكان في مقدمة هؤلاء أهل تكساس، وآركنسا، وميسّوري، ومن وسكونسن وآيوا - اللتين عرفتا بتصدير أعداد ضخمة من المهاجرين لا تتناسب مع حجمهما إلى كاليفورنيا. وامتدت الطريق الرئيسية التي سلكتها آثار هجمة الذهب الكاليفورنية شرقاً، على بعد ستة عشر أو سبعة عشر ألفاً من الأميال عبر المحيط الذي يصل أوروبا من جهة، والسواحل الشرقية للولايات المتحدة بسان فرانسيسكو من جهة أخرى. وكانت شبكة النقل البحري المباشرة قد شملت القرن الأفريقي، لندن، وليفربول، وهامبورغ، وبريمن، والهافر، وبوردو، في خمسينيات القرن التاسع عشر. وكان ثمة قدر ضخم من الحوافز لاختصار رحلة الأشهر الثلاثة أو الأربعة هذه، وإضفاء مزيد من مستلزمات السلامة إليها. إن البواخر التي بناها بناة السفن في بوسطن ونيويورك لتجارة الشاي بين لندن وكانتون غدت الآن قادرة على شحن البضائع والسلع مسافاتٍ طويلة. وكانت اثنتان منها فحسب قد دارتا حول القرن قبل هجمة الذهب، غير أن أربعاً وعشرين سفينة (بحمولة إجمالية قدرها 34 ألف طن) وصلت إلى سان فرانسيسكو، بعد أن اختصرت وقت الإبحار من بوسطن إلى الساحل الغربي إلى مئة يوم - بل إلى ثمانين يوماً في إحدى الحالات. وكان لا بد للطرق، حتى القصيرة منها، أن تزداد قصراً حيثما أمكن ذلك. وعاد برزخ بنما إلى ما كان عليه أيام الاستعمار الإسباني؛ أي نقطة التقاء رئيسية لعبور الشحنات البحرية، وعلى الأقل، حتى حفر قناة داخل البرزخ، وذلك ما كانت قد ارتأته وخططت له اتفاقية بولوَرْ - كلايتي الأنجلوأمريكية عام 1850، رغم أن حفرها بالفعل، على الرغم من معارضة الأمريكيين، إنما تم على يد الفرنسي السان سيموني العاصي دو ليسبس الذي كان لا يزال يعيش نشوة النصر بشق قناة السويس في سبعينيات ذلك القرن. وقد شجعت حكومة

الولايات المتحدة إقامة خدمة بريدية عبر برزخ بنما، ما سيمكن الشروع بتنظيم خدمة بحرية شهرية منتظمة من نيويورك إلى الجانب الكاريبي، ومن بنما إلى سان فرانسيسكو وأوريغون. وقد أصبح المشروع، الذي بدأ لأسباب سياسية واستعمارية عام 1848، أكثر قابلية للحياة من الوجهة التجارية مع هجمة الذهب. وغدت بنما ما أصبحت عليه منذئذٍ؛ أي بلدة مزدهرة يملكها اليانكي عضَّ عليها بالنواجذ البارونات اللصوص مثل كومودور فاندربيلت وو. رالستون (W. Ralston) (1828 ـ 1889)، مؤسس بنك كاليفورنيا. وكان لاختزال وقت الإبحار أهمية عظمى أصبح معها البرزخ نقطة تقاطع للشحن البحري الدولي، ذلك أنه أصبح بالإمكان الوصول من ساوث هامبتون إلى سدني في غضون ثمانية وخمسين يوماً. كما أن البرزخ أصبح مَعْبراً للذهب المكتشف في أوائل الخمسينيات من القرن التاسع عشر في مركز المناجم العظيم الآخر في أستراليا، ناهيك عن المعادن الثمينة القديمة في المكسيك والبيرو، التي تأخذ طريقها إلى أوروبا والجانب الشرقي من الولايات المتحدة. وعلاوة على ذهب كاليفورنيا، ربما صُدِّر عبر بنما ما قيمته ستون مليون دولار سنوياً، فلا عجب، إذاً، أن يكون أول قطار جرى تشغيله في أوائل كانون الثاني/ يناير عام 1855 قد عبر ذلك البرزخ. وكانت قد خططت له شركة فرنسية، غير أن تنفيذه تَمّ، كالعادة، على يد شركة أمريكية.

كانت تلك هي النتائج الواضحة للعيان، والفورية تقريباً، للأحداث التي جرت في زاوية تقع في أقصى أقاصي المعمورة. ولم يكن مستغرباً، على هذا الأساس، أن ينظر المراقبون إلى المشهد الاقتصادي لا بوصفه مركّباً واحداً متشابك الأجزاء فحسب، بل باعتباره مركّباً يكون كل جزء فيه حساساً تجاه ما يحدث في مكان آخر، وتتحرك فيه الأموال، والبضائع، والناس، بسلامة وبسرعة متزايدة. استجابةً لحوافز لا تمكن مقاومتها، وهي العرض والطلب، والربح والخسارة بمساعدة من التقانة الحديثة. ولم يكن بوسع أي شيء أو أي شخص الوقوف في

وجه هذه الحوافز بصورة جماعية، حتى أكثر الأشخاص بلادةً (أي أقلهم «تقتيراً» من الناحية الاقتصادية) ـ فقد ارتفع معدل الهجرة من بريطانيا إلى أستراليا من عشرين ألفاً إلى نحو تسعين ألفاً في السنة بعد اكتشاف الذهب هناك. وواضح أن أجزاء كثيرة في العالم، بل حتى في أوروبا، ظلت بمعزل عن هذه الحركة. ترى، هل ثمة من شك في أن هذه المناطق لن تستطيع أن تنأى بنفسها عن هذا التيار؟

IV

لقد غدونا اليوم أكثر إطلاعاً من أبناء منتصف القرن التاسع عشر على سيرورة التقارب بين أجزاء الكرة الأرضية هذه كلها وصولاً إلى تحولها إلى عالم واحد. بيد أن ثمة قدراً لا يستهان به من الاختلاف بين العملية كما نعيشها اليوم ونظيرتها في القرن الماضي. ولعل الجانب الأشد إثارة هو أن ما جرى في العقود الأخيرة من القرن العشرين ليس إلا تنميطاً يتجاوز كثيراً ما هو اقتصادي وتقني. وفي هذه الناحية بات عالمنا أكثر نمطية بما لا يقاس من عالم فيلياس فوغ، لا لشيء إلا لأن هناك عدداً أكبر من الأماكن والمرافق الإنتاجية والأعمال، فالسكك الحديد، ومحطات التلغراف والسفن عام 1870 لم تكن «نماذج» أممية أقل لفتاً للأنظار من السيارات والمطارات عام 1970. أما ما لم يكن يحصل في ذلك الوقت إلا نادراً؛ فهو التنميط الأممي، المخترق للغات وللثقافة الذي أصبح اليوم يقوم، بصورة شبه آنية، بتوزيع الأفلام نفسها، وأساليب الموسيقى الشعبية والبرامج التلفزيونية ذاتها، بل حتى أساليب الحياة الشعبية عينها عبر العالم. لقدمارس مثل هذا التنميط تأثيراً غير قليل في الطبقات المتوسطة المتواضعة عددياً، وكذلك في بعض الأغنياء، إلى حد ما، أو إلى الحد الذي لم تتعثر به العملية بالحواجز اللغوية على الأقل. إن «نماذج» العالم المتطور من جانب العالم الأكثر تخلفاً في حفنة الصيغ السائدة ـ الإنجليزية في سائر أرجاء الإمبراطورية، قد نُسخت في الولايات المتحدة وفي القارة الأوروبية

بدرجة أقل بكثير؛ والفرنسية في أمريكا اللاتينية، وفي شرق المتوسط، وفي أجزاء من أوروبا الشرقية؛ الألمانية ـ النمساوية عبر أوروبا الوسطى والشرقية، وفي اسكندنافيا، كما في الولايات المتحدة إلى حدود معينة. ثمة أسلوب مرئي مشترك، ألا وهو المكان البورجوازي الداخلي المزدحم والمثقل أكثر مما ينبغي، وباروك المسارح ودور الأوبرا. ولم يكن لها حضور ولو لأغراض عملية، إلا حيث كان أوروبيون أو متحدرون من أوروبيين قد رسّخوا أقدامهم[19]. غير أن هذا بقي محصوراً داخل نطاق فئة قليلة نسبياً، فيما عدا الولايات المتحدة (وأستراليا) حيث نجحت الأجور العالية في إضفاء الصفة الديمقراطية على الأسواق، وعلى أنماط الحياة، من ثم، لدى الطبقات الأكثر تواضعاً من الناحية الاقتصادية.

لا ريب في أن البورجوازيين المتنبئين في أواسط القرن التاسع عشر كانوا يحلمون بعالم واحد، منمط إلى هذا الحد أو ذاك، عالم تكون فيه سائر الحكومات مستعدة للتسليم بحقيقتي الاقتصادي السّياسي والليبرالية منشورتين في العالم كله من قبل بعثات تبشيرية غير شخصية أقوى من نظيراتها السابقة عند أي من الديانتين المسيحية والإسلامية. إنه عالم أعيدت صياغته على صورة البورجوازية، بل ربما عالم ستختفي منه، مع مرور الزمن، جملة أوجه التباين القومية. لقد كان تطور المواصلات يتطلب أنواعاً جديدةً من الأجهزة للتنسيق والتنميط الدوليين، مثل: اتحاد التلغراف الدولي عام 1865؛ واتحاد البريد العالمي لعام 1875؛ ومنظمة الأرصاد الجوية العالمية لعام 1878، وكلها باقية حتى الآن. وكانت قد طرحت مشكلة «اللغة» المنمطة دولياً، وهي التي حُلّت، لأغراض محدودة، من خلال شيفرة الرموز الدولية عام 1871. وفي غضون سنوات قليلة، شاعت محاولات معينة لابتكار لغات كوزموبوليتانية مصطنعة تصدرتها محاولة «لغة العالم» «فولا بوك» (دنيا الكلام) المستهجنة التي ابتدعها أحد الألمان عام 1880. ولم يحالف النجاح

---

(19) انظر الفصل الثالث عشر من هذا الكتاب.

أياً من هذه المحاولات، بما فيها المنافسة الواعدة التي تمثلها **الإسبرانتو**، وهي إحدى ابتكارات ثمانينيات القرن التاسع عشر. وكانت الحركة العمالية قد قطعت شوطاً على طريق بناء صرح منظمة عالمية مرشحة لاستخلاص استنتاجات سياسية محددة من عملية التوحيد المتنامية للعالم - ألا وهي «الأممية»[20].

بيد أن التنميط والتوحيد الأمميين بقيا، بهذا المعنى، ضعيفين وجزئيين، بل إن انبثاق أمم جديدة وثقافات طازجة ذات قاعدة ديمقراطية، أي قائمة على استخدام لغات منفصلة بدلاً من اعتماد المصطلحات الأممية الشائعة بين الأقليات المتعلمة، أسهمت كلها، في الواقع، في جعل الأمر أكثر صعوبة، بل أكثر مراوغة. ولم يحقق الكتّاب ذوو الشهرة الأوروبية أو العالمية شهرتَهم إلا عبر الترجمة. ومن اللافت أن قُرّاء الألمانية والفرنسية والسويدية والهولندية والإسبانية والدانماركية والإيطالية والبرتغالية والتشيكية والهنغارية قد أصبحوا بحلول عام 1875 قادرين على الاستمتاع ببعض، أو كل مؤلفات، تشارلز ديكنز (Dickens) (والتحق بهم قراء البلغارية والروسية والفنلندية والصربية - الكرواتية والأرمنية واليديشية قبل رحيل القرن). غير أن من اللافت أيضاً أن هذه العملية كانت تنطوي على قدر متزايد من الانقسام اللغوي. فبات المراقبون الليبراليون المعاصرون يقرون، بصرف النظر عن الآفاق المحتملة على المدى الطويل، بأن مسيرة التطور، على المَدَيينْ القصير والمتوسط، إنما تتحرك بقوة دفع ناجمة عن نشوء أمم ودول مختلفة ومتنافسة. ولعل أقصى ما كان يمكن الحلم به هو أن تقوم جملة هذه الدول بتجسيد النمط نفسه من المؤسسات والبنى الاقتصادية والمعتقدات. لقد جاءت وحدة العالم وهي تحمل في تضاعيفها بذور الانقسام. ولم

(20) ثمة شكوك أكثر حول ما إذا كان «الصليب الأحمر الدولي» (1860)، وهو من إنتاج تلك الفترة، ينتسب إلى هذه المجموعة، لأن الأسس التي قام عليها كانت أبعد ما تكون عن النزعة الأممية، أي إنه ارتبط بالحروب بين الدول. انظر الفصل السادس من هذا الكتاب.

يكن النظام العالمي للرأسمالية إلا صرحاً مؤلفاً من سلسلة من «الاقتصادات القومية» المتنافسة. ولم يقم الانتصار العالمي لليبرالية إلا على أساس تحويل مسارات الشعوب كلها، ولا سيما تلك التي تعد «متحضرة». ومن المؤكد أن حَملة راية التقدم في الثلث الأخير من القرن التاسع عشر كانوا على قناعة كافية بأن هذا سوف يتحقق عاجلاً أم آجلاً، غير أن قناعتهم تلك كانت قائمة على أساس غير ركين.

غير أنهم كانوا على صواب حين أشاروا إلى الشبكة المتزايدة الإحكام للاتصالات الكوكبية، تلك الشبكة التي تجلت أكثرُ نتائجها العيانية بالزيادة الكبيرة في حركة تبادل البضائع والبشر على الصعيد الدولي ـ أي حركة التجارة والهجرة. ومع ذلك، فإن التوحيد العالمي، حتى في مجال الأعمال الظاهر بجلاء على الصعيد الدولي، لم يشكل ميزة إيجابية خالصة، فالاقتصاد العالمي الذي أوجده هذا التوحيد لم يكن إلا اقتصاداً مؤلفاً من أجزاء شديدة الاعتماد كل منها على الأخرى، بحيث يفضي شد أي خيط منها لا محالة إلى تحريك سائر الأجزاء من دون استثناء، وكان الكساد العالمي هو المثال النموذجي على تلك الظاهرة.

إن أحوال العالم في أوائل العقد الخامس من القرن التاسع عشر قد تأثرت، كما أسلفنا، بنوعين أساسيين من التقلبات الاقتصادية هما: الدورة الزراعية القديمة التي تعتمد على أوضاع المحاصيل والماشية، و«الدورة التجارية» الجديدة، وهي حلقة جوهرية في آلية الاقتصاد الرأسمالي، ففي أربعينيات ذلك القرن، كان الأول من هذين العنصرين هو السائد في العالم، مع أن آثاره كانت أميل إلى النطاق الإقليمي منها إلى العالمي؛ لأن أكثر الظواهر الطبيعية المنتظمة شيوعاً، وهي الطقس، والأوبئة التي تصيب النبات والحيوان والبشر، قلما تزامن وقوعها في أنحاء العالم كلها. وكانت الاقتصادات الصناعية قد بدأت، منذ الحروب النابليونية على الأقل، تخضع لسيطرة دورة العمل الاقتصادي، إلا أن ذلك، في مجال الممارسة، لم يترك تأثيره إلا في بريطانيا، وربما بلجيكا، والقطاعات الصغيرة في الاقتصادات الأخرى التي كانت تهيئ

نفسها للحاق بالنظام العالمي. وكان من شأن الأزمات التي لم تكن ذات صلة بالاضطرابات الزراعية التي حدثت في ذلك الوقت؛ أي في الأعوام من 1826 ـ 1837 أو من 1832 ـ 1842، أن اهتزت بريطانيا والدورات التجارية في السواحل الأمريكية الشرقية أو هامبورغ. غير أن أغلب المناطق، حتى في أوروبا، ظلت، إلى حد بعيد، بمعزل عن المتاعب.

لقد طرأ التغير على هذا الوضع بفعل تطورين حدثا بعد عام 1848: الأول هو أن أزمة الدورة التجارية امتدت فعلاً إلى مختلف أرجاء المعمورة، فأزمة عام 1857، التي بدأت بانهيار البنوك في نيويورك كانت، على الأرجح، أول نكسة من النوع الحديث على الصعيد العالمي. (وربما لم يكن ذلك حَدَثاً عارضاً: فقد لاحظ ماركس أن الاتصالات هي التي قاربت بين مصدريْ الاضطراب الاقتصادي الرئيسين، الهند وأمريكا من جهة، وأوروبا من جهة أخرى). وانتقلت الأزمة من الولايات المتحدة إلى بريطانيا، ومنها إلى شمال ألمانيا، ومن ثَمَّ إلى اسكندنافيا، وعادت بعدها إلى هامبورغ، وخلّفت وراءها سلسلة من الإفلاسات وأوضاع البطالة، وقفزت في تلك الأثناء عبر المحيطات إلى أمريكا الجنوبية. أما نكسة عام 1873، التي بدأت في فيينا، فقد انتشرت في الاتجاه المعاكس، وفي نطاق أوسع. وكما هو متوقع، كانت آثارها البعيدة، كما سنرى، أكثر عمقاً. أما التطور الآخر فهو أن التقلبات الزراعية القديمة، وفي البلدان الآخذة بالتصنيع على الأقل، فقدت الكثير من تأثيرها لسببين: **الأول** هو أن نقل المواد الغذائية بالجملة قلل من نقص الإمدادات محلياً وأسهم في توازن الأسعار، **والثاني** هو أن مجالات العمالة التي برزت في القطاع الصناعي من الاقتصاد قد عوضت عن الآثار الاجتماعية لنواحي النقص تلك. وقد توالت سلسلة من مواسم المحاصيل السيئة، التي تركت آثارها في القطاع الزراعي، غير أنها لم تؤثر بالضرورة في القطاعات الأخرى في البلاد. وعلاوة على ذلك، فكلما شدد الاقتصاد العالمي من إحكام قبضته، قللت حتى

الزراعة من اعتمادها على تقلبات الطبيعة، مقارنة بتقلبات الأسعار في السوق العالمي ـ وذلك ما أظهرته أوضاع الكساد الزراعي الكبرى في السبعينيات والثمانينيات من القرن التاسع عشر. واقتصر تأثير هذه التطورات كلها في ذلك القطاع الذي بات مقحماً في الاقتصاد الدولي. وعلينا ألا نبالغ في تقييم مستوى التوحيد المحقق للعالم بين الأعوام 1848 ـ 1875. ذلك أن قطاعات واسعة من الكتل السكانية؛ أي كل آسيا وأفريقيا عملياً، وجل أمريكا الشمالية، مع أجزاء لا يستهان بها حتى من أوروبا كانت لا تزال خارج أي اقتصادات عدا تلك المبادلات المحلية الخالصة البعيدة عن الموانئ، والسكك الحديد ومحطات التلغراف. وعلى حد تعبير واحد من كبار مؤرخي العصر البارزين، فإن «الاقتصاد العالمي لم يخط بعد «إلا الخطوة الأولى»؛ ويضيف، بحق، «حتى هذه البدايات تمكننا من تقدير مدى أهمية هذا الاقتصاد العالمي في المستقبل، بمقدار ما تمثل المرحلة الراهنة تحولاً مدهشاً حقاً في ميدان إنتاجية الجنس البشري»[21]. وإذا نظرنا، على سبيل المثال، إلى منطقة قريبة كل القرب من أوروبا، وهي السواحل الجنوبية للبحر الأبيض المتوسط، وشمال أفريقيا عام 1870، فإن ما سبق وقلناه آنفاً لن يصدق على أي مكان باستثناء مصر، والأجزاء البسيطة من الجزائر التي استعمرها المستوطنون الفرنسيون. وقد اقتصرت المغرب على منح الأجانب حرية المتاجرة في أراضيها عام 1862؛ ولم تتحمس تونس إلا بعد عام 1865 للخطة التي كانت نتائجها كارثية هنا كما في مصر، وهي الإسراع في إيقاع التقدم البطيء عن طريق الاقتراض. في نحو ذلك الوقت، وصل واحد من منتجات التوسع في التجارة العالمية، وهو الشاي، للمرة الأولى إلى جنوب جبال الأطلس، في أورغلا، وتمبكتو، وتافيللت، على الرغم من أنه كان من الكماليات المرفّهة: فقد كان الرطل [الإنجليزي] من الشاي آنذاك يعادل المرتب الشهري لجندي مغربي.

(21) Neumann-Spallart, *Übersichten der Weltwirtschaft*, p. 7.

وحتى النصف الثاني من ذلك القرن، لم تكن ثمة مؤشرات على التكاثر السكاني بالنسب التي نعرفها في البلدان الإسلامية الآن. ومن جهة أخرى، فإن تضافر المجاعة والوباء (اللذين أصابا الهند في الفترة نفسها) بالصورة التقليدية المعهودة بين عام 1867 ـ 1869، ترك خلفه آثاراً أخطر بكثير، في الميادين الاقتصادية، والاجتماعية والسياسية، من أي تطورات تتعلق بتوسع الرأسمالية العالمية التي ربما تأثرت بها كل التأثر ـ كما في حالة الجزائر.

الفصل الرابع

الصراعات والحرب

ويقول التاريخ الإنجليزي للملوك بصوت عالٍ ما يلي:

وإذا سرت في مقدمة أفكار القرن الذي أنت فيه، فإنها ستتبعك وتشد من أزرك.

وإذا سرت خلف هذه الأفكار، فإنها ستجرّك القهقرى نحوها.

وإذا سرت ضدها، فإنها ستطيح بك!

نابليون الثالث[1].

إن السرعة التي ترعرعت فيها الغريزة العسكرية في هذه الأمة من ملاك السفن، والتجار، والحرفيين... معروفة جيداً. [إن نادي البنادق في بلتيمور] يهتم بأمر واحد فقط هو تدمير البشرية لأغراضٍ خيّرة، وتطوير الأسلحة التي يُنظر إليها بوصفها أدواتٍ للتمدن.

جول فيرن، 1865[2].

---

(1) Louis Bonaparte, *Fragments historiques, 1688 et 1830* (Paris: Impr. de Vve Dondey-Dupré, 1841), p. 125.

(2) Jules Verne, *From the Earth to the Moon* ([n. p.: n. pb.], 1865).

I

بالنسبة إلى المؤرخ، يمثل الازدهار العظيم في خمسينيات القرن التاسع عشر أساساً للاقتصاد الصناعي العالمي، ولتاريخ عالمي موحد. فقد مُنح حكام أواسط القرن، كما رأينا، فرصة لالتقاط الأنفاس والتعامل مع المشكلات التي لم تستطع ثورات 1848 ولا محاولاتهم القمعية حلها، هذا إذا لم تُطْوَ في عالم النسيان أو، على الأقل، يحدّ منها الازدهار أو الإدارة السليمة. والواقع أن المشكلات الاجتماعية قد غدت آنذاك أقرب إلى المعالجة جراء التوسع الكبير واستحداث مؤسسات وسياسات أكثر مواءمةً لتنمية رأسمالية طليقة اليد، وفتح صمامات للأمان ـ مثل الاستخدام والهجرة ـ كانت من الاتساع بحيث ساهمت في تحقيق حدة السخط الجماهيري. إلا أن المشكلات السياسية بقيت على ما كانت عليه، واتضح في خمسينيات القرن أنه لا يمكن تفاديها. لقد كانت بالنسبة لكل واحدة من الحكومات قضايا تتعلق بالسياسات الداخلية. ولكن بسبب الطبيعة الخاصة لنظام الدولة الأوروبي شرق الخط الممتد من هولندا إلى سويسرا؛ فإن الشؤون المحلية والدولية كانت مترابطة ومتداخلة بصورة لا فكاك منها. ولم يعد ممكناً الفصل بين الليبرالية والديمقراطية الراديكالية، أو على الأقل بين المطالبة بالحقوق وبالتمثيل، والمطالبة بالحكم الذاتي الوطني، أو الاستقلال، أو التوحيد، في ألمانيا وإيطاليا، كما في إمبراطورية الهابسبيرغ، وحتى في الإمبراطورية العثمانية وعلى تخوم الإمبراطورية الروسية. وكان لا بد لذلك، بدوره، وفي حالة ألمانيا وإيطاليا وإمبراطورية الهابسبيرغ، من أن يفضي إلى صراع دولي.

فبالإضافة إلى اهتمام الدول الكبرى الأخرى ومصلحتها في أي تغيير كبير في حدود أوروبا، فإن توحيد إيطاليا كان يعني طرد إمبراطورية الهابسبيرغ التي فرضت سلطتها على معظم المناطق في شمال إيطاليا. كما أن توحيد ألمانيا كان ينطوي على ثلاث مسائل: ما هي

مكونات ألمانيا التي سيصار إلى توحيدها[3]؛ وكيف ستدمج فيها القوتان الكبريان العضوان في الكونفيدرالية الجرمانية، وهما بروسيا والنمسا - هذا إذا تم مثل هذا الدمج؛ وماذا سيكون مصير المقاطعات العديدة الأخرى التي كانت في نطاقها، والتي تتراوح بين الممالك المتوسطة الحجم والدويلات القَزْمية المثيرة للسخرية؟ وفي أي من حالتي التوحيد هاتين، كان لا بد، كما رأينا، من المساس المباشر بطبيعة إمبراطورية الهابسبيرغ وحدودها.

لقد كان هذان التوحيدان، في واقع الممارسة، يتضمنان الحرب. وكان من حُسن حظ حكام أوروبا أن هذه الحزمة المشحونة من القضايا المحلية والدولية لم تعد قابلة للانفجار؛ بل إن هزيمة الثورة وما تلاها من ازدهار اقتصادي قد أبطلا مفعولها. وبشكل عام؛ فإن الحكومات في أواخر الخمسينيات وجدت نفسها، مرة أخرى، تواجه هياجاً سياسياً داخلياً من جانب طبقة وسطى ليبرالية معتدلة، ومن ديمقراطيين أكثر راديكاليةً، بل أحياناً من قوى جديدة صاعدة داخل حركة الطبقة العاملة. وقد وجدت بعض هذه الحكومات نفسها أكثر ضعفاً مما كانت عليه إزاء مشاعر السخط الداخلية، وبخاصة عندما تُعاني الهزيمة، كما حدث في روسيا بعد حرب القرم (1854 - 1856). وإمبراطورية الهابسبيرغ في الحرب الإيطالية (1859 - 1860). غير أن هذه الهياجات (Agitations) لم تكن ثورية الطابع إلا في موقعين أو ثلاثة تعرضت فيها للعزل أو الاحتواء. ومن أبرز ما تميزت به هذه المرحلة مواجهة بين

(3) ضمت الكونفيدرالية الجرمانية الأجزاء الأصغر في إمبراطورية الهابسبيرغ، وكذلك هولشتين - لوينبرغ التابعة للدانمارك، ولوكسمبورغ التي لم تكن لها صلات بألمانيا. لكنها لم تكن آنذاك تشمل شليزفيغ الدانماركية، ومن جهة أخرى، كان الاتحاد الجمركي الجرماني (Zollverein)، الذي أقيم أصلاً عام 1834، قد ضم بروسيا بأكملها، ولكنه لم يشمل أي جزء من النمسا. كما أنه لم يشمل هامبورغ، وبريمين، والبقاع الأوسع في شمال ألمانيا (أي ماكلينبرغ وهولشتين - لوينبرغ، وكذلك شليزفيغ) وبوسعنا أن نتصور التعقيدات التي انطوى عليها مثل هذا الوضع.

برلمان بروسي شديد الليبرالية، انتخب عام 1861 من جهة، والملك والأرستقراطية البروسييْن اللذين لم يكونا على الإطلاق مستعديْن للاستجابة للمطالب الداعية إلى تنحيهما عن السلطة. وأقدمت الحكومة البروسية، التي كانت تعرف كل المعرفة أن التهديدات الليبرالية لم تكن أكثر من شعارات طنانة، على استثارة هذه المواجهة، واستدعت أكثر المحافظين شراسة، وهو أوتو فون بسمارك ليتولى رئاسة الحكومة، وليحكم على الرغم من البرلمان ضارباً عرض الحائط برفضه الموافقة على الضرائب. ونجح في ذلك دونما صعوبة.

بيد أن الأمر المهم في ستينيات القرن التاسع عشر لم يكن قدرة الحكومات، بصورة دائمة تقريباً، على الإمساك بزمام المبادرة، والسيطرة على الأوضاع التي كانت تستطيع تسييرها كما تشاء إلا في حالات مؤقتة، بل إن الحكومات قد لبت دائماً جانباً من مطالب المعارضة الشعبية في الأحوال كلها في المناطق الواقعة إلى الغرب من روسيا، فقد كانت هذه الفترة تُمثل عقد الإصلاح، واللَّبْرلة السياسية، وحتى تقديم التنازلات لما كان يسمى آنذاك «قوى الديمقراطية». وفي بريطانيا، واسكندنافيا، وبلدان الأراضي المنخفضة التي كانت فيها برلمانات دستورية، جرى توسيع نطاق الممارسات الانتخابية، بالإضافة إلى منظومة من الإصلاحات المرافقة لها. وقد شاع الاعتقاد أن **قانون الإصلاح** البريطاني لعام 1867 كان سيضع السلطة الانتخابية تحت تصرف مقترعي الطبقة العاملة. وفي فرنسا، حيث كانت حكومة نابليون الثالث قد خسرت أصوات المدن على نحو واضح بحلول عام 1863 ـ إذا كان لها نائب واحد من أصل خمسة عشر في باريس ـ تعززت، بصورة متزايدة، الجهود الرامية إلى «لَبْرَلَة» النظام الإمبراطوري. غير أن تغير الأجواء هذا كان يتضح بصورة أجلى في المَلَكيّات غير البرلمانية.

لقد تخلت ملكية هابسبيرغ بعد عام 1860 عن محاولاتها ممارسة الحكم من دون أن تأخذ بالاعتبار الآراء السياسية لرعاياها. ومن ثم،

ركزت على اكتشاف التحالفات القائمة بين بعض القوى بين القوميات العديدة القوية الشكيمة داخل الإمبراطورية، والتي كانت من القوة بحيث تعطل فاعلية القوى الأخرى، على الرغم من أنه كان يتعين آنذاك منحها جميعاً بعض التنازلات في مجالات التعليم، واللغة[4]. وحتى عام 1879، فإن الحكومة ومن يوالونها في أوساط الليبراليين كانت من الطبقة الوسطى في القطاعات الناطقة بالألمانية. غير أنها عجزت عن ممارسة سيطرتها على المجريين الذين كانوا قد حصلوا على ما يشبه الاستقلال في «مصالحة» عام 1867 التي حولت الإمبراطورية إلى مَلَكية مزدوجة تضم النمسا وهنغاريا. ولكن ما يلفت الانتباه أكثر من ذلك هو ما حدث في ألمانيا، فعام 1862، تولى بسمارك رئاسة الحكومة على أساس برنامج يقوم على الحفاظ على الملكية والأرستقراطية ضد الليبرالية والديمقراطية، والقومية الألمانية. وعام 1871، عيّن رجل الدولة هذا نفسه مستشاراً للإمبراطورية الجرمانية التي تحققت لها الوحدة بفضل ما قام به من جهود، وانتخب برلمان (لا يؤبه له في الواقع) بعد اقتراع عام شمل الذكور. واعتمد بسمارك على الدعم الحماسي الذي قدمه إليه الليبراليون (المعتدلون) الألمانيون، مع أنه لم يكن، بأي حال من الأحوال، ليبرالياً أو قومياً ألمانياً بالمعنى السياسي[5]. وكل ما كان في الأمر أنه رجل كان من الذكاء بحيث أدرك أن عالم الأرستقراطية الإقطاعية الروسية (Junkers) لا يمكن المحافظة عليه بالصراع المباشر مع القوى الليبرالية والقومية، بل بالتلاعب بالإطار الذي يضم هاتين النزعتين لخدمة مصلحة «اليونكرز».. ويعني ذلك أن عليه أن يفعل ما فعله الزعيم البريطاني المحافظ بنيامين دزرائيلي (Benjamin Disraeli) (1804 ـ 1881). عندما قدم قانون الإصلاح عام 1867، واصفاً إياه بأنه «مداهمة الويغ [حزب الأحرار فيما بعد] بعد أن استحموا وأضاعوا ملابسهم».

---

(4) انظر الفصل الخامس، ص 178-181 من هذا الكتاب.

(5) انظر الفصل الخامس من هذا الكتاب.

إن سياسات الحكام في الستينيات، إذاً، قد تشكلت بفعل ثلاثة اعتبارات: **الأول** هو أنهم وجدوا أنفسهم في غمرة تغيرات اقتصادية وسياسية لم يكن بوسعهم السيطرة عليها بل إن عليهم التكيف معها. وكان الخيار الوحيد ـ الذي تبيّنه رجال الدولة بوضوح آنذاك، هو إما أن يسيروا أمام الرياح، أو يستخدموا مهاراتهم البحرية في توجيه السفينة وجهة أخرى. وكانت الرياح ذاتها ظاهرة طبيعية. أما الاعتبار **الثاني** فهو أن عليهم أن يقرروا نوع الامتيازات التي ستقدم للقوى الجديدة من دون تعريض النظام الاجتماعي، أو، في بعض الأحيان، البنية السياسية، للخطر ـ وذلك ما كانوا ملزمين بحمايته والدفاع عنه. كما كان عليهم تحديد النقطة التي يجب عليهم عدم تجاوزها إذا توخوا السلامة والأمان. غير أنه كان من حُسن حظهم، من جهة **ثالثة**، أنهم استطاعوا أن يتخذوا هذين النوعين من القرارات في ظل ظروف سمحت لهم بحد لا بأس به من المبادرة وهامش التلاعب، بل أتاحت لهم، في بعض الحالات، حرية توجيه مسار الأحداث.

من هنا، كان أكثر رجال الدولة بروزاً في تاريخ أوروبا التقليدي في تلك الفترة هم أولئك الذين جمعوا، بصورة منهجية، بين الإدارة السياسية والدهاء الدبلوماسي والسيطرة على آليات الحكم، مثل بسمارك في بروسيا، وكاميلو كافور (1810 ـ 1861) في بيدمونت، ونابليون الثالث، أو أولئك الذين تمكنوا من إدارة العملية الصعبة للسيطرة على توسيع نظام حكم الطبقة العليا، ومنهم الليبرالي و. إ. غلادستون (W. E. Gladstone) (1809 ـ 1898)، والمحافظ دزرائيلي في بريطانيا. وكان الأكثر نجاحاً هم من عرفوا كيف يوجهون القوى السياسية الجديدة غير الرسمية على السواء لمصلحتهم، سواء اتفقوا معها أو لم يتفقوا. وقد سقط نابليون الثالث عام 1870 لأنه أخفق في هذا المسعى. غير أن اثنين من القادة، هما الليبرالي المعتدل كافور، والمحافظ بسمارك، حققا نجاحاً مشهوراً على ذلك المسار الصعب.

كان كلاهما سياسياً بعيد النظر. وتجلى ذلك في أسلوب كافور

المتواضع الواضح كل الوضوح، وفي تمكن بسمارك المدهش من التعبير باللغة الألمانية وطلاقته فيها، ما جعل منه شخصية أعظم وأكثر تعقيداً. كما كان كلاهما يناوئ النزعة الثورية، ولا يتعاطف مطلقاً مع القوى السياسية الأخرى التي استوليا على برامجها وطبقاها في إيطاليا وألمانيا بعد أن جرداها من مضامينها الديمقراطية والثورية. وحرص كلاهما على الفصل بين الوحدة الوطنية من جهة، والنفوذ الشعبي من جهة أخرى: وقد فعل كافور ذلك، بالإصرار على تحويل المملكة الإيطالية الجديدة إلى امتداد لبيدمونت، إلى حد جعله يرفض تغيير لقب ملكها فيكتور إيمانويل (Victor Emmanuel) الثاني (ملك سافوي) إلى فيكتور إيمانويل الأول (ملك إيطاليا)؛ كما فعل بسمارك ذلك بتعزيز التفوق البروسي في الإمبراطورية الجرمانية الجديدة. وكان كلاهما من المرونة بحيث استطاعا استيعاب المعارضة في النظام الذي أشرفا على إدارته، مع الحرص على الحيلولة بينها وبين السيطرة عليه.

لقد واجه كلاهما مشكلاتٍ غايةً في التعقيد من ناحية التكتيكات الدولية، (وفي حال كافور)، في السياسات الوطنية. لقد كان بسمارك، الذي لم يكن بحاجة إلى دعم خارجي، ولم يكن يلقي بالاً للمعارضة الداخلية، مستعداً للقبول بألمانيا موحدة شريطة أن لا تكون ديمقراطية، ولا كبيرة بحيث لا تستطيع بروسيا الهيمنة عليها. ويعني ذلك استبعاد النمسا. وقد تمكن من تحقيق ذلك بخوض حربين خاطفتين ببراعة فائقة عامي 1864 و1866، وبشلّ قدرة النمسا بصفتها قوة في السياسة الألمانية عن طريق دعم استقلال هنغاريا الذاتي وضمان استمراره داخل مملكة الهابسبيرغ (1867)، والمحافظة في الوقت نفسه على النمسا التي حظيت منذ تلك اللحظة بعطاياه الدبلوماسية المتميزة[6]. كما تمثل ذلك في جعل

---

(6) ذلك أن انهيار مملكة الهابسبيرغ وتقاسمها بين القوميات المختلفة فيها كان سيجعل من المستحيل منع النمساويين الألمان من الانضمام إلى ألمانيا، ما كان سيعوض التفوق البروسي الذي كان قد عُزز بمنتهى الحرص والعناية. وذلك ما حدث في واقع الأمر بعد عام=

الهيمنة البروسية أكثر استساغة من الهيمنة النمساوية لدى الدويلات الألمانية المعادية لبروسيا على نحو ما.

لقد حقق بسمارك ذلك بطريقة باهرة عندما استثار وخاض حرباً ضد فرنسا عام 1870/ 1871. أما كافور، فقد كان عليه أن يستنجد بحليف (هو فرنسا) لطرد النمسا من الأراضي الإيطالية، وأدى ذلك إلى قيام فرنسا بعد ذلك بإيقاف تحركاته عندما رأى نابليون الثالث أن عملية توحيد إيطاليا قد تجاوزت الحدود التي كان يتصدرها. وكان أكثر الأمر خطراً بالنسبة إلى كافور أنه وجد إيطاليا نصف موحدة بإشراف إدارة مفروضة من فوق، ونصف موحدة بفعل حرب ثورية من تحت، بقيادة المعارضة الديمقراطية الجمهورية التي يقودها، عسكرياً، زعيم حرب العصابات ذو القميص الأحمر جيسيبي غاريبالدي (1807 ـ 1882) الذي يمثل فيدل كاسترو (Fidel Castro) محبَطاً في أواسط القرن التاسع عشر. وقد احتاج الأمر آنذاك إلى تفكير سريع، ومناورات بارعة، قبل أن يتم إقناع غاريبالدي بتسليم السلطة إلى الملك عام 1860.

إن أعمال رجال الدولة هؤلاء تظل مدعاة للإعجاب لبراعتهم الفنية الفائقة. إلا أن ما جعلهم يتألقون ليس مواهبهم الشخصية فحسب، بل المجال غير العادي الذي منحهم إياه غياب الأخطار الثورية الجدية والمنافسة الدولية التي لا يمكن ضبطها. إن أفعال الأشخاص أو الحركات غير الرسمية كانت من الوهن بحيث عجزت عن تحقيق أي إنجاز بمفردها، فمُنيتْ بالفشل، أو أنها سُخّرت أداة بيد سلطة أعلى منها لإحداث التغيير. ومن ثَمّ اقتصر دور الليبراليين الألمانيين، والديمقراطيين الراديكاليين، والثوريين الاجتماعيين على التهليل لمسيرة

1918، وبعدها في «ألمانيا العظمى» الأطول عمراً في عهد هتلر (1938 ـ 1945)، ما أدى آنذاك إلى اختفاء بروسيا كلياً، بل إن اسمها قد أمحى تماماً؛ إلا في كتب التاريخ.

التوحيد الألمانيين الفعلية، أو الانشقاق عنها. أما اليسار الإيطالي؛ فقد أدى، كما رأينا، دوراً أكبر. إن حملة غاريبالدي الصقلية التي اكتسحت جنوب إيطاليا بسرعة، قد عززت موقف كافور. وعلى الرغم من أن ذلك كان يمثل إنجازاً مهماً، إلا أن تحقيقه كان مستحيلاً بغير الجهود التي بذلها كافور ونابليون الثالث. إلا أن اليسار، على أي حال، أخفق في تحقيق الجمهورية الإيطالية الديمقراطية التي كان يعتبرها من المكونات الأساسية للوحدة. وقد حقق الوجهاء الهنغاريون المعتدلون، الذين احتضنهم بسمارك، الاستقلال الذاتي لبلادهم، غير أن الراديكاليين أصيبوا بالإحباط. وظل كوسوث يعيش في المنفى حتى وفاته. وترتب على انتفاضات شعوب البلقان في سبعينيات ذلك القرن نوع من الاستقلال لبلغاريا (1878)، ولكن بالقدر الذي يخدم مصالح القوى الكبرى، فالبوسنيون الذين بدأوا هذه الانتفاضات عام 1875/1876 اكتفوا بالاستعاضة عن الحكم التركي بإدارة سلالة الهابسبيرغ التي ربما كانت أكثر تفوقاً. وفي الجانب الآخر، كما سنرى[7]، انتهت الثورات المستقلة نهاية سيئة. بل إن الثورة الإسبانية عام 1868، التي أسفرت في الواقع عن قيام جمهورية راديكالية قصيرة الأجل عام 1873، انتهت بعودة سريعة للنظام الملكي إلى سدة الحكم.

ولا ننتقص من جدارة رجال الدولة الكبار في ستينيات ذلك القرن عندما ننوه بأن أداءهم لمهماتهم إنما كان ميسوراً لأنه كان بوسعهم استحداث تغييرات دستورية أساسية من دون أي تداعيات سياسية جذرية، أو ـ وهذا هو الأهم ـ لأنه كان بوسعهم أن يشنوا الحروب ويوقفوها كيفما شاءوا. وعلى هذا الأساس، كان من الممكن في تلك الفترة تعديل جوانب من النظام المحلي والدولي على السواء من دون مخاطرة سياسية نسبياً.

(7) انظر الفصل التاسع من هذا الكتاب.

II

لهذا السبب، كانت السنون الثلاثون بعد عام 1848 فترة حافلة بتغيرات في نمط العلاقات الدولية أكثر إثارة مما كانت عليه الحال في السياسات الداخلية. وخلال عصر الثورة، أو بعد هزيمة نابليون على الأقل[8]، حرصت حكومات الدول الكبرى كل الحرص على تجنب نشوب النزاعات في ما بينها، لأن التجربة علمتها أن الحروب الكبيرة والثورات تتحركان يداً بيد. وبما أن ثورات 1848 كانت آنذاك قد أقبلت ثم أدبرت؛ فإن حوافز التحفظ الدبلوماسي كانت قد أصابها الضعف. ولم يكن الجيل الذي تلا عام 1848 عصراً للثورة بل للحروب. وكان بعض هذه الأخيرة حصيلة للتوتر الداخلي، والظواهر الثورية أو شبه الثورية. وهذه الحروب، أي الحروب الأهلية الكبيرة في الصين (1851 ـ 1861)، وفي الولايات المتحدة (1861 ـ 1865) لا تدخل في نطاق مناقشتنا الحالية إلا بالقدر الذي تمس فيه الجوانب الفنية والدبلوماسية للحرب في تلك الفترة. وسنتطرق لها بصورة منفصلة[9]. وما يعنينا هنا هو، في المقام الأول، التوترات والنقلات التي شهدها نسق العلاقات الدولية، إذا أخذنا بالاعتبار خصيصة التداخل والترابط الغريب بين السياسات الدولية والوطنية المحلية.

هب أننا سألنا واحداً ممن تعاطوا مع النظام العالمي قبل عام 1848 عن مشكلات السياسة الخارجية، وليكن الفيكونت بالمرستون (Palmerston) الذي كان وزيراً للخارجية البريطانية قبل الثورات واستمر في إدارة الشؤون الخارجية بصورة متقطعة حتى وفاته عام 1865. إن إجابته عن هذا السؤال ستكون على النحو التالي. لقد كان

(8) انظر الفصل الخامس من: Eric John Hobsbawm, *The Age of Revolution: Europe 1789-1848* (London: Weidenfeld and Nicolson, 1962).

(9) انظر الفصلين السابع والثامن من هذا الكتاب.

محور الاهتمام في الشؤون العالمية آنذاك هو العلاقات بين «الدول الكبرى» الأوروبية التي كان نشوب الصراع بينها سيؤدي إلى حرب رئيسية: بريطانيا، وروسيا، وفرنسا، والنمسا، وبروسيا[10]. ولم تكن الدولة الأخرى الوحيدة التي كان لديها ما يكفي من الطموح والقوة، وهي الولايات المتحدة، مرهوبة الجانب؛ لأنها ركزت اهتمامها على القارات الأخرى، ولأن الدول الأوروبية لم يكن لها مطامح نشطة في الأمريكتين، باستثناء المصالح الاقتصادية التي كانت تستحوذ على اهتمام القطاع التجاري الخاص لا الحكومة. والواقع أن روسيا، في وقت متأخر باعت ألاسكا للولايات المتحدة عام 1867 مقابل سبعة ملايين دولار، علاوة على قدر كافٍ من الرشاوى لإقناع الكونغرس الأمريكي للقبول بما كان يُعتقد آنذاك أنه مجرد مجمع للصخور، والجبال الجليدية، والسهول القطبية الجرداء. أما الدول الأوروبية نفسها، أو بالأحرى تلك التي يحسب لها الحساب، مثل بريطانيا لثروتها وأسطولها البحري، وروسيا لضخامتها ولجيشها، وفرنسا لحجمها وجيشها وسجلها العسكري المهيب، فكانت تخامرها المطامح، وتساورها، في الوقت نفسه، الهواجس بعضها من بعض، ولكن ليس إلى حد يستعصي على التسويات الدبلوماسية. فبعد ثلاثين سنة من هزيمة نابليون عام 1815، لم ترفع إحدى الدول الكبرى السلاح في وجه أخرى، بل وجهت عملياتها العسكرية لقمع محاولات العصيان على الصعيدين الداخلي والدولي، وللسيطرة على مواقع الشغب المحلية، وللتوغل في العالم المتخلف.

الواقع أنه كان ثمة مصدر دائم للاحتكاك نشأ عن تزامن التفكك البطيء للإمبراطورية العثمانية، التي كانت العناصر العديدة غير التركية فيها مهيأة للانفصال، مع المطامح المتعارضة لدى كل من روسيا وبريطانيا شرق المتوسط، أي في ما يُعرف الآن بالشرق الأوسط،

---

(10) انظر الفصل الخامس من: Hobsbawm, Ibid.

والمنطقة الممتدة من حدود روسيا الشرقية، والحدود الغربية لإمبراطورية بريطانيا الهندية، ومع أن وزراء الخارجية لم يكن يساورهم القلق من مخاطر الانهيار العام في النظام العالمي جراء الثورة؛ فإنهم كانوا منشغلين على الدوام بما كان يسمى «المسألة الشرقية». غير أن الأمور لم تكن قد أفلتت من عقالها بعد. وقد برهنت ثورات عام 1848 على ذلك، فعلى الرغم من أن ثلاثاً من الدول الخمس الكبرى قد تزعزعت بفعل تلك الثورات؛ فإن النظام الدولي الذي جمع هذه البلدان خرج منها سالماً من دون تغيير تقريباً. بل إن ذلك يصدق على الهياكل السياسية الداخلية في هذه الدول كلها، عدا فرنسا، وإن بصورة جزئية. غير أن العقود اللاحقة كانت مختلفة كل الاختلاف، وإلى حد لافت، فمن ناحية، كانت الدولة التي تعتبر (من جانب البريطانيين على الأقل) أكثر الدول إثارة للمتاعب، وهي فرنسا، قد برزت من الثورة بوصفها إمبراطورية شعْبَويّة يحكمها نابليون آخر. والأهم من ذلك أنها لم تعد مسكونة بالخوف من عودة يعاقبة عام 1793، فعلى الرغم من الإعلان، بين الفينة والفينة، عن أن «الإمبراطورية تعني السلام"؛ كان نابليون الثالث متخصصاً في التدخلات على الصعيد العالمي، ومنها الحملة على سوريا (1860)، وعلى الصين بمشاركة مع بريطانيا (1860). وغزو الجزء الجنوبي من الهند الصينية (1858 ـ 1865)، بل إنه قام، يوم كانت الولايات المتحدة في قبضة الاحتلال، بمغامرة في المكسيك (1863 ـ 1867) حيث لم يستمر حكم التابع الفرنسي الإمبراطور مكسمليان (Maximilian) (1864 ـ 1867) كثيراً بعد انتهاء الحرب الأهلية الأمريكية. ولم يكن ثمة ما هو فرنسي في غزوات قطاع الطرق تلك، إلا تشوق نابليون لإضفاء لمسة من العظمة على اللقب الإمبراطوري الذي يحمله، فقد كانت قوة فرنسا لا تكاد تكفي إلا للمشاركة في العملية الشاملة لاستعباد العالم غير الأوروبي؛ وذلك ما لم تفعله إسبانيا على سبيل المثال، على الرغم من طموحها لاستعادة جانب من نفوذها الإمبراطوري المندثر في أمريكا اللاتينية خلال الحرب الأهلية الأمريكية.

وبقدر ما كانت فرنسا تواصل مساعيها الطموحة في ما وراء البحار، فإن هذه المحاولات لم تؤثر، بصفة خاصة، في نظام القوى الأوروبي؛ ولكن اقتحامها للمناطق التي كانت تتنازعها القوى الأوروبية المنافسة أثار الاضطراب في الصيغة الهشة للترتيبات المتوازنة.

تمثلت أولى النتائج الرئيسية لهذا الاضطراب في حرب القرم (1854 ـ 1856)، وهي أقرب ما تكون إلى حرب أوروبية عامة في الفترة الممتدة بين الأعوام 1815 و1914. ولم يكن ثمة أمر جديد أو غير متوقع في الوضع الذي تحوّل إلى مذبحة رئيسية عالمية عاجزة وذائعة الصيت بين روسيا من جهة، وبريطانيا وفرنسا وتركيا من جهة أخرى. ويقدر أنها أسفرت عن مصرع 600 ألف رجل، قضى أكثر من نصف مليون منهم جراء المرض: 22 في المئة من البريطانيين، 30 في المئة من الفرنسيين؛ ونحو نصف القوات الروسية. ولم يحدث قبل تلك الحرب أو بعدها أن أدت سياسة روسيا الرامية إلى تجزئة تركيا أو تحويلها إلى دولة تابعة (والخيار الثاني هو الوارد في تلك الحال) إلى تصور وقوع الحرب، أو لزومها أو حتى دفع الأمور باتجاهها بين الدول. غير أن الصراع بين تلك القوى، قبل وخلال المرحلة التالية من تفكك الإمبراطورية التركية في سبعينيات القرن، كان يدور، بالدرجة الأولى، في لعبة ثنائية بين الغريمين القديمين، روسيا وبريطانيا، بينما كانت الدول الأخرى عازفةً أو عاجزة عن التدخل إلا بصورة رمزية. غير أن الخمسينيات شهدت بروز لاعب ثالث، هو فرنسا التي لم يكن من الممكن التنبؤ بأسلوبها وبطاقاتها. ولا شك في أن أحداً لم يكن يريد مثل هذه الحرب، فطُرحت الفكرة جانباً، من دون أن يختلف الوضع بصورة ملموسة أو دائمة بالنسبة لـ «المسألة الشرقية»، وانسحبت تلك الدول من ساحة الصراع. والواقع أن الآلية الخاصة بدبلوماسية «المسألة الشرقية»، التي كانت قد صُممت لمجابهات بسيطة، انهارت موقتا ـ ولكن بعد أن دفع ثمنها مئات الآلاف من البشر.

كانت النتائج الدبلوماسية المباشرة للحرب مؤقتة أو لا أهمية لها، مع أن رومانيا (التي تكونت من اتحاد اثنتين من مقاطعات الدانوب التي ظلت، اسمياً، تحت سيادة تركيا حتى عام 1878)، غدت مستقلة بالفعل. إلا أن النتائج السياسية العريضة كانت أكثر خطراً، ففي روسيا، أصابت الشروخ الجدار الأصم للأوتوقراطية القيصرية التي يمثلها نيقولا الأول (Nicholas I) (1825 ـ 1855). بعد أن توالت عليها الضغوط والأعباء. وبدأت حقبة من التأزم، والإصلاح، والتغيير كُلِّلت بإعتاق الأقنان (1861)، وظهور حركة روسية ثورية في أواخر الستينيات. وكانت الخريطة السياسية لبقية أوروبا ستتحول أيضاً عما قريب. وقد مهدت لذلك، بل أسهمت في إنجازه، حركات نظام القوى الدولي وتداعيات حرب القرم. وبرزت، كما رأينا، مملكة إيطالية موحدة بين الأعوام 1858 و1870، وألمانيا موحدة (1862 ـ 1871)، ما أدى، بالمصادفة، إلى انهيار إمبراطورية نابليون الثانية وكومونة باريس (Paris Commune) (1870/ 1871)، واقتطاع النمسا من ألمانيا وإعادة هيكلتها بصورة موسعة. ومجمل القول إن «الدول» الأوروبية كلها، عدا بريطانيا، تغيرت تغيّراً جوهرياً، وتغيرت رقعتها وأراضيها أحياناً، بين عامي 1856 و1871، وأُسّست دولة جديدة كبيرة اندرجت في عدادها بعد قليل، وهي إيطاليا.

نجمت أغلب هذه التغيرات بصورة مباشرة أو غير مباشرة، عن التوحيد السياسي لألمانيا وإيطاليا. ومهما كانت الدوافع لتلك الحركات الوحدوية، فقد تولت هذه العملية الحكومات، أي القوة العسكرية في ظل الظروف السائدة آنذاك. لقد تمت، على حد التعبير الشهير الذي أطلقه بسمارك «بالدم والحديد». وفي غضون اثنتي عشرة سنة، عانت أوروبا أربعة حروب رئيسية: فرنسا وسافوي والإيطاليون ضد النمسا (1858/ 1859)، بروسيا والنمسا ضد الدانمارك (1864). بروسيا وإيطاليا ضد النمسا (1866)، وبروسيا والدويلات الألمانية ضد فرنسا (1870/ 1871). وكانت حروباً قصيرة نسبياً وقليلة التكلفة، إذا ما

قورنت بالمجازر الأكبر في القرم وفي الولايات المتحدة، مع أن 160 ألف شخص لقوا مصرعهم، وعلى الأخص في صفوف الفرنسيين، في الحرب الفرنسية البروسية. ولكنها أسهمت في أن تجعل تلك الفترة من التاريخ الأوروبي التي يتناولها هذا الكتاب أشبه بفاصل حربي تخلل قرناً شاع فيه على العموم السلام بين الأعوام 1815 و1914. وعلى الرغم من ذلك، ومع أن نشوب الحرب كان أمراً عادياً في الفترة بين 1848 و1871؛ فإن الخوف من الحرب **الشاملة** ـ التي عاناها القرن العشرون من دون انقطاع منذ مطلع القرن، لم يكن يساور مواطني العالم البورجوازي. ولم يبدأ تفاقم المخاوف البطيء إلا بعد 1871. لقد كانت الحروب تبدأ ثم تنتهي بصورة متعمدة بأمر من الحكومات، وذلك هو الوضع الذي استغله بسمارك بمنتهى البراعة. واقتصرت المجازر وأعمال الدمار التي انطلقت من عقالها من دون ضابط أو رابط ـ من النوع المألوف في أيامنا هذه ـ على الحروب الأهلية، وعلى الصراعات القليلة نسبياً التي تحولت إلى حروب شعبية، مثل الحرب بين باراغواي وجيرانها (1864 ـ 1870). ولا يعلم أحد مدى الخسائر في حروب تايبنغ، بيد أن ثمة مزاعم بأن بعض الأقاليم الصينية لم تستطع، حتى الآن، أن تستعيد مستوى عدد السكان الذي كان فيها يومئذ. وقد أسفرت الحرب الأهلية الأمريكية عن مقتل 630 ألف جندي، وإصابة 33 في المئة، وأربعين في المئة من قوات الاتحاد والكونفيدرالية على التوالي. أما حرب الباراغواي، فخلفت 330 ألف قتيل (إذا أخذنا بالإحصاءات الأمريكية اللاتينية)، وخفضت عدد السكان في ذلك البلد الذي وقع ضحية لهذه الحرب إلى 200 ألف نسمة، بينهم 30 ألف رجل فقط. لقد كانت ستينيات القرن التاسع عشر (بأي مقياس) هي العقد الدموي.

ما الذي جعل هذه الفترة من التاريخ دموية إلى هذا الحد؟ السبب الأول هو أنها تُمثل عملية التوسع الرأسمالي العالمي الذي ضاعف التوترات في عالم ما وراء البحار، ومطامع العالم الصناعي، والصراعات

المباشرة وغير المباشرة الناجمة عن ذلك كله. من هنا، كانت الحرب الأهلية الأمريكية، بصرف النظر عن بواعثها السياسية، انتصاراً للشمال الصناعي على الجنوب الزراعي. بل يمكن القول إن هذا الانتصار كان يمثل انتقال الجنوب من إمبراطورية بريطانيا غير الرسمية (التي كانت صناعة القطن من ملحقاتها الاقتصادية) إلى الاقتصاد الصناعي الجديد للولايات المتحدة. ويمكن اعتباره خطوة أولى، ولكن جبارة، على الطريق التي أدت في القرن العشرين إلى تحويل الأمريكتين من التبعية للاقتصاد البريطاني إلى التبعية للاقتصاد الأمريكي. ويمكن كذلك اعتبار حرب الباراغواي جزءاً من دمج حوض نهر بلات في الاقتصاد البريطاني العالمي، الأرجنتين، والأورغواي، والبرازيل التي تتوجه أبصارها واقتصاداتها نحو الأطلسي أرغمت الباراغواي على الخروج من دائرة الاكتفاء الذاتي التي كانت المنطقة الوحيدة في أمريكا اللاتينية التي تصدى فيها الهنود [الحمر] إلى مقاومة استيطان البيض على نحو دائم وفاعل، ربما بفضل سيطرة الجزويت (Jesuits) الأصلية[11]. أما تمرد تايبنغ وقمعه، فلا يمكن فصله عن اختراق المدافع ورؤوس الأموال الغربية للإمبراطورية السماوية منذ حرب الأفيون الأولى (1839 ـ 1842)[12].

من ناحية أخرى، يعزى الطابع الدموي لهذه الفترة، كما رأينا، إلى العودة إلى الحرب بوصفها واحدة من الأدوات السياسية المعتادة التي تُستخدم، وبخاصة في أوروبا، من جانب الحكومات التي لم تعد تؤمن بضرورة تفاديها خوفاً من اندلاع الثورة في وقت لاحق، وكانت مقتنعة، بحق، بأن بمقدور آلية القوة أن تُبقيها داخل حدودها. وقلما كانت المنافسة الاقتصادية تؤدي إلى ما هو أبعد من الاحتكار المحلي في

(11) انظر الفصل السابع من هذا الكتاب.

(12) صدت حدود المستوطنات بقية الهنود الذين قاوموا الغزو الأبيض. ولم يكن استيطان الهنود مُستقراً إلا في حوض لابلاتا العلوي، كما أن لغة غواراني، لا الإسبانية ولا البرتغالية، هي وسيلة التواصل الفعلية بين أهل البلاد الأصليين والمستوطنين. انظر الفصل السابع، ص 233 ـ 236 من هذا الكتاب.

عصر التوسع الذي أتاح، بصورة واضحة، حرية العمل للجميع. وبالإضافة إلى ذلك؛ فإن المنافسة بين الأنشطة التجارية في هذه الحقبة من الليبرالية الاقتصادية القديمة كانت أقرب إلى الاستقلال عن الدعم الحكومي مما كانت عليه في الماضي، أو أصبحت عليه في المستقبل. وخلافاً للافتراض الشائع، لم يكن يدور بخلد الجميع ـ بمن فيهم ماركس نفسه ـ أن بواعث الحروب الأوروبية في تلك الفترة كانت اقتصادية في المقام الأول.

إلا أن هذه الحروب، من ناحية ثالثة، كان من الممكن شنها الآن باستخدام التقانات الجديدة التي ولدت في أحضان الرأسمالية. (ذلك أن تلك التقانات أحدثت، من خلال الكاميرا والتلغراف، انقلاباً حاسماً في إرسال التقارير عن الحرب إلى الصحف، فقربت وقائعها بصورة أكثر حيوية من أذهان الجمهور القادر على القراءة. غير أن ذلك كله كان قليل الأثر، ما عدا تأسيس الصليب الأحمر الدولي عام 1860، وإقراره في مؤتمر جنيف عام 1864). ومع ذلك، فإن ذلك القرن لم يُنتج وسائل أكثر فاعلية للسيطرة على حمامات الدم الرهيبة. أما الحروب الآسيوية والأمريكية اللاتينية، فقد دارت في عصر ما قبل التقانة، إلا في اللحظات التي دخلت فيها قوى أوروبية ساحة المعركة لفترات وجيزة. كما أن حرب القرم، بما هو معهود فيها من العجز وعدم الكفاءة، لم تستخدم التقانة المتوافرة لديها آنذاك بصورة مناسبة. غير أن حروب الستينيات أفادت كل الفائدة من السكك الحديد في عمليات التعبئة والنقل، واستخدمت التلغراف للاتصالات السريعة، وطورت السفن الحربية المدرعة وملحقاتها، وأدخلت تحسينات على المدفعية الخارقة للدروع، واستعملت الأسلحة النارية المُنتَجة بالجملة، بما فيها مدافع غاتلينغ (1861)، والمتفجرات الحديثة ـ والديناميت الذي اخترع عام 1866 ـ ما كان له نتائج مهمة بالنسبة إلى الاقتصادات الصناعية. وكانت، من ثَمَّ، أقرب في مجملها إلى الحروب الجماعية الحديثة مما سبقها، فقد جندت الحرب الأهلية الأمريكية مليونين ونصف المليون من

الرجال، من أصل مجمل السكان الذي كان يبلغ نحو 33 مليون نسمة. وكانت بقية الحروب في العالم الصناعي أصغر من ذلك، فحتى المليون وسبعمئة ألف جندي الذين حُشدوا عام 1870/ 1871 في الحرب الفرنسية الألمانية كانوا يمثلون أقل من اثنين ونصف في المئة من عدد سكان البلدين الذين بلغوا نحو 70 مليوناً، أو ثمانية في المئة من الاثنين وعشرين مليوناً القادرين على حمل السلاح. ومع ذلك، فإن من الجدير بالإشارة أن المعارك الضخمة التي شارك فيها أكثر من ثلاثمئة ألف جندي كانت شائعة منذ ستينيات ذلك القرن (ومنها سادوف [1866]، وغرافلوت وسيدان [1870]. وكان منها معركة واحدة فقط طيلة الحروب النابليونية هي لايبزغ [1813]. بل إن معركة سولفرينو في الحرب الإيطالية عام 1859 كانت أضخم من الكل، باستثناء معركة واحدة في عهد نابليون).

لقد أشرنا إلى المنتجات الجانبية المحلية لهذه المبادرات والحروب الحكومية، غير أن تداعياتها الدولية كانت أكثر إثارة في المدى البعيد، فقد تبدل النظام الدولي في الربع الأخير من القرن التاسع عشر تبدلاً جوهرياً، وبصورة أوضح بكثير مما أقرَّ به معاصرو تلك المرحلة. بيد أن واحداً من مكونات ذلك النظام بقي على ما كان عليه من دون تغيير، وهو تفوق الدول النامية الاستثنائي على البلدان الناقصة النمو[13]. إلا أن دولة غير بيضاء واحدة، هي اليابان، نجحت في محاكاة الغرب في تلك الفترة. ومن ناحية أخرى، فإن الحكومة التي لم تسخّر التقانة الحديثة كانت تضع نفسها تحت رحمة الحكومة التي تستخدمها بالفعل.

لقد أخذت البنية الدولية الشكلية، إذاً، تتشعب وتتفرع من سابقتها بصورة متزايدة. والسياسات الدولية غدت سياساتٍ عالمية، تدخلت فيها على نحو فاعل دولتان على الأقل غير أوروبيتينْ، مع أن

(13) انظر الفصل الثامن من هذا الكتاب.

ذلك لم يتضح جليّاً إلا في القرن العشرين. وعلاوة على ذلك، أصبحت نوعاً من احتكار القلة تمارسه الدول الكبرى على العالم، ولكن المشاركين في هذا الاحتكار يتنافسون في الوقت نفسه في ما بينهم، مع أن ذلك لم يتضح أيضاً إلا في مرحلة «الإمبريالية» بعد نهاية الفترة التي نعالجها. فعام 1875 أو نحوه، لم تكن هذه الظاهرة واضحة المعالم. غير أن بنية القوة الجديدة كانت قد أرسيت دعائمها في الستينيات، وكان من دواعيها الخوف، الذي بدأ يساور مراقبي الساحة الدولية من وقوع حرب أوروبية شاملة، اعتباراً من سبعينيات القرن التاسع عشر. والواقع أن مثل هذه الحرب لم تنشب إلا بعد أربعين سنة، وهي فترة أطول من تلك التي شهدها القرن العشرون. إلا أن بوسع جيلنا الآن، في الوقت الذي نعكف فيه على وضع هذا الكتاب [1975]، استحضار ثلاثين سنة لم تنشب فيها حرب بين الدول الكبرى، أو حتى المتوسطة الحجم[14]. ونحن نعرف أكثر من غيرنا أن غياب الحرب قد يتلازم مع الخوف الدائم منها. وعلى الرغم من الصراعات، ساد الاستقرار حقبة الانتصار الليبرالي. بيد أن الحال لم يعد كذلك بعد عام 1875.

(14) باستثناء النزاع بين الولايات المتحدة والصين في كوريا (1950 ـ 1953) عندما لم تكن الصين قد اعتبرت بعد دولةً كبرى.



الفصل الخامس

بناء الأمم

ولكن... ما الأمة؟ لِمَ تعتبر هولندا أمةً. بينما لا تعتبر هانوفر ودوقية بارما الكبرى كذلك؟

إرنست رينان، 1882[1].

ما معنى الوطني؟ إنه يعني أنْ لا أحدَ يفهم كلمة واحدة من اللغة التي تتحدث بها.

يوهان نِسْترويْ، 1862[2].

إذا لم يؤمن شعب عظيم بأن الحقيقة وقف عليه وحده... وإذا لم يؤمن بأنه هو الذي قُدّر له أن ينهض وينقذ الآخرين جميعاً بالحقيقة التي لديه، فإنه سرعان ما يعاني الانحطاط، ويتحول إلى مادة إثنوغرافية، لا إلى شعب عظيم... إن الأمة التي تفقد هذا الإيمان لا تعود أمةً.

فيدور دستويفسكي، 1871-1872[3].

---

(1) Ernest Renan, «What is a Nation,» in: Alfred Zimmern, ed., *Modern Political Doctrines* (London; New York: Oxford University Press, 1939), pp. 191-192.

(2) Johann Nestroy, *Haeuptling Abendwind* ([n. p.: n. pb.], 1862).

(3) Shatov, in Fyodor Dostoyevsky, *The Possessed* ([n. p.: n. pb.], 1871-1872).

الأمـم. إنها تجمع الشعوب جميعاً هنا (؟)

غوستاف فلوبير، عام 1852 أو نحوه[4].

I

إذا كانت السياسات المحلية والدولية مترابطة بعضها ببعض خلال تلك الفترة، فمن الواضح تماماً أن الرابطة التي كانت تشدها هي ما ندعوه اليوم «القومية»، غير أنها كانت تُعرّف في أواسط القرن التاسع عشر بأنها «مبادئ الانتماء الوطني/ المواطنة». تُرى، عمَّ كانت تدور السياسات الدولية في السنين الممتدة بين عام 1848 والعقد الثامن من ذلك القرن؟ لم يكن ثمة شك حول ذلك في التاريخ التقليدي الغربي، لقد كان محور هذه السياسات هو بناء الدول/ الأمم. وربما كان هناك بعض الشكوك حول العلاقة بين هذا الجانب في ذلك العصر والجوانب الأخرى التي ارتبطت به على نحو واضح، مثل: التقدم الاقتصادي، والليبرالية، وربما حتى الديمقراطية، غير أنه لم يكن ثمة شك حول الدور المركزي للانتماء الوطني/ المواطنَة.

وكيف كان ذلك؟ من الواضح أن «ربيع الشعوب» عام 1848، مهما تباينت تفسيراته، كان، في سياقه الدولي، تأكيداً بالدرجة الأولى للانتماء الوطني، أو بالأحرى للانتماءات الوطنية المتنافسة، فقد أكد الألمان، والإيطاليون، والبولنديون، والرومانيون والآخرون حقهم في الاستقلال وبناء دول موحدة تضم جميع الأفراد في أممهم ليقفوا في وجه الحكومات القمعية، مثلما فعل التشيك، والكرواتيون، والدانماركيون وغيرهم، على الرغم مما كان يساورهم من هواجس متزايدة بشأن التطلعات الثورية للأمم الأكبر التي كانت، في ما يبدو، تتأهب للتضحية بتطلعات الشعوب الأصغر. لقد كانت فرنسا دولة وطنية

(4) Gustave Flaubert, *Dictionnaire des idées reçues* ([s. l.: s. n.], 1852).

مستقلة، غير أنها ذات نزعة قومية في الأحوال كلها.

لقد أخفقت الثورات، غير أن التطلعات نفسها هي التي ارتكزت عليها السياسات الأوروبية خلال الخمس والعشرين سنة التالية. وقد تحققت، كما رأينا، بشكل أو بآخر، وإن كان ذلك بأساليب غير ثورية أو ثورية بصورة طفيفة. وعادت فرنسا إلى نسخة مشوهة عن «الأمة العظمى» في ظل نسخة مشوهة عن نابليون العظيم. واتحدت إيطاليا وألمانيا في ظل مملكتي سافوي وروسيا، وحققت هنغاريا ما يشبه الحكم الذاتي وفق مصالحة عام 1867، وأصبحت رومانيا دولة بعد دمج «المقاطعتين الدانوبيتين» الاثنتين. أما بولندا، التي لم تشارك بأي دور نشيط في ثورة 1848، فقد فشلت أيضاً في تحقيق الاستقلال أو الحكم الذاتي في انتفاضة عام 1863.

وفي أقصى الغرب، كما في أقصى الجنوب الشرقي من أوروبا، أَقحمت «المسألة الوطنية» نفسها على المسرح السياسي. إذ رفع الفينيانيون في أيرلندا شعارها في انتفاضة راديكالية، ساندها الملايين من مواطنيهم الذين دفعتهم المجاعة وكرههم لبريطانيا إلى الهجرة إلى الولايات المتحدة. واتخذت الأزمة المستحكمة في الإمبراطورية العثمانية المتعددة القوميات شكل انتفاضات قامت بها مختلف الشعوب المسيحية التي كانت خاضعة لسيطرتها في البلقان زمناً طويلاً. وكانت اليونان وصربيا قد نالتا الاستقلال، مع أنه كان أقل حجماً مما كانتا تأملان. وحققت رومانيا نوعاً من الاستقلال في أواخر خمسينيات القرن. وأدت انتفاضات شعبية في أوائل السبعينيات إلى بروز أزمات محلية ودولية لتركيا، وأفضت إلى استقلال هنغاريا في نهاية ذلك العقد، وعجّلت بعملية «بلقنة» البلقان. وبدت «المسألة الشرقية» الآن مسألة تتعلق، في المقام الأول، بكيفية إعادة رسم خريطة تركيا الأوروبية على هيئة عدد غير محدد من الدول الجديدة غير المحددة المساحة التي ادّعت لنفسها أو أضفيت عليها صفة «الأمة». وإذا ما توجهنا قليلاً إلى الشمال، لوجدنا أن المشكلات

الداخلية في إمبراطورية الهابسبيرغ إنما كانت تتمثل بوضوح في طبيعة القوميات المكونة لها، التي بدأ عدد منها ـ إن لم يكن جميعها على الأغلب ـ يتقدم بمطالب تتراوح بين ما يشبه الحكم الذاتي الثقافي، والانفصال.

كان تشييد الدول ظاهراً بصورة مثيرة حتى خارج أوروبا، فما هي الحرب الأهلية الأمريكية إن لم تكن محاولة للحفاظ على وحدة الأمة الأمريكية وحمايتها من التشرذم؟ وفيم كانت حركة ميجي الإصلاحية، إن لم تكن دليلاً على ظهور «أمة» يابانية جديدة معتدة بنفسها؟ ولا يمكننا على الإطلاق أن ننكر أن عملية «صنع الأمم»، على حد تعبير والتر بيجهوت (Walter Bagehot) (1826 ـ 1877) كانت قائمة على قدم وساق في أنحاء العالم كلها، والسمة السائدة لذلك العصر.

وكان الأمر من الجلاء بحيث لم تكن طبيعة هذه الظاهرة موضوعاً للاستقصاء في أي وقت. لقد أخذ مفهوم «الأمة» على علاته. وعلى حد تعبير بيجهوت: «لا يمكن أن نتصور أناساً استعصى عليهم فهم هذه الفكرة، إننا نفهم ماهيتها عندما لا تسألنا عنها»، ولكن لا يمكننا أن نشرحها أو نعرفها بسرعة(5). وقليلون هم الذين طرحوا هذا السؤال. ومن المؤكد أن الإنجليزي كان يعرف معنى أن يكون إنجليزياً. ولكن هل كان الشك يخامر الفرنسي، والألماني، والإيطالي، أو الروسي حول ماهية هويتهم الجماعية؟ ربما لم يكن يساورهم مثل هذا الشعور. غير أن المعتقد آنذاك أن تعريف الهوية في عصر «بناء الأمة» كان يعني تحول «الأمة» تحولاً منطقياً وضرورياً ومرغوباً فيه إلى «دولة ـ أمة»، أي دولة قومية ذات سيادة تقوم على بقعة متماسكة من الأرض، تحددها مساحة يستوطنها أعضاء ينتمون إلى «أمة» ما، تجسدت هويتها عبر تاريخ

---

(5) Walter Bagehot, *Physics and Politics* (London: C. Kegan Paul, [1873]), pp. 20-21.

مضى، وفي إطار ثقافة مشتركة، وتكوين إثني معين، واتضحت معالمها على نحو متزايد من خلال لغة محددة. غير أن هذا المعنى لا يتفق والمنطقَ في شيء. وإذا كان وجود جماعات مختلفة من الناس وفق معايير مميزة أمراً لا يمكن إنكاره، وظاهرة قديمة قدم التاريخ، فإن ذلك لا يعني ما كان القرن التاسع عشر يعتبره «كيان دولة» قومية. كما أن ذلك لم يكن يعني أنه سيجري تنظيمها في دولة ذات حدود جغرافية من النوع الذي كان شائعاً في القرن التاسع عشر، ناهيك عن كونها «دولة» و«أمة» في آن معاً. إذ كانت الدول من هذا النوع ظاهرة تاريخية حديثة العهد نسبياً، مع أن تعريف الدولة المحددة جغرافياً بمساحة محددة من الأرض، مثل بريطانيا، وفرنسا، وإسبانيا، والبرتغال، وربما حتى روسيا، باعتبارها «دولة قومية»، لم يكن يجانب الصواب. بل إن الطموح لتشكيل دول قومية من دول غير قومية كان، باعتباره برنامجاً عاماً، نتاجاً للثورة الفرنسية. وعلينا، من ثم، التمييز الواضح بين إقامة الدولة ـ الأمة من جهة، و«القومية» من جهة أخرى، وبالقدر الذي حدث فيه ذلك في الفترة التي نعالجها هنا، وبين خلق الدولة ـ الأمة من ناحية ثالثة.

لم تكن تلك مجرد مشكلة تحليلية، بل قضية عملية؛ ذلك أن أوروبا، ناهيك عن أنحاء العالم الأخرى، كانت مقسمة بصورة واضحة إلى «أمم» لم يكن ثمة شك، بحق أو بغير حق، في تطلعاتها إلى إقامة دول خاصة بها، مثلما أنه كانت هناك أمم أخرى تحيط بأوضاعها الشكوك. وكان الدليل الأسلم لمعرفة الفئة الأولى هو واقعها السياسي، أو تاريخها المؤسسي، أو التاريخ الثقافي للشرائح المتعلمة فيها. ولا ريب أن فرنسا، وإنجلترا، وإسبانيا، وروسيا كانت في عداد «الأمم»، لأنه كان لها دول تعرَّف بهذا الاسم، سواء أكان فرنسياً أم انجليزياً أم غير ذلك. وكذلك كانت هنغاريا وبولندا، لأنه كانت هناك مملكة هنغارية حتى داخل إطار إمبراطورية الهابسبيرغ، ودولة بولندية ظلت قائمة حتى تدميرها في أواخر القرن الثامن عشر. كما كانت ألمانيا دولة

لسببين؛ **الأول** هو أن مقاطعاتها العديدة، مع أنها لم تتحد في دولة واحدة ذات حدود جغرافية، كانت داخلة في نطاق ما كان يسمى «الإمبراطورية الرومانية المقدسة للأمة الألمانية»، وكونت كذلك في ما بينها «الاتحاد الجرماني». أما السبب **الثاني** فهو اشتراك الألمان المتعلمين في لغة واحدة وأدب واحد. كذلك كان حال إيطاليا التي لم تكن حتى ذلك الحين موحدة في كيان سياسي واحد، غير أن النخبة فيها كانت تجمعها ربما، أعرق ثقافة أدبية مشتركة[6]. وهكذا دواليك.

كان المعيار «التاريخي» لكينونة الدولة، يؤكد، إذاً، الأهمية الحاسمة لمؤسسات الطبقات الحاكمة أو النخب المتعلمة وثقافاتها، مع الافتراض بأنها كانت تتماهى، أو لا تتنافر كلياً، مع ثقافة الناس العاديين. بيد أن الحجة الأيديولوجية للنزعة القومية كانت مختلفة وذات أصول أكثر راديكالية وديمقراطية وثورية بكثير. لقد كانت، بصرف النظر عما يقوله التاريخ أو الثقافة، ترتكز على أن الأيرلندي كان أيرلندياً لا إنجليزياً، والتشيكي تشيكياً لا ألمانياً، وأن الفنلندي ليس روسياً، وأنْ ليس من حق شعب أن يستغلّ شعباً آخر. ومن الممكن اختلاق أو اختراع الحجج التاريخية لدعم هذا الزعم ـ بل يمكن اكتشافها دائماً ـ إلا أن الحركة التشيكية، في جوهرها، لم تدَّع أنها ستحاول استعادة عرش فنشسلاس، ولم تطالب الحركة الأيرلَندية بالعودة إلى قرار إلغاء الاتحاد عام 1801. كما أن الأسس التي بني عليها الفصل، بهذا المعنى، لم تكن «إثنية» بالضرورة، بمعنى إمكانية تبيُّن الفوارق الظاهرة جسمياً أو حتى لغوياً. في تلك الفترة، لم تكن اللغة تشكل قضية أساسية لتلك الحركات؛ ويستوي في ذلك الأيرلنديون (الذين كان أغلبهم يتكلمون

---

(6) ليس بوسع الإنجليزي، أو الألماني، أو الفرنسي الحديث أن يقرأ الأدب الذي كتب في بلاده في القرن الرابع عشر من دون الإلمام بلغة تكاد تكون مختلفة، بينما يستطيع الإيطاليون اليوم أن يقرأوا دانتي (Dante) بصعوبة أقل مما يجده الناطقون بالإنجليزية هذه الأيام في قراءة شكسبير.

الإنجليزية)، والنرويجيون (الذين لم تكن لغة المتعلمين بينهم تتميز كثيراً عن الدانماركية)، ولا الفنلنديون (الذين كان ذوو النزعة القومية بينهم يتكلمون اللغتين السويدية والفنلندية على السواء). وإذا كانت القضية ثقافية، فإنها لم تكن تنطلق من «الثقافة العالية» التي لم تكن الشعوب المعنية العديدة تعرف عنها الكثير، بل من الثقافة الشفوية ـ أي الأغاني، والأناشيد، والملاحم... إلخ، والعادات وأساليب الحياة في أوساط «الناس» ـ أي عامة الناس، وبصورة أخص من الناحية العملية الفلاحين. وتمثلت المرحلة الأولى من «الإحياء القومي». في الأحوال كلها، لجمع هذا التراث الفولكلوري واستحضاره، والاعتزاز به[7]. إلا أنها لم تكن سياسية بحد ذاتها. وكان روادها، في كثير من الأحيان، هم المثقفون من النخب أو الطبقات الأجنبية الحاكمة مثل الوُعّاظ اللوثريين الألمان، أو الوجهاء ذوي الميول الفكرية في البلطيق الذين جمعوا الفولكلور والتحف العتيقة العريقة لدى الفلاحين في لاتفيا وإستونيا. ولم يكن الأيرلنديون قوميين لمجرد أنهم كانوا يؤمنون بالجن الخبيث الأسطوري.

سنناقش بعد قليل الأسباب التي جعلتهم قوميين، ودرجة تلك النزعة القومية لديهم. غير أن النقطة الأساسية هنا هي أن تلك الأمة «اللاتاريخية» أو «شبة التاريخية» بالمفهوم الدارج كانت أمة **صغيرة**. وذلك ما وضع قومية القرن التاسع عشر أمام مأزق قلما لفت الانتباه. إذ افترض دعاة «الدولة القومية» أنها لن تكون قومية فحسب، بل «تقدمية» كذلك، بمعنى أنها ستكون قادرة على تطوير اقتصاد قابل للحياة، وتقانة، وتنظيم للدولة، وقوة عسكرية، أي أن تكون واسعة الرقعة بصورة كافية. وعليها كذلك أن تكون وحدة «طبيعية» من الوحدات اللازمة لتنمية مجتمع بورجوازي حديث، ليبرالي، تقدمي بالفعل. ويجب أن يكون «التوحيد» و«الاستقلال» من المبادئ التي تعتمد عليها، وإذا لم تتوافر الحجة التاريخية للتوحيد، كما كانت الحال في إيطاليا وألمانيا،

---

(7) انظر الفصل الرابع عشر من: Eric John Hobsbawm, *The Age of Revolution: Europe 1789-1848* (London: Weidenfeld and Nicolson, 1962).

فسيصار، قدر المستطاع، إلى وضعها في صيغة برنامج عمل. وليس ثمة أي دليل إطلاقاً على أن السلافيين البلقان اعتقدوا ذات يوم أنهم أجزاء أمة واحدة. غير أن منظري الدعوة القومية الذي ظهروا في النصف الأول من ذلك القرن إنما كانوا يفكرون بـ «إيليريا» (Illyria) موهومة أقرب إلى ما كان يدور بخلد شكسبير، وبدولة «يوغوسلافية» تجمع بين الصربيين، والكرواتيين، والسلوفينيين، والبوسنيين، والمقدونيين والآخرين الذين ما زالوا حتى الآن يعتقدون أن القومية اليوغوسلافية إنما تتعارض، إذا أردنا استخدام تعبير مخفف، ومشاعرَهم بوصفهم كرواتيين أو سلوفينيين أو غير ذلك.

لقد اقترح الداعية الأكثر فصاحة ومثالية لـِ «أوروبا الجنسيات» جيسيبي ماتزيني (1805 ـ 1872) خريطة لأوروبا النموذجية عام 1857[8]: وهي تتألف من أحد عشر اتحاداً فحسب من هذا النوع. ومن الواضح أن تصوره لـِ «الدولة القومية» كان يختلف كل الاختلاف عما كان يرمي إليه وودْرو ويلسون الذي أشرف على عملية منهجية لإعادة رسم الخريطة الأوروبية وفق مبادئ قومية في فرساي عام 1919/ 1920. وكانت أوروبا التي تصورها تتكون من ست وعشرين أو (إذا أضيفت إليها أيرلندا) سبع وعشرين دولة مستقلة ذات سيادة. ويمكن، وفق المعايير الوِلْسونية، وضع المبررات لإقامة بضع دول أخرى. وماذا بشأن الدول/ الأمم الصغيرة؟ إنها ببساطة ستدمج في دول قومية أخرى قابلة للحياة بصيغة فيدرالية أو غير ذلك، وستحتفظ بقدر من الاستقلال تتقرر درجته في وقت لاحق، مع أن هذا التصور فاته، على ما يبدو، أن يأخذ بالاعتبار ملاحظة ماتزيني بأن الرجل الذي اقترح الوحدة بين سويسرا وسافوي والتيرول الألمانية وكورنثيا وسلوفينيا، كان أبعد ما يكون عن اتخاذ موقف الناقد تجاه إمبراطورية

(8) ورد في: D. Mack Smith, *Il Risorgimento Italiano* (Bari: [n. pb.], 1968), p. 442.

الهابسبيرغ التي كانت تضرب بالمبادئ القومية عرض الحائط.

كانت الحجة الأبسط لمن جعلوا معنى الدولة القومية مرادفاً للتقدم هي إنكار طبيعة الأمة «الحقيقية» لدى الشعوب الصغيرة المتخلفة، أو القول إن التقدم سيحولها إلى مجرد كيانات هامشية ناشزة ملحقة بالأمم «الحقيقية» الأكبر حجماً، أو سيفضي بها إلى الانقراض الفعلي عبر استيعابها ضمن «ثقافة شعبية» (Kulturvolk). ولم يكن هذا القصور واقعياً على ما يبدو. فإن عضوية ألمانيا لم تمنع أهالي ماكلنبرغ من التحدث بلهجة أقرب إلى اللغة الهولندية منها إلى الألمانية الفصحى، وهي لهجة لا يفهمها البافاريون. كما أنها، في هذه الناحية، لم تمنع السلافيين اللوساتيين من القبول بدولة ألمانية أساساً (حتى الآن). كما أن وجود البريتونيين، وجانب من الباسك، والكاتالانيين، والفلمنكيين، ناهيك عن الناطقين بلهجة بروفنسال (Provençal)، ولهجة الـ «نعم» (Langue d'oc) [في جنوب فرنسا]، كان ينسجم تماماً وكونهم جزءاً من فرنسا. وقد تسبب أهل الألزاس في مشكلة، لأن دولة قومية كبيرة أخرى هي ألمانيا كانت تتشكك في ولائهم لها. بالإضافة إلى ذلك، كانت ثمة أمثلة أخرى على جماعات لغوية صغيرة كانت النخب المتعلمة فيها تتطلع إلى اليوم الذي تندثر فيه لغتها. وقد استسلم كثيرون من أهالي ويلز في أواسط القرن التاسع عشر لهذا الأمر، بل إن بعضهم رحبوا بانقراض لغتهم باعتباره وسيلة لتسهيل انتشار التقدم في بلد متخلف.

وانطوت هذه الحجج على عنصر قوي من الغبن، وربما على عنصر أقوى من المرافعة الدفاعية. فقد حتّم القدَر التاريخي على بعض الأمم ـ الكبيرة، «المتقدمة»، المستقرة، بما فيها شعوب هؤلاء الدعاة المنظرين، أن تسود أو، (على حد التعبير الدارويني الذي كان هؤلاء الدعاة يفضلون استعماله)، أن تنتصر في صراع البقاء؛ أما الأمم الأخرى فلم يكن ذلك مقدّراً لها. ولكن ينبغي ألا يفسر هذا الأمر بوصفه مؤامرة تدبرها بعض الأمم لقمع أخرى، مع أن أحداً لا

يستطيع أن يلوم الناطقين باسم الأمم المهملة إذا ذهبوا هذا المذهب. فقد كانت الحجج توجه ضد اللغات والثقافات الإقليمية داخل الأمة نفسها، وضد الغرباء على السواء. ولم تكن بالضرورة تتصور انقراضها بل خفض رتبتها من «لغة» إلى «لهجة». إن كافور لم ينكر على أهالي سافوي حقهم في استخدام لغتهم (الأقرب إلى الفرنسية منها إلى الألمانية) في إيطاليا الموحدة، وكان هو نفسه يتحدث بها حول أكثر الشؤون المحلية. إذ أصر، هو والقوميون الإيطاليون الآخرون، على أن تستخدم لغة واحدة، هي الإيطالية، للأغراض الرسمية والتعليمية، وأن تُترك اللغات الأخرى لتتدبر أمورها بنفسها. وكما حدث بالفعل في هذه المرحلة، لم يصرّ الصقليون والسردينيون على السواء على أن يكون لهم كيان منفصل، ومن ثم كان من الممكن إعادة تعريف مشكلتهم باعتبارها «نزعة إقليمية». ولم تصبح هذه المسألة مهمة من الوجهة السياسية إلا بعد أن طالب شعب صغير بكيان له، وذلك ما فعله التشيكيون عام 1848 عندما رفض الناطقون باسمهم دعوة الليبراليين الألمان بالمشاركة في برلمان فرانكفورت. فقد افترضوا، بحق، أن جميع المتعلمين التشيكيين يقرأون ويكتبون اللغة الألمانية، ويشاركون بالثقافة الألمانية العالية، ومن ثَمَّ فإنهم ألمان (وقد جانبوا الصواب هنا). فإن قُدرة النخبة التشيكية على التحدث باللغة التشيكية أيضاً والمشاركة في الثقافة المحلية مع الناس العاديين لم تكن لها أهمية تُذكر من الوجهة السياسية، شأنها شأن مواقف عامة الناس على العموم، والفلاحين بصورة خاصة.

عندما واجه الدعاة المنظرون الأيديولوجيون لـ «أوروبا القومية» التطلعات الوطنية للشعوب الصغيرة، كان أمامهم ثلاثة خيارات: فإما أن ينكروا شرعية هذه التطلعات، بل وجودها أصلاً، أو يختزلوها لتغدو مجرد حركات ترمي إلى تحقيق الحكم الذاتي الإقليمي، أو أن يقبلوا بها واقعاً لا يمكن إنكاره، ولكنه يستعصى على التنفيذ. وقد انتهج الألمان سبيل الخيار الأول مع بعض الشعوب مثل السلوفينيين،

والهنغاريين، والسلوفاكيين[9]. وسلك كافور وماتزيني سبيل الخيار الثاني تجاه الحركة الأيرلندية. ومن المفارقات اللافتة أنهما أخفقا في أن يُدخلا في السياق القومي الحركةَ الوطنيةَ الوحيدة التي لم يكن ثمة شك على الإطلاق في صلابة قاعدتها الجماهيرية. لقد كان السياسيون، بشتى صنوفهم، يتحفظون من اتخاذ الموقف الثالث تجاه التشيكيين الذين لم يكن من الممكن الاستهانة بحركتهم الوطنية بعد عام 1848، على الرغم من أنهم لم يطالبوا بالاستقلال التام. ذلك أن هؤلاء السياسيين لم يولوا على الإطلاق أي اهتمام لهذه الحركات، حيثما أمكنهم ذلك. وقد فات الأجانب أن يلاحظوا أن العديد من الدول «القومية» العريقة كانت، في واقع الأمر، متعددة القوميات (مثل بريطانيا، وفرنسا، وإسبانيا)، لأن الويلزيين، والإسكوتلنديين، والبريتونيين، والكاتالونيين لم يمثلوا أي مشكلة دولية أو ذات شأن (ربما باستثناء البريتونيين) على الصعيد السياسي الداخلي في بلدانهم.

II

وهكذا، كان ثمة فرق جوهري بين الحركات الرامية إلى إقامة الدول القومية من ناحية و«القومية» من جهة أخرى. إذ كانت الأولى برنامجاً لتشييد مبنى يدّعي أنه يقوم على أساس الثانية. ولا ريب في أن من اعتبروا أنفسهم ألماناً لم يكونوا يقصدون دولة ألمانية واحدة، أو دولة ألمانية من نوع محدد، ناهيك عن الدولة التي تضم جميع الألمان الذين

---

(9) يجب تمييز هذا الموقف عن موقف الثوريين الاجتماعيين الذين لم يولوا القومية أي أهمية خاصة، وفي هذه الفترة على الأقل، وبالتالي اتخذوا منها موقفاً عملياً. وبالنسبة لماركس، كانت القومية الهنغارية والبولندية عام 1848 ظاهرة حميدة، لأنها اصطفت إلى جانب الثورة. أما القومية التشيكية والكرواتية. فكانت ظاهرة سيئة لأنها، موضوعياً، وقفت موقفاً مناوئاً للثورة. غير أنه لا يمكننا أن ننكر أن وجهات النظر تلك كانت تنطوي على نزعة قومية تتميز بها الدول الكبرى. واتضحت في أجلى صورها لدى الثوريين الفرنسيين المغالين في نزعتهم التعصبية (وعلى رأسهم البلانكيون)، ولم يتحرر منها حتى فريدريخ إنجلز.

يعيشون في أرض محددة الحدود (أي يحدّها، كما كانت تقول الأغنية الوطنية آنذاك، نهر ميوس غرباً، ونهر ينمن شرقاً، ومضائق الدانمارك الحزام شمالاً، ونهر آديغي جنوباً. وكان بسمارك، من ناحيته، سيرفض الاعتراف بأن معارضته لبرنامج «ألمانيا الكبرى» تعني أنه لم يكن ألمانياً، ومن طبقة اليونكرز البروسية، وخادماً للدولة في آن معاً. لقد كان ألمانياً، لا قومياً ألمانياً، بل إنه لم يكن في أعماق نفسه من «صغار الألمان» القوميين، على الرغم من أنه هو الذي وحّد البلاد (التي استثنيت منها أجزاء من إمبراطورية النمسا كانت تابعة للإمبراطورية الرومانية المقدسة، ولكنها اشتملت على الأجزاء التي استولت عليها بروسيا من بولندا ولم تكن جزءاً منها على الإطلاق). وتمثل إيطاليا حالة من التفاوت الحاد بين القومية من جهة، والدولة القومية من جهة أخرى، بعد أن توحدت أغلب أراضيها في ظل ملك سافوي في الأعوام 1859/ 1860، 1866 و1870. إذ لم يكن هناك سابقة تاريخية بعد روما القديمة على إدارة واحدة تشمل كامل المنطقة الممتدة بين الألب وصقلية، وذلك ما وصفه ميترنيخ، بحق، بأنه «مجرد تعبير جغرافي». وقد أشارت التقديرات في أيام التوحيد عام 1860 إلى أن نسبة السكان التي كانت تتحدث اللغة الإيطالية فعلاً لأغراض الحياة الاعتيادية لم تكن تتجاوز اثنين ونصفاً في المئة. وكانت البقية تستخدم مصطلحات وتعبيرات مختلفة كل الاختلاف، حتى أن مديري المدارس الذين أرسلتهم الدول الإيطالية إلى صقلية في ستينيات القرن كانوا يُعتبرون، خطأً، من الإنجليز(10). وربما كانت نسبة أعلى من ذلك بكثير، ولكنها تمثل أقلية متواضعة، تعتبر نفسها إيطالية في المقام الأول. ولا عجب، إذاً، أن يهتف ماسّيمو دازيليو (Massimo d'Azeglio) (1792 ـ 1866) قائلاً: «لقد صنعنا إيطاليا؛ وبقي علينا أن نصنع الإيطاليين».

(10) Tullio de Mauro, *Storia linguistica dell'Italia unita* (Bari: [Editori Laterza], 1963).

على الرغم من ذلك، ظلت الحركات التي تمثل «الفكرة القومية»، على اختلاف طبائعها وبرامجها، تتسع وتتكاثر. ولم تكن في أغلب الأحيان، أو حتى على الدوام، تمثل ما أصبح، في أوائل القرن العشرين، يعتبر نموذجاً قياسياً (ومتطرفاً) للبرامج الوطنية التي تدعو إلى أن يتمتع كل «شعب»[11] بدولة تكون، بالضرورة، مستقلة تماماً، ومتجانسة لغوياً وجغرافياً، وعَلْمانية، وربما جمهورية/ برلمانية. إلا أنها كانت دائماً تتضمن تغييرات سياسية طموحة، بدرجة أو بأخرى، وذلك هو ما أسبغ عليها الطابع «القومي». وسنحاول الآن أن نلقي نظرة عليها، مع تحاشي استخدام مصطلحات شائعة في أيامنا هذه خارج سياقها التاريخي آنذاك، ومقاومة الخلط بين آراء الدعاة القوميين الأكثر صخباً، وما عبر عنه أتباعهم في فترات لاحقة.

وينبغي كذلك ألا نغفل عن الفرق الشاسع بين القوميتين القديمة والجديدة، اللتين لم تقتصر أولاهما على الأمم «التاريخية» التي لم تقم لها دول، بل شملت تلك التي قامت لها دول منذ عهد بعيد. تُرى، كم كانت درجة البَرْطَنة في مشاعر البريطانيين؟ إنها لم تكن عالية، على الرغم من الغياب النسبي لأي حركات تطالب بالحكم الذاتي لويلز وسكوتلندا في تلك المرحلة. وكانت هناك قومية إنجليزية، لكن لم تشارك فيها القوميات الصغيرة في الجزيرة. وكان المهاجرون البريطانيون إلى الولايات المتحدة يعتزون بجنسيتهم الأصلية، ويترددون بالتالي في التحول إلى مواطنين أمريكيين، غير أن الويلزيين والاسكتلنديين لم يشعروا بمثل هذا الولاء. وكانوا يفخرون بأصولهم الويلزية والاسكوتلندية بوصفهم مواطنين أمريكيين بقدر ما كانوا يعتزون بها

(11) تبين الصهيونية هذا الأمر بوضوح بغلوّها في ما تقدمت به من مطالب. ذلك أنها انطوت على وضع اليد على أرض، واختراع لغة، وعلْمنة البنى السياسية لشعب كانت وحدته التاريخية تستند بشكل حصري إلى ممارسة دين مشترك.

بوصفهم مواطنين بريطانيين، فتجنسوا لذلك بصورة أسرع. من ناحية أخرى، يطرح السؤال: كم كانت درجة الفَرْنَسة في مشاعر أبناء الأمة العظمى (La Grande nation)؟ إننا لا نعرف الإجابة. غير أن إحصاءات الهاربين من الجندية في وقت سابق من ذلك القرن توحي بأن أهالي بعض الأقاليم في الغرب والجنوب (ناهيك عن حال كورسيكا الخاصة) كانوا يعتبرون الخدمة العسكرية الإلزامية واجباً كريهاً لا مهمة وطنية يؤديها المواطن الفرنسي. وكان للألمان، كما نعلم، وجهات نظر مختلفة عن حجم الدولة الألمانية الموحدة المقبلة، وطبيعتها، وبنيتها. ولكن كم كان عدد المعنيين بأمر التوحيد أساساً؟ إن ثمة اتفاقاً عاماً على أن ذلك الأمر لم يكن يهم الفلاحين، حتى عام 1848 عندما كان الهمّ القومي هو محور الأنشطة السياسية. في تلك البلدان، كانت التوجهات القومية والوطنية قد بلغت درجة لا يمكن إنكارها أو الاستهانة بها، كما لا يمكن اعتبار شمولها وانسجامها أمراً مفروغاً منه.

غير أنه كان من الممكن اعتبارها أمراً مفروغاً منه لدى بقية الأمم، ولا سيما الصاعدة منها في أواسط القرن التاسع عشر، حيث كانت للدعاية والأسطورة اليد العليا. وقد جنحت الحركة «القومية» في تلك المناطق، بعد مرحلتها العاطفية والفولكلورية، إلى اتخاذ الطابع السياسي مع بروز جماعات كبيرة نوعاً ما من الكوادر التي كرست نفسها للدعوة لـ «الفكرة القومية»، ونشرت مجلات وطنية وأدبيات أخرى حول هذا الموضوع، ونظمت الجمعيات الوطنية في محاولة لإقامة المؤسسات التربوية والثقافية، وانخرطت، على نحو أكثر صراحة، في مختلف الأنشطة السياسية. غير أن الحركة كانت في تلك المرحلة تفتقر على العموم إلى أي مساندة جدية في أوساط الجماهير. وكانت تتألف، أساساً، من الفئات الواقعة في منتصف المسافة بين الجماهير عامةً من جهة، والطبقات البورجوازية والارستقراطية (حيثما وجدت)، وبخاصة بين المتعلمين مثل المدرسين، والشرائح الدنيا من رجال الدين، وبعض

أصحاب المتاجر والحرفيين الفنيين، ومن ارتفعت منزلتهم، قدر المستطاع، من أبناء الفلاحين المستخدمين في مجتمع تراتبي طبقي. وفي وقت لاحق، قدم إليهم الطلاب الوافدون من بعض الكليات ذات النزعة القومية، والمنتديات، والمدارس الثانوية طاقماً جاهزاً من المناضلين النشيطين. أما في الأمم «التاريخية» التي لم تكن بطبيعة الحال تحتاج إلى أكثر من إزالة الحكم الأجنبي لتبرز باعتبارها دولاً من جديد، فإن النخب المحلية ـ الوجهاء في هنغاريا وبولندا، وبيروقراطيي الطبقة الوسطى في النرويج ـ قدمت على الفور كوادر سياسية، وفي بعض الأحيان قاعدة أوسع للقومية[12]. وعلى العموم، تنتهي مرحلة القومية هذه بين 1848 وستينيات ذلك القرن في المناطق الشمالية، والغربية، والوسطى من أوروبا، على الرغم من أن كثيراً من شعوب البلطيق والسلاف كانوا قد شرعوا في دخولها.

ولأسباب واضحة، كان آخر المنخرطين في تلك الحركات الشرائح التقليدية، أو المتخلفة أو الفقيرة، العمال، والخدم، والفلاحون. وسلك هؤلاء السبيل الذي اختطته النخبة «المتعلمة». وقد ارتبطت، إلى حد ما، التنمية الاقتصادية والسياسية بمرحلة القومية الجماهيرية تلك، التي كانت تنشط، في العادة، بتأثير من المنظمات القومية الليبرالية ـ الديمقراطية التي ترعرعت في أحضان الطبقات الوسطى ـ إلا إذا واجهتها أحزاب عمالية أو اشتراكية مستقلة. وقد بدأت في الأراضي التشيكية بثورة عام 1848، وانتكست في الخمسينيات التي سادها الحكم المطلق، ثم تنامت بصورة واسعة خلال التقدم الاقتصادي السريع في الستينيات عندما غدت الأوضاع السياسية أكثر مواءمة. وفي ذلك الوقت، كانت البورجوازية التشيكية المحلية قد جمعت ما يكفي من الثروة لإقامة بنك تشيكي فاعل، وبعد ذلك بناء مؤسسات باهظة

---

(12) انظر الفصل السابع من: Hobsbawm, *The Age of Revolution: Europe 1789-1848.*

الكلفة، مثل المسرح الوطني في براغ (وقد أفتتح مبدئياً عام 1862). وفي هذا السياق، أخذت مؤسسات ثقافية جماهيرية مثل أندية سوكول (Sokol) المدرسية (1862)، تغطي أنحاء الريف كله، كما بدأ تنظيم الحملات السياسية، بعد اتفاقية التفاهم النمساوية ـ الهنغارية، في سلسلة من المسيرات الضخمة في الهواء الطلق ـ وقد نُظّمت بين عامي 1868 ـ 1871[13] مئة وأربعون مسيرة من هذا النوع، شارك فيها مليونان ونصف المليون من التشيكيين. وإن دلّ ذلك على شيء، فإنه يدل على عنصريْ الجدة و«العولمة» الثقافية اللذين تميزت بهما الحركات الجماهيرية الوطنية. وحيث إن التشيكيين لم يكن لديهم اسمُ لمثل هذه الأنشطة، فقد استعاروا لها مصطلح «اجتماع» من الحركة الأيرلندية التي حذوا حذوها[14] وسرعان ما تم ابتكار تعبير تقليدي مناسب بالعودة إلى تاريخ الهوسيين في القرن الخامس عشر الذي يصور المثال الطبيعي للكفاح الوطني التشيكي. واستخدم القوميون الكرواتيون هذا المصطلح، وهو «تابور»، لوصف حشودهم ومسيراتهم، مع أنه لم تكن للهوسيين صلة تاريخية بهم .كان هذا النوع من القومية الجماعية جديداً، ومتميزاً كل التميز عن قومية النخبة أو الطبقة الوسطى في الحركات الإيطالية والألمانية، بيد أن نوعاً جديداً آخر من القومية الجماعية كان قد برز منذ أمد بعيد، وهو أكثر التصاقاً بالتقاليد، وأكثر ثورية واستقلالاً عن الطبقات الوسطى المحلية؛ ذلك أن هذه الفئات لم تكن مهمة من الوجهة الاقتصادية. ولكن هل يمكننا أن نطلق صفة «القومية» على حركات

---

(13) J. Kořalka, «Social Problems in the Czech and Slovak National Movements,» in: Commission internationale d'histoire des mouvements sociaux et des structures sociales, *Mouvements nationaux d'indépendance et classes populaires aux XIXe et XXe siècles en occident et en orient*, 2 vols., [sous la direction d'Ernest Labrousse] (Paris: A. Colin, 1971), vol. 1, p. 62.

(14) استعار الفرنسيون والإسبان كذلك مصطلح «اجتماع» لوصف الحشود الجماعية للطبقة العاملة. إلا أن التعبير، في تلك الحال، مستمد من التجربة الإنجليزية.

التمرد التي قام بها الفلاحون وسكان الجبال ضد الحكم الأجنبي، ولم يكن ثمة ما يربط بينهم غير إحساسهم بالاضطهاد، والرُهاب من الأجانب، وغير تمسكهم بالتقاليد القديمة، والإيمان العميق، والتزامهم الغامض بهويتهم الإثنية؟ والجواب هو أن بوسعنا أن نفعل ذلك عندما يصبحون، لسبب أو لآخر، جزءاً من الحركات الوطنية الحديثة. وقد نضع ذلك موضع الشك إذا ألقينا نظرة على الأوضاع في الجنوب الشرقي من أوروبا، حيث دمرت مثل هذه الانتفاضات أطرافاً عديدة من الإمبراطورية التركية، ولا سيما في سبعينيات ذلك القرن، مع الإقرار بأنها أسفرت عن قيام دول مستقلة (مثل رومانيا، وبلغاريا) أضفت على نفسها الطابع الوطني. إننا نستطيع، في أفضل الحالات، أن نتحدث عن طراز بَدْئي من القومية، كذلك الذي شاع بين الرومانيين، الذين كانوا يعون الفرق بين لغتهم ولغات من كان يحيطهم ويختلف عنهم من السلافيين، والهنغاريين، والألمان؛ أو بين السلافيين، الحريصين على الحفاظ على «لمسة سلافية» حاول المثقفون والسياسيون تحويلها إلى أيديولوجية «سلافية كلية شاملة» خلال تلك الفترة[15]؛ وربما كانت مشاعر التضامن بين المسيحيين الأرثوذكس منهم تجاه إمبراطورية روسيا الأرثوذكسية العظيمة هي التي أذكت هذه الروح في تلك الفترة .

كان من بين هذه الحركات، حركة ثورية، بلا شك، هي

---

(15) استهوت الدعوة السلافية كلاّ من المحافظين وسياسيي الإمبراطورية في روسيا، ممن عللتهم هذه النزعة بتوسيع النفوذ الروسي، كما استهوت الشعوب السلافية المستضعفة في إمبراطورية الهابسبيرغ، الذين كانوا يمنون النفس بحليف قوي، وربما منحتهم، وإن بصورة غامضة، الأمل في إقامة دولة كبيرة «صحيحة» بدلاً من مجموعة من الدويلات الصغيرة التي لا تبدو قابلة للحياة. (ويمكننا إهمال الروح السلافية الثورية الديمقراطية التي دعا إليها الفوضوي باكونين لأنها يوتوبية). وعلى هذا الأساس، واجهت معارضة قوية من جانب اليسار، الذي كان يعتبر روسيا الحصن الحصين للرجعية الدولية.

الأيرلندية المسماة الأخوّية الجمهورية الأيرلندية (الفينيان). التي ما زال الجيش الجمهوري الأيرلندي المنبثق عنها قائماً حتى الآن. وقد تحدرت هذه المنظمة وهي الأطول عمراً بين مثيلاتها، من الأخوّيات الثورية السرية التي نشأت قبل عام 1848. ولم يكن الدعم الجماعي الفلاحي للسياسيين الثوريين أمراً جديداً، إذ أثار الحفيظة لدى أقل الناس اهتماماً بالسياسة تضافر الغزو الأجنبي، والفقر، والاضطهاد، وطبقة من الملاّك الأنجلو ـ بروتستانت على الأغلب، ممن فُرضوا على الفلاحين الأيرلنديين ـ الكاثوليك. وفي النصف الأول من القرن التاسع عشر، كان زعماء هذه الحركات الجماهيرية ينتمون إلى الطبقة الوسطى الأيرلندية (الصغيرة)، وبدعم من المؤسسة الوطنية الوحيدة الفاعلة آنذاك، وهي الكنيسة، كانوا يرمون إلى تحقيق تسوية معتدلة مع الإنجليز. غير أن الجديد لدى الفينيانيين ـ الذين ظهروا بهذا الاسم في أواخر خمسينيات ذلك القرن، هو أنهم كانوا مستقلين كل الاستقلال عن معتدلي الطبقة الوسطى؛ وأنهم استمدوا العون من الجماهير الشعبية، ومن قطاع من الفلاحين، على الرغم من الموقف العدائي الذي وقفته الكنيسة منهم؛ وأنهم كانوا أول من وضع برنامجاً يهدف إلى تحقيق الاستقلال الكامل عن إنجلترا بالنضال المسلح. وعلى الرغم من اسمهم المشتق من ماضي أيرلندا القديم الحافل بالأساطير البطولية، فإن أيديولوجيتهم لم تكن تقليدية على الإطلاق، مع أن نزعتهم القومية العَلْمانية، بل المعادية للكنيسة، لم تكن قادرة على طمس حقيقة واقعية هي اعتقاد الفينيانيين الأيرلنديين بأن معيار الوطنية كان (وما زال حتى الآن) يتمثل في الكاثوليكية. وكان تركيزهم المشدد على تحقيق جمهورية أيرلندية عن طريق النضال المسلح قد حلّ مكان برنامج للتنمية الاجتماعية والاقتصادية وحتى السياسية المحلية، كما أن الأساطير البطولية التي حيكت حولهم كثوار مسلحين وشهداء كانت، حتى الآن، من القوة بحيث حالت دون قيام أي طرف آخر بوضع برنامج بديل. وتلك هي «التقاليد الأيرلندية» التي استعادت حيويتها منذ

سبعينيات القرن العشرين، وبرزت مجدداً في حرب ألْسْترْ الأهلية، وفي الجيش الجمهوري الأيرلندي (المؤقت). وينبغي ألا تساورنا أي أوهام حول هذا الأمر لمجرد أن الفينيانيين مستعدون للتحالف مع الثوريين الاشتراكيين، واستعداد هؤلاء للإقرار بطبيعة الفينيانين الثورية[16].

غير أن علينا كذلك ألا نقلل من عنصر الجدة، والقيمة التاريخية، لحركة استمدت تمويلها من جماهير العمال الأيرلنديين الذين كانت المجاعة وكراهيتهم لإنجلترا تدفعهم إلى الهجرة إلى الولايات المتحدة، وكان المنتسبون إليها هم من البروليتاريين الذين هاجروا إلى الولايات المتحدة وإنجلترا ـ وقلما كانوا من العمال الصناعيين في ما أصبح جمهورية أيرلندا الحالية ـ ومن العمال والعمال الصناعيين الشباب في المعقل القديم لـ «الإرهاب الزراعي» الأيرلندي؛ وكانت كوادر الحركة تضم رجالاً من أمثال هؤلاء من الشرائح الدنيا لعمال الياقات البيض الثوريين، مثلما كان زعماؤها يكرسون حياتهم لخدمة الانتفاضة. وقد مهدت هذه الحركة السبيل لقيام الحركات الوطنية الثورية في البلدان الناقصة النمو في القرن العشرين. وكانت تفتقر إلى نواة تنظيمية اشتراكية ثورية، بل إنها لم تستلهم أي أيديولوجية اشتراكية من النوع الذي جمع التحرر الوطني والتحول الاجتماعي في قوة واحدة كاسحة في القرن العشرين. ولم تكن ثمة اشتراكية في أي مكان، ناهيك عن غياب تنظيم اشتراكي في أيرلندا. ولم يحقق الفينيانيون الذين كانوا ثوريين اجتماعيين، ومنهم مايكل دافيت (Michael Davitt) (1846 ـ 1906)، أي نجاح باستثناء الإعلان، صراحة، في «رابطة الأرض» عن العلاقة التي كانت ضمنية، حتى ذلك الحين، بين القومية الجماعية والسخط الجماهيري الزراعي. بل إن ذلك لم يتضح إلا في نهاية المرحلة التي نعالجها هنا، خلال الكساد الزراعي الأكبر في أواخر الستينيات والثمانينيات من

(16) كان ماركس يدعمهم بقوة، وكانت له مراسلات مع الزعماء الفينيانيين.

القرن التاسع عشر. لقد كانت الفينيانية قومية جماهيرية في حقبة الليبرالية الظافرة. ولم يكن بمقدورها أن تفعل أكثر من أن ترفض إنجلترا وتطالب بالاستقلال التام من خلال الثورة لشعب مضطهد، آملةً في أن يفضي ذلك، على نحو ما، إلى حل مشكلات الفقر والاستغلال كافة. غير أنها لم تكن فاعلة حتى في هذا المضمار. على الرغم من تفاني الفينيانيين وبطولاتهم، فإن انتفاضاتهم المبعثرة (1867)، والغزوات (مثل غزو الولايات المتحدة لكندا) قد جرت بالمستوى المعهود من العجز وعدم الكفاءة، كما أن الضربات المثيرة التي وجهوها، شأنها في مثل هذه العمليات، لم تكن أكثر من ثورات دعائية، وسيئة في أكثر من مناسبة. صحيح أنهم فجروا الطاقات التي أدت، في وقت لاحق، إلى تحقيق الاستقلال للجانب الأكبر من أيرلندا الكاثوليكية، غير أنهم، باقتصارهم على ذلك، تركوا مستقبل هذا الكيان الأيرلندي لتتلقف إرثهم هذا أيدي المعتدلين من الطبقة الوسطى، والمزارعين الأثرياء، وتجار البلدات الصغيرة في بلد زراعي صغير.

ومع أن الحالة الأيرلندية لم تكن نسيجَ وحدِها، فلا بد من الإقرار بأن القومية غدت في تلك المرحلة قوة جماهيرية متعاظمة، على الأقل في البلدان التي يسكنها البيض. وعلى الرغم من أن **البيان الشيوعي** كان على شيء من الواقعية عندما بَيَّن، خلافاً لما يُفترض أحياناً، أن «العمال لا وطن لهم». ركز، في تلك الأثناء، على تعميق الوعي السياسي في أوساط الطبقة العاملة، لأن تقاليد الثورة كانت، حتى ذلك الحين، وطنية (كما في فرنسا)، ولأن زعماء الحركات العمالية الجديدة ودعاتها كانوا، هم أنفسهم، معنيين بصورة مُعمقة بالمسألة الوطنية (مثلما كان الحال في كل مكان عام 1848). ولم يكن البديل للوعي السياسي «الوطني» بالممارسة، هو «أممية الطبقة العاملة»، بل كان وعياً سياسياً فرعياً يعمل في نطاق أصغر بكثير من مجال الدولة القومية، أو لا علاقة له به. والرجال والنساء الذين واجهوا، في معسكر اليسار، الخيار بين الولاء الوطني والولاء فوق ـ الوطني، مثل قضية البروليتاريا الأممية،

كانوا قلة قليلة. وكانت «أممية» اليسار تعني، في واقع الممارسة الفعلية، التضامن والمساندة لمن ناضلوا في سبيل القضية نفسها في دول أخرى، أو الاستعداد للمشاركة في النضال حيثما كانوا، كما كانت الحال بالنسبة للاجئين السياسيين. غير أن هذا الأمر، كما يتجلى في أمثلة غاريبالدي، وكلوسِريه في كومونة باريس (الذي ساعد الفينيانيين في أمريكا) والعديد من المناضلين البولنديين، لم يكن يتعارض مع المعتقدات القومية المتأججة.

وربما كان ذلك يعني، من جهة أخرى، رفض القبول بتعريفات «المصالح الوطنية» التي تضعها الحكومات وأطراف أخرى. إلا أن الاشتراكيين الألمان والفرنسيين الذين انضموا عام 1870 إلى الاحتجاج على حرب «الإخوة الأعداء» الفرنسية البروسية لم يغفلوا عن النزعة القومية **كما تبدت لهم**، فقد استمدّت كومونة باريس الدعم من المشاعر الوطنية اليعقوبية في باريس، بقدر ما استمدتها من شعارات الانعتاق الاجتماعي، كما أن الديمقراطيين الاجتماعيين الماركسيين الألمان في ليبْكنِخت وبيبل استمدوا المساندة من جاذبيتهم لدى القوميين الراديكاليين الديمقراطيين عام 1848 ضد النسخة البروسية للبرنامج الوطني. وكان ما يثير حفيظة العمال الألمان هو النزعة الرجعية، لا المشاعر الوطنية الألمانية. ومن أبرز مظاهر هذه النزعة الرجعية أن الديمقراطيين الاجتماعيين كانوا يسمّون (vaterlandlose Geseller) (أي الزملاء الذين لا وطن لهم)، ما حرمهم من الفرصة للظهور بمظهر العمال، والألمان الطيبين. وكان من المستحيل بالطبع أن يظل الوعي السياسي من دون تعريف، بطريقة أو بأخرى، على الصعيد الوطني، وكانت البروليتاريا والبورجوازية موجودتين، ولكن مفهومياً فحسب، بوصفهما واقعاً دولياً. وقد وجدت في الواقع كتجمع لجماعات عرفت عن طريق الدولة القومية لكل منها أو الفوارق الإثنية/ اللغوية بينها، مثل بريطانيا، أو فرنسا، أو في المناطق الأخرى المتعددة القوميات، مثل ألمانيا، وهنغاريا، أو السلاف. وبقدر ما كان يفترض أن تنسجم نشأة

الأمة أو الدولة مع أيديولوجية من أقاموا المؤسسات وسيطروا على المجتمع المدني، فإن السياسة بمنطق الدولة كانت تعني السياسة بمنطق الأمة.

III

ومع ذلك، ومهما كانت قوة المشاعر الوطنية، والولاءات (حالما تتحول الأمم إلى دول أو عكس ذلك)، فإن «الأمة» لم تكن تنامياً عفوياً تلقائياً، بل كانت نتاجاً صُنعياً. ولم تكن كذلك مجرد ابتداع تاريخي، مع أنها جسدت الخصائص التي شارك فيها أعضاء بعض الجماعات الإنسانية المغرقة في القدم، أو اعتقدوا أنهم يشاركون فيها، قُبالة «الأجانب». وكان من الضروري بناء هذا المنتَج. من هنا كانت الأهمية القصوى للمؤسسات التي تستطيع أن **تفرض** التوافق الوطني؛ وذلك يعني الدولة في المقام الأول، وبخاصة عبر نظام التعليم، والاستخدام، والخدمة العسكرية (في البلدان التي تطبق التجنيد الإجباري)[17]. وقد اتسع النظام التربوي التعليمي في الدول المتقدمة على نحو كبير خلال تلك الفترة، وعلى المستويات كلها، وظل عدد الطلبة الجامعيين آنذاك متواضعاً بالمقاييس الحديثة. وإذا وضعنا طلبة اللاهوت جانباً، فإن ألمانيا كانت في أواخر سبعينيات القرن في الطليعة، وكان فيها نحو سبعة عشر ألف طالب، تليها بعد ذلك بكثير إيطاليا وفرنسا بما يتراوح بين تسعة آلاف إلى عشرة آلاف طالب في كل منهما، ثم النمسا بنحو ثمانية آلاف[18]. ولم يزدد عدد الطلبة إلا تحت ضغوط قومية، وإلا في

---

(17) عُمل بالتجنيد الإجباري في فرنسا، وألمانيا، وإيطاليا، وبلجيكا، والنمسا ـ الهنغارية.

(18) J. Conrad, «Die Frequenzverhältnisse der Universitäten der hauptsächlichen Kulturländer,» *Jahrbücher für Nationalökonomie und Statistik*, 3 rd Ser., vol. 1 (1891), pp. 376 ff.

الولايات المتحدة، حيث كانت المؤسسات المختصة كلياً بالدراسات العليا على وشك التكاثر والتضاعف[19].

واتسع التعليم الثانوي في أوساط الطبقة الوسطى، على الرغم من أن هؤلاء (شأنهم شأن البورجوازية المتفوقة التي قُدِّر لهم أن يكونوا منها) كانوا أشبه بالمؤسسة النخبة، إلا، مرة أخرى، في الولايات المتحدة، حيث كانت «المدرسة الثانوية» العامة تشهد بداية مسيرتها الديمقراطية الظافرة. (إذ لم يكن ثمة إلا مئة منها عام 1850). وفي فرنسا، ارتفعت نسبة المنتسبين إلى المدارس الثانوية من واحد من خمسة وثلاثين (1842) إلى واحد من عشرين، غير أن خريجي الدراسة الثانوية ـ الذين بلغ معدل عددهم خمسة آلاف وخمسمئة في السنة ـ كانوا يمثلون واحداً من أصل خمسة وخمسين أو ستين من المسجلين في المدارس، مع أن هذه النسبة كانت أفضل من سابقتها في أربعينيات القرن حين كانت واحداً من كل ثلاثة وتسعين[20]. وكانت معظم البلدان تقع في نقطة ما بين المرحلة قبل التعليمية تماماً والأخرى الحصرية مثل بريطانيا التي كان خمسة وعشرون ألفاً من الأولاد فيها يتلقون الدراسة في مئتين وخمسة وعشرين معهداً خاصاً تماماً سميت، خطأً، «المدارس العامة»، وكذلك ألمانيا المتعطشة إلى التعليم التي كانت الجمنازات (gymnasia) فيها تضم ربع مليون تلميذ في ثمانينيات ذلك القرن.

إلا أن التقدم الكبير حدث في المدارس الابتدائية التي كانت، بالاتفاق العام، لا تستهدف تعليم مبادئ القراءة والكتابة والحساب فحسب، بل الأهم من ذلك، وهو تلقين التلاميذ القيمَ المجتمعية

---

(19) من جملة الجامعات الثماني عشرة التي أسست بين الأعوام 1849 و1875. كانت تسع في ما وراء البحار (خمس في الولايات المتحدة، واثنتان في أستراليا، وواحدة في كل من الجزائر وطوكيو)، بالإضافة إلى خمس في أوروبا الشرقية (ياسي، بوخارست، أوديسا، زغرب، وتزيرنوفيتس). يضاف إلى ذلك مؤسستان متواضعتان في بريطانيا.

(20) أشكر الدكتور ر. أندرسون (R. Anderson) على هذه المعلومات.

(الأخلاق، والانتماء الوطني . . . إلخ). وكان ذلك هو القطاع التعليمي الذي أهملته الدولة العلْمانية في الماضي، وارتبط التوسع فيه ارتباطاً وثيقاً بإقبال الجماهير على الانخراط في العمل السياسي؛ وتجلى ذلك في إنشاء نظام التعليم الابتدائي الحكومي في بريطانيا بعد ثلاث سنوات من إصدار قانون الإصلاح عام 1867، والتوسع الكبير في مثل ذلك النظام خلال العقد الأول من الجمهورية الثالثة في فرنسا. وكان التقدم في هذا المضمار مدهشاً بالفعل، خلال الفترة الممتدة بين عام 1840 وثمانينيات ذلك القرن، ارتفع عدد سكان أوروبا بنسبة 33 في المئة، غير أن عدد الأطفال الملتحقين بالمدارس فيها ارتفع بمعدل مئة وخمسة وأربعين في المئة. وحتى في بروسيا الحافلة بالمدارس، ازداد عدد المدارس الابتدائية بما ينيّف على خمسين في المئة بين الأعوام 1843 و1871. ولا تُعزى الزيادة في أعداد المسجلين في المدارس في إيطاليا إلى التخلف الذي كان ذلك البلد يعانيه قبل تلك الفترة، لقد ارتفعت الأعداد بنسبة أربعمئة وستين في المئة. وخلال السنين الخمس عشرة التي تلت، تضاعف عدد التلاميذ في المدارس الابتدائية مرتين.

وكانت هذه المؤسسات في الواقع بالغة الأهمية في الدول القومية الجديدة، فمن خلالها وحدها أصبحت «اللغة القومية» (التي كانت قد بنيت قبل ذلك بجهود خاصة) هي اللغة المكتوبة والمحكية بالفعل في أوساط الناس، وعلى الأقل لأغراض معينة[21]. من هنا، كانت أيضاً الأهمية البالغة للنضال الذي خاضته الحركات الوطنية لنيل «الاستقلال الثقافي»، أي السيطرة على المرافق المختصة بهذا الأمر في مؤسسات الدولة من خلال استخدام اللغة القومية في التعليم في المدارس وفي المعاملات الإدارية على سبيل المثال.

---

(21) إن «وسائل الإعلام»، التي اقتصرت في تلك الأيام على الصحافة، لم تكتسب هذه الصفة، إلا بعد أن توفر لها الجمهور المتعلم القادر على استخدام اللغة الفصحى.

لم يكن من شأن هذه القضية أن تؤثر في جمهرة الأميين الذين تعلموا لهجاتهم من أمهاتهم، ولا في أقليات الشعب التي اندمجت، بالجملة وتكيفت مع اللغة السائدة في أوساط الطبقة الحاكمة، فقد رضي اليهود الأوروبيون بالمحافظة على لغاتهم الأصلية، وهي اليديش المشتقة من الألمانية القروسطية، واللادينو المستمدة من الإسبانية القروسطية - باعتبارها (Mame-Loschen) (اللغة/ اللسان الأم) للاستعمال البيتي، والتواصل مع جيرانهم من الجماعات الأخرى باللغة التي تقتضيها الحاجة. وإذا ما تحولوا إلى بورجوازيين، يتخلون عن لغتهم القديمة ويستعيضون عنها بلغة الأرستقراطية والطبقة الوسطى حولهم، سواء أكانت الإنجليزية أم الفرنسية، أم البولندية، أم الروسية، أم الهنغارية، أم، بصورة خاصة، الألمانية[22]. غير أن اليهود لم يكونوا قوميين في تلك المرحلة. وقد ترتب على إخفاقهم في إيلاء أهمية للغة «وطنية»، وإخفاقهم كذلك في حيازة أرض وطنية، أن كثيرين منهم أخذوا يشكّون في إمكانية تحولهم إلى «أمة». من جهة أخرى، كانت هذه المسألة قضية حيوية للطبقة الوسطى وللنخب المتعلمة الطالعة من أوساط الشعوب المتخلفة أو المهمشة، فقد كانت هذه هي الشرائح التي يتولاها السخط إزاء سهولة وصول فئات تحظى بالامتيازات إلى المناصب المحترمة المهمة التي يحصل عليها الناطقون باللغة «الرسمية»؛ وأثار حفيظتهم أن يحدث ذلك حتى في الحالات (الشبيهة بحالة التشيكيين)، التي كانوا فيها، بحكم تمكنهم من لغتين بالضرورة، أحق بالتقدم الوظيفي في بوهيميا من الألمان الناطقين بلغة واحدة. ولماذا يتعين على الكرواتي أن يتعلم الإيطالية، وهي لغة أقلية صغيرة، ليصبح ضابطاً في الجيش النمساوي؟

---

(22) نشأت في أواسط القرن التاسع عشر حركة ترمي إلى تطوير لغتي اليديش (Yiddish) واللادينو (Ladino) كلتيهما باعتبارهما لغتين أدبيتين فصيحتين. وتولت هذا الأمر في وقت لاحق الحركات الثورية (الماركسية)، لا القومية اليهودية (الصهيونية).

ومع تكوّن الدول القومية، وتضاعف المناصب والمهن العامة المرتبطة بالتقدم والتمدن، وانتشار التعليم على نطاق أوسع، وفوق ذلك تحضّر الشعوب الريفية جراء الهجرة، بدأت مظاهر السخط هذه تجد أصداء لها بصورة عامة. وفي المدارس والمؤسسات، كان فرض لغة واحدة للتعليم فرضاً لثقافة محددة، وجنسية محددة. ولم يكن ذلك أمراً ذا بال في مناطق الاستيطان المتجانس، إذ أقر الدستور النمساوي لعام 1867 أن يكون التعليم الابتدائي بـ «لغة البلد». ولكن لماذا يتعين على السلوفيني أو التشيكي المهاجر إلى مدينة ألمانية أن يصبح ألمانياً، ليتسنى له تلقي العلم؟ فطالب هؤلاء بحقهم في أن تكون لهم مدارسهم حتى ولو كانوا من الأقليات. ولماذا يتعين على التشيكيين والسلوفينيين في براغ أو في ليوبليانا (لايباخ)، بعد أن حولوا الألمان من أغلبية إلى أقلية صغيرة، أن يتحملوا أسماء الشوارع وتعليمات البلدية بلغة أجنبية؟ لقد كانت سياسات النصف النمساوي من إمبراطورية الهابسبيرغ من التعقيد بحيث ألزمت الحكومة بالتفكير في سياق متعدد القوميات. ولكن كيف سيكون الأمر لو استخدَمت حكومات أخرى التدريس، وهو السلاح الأقوى لتشكيل الأمم التي تمثلها، من أجل القيام بعملياتِ تَمْجير، أو أَلْمنةٍ، أو طَلْينةٍ منظمة؟ إن مفارقات القومية تكمن في أن تشكيل الأمم التي تنطلق منها إنما يخلق، بصورة تلقائية، قومية معاكسة لأولئك الذين أُرغموا على الاختيار بين الاندماج والانصهار من جهة، والقبول بمرتبة دونية من جهة أخرى.

بيد أن عصر الليبرالية لم يستوعب هذه المفارقة. والواقع أن الليبرالية لم تفهم «مبدأ الجنسية/المواطنة» الذي أقرته واعتبرت نفسها تجسيداً وسنداً نشيطاً له. ولا شك في أن المراقبين المعاصرين لتلك الفترة كانوا على حق عندما افترضوا، أو تصرفوا كما لو كانت الأمم والقومية حتى ذلك الحين مادة هلامية طيّعة لا شكل لها، فقد كانت الأمة الأمريكية، على سبيل المثال، تقوم على الافتراض بأن الملايين العديدة من الأوروبيين، بمجرد هجرتهم عبر المحيط، سرعان ما يتخففون تماماً

من ولائهم السياسي لأوطانهم، ولن يطالبوا بأي مكانة رسمية للغاتهم وثقافاتهم الأصلية. ولن تكون الولايات المتحدة (أو البرازيل أو الأرجنتين) بلداً متعدد القوميات، بل ستستوعب المهاجرين وتدمجهم في الأمة الأمريكية. وذلك هو ما حدث في تلك الفترة، مع أن جماعات المهاجرين لم تفقد هويتها وتنصهر في «بوتقة» العالم الجديد، وبقيت أو حتى أصبحت أكثر وعياً واعتزازاً بكونها أيرلندية، أو ألمانية، أو سويدية، أو إيطالية أو غير ذلك. وقد تكون جماعات المهاجرين قوى وطنية مؤثرة في بلدانها الأصلية، مثلما كان الأيرلنديون الأمريكيون في الساحة السياسية في أيرلندا؛ غير أن لهم، في الوقت نفسه، أهمية بالغة في الولايات المتحدة، ولا سيما بالنسبة للمرشحين في الانتخابات البلدية. كما أن الألمان في براغ أثاروا مشكلات سياسية بعيدة الأثر لإمبراطورية الهابسبيرغ؛ وذلك ما لم يفعله الألمان في سنسيناتي أو ميلوكي في الولايات المتحدة.

من هنا، كانت القومية تبدو قضية يمكن التعامل معها بيسر في إطار الليبرالية البورجوازية التي كانت تنسجم وإياها على العموم. وكان من المعتقد أن عالَماً من الأمم يمكن أن يكون عالَماً ليبرالياً، وأن عالماً ليبرالياً من هذا النوع سيتألف من أمم شتى. غير أن المستقبل أثبت أن العلاقة بين الطرفين لم تكن بهذه البساطة.



الفصل السادس

قوى الديمقراطية

على البورجوازية أن تعلم أن قوى الديمقراطية قد تنامت، جنباً إلى جنب معها، خلال الإمبراطورية الثانية. وهي ستجد هذه القوى صلبة وراسخة إلى حد سيجعل من الجنون تجديد الحرب ضدها.

هنري ألان تارْغيه، 1868[1].

مثلما أن تقدم الديمقراطية هو محصلة للتنمية الاجتماعية الشاملة، إن المجتمع المتقدم، في الوقت الذي يفوز فيه بنصيب أكبر من السلطة السياسية، فإنه يحمي الدولة في الوقت نفسه من المغالاة في الديمقراطية. وإذا سادت الأخيرة في أي مكان لبعض الوقت، فإنه سيجري كبح هذا الغلوّ المتطرف.

السير ت. إرسكين ماي، 1877[2].

---

(1) François-Henri-René Allain-Targé, *Déficits, 1852-1868* (Paris: Le Chevalier, 1868), p. 25.

(2) Thomas Erskine May, *Democracy in Europe, a History*, 2 vols. (London: Longmans, Green and Co, 1877), vol. 1, p. LXXI.

I

إذا كانت القومية قوة تاريخية أقرت بها الحكومات، فإن «الديمقراطية»، أو الدور المتعاظم لعامة الناس في شؤون الدولة، كانت هي القوة الأخرى. وكانت القوتان وجهين لحقيقة واحدة، لأن الحركات القومية في تلك الفترة أصبحت حركات جماهيرية. ومن المؤكد أن الزعماء القوميين في تلك الفترة كانوا يعتبرون هاتين القوتين متطابقتين كل التطابق. غير أن قطاعات واسعة من الناس العاديين مثل الفلاحين، ظلت، كما رأينا، غير متأثرة بالحركة القومية، في واقع الممارسة العملية، وبخاصة في البلدان التي كانت مشاركتها السياسية فيها تؤخذ على محمل الجد. وبرز مثل هذا الموقف فيما كانت أوساط الشعب الأخرى، ولا سيما الطبقة العاملة الجديدة تضع المصالح الطبقية المشتركة على الصعيد العالمي، نظرياً على الأقل، في مرتبة تعلو على الانتماءات القومية. ومن وجهة نظر الطبقات الحاكمة، وفي الأحوال كلها، لم تكن القضية الأساسية ما تعتقد به «الجماهير»، بل تحول هذه المعتقدات إلى قوة يُحسب حسابها في الساحة السياسية. وكانت هذه الجماهير، بحكم التعريف، كثيرة العدد، وجاهلة، وخطيرة؛ وزادها خطراً ميلها الجاهل لتصديق ما تشاهده بأم أعينها، ومؤداه أن حكامها لا يأبهون لما تُعانيه الجماهير من بؤس، وأن المنطق البسيط يقتضي أن تقوم الحكومات بخدمة مصالحها في المقام الأول لأنهم تمثل أغلبية الشعب.

غير أنه اتضح بصورة مطردة أن على الأنظمة السياسية في البلدان المتقدمة والصناعية أن تفسح المجال لأولئك الناس، إن آجلاً أو عاجلاً. واتضح كذلك أن الليبرالية التي شكلت الأيديولوجية الأساسية للعالم البورجوازي لم تكن لها الدفاعات النظرية اللازمة لحمايتها من تلك التطورات الطارئة، فقد كان الشكل المُميز لتنظيمها السياسي هو الحكم التمثيلي عبر هيئات منتخبة لا تمثل المصالح أو الكتل الاجتماعية (كما

هي الحال في الدول الإقطاعية)، بل تجمعات من الأفراد الذين يتمتعون، قانونياً، بالمساواة من حيث المكانة، والمصلحة الخاصة، والحرص، بل حتى بدرجة معينة من التفكير السليم توحي لمن يتربعون على القمة بأن جميع الناس ليسوا متساوين في قدرتهم على اتخاذ القرار بشأن قضايا الحكم الكبرى؛ أي أن الأميين أقل قدرة من خريجي الجامعات، والمؤمنين بالخرافات من المستنيرين، والفقراء العاجزين ممن أثبتوا قدرتهم على أنماط السلوك العقلاني عن طريق تراكم المُلْكيّة. بيد أن هذه الحجج، علاوة على كونها غير مقنعة، كانت تنطوي على ثغرتين أساسيتين بالنسبة إلى من كانوا في القاع، ما عدا الأكثر محافظةً بينهم، فالمساواة القانونية لم تستطع تبيان أوجه التمايز تلك من الوجهة النظرية. والأمر الأكثر أهمية إلى حد بعيد هو تعذر تطبيقها بالممارسة، لأن الحراك الاجتماعي والتقدم في مجال التعليم، وهما من أساسيات المجتمع البورجوازي، قد محَيا الخطوط الفاصلة بين الطبقات الوسطى وما دونها من الفئات الاجتماعية. فأين يمكن رسم هذا الخط في الجمهرة المتعاظمة العدد من العمال «المحترمين» والشرائح الدنيا من الطبقة الوسطى التي كان المنتسبون إليها قد تبنوا، قدر المستطاع، الجانب الأكبر من منظومة القيم وأنماط السلوك البورجوازية؟ وإذا كان بالإمكان رسم هذا الخط، وإذا اشتمل على عدد كبير منهم، فإنه قد يضم كذلك جانباً كبيراً من المواطنين الذين لم يساندوا العديد من الأفكار التي اعتبرتها البورجوازية الليبرالية منطلقات جوهرية لازدهار المجتمع، وربما ستقف ضدهم بكل قوة. وعلاوة على ذلك، وربما بصورة أكثر حسماً، كانت ثورات 1848 قد بينت كيف أن الجماهير قد تنتفض في عقر دار الحكام، وكيف أن تقدم المجتمع الصناعي نفسه قد شدد من الضغوط على نحو دائم وبصورة متعاظمة حتى في الفترات غير الثورية.

لقد منحت خمسينيات القرن الحكام فرصة لالتقاط الأنفاس، فلم يساورهم على مدى عقد كامل أو أكثر قلق جدي من مثل هذه المشكلات في أوروبا. إلا أن ثمة بلداً واحداً لم تستدر فيه عقارب

الساعة الدستورية والسياسية إلى الوراء. فرنسا، التي كانت قد شهدت ثلاث ثورات حتى ذلك الحين، كان إقصاء الجماهير عن الساحة السياسية أشبه بمشروع يوتوبي: إذا كان من المحتم «إدارة» هذه الجماهير منذ ذلك الحين، إذ تحولت ما تسمى إمبراطورية لويس نابليون (نابليون الثالث) الثانية، من ثم، إلى مختبر لنوع جديد من السياسة الحديثة، مع أن الخصائص المُميزة لطبيعتها كثيراً ما أخفت تطلعاتها لاستحداث أشكال جديدة من الإدارة السياسية. وكانت هذه التجارب تُناسب مزاج المرحلة، وربما، إلى حد أقل، مواهب الشخصيات المُلْغزة التي كانت تتصدرها.

كان نابليون الثالث عاثر الحظ إلى درجة مشهورة في ميدان العلاقات العامة، إلا أن سوء الطالع دفعه إلى أن يقف وجهاً لوجه ضد منظومة من أقوى المجادلين المفوّهين في ذلك العصر، بالإضافة إلى أن الهجاء اللاذع الذي وجهه له كارل ماركس وفيكتور هوغو، مجتمعين، كان كافياً ليطمس ذكره إلى الأبد، ناهيك عما تعرض له آنذاك من حملات صحافية أقل ضخامة، ولكنها كانت على المستوى نفسه من الفاعلية والقسوة. وعلاوة على ذلك، فقد أخفق إخفاقاً ذريعاً في مبادراته الدولية، وحتى المحلية. لقد كان بوسع هتلر، في وقت لاحق، أن يواجه موجة العداء والسخط في أوساط الرأي العام العالمي، لأنه كان بوسع هذا الرجل الشرير المُختل المرعب أن يحقق أموراً خارقة للعادة قبل أن يواصل سيره على الطريق إلى الهاوية؛ وأن يحافظ في الوقت نفسه على مساندة شعبه حتى النهاية. أما نابليون الثالث، فلم يبلغ هذا المستوى من الإبهار، ولا حتى من الجنون. إذ إن هذا الرجل، الذي هزمته مناورات كافور وبسمارك، وتقلّص الدعم السياسي له إلى درجة خطيرة حتى قبل أن تتفكك إمبراطوريته بعد أسابيع قليلة من الحرب، ومسخ «البونابرتية» وحولها من قوة سياسية كبرى في فرنسا إلى واحدة من نوادر التاريخ؛ نقول إن هذا الرجل سيدخل سجلات التاريخ بوصفه «نابليون الصغير». بل إنه يؤَدِّي الدور الذي اختاره

بكفاءة. إن هذا الرجل الكتوم، الكئيب الساحر الشخصية في الحالات كلها، بشاربيه الطويلين المشمَّعين، وحالته الصحية المتردية، الذي أفزعته المعارك التي كان يفترض فيها أن ترفع من شأنه وتزيد فرنسا عظمةً، لم يكن له من العناصر الإمبراطورية غير مظاهر العز المندثر.

لقد كان سياسياً في الأساس، وسياسياً من وراء الكواليس، غير أنه لم يفلح في أي من هذين الدورين. بيد أن القدر، والمِهاد الشخصي دفعاه إلى الاضطلاع بدورٍ جديدٍ كل الجدة، فبوصفه مطالباً بالعرش قبل عام 1848 ـ مع أن زعمه بالنسب البونابرتي مشكوك فيه ـ كان عليه أن يفكر بأسلوب غير تقليدي. لقد نشأ في عالم المهيّجين القوميين (وانضم إلى الكاربوناري)، والسان سيمونيين. واستمد من خبرته إيماناً قوياً، بل ربما مغالياً، بحتمية انتصار قوى تاريخية مثل القومية، والديمقراطية، وبضرورة انتهاج طرائق غير مألوفة للتعامل مع القضايا الاجتماعية، وأساليب سياسية أفادته كل الفائدة في ما بعد. ومنحته الثورة الفرصة بانتخاب اسم بونابرت للرئاسة بأغلبية ساحقة، ولكن لدوافع شتى. ولم يكن بحاجة إلى الأصوات ليمكث في السلطة، أو ليعلن نفسه إمبراطوراً بعد انقلاب عام 1851، غير أنه، لولا انتخابه رئيساً في بادئ الأمر، لم يكن لقدرته على القيادة أن تقنع الجنرالات، أو أي من ذوي النفوذ أو الطموح، بأن يساندوه. وهكذا، كان أول حاكم لدولة كبيرة خارج الولايات المتحدة يتولى السلطة عن طريق الاقتراع العام (من جانب الذكور). وهو لم ينسَ ذلك أبداً، بل استغله لصالحه، بوصفه، أول الأمر، قيصراً تولى مقاليد الحكم بعد استفتاء عام في سنة 1860، وكان بذلك أشبه بالجنرال ديغول (C. de Gaulle) (أي بوجود جمعية تمثيلية منتخبة لا أهمية لها)، ثم عزز ذلك بالمظاهر البرلمانية المعهودة. وحيث إنه كان من المؤمنين بالحتمية التاريخية في ذلك العصر، فإنه ربما لم يستطع كذلك مقاومة «قوة التاريخ» هذه.

كان لنابليون الثالث موقف غامض من النشاط السياسي

الانتخابي، وذلك ما جعله أمراً يثير الاهتمام، فبوصفه «برلمانياً»، لعب ما كان يعتبر آنذاك اللعبة السياسية المعهودة؛ أي استجماع أغلبية كافية من مجلس الأفراد المنتخبين، وجمعهم في تحالفات مرنة وعريضة تحت شعارات أيديولوجية غامضة ـ وبصورة تختلف اختلافاً بيناً عما نعرف في الأحزاب السياسية الحديثة. من هنا، فإن السياسيين الذين ظلوا ناشطين بعد انقضاء نظام تموز/يوليو الملكي (1832 ـ 1848) من أمثال أدولف تيير (Adolphe Thiers) (1797 ـ 1877)، ونجوم الجمهورية الثالثة اللامعين مثل جول فافر (Jules Favre) (1809 ـ 1880)، وجول فيري (Jules Ferry) (1838 ـ 1882)، وغامبيتا (Gambetta) (1838 ـ 1882) استعادوا هيبتهم أو ذاع صيتهم في ستينيات القرن التاسع عشر. ولم يكن ناجحاً بصورة خاصة في هذه اللعبة، وبخاصة عندما قرر أن يخفف من السيطرة البيروقراطية على الانتخابات وعلى الصحافة. ومن ناحية أخرى، هو نفسه بوصفه صاحب حملة انتخابية، حافظ على خيار اللجوء إلى الاستفتاء العام (مثلما فعل الجنرال ديغول كذلك، وإن بدرجة أكبر من النجاح). وقد صادق ذلك الاستفتاء على انتصاره الكاسح عام 1852 بأغلبية ساحقة وحقيقية على الرغم من «تلاعب» معتبر؛ إذ صوّت لمصلحته سبعة ملايين وثمانمئة ألف مقترع مقابل أربعة وعشرين ألفاً، وامتناع مليونين عن التصويت. كما تجلى ذلك حتى عام 1870، عشية الانهيار، عندما تمكن من تجاوز التردي في الأغلبية البرلمانية بالحصول على سبعة ملايين وأربعمئة ألف صوت مقابل مليون وستمئة ألف.

لم يتم الإقرار السياسي بهذه المساندة الشعبية (إلا بفعل الضغوط البيروقراطية بطبيعة الحال). وخلافاً لأوضاع الزعماء السياسيين الحديثين، فإن نابليون الثالث لم تكن له «حركة»، ولكنه، بوصفه رئيساً للدولة، لم يكن يحتاج إلى واحدة. غير أن تلك المساندة لم تكن متجانسة، فقد كان يجب أن يتمتع بدعم «التقدميين»؛ أي بأصوات اليعاقبة ـ الجمهوريين، الذين نأوا بأنفسهم عن المناسبات كلها في المدن،

وكذلك الطبقات العاملة التي كان يُقدر أهميتها الاجتماعية والسياسية أكثر مما كان يفعله الليبراليون التقليديون. ومع أنه كان يتلقى الدعم أحياناً من الناطقين البارزين بلسان هذه الجماعات مثل الفوضوي بيار ـ جوزيف برودون (Pierre - Joseph Proudhon) (1809 ـ 1865)، وبذل جهوداً كبيرة ليصالح أو يروّض الحركات العمالية الصاعدة في ستينيات القرن (وشرع القانون الذي يبيح الأحزاب عام 1864)، إلا أنه فشل في أن يفصم العرى التي كانت، تقليدياً ومنطقياً، تشدهم إلى اليسار. واعتمد بالتالي على العنصر المحافظ وعلى الفلاحين بخاصة، وبصورة أساسية في ثلثي المناطق الغربية من البلاد. وقد كان «نابليوناً» في هذا السياق، رئيساً لحكومة مستقرة، ومعادية للثورة، وحازمة في موقفها من أي أخطاء تُهدد المِلْكية؛ ومُدافعاً (في أوساط الكاثوليك) عن البابا في روما، وذلك هو الوضع الذي كان على نابليون أن يتحاشاه لأسباب دبلوماسية، غير أنه لم يستطع ذلك، لأسباب سياسية داخلية.

غير أن حكمه كان أكثر أهمية. وقد لاحظ كارل ماركس، ببصيرته المعهودة طبيعة العلاقة بينه وبين الفلاحين الفرنسيين:

«لم تكن لديهم القُدرة على فرض مصالحهم الطبقية باسمهم، سواء عن طريق البرلمان أو الاتفاقات. ونظراً إلى عجزهم عن تمثيل أنفسهم، كان من الضروري تمثيلهم. ولا بد أن يظهر ممثلهم بمظهر السيد لهم، بوصفه سلطة تعلو عليهم، وحكومة غير محدودة الصلاحية تحميهم من الطبقات الأخرى، وتستنزل لهم المطر وأشعة الشمس من عليائها. وهكذا، فإن النفوذ السياسي لصغار الفلاحين يجد التعبير النهائي عن نفسه في السلطة التنفيذية التي تخضع المجتمع بأكمله»[3] وكان نابليون

---

(3) Karl Marx, *The Eighteenth Brumaire of Louis Bonaparte*, in: Karl Marx, *Karl Marx, Friedrich Engels. Werke* (Berlin: Dietz, 1956-), vol. VIII, pp. 198-199.

هو تلك السلطة التنفيذية. وفي القرن العشرين، أعاد كثير من السياسيين ـ القوميين، والشعوبيين، وفي أكثر الأحوال خطراً، الفاشيين، اكتشاف هذا النوع من العلاقة التي كان من روادها مع الجماهير الذين «لم تكن لديهم القدرة على فرض مصالحهم الطبقية باسمهم». كما أنهم اكتشفوا أن ثمة طبقات أخرى من السكان تماثل في هذا المجال الفلاحين الفرنسيين في مرحلة ما بعد الثورة.

وباستثناء سويسرا، التي ظل دستورها الثوري ساري المفعول، لم تمارس أي من الدول الأوروبية الأخرى حق الاقتراع الشامل (للذكور) في خمسينيات القرن التاسع عشر[4] (وربما تجدر الإشارة إلى أن المشاركة الانتخابية حتى في أكثر الدول ديمقراطيةً، اسمياً، وهي الولايات المتحدة، كانت أدنى بما لا يُقاس مما كانت عليه في فرنسا، إذ إن من انتخبوا لنكولن عام 1860 كانوا أقل من أربعة ملايين وسبعمئة ألف ناخب، من أصل ما يعادل ذلك من إجمالي السكان). والهيئات التمثيلية، التي لم يكن لها نفوذ جدي على العموم خارج بريطانيا، كانت أمراً مألوفاً في اسكندنافيا، وهولندا، وبلجيكا، وإسبانيا وسافوي، ولكنها كانت دائماً تنتخب بطريقة غير مباشرة إلى أبعد الحدود، أو تمثل إحدى «الطبقات» القديمة، أو فئة تؤهلها اعتبارات العمر والتملك للترشح والاقتراع على السواء. وكانت الهيئات المنتخبة من هذا النوع مكبلة وخاضعة، على الدوام، لإرادة السلطة التشريعية الأولى المحافظة التي تتسلم مناصبها بالتعيين، أو تتوارثها أباً عن جد، أو تضم كبار المسؤولين السابقين. ولا ريب أن المملكة المتحدة التي كان فيها نحو مليون من أصل سبعة وعشرين مليوناً ونصف مليون من السكان. كانت هي الأقل تشدداً في القيود من بلجيكا، على سبيل المثال، التي كان فيها

(4) يختار المجلس النيابي السويسري (Nationalrat) جميع الذكور ممن بلغوا أو تجاوزوا العشرين، من دون أن يكونوا مؤهلين عن طريق التملك، بينما تتولى الكانتونات (Cantons) اختيار المجلس الثاني.

نحو ستمئة ألف ناخب من أصل أربعة ملايين وسبعمئة ألف من السكان. غير أن البلدين لم يكونا ديمقراطيين، ولم يكن في نيتهما أن يكونا كذلك.

إن انتعاش الضغط الشعبي في ستينيات القرن جعل من المستحيل فصل السياسات عن السياق العام، فمع نهاية هذه الفترة، كانت روسيا القيصرية وتركيا الإمبراطورية فحسب قد حافظتا على كيانهما الأوتوقراطي في أوروبا، في ما لم يعد حق الاقتراع العام، من ناحية أخرى، وقفاً على الأنظمة التي ولدتها الثورة، فقد كانت الإمبراطورية الجرمانية الجديدة تنتخب «الرايخستاغ» (Reichstag) الخاص بها، وإن كان ذلك لأغراض تزيينية. وكانت الدول كلها، عدا قلة قليلة، قد وسعت نطاق الاقتراع على نحو ملموس، بصورة أو بأخرى، من هنا، ظلت أكثر الحكومات تواجه مصاعب لم تكن، حتى ذلك الحين، تشغل إلا قلة من الأقليات في البلدان التي كان للتصويت أي دور مهم فيها. وكان من هذه المصاعب الخيار بين التصويت للقوائم أو للمرشحين، و«الهندسة الانتخابية» أو تقسيم البلاد على مناطق انتخابية على أسس اجتماعية وجغرافية لإعطاء حزب أو جماعة سياسية معينة أغلبية انتخابية في عدد كبير من المناطق، بينما يركز القوة الاقتراعية للمعارضة في أقل عدد ممكن من الدوائر (Gerrymandering)، وكذلك الضوابط التي تمارسها المجالس التشريعية الأولى، والحقوق المخصصة حصراً للسلطة التنفيذية، وغير ذلك. غير أنها لم تكن حادة إلا بالكاد. ومع أن قانون الإصلاح الثاني في بريطانيا قد ضاعف عدد المقترعين تقريباً، فإنه لم يزد نسبتهم عن ثمانية في المئة من مجموع السكان، بينما كانوا يمثلون في مملكة إيطاليا بعيد توحيدها واحداً في المئة فحسب. (وكانت نسبة المقترعين الرجال تتراوح بين 20 إلى 5 في المئة من السكان مقارنة بما كانت عليه الحال في الانتخابات الفرنسية، والألمانية، والأمريكية في أواسط السبعينيات من ذلك القرن). وعلى الرغم من ذلك كله، فقد طرأت بعض التغييرات، وأرجئت تغييرات أخرى إلى حين.

طرحت هذه الخطوات المتقدمة نحو الحكم التمثيلي نوعين متميزين من المشكلات في المجال السياسي، هما اللتان تتعلقان بـ «الطبقات» من جهة، وبـ «الجماهير» من جهة أخرى، أي بالمصطلحات البريطانية الشائعة الآن، بنخب الطبقات العليا والوسطى، والفقراء الذي ظلوا إلى حد بعيد خارج السيرورات السياسية الرسمية. وبين هذه وتلك، وقعت الطبقات الوسيطة ـ صغار التجار، والحرفيين، و«البورجوازية الصغيرة»، والملاّك الزراعيين وغيرهم ـ ممن كانوا بوصفهم ملاّكاً، منخرطين جزئياً في الأنشطة السياسية التمثيلية، على الأقل، حيثما توفرت. ولم تكن لدى كل من الأرستقراطيين الملاك والوراثيين على السواء قوة عددية يعتد بها. غير أن البورجوازيين، خلافاً للأرستقراطيين، كانوا يحتاجونها. لقد كانت الثروة في حوزة كلا الطرفين (أو، على الأقل، الشرائح العليا منهما)، كذلك كانت لديهما السلطة والنفوذ الشخصيان في الأوساط الاجتماعية، ما جعلهم تلقائياً أقرب، على الأقل، إلى «الوجهاء» المحتملين؛ أي ذوي نفوذ سياسي. إلا أن الأرستقراطيات كانت راسخة الجذور في المؤسسات التي تحميهم وتقيهم شر المقترعين سواء منها مجلس اللوردات أم ما يماثله من الهيئات التشريعية العليا، أو عن طريق تعظيم التمثيل بصورة صارخة لا تعكس الحجم الحقيقي للمقترعين، كما كانت الحال في «الاقتراع الطبقي» في كل من مجلسي «الدايت» في بروسيا والنمسا، أو من خلال ما تبقى من الطبقات القديمة ـ الآخذة بالانقراض السريع. يضاف إلى ذلك أن الملكيات، التي كانت شكل الحكم السائد في أوروبا، ظلت، بوصفها طبقة، تحظى في العادة بدعم سياسي منظم.

من جهة أخرى، اعتمدت البورجوازية على ما لديها من ثروة، وعلى الاعتقاد بأنه لا يمكن الاستغناء عنهم، وعلى قَدَرهم التاريخي الذي جعل منهم ومن مبادئهم الركن الركين للدول «الحديثة» خلال تلك الفترة. لكن ما جعلهم قوة مؤثرة في الأنظمة السياسية هو قدرتهم على حشد تأييد غير البورجوازيين الذين توفروا على الأعداد ومن ثم

على الأصوات. وإذا ما حرموا من ذلك، كما حدث في السويد في أواخر الستينيات، وكما سيحدث مع صعود الأنشطة السياسية الجماهيرية في أماكن أخرى، فإنهم سيتحولون إلى مجرد أقلية عاجزة في المجال الانتخابي، وعلى الأقل في السياسات الوطنية. (وقد ظلوا أفضل حالاً في السياسات البلدية). من هنا كان من الأهمية بمكان بالنسبة لهم أن يحافظوا على ما يتلقونه من مساندة، أو على الأقل، ما يتمتعون به من هيمنة على البورجوازية الصغيرة، والطبقات العاملة، وفي حالات نادرة، الفلاحين. وقد أفلحوا، بشكل عام، في هذه الفترة من التاريخ. والليبراليون في أنظمة التمثيل السياسي (وهم الحزب الذي كان، تقليدياً، يمثل طبقات أصحاب المشروعات الاقتصادية في المراكز الحضرية والصناعية) ظلوا، على العموم، يتولون مواقع السلطة و/أو المناصب من دون انقطاع إلا في مناسبات قليلة. كذلك كان الحال في بريطانيا، بين الأعوام 1846 و1874، وفي هولندا لعشرين عاماً بعد عام 1848، وفي بلجيكا بين الأعوام 1857 ـ 1870، وفي الدانمارك حتى صدمة الهزيمة تقريباً بعد عام 1864. أما في النمسا وألمانيا، فكانوا السند الأول للحكومات منذ أواسط الستينيات حتى نهاية السبعينيات في القرن التاسع عشر.

غير أن جناحاً (تقدمياً، جمهورياً) أكثر ديمقراطيةً وراديكالية أخذ ينشق عنهم مع تزايد الضغوط عليهم من القواعد الشعبية، هذا إذا لم تكن قد استقلت عنهم بالفعل، ففي اسكندنافيا، انفصلت أحزاب الفلاحين بوصفها جناحاً «يسارياً» (Venstre) عام 1848 (الدانمارك)، وفي الستينيات (النرويج)، أو جماعات ضغط زراعية معادية للمدينة (السويد 1867). وفي بروسيا (ألمانيا)، فإن آخر الديمقراطيين الراديكاليين، الذين كانت قواعدهم ناشطة في الجنوب الغربي غير الصناعي، رفضوا الانضمام إلى البورجوازيين الليبراليين الوطنيين في تحالفهم مع بسمارك بعد عام 1866، مع أن بعضهم نزعوا إلى الانضمام إلى الديمقراطيين الاجتماعيين الماركسيين المناوئين لبروسيا. وظل

الجمهوريون في إيطاليا في صفوف المعارضة، بينما أصبح المعتدلون هم التيار الرئيسي في المملكة الموحدة حديثاً. وفي فرنسا، لم تعد البورجوازية، منذ زمن طويل، قادرة على الوقوف على قدميها بنفسها، أو حتى بالانضواء تحت راية الليبراليين، فسعى مرشحوها إلى اجتذاب المساندة الشعبية بشعارات متأججة على نحو مطرد. وتحولت النزعات «الإصلاحية» و«التقدمية» إلى «جمهورية»، ثم إلى «راديكالية»، وحتى في عهد الجمهورية الثالثة، إلى «راديكالية ـ اشتراكية». وكانت كل واحدة منها تخفي وراءها جيلاً جديداً لا يختلف في جوهره عن سابقه من الخطباء المفوّهين الملتحين ذوي المعاطف السوداء الطويلة والعبارات المنمقة الذين جنحوا بسرعة إلى الاعتدال حالما حققوا انتصاراتهم الانتخابية في معسكر اليسار. ولم يحافظ الراديكاليون على كيانهم باعتبارهم جناحاً دائماً في صفوف الليبراليين إلا في بريطانيا؛ وقد يعود ذلك إلى أن الفلاحين والبورجوازية الصغيرة التي سمحت لهم بتأكيد استقلالهم السياسي في مناطق أخرى لم تكن، إلا بالكاد، تشكل طبقة اجتماعية. ومع ذلك، ظلت الليبرالية، لأسباب عملية، في المقدمة، لأنها تمثل السياسة الاقتصادية الوحيدة التي ساد الاعتقاد بأنها قادرة على تحقيق التنمية («المانشسترية»، كما وصفها الألمان)، كما تجسد القوى التي كان من المُعتقد لدى الجميع أنها تمثل العلم، والعقل، والتاريخ، والتقدم لدى كل من كانت تهمه مثل هذه القضايا. وبهذا المعنى، كان جميع رجال الدولة وموظفي الحكومة في خمسينيات القرن من الليبراليين، بصرف النظر عن انتماءاتهم الأيديولوجية. وذلك ما درجوا عليه حتى أيامنا هذه. ولم يطرح الراديكاليون بديلاً قابلاً للحياة. وفي الحالات كلها، كان الانضمام إلى صفوف المعارضة الحقيقية ضد الليبرالية غير وارد في الحسبان، إن لم يكن مستحيلاً، من الوجهة السياسية. ويعود ذلك إلى أن كليهما كان محسوباً على «اليسار».

أما المعارضة الحقيقية (أي «اليمين»)، فقد كان ممثلوها هم الذين وقفوا في وجه «قوى التاريخ»، بصرف النظر أيضاً عما تقدموا به من

حجج. ولم يكن ثمة إلا قلة قليلة في أوروبا ممن يأملون بالعودة إلى الماضي مثل الرجعيين الرومانطيقيين بعد عام 1815. وكل ما كانوا ينشدونه هو صدُّ تقدم الحاضر الخطر، إن لم يكن إرجاؤه، وهو الهدف الذي برره المثقفون منهم بالحاجة إلى كلا الأمرين: «الاستقرار» و«الحركة»، أو «النظام العام» و«التقدم». من هنا، كانت النزعة المحافظة أقدر، بين فينة وأخرى، على اجتذاب الجماعات والأفراد من البورجوازيين الليبراليين الذين كانوا يتخوفون من أن يؤدي المزيد من «التقدم» إلى اقتراب موعد الثورة بصورة خطيرة مرة أخرى. ومن الطبيعي أن هذه الأحزاب المحافظة قد استمالت جماعات معينة كانت مصالحها المباشرة تتعارض والسياسات الليبرالية السائدة آنذاك (أي السياسات الزراعية والحِمائية). أو الجماعات المعارضة لليبراليين لأسباب لا علاقة لها بالليبرالية، ومنها البلجيكيون والفلمنكيون الساخطون على بورجوازية والُونيّة [تتحدث لغة أهل المناطق الجنوبية والجنوبية الشرقية من بلجيكا والمناطق الفرنسية المجاورة لها] وعلى هيمنتها الثقافية. ولا ريب كذلك في أن المنافسات العائلية والمحلية وبخاصة في المجتمع الريفي، قد انصهرت ومن ثم تفرعت في تيارين أيديولوجيين لا علاقة لهما بها. وكانت شخصية الكولونيل أوريليانو بونديا في رواية غارسيا ماركيز (Garcia Marquez) **مئة عام من العزلة** (*A Hundred Years of Solitude*) تجسيداً لأولى الانتفاضات التي استمرت على مدى اثنتين وثلاثين سنة في المناطق الداخلية من كولومبيا، لا لأنه كان ليبرالياً أو حتى عارفاً بدلالة هذه الكلمة، بل لأنه استشاط غضباً من المسؤول المحلي الذي كان يمثل الحكومة المحافظة. وربما كان ثمة سبب تاريخي أو منطقي لانتماء أغلبية الجزارين في أواسط العصر الفيكتوري إلى تيار المحافظين (هل لذلك صلة بالزراعة؟)، وأغلبية البقالين إلى تيار الليبراليين (هل لذلك صلة بتجارة ما وراء البحار؟)، ولكن هذه التفسيرات لم تتأكد بعد. وربما ما يحتاج إلى التفسير ليس هذا الأمر، بل السبب الذي جعل أصحاب الحوانيت المنتشرين في كل مكان لا يحملون

الآراء نفسها على الرغم من التماثل في مساراتهم الحرفية التجارية.

بيد أن النزعة المحافظة اعتمدت، في جوهرها، على المتمسكين بالتقاليد، وبالمجتمع القديم المُنظم، وبالعادات وعدم الرغبة في التغيير، ومقاومة كل جديد. وعلى هذا الأساس، تبرز أهميتها القصوى بالنسبة للكنيسة وللمنظمات الرسمية التي تهددها الليبرالية وكل ما تنطوي عليه. وقد ظلت قادرة على حشد قوى عظيمة في مواجهة الليبرالية، ناهيك عن قدرتها على زرع طابور خامس في قلب السلطة البورجوازية جراء عوامل عدة، من أهمها التقى والورع والروح التقليدية التي تتمتع بها النساء والبنات، وسيطرة الكنيسة على طقوس الميلاد، والزواج، والموت، وقطاع واسع من التعليم. وكانت السيطرة على جوانب الحياة هذه مدعاة لنزاع مرير، ومحوراً أساسياً لنزاع سياسي بين المحافظين والليبراليين في عدد من البلدان.

وكانت الكنائس الرسمية كافة، في الواقع الفعلي، محافظة النزعة، مع أن كبراها، وهي الكاثوليكية، وقفت موقفاً صريحاً معادياً للمد الليبرالي المتعاظم. وعام 1864، حدد البابا بيوس التاسع وجهة نظر الكنيسة في **منهج الأخطاء** (*Syllabus of Errors*). وبيّن فيه، على نحو لا تساهل فيه ولا صفح، ثمانين خطأً من بينها «المذهب الطبيعي» (الذي ينكر أن يكون لله دور في حياة الناس أو مسيرة العالم)، و«العقلانية» (أي استخدام العقل وحده من دون الإحالة إلى الله)، و«العقلانية المعتدلة» (أي رفض إشراف الكهنوت على الفلسفة والعلم)، و«اللاتفريقية» (الإيمان بحرية اختيار الدين أو عدمه). والتعليم العَلْماني، والفصل بين الدين والدولة، وبصورة عامة (الخطأ رقم 80)، وهو الاعتقاد بأن «على الحبر الأعظم، ومن واجبه، أن يرضى وينسجم مع معطيات التقدم، والليبرالية، والمدنية الحديثة». وكان من المحتم في هذا الوضع أن الخط الفاصل بين اليمين واليسار هو، على العموم، الخط الفاصل بين الكنسي والمعادي للكنيسة؛ وتشير الفئة الأخيرة

عموماً إلى الكفار الصريحين في البلدان الكاثوليكية، بل أيضاً إلى من يؤمنون ـ ولا سيما في بريطانيا، بديانات الأقلية أو ديانات مستقلة خارج كنيسة الدولة[5].

كان العنصر الجديد في سياسات «الطبقات» في تلك الفترة هو بروز البورجوازية الليبرالية باعتبارها قوة في سياسات دستورية نوعاً ما، مع انهيار الحكم المطلق، وبخاصة في ألمانيا، والنمسا ـ هنغاريا، وإيطاليا؛ أي في منطقة تمثل نحو ثلث السكان في القارة الأوروبية. (وظل ما يقل قليلاً عن ثلث سكان القارة يعيشون في ظل حكومات لا يمارسون فيها أي دور). ويتجلى ذلك التغيير بصورة حية في التقدم الذي أحرزته الصحافة الدورية ـ التي كانت، خارج بريطانيا والولايات المتحدة، تتوجه بأكملها تقريباً إلى القراء البورجوازيين، إذ زاد بين عامي 1862 و1873، عدد الدوريات في النمسا (عدا هنغاريا) من 345 إلى 866. ما عدا ذلك فإنها لم تحدث آثاراً لم تكن معروفة ومألوفة في المجالس المنتخبة قبل عام 1848.

وظل حق الاقتراع مُقيداً في أغلب الحالات إلى حد لا يمكن التحدث معه عن أي أنشطة سياسية حديثة أو غير ذلك. بل إن من اعتلوا المسرح من أبناء الطبقة الوسطى أوشكوا أن يحلوا مكان «الشعب» الذي يدعون تمثيله. ولم تكن ثمة إلا حالات متطرفة قليلة من أمثال نابولي وباليرمو في أوائل السبعينيات، حيث كان ما يعادل 37,5 في المئة و40 في المئة من الناخبين فيهما على التوالي مسجلين على قوائم المقترعين لمجرد كونهم من الخريجين الجامعيين على نحو ما. ولكن حتى في

(5) كان موقف كنائس الدولة، في الحالات التي تكون فيها ديانات أقلية، ينطوي على مفارقة شاذة، فقد يجد الكاثوليك الهولنديون أنفسهم في صف الليبراليين ضد الكالفينيين الذي يمثلون الكثرة الكاثرة، كما أن الألمان، الذين لم يكن بمقدورهم الانضمام لا إلى اليمين البروتستانتي ولا اليسار الليبرالي في الإمبراطورية البسماركية، اضطروا إلى تشكيل «حزب الوسط» في سبعينيات القرن التاسع عشر. انظر الفصل الرابع عشر من هذا الكتاب.

بروسيا، لا يبدو انتصار الليبراليين أمرا مؤثراً إذا تذكرنا أن 67 في المئة من ناخبي المدن الذين صوتوا لمصلتحهم إنما كانوا يمثلون 25 في المئة فحسب من المقترعين في المراكز الحضرية، حيث إن نحو ثلثي القوائم الانتخابية المقيدة لم يأبهوا لصناديق الاقتراع في البلدات[6]. هل كانت انتصارات الليبراليين الباهرة في ستينيات ذلك القرن تمثل أكثر من آراء أقلية من وجهاء البلدات المحترمين في بلدان تميزت بتقييد حق الاقتراح وبالعزوف الشعبي؟

لم يكن بسمارك في بروسيا يرى ذلك على الأقل، ومن ثم قام في وقت لاحق بحل النزاع الدستوري بين الدايت الليبرالي والحكم الملكي (الذي نشب عام 1862 حول المخطط لإصلاح الجيش) بأنمارس الحكم من دون الرجوع إلى البرلمان. وطالما أن أحداً لم يقف في صف الليبراليين غير البورجوازية، وطالما أن البورجوازيين لم يكونوا راغبين أو عازمين على حشد أي قوة حقيقية، سواء أكانت مسلحة أم سياسية، فإن الحديث عن البرلمان المديد لعام 1640، أو جمعية الفئات الاجتماعية العامة لعام 1789 كان لغواً لا طائل تحته[7]. لقد أدرك بسمارك أن من المستحيل وقوع «ثورة بورجوازية»، بالمعنى الحرفي للكلمة. لأنها لن تكون ثورة حقيقية إلا إذا قام آخرون غير البورجوازيين بحشد قواهم إلى جانبها. ولم يكن رجال الأعمال وأساتذة الجامعات مستعدين على كل

(6) Giuliano Procacci, *Le elezioni del 1874 e l'opposizione meridionale*, Biblioteca G. G. Feltrinelli (Milano: Feltrinelli editore, 1956), p. 60, and Walter Gagel, *Die Wahlrechtsfrage in der Geschichte der deutschen liberalen Parteien, 1848-1918*, Beiträge zur Geschichte des Parlamentarismus und der politischen Parteien; 12 (Düsseldorf: Droste Verlag, [1958]), p. 28.

(7) من ناحية أخرى، فإن ما منح الليبراليين قوة حقيقية في بعض البلدان المتخلفة، على الرغم من كونهم أقلية، هو وجود ملاّك الأراضي الليبراليين ممن كانت سيطرتهم على إقطاعياتهم بعيدة عن نفوذ الدولة، أو وجود الضباط المستعدين لإصدار بيانات لمصلحة الليبراليين، وقد حدث ذلك في عدد من الدول الآيبيرية.

حال لإقامة المتاريس في الشوارع بأنفسهم. إلا أن ذلك لم يمنعه من تطبيق برنامج البورجوازيين الليبراليين، الاقتصادي، والقانوني، والأيديولوجي طالما أنه يرفد هيمنة الارستقراطيين الملاّك في نظام ملكي بروسي بروتستانتي. ولم يكن يريد دفع الليبراليين إلى إبرام حلف يائس مع الجماهير في الوقت الذي كان فيه برنامجهم هو البرنامج الصالح بصورة جلية لدولة أوروبية حديثة، أو إن كان، على الأقل، أمراً لا مناص منه. وقد نجح، كما نعلم، نجاحاً باهراً. وقبلت البورجوازية الليبرالية العرض بأن يُصار إلى تطبيق برنامجها مقابل تخليها عام 1866 عن السلطة السياسية ـ ولم يكن أمامها خيار آخر ـ وانتقلت، من ثم، إلى الحزب الوطني الليبرالي، وهو الأساس الذي اعتمدت عليه مناورات بسمارك السياسية المحلية حتى نهاية الفترة التي نعالجها في هذا الكتاب.

وقد عرف بسمارك والمحافظون الآخرون أن الجماهير على اختلاف مشاربها، لم تكن ليبرالية بالمعنى الذي فهمه أصحاب الأعمال الحضريون. وبالتالي، فإنهم شعروا أحياناً أن بوسعهم أن يهددوا الليبراليين بتوسيع نطاق الاقتراع، أو أن يقوموا بذلك بالفعل، مثلما فعل بنيامين دزرائيلي عام 1867، والبلجيكيون الكاثوليك، بصورة متواضعة، عام 1870. غير أنهم أخطأوا عندما توهموا أن الجماهير محافظة بالمعنى الذي فهموه هم. ولا شك في أن القطاع الأكبر من الفلاحين في أغلب أنحاء أوروبا كانوا تقليديين، ومستعدين بصورة تلقائية لمساندة الكنيسة، والملك أو الإمبراطور، أو من يتولون أمرهم من شتى المراتب، وبخاصة ضد المخططات الشريرة لأهل المدن. وحتى في فرنسا، ظلت مناطق واسعة في الغرب والجنوب في الجمهورية الثالثة تصوّت لصالح أنصار أسرة البوربون المالكة. ومثلما أوضح والتر بيجهوت، منظّر الديمقراطية الوديعة، بعد صدور قانون الإصلاح لعام 1868، كانت ثمة جمهرة من الناس، بمن فيهم العمال، يتحكم في سلوكهم السياسي احترامهم للفئة «الفضلى» بين ظهرانيهم. غير أن الجماهير، حالما تدخل حلبة السياسة، فإنها، إن عاجلاً أم آجلاً ستتصرف حتماً بوصفها فاعلاً ولاعباً أساسياً،

لا ملحقاً إضافياً ممن يؤدون أدواراً ثانوية. وفي الوقت الذي كان من الممكن فيه الاعتماد على الفلاحين المتخلفين في كثير من الأماكن، لم يكن ذلك هو الوضع بالنسبة إلى القطاعات الصناعية والحضرية المتعاظمة، فلم يكن المقيمون في هذه القطاعات يريدون الليبرالية الكلاسيكية ـ وهذه لم تكن بالضرورة موضع ترحيب من جانب الحكام المحافظين ـ بل إن المخلصين الذين كانت أعدادهم في تزايد مطرد كانوا يطالبون بسياسة اقتصادية اجتماعية ليبرالية أساساً. واتضح ذلك بصورة جلية في حقبة الكساد الاقتصادي والغموض التي جاءت في أعقاب انهيار التوسع الليبرالي عام 1873.

II

كانت الجماعة الأولى والأكثر خطراً التي أرست الدعائم لهويتها ودورها في الأنشطة السياسية هي البروليتاريا الجديدة، بعد أن تزايدت أعدادها عبر عشرين سنة من التصنيع.

إن الحركة العمالية لم تتحطم، بل فقدت قياداتها جرّاء إخفاق ثورات عام 1848 وفترة التوسع الاقتصادي التي أعقبتها، فمختلف المُنظرين لمستقبل اجتماعي جديد ممن كانوا قد صوروا حالة التململ في الأربعينيات على أنها «شبح الشيوعية» وطرحوا البروليتاريا منظوراً سياسياً بديلاً من كل من التيارات المحافظة، والليبرالية، والراديكالية، قد غدوا الآن إما في السجن، مثل أوغست بلانكي، أو في المنفى، مثل كارل ماركس، ولويس بلانك، أو طواهم النسيان مثل كونستانتين بيكوير (Constantin Pecqueur) (1801 ـ 1887)، أو تحملوا هذه المشاق الثلاث كلها، مثل إتيان كابيه (Etienne Cabet) (1788 ـ 1857). وقد تصالح بعضهم مع النظام الجديد، مثلما فعل ب. ج. برودون مع نابليون الثالث. وبالنسبة للمؤمنين بأن الرأسمالية قد أوشكت على مواجهة قدرها المحتوم، فإن تلك الأيام لم تكن تُبشر بالخير. فقد روّض ماركس وإنجلز أنفسهما على أن ثمة مسيرة طويلة في

المستقبل، وذلك بعد أن كانا، عام 1849، يأملان في اندلاع الثورة مرة أخرى في غضون عام أو عامين، وراحا بعدها يعولان على الأزمة الاقتصادية الكبرى القادمة (عام 1857). وقد يكون من المبالغة القول إن الاشتراكية قد لفظت أنفاسها الأخيرة. وصحيح أنه لم يكن في ستينيات ذلك القرن من الاشتراكيين إلا من كانوا اشتراكيين عام 1848. ولم تبق غير حفنة من الاشتراكيين من أبناء البلاد في الستينيات والسبعينيات، حتى في بريطانيا. ويمكننا أن ننظر بامتنان إلى هذه الفترة الفاصلة من العزلة الإجبارية عن السياسة، التي أتاحت لكارل ماركس أن يُنضج نظرياته ويضع أسس كتاب **رأس المال** (*Das Kapital*). غير أنه لم يكن راضياً عن هذه الفترة. وفي تلك الأثناء انهارت البقية الباقية من التنظيمات السياسية للطبقة العاملة أو المناصرة لها مثل الرابطة الشيوعية عام 1852. أو أنها انقرضت بالتدريج، مثل الحركة الميثاقية البريطانية.

وعلى صعيد أكثر تواضعاً هو الصراع الاقتصادي والدفاع الذاتي، نشطت منظمات الطبقة العاملة، ولم يكن أمامها من خيار إلا النمو والتوسع. وقد تم ذلك على الرغم من أن النقابات والاضرابات كانت محظورة قانونياً في كل مكان في أوروبا، باستثناء بريطانيا ـ وإن كان ذلك بصورة جزئية ـ مع أن الجمعيات الخيرية (جمعيات العون المتبادل) والتعاونيات (التي نشطت على العموم في المنشآت الإنتاجية، وفي المتاجر في بريطانيا) كانت تُعتبر أمراً مقبولاً. غير أنه لا يمكن القول إنها ازدهرت على نحو لافت: ففي إيطاليا (1862)؛ كان عدد الأعضاء في هذه الجمعيات الخيرية في مركزها الأقوى في بيدمونت، دون الخمسين[8]. ولم يكن لنقابات الشغيلة من أهمية حقيقية إلا في بريطانيا، وأستراليا، وبصورة تدعو إلى الاستغراب، في الولايات المتحدة. وقد

---

(8) James Ward, *Workmen and Wages at Home and Abroad; or, The Effects of Strikes, Combinations, and Trades Unions* (London: Longmans, Green, 1868), p. 284.

وصلت للبلدين الأخيرين من جملة المتاع الذي حمله المهاجرون البريطانيون في مجالي الوعي الطبقي، والتنظيم العمالي.

وفي بريطانيا، لم يكن تنسيق الجمعيات على المستوى الوطني مقصوراً على الحرفيين المهرة في صناعة بناء الآلات، والصناع الفنيين في الحرف الأقدم، بل إن عمال القطن، بفضل نواة من النساجين البالغين البارعين أنشأوا وعززوا نقابات قوية لهم على الصعيد المحلي، وارتبطت ارتباطاً فاعلاً، بشكل أو بآخر، على المستوى الوطني. وفي واحدة أو اثنتين من الحالات (جمعية المهندسين المدمجة [1852]، وجمعية النجارين المدمجة [1860])، كان ذلك الارتباط مالياً، إن لم يكن استراتيجياً. لقد كانوا أقلية، ولكن كان لهم شأن، وكانوا في بعض الأحيان يشكلون أغلبية في أوساط العمال المهرة. يضاف إلى ذلك أنهم أرسوا الأسس التي انطلقت منها الحركة الثقافية واتسعت. وربما كانت النقابات في الولايات المتحدة أكثر قوة، مع أنها أثبتت عجزها عن مواجهة آثار التصنيع المتعاظم السرعة في أواخر ذلك القرن. لكنها كانت أقل قوة في فردوس التنظيمات العمالية، وهي المستوطنات الأسترالية، حيث حصل عمال البناء بالفعل على يوم العمل لثماني ساعات في وقت مُبكر عام 1856، وسرعان ما حذا حذوهم العمال في قطاعات أخرى. والحقيقة أن القدرة التفاوضية للعمال لم تكن في أي مكان أخر أعلى مما كانت عليه في هذا الاقتصاد الديناميّ، على ما كان فيه من شح في الأيدي العاملة، بعد أن أغرت هجمات الذهب في خمسينيات القرن آلافاً مؤلفة منهم، ما رفع الأجور في أوساط المقيمين غير المغامرين.

لم يكن المراقبون العقلاء يتوقعون استمرار تلك الاستكانة النسبية في الحركة العمالية، فقد كان من الواضح عام 1860 أن البروليتاريا أخذت بالعودة إلى الساحة، بما يشبه الشخصيات التي اعتلت المسرح في الأربعينيات، وإن في أجواء أقل صخباً. وقد برزت بسرعة غير متوقعة، وسرعان ما أعقبتها أيديولوجية عُرفت منذئذ بالحركات التي

دعت إليها الاشتراكية. وكانت عملية بزوغها مزيجاً غريباً من العمل السياسي والصناعي، وأنواع شتى من التيارات الراديكالية التي تتراوح بين الديمقراطية والفوضوية، والصراعات الطبقية، والتحالفات الطبقية، والتنازلات الحكومية والرأسمالية. ولكنها، فوق كل ذلك، كانت **أممية** الطابع، لا لمجرد أنها حدثت، مثلما فعلت الليبرالية، بصورة تلقائية في بلدان عدة، بل لأنه لم يكن من الممكن فصلها عن التضامن الأممي للطبقات العاملة، أو التضامن الأممي لليسار الراديكالي (وهو الإرث الذي خلفته فترة ما قبل عام 1848). والواقع أن مُنظمها الذي حملت اسمه منذ ذلك الحين هو رابطة العمال الأممية، وهي، في ما يتعلق بماركس، الأممية الأولى (1864 ـ 1872). وتظل المقولة القائلة إن «العمال لا وطن لهم»، على حد تعبير **البيان الشيوعي**، مسألة فيها نظر، من المؤكد أن العمال الراديكاليين المُنظمين في كل من فرنسا وبريطانيا كانوا يشعرون بالانتماء الوطني، ولكلٍّ طريقتُه ـ واتسمت التقاليد الثورية الفرنسية بنزعة قومية ذائعة الصيت[9]. ولكن في اقتصاد تتحرك فيه عوامل الإنتاج بحرّية، كانت النقابات العمالية البريطانية الأحادية الأيديولوجية تدرك الحاجة إلى الوقوف في وجه أرباب العمل ومنعهم من استقدام عمال من الخارج لفك الإضراب. وبدا لجميع الراديكاليين أن انتصارات اليسار وهزائمه في كل مكان كانت لها آثار فورية ومباشرة فيهم. وبرزت «الأممية» في بريطانيا من تضافر الهياجات المطالِبة بالإصلاح الانتخابي وسلسلة من الحملات الداعية إلى التضامن الأممي ـ مع غاريبالدي واليسار الإيطالي عام 1864، ومع إبراهام لنكولن والشمال خلال الحرب الأهلية الأمريكية (1861 ـ 1865)، ومع البولنديين العاثري الحظ عام 1863. وكان من المُعتقد، بحق، أن مثل هذه التحركات ستُعزز الحركة العمالية ببُعدها السياسي الأضعف، وبطابعها «النقابي» الأعمق. وكان لمجرد إبرام اتفاق بين العمال في بلد

---

(9) انظر ما ورد آنفاً في الفصل الخامس من هذا الكتاب.

ما ونظرائهم في بلد آخر تداعياتٌ على أوضاع الحركات الأخرى. وذلك هو ما اكتشفه لويس الثالث عندما سمح للعمال الفرنسيين بإرسال وفد كبير إلى لندن لمناسبة إقامة معرض دولي عام 1862.

أُسست «الأممية» في لندن، وسرعان ما انتقلت لتصبح بين يدي شخص مقتدر مثل كارل ماركس. وكانت أول الأمر خليطاً غريباً من زعماء النقابات البريطانيين والراديكاليين ـ الليبراليين الانطوائيين، ومن المناضلين النقابيين الفرنسيين المشتتين أيديولوجياً والأكثر جنوحاً إلى اليسار، وهيئة إدارية باهتة من قدامى الثوريين القاريّين يحملون وجهات نظر متضاربة وشديدة التنوع. وستؤدي المعارك الأيديولوجية بينهم إلى تدمير الأممية. ويجدر بنا أن لا نتوقف كثيراً عند هذه الجماعة التي أشبعها كثير من المؤرخين بحثاً في وقت سابق. وسنكتفي هنا بالقول إن الصراع الأساسي الأول، بين النقابيين «الخُلَّص» (أي الليبراليين والليبراليين الراديكاليين)، وأصحاب المواقف الأكثر طموحاً لتحقيق التحول الاجتماعي قد آل إلى انتصار الاشتراكيين (مع أن ماركس حرص على إبقاء البريطانيين، وهم مساندوه الأساسيون، بمنأى عن المعارك القارّية). وفي ما بعد، واجه ماركس ومؤيدوه (وهزموا) الفرنسيين المناصرين لـ «تبادلية» برودون، والحرفيين الفنيين المناضلين الواعين طبقياً والمعادين للفكر، وبعدهم تصدوا لتحالف الفوضويين الذي تزعمه ميخائيل باكونين (1814 ـ 1876) وهو الأكثر خطراً لأنه يعمل وفق أساليب محكمة غير فوضوية تنتهجها المنظمات السرية المنضبطة، ولرأب الصدوع، وغيرها[10]. وعندما لم يتمكن ماركس من السيطرة على «الأممية»، فقد أسقطها من الاعتبار ونقل مكانتها الرئيسية إلى نيويورك. إلا أن الظهير المساند لحشد الطبقة العاملة كان آنذاك قد انقصم، بعد أن كانت «الأممية» جزءاً منه، وإلى حد ما، منسقاً له. ومع ذلك، فقد انتصرت آراء ماركس.

---

(10) انظر الفصل التاسع من هذا الكتاب.

ولم يكن ذلك متوقعاً في ستينيات القرن التاسع عشر. ذلك أنه لم تكن هناك غير حركة عمالية جماهيرية ماركسية، بل اشتراكية واحدة هي التي نشأت في ألمانيا بعد عام 1863. (بل إننا، عند استثناء حالة واحدة، لا نجد غير حركة عمالية سياسية واحدة عملت، على الصعيد الوطني، بصورة مستقلة عن الأحزاب «البورجوازية» و«البورجوازية الصغيرة». ونحن هنا نشير إلى «حزب العمال الإصلاحي الوطني في الولايات المتحدة» القصير الأجل [1872] ـ وهو امتداد سياسي لاتحاد العمال الوطني [1866 ـ 1872] الذي انضم إلى رابطة العمال الأممية). أما الحركة السياسية الأخرى، فهي من منجزات فردينان لاسال (Ferdinand Lassalle) (1825 ـ 1865)، وهو مهيّج لامع وقع ضحية لحياة حافلة بالمغامرات (إذ توفي متأثراً بجراح أصيب بها في مبارزة حول امرأة)، وكان يعتبر نفسه من أنصار ماركس، مثلما كان بالنسبة إلى آخرين. وكانت منظمة لاسال، وهي رابطة العمال الألمانية العامة (Allgemeiner Deutscher Arbeiterverein) من الوجهة الرسمية، راديكالية ـ ديمقراطية، لا اشتراكية، تُنادي في شعاراتها المباشرة آنذاك إلى حق الاقتراع الشامل. غير أن وعيها الطبقي وعداءها للبورجوازية كانا على درجة عالية من الحدة. يُضاف إلى ذلك أنها، على الرغم من تواضع حجم العضوية فيها أول الأمر، كانت منظمة على نحو ما تفعل الحركات الجماهيرية الحديثة. ولم تكن موضع ترحيب خاص من جانب ماركس الذي ساند منظمة منافسة تزعمها اثنان من مريديه أكثر إخلاصاً (أو أدعى للقبول على الأقل) هما الصحفي فلهيلم ليبنخت (Wilhelm Liebknecht)، وخرّاط الخشب الشاب الموهوب أوغست بيبل. ومن المفارقات أن هذه المنظمة، التي أقيمت في ألمانيا الوسطى، كانت، رسمياً، أقرب إلى الاشتراكية، إلا أنها انتهجت سياسة أقل عناداً بالتحالف مع اليسار الديمقراطي ممن بقي من جماعة «الثمانربعينات» القديمة. وكان اللاساليون، وهم حركة بروسية كلياً، يسعون أساساً، إلى حل بروسي للمشكلة الألمانية. وحيث إن ذلك كان هو الحل المطروح

بعد عام 1866، فقد زالت أهمية الاختلافات التي كانت قيد التداول بصورة حماسية خلال العقد الذي استغرقته عملية التوحيد، إذ إن الماركسيين (ومعهم جناح من اللاسالين المنشقين الذين أصروا على التمسك بالطابع البروليتاري الصرف للحركة) شكلوا الحزب الديمقراطي الاجتماعي عام 1869، ودمجوه فيما بعد (عام 1875) مع اللاساليين، وكانت لهم الغلبة عليهم آخر الأمر، وشكلوا حزباً قوياً هو الحزب الديمقراطي الاجتماعي الألماني (SPD).

المهم هنا أن كلتا الحركتين كانتا مرتبطتين بصورة أو بأخرى، بماركس، الذي اعتبرتاه الملهم النظري والـ"غورو» بالنسبة إليهما (وبخاصة بعد وفاة لاسال). وقد خرجت كل من الحركتين من إسار الديمقراطية الراديكالية ـ الليبرالية، وانتهجت سبيلاً مستقلاً بوصفها حركة للطبقة العاملة. كما تمتعت كلتاهما بدعم جماهيري مباشر (بعد إقرار حق الاقتراع العام الذي منحه بسمارك لشمال ألمانيا عام 1866، ولألمانيا عام 1871). وانتخب زعماء الحركتين في البرلمان. وفي بارمن، مسقط رأس فريدريخ إنجلز، صوّت لصالح الاشتراكيين أربعة وثلاثون في المئة من المقترعين منذ عام 1867، وواحد وخمسون في المئة عام 1871.

وإذا كانت «الأممية» قد قصرت عن ابتعاث أحزاب ذات شأن للطبقة العاملة (وتجدر هنا الإشارة إلى أن الحركتين الألمانيتين لم تنضمّا، رسمياً، لها)، تلازمت مع ظهور الحركات العمالية في عدد من البلدان على هيئة حركات صناعية نقابية عارمة عكفت «الأممية» على مساندتها بصورة مُنظمة، ومنذ عام 1866 على الأقل. وليس من الواضح مقدار ما حققته في هذا الصدد. (وقد تزامن تأسيس رابطة العمال الأممية مع أول تصاعد على المستوى العالمي، للصراعات العمالية التي لم يكن لبعضها، بالتأكيد، علاقة بالأممية، ومنها حركة عمال الصوف في بيدمونت عام 1866 ـ 1867). ومع ذلك، تلاقت

هذه الكفاحات، ولا سيما بعد عام 1868، معها، لأن زعماء تلك الحركات أخذوا ينزعون بصورة متزايدة إلى «الأممية»، بل يناضلون في سبيلها. واكتسحت موجة التململ والإضراب تلك القارة الأوروبية بأكملها، ووصلت أسبانيا وحتى روسيا، إذ حدث إضراب في بطرسبرغ عام 1870، وامتدت الإضرابات إلى ألمانيا وفرنسا عام 1868، وبلجيكا عام 1869، (واستمر عنفوانها سنوات عدة)، وفي النمسا ـ هنغاريا بعد ذلك، إلى أن وصلت، عام 1870، أخيراً إلى إيطاليا (حيث بلغت أوجها بين العامين 1872 و1874)، وإسبانيا في السنة نفسها. وفي تلك الأثناء، كانت الإضرابات العمالية قد بلغت ذروتها بين العامين 1871 و1873.

لقد ولدت، آنذاك، نقابات عمالية جديدة. وحُوِّلت جماهيرها إلى «الأممية» ووفق الإحصائيات النمساوية، فقد زاد عدد مسانديها في فيينا من عشرة آلاف إلى خمسة وثلاثين ألفاً بين الأعوام 1869 و1872. وفي التشيك من خمسة آلاف إلى عشرة آلاف، ومن ألفين في ستيريا وكارنثيا إلى عشرة آلاف في ستيريا وحدها[11]. وقد لا تبدو هذه الأعداد كبيرة بمقاييس فترات لاحقة، غير أنها كانت تمثل قدرة عظيمة على التعبئة والحشد ـ وتعلمت النقابات في ألمانيا كيفية اتخاذ القرار بإعلان الإضراب في الاجتماعات الجماهيرية التي كانت كذلك تمثل الجماهير غير المنظمة. ومن المؤكد كذلك أنها أثارت الفزع لدى الحكومات، ولا سيما عام 1871 عندما تزامن ارتفاع شعبية «الأممية» إلى أعلى مستوياتها مع قيام كومونة باريس[12].

وقد بدأ وعي الحكومات، أو على الأقل بعض شرائح

(11) Herbert Steiner, «Die internationale Arbeiterassoziation und die österr. Arbeiterbewegugg, [*Weg und Ziel* (Vienna; Sondernummer; Jänner: [n. pb.], 1965)], pp. 89-90.

(12) انظر الفصل التاسع من هذا الكتاب.

البورجوازية، بصعود الطبقة العاملة في وقت مُبكر من ثمانينات القرن التاسع عشر. واقترنت الليبرالية كذلك بدعوة من دعاة الحرية الاقتصادية «دعه يعمل» (Laissez-faire) باعتبارها سياسة جادة للإصلاح الاجتماعي، مع أن بعض الديمقراطيين الراديكاليين، الذين أدركوا كل الإدراك مخاطر فقدانهم تأييد البروليتاريا، كانوا مستعدين لتقديم حتى تلك التضحية. وفي البلدان التي لم تحقق فيها «المانشسترية» نصرها الكامل على الإطلاق، أخذ المسؤولون والمفكرون على السواء يشعرون بصورة مطردة بالحاجة إلى تأكيد البُعد الاجتماعي. وهكذا قامت في ألمانيا مجموعة سُمّيت، خطأً، «الأساتذة الاشتراكيون»، (Kathedersosozialisten) وبتأثير من الحركة الاشتراكية المتعاظمة، بتأسيس «جمعية السياسة الاجتماعية» (Verein für Sozialpolitic) التي نادت بالإصلاح الاجتماعي بديلاً من الصراع الطبقي الماركسي أو، بالأحرى، علاجاً وقائياً ضده[13].

ومع ذلك، فقد اقتنع الآن حتى أولئك الذين اعتبروا أي تدخل حكومي في آليات السوق الحرة وصْفةً للخراب بأنه يجب الاعتراف والإقرار بالمنظمات والأنشطة العمالية إذا ما أريد ترويضها. وكان بعض السياسيين الغوغائيين، ومنهم نابليون الثالث وبنيامين دزرائيلي على وعي تام، كما رأينا، بقدرة الطبقة العاملة الممكنة في المجال الانتخابي.

من هنا، عُدلت القوانين في أنحاء القارة الأوروبية كلها لتسمح للعمال ببعض التنظيم، وبحق الإضراب، أو، بتعبير أدق، بإفساح المجال في نظرية السوق الحرة للمفاوضات الجماعية مع العمال. أما

(13) كان مصطلح «الاشتراكي» خلافاً لمصطلح «الشيوعي» الأكثر إثارة للمشاعر، قابلاً للاستخدام، بشكل غامض، ضد كل من يوصي بالتدخل الاقتصادي والإصلاح الاجتماعي من جانب الدولة. وشاع استخدامه على نطاق واسع حتى تصاعد مع بروز الحركات العمالية الاشتراكية في ثمانينيات القرن التاسع عشر.

الوضع القانوني للنقابات فظل مشكوكاً فيه، ولم يكن الوزن السياسي للطبقة العاملة وحركاتها مؤثراً بصورة كافية إلا في بريطانيا. حيث كانت، بإجماع الآراء، تمثل أغلبية السكان. وأفضى ذلك، بعد مرحلة انتقالية امتدت سنوات (1867 ـ 1875)، إلى إصدار نظام يكاد يكون كاملاً من الإقرارات القانونية التي كانت مواتية للنقابات العمالية، حتى إن محاولات دورية عدة جرت منذ ذلك الحين للحد من الحرية التي مُنحت لها آنذاك.

كان الهدف المتوخى من هذه الإصلاحات هو، ببساطة، الحيلولة دون ظهور العمال باعتبارهم قوة سياسية مستقلة، والأهم من ذلك، قوة ثورة. وقد تم ذلك بنجاح في البلدان التي كانت فيها الحركات العمالية غير السياسية والليبرالية ـ الراديكالية قائمة بالفعل. وفي البلدان التي كانت فيها التنظيمات العمالية قوية، مثل بريطانيا وأستراليا، تأخر بروز أحزاب عمالية مستقلة إلى مرحلة متأخرة جداً، بل إنها ظلت، حتى ذلك الحين، غير اشتراكية أساساً. غير أن الحركة النقابية، كما رأينا، ظهرت في أغلب البلدان الأوروبية خلال فترة «الأممية» بزعامة الاشتراكيين غالباً، وتبنت الحركة العمالية مواقفهم السياسية، والمواقف الماركسية خصوصاً. وهكذا، فإن أجنحة هذه الحركة التي ظهرت في الدانمارك، حيث أرست رابطة العمال الأممية عام 1871 بهدف تنظيم الإضرابات وإقامة تعاونيات المنتخبين، أخذت، بعد قيام الحكومة بحل «الأممية» عام 1873، تشكل نقاباتٍ مستقلة إسمية تم توحيدها بعد ذلك وتسميتها «رابطة الديمقراطيين الاجتماعيين». وكان ذلك أكبر إنجاز حققته الأممية، إذ أضفت على الحركة العمالية صفة الاستقلال والطابع الاشتراكي على السواء.

من جهة أخرى، لم تحفز الأممية روح التمرد والانتفاض، فعلى الرغم من الرعب الذي أثارته لدى الحكومات، لم تُخطط لثورة مباشرة. إن ماركس نفسه، الذي كانت نار الثورة تضطرم في نفسه، لم يُعلق

عليها آمالاً كبيرة آنذاك. بل إن موقفه كان، على نحو لافت، يتسم بالحذر تجاه المحاولة الوحيدة للقيام بثورة بروليتارية، وهي كومونة باريس. ولم يكن يعتقد أن لها أدنى فرصة للنجاح، بل إن خير ما كان بوسعها أن تفعله هو عقد صفقة مع حكومة فرساي. وكان أن لقيت نهايتها المحتومة، وكتب مرثاتها بعبارات بليغة مؤثرة. غير أن الهدف من مقالته العظيمة «الحرب الأهلية في فرنسا» إنما كان توجيه ثوريي المستقبل. وقد نجح في ذلك. غير أن «الأممية»، أي ماركس، التزمت الصمت طيلة فترة الكومونة. وخلال الستينيات، انصب عمله على إمكانات المستقبل في المدى البعيد، وظل متواضعاً في ما يتعلق بتطورات المدى القصير. وكان سيرضى بأن تنشأ، في الدول الصناعية الكبرى على الأقل، حركات سياسية عمالية مستقلة تنظم نفسها (حيثما كان ذلك ممكناً من الناحية القانونية) باعتبارها حركات جماهيرية، وتتهيأ لتوّلي السلطة السياسية، وتتحرر من التأثير الفكري لليبرالية ـ الراديكالية (بما فيها «النزعة الجمهورية» البسيطة، والقومية)، وكذلك من أيديولوجيات اليسار (الفوضوية، والتبادلية وغيرها) التي كان يراها ـ ولديه بعض التبرير ـ خماراً من فترة سابقة. بل إنه لم يطلب من هذه الحركات أن تكون «ماركسية»؛ وربما سيكون مثل ذلك المطلب، في تلك الظروف أمراً خيالياً ويوتوبياً، لأنه لم يكن لماركس أنصار إلا في ألمانيا وفي أوساط قلة قليلة من المهاجرين. وهو لم يتوقع انهيار الرأسمالية، ولا أنها مُهددة بأخطار الانقلاب عليها والإطاحة بها. وكل ما كان يأمل في تحقيقه هو اتخاذ أولى الخطوات في تنظيم الجيوش التي ستشن الحملة الطويلة على مواقع العدو المنيعة الحصينة.

وفي أوائل السبعينيات من القرن التاسع عشر، بدأ أن الحركة قد أخفقت حتى في تحقيق هذه الأهداف المتواضعة. إذ ظلت الحركة العمالية البريطانية ربيبة لليبراليين، وكان زعماؤها من الضعف والفساد بحيث أخفقوا في تحقيق تمثيل برلماني يُعادل قوة قاعدتهم الانتخابية. كما أن الحركة الفرنسية قد تحولت إلى أنقاض بعد هزيمة كومونة باريس، ولم

يبدُ للعيان وسط الحطام ما يشير إلى ما هو أكثر من بقايا البلانكية البالية، واللامتسرولة (Sansculottism)، والتبادلية النفعية (Mutualism). وانحسرت موجة التوثب العمالي التي امتدت بين الأعوام 1873 و1875 وخلّفت وراءها نقابات عمالية تكاد قوتها لا تعادل ما كانت عليه في الماضي، بل إنها غدت أضعف بالفعل مما كانت عليه بين الأعوام 1866 ـ 1868. وانهارت «الأممية» بعد أن أخفقت في التخلص من نفوذ اليسار العتيق الذي أصبحت دلائل فشله واضحة كل الوضوح. وكانت الكومونة قد غدت جثة هامدة، والثورة الأوروبية الوحيدة الأخرى، في إسبانيا، تلفظ أنفاسها الأخيرة. وبحلول عام 1874، كانت عائلة البوربون المالكة قد عادت إلى إسبانيا، وأرجأت بذلك قيام الجمهورية الإسبانية الثانية لما يقرب من ستين سنة. ولم يتحقق تقدم متميز إلا في ألمانيا. صحيح أنه كان من الممكن استشراف بوادر جديدة، وإن تكن باهتة، للثورة في الدول الناقصة النمو، وأن ماركس، اعتباراً من عام 1870، بدأ يعلق الآمال على روسيا. إلا أن العنصر اللافت الأكثر طرافة في هذه التحركات كلها هو انهيار بوادر الثورة التي كانت ستهز بريطانيا، قلعة الرأسمالية العالمية. كما أن الحركة الفينيانية في أيرلندا كانت، في ما يبدو قد تهاوت[14].

تولت ماركس، في سنواته الأخيرة، مشاعر الانقباض والإحباط. ولم يكتب، نسبياً، إلا القليل[15]، وغدا أقل نشاطاً في الميدان السياسي. غير أن بوسعنا الآن أن نلاحظ أن اثنين من منجزات ستينيات القرن

---

(14) انظر الفصل الخامس من هذا الكتاب.

(15) كان الجزء الأكبر من الأعمال التي أمر إنجلز بنشرها بعد وفاة ماركس، وهي المجلدان الثاني والثالث من **رأس المال** (*Capital*) و«نظريات فائض القيمة» (Theories on Surplus Value) قد وضع في الواقع قبل نشر المجلد الأول عام 1867. ومن أعمال ماركس الأساسية، بالإضافة إلى بعض الرسائل، فإن **نقد برنامج غوثا** (*Critique of the Gotha Programme*) (1875)، جاء بعد سقوط الكومونة (Commune).

اكتسبا صفة الدوام، فقد انطلقت منذ ذلك الحين حركات عمالية اشتراكية جماهيرية سياسية منظمة، وتضاءل إلى حد كبير، نفوذ اليسار الاشتراكي قبل ـ الماركسي. وبذلك لحق التغيير الدائم ببنية العمل السياسي.

ولم تتضح أغلب هذه التغيرات إلا في نهاية الثمانينيات من القرن التاسع عشر، عندما انتعشت «الأممية» مرة أخرى، واحتلت مكان الصدارة بوصفها الجبهة التي تضم الأحزاب الجماهيرية، الماركسية في المقام الأول. ولكن حتى في السبعينيات، توجّب على دولة واحدة، هي ألمانيا، أن تواجه المشكلة الجديدة. فالأصوات الانتخابية لصالح الاشتراكيين (102,000 عام 1871) بدأت تتعاظم مجدداً، وعلى نحو مطرد بعد انتكاسة قصيرة، إذ بلغت ثلاثمئة وأربعين ألفاً عام 1874، ونصف مليون عام 1877. ولم يعرف أحد كيف يتدبر هذا الوضع. فالجماهير لم تعد تتخذ موقفاً سلبياً، أو تبدي استعدادها لتتبّع خطى «أسيادها»، أو تنهج نهج البورجوازية. ولم تكن زعاماتها قابلة للذوبان والاندماج. ولم يكن من الممكن لهذه الجماهير أن تتموضع في صيغة السياق السياسي السائدة آنذاك. أما بسمارك، الذي برع في إدارة لعبة الليبراليين البرلمانية، بل ربما كان أبرع من لعِبها على الإطلاق، فلم يعد بوسعه الآن أن يفعل غير أمر واحد، هو حظر النشاط الاشتراكي بحكم القانون.

الفصل السابع

الخاسرون

تجلّى، في الآونة الأخيرة، وَلَعٌ بمحاكاة العادات الأوروبية، بما فيها فن الاقتراض المحفوف بالمخاطر، غير أن مدنية الغرب، في أيدي حكام الشرق، لن تؤتي أُكُلَها؛ وبدلاً من أن تعيد العافية لدولة متداعية؛ فإنها، في ما يبدو، تهدد بتقويضها بسرعة.

السير ت. إرسكين ماي، 1877[1].

إن كلمة الله لا تفوض بإظهار اللين الذي نشهده الآن تجاه الحياة البشرية. ومن الضروري في الأراضي الشرقية كلها ترسيخ مشاعر الخوف والرهبة إزاء الحكومة. عندها، وعندها فقط، يمكن أن تكون ميزاتها موضع تقدير.

ج. و. كاي، 1870[2].

---

(1) Thomas Erskine May, *Democracy in Europe, a History*, 2 vols. (London: Longmans, Green and Co, 1877), vol. 1, p. 29.

(2) John William Kaye, *A History of the Sepoy War in India 1857-1858*, 3 vols. (London: W. H. Allen, 1870), vol. 2, pp. 402-403.

I

في «صراع البقاء» هذا، وهو الصورة المجازية للفكر الاقتصادي، والسياسي، والاجتماعي، والبيولوجي، في عالم البورجوازية، لم يستطع البقاء على قيد الحياة إلا «الأصلح»، ولم تكن صلاحية هؤلاء تُقاس بالبقاء والاستمرار، بل بفرض الهيمنة. ومن ثم أصبح الجانب الأكبر من سكان العالم ضحية لأولئك الذين لم يكن يبدو من الممكن مواجهة تفوقهم الحاسم، ناهيك عن تحدّيه وصدّه، من النواحي الاقتصادية، والتقنية، وبالتالي العسكرية. وكان على رأس هؤلاء الاقتصادات والدول في الشمال الغربي والمنطقة الوسطى من أوروبا، والبلدان التي استوطنها المهاجرون من الخارج، ولا سيما الولايات المتحدة. وفي ما عدا استثناءات ثلاثة هي الهند، وإندونيسيا، وأجزاء من شمال أفريقيا، لم يكن سوى عدد قليل من البلدان خضعت للسيطرة الكولونيالية في الربع الثالث من القرن التاسع عشر. (ويمكن أن نترك جانباً المناطق التي استوطنها الأنجلوساكسونيون مثل أستراليا، ونيوزيلندا، وكندا، التي لم تكن، على الرغم من عدم حصولها على الاستقلال الرسمي بعد، تُعامل معاملة المناطق التي يقطنها أهلها «الأصليون». ومع أن هذا المصطلح مُحايد في طبيعته، فقد اكتسب دلالةً دونيةً قاطعة). صحيح أن هذه الاستثناءات كانت ذات شأن، لقد كانت الهند وحدها تُمثل 14 في المئة من سكان العالم عام 1871. غير أن الاستقلال السياسي لبقية البلدان لم يكن له وزن يُذكر. لقد كانت، اقتصادياً، تحت رحمة الرأسمالية حيثما استطاعت ذلك. وكانت، من الناحية العسكرية قاصرة قصوراً صارخاً. وكانت للسفن الحربية وقوات الحملات العسكرية سطوة لا تضاهى.

إلا أنها، على ما يبدو، لم تكن في واقع الأمر حاسمة عندما كان الأوروبيون يمارسون الابتزاز ضد الحكومات الضعيفة أو التقليدية. حيث كانت هناك كثرة ممن كانت الإدارة البريطانية تُسميهم، مع بعض

الإعجاب، «الأعراق المحاربة» القادرة على إلحاق الهزيمة بالقوات الأوروبية في معارك طاحنة على البر، ولكن ليس في البحر إطلاقاً. وتمتع الأتراك بسمعة رفيعة بوصفهم جنوداً أشداء. وكان لهم دور حاسم في التصدي الفاعل لعدوهم الأخطر، وهو الجيش الروسي، والدول الأوروبية المتنافسة، وفي الحيلولة دون تفكك الإمبراطورية العثمانية أو إرجائه على الأقل.

كما كانت لهم قدرة مشهورة في إلحاق الهزيمة برعايا السلطان العصاة، وإقامة المذابح لهم. وعامل الجنود البريطانيون، بقدر من الاحترام، كلاً من السيخ والباتان في الهند، والزولو في أفريقيا، على النحو الذي تعامل فيه الفرنسيون مع البربر في شمال أفريقيا، وأثبتت التجربة، مرة أخرى، أن القوات المشاركة في تلك الحملات كانت، على الدوام، تُعاني صعوبات جمة جراء حرب العصابات أو المواجهة مع جماعات غير نظامية، وبخاصة في المناطق الجبلية النائية التي لم تكن فيها مصادر دعم محلية للأجانب. وقد واجه الروس مثل هذه المقاومة لعقود عدة في معاركهم مع القوقاز، كما أن البريطانيين تخلوا، للسبب نفسه، عن محاولاتهم السيطرة على أفغانستان مباشرة، واكتفوا بمجرد الإشراف على حدود الهند الشمالية الغربية. ثم إن قيام أقليات صغيرة من الغزاة الأجانب باحتلال بلدان شاسعة بصورة دائمة كان، بحد ذاته، مهمة صعبة ومُكلفة إلى أقصى الحدود. وبما أن الدول النامية كانت قادرة على فرض إرادتها ومصالحها على تلك الأراضي بوسائل أخرى غير الاحتلال المباشر، لم تعد مثل هذه الحملات تستحق المحاولة. ومع ذلك؛ كانت بعض الأطراف ترى أن من الضروري القيام بها عند الضرورة.

لم يكن بوسع الجانب الأكبر من العالم، إذاً، أن يُقرر مصيره بنفسه. كان، في أحسن الحالات، قادراً على إبداء ردود الفعل تجاه القوى الخارجية التي كانت تفرض عليه ضغوطاً متعاظمة الوطأة. كان العالم ـ الضحية ذلك يتألف بصورة عامة من أربعة قطاعات رئيسية.

الأول هو ما ظل قائماً من الإمبراطوريات غير الأوروبية والممالك المُستقلة الواسعة في العالم الإسلامي وآسيا كالإمبراطورية العثمانية، بلاد فارس، الصين، اليابان، ودول أخرى أصغر من تلك مثل مراكش، بورما، سيام وفييتنام. وقد ظلت البلدان الأكبر قائمة، باستثناء اليابان التي سنعالجها بصورة مستقلة[3]، على الرغم من أن الدول الرأسمالية الجديدة في القرن التاسع عشر قد قوضت هذه البلدان؛ أما البلدان الصغرى فقد وقعت في براثن الاحتلال في أعقاب الفترة التي نتناولها في هذا الكتاب. وتستثنى من تلك البلدان سيام، التي ظلت قائمة باعتبارها دولة عازلة بين منطقتي النفوذ البريطانية، والفرنسية. ومن جهة **ثانية**، كانت هناك مستعمرات إسبانيا والبرتغال السابقة في الأمريكيتين، التي غدت الآن دولاً مستقلة إسمياً. كما كانت هناك، من ناحية **ثالثة**، بلدان ما تحت الصحراء في أفريقيا التي لا نود تفصيل الحديث عنها في هذا السياق لأنها لم تكن لها أهمية كبيرة في تلك الفترة. و**أخيراً**، كانت هناك بلدان ـ ضحايا أخرى، في آسيا أساساً، واقعة رسمياً تحت السيطرة الاستعمارية أو الاحتلال.

وقد واجهت هذه البلدان كلها المشكلة الرئيسية المتمثلة في الموقف الذي يجب اتخاذه إزاء الغزو الغربي الرسمي وغير الرسمي لأراضيها. إن تفوق البيض كان، مع الأسف، واضحاً كل الوضوح، وإلى درجة لا تسمح برفضه. وقد حاول هنود المايا في أدغال يوكاتان عام 1847 طردهم والعودة إلى تقاليدهم القديمة، وأفلحوا في ذلك إلى حد كبير بالفعل نتيجة ما عُرف بـ «حرب الأعراق» التي بدأت عام 1847، واستمرت حتى القرن العشرين عندما أعادتهم ألياف الحبال ومضيغة العلكة إلى مدار المدنية الغربية. غير أن حالتهم كانت ذات طابع استثنائي؛ إذ إن اليوكاتان كانت معزولة، والقوة البيضاء الأقرب لهم (وهي المكسيك)، ضعيفة، والبريطانيون (الذين كانت تجاورهم

(3) انظر الفصل الثامن من هذا الكتاب.

مستعمراتهم الاستيطانية) لم يحاولوا إحباط مساعيهم. وقد حاول أهل المايا إبعاد المحاربين الغزاة من الرحّل والقبائل الجبلية، وتوهموا أن ندرة ظهورهم تعود إلى قوتهم لا إلى بُعدهم وعدم جاذبيتهم الاقتصادية. إلا أن القضية بالنسبة إلى أكثر الشعوب المنظمة سياسياً في العالم غير الرأسمالي لم تكن ما إذا كان من الممكن تجنب عالم المدينة البيضاء، بل كيفية مواجهة آثاره سواء بالتكيف معه، أو بمقاومة نفوذه، أو بالوسيلتين كلتيهما.

كان الحكم الأوروبي قد أرغم اثنين من القطاعات التابعة في العالم على «الغربنة»، أو على الاندفاع في هذا الاتجاه. وهذان القطاعان هما المستعمرات السابقة في الأمريكتين والمستعمرات القائمة آنذاك في مختلف أنحاء العالم.

كانت أمريكا اللاتينية قد خرجت من إسار الكولونيالية الإسبانية والبرتغالية باعتبارها منظومة من الدول ذات السيادة، فنياً، التي فُرضت فيها أنماط المؤسسات وقوانين الطبقة الوسطى المألوفة في القرن العشرين على الإرث المؤسسي الذي خلفه الماضي الاستعماري الإسباني البرتغالي، ولا سيما الكثلكة المتأججة المتأصلة في نفوس أهل البلاد الأصليين، وهم الهنود المختلطون وغالباً، الأفريقيون[4] في النطاق الكاريبي والحزام الساحلي في البرازيل. إن إمبريالية العالم الرأسمالية لم تسلك هذا النهج المنظم في محاولة تنصير ضحاياها، فقد كانت هذه البلدان زراعية في مجملها، ولا سبيل إليها أو منها إلى السوق العالمية النائية إلا عبر الأنهار أو الموانىء البحرية أو قوافل البغال. وإذا استثنينا المزارع التي يعمل فيها العبيد، والقبائل القاطنة داخل اليابسة، أو على المناطق الحدودية النائية في أقاصي الشمال والجنوب، كان أهالي تلك البلدان أساساً من الفلاحين ورعاة القطعان من شتى المنابت والألوان، يعيشون

---

(4) بقيت العبادات الوثنية قائمة في مناطق العبيد، واندمجت، بدرجة أو بأخرى، مع الكاثوليكية، غير أنها على ما يبدو لم تستطع منافسة الديانة السائدة، في ما عدا تاهيتي.

في جماعات يعتبرون فيها أرقاء لأصحاب الإقطاعيات الكبرى، وقلما يكونون مستقلين. وكانوا يخضعون لحكم شروط أولئك الإقطاعيين الذين كانت مكانتهم قد تعززت بفعل إلغاء الحكم الكولونيالي الإسباني الذي حاول فرض قدر من السيطرة عليهم، بما في ذلك فرض حماية جزئية للجماعات الفلاحية (وبخاصة الهندية منها). كما تحكّم فيهم المسلحون الذين كانوا يعملون بإمرة ملاّك الأرض أو أي طرف آخر. وقد شكل هؤلاء قاعدة للزعماء (Cadillos) الذين غدوا، هم وأتباعهم من المحاربين، عنصراً مألوفاً في المشهد السياسي في أمريكا اللاتينية. وكانت بلدان تلك القارة، في مجملها، أوليغاركية الطابع. ويعني ذلك، في واقع الممارسة، أن السلطة الوطنية والدولة الوطنية فيها كانتا على جانب كبير من الضعف، إلا إذا كانت تلك البلاد جمهورية بالغة الضآلة، أو كان يحكمها دكتاتور هو من الشراسة بحيث يلقي الرعب، بصورة مؤقتة على الأقل، في نفوس رعاياه في مواطنهم النائية. وحيثما تكون تلك البلدان على صلة بالاقتصاد العالمي، فإن مثل هذا الاتصال كان يتم عبر الأجانب الذين سيطروا على استيراد وتصدير المحاصيل وخدمات النقل البحري (باستثناء تشيلي التي كان لها أسطول خاص ناشط وفاعل). وكان أغلب هؤلاء الأجانب في تلك الفترة من الإنجليز، وبعضهم من الفرنسيين والأمريكيين. وكانت ثروات حكوماتهم تعتمد على ما يختلسون من المتاجرة الخارجية، وعلى نجاحهم في ترتيب القروض التي كان مصدرها بريطانيا أيضاً.

شهدت العقود الأولى بعد الاستقلال انتكاسةً اقتصادية، وفي بعض المناطق، ديمغرافية، مع استثناءات بارزة مثل البرازيل التي انفصلت بصورة سلمية عن البرتغال في ظل إمبراطور محلي، وتجنبت بذلك الاضطرابات والحرب الأهلية، وتشيلي التي عزلها المحيط الهادي في شريطها الساحلي الدافىء. ولم تكن قد تجلّت حتى ذلك الحين آثار عملية ذات شأن للإصلاحات الليبرالية التي أقرتها أنظمة الحكم الجديدة ـ التي مثلت أضخم تجمع للجمهوريات في العالم. وفي بعض الدول الأكثر

اتساعاً، وبالتالي، أهميةً مثل الأرجنتين في عهد الديكتاتور روزاس (1835 ـ 1852)، سيطرت أنظمة الحكم الأوليغاركية، المحلية النشأة، المنكفئة إلى الداخل، المعادية للابتكار. غير أن توسع الرأسمالية المُذهل على الصعيد العالمي، في الربع الثالث من القرن التاسع عشر، قد غيّر ذلك كله، فإلى الشمال من برزخ بنما. أدى ذلك التوسع، من جهة، إلى تعاظم مستوى التدخل المباشر من جانب الدول «المتقدمة» إلى درجة لم تعهدها أمريكا اللاتينية منذ غياب إسبانيا والبرتغال. وخسرت الضحية الأولى، وهي المكسيك، أراضي شاسعة لمصلحة الولايات المتحدة نتيجة عدوان أمريكي عام 1847. ومن جهة ثانية، اكتشفت أوروبا (والولايات المتحدة إلى حد أقل) سلعاً تستحق التصدير من هذه المنطقة الواسعة الناقصة النمو كالسماد الطبيعي من البيرو، والتبغ من كوبا ومناطق أخرى مختلفة. والقطن من البرازيل وغيرها (وبخاصة في أثناء الحرب الأهلية الأمريكية)، والقهوة، بعد عام 1840 من البرازيل في المقام الأول، والنترات من البيرو، وما إلى ذلك. وكانت بعض هذه المواد منتجات الازدهار المؤقت، سرعان ما ترتفع ثم تنحسر، إذ إن حقبة السماد الطبيعي المستخلص من ذرق الطيور البحرية والأسماك لم تبدأ قبل عام 1848، ثم انقرضت في السبعينيات. وحتى سبعينيات ذلك القرن، لم تكن أمريكا اللاتينية قد طورت ذلك النمط الدائم نسبياً من منتجات التصدير التي استمرت حتى العقود الوسطى أو حتى الأخيرة من القرن العشرين. وقد بدأت الاستثمارات الوافدة من الخارج بتطوير البنية التحتية لتلك القارة، بما فيها السكك الحديد، ومرافق الموانئ، والخدمات العامة؛ بل إن الهجرة الأوروبية تعاظمت بصورة جوهرية، وفي الأحوال كافة، إلى كوبا، والبرازيل، والمناطق الدافئة كلها الواقعة في برزخ نهر بلاتي الواقع بين الأرجنتين والأورغواي[5].

---

(5) استقر في البرازيل نحو ربع مليون أوروبي بين الأعوام 1855 و1874. فيما توجه، في الفترة نفسها تقريباً، أكثر من ثمانمئة ألف منهم إلى الأرجنتين والأورغواي.

شدت هذه التطورات من أزر الأقلية الأمريكية اللاتينية التي كانت حريصة كل الحرص على تحديث قارّتها، وهي قارة يسودها الفقر مع أنها غنية بالإمكانات والموارد؛ أو أنها، على حد الوصف الذي أطلقه أحد الرحالة الإيطاليين على البيرو، «شحاذة تجلس على كومة من الذهب». وبدا أن الأجانب، حتى في المواضع التي ينذرون فيها بالخطر كما هي الحال في المكسيك، كانوا أقل خطراً من التضافر المهول بين حالة القصور الذاتي المحلية. ممثلة بالفلاحين المشبعين بالروح التقليدية، وباللوردات المتحدرين من العهود البائدة، وفوق هذا وذاك، الكنيسة. بل يمكن القول إنه إذا لم تذلَّل هذه العوائق قبل كل شيء، فإن فرص التصدي للأجانب كانت معدومة. ولم يكن من الممكن تذليلها إلا بعملية تحديث و«أوْرَبَة» لا هوادة فيها.

إن أيدلوجيات «التقدم» التي استهوت الأمريكيين اللاتينيين لم تكن، ببساطة، الليبرالية «المستنيرة» التي حملها البنتاميون والماسونيون الأحرار، ورفعت لواءها حركات الاستقلال. واستحوذت أنواع شتى من الاشتراكية اليوتوبية على اهتمام المثقفين في أربعينيات القرن. ولم تحمل معها الوعد بالكمال الاجتماعي فحسب، بل بالتنمية الاقتصادية. وتغلغلت فلسفة أوغست كونت (A. Comte) الوضعية تغلغلاً عميقاً في البرازيل (التي ما زال شعارها الوطني هو الشعار الكونتي «النظام والتقدم»). وإلى حد أقل، في المكسيك. ومع ذلك، ظلت «الليبرالية» الكلاسيكية هي السائدة. وأعطى تضافر ثورة عام 1848 والتوسع الرأسمالي العالمي لليبراليين فرصتهم المنشودة، فقد ترتب عليه تدمير حقيقي للنظام القانوني الكولونيالي القديم. وتمثل الإصلاحات الأكثر أهمية، ترابطاً في جانبين هما التصفية المنظمة لعقود ملكية الأرض ما عدا الملكية الخاصة في مجالات الشراء والبيع (كما فعل قانون الأرض البرازيلي، وإلغاء القيود على تجزئة أراضي الهنود في كولومبيا، والثاني، وهذا هو المهم، الحملة الضارية المناوئة للكنيسة التي سعت كذلك إلى إبطال ملكية الكنيسة للأراضي. وبلغت الحملة المعادية للكنيسة نهاياتها

القصوى في المكسيك في عهد الرئيس بينيتو جواريز (Benito Juarez) (1806 ـ 1872) (في دستور عام 1857)، حيث تم الفصل بين الكنيسة والدولة، وألغيت الأعشار، وأرغم الكهنة على أداء قسم الولاء، ومنع المسؤولون من حضور الطقوس الدينية، وبيعت الأراضي المملوكة للسلك الكهنوتي. ولم تكن البلدان الأخرى أقل اندفاعاً في هذا السبيل.

أخفقت المحاولات الرامية إلى استحداث التحولات المجتمعية عبر التحديث المؤسسي الذي تفرض السلطة السياسية، لأنه لم يرفدها استغلال اقتصادي. وكان الليبراليون نخبة حضرية متعلمة في قارة ريفية الطابع. وحيثما كان لهذه الصفوة أي سلطة حقيقية، اعتمدت على مرتكزات لا يمكن الركون إليها، وهي الجنرالات والعشائر المحلية المكونة من العائلات المالكة للأرض. وقد توخت هذه الفئات، لأسباب لا صلة لها على الإطلاق بجون ستيورات مِلْ (John Stuart Mill)، أو داروين (Darwin)، أن تضم زبائنها إلى صفوفها. ومن الوجهتين الاجتماعية والاقتصادية، لم يتغير إلا أقل القليل في الأراضي الداخلية في أمريكا اللاتينية في السبعينيات، باستثناء تعزيز سلطة ملاك الأراضي، وإضعاف قدرة الفلاحين، وبما إن هذا التغيير حدث تحت تأثير السوق العالمية المقتحمة، فقد ترتب عليه إخضاع الاقتصاد القديم لمتطلبات تجارة الاستيراد ـ التصدير، التي كانت تشغلها قلة من الموانئ الكبرى ورؤوس الأموال، ويهيمن عليها الأجانب أو المستوطنون الأجانب. وكان الاستثناء الوحيد في أراضي نهر بلاتي، حيث أدت الهجرة الأوروبية الهائلة في وقت لاحق إلى إنتاج جماعات سكانية جديدة كل الجدة، ذات بنية اجتماعية غير تقليدية على الإطلاق. لقد سلكت أمريكا اللاتينية في الربع الثالث من القرن التاسع عشر سبيل «الغربنة» في شكلها الليبرالي البورجوازي. ونهجت هذا النهج بحماسة أكثر، وفي بعض الأحيان بتهوّر أكثر، مما فعله أي جزء آخر في العالم خارج اليابان. بيد أن النتائج كانت مخيبة للآمال.

في ما عدا الأراضي التي يقطنها المستوطنون الوافدون من أوروبا ـ وفي فترة متأخرة في العادة، أو التي تخلو من جمهرة واسعة من أهل البلاد الأصليين (مثل أستراليا وكندا)، كانت الإمبراطوريات الكولونيالية الممثلة بالدول الكبرى الأوروبية تتألف من مناطق قليلة نعالجها هنا. وأياً كان الأمر، فإن المشكلة الرئيسية المتعلقة بالسكان الأصليين كانت كيفية مقاومة تقدم المستوطنين البيض، مع أن الزولو، والماوري، والبربر كانوا مقاتلين أشداء إذا ما حملوا السلاح، وبوسعهم أن يحققوا ما هو أكبر من المنجزات المحلية. وقد أثارت المستوطنات الراسخة لأهل البلاد الأصليين مشكلات أكثر خطراً، نظراً إلى أن ندرة البيض جعلت من الضروري استخدام أولئك الأصليين على نطاق واسع والإشراف عليهم وإخضاعهم نيابة عن رؤسائهم. وكان لا بد من إدارة أولئك أيضاً من خلال المؤسسات المحلية القائمة بالفعل، وعلى الصعيد المحلي على الأقل. وبعبارة أخرى، كان يواجهون مشكلة مزدوجة هي خلق هيئة من أهل البلاد المحليين الذين جرى دمجهم وامتصاصهم، يحلون مكان الرجل الأبيض، تتعايش فيها أغلبية أو أقلية من المستوطنين البيض مع قطاعات مهمة من السكان الأصليين (جنوب أفريقيا، والجزائر، ونيوزيلندا) وعدد كبير من المناطق التي لم يكن فيها غير قلة قليلة من الأوروبيين بصورة دائمة، أو لم يكن فيها أحد منهم على الإطلاق[6]. وكانت مستعمرات «المستوطنين البيض» تُمثل مثالاً سيئ

(6) لم يبدأ تضريب الأجناس البشرية بالتوالد المختلط على نطاق واسع في تلك المناطق، خلافاً لما كان عليه الحال في الإمبراطوريات ما قبل الصناعة. وما زال بعضه باقياً حتى اليوم (في كوبا، وبورتوريكو، والفلبين مثلاً). ويبدو أنه لم يكن مُجنداً بصورة مطردة، في الهند على الأقل، منذ أواسط القرن التاسع عشر. وجماعات المولّدين (Mestizos) هذه التي لم تندمج في الأعراق «الملونة» (كما كان الحال في الولايات المتحدة)، أو لم «تمرّ» بوصفها بيضاء اللون، كانت في بعض الأحيان تستخدم بوصفهم معاونين إداريين، كما في إندونيسيا، أو في الهند، حيث كانت إدارة الخطوط الحديد وقفاً عليهم. غير أن الخط الفاصل بين «الأبيض» و«الملون»، ظلت واضحة وحادة من حيث المبدأ.

السمعة، وواحدة من المعضلات التي استعطى حلها في التاريخ الكولونيالي، مع أنها لم تكن ذات أهمية على مستوى العلاقات الدولية في الفترة التي نعالجها هنا.

وأيّاً ما كان الأمر، فإن المشكلة الرئيسية المتعلقة بالسكان الأصليين كانت كيفية مقاومة تقدم المستوطنين البيض، مع أن الزولو، والمواري، والبربر كانوا مقاتلين أشداء إذا ما حملوا السلاح، وبوسعهم أن يحققوا ما هو أكبر من المنجزات المحلية. وقد أثارت المستوطنات الراسخة لأهل البلاد الأصليين مشكلات أكثر خطراً، نظراً إلى أن ندرة البيض جعلت من الضروري استخدام أولئك الأصليين على نطاق واسع والإشراف عليهم وإخضاعهم نيابة عن رؤسائهم. وكان لا بد من إدارة أولئك أيضاً من خلال المؤسسات المحلية القائمة بالفعل، وعلى الصعيد المحلي على الأقل. وبعبارة أخرى، كانوا يواجهون مشكلة مزدوجة هي خلق هيئة من أهل البلاد المحليين الذين جرى دمجهم وامتصاصهم، ليحلوا مكان الرجل الأبيض، ولتعديل المؤسسات التقليدية في تلك البلاد، وبما لا يتفق وأغراضها الأصلية في أغلب الأحيان. وفي الاتجاه المعاكس، واجه أهل البلاد الأصليون تحدي الغربنة بوصفه أكثر تعقيداً من مجرد المقاومة.

II

توضح الهند ـ وهي المستعمرة الأكبر بما لا يقاس ـ مدى التعقد والمفارقة في هذا الوضع. إن مجرد وجود الحكم الأجنبي، بحد ذاته، لا يطرح أي مشكلات كبيرة هنا، لأن بقاعاً واسعة من شبه الجزيرة كانت على مدى تاريخها تتعرض للغزو وإعادة الغزو من جانب الأجانب بشتى أنواعهم (ومن آسيا الوسطى في أغلب الأحيان) ممن رسخوا شرعيتهم بصورة كافية عن طريق استخدام القوة الفعلية. ولم تكن ثمة مشكلة في أن للحكام الحاليين بشرة أكثر بياضاً بعض الشيء من الأفغان، ولغة

إدارية أكثر استعصاء على الفهم من الفارسية الفصحى؛ وكان عدم إقبالهم بحماسة على تبني الديانات الغريبة الوافدة (ما أثار حفيظة المُبشرين) بمثابة رصيد سياسي. بيد أن التغيرات التي فرضوها، بصورة مقصورة أو كنتيجة لأيديولوجيتهم الغريبة وأنشطتهم الاقتصادية غير المسبوقة، وكانت أكثر عمقاً وإثارة للاضطراب من كل ما وفد عليهم عبر ممر خيبر.

إلا أنهم كانوا، في الوقت نفسه، ثوريين ومحدودين، فقد بذل البريطانيون قصارى جهدهم لإحداث الغربنة، بل والدمج في بعض المجالات ـ لا لأن الممارسات المحلية مثل إحراق الأرامل (Suttee) كان أمراً مُنكراً لدى الجميع فحسب، بل أساساً لأن ذلك هو ما كانت تقتضية متطلبات الإدارة والاقتصاد. وقد ألحق هذان النشاطان كلاهما الضرر بالبنى الاقتصادية والاجتماعية القائمة حتى وإن لم يكن ذلك من مقاصدهم. من هنا، أفلح ت. ب. ماكولي (T. B. Macaulay) (1800 ـ 1859) في «المحضر» الشهير الذي أعده (1835) بعد مناقشات طويلة، في تأسيس نظام تعليمي إنجليزي صرف لعدد قليل من الهنود الذين كان الراج البريطاني يبدي اهتماماً رسمياً بتعليمهم وتدريبهم.

لقد برزت نخبة صغيرة بعيدة الصلة بالجماهير الهندية، بل إنها قلما ألّت حتى باللغات واللهجات المحلية، واتخذت لنفسها أسماء إنجليزية، على الرغم من أن الإنجليز لم يكونوا يعتبرون الشخص الأكثر تمثلاً لطباعهم إنجليزياً[7]. ومن جهة أخرى رفض البريطانيون الغربنة أو أخفقوا فيها، فقد كانوا يعتبرون الهنود شعباً من الرعايا الذين لم يكن مسموحاً لهم بمنافسة الإمبريالية البريطانية، لأن المغالاة في التدخل في

(7) يحسب لليسار البريطاني أنه كان أكثر التزاماً بروح المساواة؛ ذلك أن واحداً أو اثنين من المهاجرين الهنود انتخبا بالفعل فيما بعد عضوين في البرلمان البريطاني، وكان أولهما عضواً راديكالياً في إحدى دوائر لندن الانتخابية عام 1893.

الممارسات الشعبية تنطوي على مخاطر سياسية جسيمة. كما أن الاختلافات بين طرائق البريطانيين ونحو مئة وتسعين مليوناً من الهنود (1871) كانت تبدو من الضخامة بحيث لا يمكن تذليلها ـ ومن جانب حفنة من الإداريين البريطانيين على الأقل. وتتجلى سلسلة التنويعات على محور عدم الانسجام والعجز هذا في الأدبيات الراقية التي وضعها من حكموا الهند، أو كانت لهم خبرة بأوضاعها في القرن التاسع عشر، وساهم إنتاجهم إسهاماً مهماً في تطوير علوم الاجتماع، والأنثروبولوجيا الاجتماعية، والتاريخ المقارن[8].

كان من نتائج «الغربنة» خلق القيادات، والأيديولوجيات، والبرامج للكفاح الهندي من أجل الاستقلال، الذي برز زعماؤه السياسيون من صفوف من تعاونوا مع البريطانيين، واستفادوا من فترة الحكم البريطاني بوصفهم من البورجوازيين الكومبرادور العاملين لصالح الشركات الأجنبية أو بوسائل أخرى، أو ممن عكفوا على «تحديث» أنفسهم عن طريق محاكاة الغرب.

وكان من نتائج الغربنة كذلك التمهيد لقيام طبقة أصيلة من الصناعيين الذين دفعتهم مصالحهم إلى الوقوف في وجه السياسات الاقتصادية في الحواضر. ويجب الإشارة، مع ذلك، إلى أن النخبة «المغربنة» كانت، على الرغم مما كان يساورها من مشاعر السخط، ترى في البريطانيين نموذجاً وقدوة ومدخلاً إلى فرص جديدة في آن معاً. وكان كاتب المقالة القومي المجهول في **مجلة موكرجي** (*Mukherjee's Magazine*) (كالكوتا 1873) شخصاً معزولاً عندما كتب يقول: «إن السكان الأصليين... وقد أذهلتهم المظاهر السطحية البراقة حولهم، كانوا حتى ذلك الحين قد تقبلوا آراء رؤسائهم، [و] بلغ إيمانهم بهم حد التقديس. ولكن، يوماً بعد يوم، راح شعاع الذكاء يبدد الضباب الذي

(8) انظر الفصل الرابع عشر من هذا الكتاب.

غشي عقولهم[9]. «وبقدر ما كانت ثمة مقاومة للبريطانيين بوصفهم بريطانيين، كانت تصدر عن التقليديين، بل إنها كانت، حتى في هذه الحالة، مقاومة كتومة، باستثناء حالة رئيسية واحدة، في عصر كان الناس فيه، على حد قول الكاتب القومي ب. ج. تيلاك (B. G. Tilak) قد أُخذوا أول الأمر بروح الانضباط التي يتحلى بها البريطانيون. لقد انبهر الناس بالسكة الحديد، والتلغراف، والطرق، والمدارس، فخفّت حوادث الشغب، وأخذ الناس ينعمون بالسلام والهدوء... وتردد على ألسنة الناس القول إن بوسع حتى الأعمى أن يحمل الذهب ويسافر بأمان من بنارس إلى رامشوار»[10].

لقد تَمثل الاستثناء الرئيسي في الانتفاضة الكبرى عامي 1857/1858 في سهول الهند الشمالية، وهي التي عُرفت في التقاليد التاريخية البريطانية باسم «العصيان الهندي». ويُمثل ذلك الحدث مُنعطفاً في تاريخ الإدارة البريطانية. وقد أُعتبر، بأثر رجعي، مُمهداً للحركة الوطنية الهندية. وكان الضربة الأخيرة التي وجهتها الهند التقليدية (الشمالية) إلى الحكم البريطاني القسري المباشر، وأفضت، آخر الأمر، إلى انهيار شركة الهند الشرقية القديمة. وقد بقي هذا القطاع الكولونيالي الخاص على قيد العمل، ودمج في جهاز الدولة البريطانية إلى أن حل مكانه في نهاية المطاف. وكان من جملة البواعث على ذلك سياسة الدمج المنهجي للأراضي الهندية التابعة التي ارتبطت بفترة حكم نائب الملك اللورد دالهاوسي[11] (Dalhosie) (1847 ـ 1856)، وبخاصة ضم مملكة أوود

---

(9) Bipan Chandra, *The Rise and Growth of Economic Nationalism in India; Economic Policies of Indian National Leadership, 1880-1905* (New Delhi: People's Pub. House, [1966]), p. 2.

(10) المصدر نفسه.

(11) بين الأعوام 1848 و1856، ضمت بريطانيا البنجاب، وأجزاء كبيرة من الهند الوسطى، وأجزاء من الساحل الغربي وأوود، وأضافت بذلك الثلث إلى المناطق التي كان البريطانيون يتولون إدارتها مباشرة.

(1856)، وهي آخر مخلفات إمبراطورية المغول. وعجلت بها السرعة والجلافة التي تميزت بها التغييرات التي فرضتها بريطانيا، أو اعتقدت أنها تعتزم إجراءها. أما المناسبة الفعلية، فهي استحداث الخرطوش المزيّت، الذي اعتقد جنود الجيش البنغالي أن فيه إهانة لمشاعرهم الدينية. (وكانت المؤسسات المسيحية والتبشيرية من أوائل الأهداف التي ركزت عليها القضية الشعبية). ومع أن الانتفاضة بدأت باعتبارها حركة عصيان داخلي للجيش البنغالي (إذ إن الهدوء ساد أوساط جيشي بومباي ومدراس)، إلا أنها تحولت إلى انتفاضة شعبية كبرى في السهول الشمالية تزعمها الوجهاء، والأمراء التقليديون، وإلى محاولة لإعادة إحياء الإمبراطورية المغولية. ومن الواضح أن التوترات الاقتصادية التي استثارتها بريطانيا في قضية ضريبة الأرض، وهي المصدر الأساسي للعائدات الحكومية قد أدت دورها في هذا السياق، إلا أن من المشكوك فيه هو ما إذا كانت هي وحدها المسؤولة عن توليد ثورة ضخمة وواسعة الانتشار من هذا النوع، فقد ثار الناس في وجه ما كانوا يعتقدون أنه تدمير مُتسارع ووحشي لسُبُل عيشهم من جانب مجتمع أجنبي.

لقد قمعت حركة «العصيان» بصورة دموية، غير أنها عَلّمت البريطانيين الحذر، فتوقفت عمليات الضم، لأغراض عملية، إلا في مناطق الحدود الشرقية والغربية من شبه القارة الهندية. وتُركت أراض هندية واسعة لم تكن تخضع للحكم البريطاني المباشر ليحكمها عدد من الأمراء المحليين الدمى الذين يأتمرون بأمر البريطانيين، ولكنهم يعاملون بالاحترام والتملق رسمياً، وقد غدا هؤلاء هم أعمدة نظام الحكم الذي جلب لهم الثروة، والسلطة المحلية والمكانة الرفيعة. وتطبيقاً لشعار «فرِّقْ تَسُدْ» الإمبريالي القديم، راح البريطانيون يعتمدون على العناصر الأكثر مُحافظةً في البلاد، مثل ملاّك الأراضي، وخصوصاً الأقلية المسلحة ذات النفوذ. ومع مرور الوقت انطوى هذا التوجه السياسي على إقرار بشدة المقاومة التي تبديها الهند المحافظة للحكم الأجنبي. واستخدم ثقل هذا

التوجه لمواجهة المقاومة المتنامية التي تظهرها نخبة الطبقة الوسطى الهندية - وهي من منتجات المجتمع الكولونيالي، ومن خُدّامه الفعليين أحياناً[12]. وبصرف النظر عن طبيعة سياسات إمبراطورية الهند، فإنها واصلت في ممارساتها الإدارية والاقتصادية إضعاف القوى التقليدية وزعزعة ركائزها، وتعزيز قوى الابتكار، وتشديد حدة الصراع بين هذه التيارات جميعها من جهة، والبريطانيين من جهة أخرى. وبعد انتهاء حكم «الشركة»، تزايد الاحتكاك الاجتماعي مع الطبقات الوسطى الأصيلة جراء تنامي جماعات جديدة من المغتربين البريطانيين، ومعهم زوجاتهم، ما أكد طابعها الانفصالي وتفوقها العرقي. وضاعفت التوترات الاقتصادية في الثلث الأخير من ذلك القرن[13] من المواقف المعادية للإمبريالية. ومع نهاية الثمانينيات كان المؤتمر الوطني الهندي - وهو الوسط الرئيسي للقومية الهندية والحكم الحاكم للهند المستقلة فيما بعد - قد ظهر إلى الوجود. وفي القرن العشرين، أخذت الجماهير الهندية نفسها تتبنى التوجهات الأيديولوجية للنزعة القومية الجديدة.

III

لم تكن الانتفاضة الهندية عام 1857/ 1858 مجرد تمرد جماهيري معاد للاستعمار يقوم به الماضي ضد الحاضر، فثمة ظاهرة مماثلة في نطاق الإمبراطورية الفرنسية هي الانتفاضة الجزائرية العظيمة عام 1871 التي مهدت لانسحاب الجنود الفرنسيين خلال الحرب الفرنسية

---

(12) ر. س. دوت (R. C. Dutt) أول تقييم اقتصادي نقدي للإمبريالية البريطانية في الهند بعنوان: **الهند في العصر الفكتوري** (*India in the Victorian Age*)، وكذلك **تاريخ الهند الاقتصادي** (*Economic History of India*)، وكان عمل هذا الموظف الهندي في الإدارة البريطانية هو الأكثر براعة وكفاءة في ذلك العهد وفي عهود سابقة. وبالمثل، وضع موظف هندي آخر لدى البريطانيين، هو الروائي بانكيم شاندرا تشاترجي (Bankim Chandra Chatterjee)، النشيد الوطني الهندي.

(13) انظر الفصل السادس عشر من هذا الكتاب.

البروسية، ولإعادة توطين الإلزاسيين واللوزينيين الجماعي في الجزائر بعد ذلك. غير أن نطاق هذين التمردين كان، على العموم، محدوداً لجملة من الأسباب أبرزها أن ضحايا المجتمع الغربي الرأسمالي لم تكن، بمجموعها، مستعمرات مقهورة، بل كانت مجتمعات ودولاً أخضعت لعملية إضعاف وزعزعة متزايدة، على الرغم من أنها مستقلة اسميّاً. ويمكن، في هذا السياق، الإشارة إلى اثنتين منها خلال تلك الفترة، مصر والصين. إن مصر، التي كانت إقليماً مستقلاً تقريباً مع أنها من الوجهة الرسمية، جزء من الإمبراطورية العثمانية، كان من المقدر لها أن تكون من الضحايا بحكم ثروتها الزراعية وموقعها الاستراتيجي. وقد تحولت، بفضل ما فيها من موارد، إلى اقتصاد قائم على التصدير الزراعي يزوّد العالم الرأسمالي بالحبوب، والقطن بصورة خاصة. وكان القطن، منذ أوائل الستينيات في القرن التاسع عشر، يمثل 70 في المئة من عائدات الصادرات المصرية. وخلال الازدهار العظيم في الستينيات (عندما تعثرت إيرادات القطن الأمريكية جراء الحرب الأهلية) انتفع حتى الفلاحون بعض الوقت من تلك الصادرات مع أن نصفهم في مصر السفلى عانوا الأمراض الطُفيلية بسبب تمديدات الري البدائية. وأدى هذا التوسع الكبير إلى دفع التجارة المصرية بقوة إلى دائرة النظام الدولي (البريطاني). واجتذاب جمهرة من رجال الأعمال والمغامرين الأجانب الذين كانوا مستعدين كل الاستعداد لتقديم القروض للخديوي إسماعيل. وكان الوضع المالي في مصر آنذاك، مثلما كان في عهود سابقة، غاية في السوء، ففي خمسينيات القرن، لم يكن إنفاق الدولة يتجاوز عائداتها بأكثر من عشرة في المئة. وفي الفترة الممتدة بين عامي 1861 و1871، عندما ازدادت العائدات بمعدل ثلاثة أضعاف، أصبح حجم الإنفاق يمثل، بشكل واضح، ضعفي دخل الحكومة. وجرت تغطية تلك الفجوة بنحو سبعين مليون جنيه من القروض التي جلبت أرباحاً طائلة لطائفة من المولين أشباه رجال الأعمال والأفاقين على حد سواء. وكان الخديوي يأمل من وراء ذلك تحويل مصر إلى دولة حديثة

مهيبة الجانب، وإعادة إعمار القاهرة لتضاهي باريس في عهد نابليون الثالث؛ التي كانت، لأمثاله من الحكام الموسرين نموذجاً مثالياً للفردوس على الأرض. أما العامل الثاني، وهو الموقع الاستراتيجي، فقد استقطب مصالح الدول الغربية والرأسماليين فيها، ولا سيما بريطانيا التي أصبحت مصر بعد شق قناة السويس تُسهم إسهاماً حاسماً في تحديد مكانتها الدولية. وقد تحس الثقافة العالمية بقدر متواضع من الامتنان للخديوي لأنه كلف الموسيقار فيردي (Verdi) بوضع أوبرا «عايدة» (1871). التي عرضت للمرة الأولى في دار الأوبرا التي بناها الخديوي احتفالاً بتدشين القناة (1869)، بيد أن الكلفة التي تكبدها أهل البلاد كانت فاحشة وتجاوزت كل الحدود.

وهكذا، دمجت مصر بوصفها مورِّداً زراعياً، في الاقتصاد الأوروبي. وأكل أصحاب البنوك، من خلال الباشاوات، حتى التخمة، من قوت الشعب المصري. وعندما عجز الخديوي والباشاوات عن دفع الفائدة على القروض التي كانوا قد تهافتوا للحصول عليها ـ وقد بلغت عام 1876 نصف عائدات البلاد الفعلية في تلك السنة، بدأ الأجانب بفرض الرقابة[14]. وربما كان الأوروبيون سيرضون باستغلال مصر مستقلة، غير أن ذلك كان من الصعوبة بمكان في أعقاب انقضاء الازدهار الاقتصادي وانهيار البنية الإدارية والسياسية في حكومة الخديوي. وجاء ذلك بعد أن قوضتها قوى اقتصادية وإغراءات لم يستطع حكام مصر إدارتها أو فهمها. أما البريطانيون، الذين كان وضعهم أكثر قوة ومصالحهم أكثر التصاقاً بواقع الأمور، فقد برزوا بوصفهم هم حكام البلاد الجُدد في ثمانينيات ذلك القرن.

بيد أن انكشاف مصر غير المُعتاد على الغرب قد خلق في تلك الأثناء نخبة جديدة من ملاك الأراضي، والمثقفين، وموظفي الحكومة،

---

(14) Roger Owen, *Cotton and the Egyptian Economy, 1820-1914: A Study in Trade and Development* (Oxford: Clarendon Press, 1969), p. 156.

وضباط الجيش، هي التي تزعمت الحركة الوطنية بين الأعوام 1879 و1882، ضد الخديوي والأجانب على حد سواء. وطيلة القرن التاسع عشر، كانت المجموعة التركية، والتركية - الشركسية الحاكمة قد انحصرت، في ما كان المصريون يتقلدون المناصب وما تحمله من ثروة ونفوذ. وحلت العربية مكان التركية بوصفها اللغة الرسمية للدولة، ما عزز موقع مصر، القوي أصلاً، بوصفها مركزاً للحياة الفكرية الإسلامية. ووجد رائد الأيديولوجية الإسلامية الشهير، الفارسي الأصل، جمال الدين الأفغاني جمهوراً مُتحمساً في أوساط المثقفين المصريين خلال إقامته العظيمة الأثر في تلك البلاد (1871 - 1879). وتجدر الإشارة إلى أن الأفغاني، شأنه شأن تلامذته وزملائه المصريين، لم يقف موقفاً إسلامياً سلبياً من الغرب[15]، إذ كانت عقيدته الدينية موضع شك بالفعل (وأصبح ماسونياً عام 1875). على أنه كان من الواقعية بحيث أدرك أن من الواجب عدم المساس بالمعتقدات الدينية للعالم الإسلامي لأنها تمثل قوة سياسية عظيمة التأثير. وعلى هذا الأساس، استهدفت دعوته إحياء الإسلام ليتسنى للعالم الإسلامي استيعاب العلوم الحديثة، ومن ثم محاكاة الغرب؛ وبين أن الإسلام إنما يأمر فعلاً بالإقبال على العلوم الحديثة، والتمثيل البرلماني، وإقامة جيوش وطنية[16]. وكانت الحركة المعادية للاستعمار في مصر استشرافاً للمستقبل لا ردة إلى الماضي.

---

(15) واصل الأفغاني ما درج عليه المفكرون الإسلاميون من ارتياد آفاق عالمية في نشاطهم، فارتحل من موطنه الأصلي في إيران إلى الهند، وأفغانستان، وتركيا، ومصر، وفرنسا، وروسيا، وغيرها.

(16) Nikki R. Keddie, *An Islamic Response to Imperialism; Political and Religious Writings of Sayyid Jamāl ad-Dīn «al-Afghānī»*, Including a Translation of the Refutation of the Materialists from the Original Persian by Nikki R. Keddie and Hamid Algar (Berkeley; Los Angeles: University of California Press, 1968), p. 18.

وفيما كان باشوات مصر عاكفين على محاكاة النموذج المثالي المغربي الذي توهموه في باريس في عهد نابليون الثالث، كانت الثورة الأعظم بين ثورات القرن التاسع عشر تندلع في الإمبراطورية غير الأوروبية الأعظم، وهي التي اصطلح على تسميتها ثورة تايبنغ في الصين (1850 ـ 1866). وقد تجاهلها المؤرخون الذين اعتبروا أوروبا محور العالم، مع أن ماركس على الأقل كان على وعي مُبكر كاف بها ليكتب عام 1853: «ربما ستعتمد الانتفاضة المقاومة لشعوب أوروبا على ما يحدث في الإمبراطورية السماوية هذه الأيام أكثر مما يترتب على أي من الأسباب السياسية في الوقت الراهن». وكانت الأعظم لا لأن الصين، التي كان أكثر من نصف أراضيها ذات يوم تحت سيطرة تايبنغ، كانت حتى في ذلك الحين، بسكانها الذين بلغ تعدادهم أربعمئة مليون نسمة، هي الدولة الأكثر سكاناً في العالم بأسره، بل لأنها شهدت كذلك أكثر الحروب الأهلية ضراوة وشمولاً إلى حد استثنائي. فقد قضى نحو عشرين مليون صيني خلال تلك الفترة. وكانت هذه التشنجات، في أكثر من ناحية مهمة، من نتائج التأثير الغربي في اليابان.

وربما كانت الصين بين إمبراطوريات العالم التقليدية هي وحدها التي حفلت بالتقاليد الثورية الشعبية، من الوجهتين الأيديولوجية والعملية. حيث كان مفكروها وشعبها على السواء، من الناحية الأيديولوجية، يرون أن مركزية إمبراطوريتهم أمر مفروغ منه، فهي ستظل باقية على الدوام، وفي ظل إمبراطور (عدا فترات الانقطاع في بعض الأحيان). ويتولى إدارتها جماعة من أولي العلم البيروقراطيين الذين اجتازوا بنجاح امتحانات الخدمة المدنية الوطنية الكبرى التي بُدىء بتنظيمها قبل ما يقرب من ألفي سنة، ولم تبطل إلا حين شارفت الإمبراطورية نفسها على الزوال عام 1910. غير أن تاريخها كان سلسلة موصولة من السلالات الحاكمة التي كان من المعتقد أن كلاً منها تمر في دائرة من النهوض، ثم التأزم، ثم القمع. وتنعم، أول الأمر، ثم تضيع «التفويض السماوي»، الذي يضفي الشرعية على سلطتها المطلقة.

وعندما يتغير الحكم من سلالة إلى أخرى لاحقة، يبرز دور حيوي ومتوقع ومعروف لانتفاضات شعبية تبدأ بالعصاة الاجتماعيين، وحركات التمرد الفلاحية، وأنشطة الجمعيات السرية الشعبية، وتصل في نهاية المطاف إلى ثورة كبرى. وإذا كُللت هذه الثورة بالنجاح، فإن في ذلك دليلاً على أن «التفويض السماوي» قد شارف على الانتهاء. وديمومة الصين، بوصفها مركز المدنية العالمية، إنما كانت تحقق في تكرار دائرة تعاقب السلالات، بما فيها هذا العنصر الثوري.

وعلى هذا الأساس، حلت سلالة مانشو، التي فرضها الغزاة الشماليون في أواسط القرن السابع عشر، مكان سلالة مينغ التي كانت بدورها قد أطاحت بسلالة المنغول في القرن الرابع عشر. ومع أن حكم المانشو كان، في ظاهرة، يعمل بسلاسة وذكاء وفاعلية في النصف الأول من القرن التاسع عشر، على الرغم من تزايد الدلائل على استشراء الفساد، كانت أعراض التأزم والتمرد قد تنتابه منذ تسعينيات القرن الثامن عشر. ومهما كانت أسباب ذلك، فقد كان من الواضح أن التزايد الاستثنائي في عدد سكان الصين خلال القرن المنصرم (وذلك أمر ما زال يحتاج إلى إيضاح تفصيلي) قد أخذ يفضي إلى ضغوط اقتصادية حادة. إذ يُقال إن عدد سكان الصين ارتفع من مئة وأربعين مليوناً عام 1741 إلى نحو أربعمئة مليون عام 1834. وكان العنصر الجديد المثير الذي أثر في أوضاع الصين هو الغزو الأوروبي، الذي كان قد ألحق هزيمة ساحقة بتلك الإمبراطورية في حرب الأفيون الأولى (1839 ـ 1842). إن استسلام الصين لقوة بحرية بريطانية متواضعة صدمة مهولة، لأن كشف النقاب عن هشاشة النظام الإمبراطوري. بل إن جانباً من المشاعر الشعبية خارج الأوساط المتضررة بصورة مباشرة من هذا الاستسلام كانت واعية على ذلك. وفي الأحوال كلها، كانت ثمة زيادة ملحوظة وفورية في أنشطة المعارضة المختلفة، وبخاصة الجمعيات السرية القوية العميقة الجذور مثل ترایاد في جنوب الصين، التي استهدفت الإطاحة بسلالة منشوريا الأجنبية، وإعادة أسرة مينغ إلى

الحكم. وقد أنشأت الإدارية الإمبراطورية قوة من الميليشيا ضد البريطانيين، وأسهمت بذلك في توزيع السلاح على السكان المدنيين. وكانت شرارة واحدة كافية لإحداث الانفجار.

وجاءت الشرارة على هيئة زعيم مختلٍّ مهووس مدّعٍ للنبوة هو هونغ هسيو تشوان (Hung Hsiu Chuan) (1813 ـ 1864م). وهو من المرشحين الذين أخفقوا في امتحانات القبول في الخدمة الإمبراطورية المدنية، فتولاهم السخط السياسي فيما بعد. وقد أصيب بعد إخفاقه بالانهيار العصبي الذي انقلب بعدها إلى بدعة دينية. وعام 1847 ـ 1848، أسس «جمعية عِباد الرب» في إقليم كوانفسي، وسرعان ما انضم إليه الفلاحون وعمال المناجم، وجموع من المكدِّين المتسولين المندفعين من جماهير الصين الغفيرة، وأعضاء الأقليات الوطنية المختلفة، وأنصار الجمعيات السرية الأقدم عهداً، لكن مواعظه كانت تتميز بعنصر جديد مهم. فقد تأثر هونغ بالكتابات المسيحية، بل إنه قضى بعض الوقت مع جماعة تبشيرية أمريكية في كانتون، فتجسدت في دعوته عناصر غريبة بارزة في سياق جمع خليطاً من الآراء الثورية الاجتماعية، والهرطقة الدينية، والنزعة المعادية لحكم سلالة مانشو. ونشب التمرد في كوانفسي عام 1850، ثم انتشر بسرعة، حتى إن «المملكة السماوية للسلام الشامل» أُعلنت خلال عام واحد فحسب، ونُصِّب هونغ «ملكاً سماوياً» مطلق الصلاحية. ومما لا شك فيه أن الحركة تطورت إلى نظام حكم اجتماعي ثوري ساندته الجماهير الشعبية، وغلبت عليه المواقف الطاوية، والبوذية، والمسيحية من قضايا المساواة. وقد جرى تنظيمه، نظرياً، على أساس هرمي يعتمد على وحدات عائلية؛ فألغى الملكية الخاصة (ووزعت الأراضي على من يفلحها وليس على أساس التملك)، وأقام المساواة بين الجنسين، وحظر التبغ، والأفيون، والكحول، واستحدث تقويماً زمنياً جديداً (يقوم على أسبوع من سبعة أيام). وجملة إصلاحات ثقافية أخرى، ولم يفته تخفيض الضرائب. ومع نهاية عام 1853، كانت تايبنغ، التي تضم مليوناً على الأقل من المكافحين

المسلحين النشيطين، تسيطر على أكثر المناطق الجنوبية والشرقية من الصين. واستولت كذلك على نانكنغ، مع أنها لم تستطع أن تمتد بصورة فاعلة إلى المناطق الشمالية، بسبب افتقارها إلى الفرسان. وهكذا قُسِّمت الصين، بل إن الأجزاء التي لم تكن قد خضعت لسيطرة تايبنغ، استمرت فيها سلسلة من الانتفاضات الأساسية مثل تمرد الفلاحين في تيين ـ الذي لم يقمع إلا عام 1868، وحركة أقلية مياو الوطنية في كويشو، وأمثالها في الجنوب الغربي والشمال الغربي.

لم تستطع ثورة تايبنغ المحافظة على زخمها، ولم يكن بوسعها أن تفعل ذلك، فقد أدت ابتكاراتها الراديكالية إلى استعداد المعتدلين، والتقليديين، والملاّك الذين تخوفوا من ضياع ما يملكون. ولم يقتصر ذلك على الأغنياء، بل إن إخفاق زعماء الثورة في التزام المعايير الطهرانية التي دعوا إلى تطبيقها قد أضعف من قدرتها على استهواء الجماهير، ما أفضى إلى حدوث الانشقاق بين قياداتها، فاتخذت منذ عام 1856 موقف الدفاع، إلى أن أعيد الاستيلاء على نانكنغ، عاصمة تايبنغ عام 1864، وقد استعادت السلطة الإمبراطورية عافيتها، بيد أن الثمن الذي دفعته لاستعادة هيبتها كان باهظاً، وأصاب منها مقتلاً في وقت لاحق. وأوضحت هذه التطورات كذلك جوانب التعقيد في المؤثرات الغربية.

من المفارقات أن حكام الصين لم يكونوا، كما يبدو، على استعداد لتبني الابتكارات الغربية، خلافاً للمتمردين من عامة الناس، الذين اعتادوا منذ أمد بعيد على العيش في عالم أيديولوجي يتقبل الآراء غير الرسمية الوافدة من مصادر أجنبية (مثل البوذية)، ففي نظر البيروقراطيين ـ العلماء الكونفوشيين الذين كانوا يحكمون الإمبراطورية، كان كل ما هو غير صيني بربرياً. بل كانت ثمة مقاومة للتقانة التي جعلت هؤلاء البرابرة جماعاتٍ لا تُقهر. بل إن الوزير الأول ووجنْ رفع للعرش في وقت متأخر عام 1867 مذكرة مفادها أن افتتاح كلية لتدريس الفلك والرياضيات سوف «يدفع الناس إلى انتهاج سُبل الأجانب»، وسيكون من عواقبه

«انهيار الفضيلة، واستفحال الشر»[17]، كما بقيت ثمة مقاومة ملموسة لبناء خطوط السكك الحديد وأمثالها. ولا شك في أن اتجاهات «تحديثية» قد برزت آنذاك، ولأسباب مختلفة، غير أن بوسعنا أن نخمن أنها كانت تؤثر الإبقاء على الصين القديمة على ما كانت عليه من دون تغيير، ما عدا تعزيز قدرة الصين على إنتاج الأسلحة الغربية. (ولهذا السبب نفسه، أخفقت المحاولات لإنتاجها في ستينيات القرن)، فوجدت الإدارة الإمبراطورية العاجزة نفسها في كل الحالات تواجه الخيار بين تقديم درجات متباينة من التنازلات للغرب. بل إنها، في سياق مواجهتها لثورة اجتماعية كبرى، عزفت عن حشد الطاقات الهائلة الكامنة في الرهبة الشعبية الصينية ضد الغزاة الأجانب. والواقع أن المشكلة الأكثر إلحاحاً بالنسبة إليها، كانت، سياسياً، الإطاحة بحكم تايبنغ. ولهذا السبب، فإن طلب العون من الأجانب كان أمراً مرغوباً فيه في الأحوال كلها، إن لم يكن ضرورة جوهرية؛ كما لم يكن من الممكن الاستغناء عن نواياهم الحسنة، فوجدت الإمبراطورية الصينية نفسها مزعزعة الأركان إلى حد جعلها تعتمد اعتماداً كلياً على الأجانب. وكان الثلاثي الأنجلو ـ فرانكو ـ أمريكي قد فرض سيطرته على جمارك شنغهاي من عام 1854، ولكن بعد حرب الأفيون (1856 ـ 1858)، ونهب بكين (1860) الذي انتهى بالاستسلام النهائي[18]، تعيّن تعيين مفوض إنجليزي من أجل «المساعدة» في إدارة واردات الجمارك الصينية برمتها. وفي واقع الممارسة فإن روبرت هارت (Robert Hart) وهو المفتش العام على الجمارك الصينية بين

---

(17) Hu Sheng, *Imperialism and Chinese Politics* (Peking: Foreign Languages Press, 1955), p. 92.

(18) لم يقتصر تقديم التنازلات هذه المرة على بريطانيا، بل شمل أيضاً فرنسا، وروسيا، والولايات المتحدة. وقد افتتح المزيد من الموانىء البحرية، ومنح التجار الأجانب حرية الحركة والحصانة من القانون الصيني. كما تضمنت التسهيلات منح البعثات التبشيرية الأجنبية حرية العمل، وكذلك حرية التجارة، بما فيها حرية الأجانب في الإبحار في المياه الداخلية، وتقديم التعويضات عن خسائر الحرب وغيرها.

الأعوام 1863 و1909، كان المتنفذ الأول في تسيير الاقتصاد الصيني. ومع أنه كان موضع ثقة الحكومة الصينية، وأعلن ولاءه لتلك البلاد، فإن الترتيبات كانت تنطوي على إخضاع الحكومة الإمبراطورية كلياً للمصالح الأجنبية.

وفي هذا السياق، كان الغربيون في واقع الأمر، يؤثرون مساندة أسرة مانشو على الإطاحة بها، ذلك أن الخيار الثاني كان سيسفر عن قيام نظام ثوري قومي متشدد أو، على الأغلب، عن شيوع الفوضى وحدوث فراغ سياسي لا يريد الغرب ملأه (فقد تبخر بسرعة التعاطف الذي أظهره بعض الأجانب أول الأمر مع العناصر المسيحية في تايبنغ). ومن ناحية أخرى، استعادت الإمبراطورية الصينية بعض عافيتها بفعل تضافر الامتيازات التي قُدمت للغرب، والعودة إلى النزعة المحافظة، والتآكل الذي أوشك أن يقوض سلطتها المركزية. وكان المنتصرون الحقيقيون في الصين هم قدامى العلماء - البيروقراطيين، ففي مواجهة الخطر المشترك الداهم، رصت سلالة المانشو، والارستقراطيون، والنخبة الصينية صفوفهم، وتخلّوا عن جانب كبير من سلطاتهم السابقة. لقد استطاع الأقدر بين العلماء - الإداريين، مثل لي هونغ - تشانغ (1823 - 1901). من إنقاذ الإمبراطورية، عندما تولت بكين حالة من العجز، بحشد جيوش الأقاليم اعتماداً على موارد الأقاليم نفسها. ومهدوا بذلك للانهيار الذي أصاب الصين في وقت لاحق، وحوّلها إلى مجموعة من المقاطعات يحكمها «سادة حرب» مستقلون، فأصبحت إمبراطورية الصين العريقة تلعب، منذئذٍ، في الوقت الضائع.

من هنا، فإن المجتمعات والدول التي وقعت ضحية للعالم الرأسمالي، باستثناء اليابان (التي سنتناولها بصورة مستقلة)[19]، فشلت في التصالح مع الرأسمالية. وسرعان ما اكتشف حكامها ونخبها أن رفضهم القاطع لقبول طرائق الغربيين أو الشماليين البيض لم يكن أمراً

---

(19) انظر الفصل الثامن من هذا الكتاب.

عملياً، وحتى لو كان عملياً، فإنه سيديم حال الضعف الذي كانوا يعانونه. أما سكان المستعمرات التي تعرضت للغزو، وغدت تحت سيطرة الغرب أو إدارته، فمصيرهم كان يتقرر على أيدي الغزاة. أما بالنسبة إلى سكان المناطق الأخرى، فقد انقسموا بين سياسات المقاومة، والتعاون، وتقديم التنازلات، وبين احتضان «الغربنة» الكاملة، والقبول ببعض الإصلاحات التي ستمكنهم من اكتشاف ما لدى الغرب من علوم وتقانة من دون أن تُضار ثقافتها ومؤسساتها. وعلى العموم، اندفعت المستعمرات السابقة للدول الأوروبية في الأمريكتيْن إلى محاكاة الغرب غير المشروطة، وحالت سلسلة الملكيات المستقلة، وأحياناً القديمة التي امتدت من مراكش على المحيط الأطلسي حتى الصين على المحيط الهادي، إلى نوع من الإصلاح، عندما لم تستطع الاستمرار في الانفصال والانعزال الكامل عن التوسع الغربي.

تمثل حالتا مصر والصين، بطرق مختلفة، الخيار الثاني. كانت كل منهما دولة مستقلة قوامها مدنية عريقة وحضارة غير أوروبية، واخترقتها التجارة والأموال الغربيتان (سواء تم القبول بهما طواعية أم قسراً)، وكانتا عاجزتين عن مقاومة قدرات الغرب العسكرية والبحرية. لا سيما أن القوات التي حُشدت لصد الغرب لم تكن على مستوى عالٍ من الاقتدار. ولم تكن القوى الرأسمالية مهتمة بصورة خاصة في تلك المرحلة باحتلال أي من البلدين، طالما أن مواطنيها قد منحوا الحرية الكاملة ليفعلوا ما يشاءون، بما في ذلك الامتيازات الخارجة عن نطاق التشريعات الوطنية لتلك الدولتين. وقد وجدت نفسها متورطة على نحو مطرد في شؤون هذين البلدين جراء تداعي أنظمة الحكم المحلية تحت وطأة التأثير الغربي، واحتدام المنافسة بين الدول الغربية. لقد رفض حكام كل من الصين ومصر سياسة المقاومة الوطنية، وفضلوا عليها، حيثما كان لهم الخيار، التبعية للغرب، ما عزز سلطتهم السياسية. وفي تلك المرحلة، لم تكن بين أوساط من أبدوا المقاومة عبر الإحياء الوطني غير قلة قليلة آثرت «الغربنة» المباشرة. واستعاض هؤلاء عن ذلك بنوع من

التجديد الأيديولوجي الذي يسمح لهم بأن يستوعبوا، في منظوماتهم الثقافية، العناصر التي جعلت من الغرب قوة بهذا الجبروت.

IV

غير أن هذه السياسات منيت بالإخفاق. ذلك أن مصر سرعان ما خضعت للسيطرة المباشرة للقوى الغازية. وتحولت الصين إلى كتلة من العجز في طريقها إلى الانحلال والتفكك. وحيث إن أنظمة الحكم والحكام فيها آثروا التبعية، تعذر على المصلحين الوطنيين النجاح، لأن الثورة كانت هي الشرط المسبق للنجاح. غير أن ساعة الثورة لم تكن قد حانت بعد[20].

من ثم، وقعت بلدان ما يسمى الآن «العالم الثالث»، أو البلدان «الناقصة النمو»، ضحية للغرب لا حول لها ولا طول. ولكن، هل حققت هذه البلدان أي منافع تعويضية عن ذلك الخضوع؟ لقد شعرت بعض البلدان المتخلفة، كما رأينا، أنها استفادت. وكانت الغربنة هي الحل الوحيد. وإذا كان ذلك يتعدى مجرد محاكاة الأجانب ويعني قبول التحالف معهم ضد القوى التقليدية المحلية، فلا بأس من دفع الثمن لذلك. ومن الخطأ النظر إلى هؤلاء «المحدِّثين» المتحمسين، وفق معايير حركات التحرر الوطني اللاحقة، بوصفهم خونة وعملاء للإمبريالية الأجنبية، فربما كانوا يرون أن الأجانب، بقوتهم التي لا تُقهر، سيساعدونهم على تحطيم أغلال التقاليد، بما يتيح لهم أن يقيموا في ما بعد مجتمعاً قادراً على الوقوف في وجه الغرب. وقد كانت النخبة المكسيكية في ستينيات القرن التاسع عشر موالية للأجانب لأنها بلغت حضيض اليأس من بلادها[21]. كذلك فإن ماركس نفسه رحب بانتصار

---

(20) الواقع أن الثورة وحدها هي التي قوضت أو حولت الإمبراطوريات القديمة غير الغربية في مطلع القرن العشرين، ومنها تركيا، وإيران، والصين.

(21) Jean A. Meyer, in: *Annales économies sociétés civilisations (ESC)*, vol. 25, no. 3 (1970), pp. 796-797.

الأمريكيين على المكسيك في حرب عام 1847، لأنه حمل معه التقدم التاريخي وخلق الشروط اللازمة لنمو الرأسمالية، أي، بعبارة أخرى، للإطاحة بالرأسمالية في المستقبل. كما أن الآراء التي أدلى بها عام 1853 حول «رسالة» بريطانيا في الهند معروفة. إذ كانت هذه الرسالة مزدوجة وذات وجهين، «إزالة المجتمع الآسيوي القديم، وإرساء دعائم المجتمع الغربي المادية في الهند. وكان يعتقد، بحق، أن «الهنود لن يتمتعوا بثمار عناصر المجتمع الجديد التي نثرتها بينهم البورجوازية البريطانية إلا بعد أن تحل البروليتاريا الصناعية مكان الطبقات الحاكمة في بريطانيا نفسها، أو أن يغدو الهنود أنفسهم من القوة بحيث يزيحون عن كاهلهم النير البريطاني كلياً».

ومع ذلك كله، وعلى الرغم من «الدم والقذارة . . . والبؤس والانحطاط» التي دفعت البورجوازية شعوب العالم إليها، وجد ماركس في الفتوحات البورجوازية عناصر إيجابية وتقدمية.

لكن مهما كانت النتائج النهائية (والمؤرخون المحدثون أقل تفاؤلاً من ماركس في خمسينيات القرن التاسع عشر). إلا أن مؤشرات الحاضر تبين أن النتيجة الواضحة للغزو الغربي هي «فقدان . . . العالم القديم من دون استبداله بعالم جديد»، ما أضفى «على بؤس الهنود في هذه الأيام نوعاً غريباً من السوداوية والكآبة»[22] التي انتابت كذلك الشعوب الأخرى من ضحايا الغرب. ولم يكن من الممكن تلمس المكاسب في الربع الثالث من القرن التاسع عشر. أما الخسائر، فكانت واضحة كل الوضوح، ففي الجانب الإيجابي، نشهد السفن البخارية، وخطوط السكك الحديد، والتلغراف، وزمراً صغيرة من المثقفين الذين تلقوا

---

(22) Karl Marx, «The British Rule in India,» *New York Daily Tribune* (25 June 1853), and Karl Marx, *Karl Marx, Friedrich Engels. Werke* (Berlin: Dietz, 1956-), vol. IX, p. 129.

تعليماً غربياً، وزمراً أصغر من ملاك الأرض ورجال الأعمال المحليين الذين جمعوا ثروات طائلة بسبب سيطرتهم على مصادر التصدير وعلى التصرف بالقروض الأجنبية من أمثال الهاسندادو (Hacendados) في أمريكا اللاتينية، وأصحاب الملايين البارسيين (Parsi) في بومبي. وكان هناك التواصل ووسائل الاتصال ـ المادية والثقافية. كما كان ثمة توسع في الإنتاج القابل للتصدير في بعض المناطق الصالحة لذلك، مع أنه لم يكن يجري على نطاق واسع إلا لماماً. ويمكن القول إنه قد استعيض كذلك عن الفوضى بالنظام العام، والاضطراب بالأمن في بعض المناطق التي خضعت للحكم الكولونيالي المباشر. غير أن المتفائلين بالفطرة وحدهم هم الذين سيرون أن هذه الجوانب قد غلبت الجانب السلبي ورجحت كفتها في حسابات تلك الفترة.

إن المفارقة الصارخة بين العالمين النامي وناقص النمو، كانت، وما زالت، تتمثل في الفجوة القائمة بين الفقر والثروة. في العالم الأول، كان الناس يموتون جوعاً، وبمعدلات كانت تعتبر قليلة بمقاييس القرن التاسع عشر، ولنقل إنها بلغت خمسمئة شخص سنوياً في المملكة المتحدة. أما في الهند، فقد كانوا يموتون بالملايين ـ وبنسبة واحد من كل عشرة أشخاص في أوريسا في مجاعة عام 1865 ـ 1866، وما يتراوح بين الربع والثلث من سكان راجبوتانا بين عامي 1868 ـ 1870؛ وثلاثة ملايين ونصف المليون من البشر (أي 15 في المئة من السكان) في مدراس، وربع مليون (أو 20 في المئة) من سكان ميسور خلال المجاعة الكبرى بين عامي 1876 ـ 1878، وهي الأسوأ حتى ذلك الحين في تاريخ الهند المظلم طيلة القرن التاسع عشر[23]. وليس من السهل أن نفصل بين المجاعات والكوارث العديدة الأخرى التي ألمت بالصين،

---

(23) B. M. Bhatia, *Famines in India; a Study in Some Aspects of the Economic History of India, 1860-1965* (Bombay; New York: Asia Pub. House, [1967]), pp. 68-97.

غير أن عام 1849 شهد مصرع نحو 14 مليون شخص، فيما قضى نحو 20 مليون آخرين في غضون عشر سنين (1854 ـ 1864)[24]. وداهمت مجاعة رهيبة أجزاء من جزيرة جاوه بين العامين 1848 و1850. كما شهدت أواخر الستينيات وأوائل السبعينيات من ذلك القرن انتشاراً وبائياً للجوع في كامل حزام البلدان الممتد من الهند شرقاً حتى إسبانيا غرباً[25]. وانخفض عدد سكان الجزائر المسلمين بما ينيّف على 20 في المئة بين الأعوام 1860 و1872[26]. أما بلاد فارس، التي كان عدد سكانها يُقدر بما يتراوح بين ستة إلى سبعة ملايين نسمة في أوائل السبعينيات، فيعتقد أن عدد ضحايا المجاعة الكبرى التي داهمتها بين الأعوام 1871 ـ 1873 قد وصل إلى مليون ونصف أو مليونين[27]. ومن الصعب التأكد مما إذا كان الوضع أسوأ مما كان عليه في النصف الأول من ذلك القرن (ربما باستثناء الهند والصين)، أو أنه بقي على ما كان عليه. وأياً كان الحال، إن المفارقة وصلت حداً مثيراً مع البلدان النامية في تلك الفترة، حتى وإن أقررنا بأن عصر الانتقال التقليدي والتحرك الديمغرافي الكارثي (الذي شهده العالم الإسلامي على الأغلب) كان قد بدأ يفسح المجال لأنماط سكانية جديدة في النصف الثاني من ذلك القرن.

---

(24) Ta Chen, *Chinese Migrations, with Special Reference to Labor Conditions* (Washington: Government Printing Office, 1923).

(25) Nicolas Sanchez-Albornoz, «La Modernisation démographique de l'Espagne: Le Cycle vital annuel 1863-1900,» *Annales économies sociétés civilisations (ESC)*, vol. 24, no. 6 (novembre-décembre 1969), et M. Emerit, «Le Maroc et l'europe jusqu'en 1885,» *Annales économies sociétés civilisations (ESC)*, vol. 20, no. 3 (mai-juin 1965).

(26) Paul Leroy-Beaulieu, *L'Algérie et la Tunisie*, 2e éd. (Paris: Guillaumin, 1897), p. 53.

(27) *Almanach de Gotha* ([Gotha: Justus Perthes, 1876]).

وجُماع القول إن أغلب الشعوب في العالم الثالث لم تكن، على ما يبدو، قد حققت أي فائدة ذات شأن من التقدم غير المسبوق والخارق للعادة الذي حققه الغرب. وإذا كانت هذه الشعوب قد تصورت أن ما لحقها كان مجرد تعثر عابر في سبُل عيشها القديمة، فإن مثل هذا التصور أقرب إلى التخمين مما هو في الواقع؛ فقد كان الواقع أكثر بكثير من وفود جماعات من الرجال ذوي الوجوه الشاحبة المحمرة، والقبعات الصلبة الغريبة، والسراويل الأسطوانية الشكل، الذين قدموا من أقطار نائية ومدن كبيرة. إنهم لا ينتسبون إلى عالمهم، وكان أغلبهم يشكون في أنهم سيرحبون بأولئك الوافدين. غير أن أهل البلاد الذين قاوموهم باسم تقاليدهم العريقة باءوا بالهزيمة، أما من قاوموهم بسلاح التقدم نفسه، فلم تأت ساعتهم بعد.



الفصل الثامن

الرابحون

ما هي طبقات المجتمع وفئاته التي ستصبح الآن هي الممثلة الحقيقية للثقافة، وستلد لنا علماءنا، وفنانينا، وشعراءنا، وشخصياتنا المُبدعة؟

أم أن كل شيء سيتحول إلى تجارة كبيرة، كما هي الحال في أمريكا؟

جاكوب بيركهارت، 1868 ـ 1871[1].

غدت الإدارة في اليابان مستنيرة وتقدمية، فقد أُقرت التجربة الأوروبية دليلاً استرشادياً، وأصبح الأوروبيون يشاركون في خدماتها، وأخذت العادات والأفكار الشرقية تتنحى وتفسح المجال للمدنية الغربية.

السير ت. إرسكين ماي، 1877[2].

---

(1) Jakob Burckhardt, *Reflections on History* = *Weltgeschichtliche betrachtungen*, Translated by M. D. H. (London: G. Allen & Unwin ltd. [1943]), p. 170.

(2) Thomas Erskine May, *Democracy in Europe, a History*, 2 vols. (London: Longmans, Green and Co, 1877), vol. 1, p. 25.

I

لم يحدث من قبل أن هيمن الأوروبيون على العالم هيمنة كاملة، ومن دون منازع، أكثر مما فعلوا في الربع الثالث من القرن التاسع عشر. وبعبارة أدق، لم يحدث أن سيطر البيض المتحدرون من أصول أوروبية على العالم بأقل مستوى من التحدي مثلما فعلوا آنذاك، ذلك أن عالم الاقتصاد الرأسمالي والقوة شمل، على الأقل، دولة، أو اتحاداً غير أوروبي هو الولايات المتحدة الأمريكية. ولم تكن الأخيرة تؤدي دوراً أساسياً في الحلبة الدولية حتى ذلك الحين، من هنا، لم يولها رجال الدول الأوروبيون إلا اهتماماً متقطعاً، إلا إذا كانت لهم مصالح في منطقتين في العالم كانت فيهما مصالح أمريكية مباشرة، وهما القارتان الأمريكيتان، والمحيط الهادي. غير أنه لم تكن هناك دولة أخرى، باستثناء بريطانيا، تتطلع بصورة مطردة إلى ارتياد آفاق عالمية، كما لم تكن ثمة دولةٌ أخرى منشغلة بأمر هاتين المنطقتين على الدوام، فقد أسفرت حركة تحرير أمريكا اللاتينية عن إزالة نفوذ المستعمرات الأوروبية كلها من البر الأمريكي الجنوبي والأوسط، باستثناء غويانا التي كانت تزود البريطانيين ببعض السكر، والفرنسيين بسجن يلقون في غياهبه المجرمين الخطيرين، والهولنديين برابطة تذكرهم بعلاقاتهم السابقة مع البرازيل. أما جزر الكاريبي، بما عدا جزيرة هسبانيولا (التي كانت تشكل جمهورية هاييتي الزنجية، وجمهورية الدومينيكان، بعد أن حررت نفسها آخر الأمر من هيمنة إسبانيا، وغلبة هاييتي، فقد بقيت ممتلكات كولونيالية لإسبانيا (كوبا وبورتوريكو)، ولبريطانيا، وفرنسا، والأراضي الواطئة، والدانمارك. وفي ما عدا إسبانيا التي كانت تتوق إلى استعادة جانب من إمبراطوريتها الأمريكية، لم تكن أي من الدول الأوروبية تكترث، إلا قدر استطاعتها، بممتلكاتها في جزر الهند الغربية. وبحلول عام 1875 كان الحضور الأوروبي الواسع يقتصر على قارة أمريكا الشمالية؛ أي على كندا الشاسعة المساحة، الناقصة النمو، التابعة لبريطانيا، والفارغة تقريباً، التي تفصلها عن الولايات المتحدة

حدود طويلة تمتد خطاً مستقيما من أطراف أونتاريو حتى المحيط الهادي، وكذلك المنطقة المتنازع عليها على جانبي ذلك الخط، التي كانت مشكلتها قيد التسوية آنذاك بطريقة سلمية لا تخلو من المساومات الدبلوماسية الشائكة، على مدار قرن كامل، وانتهت بترسيمها لصالح الولايات المتحدة في المقام الأول. أما في ما يتعلق ببناء خط السكة الحديد العابر للقارة، فإن من الممكن أن بريتيش كولومبيا لم تستطع مقاومة جاذبية الولايات المحاذية للمحيط الهادي في الولايات المتحدة. وبالنسبة إلى سواحل المحيط الآسيوية، فإن حضور الدول الأوروبية الكبرى اقتصر على البقاع الشرقية القصوى من سيبيريا الروسية، ومستعمرة هونغ كونغ البريطانية، وموطئ القدم البريطاني في ماليزيا، على الرغم من أن الفرنسيين كانوا قد بدأوا باحتلال الهند الصينية. ولم تكن مخلفات الاستعمارين الإسباني والبرتغالي، وكذلك الهولندي في ما يعرف الآن بإندونيسيا، تثير أي مشكلات على الصعيد الدولي.

من هنا لم يسفر توسع الولايات المتحدة الإقليمي عن أي هزات سياسية ذات شأن في أوساط صنع القرار في أوروبا. وقد تنازلت المكسيك، بعد حرب كارثية بين الأعوام 1848 و1853، عن جزء واسع من المنطقة الجنوبية الغربية، يضم كاليفورنيا، وأريزونا، ويوتاه، وشرائح من كولورادو ونيومكسيكو. وباعت روسيا ألاسكا عام 1867. وغدت هذه المناطق، مع الأراضي القديمة، ولايات في اتحاد الولايات الأمريكية حالما تحولت إلى قوة اقتصادية مؤثرة وقريبة المنال. كاليفورنيا عام 1850، أوريغون 1859، نيفادا 1864، بينما اتخذت مينيسوتا، وكانساس، وويسكونسن، ونبراسكا في المناطق الغربية الوسطى كيان الولايات المتميزة بين الأعوام 1858 و1867. ولم تتجاوز المطامح الإقليمية الأمريكية هذه الحدود، مع أن ولايات العبيد في الجنوب كانت تتطلع إلى توسيع مجتمع العبيد إلى جزر الكاريبي الكبرى، بل أعربت كذلك عن طموحات أعرض في أمريكا اللاتينية. وكانت الصيغة الأساسية للهيمنة الأمريكية تتمثل في أشكال السيطرة غير المباشرة؛ إذ لم تكن ثمة قوة أجنبية قادرة

على التحدي المباشر الفاعل حيث أدركت الحكومات الضعيفة المستقلة، اسمياً، أن من الأفضل لها أن لا تجانب الصواب في علاقاتها مع العملاق الجاثم في الشمال. ولم تتخلَّ الولايات المتحدة عن هذه التقاليد الراسخة إلا في نهاية القرن، خلال شيوع نمط الإمبريالية الرسمية على الصعيد الدولي. «مسكينة هذه المكسيك»، كما كان الرئيس بورفيريو دياز (Porfirio Diaz) (1828 ـ 1915) يقول بحسرة: «إنها بعيدة عن الله كل البُعد، وقريبة كل القرب من الولايات المتحدة الأمريكية». بل إن الدول الأمريكية اللاتينية التي كانت تحس بأنها قريبة من العلي القدير، أخذت تدرك إدراكاً متزايداً أن واشنطن هي ما يجب عليها أن تحاذره في هذا العالم. وقد حاول المغامر الأمريكي الشمالي، بين آن وآخر، أن يرسخ نفوذه المباشر عبر المعابر الأرضية أو حول الجسور الضيقة الممتدة بين المحيطين الأطلسي والهادي، غير أن ذلك لم يُؤْتِ ثمارَهُ إلا بعد أن شُقَّت قناة بنما بالفعل، واحتلتها القوات الأمريكية في جمهورية صغيرة مستقلة اقتطعت لهذا الغرض من ولاية كولومبيا الأمريكية. غير أن ذلك حدث في وقت لاحق.

كانت أغلبية العالم، وبخاصة أوروبا، تُدرك إدراكاً حاداً ما تَعنيه الولايات المتحدة، إن لم يكن لشيء، فلأن ملايين عدة من الأوروبيين كانوا قد هاجروا إليها في تلك الفترة (1848 ـ 1875)، ولأن حجمها الهائل والتقدم الخارق الذي حققته قد جعلا منها معجزةً تقنيةً على وجه المعمورة. إنها، كما درج الأمريكيون على القول، هي الأرض التي تمثل أفعل التفضيل في كل شيء، فأنّى لك أن تجد مدينة مثل شيكاغو، التي لم يكن عدد سكانها عام 1850 يتجاوز ثلاثين ألف نسمة، وأصبحت، خلال أربعين سنة، سادس المراكز الحضرية الكبرى في العالم، وتجاوز عدد سكانها نصف مليون نسمة؟ ولم يكن ثمة في أي بلد آخر خطوط للسكة الحديد أطول من تلك التي عبرت القارة الأمريكية من أقصاها إلى أقصاها، ولا مدى أعرض من مداها (الذي بلغ 49,168 ميلاً عام 1870). ولم يكن هناك من أصحاب الملايين من هو أكثر عصامية، وبهذه الصورة

المثيرة، من أولئك الأمريكيين الذين لو لم يكونوا هم الأكثر ثراءً - مع أنهم سرعان ما أصبحوا كذلك - لكانوا الأكثر عدداً. وكانت صحافتهم هي الأكثر اقتحاماً وجرأة، وسياسيوهم الأكثر بريقاً وفساداً، ولم يكن ثمة بلدان تتفوق عليهم في الإمكانات والموارد التي لا حدود لها.

كانت «أمريكا» آنذاك ما زالت هي العالم الجديد، وهي المجتمع المفتوح في البلاد المفتوحة، التي كان بوسع المهاجر الذي لا يمتلك شروى نقير، كما شاع آنذاك على نطاق واسع، أن يعيد فيها بناء نفسه، (ويكون «عصامياً») فيغدو، من ثَمَّ، قادراً على المساهمة في إقامة جمهورية حرة ديمقراطية تشيع فيها المساواة. وهي الوحيدة، من حيث الحجم والأهمية، التي كانت يومئذ قائمة حتى عام 1870. وربما لم تعد صورة الولايات المتحدة مشرقة كما كانت قبل ذلك، وخارج حدودها على الأقل، بوصفها بديلاً سياسياً ثورياً للأنظمة الملكية الأرستقراطية العميقة في العالم القديم. وحلت مكانها صورة لأمريكا بوصفها ملاذاً من الفقر، ومنبعاً للأمل الفردي من خلال الإثراء الشخصي. وأخذ العالم الجديد يواجه أوروبا بصورة متزايدة لا بوصفه مجتمعاً جديداً، بل باعتباره مجتمع الأثرياء الجُدد ومُحدثي النعمة.

ومع ذلك، لم يكن الحلم الثوري داخل الولايات المتحدة قد تلاشى بعد. لقد ظلت صورة الجمهورية هي صورة لأرض المساواة، والديمقراطية، وربما، فوق هذا وذلك، أرض الحرية الطليقة الفوضوية التي لا تحدها حدود، والفرص غير المحدودة التي أصبح وجهها الآخر يعني ما اصطلح على تسميته «المصير الجليّ»[3].

---

(3) «تعكف الولايات الأطلسية... وبصورة مطردة، على تجديد الحكومات والبنى الاجتماعية في أوروبا وأفريقيا. وعلى ولايات المحيط الهادي، بالضرورة، أن تؤدي الوظائف الراقية والمفيدة نفسها في آسيا» وليام هـ. سيوارد (William H. Seward) (1850) ورد في:
Henry Nash Smith, *Virgin Land* (New York: [n. pb.], 1957), p. 191.

وأنا مدين بالشكر لهذه الدراسة القيمة للتيار الزراعي - اليوتوبي في الولايات المتحدة، وكذلك لدراسة إريك فونر: Eric Foner, *Free Soil, Free Labor, Free Men: The* =

وليس بوسع المرء أن يفهم الولايات المتحدة في القرن التاسع عشر أو، في ما يخص هذه المسألة، في القرن العشرين، إلا بإعطاء هذا العنصر اليوتوبي حق قدره، مع أنه قد انحسر بصورة متزايدة وتحول إلى قوة اندفاع اقتصادية وتقنية راضية عن نفسها، إلا في أوقات الأزمة، فقد كانت، في الأصل، يوتوبيا زراعية لجماعة من المزارعين الأحرار يعيشون على أرض حرة. وهي لم تستطع أن تتصالح مع عالم المدن الكبرى والصناعة الضخمة، ولم تكن قد تقبلت هيمنة أي منها. وحتى في مركز نموذجي للصناعة الأمريكية مثل بلدة باترسون في نيوجيرسي المختصة بصناعة النسيج، لم تكن روح النشاط التجاري الحر هي القوة الأساسية الدافعة بعد. وخلال إضراب عمال مغازل الأوشحة عام 1877، راح أصحاب المصانع يجأرون بالشكوى المريرة من أنهم لم يتمتعوا بالدعم، لا من العمدة الجمهوري، ولا المجلس البلدي الديمقراطي، ولا الصحافة، ولا المحاكم والرأي العام[4].

ومع ذلك، ظل أغلب الأمريكيين ريفيين، حيث كان في عام 1860 نحو 16 في المئة فحسب منهم يعيشون في مدن يتجاوز عدد سكان كل منها ثمانية آلاف نسمة. وكانت اليوتوبيا الريفية، بمعناها الحرفي - أي وجود فلاح صغير حر يملك أرضاً ويزرعها بنفسه - قادرة على استجماع النفوذ السياسي أكثر من أي وقت مضى، ولا سيما في أوساط جمهرة السكان المتزايدة في الغرب الأوسط. وقد أسهم هؤلاء في تشكيل الحزب الجمهوري لأسباب عدة، منها الموقف المعادي للرق، (ذلك أن برنامج الجمهورية اللاطبقية المؤلفة من المزارعين الملاّك الأحرار لم يكن معنياً بالرق، ولا مهتماً بالزنوج،

Ideology of the Republican Party before the Civil War (New York: Oxford = University Press, 1970).

(4) Herbert G. Gutman, «Social Status and Social Mobility in Nineteenth Century America: The Industrial City. Paterson, New Jersey,» (Mimeo), 1964.

بل إنه استثنى الرق كلياً). وقد حقق هذا البرنامج أعظم انتصاراته بصدور قانون السكنى (1862)، الذي منح كل رب أسرة أمريكي يزيد عمره على واحد وعشرين سنة، مجاناً، مئةً وستين فداناً من الأراضي الحكومية المَشاع بعد إقامته فيها خمس سنوات مستمرة، أو يشتريها بمعدل دولار واحد وستة وعشرين سنتاً للفدان بعد ستة أشهر. وغني عن البيان أن مثل هذه اليوتوبيا لم يحالفها النجاح. حيث في الفترة بين 1862 و1890 انتفعت أقل من 400 ألف عائلة بموجب قانون السكنى، بينما ازداد عدد سكان الولايات المتحدة بنحو 32 مليوناً، وكان مستوى الزيادة في الولايات الغربية أكثر من 10 ملايين. وبيعت أراضٍ، بأكثر مما سمح به القانون، لخطوط السكة الحديد (التي منحت مساحات ضخمة من الأرض المَشاع لتتاح لها الفرصة لاسترجاع الخسائر التي ترتبت على الإنشاءات والعمليات من خلال الأرباح المتحققة من عمليات المضاربة والتعمير). وفي العقود الأخيرة من ذلك القرن، أصبح من النادر أن يدور الحديث عن الحلم الرَّعَويّ بالفلاحة الحرة.

وسواء اعتبرنا هذا التحول في الولايات المتحدة نهاية لحلم ثوري أو علامة على بلوغ سن الرشد، فإنه لم يطرأ إلا في الربع الثالث من القرن التاسع عشر، وتشهد الأساطير على أهمية هذه الحقبة؛ إذ ينتسب إليها اثنان من أعمق الموضوعات الباقية المتجسدة في الثقافة الشعبية في التاريخ الأمريكي: «الحرب الأهلية»، و«الغرب». ويرتبط هذان الموضوعان ارتباطاً وثيقاً؛ لأن غزو الغرب (وبصورة أدق، الأجزاء الجنوبية والوسطى منه)، هو الذي أثار النزاع بين ولايات الجمهورية؛ أي بين تلك التي تمثل المستوطنين الأحرار والرأسمالية الصاعدة في الشمال، والأخرى التي تمثل مجتمع العبيد في الجنوب. لقد كانت تمثل النزاع الذي نشب بين كانساس ونبراسكا عام 1854 حول استحداثات الرق في الغرب الأوسط، ما أسفر عن تأسيس الحزب الجمهوري. وكان من نتائج ذلك انتخاب ابراهام لنكولن رئيساً عام 1860. ومّهد

ذلك الحدث لانفصال الولايات الاتحادية في الجنوب فيما بعد عن الاتحاد عام 1861[5].

لم يكن توسع الاستيطان في الجانب الغربي أمراً جديداً، لكنه تسارع على نحو مثير بفعل خطوط السكك الحديد ـ التي وصل أولها إلى الميسيسبي ثم تجاوزه على جسر إلى الضفة الأخرى بين الأعوام 1854 و1846، كما عجّل به إعمار كاليفورنيا[6]. وبعد عام 1849، لم يعد «الغرب» يمثل حدود اللانهاية، وأصبح، عوضاً عن ذلك، مساحةً فارغة شاسعة من المروج والصحارى والجبال المترامية الممتدة بين منطقتين تشهدان النمو المتسارع شرق ساحل الأطلسي وعلى امتداده. وشيدت أوائل الخطوط العابرة للقارة في الوقت نفسه شرق الأطلسي وغرب الميسيسبي، وتلاقت في نقطة ما من ولاية يوتاه حيث كانت طائفة المورمون قد نقلت موطنها من آيوا عام 1847، يحدوها انطباع خاطىء بأن ذلك سينأى بها عن الجماعات الأخرى. والواقع أن المنطقة الواقعة بين الميسيسبي وكاليفورنيا (أي «الغرب الوحشي») ظلت فارغة تقريباً خلال الفترة التي نتناولها هنا؛ خلافاً لما كان عليه الغرب الأوسط «المهجَّن» الذي تميز بكثافة عالية ومتزايدة من الاستيطان، وفلاحة متقدمة، وحتى بمستوى معقول من التصنيع. وترى بعض التقديرات أن إجمالي القوى العاملة التي استخدمت لإقامة المزارع في كامل منطقة المروج الشاسعة في الجنوب الغربي والولايات الجبلية خلال الفترة بين 1850 و1880، لم تكن تزيد على تلك التي عملت في أثناء تلك الفترة في المناطق الجنوبية الشرقية والولايات الواقعة في سواحل الأطلسي الوسطى التي كانت قد شهدت الاستيطان قبل ذلك بوقت طويل[7].

---

(5) فرجينيا، كارولينا الشمالية، جورجيا، ألاباما، فلوريدا، ميسيسبي، لويزيانا، تينيسي، آركنساس، وتكساس. وترددت بعض الولايات الحدودية، غير أنها لم تترك الاتحاد، وهي: ميريلاند، فرجينيا الغربية، كنتكي، ميسوري، وكانساس.

(6) انظر الفصل الثالث من هذا الكتاب.

(7) Martin L. Primack, «Farm Construction as a Use of Farm Labor in the =

كان المزارعون يستوطنون الجرود المترامية غرب الميسيسبي تدريجياً، وكان ذلك يعني، ضمناً، طرد الهنود (بالترحيل القسري). وأُلحق هؤلاء بمن رُحِّلوا بسَنِّ تشريعات سابقة، أو بإقامة «مجزرة» للجواميس التي كان هنود السهول يعتاشون منها. وكانت إبادتها قد بدأت عام 1867؛ أي السنة نفسها التي قرر فيها الكونغرس إقامة محميات كبرى للهنود. وبحلول عام 1883، كان نحو 13 مليوناً من الجواميس قد قُتلت. ولم يكن مُقدراً للجبال أن تتحول إلى منطقة استيطان زراعي، فظلت تمثل التخوم التي تدور فيها أنشطة المنقبين وملاك المناجم، لا يقطنها غير موجات متلاحقة من الباحثين عن المعادن الثمينة، وأولها الذهب، التي توافرت أضخم الكميات منها في كومستوك في نيفادا (1859). وقد أنتجت ما قيمته 300 مليون دولار خلال عشرين سنة، وجلبت الثراء الطائل الفاحش لحفنة صغيرة من الرجال، وثروات أقل من ذلك لعدد أكبر من أصحاب الملايين. ولكنها، بالمعايير المعاصرة، أدت إلى تراكم مستويات مشهودة من الثروة قبل أن تؤول إلى النضوب، وتترك خلفها فرجينيا سيتي مدينة مهجورة تقطنها أشباح المهاجرين من كورنوول وأيرلندا الذين سكنوا قاعة الاتحاد ودار الأوبرا التي كان لها مجدها ذات يوم. وحدثت هجمات مماثلة في كولورادو، وآيداهو، ومونتانا[8]. غير أنها لم تخلف آثاراً ديمغرافية ذات شأن، ففي عام 1870، كان سكان كولورادو (التي أُقر وضعها باعتبارها ولاية عام 1876) لا يتجاوزون 40 ألف نسمة.

بقي الجنوب الغربي، في جوهره، موطناً للماشية؛ أي منطقة

United States 1850-1910,» *Journal of Economic History*, vol. 25, no. 1 (1965), pp. = 114 ff.

(8) Rodman Wilson Paul, *Mining Frontiers of the Far West, 1848-1880*, Histories of the American Frontier (New York, Holt: Rinehart and Winston, [1963]), pp. 57-81.

«كاوبوي». ومنها سيقت قطعان هائلة من الماشية الطويلة القرن، يقدر عددها بنحو أربعة ملايين رأس، بين الأعوام 1865 و1879، إلى نقاط النقل البحري ومحطات القطارات المتجهة غرباً إلى المسالخ العملاقة في شيكاغو. وكان من نتائج الحركة النشيطة تلك أن أُسبغت على المستوطنات في ميسوري، وكانساس، ونبراسكا، مثل أبيلين ودوج سيتي التي لم تكن لها لولا ذلك أي أهمية، سمعة مميزة غلبت على مئات من الروايات والأفلام، ولم تؤثر فيها روح الاستقامة الدينية الصارمة والنزعة الشعبية التي انتشرت في أوساط مزارعي المروج[(9)].

إن أسطورة «الغرب الوحشي» من القوة بحيث يستعصي تحليلها بصورة واقعية. والحقيقة التاريخية الثابتة الوحيدة هي أن هذه المرحلة كانت قصيرة الأجل، وبلغت أوجها في نقطة ما بين الحرب الأهلية وانهيار صناعة المناجم وتربية الماشية المزدهرة في ثمانينيات القرن التاسع عشر. ولا تعود طبيعتها «الوحشية» إلى وجود الهنود، الذين كانوا على استعداد للعيش بسلام مع البيض، ربما باستثناء ما حدث في أقصى الجنوب الغربي، حيث إن قبائل مثل الأباتشي (1871 ـ 1886)، والياكوْي (المكسيكية) (1875 ـ 1926) خاضت حروباً موصولة امتدت قروناً عدة للمحافظة على استقلالها ضد الرجل الأبيض. وإنما يعود السبب إلى المؤسسات، أو بالأحرى غياب المؤسسات والحكومة والقوانين الفاعلة في الولايات المتحدة، (فلم يكن ثمة «غرب وحشي» في كندا، التي لم تتخذ حتى هجمات الذهب فيها طابعاً فوضوياً. كما أن قبيلة سيووه (Sioux)، التي حاربت وهزمت كَسْتَرْ في الولايات

(9) Joseph G. McCoy: *Historic Sketches of the Cattle Trade of the West and Southwest* (Kansas City, Mo.: Ramsey, Millett & Hudson, 1874), and *Historic Sketches of the Cattle Trade of the West and Southwest*, The Southwest Historical Series; 8, Edited by Ralph P. Bieber (Glendale, Calif.: The Arthur H. Clark Company, 1940).

وقد أسس المؤلف «أبيلين» باعتباره مركزاً لتربية المواشي وأصبح عمدة لها عام 1871.

المتحدة، كانت تعيش هناك بسلام قبل أن تقضي عليها المجازر). وربما كان الغلو في الفوضى، (أو، بتعبير أكثر حيدة، فورة الدفاع الذاتي المسلح) قد تعاظم مع تصاعد أحلام الحرية والذهب التي راودت الرجال وأغرتهم بالاندفاع غرباً. ولم تكن ثمة عائلات وراء حدود المستوطنات الزراعية والمدن، وعام 1870، كان في فرجينيا سيتي أكثر من رجلين لكل امرأة، والأطفال يشكلون عُشر السكان فحسب. صحيح أن أسطورة «الوسِترْن» (Western) قد انتقصت حتى من هذا الحلم، حيث أكثر الأحيان، لم يكن أبطالها أكثر من مغامرين يائسين ومسلحين مشاغبين في البارات من أمثال وايلد بيل هيكوك (Wild Bill Hickok) الذي لم يتحدث أبداً بودٍّ لا عن الباحثين عن الذهب ولا عن النقابيين من عمال المناجم المهاجرين. ومع ذلك، فإنه ينبغي علينا ألاّ نمجّد هذه الأسطورة وأبطالها. إن حلم الحرية لم يكن ينطبق على الهنود أو الصينيين (الذي كانوا يشكلون نحو ثلث سكان آيداهو عام 1870). كما أنه لم ينطبق بالتأكيد على الزنوج في الجنوب الغربي المُشبع بالنزعة العرقية العنصرية ـ وكانت تكساس قد انضمت إلى الكونفيدرالية. وكثير مما نعتبره في عِداد «الوسترن» كان قد جاء، أول ما جاء، من المكسيك، من زي الكاوبوي إلى «جمرك كاليفورنيا» ذي اللمسة الإسبانية، الذي وضعت بموجبه القوانين التي تنظم عمل المناجم في الجبال الأمريكية[10]، غير أنه لم يعتبر مكسيكي الأصل، على الرغم من أن المكسيك أنتجت من الكاوبويات أكثر مما أنتجته أي جماعة أخرى. لقد كان هذا الحلم حلم الرجل الأبيض الفقير الذي أمل في أن يحل مكان المشروع التجاري الخاص في العالم البورجوازي عن طريق ممارسة القمار، والحصول على الذهب، واستخدام البنادق.

---

(10) Charles Howard Shinn, *Mining Camps, a Study in American Frontier Government*, American Perspectives (New York: Harper & Row, [1965]), Chapter XXIV, pp. 45-46.

لم تبق ثمة جوانب غامضة حول «فتح الغرب»، غير أن طبيعة الحرب الأهلية الأمريكية وأصولها ظلت محوراً لمساجلات لا نهاية لها في أوساط المؤرخين. وتركز النقاش حول طبيعة مجتمع العبيد في ولايات الجنوب وانسجامه الممكن مع دينامية التوسع الرأسمالي في الشمال، فهل كان مجتمع عبيد بأي حال من الأحوال، إذا أخذنا بالاعتبار أن الزنوج كانوا يمثلون الأقلية، حتى في أقصى الجنوب (ما عدا بعض الجيوب المتفرقة)، وأن أغلبية العبيد لم يعملوا في المزارع الضخمة المعهودة، بل عملت أعداد قليلة منهم خدماً في مزارع البيض؟ إن من المؤكد أن الرق كان المؤسسة المركزية في مجتمع الجنوب، مثلما كان هو السبب الرئيسي في الخلاف والشقاق بين الولايات الشمالية والجنوبية. والسؤال الحقيقي المطروح هنا هو: كيف أدى ذلك إلى الانفصال والحرب الأهلية بدلاً من أن يفضي إلى صيغة من التعايش؟

لا مراء في أن أغلب الناس في الشمال كانوا يمقتون الرق، إلا أن النزوع إلى إلغائه باستخدام العنف وحده لم يكن من القوة بحيث يحدد سياسة الاتحاد. وربما ارتأت الرأسمالية الشمالية، بصرف النظر عن آراء رجال الأعمال الخاصة، أن من الممكن والمناسب أن تتصالح مع جنوب العبيد وتستغل علاقتها معه، مثلما فعل الاقتصاد الدولي فيما بعد مع نظام «الفصل العنصري» في جنوب أفريقيا.

بطبيعة الحال، كانت مجتمعات العبيد، بما فيها تلك الجنوبية، تواجه مصيرها المحتوم. إذ لم يتمكن أي منها من البقاء والاستمرار في الفترة بين الأعوام 1848 و1890، بما فيها كوبا والبرازيل[11]، فهي قد عزلت من الناحية المادية، ومن الناحية الاقتصادية بإلغاء تجارة العبيد الذي أصبح ساري المفعول بحلول الخمسينيات، كما عزلت كذلك أخلاقياً بإجماع ساحق في أوساط البورجوازية الليبرالية على أنها مخالفة

(11) انظر الفصل العاشر من هذا الكتاب.

لمسيرة التاريخ، ومرفوضة من الوجهة الأخلاقية، وعاجزة اقتصادياً. ومن الصعب أن نتصور استمرار مجتمع للعبيد حتى القرن العشرين، ولا استدامة الرق والسخرة في شرق أوروبا، حتى ولو نظرنا إلى هذين النظامين (كما ترى بعض مدارس التاريخ) بوصفهما نظاميْ إنتاج قابلين للحياة من الوجهة الاقتصادية. غير أن ما دفع الجنوب إلى نقطة التأزم في خمسينيات القرن التاسع عشر كان مشكلة أكثر تحديداً ألا وهي صعوبةُ التعايش مع رأسمالية شمالية ديناميّة، وموجات من الهجرة المتجهة غرباً.

من الوجهة الاقتصادية المحضة لم يكن الشمال يأبه كثيراً للجنوب، وهو منطقة زراعية لم تكن حتى ذلك الحين قد دخلت مرحلة التصنيع. كما أن عوامل الزمن، والسكان، والموارد، والإنتاج، لم تكن تعمل لمصلحته. وكانت العقبات الرئيسية سياسية في طابعها، فقد انتفع الجنوب، وهو أشبه بمستعمرة لبريطانيا التي ظل يزودها بالجانب الأكبر من نتاجه من القطن الخام، بينما كانت الصناعة الشمالية قد التزمت التزاماً حازماً، ومنذ عهد بعيد، بتعرِفات حِمائيّة مُتشددة لم تستطع أن تفرضها بصورة كافية كما تشاء بسبب النفوذ السياسي للولايات الجنوبية (التي كانت تمثل نحو نصف عدد الولايات عام 1850). من المؤكد أن الصناعة الشمالية كانت أكثر قلقاً على دولة شبه ملتزمة بالتجارة الحرة وبالسياسة الحمائية مما كانت على دولة تحتضن مجتمعاً للعبيد وتؤمن بالحرية في الوقت نفسه. وكان من المهم، بالقدر نفسه، أن الجنوب بذل قصارى جهده لمواجهة منافع الشمال بوضع الحواجز بينه وبين المنطقة الداخلية من الجنوب، محاولاً إقامة حزام من أنظمة التجارة والمواصلات المتجهة جنوباً ابتداءً من حوض نهر الميسيسبي، لا شرقاً باتجاه الأطلسي. وسيمتد هذا النسق إلى أقصى حد ممكن ليحول دون التوسع باتجاه الشرق. وكان ذلك أمراً طبيعياً؛ لأن مناطق البيض الفقيرة كانت هي التي تولت اكتشاف الغرب والتغلغل فيه.

غير أن تفوق الشمال الاقتصادي كان يعني إصرار الجنوب المتزايد العناد على القوة السياسية التي يتمتع بها، أي بتأكيد مطالبه على نحو رسمي بأقصى درجة ممكنة (بالإصرار على القبول الرسمي بالرق في الأراضي الغربية الجديدة على سبيل المثال)، والتشديد على الاستقلال الذاتي للولايات (أو ما يسمى «حقوق الولايات») في وجه الحكومة الوطنية، وحق ممارسة الفيتو على السياسات الوطنية، للحيلولة دون تشجيع التنمية في الشمال، وما إلى ذلك. ويعني ذلك، في واقع الأمر، أنها ستضع العراقيل في طريق الشمال، مع متابعة السياسة التوسعية في الغرب. وكانت تستند في ذلك كله إلى مرتكزات سياسية. ذلك أنها كانت تسبح عكس تيار التاريخ، لأنها لم تكن راغبة ولا قادرة على إلحاق الهزيمة بالشمال من خلال لعبة التنمية الرأسمالية. وكان من شأن كل تحسن في وسائل النقل تعزيز الروابط بين الغرب والأطلسي. وكانت خطوط السكك الحديد تمتد، أساساً، من الشرق إلى الغرب، وقلما كانت تمتد مسافات طويلة من الشمال إلى الجنوب. يضاف إلى ذلك أن الرجال الذين استقروا في الغرب، سواء أكانوا قد قدموا من الشمال أم من الجنوب، لم يكونوا من ملّاك العبيد، بل كانوا من البيض الفقراء الأحرار، الذين اجتذبتهم الأراضي المشاع أو الذهب أو المغامرة. من هنا، كان انتشار الرق الرسمي إلى مناطق وولايات جديدة أمراً مهماً كل الأهمية بالنسبة إلى الجنوب، وتلك هي المسألة التي تمحورت حولها الصراعات المريرة المتعاظمة بين الجانبين في خمسينيات القرن التاسع عشر. وفي الوقت نفسه، لم يكن الرق قضية ذات شأن في الغرب، بل يمكن القول إن التوسع الغربي ربما أضعف نظام الرق بالفعل. ولم يقدم هذا التوسع المساندةَ التي كان يطمح إليها زعماء الجنوب عندما كانوا يخططون لضم كوبا وخلق إمبراطورية زراعية جنوبية ـ كاريبية. وباختصار، كان الشمال في موقع يمكنه من توحيد القارة، بينما لم يكن ذلك بمقدور الولايات الجنوبية. فقد كانت تقف وقفات نشيطة جسورة، غير أنها كانت تلوذ بالتوقف عن الصراع وبالتلويح بالانفصال

عن الاتحاد، وذلك ما فعلته عندما أوضح انتخاب ابراهام لنكولن من إيلينوي عام 1860 أنها قد أضاعت «الغرب الأوسط».

اندلعت الحرب الأهلية طيلة خمس سنوات. وكانت، من حيث الخسائر البشرية والدمار، أضخم حرب تخوضها أي دولة «متقدمة» في تلك الفترة، مع أنها قد تتضاءل نسبياً إذا ما قورنت بحرب الباراغواي المعاصرة لها في أمريكا الجنوبية، بل وتتقزّم مقارنة بحرب تايبنغ في الصين. وقد انتصرت الولايات الشمالية آخر الأمر، على الرغم من تدني أدائها العسكري، جراء غلبتها العددية، وقدرتها الإنتاجية وتفوقها التقني. لقد كانت تضم أكثر من سبعين في المئة من إجمالي سكان الولايات المتحدة، وأكثر من 80 في المئة من الرجال في سن الخدمة العسكرية، وما يزيد على تسعين في المئة من الإنتاج الصناعي. كما كان النصر من نصيب الرأسمالية الأمريكية، والولايات المتحدة الحديثة. ولكنه، على الرغم من إلغاء الرق، لم يكن نصراً للزنوج، سواء أكانوا عبيداً أم أحراراً، فبعد سنوات عدة من «الإعمار» (أي الديمقراطية القسرية) عاد الجنوب إلى سيطرة المحافظين الجنوبيين البيض ـ أي العرقيين العنصريين. وسُحبت قوات الاحتلال الشمالية نهائياً عام 1877، بعد أن حققت، بمعنى من المعاني، أهدافها. الجمهوريون الشماليون (الذين احتفظوا بمنصب الرئاسة خلال أغلب الفترة الممتدة بين الأعوام 1860 و1922) فشلوا في اختراق الجنوب الديمقراطي المنيع الذي حافظ، بعد ذلك، على قدر كبير من الاستقلال الذاتي. وتمكن الجنوب، بدوره، من ممارسة بعض النفوذ على المستوى الوطني؛ لأن مساندته كانت ضرورية لإنجاح الحزب الكبير الآخر، وهو الحزب الديمقراطي. والواقع أن الجنوب ظل زراعياً، وفقيراً، ومتخلفاً، وساخطاً؛ إذ إن البيض لم ينسوا الهزيمة التي ظلت تُمضّهم منذ ذلك الحين، كما أن السود لم ينسوا أن البيض عادوا لإخضاعهم من دون رحمة وحرموهم من حقوقهم.

تطورت الرأسمالية الأمريكية بسرعة قياسية وعلى نحو مدهش بعد الحرب الأهلية ـ التي ربما تباطأ نموها في أثنائها بعض الوقت، مع أنها

أفسحت مجالاً ملموساً لكبار المقاولين التجاريين المغامرين الذين سُمّوا في ما بعد «البارونات اللصوص». ويشكل هذا التقدم المشهود المكوِّنَ الأساسي الثالث في تاريخ الولايات المتحدة في تلك الفترة. وخلافاً للحرب الأهلية وهجمة الغرب الوحشي، لم يصبح عصر بارونات المطاط جزءاً من الأسطورة الشعبية الأمريكية، بل اقتصر على كونه واحداً من عناصر الإثارة التي اصطنعها الديمقراطيون والشَّعْبَويون. بيد أنه ما زال جانباً من الواقع الأمريكي، مثلما أن البارونات اللصوص ما زالوا حتى الآن عنصراً مُتميزاً في ميادين النشاط الاقتصادي. وقد جرت محاولات للدفاع عن البارونات اللصوص وإعادة الاعتبار للرجال الذين غيروا المفردات في قاموس اللغة الإنجليزية. وعندما نشبت الحرب الأهلية، كانت كلمة «مليونير» تُكتب مائلة. إلا أن اللقب تحول إلى «مُتعدد الملايين» عند الحديث عن أعظم لصوص الجيل الأول، كورنيليوس فاندربيلت (Cornelius Vanderbilt) عام 1877، الذي قُدرت ثروته آنذاك بنحو مئة مليون دولار. ويرى بعض المحللين أن الرأسماليين الأمريكيين كانوا، في واقع، الأمر مُخترعين مُبدعين لم يكن للتصنيع الأمريكي أن يحقق من دونهم انتصاراته بهذه السرعة. وعلى هذا الأساس، لم تكن ثروتهم حصيلة لأعمال اللصوصية والقرصنة الاقتصادية، بل نتيجة المنحة الكريمة التي ينعم بها المجتمع على من أفاده من ذوي الأيادي البيض. ولا يمكن أن تصدق هذه الحجج على جميع البارونات اللصوص؛ لأن المدافعين عن هذه الفئة سيجفلون لو قابلوا أوغاداً صفيقين مثل المموِّلين جيم فيسْك أو جاي غولْدْ. إلا أنه لا بدَّ من الإقرار بأن عدداً من أساطين تلك الفترة أسهموا إسهاماً إيجابياً، ومهماً في بعض الأحيان، في تنمية الاقتصاد الصناعي الحديث أو في عمليات منظومة من المشروعات الرأسمالية (المختلفة، بطبيعتها، عن التنمية الصناعية).

غير أن مثل هذه الحجج لا تدخل في صلب الموضوع، ولا تعدو أن تكون من باب تحصيل الحاصل؛ أي أن الولايات المتحدة كانت في القرن

التاسع عشر اقتصاداً رأسمالياً يجب فيه تجميع الأموال، وبكميات هائلة، بطرق عدة؛ منها تطوير الموارد الإنتاجية وترشيدها لبلد واسع متسارع النمو، في اقتصاد عالمي متسارع النمو. وفي تلك الحقبة، كانت ثمة ثلاث خصائص تُميز البارونات اللصوص في تلك المرحلة عن الاقتصادات الرأسمالية المزدهرة الأخرى التي أنتجت، هي بدورها، أجيالاً من أصحاب الملايين السلاّبين الذين جمعوا ثروات فاحشة لا نظير لها.

كانت السمة الأولى هي الغياب الكليّ لأي شكل من أشكال التحكم والرقابة على المعاملات التجارية، مهما كانت درجة التغوُّل والاعوجاج فيها، ولا سيما تلك التي فتحت بالفعل آفاقاً غير محدودة لاستفحال الفساد على الصعيدين الوطني والمحلي، وبخاصة في سنوات ما بعد الحرب الأهلية، ذلك أنه لم يكن في الولايات المتحدة ما يمكن أن نعتبره حكومةً، بالمقاييس الأوروبية. بل كانت الأبواب مفتوحة على مصاريعها تقريباً أمام الأثرياء الذين لا يتورعون عن فعل أي شيء. وفي معرض الحديث عن «البارونات اللصوص»، علينا أن نركز على معنى النعت الأول لا الثاني، ففي الممالك القروسطية الضعيفة، لم يكن السادة يخضعون لحكم القانون، بل لدرجة النفوذ التي يريدونها لأنفسهم. وهل كان في مجتمع رأسمالي من هو أكثر سطوة ونفوذاً من الأثرياء؟ لقد كانت الولايات المتحدة، من دون غيرها من الدول في العالم البورجوازي، هي موطن العدالة الخاصة، والقوات المسلحة الخاصة، وبخاصة في الفترة التي نعالجها، ففي الفترة بين الأعوام 1850 و1889، قتلت فرق «المحترسين» الذين نصبوا أنفسهم حراساً على الأملاك الخاصة 530 شخصاً ممن انتهكوا، أو زُعم أنهم انتهكوا القانون؛ أي ما يعادل ستة من كل سبعة من الضحايا طيلة تاريخ هذه الظاهرة الأمريكية المُتميزة التي امتدت منذ ستينيات القرن الثامن عشر حتى عام 1909[12].

---

(12) ظهرت خلال تلك الفترة 230 من حركات «المحترسين» (Vigilante) هذه، من أصل ما مجموعة 326 حركة. انظر: Hugh Davis Graham and Ted Robert Gurr, eds., =

وفي عامي 1865 و1866، مُنحت كلُّ شركة للقطارات، وكل مَصْهر للحديد، وكل مصنع للعجلات في بنسلفانيا، إذناً قانونياً باستخدام ما تريده هذه المنشآت من رجال الأمن المسلحين ليتصرفوا بالصورة التي يرونها مناسبة، على الرغم من أن «الشريف»/ ضابط الشرطة، أو المسؤولين الآخرين، كانوا في الولايات الأخرى هم المفوضين رسمياً بتعيين المنتسبين إلى قوات الأمن الخاصة تلك. ومن أسوأها سمعةً في تلك الفترة، قوات الشرطة المسماة «البنكرتون» (Pinkertons)، التي ضمت رجال التحري، والقتلة والمسلحين، وذاع صيتها في ملاحقة المجرمين أول الأمر، ثم بصورة متزايدة، بمطاردة العمال.

أما السمة الثانية المميزة لهذه الحقبة الرائدة في تنامي الأعمال التجارية الضخمة، والأموال الضخمة، وعناصر النفوذ الضخمة في أمريكا، فهي أن أكثر من انخرط ونجح فيها لم يكن يبدو عليهم ما يشير إلى أنهم ملتزمون بأي وسائل محددة لكسب المال، خلافاً لكثير من المقاولين المبادرين بالمشروعات التجارية في العالم القديم، الذين كانوا مهووسين بإقامة المنشآت الفائقة التقانة، فكل ما سعى هؤلاء إلى تحقيقه هو تعظيم الربح، مع أن أكثرهم التقوا في المجال الأعظم لكسب المال في ذلك العصر، وهو خطوط السكك الحديد. إن ثروة كورنيليوس فاندربيلت كانت تتراوح بين 10 ـ 20 مليون دولار قبل أن يدخل مجال السكك الحديد، وأضيف إليها ما يتراوح بين ثمانين وتسعين مليوناً خلال ست عشرة سنة. ولا عجب، إذاً، إن استطاع رهطٌ من أهل كاليفورنيا مثل كوليز ب. هنتنغتون (Collis P. Huntington) (1821 ـ 1900)، ليلاند ستانفورد (Leland Stanford) (1824 ـ 1893)، تشارلز كروكر (Charles Crocker) (1822 ـ 1888)،

The History of Violence in America: Historical and Comparative Perspectives, = Violence in America, Special Introd. by John Herbers (New York: F. A. Praeger, [1969]), Chapter 5, Especially p. 175.

ومارك هوبكنز (Mark Hopkins) (1813 ـ 1878) من دون أن يطرف لهم جفن، أن يضاعفوا ثلاث مرات مستوى الكلفة الفعلية لبناء خط سكة الباسيفيكي الأوسط الحديد، كما تمكن المبتزّون المتلاعبون، أمثال فيسك وغولد، أن يحصدوا الملايين في معاملات مزيفة وعمليات نهب، من دون أن يكون لهم صلة بمد قضيب واحد على الخط الحديد، أو يشهدوا انطلاق قاطرة واحدة.

لم يكن ثمة غير عدد قليل من الجيل الأول من أصحاب الملايين ممن اقتصرت أعمالهم على نشاط تجاري واحد، فقد بدأ هنتنغتون حياته العملية ببيع المعدات لأصحاب المناجم الباحثين عن الذهب في ساكرامنتو. وربما كان من زبائنه عملاق تجارة اللحوم فيليب آرمور (Philip Armour) (1832 ـ 1901) الذي جرب حظه في حقول الذهب قبل أن يتحول إلى البِقالة في ميلووكي، ما مكنه من تحقيق السبق في تربية الخنازير خلال الحرب الأهلية. كما أن جيم فيسك (Jim Fisk) بدأ عاملاً يدوياً في السيرك، ثم نادلاً في أحد الفنادق، ثم بائعاً جوالاً ومتاجراً بالبضائع الجافة، قبل أن يكتشف إمكانات المقاولات العسكرية، وبعدها أسواق البورصة. أما جاي غولد (Jay Gould)، فكان أول الأمر رسام خرائط، ثم تاجر جلود قبل أن يكتشف بدوره ما يمكن أن يجنيه من تجارة الألواح الخشبية الداعمة لقضبان السكك الحديد. ولم يركز أندرو كارنيجي (Andrew Carnegi) (1835 ـ 1919) نشاطه على الفولاذ إلا بعد أن بلغ الأربعين من العمر. وقد بدأ عامل تلغراف، ثم عمل مسؤولاً تنفيذياً في أحد خطوط السكة الحديد ـ بعد أن حقق ثروة من الاستثمارات التي كانت قيمتها تتزايد بسرعة ـ ونشط بعض النشاط في ميدان النفط (الذي كان المجال الذي تخيّره جون د. روكفلر (John D. Rockefeller) بعد أن بدأ حياته كاتباً ثم محاسباً في أوهايو)، بينما تدرج في الصناعة التي قدر له أن يسيطر عليها. وكان هؤلاء الرجال جميعهم من المضاربين المستعدين للحاق بالمال أنّى توَجّه. ولم تكن تخامر أيّاً منهم هواجس أخلاقية

واضحة، أو استعداد بقبول مثل هذه النواهي في اقتصاد وعصر أصبح فيه الاحتيال والرشوة، والافتراء، وحتى المسدسات عند الضرورة، من الجوانب المعتادة في المنافسة. وكانوا كلهم من الرجال الأشداء. وكان أكثرهم يرون أن موضوع الأمانة والنزاهة أقل أهمية ووزناً إلى درجة ملموسة من مسألة الشطارة والنباهة. فلا غرو، إذاً، أن غدت الداروينية الاجتماعية أشبه باللاهوت الوطني في الولايات المتحدة في أواخر القرن التاسع عشر؛ لأنها هي المذهب القائل إن من يستطيعون ارتقاء السلم حتى أعاليه هم الأفضل والأصلح والأقدر على البقاء في الدَّغْل البشري (Human Jungle).

أما السمة الثالثة المميزة للبارونات اللصوص فغنية عن البيان، إلا أن أسطورة الرأسمالية الأمريكية اشتطت في المبالغة فيها ومفادها أن جانباً مهماً من هؤلاء الرجال كانوا «عصاميين»، ولم يكن ثمة من يزاحمهم في ميدان الثروة والجاه الاجتماعي، فعلى الرغم من ظهور عدد من أصحاب الملايين «العصاميين» أولئك؛ فإن اثنين وأربعين فحسب من رجال الأعمال الذين أوردهم **معجم الأعلام الأمريكي** (*Dictionary of American Biography*) في تلك الفترة قد ولدوا وترعرعوا في مهادات من الشرائح الدنيا أو الطبقات الدنيا أو الوسطى[13] وجاء أكثرهم من عائلات التجار أو المهنيين. وبين النخبة الصناعية في سبعينيات القرن التاسع عشر، لم يكن هناك من كان آباؤهم من الطبقة العاملة غير 8 في المئة فقط[14].

وربما كان جديراً بالملاحظة، على سبيل المقارنة، أن نحو 70 في المئة من أصحاب الملايين البريطانيين الذين توفوا بين عامي 1858 و1879

---

(13) يصدق ذلك على من ولدوا بين الأعوام 1820 و1849. وقد اقتبست هذه الأرقام من س. رايت ميلز (C. Wright Mills).

(14) William Miller, ed., *Men in Business: Essays in the History of Entrepreneurship* (Cambridge: Harvard University Press, 1952), p. 202.

تحدروا من جيل واحد على الأقل، أو ربما من أجيال عدة، من الأثرياء، الذين كان أكثر من 50 في المئة منهم من ملاك الأراضي[15]. وقد استمرت في أمريكا العائلات الوارثة للثروة مثل آستور (Astors) وفاندربيلت، وكان أكبر الممولين فيها، ج. ب. مورغان (J. P. Morgan) (1837 ـ 1913) من الجيل الثاني من أصحاب البنوك. وقد أثرت أسرته بفضل كونها الوسيط الرئيسي لتقنية رأس المال البريطاني وتحويله إلى الولايات المتحدة. إلا أن العنصر اللافت أكثر من غيره إنما كان المسار العملي في حياة جيل من الشباب الذين سنحت لهم الفرصة فاغتنموها، وتصدوا لكل من تحدّاهم. ويضم هذا الجيل رجالاً تشبعوا بالنزعة الرأسمالية للتراكم. وكانت آفاق تلك الفرص واسعة كل الاتساع أمام من تبنوا منطق تحقيق الربح عوضاً عن مجرد العيش، وسلكوا سبيل الكفاءة العالية والاقتدار والقسوة والطمع. ولم يكن ثمة إلهاءات كثيرة تحيد بهم عن هذا السبيل. لقد انقرضت طبقة النبلاء القديمة التي كانت ستغريهم بالألقاب والعيش الرغيد الذي ينعم به ملاك الأراضي الأرستقراطيون، إلا إذا كان ذلك، بالطبع، مدخلاً جديداً لكسب المزيد من المال.

من هنا، شعر البارونات اللصوص أنهم، بمعنى من المعاني، يمثلون أمريكا كما لم تمثلها أي فئة أخرى. ولم يجانبوا الصواب في ذلك، فقد دخلت أسماء أصحاب الملايين المتعددة، مثل مورغان وروكفلر، عالم الأساطير. وذلك هو السبب الذي جعل هؤلاء، ومعهم أسماء أسطورية مختلفة تماماً، لَحملة البنادق والمسدسات ومسؤولي الشرطة في الغرب الأمريكي، أكثر الأفراد شهرة وذيوعَ صيتٍ خارج أمريكا في تلك الفترة (ربما باستثناء إبراهام لنكولن) إلا في أوساط من يظهرون اهتماماً خاصاً بتاريخ الولايات المتحدة. وقد فرض كبار

(15) أشكر الدكتور وليام روبنشتاين من جامعة جونز هوبكنز على البيانات التي بنيت هذا التخمين على أساسها.

الرأسماليين طابعهم على بلادهم .لأن الأمريكيين، على حد تعبير صحيفة **ناشونال ليبور تريبيون** (*National Labor Tribune*) عام 1874، «كانوا يحلمون ذات يوم بأن يكونوا سادة أنفسهم، وأن لا يكون ـ وينبغي ألا يكون ـ لأحد حق بأن يسودهم». بيد أن «هذه الأحلام لم تتحقق. . .إذ فوجئ الناس الكادحون في هذه البلاد. . .أن رأس المال يعادل في تصلُّبه الحكم الملكي المطلق»[16].

II

بين البلدان غير الأوروبية كافة، كانت هناك دولة واحدة نجحت بالفعل في مواجهة الغرب والتفوق عليه بمقتضى شروط اللعبة؛ ألا وهي اليابان، ما فاجأ الأطراف المعاصرة لتلك الفترة بعض الشيء. كانت اليابان بالنسبة لهذه الأطراف بلداً مُتقدماً لم يُعرف عنه إلا القليل بين أمثاله؛ لأنه كان مغلقاً تقريباً من حيث الاتصال المباشر مع الغرب في أوائل القرن السابع عشر. ولم يكن ثمة مجال للتبادل الثنائي إلا في معبر واحد سُمح من خلاله للهولنديين بالمتاجرة في نطاق ضيق. وبحلول أواسط القرن التاسع عشر، لم تكن اليابان بالنسبة للغرب مختلفة عن أي بلد شرقي آخر أو أنها كانت، على الأقل، بلداً لم يُقدَّر له، بحكم تخلفه الاقتصادي وتأخره العسكري، أن يكون من ضحايا الرأسمالية. واستخدم الأسلوب المعتاد، وهو التهديد البحري، لإرغام اليابان على فتح عدد من الموانئ عام 1853/ 1854 أمام شركة كومودور بيري الأمريكية التي كانت مطامعها في المحيط الأطلسي تتعدى بكثير مصالح حَوَّاتيها(*) النشيطين (وهم الذين غدوا في تلك الآونة ـ 1851 ـ موضوعاً لأعظم الأعمال الإبداعية الأدبية الأمريكية في القرن التاسع عشر، وهو رواية **موبي ديك** (*Moby Dick*) لهرمان مِلْفيل (Herman

---

(16) Herbert Gutman, «Work, Culture, and Society in Industrializing America 1815-1919,» *American Historical Review*, vol. 78, no. 3 (June 1973), p. 569.

(*) صيادو الحيتان (المترجم).

(Melville). وقد دأب البريطانيون وبعدهم القوات الغربية المتحالفة عام 1862، على قصف اليابان متذرعين بأسباب غاية في الرعونة والطيش، إذ هوجمت مدينة كاغوشيما انتقاماً لمصرع بريطاني واحد. وكان من المستبعد أن تصبح اليابان، خلال نصف قرن، قوة عظمى قادرة، بمفردها، على إلحاق الهزيمة بدولة أوروبية في حرب رئيسية، أو أنها، خلال ثلاثة أرباع قرن، ستوشك على منافسة الأسطول البحري البريطاني؛ ناهيك عن أن بعض المراقبين في سبعينيات القرن العشرين توقعوا أن تتفوق اليابان، اقتصادياً، على الولايات المتحدة في غضون سنوات.

وربما كان المؤرخون، بقدرتهم على استكناه طبيعة الأحداث بعد وقوعها، أقل إحساساً بالمفاجأة بالمنجزات اليابانية. ذلك أنهم كانوا قد أشاروا إلى أن اليابان، على الرغم من أنها كانت، في أكثر من ناحية، غريبة تماماً في إرثها الثقافي، فإنها من حيث بنيتُها الاجتماعية، كانت تماثل الغرب إلى درجة مدهشة. إذ إن لها، في الحالات كلها، ما يشبه نظام الإقطاع في أوروبا القروسطية، وطبقة من النبالة الوراثية المالكة للأراضي، وفلاحين شبه مسخرين، ومنظومة من التجار ـ المقاولين والمولين تحيطهم صناعات حرفية نشيطة كل النشاط تزخر بها قاعدة حضرية متزايدة الاتساع. وخلافاً لما كان عليه الحال في أوروبا، لم تكن المدن، ولا التجار أحراراً؛ لكن تركز طبقة النبلاء الساموراي (Samurai) المتعاظم في المدن جعلهم يعتمدون اعتماداً مطرداً على القطاع غير الزراعي من السكان. كما أن التطوير المنهجي لاقتصاد وطني مغلق بمعزل عن التجارة الخارجية أسهم في ولادة هيئة من المقاولين كانت، في آن معاً، ضرورية لإقامة سوق وطنية، ووثيقة الصلة بالحكومة، فقد بدأت، على سبيل المثال، جماعة ميتسوي، وهي من الأركان الرئيسية للرأسمالية اليابانية، كتجمع لأصحاب معامل الـ «ساكي» (وهو النبيذ الياباني) في الأقاليم في مطلع القرن السابع عشر، وتحولوا فيما بعد إلى مُقرضين. وعام 1673، وطدوا أقدامهم

في إيدو (طوكيو) كشبكة من أصحاب الحوانيت، وأقاموا فروعاً لهم في كيوتو، وأوساكا. وبحلول عام 1680 أصبحوا ما كانت أوروبا تسميه جماعة نشيطة في سوق الأوراق المالية. وغدوا بعد ذلك بوقت قصير وكلاء ماليين للعائلة الإمبراطورية وطبقة الـ «شوغَنْ» (Shogunate) (وهم الحكام الفعليون للبلاد)، ولعشائر إقطاعية عدة كبرى. من جهة أخرى، فإن الـ"سوميتومو»، الذين كانوا من ذوي الشأن آنذاك، بدأوا تجارة المخدرات والمعدات في كيوتو، وسرعان ما غدوا من كبار تجار التكرير في صناعة النحاس، وتحولوا في أواخر القرن الثامن عشر إلى نَسَقين إقليميين لاحتكار النحاس والمناجم المستَغلَّة.

لم يكن مستحيلاً على اليابان، لو تُركت بمفردها، أن تتحول، بصورة مستقلة، إلى اقتصاد رأسمالي، مع أن من المتعذر الجزم بهذا الأمر. غير أن مما لا شك فيه أن اليابان كانت أميل إلى محاكاة الغرب من كثير من البلدان الأخرى غير الأوروبية، وأكثر قدرة على ذلك. وصحيح أن الصين كانت قادرة على أن تسبق الغربيين في لعبتهم تلك، لأنها، على الأقل، كانت تمتلك المهارات التقنية، والدّرْبة الفكرية، والتربية، والخبرة الإدارية، والبراعة التجارية المطلوبة لهذا الغرض. بيد أن الصين كانت مهولة الحجم، مكتفية بنفسها، وعريقة في اعتبار نفسها مركز الحضارة، إلى حد لا تسمح معه لطراز آخر من البرابرة الخطيرين الطويلي الأنوف، مهما كان مستوى تقدمهم التقني، بأن يتوددوا إليها وينصحوها بالتخلي كلياً عن طرائقها البالغة العراقة. إن الصين لم تكن راغبة في تقليد الغرب. كما أن المتعلمين في المكسيك لم يرغبوا في محاكاة الرأسمالية الليبرالية التي تمثلها الولايات المتحدة ليتمكنوا من خلالها، على الأقل، من مقاومة جيرانهم في الشمال. غير أن إنجاز ذلك بصورة فاعلة استحال عليهم بفعل التقاليد الراسخة التي كانوا أضعف من أن يخرجوا عنها أو يتخلصوا منها. وقد أثقلت كاهلهم الكنيسة، وبلادة الفلاحين، سواء منهم الهنود أو الذين تأَسْبَنوا على

النمط القروسطي. كما أنهم كانوا، آخر الأمر، قلة قليلة. وكان ذلك كله فوق طاقتهم. وكانت القدرة في أوساطهم دون الإرادة. بيد أن اليابان كانت تمتلك كلتيهما. وأدركت النخبة اليابانية أن بلادها كانت من جملة البلدان التي يتهددها خطر الغزو أو الإخضاع الذي كانوا قد عانوا منه عبر تاريخهم الطويل. (وإذا استخدمنا تعبيراً أوروبياً معاصراً)، فإن اليابان كانت دولة «مُضْمَرة» لا إمبراطورية مسكونية عالمية. وكانت تمتلك، في الوقت نفسه، القدرات التقنية والخصائص الأخرى، والكوادر المطلوبة في اقتصاديات القرن التاسع عشر. وربما كان الأهم من ذلك كله، أنه كان لدى النخبة اليابانية جهاز للدولة وبنية اجتماعية قادران على التحكم بحركة المجتمع بأكمله. ومن الصعب للغاية خلق التحول في بلد ما من الأعلى من دون المخاطرة بمواجهة المقاومة السلبية، أو التفكك، أو الثورة. وكان حكام اليابان، تاريخياً، في موقع استثنائي استطاعوا منه حشد الآليات التقليدية التي تنطوي عليها الطاعة الاجتماعية من أجل تحقيق «غَرْبَنةٍ» (Westernization) مفاجئة، وراديكالية، ولكن مضبوطة، دونما مقاومة ملموسة، إلا من جانب شرذمة من الساموراي المنشقين والفلاحين المتمردين.

لقد شغلت اليابانيين قضيةُ مواجهة الغرب لعقود عدة ـ ومنذ ثلاثينيات القرن التاسع عشر بالتأكيد، كما أن انتصار البريطانيين على الصين في حرب الأفيون الأولى (1839 ـ 1842) أظهر مدى ما تنطوي عليه طرائق الغرب من إنجازات وإمكانات. وبما أن الصين نفسها عجزت عن مقاومتهم، فما الذي يمنعهم من أن يبسطوا سيطرتهم في كل مكان؟ إن اكتشاف الذهب في كاليفورنيا، وهو الحدث الخطير في تاريخ العالم في تلك الفترة، قد وضع الولايات المتحدة في قلب منطقة المحيط الهادي، ووضع اليابان في بؤرة المحاولات الغربية الرامية إلى «فتح» أسواقها، مثلما أدت حرب الأفيون إلى «فتح» أسواق الصين. وكانت المقاومة المباشرة ميؤوساً منها، وذلك ما أثبتته المحاولات الواهنة بهذا الصدد. كما أن تقديم التنازلات، والمراوغة الدبلوماسية لم يكونا

أكثر من معالجة مؤقتة عابرة. وكانت الحاجة للإصلاح، عن طريق انتهاج أساليب التفكير والعمل المناسبة من الغرب، وإحياء (أو خلق) الإرادة لتأكيد الذات الوطنية، مثاراً لمساجلات حامية الوطيس في أوساط المسؤولين المتعلمين والمثقفين. غير أن ما حوّل الأمر إلى حركة «تحولات ميجي الإصلاحية» عام 1868؛ أي إلى «ثورة من أعلى»، وبصورة جذرية، فهو الإخفاق الواضح الذي مني به نظام «شوغَنْ» البيروقراطي ـ الإقطاعي العسكري في التعامل مع الأزمة. وعام 1853/ 1854، كان الحكام منقسمين على أنفسهم، وغير متأكدين مما يجب عمله، فطلبت الحكومة، للمرة الأولى، الرأي والنصح من الدايميو (Daimyo)؛ أي سادة الإقطاع، الذين طالب أكثرهم بالمقاومة أو التسويق، فأظهرت بذلك عجزها عن القيام بأي إجراء فاعل، وكانت الإجراءات العسكرية المضادة التي اتخذتها غير فاعلة وباهظة الكلفة إلى حد أثقل كاهل النظام المالي والإداري في البلاد، فبينما كشفت البيروقراطية النقاب عن عجزها الفاضح، وتكاثرت الانشقاقات في صفوف النبلاء داخل الشوغن، أكدت هزيمة الصين في حرب أفيون ثانية (1857/ 1858) على ضعف اليابان أمام الغرب. إلا أن التنازلات الجديدة للأجانب، والتفسخ المتزايد في النظام السياسي المحلي، أفضت كلها إلى رد فعل معاكس من جانب مثقفي الساموراي الشبان الذين شنوا بين الأعوام 1860 و1863 إحدى موجات الإرهاب والاغتيال (ضد الأجانب والزعماء غير الشعبيين) التي تخللت التاريخ الياباني. ومنذ أربعينيات القرن، نظّم الناشطون الوطنيون الذين ضُيِّق عليهم الخناق صفوفَهم وانخرطوا في الدراسة الأيديولوجية العسكرية في الأقاليم وفي معاهد معينة للسَّيّافة في إيدو/ طوكيو التي وفدوا إليها ثم عادوا منها إلى المقاطعات الإقطاعية (هان (Han))، تحت تأثير الدعاة الفلاسفة، وقد رفعوا شعارين: «اطردوا البرابرة»، و«المجد للإمبراطور». وكان الشعاران منطقيين، فمن جهة، ينبغي ألا تقع اليابان فريسة للأجانب، ومن جهة أخرى، فإن من الطبيعي في أعقاب

إخفاق الشوغن، أن يحوّل ذوو النزعة المحافظة اهتمامَهم إلى البديل السياسي التقليدي القائم الثابت الأركان من الوجهة النظرية، والتافه الخائر القوى عملياً، وهو العرش الإمبراطوري، فكان على النزعة الإصلاحية المحافظة، (أي الثورة من أعلى)، أن تتخذ شكل استعادة السلطة الإمبراطورية في وجه نظام الشوغن. وكان من نتائج رد الفعل على إرهاب المتطرفين، مثل القصف البريطاني لكاغوشيما، زيادة التفاقم في الأزمة الداخلية وتقويض النظام الذي كان مضعضعاً على أي حال. وفي كانون الثاني/ يناير 1868 (وبعد وفاة الإمبراطور المسن وتعيين شوغن جديد)، أُعلِنت أخيراً استعادة السلطة الإمبراطورية. بدعم من بعض الولايات القوية المنشقة، واستقرت الأحوال بعد حرب أهلية قصيرة. وهكذا أنجزت «تحولات ميجي الإصلاحية».

ولو كانت «ميجي» مجرد ردّ فعل رُهابيٍّ محافظ، لظلت، نسبياً، أمراً لا يؤبه له، فقد كانت الإقطاعيات الكبرى في غرب اليابان، وبخاصة ساتسوما وتشوشو، اللتان أطاحت قواتهما بالنظام القديم، تقليدياً، تكره أسرة توكوغاوا التي احتكرت سلطة شوغن. ولم تطرح أي من هاتين القوتين، ولا المتطرفون الشباب ذوو النزعة التقليدية بحد ذاتهم برنامجاً للعمل، كما أن الرجال الذين آلت إليهم أمور الحكم في اليابان، وجُلُّهم من الساموراي الشباب (الذين لم تكن أعمارهم، على المعدل، تزيد إلا قليلاً على ثلاثين عاماً سنة 1868). لم يكونوا يمثلون قوى الثورة الاجتماعية، مع أن من الواضح أنهم تولوا زمام الأمور في حقبة تميزت بتعاظم حدة التوتر الاقتصادي الاجتماعي، وعبروا عن كليهما في أعداد متزايدة من الانتفاضات الفلاحية المحلية التي لم تكن لها أبعاد سياسية بارزة، واتسمت بظهور ناشطين في أوساط الطبقة الوسطى والفلاحين. بيد أن أغلب ناشطي الساموراي الذين ظلوا على قيد الحياة بين الأعوام 1853 و1868 (بعد أن لقيت أعداد منهم، وهي الأكثر خشية من الأجانب، مصرعها في عمليات الإرهاب التي قامت بها) أقرّوا بأن هدفهم، وهو إنقاذ البلاد، يستلزم غَرْبَنَةً منهجيةً منظمة.

وبحلول عام 1868، كان عدد منهم قد أجرى اتصالات مع الأجانب، بل إن بعضهم قد سافروا بالفعل إلى الخارج، وأقر هؤلاء جميعهم أن الحفاظ على البلاد رهن بما سيجري فيها من تحولات،

كثيراً ما وضعت اليابان وروسيا إحداهما بموازاة الأخرى. وفي كلتا الدولتين، لم تكن الثورة البورجوازية هي التي أدخلت الرأسمالية رسمياً، بل إن من أدخلتها هي الدولة، ومن فوق، عن طريق نظام بيروقراطي - أرستقراطي أقر بأن استمرار بقائه لا يمكن أن يكون مضموناً بغير ذلك. واحتفظت الأنظمة السياسية - الاقتصادية اللاحقة في كلا البلدين بملامح مهمة من النظام القديم، منها أخلاق الطاعة والانضباط والاحترام التي غلبت الطبقات الوسطى وحتى البروليتاريا الجديدة، وساعدت بدورها الرأسماليةَ على حل مشكلات انضباط العمال، واعتماد اقتصاد المشروعات الخاصة كثيراً على المساعدة والإشراف من جانب بيروقراطية الدولة، وكذلك النزعة العسكرية المطردة التي جعلت من كل من الدولتين قوةً مَهيبةً في الحرب، ترفدها روح متطرفة لاهبة، بل مَرَضية في أغلب الأحيان، من جانب اليمين السياسي. غير أن ثمة فوارق بين الجانبين. في ألمانيا، كانت البورجوازية الليبرالية قوية، واعية لنفسها بوصفها طبقة وقوة سياسية مستقلة. وكما أوضحت ثورات عام 1848، كانت «الثورة البورجوازية» احتمالاً حقيقياً. وكان الطريق البروسي إلى الرأسمالية حصيلةً لرفض البورجوازيين القيام بثورة بورجوازية، واستعداد دولة اليونكر لمنحهم أكثر ما يطالبون به، ولكن من دون ثورة، مقابل المحافظة على السيطرة السياسية لصالح أرستقراطية الملاّك والنظام الملكي البيروقراطي. ولم يكن اليونكر هم الذين بادروا بالتغيير، بل ضمنوا (بفضل بسمارك) أن التغيير لن يغلبهم على أمرهم. أما في اليابان، فإن المبادرة، والاتجاه، والكوادر الخاصة بـ «الثورة من أعلى»، جاءت كلها من قطاعات من الإقطاعيين أنفسهم. وقد أدت البورجوازية اليابانية (أو ما يعادلها) دورها، ولكن إلى الحد الذي أسهم فيه وجود طبقة رجال الأعمال

والمقاولين في تسهيل إقامة اقتصاد رأسمالي على أسس مستعارة من الغرب. ولا يمكن، من ثم، اعتبار «تحولات ميجي الإصلاحية» «ثورة بورجوازية» مُجهضة بالمعنى الحقيقي للكلمة، مع أن بوسعنا أن نعتبرها معادلاً وظيفياً لجانب من هذه الثورة، وذلك هو ما يزيد من وقع العناصر الراديكالية في التغييرات التي أحدثتها هذه التحولات في اليابان ويجعلها أبعد تأثيراً؛ فقد ألغت الإقطاعات في الأقاليم، واستبدلتها بإدارة مركزية للدولة استحدثت عملة نقدية عشرية، وسياسية مالية مرهونة بدرجة التضخم، تدعمها قروض عامة قائمة على نظم بنكية استوحيت من أنظمة الخزينة الفيدرالية العامة الأمريكية، وعام 1873، استحدثت ضريبة شاملة على الأرض. (ويجب أن نتذكر أن الحكومة المركزية لم يكن لها دخل مستقل عام 1868، وكانت تعتمد، بصورة مؤقتة، على معونات الأقاليم الإقطاعية التي ألغيت بُعيد ذلك، وعلى القروض القسرية، وعلى العقارات الخاصة لزعماء شوغن السابقين في توكوغاوا). وتضمن هذا الإصلاح المالي إصلاحاً اجتماعياً جذرياً، تمثل في إصدار تعليمات تملك الأراضي (1873)، الذي أقر المسؤولية الفردية، لا الجماعية، عن الضريبة، ومن ثم، عن تحديد حقوق التملك بالأفراد، بما في ذلك حق البيع. وكان من نتائج ذلك، أن قد ألقي عرض الحائط بالحقوق الإقطاعية السابقة التي كانت على وشك الأفول على كل حال في ما يتصل بالأراضي المفلوجة. وصحيح أن طبقة كبار النبلاء والساموراي احتفظوا ببعض أراضي الجبال والغابات، غير أن الحكومة تولت شؤون الأملاك الجماعية، وتحول الفلاحون إلى مستأجرين لأراضي الملاّك الأغنياء - ما أدى إلى فقد النبلاء والساموراي قاعدتهم الاقتصادية، ونالوا، بالمقابل، تعويضات ومعونات حكومية. غير أن التغير في أوضاعهم كان عميق الأثر، حتى قبل أن يتبين أن ذلك لم يكن مناسباً لكثير منهم - وقد زاد في عمق هذه التحولات أن الإصلاح العسكري، ولا سيما قانون الخدمة العسكرية لعام 1873 الذي سُنَّ على غرار النموذج البروسّي،

أدخل الخدمة الإجبارية. وكانت النتيجة الأبعد أثراً لذلك هي إقرار المساواة؛ لأن هذا الإجراء أبطل مخلفات الامتيازات المرتبطة بمكانة الساموراي الراقية المنفصلة بوصفهم طبقة متميزة. إلا أن الفلاحين والساموراي كليهما أبدوا مقاومة للإجراءات الجديدة ـ وربما حدثت على المعدل، نحو ثلاثين انتفاضة فلاحية كل سنة بين الأعوام 1869 و1874، بالإضافة إلى تمرد قام به الساموراي عام 1877. وقد أخمدت هذه الحركات من دون صعوبة كبيرة.

لم يكن من أهداف النظام الجديد إلغاء الامتيازات الأرستقراطية والطبقية، على الرغم من أنها قد تعرضت للتبسيط والتحديث. بل لقد تأسست أرستقراطية جديدة. وفي الوقت نفسه، كانت الغربنة تنطوي على إلغاء المراتب القديمة، وقيام مجتمع تتحدد فيه المكانة الاجتماعية بالثروة، والتربية، والنفوذ السياسي أكثر مما تتقرر بالأصل والمحْتَد، فتظهر فيه تيارات مساواتية حقيقية غير مؤاتية للساموراي الأفقر الذين هبط كثير منهم إلى صفوف العمال العاديين، ومؤاتية للناس العاديين الذين سمح لهم (اعتباراً من عام 1870) بحمل أسماء عائلية واختيار المهن وأماكن السكن التي يريدونها بحرية. وخلافاً لما تم في المجتمع البورجوازي الغربي، فإن هذه التطورات لم تكن بالنسبة لحكام اليابان تمثل بحد ذاتها برنامجاً محدداً، بل وسائل ضرورية لتحقيق النهوض القومي. ولذلك كان لا بد من إحداثها. كما كان لها ما يبررها لدى كوادر المجتمع القديم. ويعود ذلك، في جانب منه، إلى عِظَم سطوة الأيديولوجية التقليدية النازعة إلى الخدمة في جهاز الدولة، أو بشكل أدق، الحاجة إلى «تعزيز الدولة»، وما دفع إلى الإقبال على ذلك انفتاح آفاق واسعة وفرتها اليابان الجديدة في مجالات الخدمة العسكرية، والوظائف الإدارية، والسياسية، والمهن التجارية. وقد قاومها الفلاحون والساموراي، وبخاصة من لم توفّر لهم اليابان الجديدة مستقبل براقاً. وعلى الرغم من ذلك، فإن العناصر الراديكالية في التغييرات التي أحدثها المنتسبون إلى المجتمع القديم والمنتمون إلى الطبقة المعتدة بنفسها

بين الوجهاء العسكريين خلال سنوات قليلة إنما تمثل ظاهرة فريدة خارقة للعادة.

كانت الغَرْبَنَة هي القوة الدافعة، فمن الواضح أن الغرب يحمل سر النجاح، ولا بد، ثم، من محاكاته مهما كان الثمن. وكانت إمكانية اقتباس ما لدى مجتمع آخر من القيم والمؤسسات، بالجملة، أكثر يُسراً على اليابانيين مما هي على حضارات أخرى، لأنهم كانوا قد فعلوا ذلك مع الصين. بيد أن هذه التجربة كانت مذهلة بحد ذاتها، وإشكالية ومؤلمة. إذ لم يكن من الممكن الاقتراض منها بصورة سطحية وانتقائية ومنضبطة. ويصدق ذلك على نحو خاص، على المجتمع الياباني الذي تختلف ثقافته اختلافاً عميقاً عن ثقافة الغرب. وذلك هو ما يفسر الغلوَّ في حماسة دعاة الغربنة الكُثر وإقبالهم على أداء هذه المهمة. وبدا للبعض أن ذلك سيستلزم التنكر لكل ما هو ياباني، واعتبار الماضي برمته مجرد ركام من التخلف والبربرية؛ أي، بعبارة أخرى، تبسيط اللغة اليابانية أو التخلي عنها كلياً، والتجديد الجيني للعرق الياباني المنحط بالتضريب والتوالد مع أجناس غربية متفوقة. وما أسهم في تفاقم هذا التوجس، أن بعض الأوساط ابتلعت واستساغت نظريات غربية عن الداروينية الاجتماعية العرقية، بل إن مثل هذه الأفكار العنصرية وجدت بالفعل بعض الدعم المؤقت لدى أطراف معينة على أعلى المستويات[17] وبالحماسة نفسها التي تبنى بها اليابانيون التقانة، وأساليب الزراعة، والأفكار الوافدة من الغرب، راجت بينهم الأزياء وتسريحات الشعر والمأكولات الغربية (ولم يكونوا حتى ذلك الحين يأكلون اللحم)[18]. ألم

(17) John Whitney Hall, *Das Japanische Kaiserreich*, Fischer Weltgeschichte; Bd. 20, Illustrierte Originalausg. der Fischer Bücherei ([Frankfurt am Main]: Fischer Bücherei, [1968]), p. 282.

(18) Keiichirō Nakagawa and Henry Rosovsky, «The Case of the Dying Kimono: The Influence of Changing Fashions on the Development of the Japanese Woolen Industry,» *Business History Review*, vol. 37 (1963), pp. 59-80.

تكن الغربنة تتضمن الأيديولوجيات التي تمثل جوهر التقدم في الغرب، بما فيها حتى المسيحية؟ ألم تُفْضِ الغربنة بعد ذلك إلى التخلي عن المؤسسات القديمة كافة، بما فيها عروش الأباطرة؟

بيد أن الغربنة، خلافاً للصَيْنَنَة التي سبقتها، وضعت اليابان قبالة مأزق كبير. ذلك أن «الغرب» لم يكن نظاماً واحداً متماسكاً، بل كان كياناً مُعقداً يضم مؤسسات متنافسة عدة، وآراء متصارعة، فما الذي سيختاره اليابانيون منها؟ ولم يكن الخيار صعباً من الوجهة العملية، فقد كان النموذج البريطاني بالطبع قدوة تُحتذى في مجالات السكك الحديد، والتلغراف، والأشغال العامة، وصناعة النسيج، وكثير من وسائل التعامل التجاري. واستوحي الإصلاح القانوني من النموذج الفرنسي الذي قام على أساسه الإصلاح العسكري أول الأمر، إلى أن شاع النموذج البروسي (وحذا الأسطول البحري حذو مثيله البريطاني). وكانت الجامعات تدين بالكثير للمثالَيْن الألماني والأمريكي على حد سواء، واتّبع التعليم الابتدائي، والابتكار الزراعي، والخدمات البريدية خطى الأساليب الشائعة آنذاك في الولايات المتحدة. واستخدم، تحت إشراف اليابانيين، ما بين خمسمئة وستمئة خبير أجنبي بحلول عام 1875/1876، ونحو ثلاثة آلاف حتى عام 1890، بيد أن الخيار كان أكثر صعوبة على الصعيدين الأيديولوجي والسياسي. فكيف لليابان أن تختار بين الأنساق المتنافسة للدول البورجوازية ـ الليبرالية، بريطانية كانت أو فرنسية، أو الأنظمة الملكية البروسية ـ النمساوية الأكثر سلطوية؟ والأهم من ذلك، كيف لها أن تختار بين وُجهتين؛ **أولاهما** الغرب الفكري، مُمثلاً بالبعثات التبشيرية (التي استهوت، على نحو مدهش، الساموراي التائهين المُتشظّين طبقياً، المستعدين لتحويل ولائهم من ربٍّ زمني إلى آخر سماوي)، و**ثانيهما** الغرب اللاأدريّ العلمي، كما يمثله هربرت سبنسر (Herbert Spencer) وتشارلز داروين؟ أو سيتعين على اليابان، من ناحية ثانية، أن تختار بين المدارس العَلْمانية والدينية المتنافسة؟

في غضون عقدين من الزمان، صدرت في اليابان ردود الفعل الأولى إزاء التطرف في كلا التيارين الداعيين إلى كل من الغربنة واللَّبْرَلة. وأسهمت في جانب من ردود الفعل تلك تقاليدُ فكرية غربية انصب نقدها على الليبرالية الكلية، مثلما حدث في ألمانيا. وكان من نتائج ذلك في اليابان صدور دستور عام 1889 الذي وقف وراءه الدعاة التقليديون الرجعيون الجُدد، الذين سعوا إلى اختراع ما يشبه دولة/ ديانة توثنية جديدة تتركز على عبادة الإمبراطور، أو الشنتو (Shinto). وكانت الغلبة، في نهاية المطاف، لهذا الخليط الذي جمع بين الرِّدة الجديدة إلى التقاليد، والتحديث الانتقائي (وتجلى ذلك في المرسوم الإمبراطوري حول التعليم عام 1890). إلا أن التوتر ظل قائماً بين من كانت الغربنة تعني في نظرهم الثورةَ الجذرية، وأولئك الذين كانت تعني بالنسبة إليهم قيامُ يابانٍ قوية. ولم تحدث الثورة، لكن تحول اليابان إلى دولة حديثة منيعة مُهيبة الجانب حدث بالفعل. ومن الوجهة الاقتصادية، كان إنجاز اليابان على شيء من التواضع في سبعينيات القرن التاسع عشر، ويعتمد اعتماداً شبه كلي على اقتصادٍ تستأثر فيه الدولة بالنشاط التجاري، ما يناقض الأيديولوجية الرسمية للّيبرالية الاقتصادية. وظلت الأنشطة العسكرية للجيش الجديد تتركز كلياً على التصدي للمقاتلين العصاة في اليابان القديمة، مع أنه جرى التخطيط لحرب ضد كوريا في وقت مُبكر عام 1873، غير أنه أمكن تحاشيها، لأن أعضاء نخبة ميجي الأكثر تعقلاً كانوا يرون أن التحول الداخلي يجب أن يسبق المغامرة في الخارج. من هنا، استمر الغرب في التقليل من أهمية ما يجري في اليابان من تحولات.

لم يستطع المراقبون الغربيون أن يفهموا هذا البلد الغريب. ولم يتمكن بعضهم من أن يرى فيه غير التمظهرات الجمالية الجذابة الآسرة، وغير هاتيك النساء الأنيقات الخانعات اللواتي يؤكدن تفوق الذكر، وكذلك (كما كان مُفترَضاً آنئذٍ) تفوق الغرب، في بلاد بنكرتون ومدام بَتَرْفلاي/ الفراشة. وكان آخرون من الاقتناع بدونية كل ما هو غير

غربي، بحيث لم يروا شيئاً على الإطلاق، فعلى حد تعبير جريدة **جابان هيرالد** (*Japan Herald*) عام 1881: «اليابانيون شعب سعيد. ولأنهم يرضون بالقليل، فإنهم لن يحققوا الكثير»[19]. وحتى ما بعد الحرب العالمية الثانية، كان الاعتقاد بأن اليابانيين، لا يمكنهم، تِقانيّاً، أن ينتجوا إلا صوراً مقلدة رخيصة للسلع الغربية، يمثل واحداً من عناصر الأساطير الشائعة لدى البيض. إلا أن عدداً من المراقبين الفَطِنين، وهم غالباً من الأمريكيين، نوهوا آنذاك بالمستوى المشهود لكفاءة الزراعة اليابانية[20] وببراعة الحرفيين الفنيين اليابانيين، وبقدرات الجنود اليابانيين. وفي وقت مُبكر عام 1878، تكهن أحد الجنرالات الأمريكيين بأن ذلك البلد، بفضلهم، «سيُقدَّر له أن يؤدي دوراً مهما في تاريخ العالم»[21]. وحالما أثبت اليابانيون أنهم قادرون على كسب الحروب، تضاءلت مصداقية ما يعتقده الغربيون في ما يتصل باليابانيين. ولكن هؤلاء في نهاية الفترة التي نعالجها، كانوا يمثلون في نظر الغربيين برهاناً حياً في المقام الأول على أن حضارة البورجوازية الغربية هي التي قُدِّر لها النصر والتفوق على الحضارات الأخرى كلها. ولم يكن اليابانيون المتعلمون أنفسهم آنذاك يخالفونهم الرأي.

---

(19) V. G. Kiernan, *The Lords of Human Kind: European Attitudes Towards the Outside World in the Imperial Age*, Pelican Books (Harmondsworth: Penguin, 1972), p. 188.

(20) «يستطيع المزارع الياباني أن يُنتج من فدان واحد محصولاً سنوياً لا يمكن إنتاجه إلا في أربعة مواسم في النظام المُتبع في الولايات المتحدة. ويعود ذلك إلى حسن التدبير، والاقتصاد، والمهارة الزراعية، مع عدم وجود الماشية، التي تستلزم تحويل المراعي في المناطق غير المأهولة إلى سماد لتخصيب الحقول المحروثة، أو أي نظام للتعاقب الموسمي، ومن دون الاستعانة بأي أدوات آلية مهما كان نوعها». انظر: Horace Capron, «Agriculture in Japan,» in: *Report of the Commissioner of Agriculture for 1873* (Washington: [Government Printing Office, 1874]), pp. 364-374.

(21) Kiernan, Ibid., p. 193.

الفصل التاسع

تـغيـيـر المـجـتـمـع

وفق ما يراه [الشيوعيون]: «من كلٍّ بحسب طاقته؛ ولكل بحسب حاجته». وبعبارة أخرى، لا يحق لأي شخص أن يحقق أي أرباح جراء قدراته، وإمكاناته، وجدّه واجتهاده؛ بل يجب أن يخصص ما يكسبه للضعفاء، والأغبياء، والكسالى.

السير ت. إرسكين ماي، 1877[1].

إن الحكومة تنتقل الآن من أيدي من يمتلكون شيئاً ما، إلى أيدي من لا يمتلكون أي شيء؛ من أيدي من لهم مصلحة مادية في المحافظة على المجتمع في حالته الراهنة، إلى من لا شأن لهم على الإطلاق بقضايا النظام العام، والاستقرار، والحفاظ على الوضع القائم . . . وربما كان العمال، وفق قانون التغيّر الدنيوي العظيم، يمثلون بالنسبة لمجتمعاتنا الحديثة ما كان يمثله البرابرة للمجتمعات القديمة، أي قوة زلزالية تفضي إلى التفكك والدمار.

[الأَخوان إدمون وجول] غونكور خلال كومونة باريس[2].

(1) Thomas Erskine May, *Democracy in Europe, a History*, 2 vols. (London: Longmans, Green and Co, 1877), vol. 1, pp. LXV-LVI.

(2) [*Journal des Goncourt* (Paris: [s. l.], 1956)], vol. 2, p. 753.

فيما كانت الرأسمالية والمجتمع البورجوازي يحققان النصر، أخذت البدائل المحتملة لهما بالانحسار، على الرغم من ظهور السياسات الشعبية والحركات العمالية. وتدنّت هذه الاحتمالات إلى الحضيض خلال عامي 1872 و1873. غير أن الغموض والشك أخذا بعد بضع سنوات يكتنفان مستقبل هذا المجتمع الذي أحرز انتصاراته المشهودة، وبدأت الحركات الرامية إلى استبداله أو الإطاحة به تؤخذ، مرة أخرى، مأخذ الجد. ولا يعني ذلك مجرد كتابة التاريخ عبر نظرة استرجاعية لوقائع الماضي، مع أنه ليس ثمة ما يمنع المؤرخ من الانتفاع بواحدة من أقوى الملكات لديه، وذلك هو ما قد يَدفع المراهنون والمستثمرون لقاءَه أغلى ما يمتلكون، مقابل معرفة ما يخبئه المستقبل من أحداث. ويعني ذلك أيضاً كتابة التاريخ كما عاشه معاصروه. وقلما تبلغ ثقة الأغنياء وذوي النفوذ بأنفسهم حداً يدفعهم إلى التخوف من أن يؤول عهدهم إلى زوال. والأهم من ذلك أن ذكرى الثورة ظلت فتية جياشة في النفوس. وكان كل من بلغ الأربعين عام 1868 قد عاش، وهو في طور المراهقة، جانباً من الثورة الأعظم في التاريخ الأوروبي. كما أن من بلغوا الخمسين قد عاشوا ثورة عام 1830 أطفالاً، وثورات 1848 بالغين. وقد مرت بالإيطاليين، والإسبان، والبولنديين خلال الخمس عشرة سنة المنصرمة انتفاضات، وثورات، وأحداث ذات مضمون ثوري وثاب، مثل حركة غاريبالدي التحررية في جنوب إيطاليا. ولا عجب، إذاً، أن التخوف من الثورة ظل حيّاً وماثلاً في الأذهان.

ونحن نعلم الآن أن هذه الروح لم تخلف آثاراً ذات شأن في الفترة التي أعقبت عام 1848. والواقع أن الحديث عن ثورات اجتماعية خلال تلك العقود هو أشبه بالحديث عن الثعابين في بريطانيا، إنها هناك، ولكنها لا تمثل ظاهرة مهمة من البيئة الحيوانية الطبيعية. لقد غابت عن الأنظار الثورة الأوروبية التي كانت قريبة المنال، وواقعية حقيقية في الوقت نفسه، في تلك السنة العظيمة الحافلة بالأمل والخيبة على حد

سواء. وكان ماركس وإنجلز، كما رأينا، يأملان في انبعاثها فوراً في السنوات التالية. وكانا يتطلعان، بصورة جدية، إلى اندلاعها على نحو شامل في ذيول الكساد الاقتصادي العالمي عام 1858، أو بوصفها واحدة من نتائجه. وعندما لم يحدث ذلك، خبت لديهما الآمال في احتمال وقوعها في المستقبل العياني المنظور. ومن الخطأ بالطبع الافتراض بأن ماركس قد تحول عندها إلى ما يشبه الداعية الديمقراطي الاجتماعي التدرّجي (بالمعنى الحديث لهذا المصطلح)، أو أنه أخذ يتوقع أن الانتقال إلى الاشتراكية سيتم، عند حدوثه، بصورة سلمية،. فحتى في البلدان التي قد يستطيع العمال فيها أن يتولوا الحكم سلمياً بالفوز في الانتخابات (وقد ذكر في هذا السياق الولايات المتحدة، وبريطانيا، وربما هولندا)، فإن تسلمهم زمام السلطة، وتدمير السياسات والمؤسسات القديمة، وهو ما كان يراه ضرورة جوهرية، قد يؤديان إلى مقاومة عنيفة من جانب أركان الحكم القديم. وكان واقعياً في مثل هذا التصور من دون شك. فربما ستقبل الحكومات والطبقات الحاكمة، في اعتقاده، بحركة عمالية لا تهدد استمرارها في الحكم، إلا أنها لم تكن مستعدة على الإطلاق للقبول بحركة تقوّض أركان حكمها، ولا سيما بعد هجمات القمع الدموية ضد كومونة باريس.

وعلى الرغم من ذلك، فإن احتمالات الثورة عموماً، ناهيك عن الثورة الاشتراكية، في البلدان الأوروبية المتقدمة لم تعد مرهونة بالسياسات العملية، كما أن ماركس، كما رأينا، قد استبعد وقوعها حتى في فرنسا. وكان المستقبل القريب في البلدان الرأسمالية الأوروبية يكمن في تنظيم الأحزاب الجماهيرية المستقلة الممثلة للطبقة العاملة، التي لم تكن مطالبها السياسية على المدى القصير ثورية الطابع. وعندما أملى ماركس نفسه برنامج الحزب الديمقراطي الاجتماعي الألماني (غوتا [1875]) على أحد المراسلين الصحافيين الأمريكيين، فإنه حذف البند الوحيد الذي يشير إلى مستقبل اشتراكي (وهو «إقامة تعاونيات إنتاجية اشتراكية. . . في ظل رقابة العمال الديمقراطية»). وكان هذا الحذف

بمثابة تنازل تكتيكي من جانبه لإرضاء أنصار لاسال. لأن الاشتراكية، في نظره، «ستكون نتيجة الحركة. ولكن ذلك سيكون مرهوناً بالزمن، وبالتربية، وبنمو أشكال جديدة للمجتمع»[3].

هذا المستقبل البعيد النائي الذي لا يمكن التكهن به يمكن أن تعجل به التطورات التي تحدث في هوامش المجتمع البورجوازي لا في محاوره المركزية. وقد بدأ ماركس، منذ أواخر الستينيات في ذلك القرن، محاولات جديد لوضع تصور لهذه الاستراتيجية الساعية، بطريقة غير مباشرة، إلى تقويض المجتمع البورجوازي، عبر ثلاث مقاربات صدقت منها اثنتان، وأخفقت الثالثة: الثورة في المستعمرات، وروسيا، والولايات المتحدة. وكانت الأولى واحدةً من المكونات في حساباته المتصلة بنهوض الحركة الثورية الأيرلندية[4]. وكان لبريطانيا دور حاسم في تحديد مستقبل الثورة البروليتارية لأنها كانت البؤرة المركزية لرأس المال، وسيدة السوق العالمية، مثلما كانت، في الوقت نفسه، «البلد الوحيد الذي نمت ونضجت فيه إلى حد بعيد الشروط المادية للثورة»[5]. من هنا، كان هدف «الأممية» الأول هو التعجيل بالثورة في إنجلترا، وكان السبيل الوحيد إلى ذلك هو تحقيق الاستقلال الأيرلندي. ولم يكن هذا التصور للثورة الأيرلندية (أو، على العموم، ثورة الشعوب المعنية) مقصوراً بحد ذاته، بل بوصفه وسيلة للإسراع بالثورة في البلدان البورجوازية المركزية، على اعتبار أنها تمثل كعب آخيل، والنقطة الأضعف في النسق الرأسمالي العالمي.

وربما كان مقدراً أن يكون لروسيا دور أكثر طموحاً. إن الثورة في روسيا، كما سنرى، لم تعد أمراً محتملاً فحسب، بل غدت أمراً ممكناً.

---

(3) Karl Marx, *Karl Marx, Friedrich Engels. Werke* (Berlin: Dietz, 1956-), vol. XXXIV, pp. 510-511.

(4) انظر الفصل الخامس من هذا الكتاب.

(5) المصدر نفسه، ج 32، ص 669.

وفيما كان مثل هذا الحدث مدعاة للترحيب عام 1848 لأنه كان سيزيل عقبة كأداء تعترض السبيل لانتصار الثورة في أوروبا، غدا الآن قضية مهمة بحد ذاتها. إن اندلاع ثورة في روسيا قد يعطي، بالفعل «الضوء الأخضر لاندلاع ثورة بروليتارية في الغرب، وستكون كل من الثورتين مكملة للأخرى» (وذلك هو ما أوضحه ماركس وإنجلز في المقدمة التي وضعاها للطبقة الروسية من **البيان الشيوعي**)[6]. يضاف إلى ذلك أن مثل هذه الثورة ـ على الرغم من أن ماركس لم يلزم نفسه تماماً بهذه الفرضية ـ كان من المحتمل أن تفضي إلى الانتقال المباشر من مشاعية القرية إلى تنميةٍ شيوعية، مع تجاوز مرحلة التطور الرأسمالي الناضج. ومثلما تنبأ ماركس، وكان محقاً في ذلك، فإن روسيا الثورة قد فتحت آفاق الثورة في كل مكان.

أما الولايات المتحدة، فسيكون لها دور أقل محوريةً من ذلك، فقد كان لدورها آثار سلبية أساساً، ذلك أنها، بفعل مستوى التنمية الهائلة فيها، كسرت طوق الاحتكار الصناعي الذي استأثرت به أوروبا الغربية، وبخاصة بريطانيا، وهشّمت، جرّاء صادراتها الزراعية، قواعد تملُّك الأراضي، الصغيرة منها والكبيرة، في أوروبا. وكان ذلك تقييماً سليماً بالطبع. ولكن هل كان من شأنه أن يؤدي إلى إسهام إيجابي في انتصار الثورة. لقد توقع ماركس وإنجلز في سبعينيات ذلك القرن بالتأكيد، وعلى نحو واقعي، نشوب أزمة في النظام السياسي في الولايات المتحدة، لأن الأزمة الزراعية كانت ستضعف الفلاحين، وهم «قاعدة الدستور بأسره»، كما أن استحواذ المضاربين والشركات الكبيرة على النشاط السياسي كان سيولّد النفور في أوساط المواطنين. كذلك شددّا على الاتجاهات الرامية إلى قيام حركة بروليتارية جماهيرية. وربما لم يتوقعا الكثير من هذه الاتجاهات، مع أن ماركس أعرب عن بعض التفاؤل، في الولايات المتحدة «الشعب أكثر عزماً مما هو في أوروبا

---

(6) المصدر نفسه، ج 14، ص 296.

. . . وكل شيء ينضج بصورة أسرع»[7]. غير أنهما جانبا الصواب حين أشارا إلى روسيا والولايات المتحدة بوصفهما الدولتين العظميين اللتين حُذفتا من النسخة الأصلية لـ **البيان الشيوعي**. فقد كان تطور الأمور في المستقبل لكل منهما مختلفاً كل الاختلاف.

إن ثقل آراء ماركس لم يتجلَّ إلا في الانتصارات التي تحققت بعد وفاته، ذلك أنها لم تكن في تلك الآونة تمثل قوة سياسية ذات خطر، مع أن اثنين من أعراض نفوذه اللاحق كانا واضحين للعيان بحلول عام 1875: حزب ديمقراطي اجتماعي ألماني قوي، وتغلغل أفكاره المشهود في أوساط الإنتلجنسيا الروسية ـ وهو ما لم يكن يتوقعه، مع أنه، كما سنلاحظ، ليس مفاجئاً إذا استرجعنا الماضي بمفعول رجعي، ففي أواخر الستينيات ومطلع السبعينيات، كان «الدكتور الأحمر» يُعتبر، في بعض الأحيان، مسؤولاً عن أنشطة «الأممية»[8] الذي كان بلا شك هو الشخصية الأكثر أهميةً ونفوذاً ومهابةً فيها. إلا أن «الأممية»، كما رأينا، لم تكن بأي معنى من المعاني حركة ماركسية، أو حتى حركة تضم أكثر من حفنة من أنصار ماركس الذين كان أغلبهم من مُجايِليه المهاجرين الألمان، فقد كانت تضم خليطاً من الجماعات اليسارية التي جمعتها، بصورة أساسية إن لم تكن حصرية، الرغبة في تنظيم «العمال»، وحققت في هذا المجال نجاحاً كبيراً، وإن لم يكن دائماً. وكانت آراؤهم تجمع ما بين تلك التي خلفها عام 1848 (أو حتى عام 1789، بما طرأ عليها من تحولات بين الأعوام 1830 و1848)، وبعض الآمال بقيام حركات عمالية إصلاحية، وأشكالٍ منوعة من الحلم الثوري: الفوضوية.

وبمعنى من المعاني، كانت نظريات الثورة آنذاك، وتوَجَّبَ عليها أن تكون، محاولات للتصالح مع تجربة عام 1848. ويصدق ذلك على

---

(7) المصدر نفسه، ج 34، ص 512.

(8) انظر الفصل السادس من هذا الكتاب.

ماركس وباكونين على حد سواء، مثلما يصدق على أصحاب كومونة باريس والشعبويين الروس الذين سنتناولهم بالحديث في وقت لاحق. ويمكن القول إن مواقفهم جميعهم قد اختمرت في الفترة الممتدة بين الأعوام 1830 و1848 مع أن العلم الثلاثي الذي رفع قبل عام 1848 قد فقد تماماً أحد ألوانه في الطيف اليساري، وهو: الاشتراكية اليوتوبية. لقد انقرضت التيارات اليوتوبية الرئيسية المعهودة، فقد قطعت السان سيمونية صلاتها باليسار، ودمجت نفسها في «الوضعية» التي نادى بها أوغست كونت (1798 ـ 1857) وفي تجربة فتية تشاركت في خوضها جماعة من الرأسماليين المغامرين (الفرنسيين في المقام الأول). وكان أتباع روبرت أوين (1771-1858) قد حولوا طاقاتهم الفكرية إلى النزعة الروحية وإلى الفصل بين الدين والدولة، وسخروا طاقاتهم العملية في مجالات ضيقة هي إقامة المتاجر التعاونية. وطوى النسيان فورييه (Fourier) وكابيه (Cabet) وغيرهما ممن ألهموا الجماعات الشيوعية، ولا سيما في أرض الحرية والفرص غير المحدودة. وأثبت شعار «توجهوا غرباً أيها الشباب» الذي أطلقه هوراس غريلي(Horace Greeley) (1811 ـ 1872) أنه أكثر نجاحاً من الشعارات الفوريرية السابقة. وما أن حل عام 1848، حتى كانت الاشتراكية اليوتوبية قد لفظت أنفاسها الأخيرة.

أما الورثة الفكريون للثورة الفرنسية العظمى فقد أفلحوا من جانبهم في تلك المصالحة مع تجربة عام 1848. وتراوح هؤلاء بين الجمهوريين الديمقراطيين الراديكاليين (الذين ركزوا في بعض الأحيان على التحرر الوطني، وفي أحيان أخرى على اهتمامهم بالقضايا الاجتماعية)، والشيوعيين اليعاقبة من نوع ل. أ. بلانكي الذي لم يكن يطلق سراحَه من فترات سجنه المتقطعة إلا اندلاعُ ثورة أو أخرى في فرنسا، فقد تعلم هذا اليسار التقليدي الدرس، ولم ينسَ شيئاً. وكان محور التفكير لدى بعض المتطرفين المشاركين من هذه الفئة في كومونة باريس هو أن يعيدوا، قدر الإمكان، إنتاج أحداث الثورة العظمى. وقد بقيت البلانكية، بإرادتها الحازمة، وعقليتها التآمرية المنظمة، على قيد

الحياة في فرنسا، وأدت دورا حاسماً في الكومونة، ولكن ذلك كان أشبه برقصة الطير الذبيح؛ إذ لم يقدر لها أن تؤدي أي دور مستقل مهم آخر فيما بعد، وضاعت بعد ذلك في خضم التيارات المتصارعة في أوساط الحركة الاشتراكية الفرنسية الجديدة.

غير أن الراديكالية الديمقراطية كانت أقدر على المقاومة، لأن برنامجها كان يعبر تعبيراً حقيقياً عن تطلعات «الناس العاديين» في كل مكان، (مثل أصحاب الحوانيت، والمدرسين، والفلاحين)، ويشكل مكوناً أساسياً من تطلعات العمال، وأداة مناسبة لاجتذاب أصوات السياسيين الليبراليين. وربما لم تكن الحرية والمساواة والإخاء تمثل شعارات دقيقة، غير أن الناس الفقراء المتواضعين كانوا، في مواجهتهم للأغنياء وذوي النفوذ، يعرفون ما تعنيه. وحتى بعد أن تحقق برنامج الديمقراطية الراديكالية الرسمي، في جمهورية تقوم على الاقتراع الشامل غير المشروط الذي يجري في ظل المساواة، مثل الولايات المتحدة[9]، فإن حاجة «الناس» إلى ممارسة سلطة حقيقية ضد الأثرياء والفاسدين هي التي بعثت الحياة في عروق النزعة الديمقراطية. غير أن الديمقراطية الراديكالية لم تكن في الواقع متوافرة في أي مكان آخر، وحتى في مجالات ضيقة مثل الحكم المحلي.

ومع ذلك، فإن الديمقراطية الراديكالية لم تعد تمثل وقتها شعاراً ثورياً بحد ذاتها. بل وسيلة، وإن لم تكن تلقائية، لتحقيق غاية. وأصبحت الجمهورية الثورية تعني «الجمهورية الاجتماعية»، والديمقراطيةُ الثوريةُ «الديمقراطيةَ الاجتماعية» ـ وهي الصفة التي أخذت تتبناها الأحزاب الماركسية. ولم تكن هذه النزعة بمثل هذا

(9) المقصود هنا هو حق الاقتراع للرجال؛ إذ لم يكن أي بلد حتى ذلك الحين قد أقر حقوق المواطنة للنساء، على الرغم من أن المناضلين في الولايات المتحدة التي رشحت فيها فيكتوريا وُودهَلْ نفسها بالفعل لرئاسة الجمهورية عام 1872، كانوا قد بدأوا جهوداً حثيثة في هذا السبيل.

الوضوح لدى الثوريين القوميين أساسا، مثل ماتزيني في إيطاليا. لأن تحقيق الاستقلال والوحدة (على أساس جمهوري ديمقراطي) كان سيحل، في نظرهم، مشكلات أخرى. وكانت النزعة القومية ديمقراطية واجتماعية في آنٍ معاً، ولم تكن حقيقية إذا لم تكن كذلك. بل إن الماتزينيين أنفسهم لم ينكروا التحرر الاجتماعي، كما أن غاريبالدي أعلن بالفعل أنه اشتراكي. بصرف النظر عما كان يعنيه بهذه الكلمة. وبعد ما مُني به التياران المطالبان بالوحدة وبالجمهورية من إحباطات، برزت من صفوف الجمهوريين الراديكاليين كوادر الحركة الاشتراكية الجديدة.

أما الفوضوية، التي يمكن أن نستشف بداياتها في فترة الغليان الثوري في الأربعينيات، فإنها كانت، في واقع الأمر، من منتجات ما بعد عام 1848 أو، بصورة أدق، ستينيات القرن. وكان لها، على الصعيد السياسي، مؤسِّسان اثنان: ب ـ ج برودون، رسامٌ كاتبٌ غزير ذاتيُّ التعلّم، لم يقم بأي دور عملي في مجال الهياجات السياسية، وميخائيل باكونين، أرستقراطي روسي مترحِّل لم يكن يفوّت فرصة للانغماس في هذا المجال[10]. وقد أثار كلاهما استهجان ماركس في مرحلة مبكرة.

ومع أنهما كانا يكنان له الإعجاب، فقد بادلاه العداء. ونظرية برودون اللامنهجية المتحيزة العميقة العداء لليبرالية لا تسترعي الاهتمام بحد ذاتها ـ وقد كان معادياً لحقوق النساء ولا ساميًّا في الوقت نفسه، علاوة على أنه استُدرج إلى صفوف اليمين المتطرف. غير أن آراءه أسهمت في المذهب الفوضوي بمفهومين: الدعوة إلى إقامة جماعات صغيرة متآزرة من المنتجين يربطها العون المتبادل عوضاً عن المصانع التي فقدت طابعها الإنساني، وكراهية الحكومة، **أي حكومة**، مهما كان نوعها. واستهوت هذه الأفكار صغار الحرفيين الفنيين المستقلين،

---

(10) من الممكن دراسة الأصول الفكرية الأولى للفوضوية، غير أن ذلك لا صلة له بالتطور الفعلي للحركة الفوضوية.

والعمال المهرة المستقلين نسبياً الذين كانوا يقاومون البَرْتَلَة (Proletarianization)، وكذلك أولئك الذين لم ينسوا في غمرة الحياة في المدن أصولهم الفلاحية والقروية في الأرياف، وأهل المناطق الواقعة في الأطراف الهامشية لمراكز التصنيع المتقدمة. وقد اجتذبت الفوضوية هؤلاء الناس وتلك المناطق، وتركزت في أوساط صانعي الساعات في القرى التابعة لـ «اتحاد جورا»، وكان من بينهم المشاركون الأكثر التزاماً بالفوضوية في «الأممية الأولى».

من الناحية الفكرية، لم يضف باكونين إلى برودون إلا القليل، عدا الرغبة المشبوبة في شنّ الثورة. إن «رغبة التدمير الجارفة»، على حد تعبيره، «هي، في الوقت نفسه، رغبة خلاقة»، وكان ذلك بمثابة نصيحة حماسية سيئة تستنهض الطاقات الثورية لدى المجرمين والمهمشين اجتماعياً، ونداء حقيقي موجه إلى الفلاحين وبعض المؤسسات المتنفذة. ولم يكن مفكراً على الإطلاق، بل كان نبياً، وإهاجيّاً، وكذلك منظَّماً تآمرياً رهيباً، على الرغم من عدم إيمان الفوضويين بالتنظيم الانضباطي الذي يمثل طغيان سطوة الدولة. وبهذه الصفة، نشر الحركة الفوضوية في إيطاليا، (ومن خلال حوارييه) في إسبانيا، وأشرف على تنظيم ما تبين فيما بعد أنه محاولة لعرقلة «الأممية» بين الأعوام 1870 و1872. وبهذه الصفة كذلك، أوشك على إقامة حركة فوضوية، لأن البرودونيين (الفرنسيين) لم يكونوا أكثر من هيئة لشكل متخلف من العمل النقابي، والمعونة المتبادلة، والتعاون. كما أنهم، سياسياً، لم يكونوا ثوريين في أعماقهم. ولا يعني ذلك أن الفوضوية كانت تمثل قوة سياسية كبيرة في نهاية الفترة التي نعالجها. غير أنها وضعت لنفسها بعض الأسس في فرنسا وفي سويسرا الفرنسية، ونواةً مؤثرة في إيطاليا. والأهم من ذلك أنها بدأت بداية مذهلة في إسبانيا، حيث رحب بالإنجيل الجديد الحرفيون الفنيون والعمال في كاتالونيا، وعمال الريف في الأندلس. وامتزجت هناك بالمعتقدات المحلية التي ترى أن بوسع القرى والمشاغل أن تعمل بكفاءة كاملة إذا ما أزيلت البنية الفوقية التي تمثلها الدولة

وطبقة الأثرياء، وأن بالإمكان إقامة دولة مثالية تتألف من بلدات مستقلة. وفي واقع الأمر، فإن الحركة «الكانتونية» حاولت تحقيق ذلك بالفعل في عهد الجمهورية الإسبانية (1873/ 1874)، وضُمَّ منظّرُها الإيديولوجي الأول ف. ب. مارغول (F. P. Margall) (1824 ـ 1901)، إلى أنصاب الرواد، مثل باكونين وبرودون ـ بالإضافة إلى هربرت سبنسر.

ذلك أن الفوضوية كانت تمثل ثورة الماضي قبل ـ الصناعي على الحاضر، مثلما كانت وليدة الحاضر. لقد رفضت التقاليد، على الرغم من أن الطابع الحدسي العفوي للفكر والحركة الفوضويين عزز، بل أكدّ، عدداً من العناصر التقليدية مثل اللاسامية، وبصورة عامة، التخوّف الرُّهابي من كل ما هو غريب أو جديد. وتميز بهاتين النزعتين باكونين وبرودون كلاهما. غير أن الفوضوية أظهرت، في الوقت نفسه، كراهيتها العميقة للدين، وللكنيسة، ورفعت راية التقدم، بما فيه إعلاء شأن العلم، والتقانة، والعقل، وربما الأهم من ذلك كله، «التنوير»، والتربية. وحيث إنها رفضت القبول بأي سلطة، فإنها وجدت نفسها في وضع غريب تتفق فيه والنزعة الفردانية المتطرفة التي نادت بها ودعت إليها مدرسة «دعه يعمل» (Laissez-faire) البورجوازية. وبهذه الصفة، فإن سبنسر (الذي وضع كتاب **الإنسان ضد الدولة** (*Man against the State*)، كان، من الناحية الأيديولوجية، فوضوياً، شأنه شأن باكونين. بيد أن الأمر الوحيد الذي تحاشت الفوضوية الخوض فيه هو المستقبل، الذي لم تقل فيه إلا أنه لن يتكشف إلا بعد الثورة.

لم تكن للفوضوية قيمة سياسية كبيرة (خارج إسبانيا)، ولا يهمنا أمرها إلا باعتبارها مرآة مشوهة لذلك العصر، فالحركة الثورية الأبرز في ذلك العصر مختلفة عنها كل الاختلاف: وهي الشعبوية الروسية. ولم تكن آنذاك أو في أي وقت آخر حركة جماهيرية. وتكللت أعمالها الإرهابية الأكثر إثارة في اغتيال القيصر ألكسندر الثاني (1881) بعد نهاية الفترة التي نتناولها هنا. بيد أنها كانت هي السَلَف لسلسلة مهمة من الحركات في

البلدان المتخلفة في القرن العشرين وللحركة البلشفية الروسية على حد سواء. وكانت تمثل حلقة الوصل بين التيارات الثورية في الثلاثينيات والأربعينيات من ذلك القرن، وذلك الذي اندلع عام 1917 وهي حلقة الوصل التي يجب التأكيد على أنها كانت أكثر وثوقاً مما كانت عليه مع كومونة باريس. وبالإضافة إلى ذلك، فإنها، بحكم كونها حركة ضمت المثقفين في بلد كانت الحياة الثقافية الجدية فيه سياسية الطابع، قد تجلت وانعكست فوراً على الصعيد العالمي في أعمال الكتاب الروس النوابغ الذين عاصروها: تورغنيف (Turgenev) (1789 ـ 1871)، ودستويفسكي (Dostoievsky) (1821 ـ 1881). بل إن معاصري تلك الفترة الغربيين سرعان ما سمعوا بهؤلاء «العدميين» (The Nihilists)، وخلطوا بينهم وبين الفوضويين الباكونيين. وهذا أمر مفهوم، لأن باكونين عبث بالحركة الثورية الروسية، مثلما عبث بأمثالها في كل مكان. ولأن الأدب لا يمكن فصله عن الحياة في روسيا، فإنه تقمص شخصيةً دستويفسكية حقيقية هي شخصية سيرجي جينادیفيتش نيتشايف (Sergei Gennadevich Nechaev)، الشاب المؤمن إلى درجة مَرَضية تقريباً بالإرهاب والعنف. غير أن الشعبوية الروسية لم تكن فوضوية بأي حال من الأحوال.

لم يكن ثمة من يشك في أوروبا في ضرورة الثورة في روسيا، ويستوي في ذلك الليبراليون المعتدلون واليساريون، فقد كان نظامها السياسي في ظل نيقولا الأول (1825 ـ 1855)، أوتوقراطيةً محضةً لا مراء فيها، ومفارقةً تاريخية بالية لم يكن متوقعاً لها الاستمرار في المدى البعيد. وقد بقيت في سدة الحكم جراء غياب طبقةٍ وسطى قوية، والأهم من ذلك، بسبب الولاء التقليدي أو الروح السلبية التي أبداها الفلاحون المتخلفون الخانعون في الغالب، ممن رضوا بحكم «الوجهاء»، لأنه يمثل الإرادة الإلهية، ولأن القيصر يمثل روسيا المقدسة، وكذلك لأن الحبل ترك لهؤلاء الفلاحين على غاربه ليتدبروا شؤونهم الحياتية المتواضعة عن طريق الجماعات القروية القوية التي لفت المراقبون الروس والأجانب الانتباه إلى وجودها وأهميتها منذ أربعينيات القرن. وبالإضافة إلى ما كانوا

يعانونه من فقر وإرغام من جانب السادة، فإنهم لم يقبلوا قط بحق الوجهاء في تملك الأراضي الإقطاعية، الفلاحون ملْكٌ للسادة، أما الأرض فهي في حوزة الفلاحين لأنهم هم الذين يحرثونها ويفلحونها. غير أنهم كانوا خاملين أو عاجزين. وإذا ما قُدر لهم أن ينفضوا عن أنفسهم هذه الروح السلبية ويهبّوا، سيكون ذلك بداية لمواجهة عسيرة مع القيصر والطبقات الحاكمة في روسيا. وإذا ما استطاع اليسار الأيديولوجي والسياسي أن يحشد جموعهم الساخطة، فإن النتيجة لن تكون تكراراً للانتفاضات الكبرى التي قامت في القرنين السابع عشر والثامن عشر، وهي «البوغاتشيفتشينا» (Pugachevschina) التي أرّقت الحكام الروس، بل ستكون ثورة اجتماعية. وبعد حرب القرم، لم تعد الثورة في روسيا أمراً مرغوباً فحسب، بل غدت، بصورة متزايدة، حدثاً ممكن الوقوع. وكان ذلك هو الابتكار الأكبر في ستينيات القرن. لأن النظام الرجعي العاجز الذي كان حتى ذلك الحين يبدو مُستقراً في الداخل وقوياً في الخارج، وكان منيعاً ضد الثورات التي اجتاحت القارة عام 1848، بل كان من القوة بحيث أرسل جيوشه لصد تلك الثورات عام 1849، نقول إن هذا النظام قد كُشف عنه النقاب الآن ليظهر على حقيقته؛ مزعزعاً على الصعيد الداخلي، وأضعف على الصعيد الخارجي مما كان مفترضاً فيه. وكانت مواطن الضعف فيه سياسية واقتصادية، مثلما كانت إصلاحات ألكسندر الثاني (1855 ـ 1881) أعراضاً مرضية لا علاجاً لنقاط الضعف هذه. وكما سنرى بعد ذلك[11]، فإن إعتاق الرقيق (1861) قد خلق في الواقع الشروط اللازمة لثورة فلاحية، بينما أخفقت إصلاحات القيصر (1864 ـ 1870) الإدارية والقانونية والتحسينات في مجالات أخرى، في التخلص من مواطن الضعف في الأوتوقراطية القيصرية، أو حتى التعويض عن الخسارة المترتبة على القبول التقليدي بها. إن الثورة في روسيا لم تعد حلماً ورديّاً يوتوبيّاً للمستقبل.

---

(11) انظر الفصل العاشر من هذا الكتاب.

وبالنظر إلى وَهَن البورجوازية، والبروليتاريا الصناعية الجديدة (في تلك المرحلة)، لم يكن ثمة إلا طبقة اجتماعية وحيدة، ضئيلة ولكنها عالية الصوت، وقادرة مع صِغِر حجمها على القيام بالإهاجة السياسية. وفي ستينيات القرن، اكتسبت الوعي الذاتي، والصلة بالراديكالية السياسية، والاسم المتميز لنفسها: ألا وهو الإنتلجنسيا (The Intelligentsia). وربما كانت ضآلة حجم هذه الجماعة من المثقفين ذوي التحصيل العلمي العالي هي التي دفعتها إلى التماسك والتعاضد في ما بينها. إن فئة «المتعلمين» لم تكن حتى في سنة 1897، تتجاوز مئة ألف رجل وأقل قليلاً من ستة آلاف امرأة في أرجاء روسيا كلها[12]. لقد كانت شحيحة العدد، ولكنها كانت تتزايد باطراد، إذ كان في موسكو عام 1840 ما يزيد قليلاً على ألف ومئتين من المربين، والأطباء، والمحامين، والعاملين في مجالات الفن، غير أن عددهم زاد عام 1882 على خمسة آلاف مدرس، وألفي طبيب، وخمسمئة محام، وألف وخمسمئة من «الفنانين». إلا أن السمة المهمة المميزة لهؤلاء هي أنهم لم ينضموا إلى صفوف طبقة رجال الأعمال، التي لم تكن في القرن التاسع عشر تتطلب مؤهلات أكاديمية أكثر ربما من شهادة في التربية الاجتماعية، في أنحاء أوروبا كلها، باستثناء ألمانيا، كما لم يتقدموا للاستخدام لدى رب العمل الرئيسي الذي يتدافع عليه المثقفون: وهو البيروقراطية. ومن جملة ثلاثمئة وثلاثة وثلاثين خريجاً في بطرسبرغ بين الأعوام 1848 و1850، دخل مجال الخدمة المدنية ستة وتسعون شخصاً فحسب.

تميزت الإنتلجنسيا الروسية عن غيرها من فئات المثقفين بسمتين: الإقرار بكونها مجموعة اجتماعية خاصة، ونزعة سياسية راديكالية ذات توجّه اجتماعي لا وطني. وقد ميزتها **الأولى** عن المثقفين الغربيين، الذين

(12) M. Pushkin, «The Professions and the Intelligentsia in Nineteenth-Century Russia,» *University of Birmingham Historical Journal*, vol. 12, no. 1 (1969-1970), pp. 72 ff.

اندمجوا بسهولة في الطبقات الوسطى السائدة وفي الأيديولوجية الليبرالية الديمقراطية السائدة أيضاً. وما عدا التيار الأدبي والفني البوهيمي (bohème)[(13)]، الذي أضفى عليها صفة ثقافة فرعية مأذون بها، أو تعامل بتسامح على الأقل، لم تكن هناك فئة من المنشقين، كما أن الانشقاق البوهيمي لم يكن سياسياً إلا بصورة هامشية. بل إن الجامعات التي كانت قبل عام 1848 وخلاله ثورية الطابع، تحولت إلى الانصياع السياسي. وهل كان بوسع المثقفين أن يكونوا غير ذلك في عصر انتصار البورجوازية؟ أما الخصيصة **الثانية** فقد ميزتها عن مثقفي الشعوب الأوروبية الوليدة التي سخرت طاقاتها السياسية على نحو يكاد يكون كاملاً للتيار القومي، أي للكفاح من أجل إقامة مجتمع بورجوازي يمكن لها أن تندمج فيه وتتكامل معه. ولم تستطع الإنتلجنسيا الروسية أن تسلك السبيل الأول، لأن روسيا لم تكن، بالتأكيد، مجتمعاً بورجوازياً، كما أن النظام القيصري اعتبر حتى الليبرالية المعتدلة شعاراً لثورة سياسية. وشاب التردد إصلاحات ألكسندر الثاني في الستينيات ـ أي تحرير الرقيق، والتغييرات القانونية والتربوية، وإقامة الحكم المحلي للوجهاء (أي الزِّمْستفوات (Semstvos) عام 1864)، وفي البلدات (1870). كما اقتصرت الإصلاحات على تأجيج ما أمكن من الحماسة في نفوس المصلحين بصورة دائمة. كما أن مرحلة الإصلاح تلك كانت، في الأحوال كلها، قصيرة الأجل. ولم تسلك الإنتلجنسيا كذلك الطريق الثانية، لا لأن روسيا كانت آنذاك دولة مستقلة، ولا لأن أفراد هذه الفئة كانوا يفتقرون إلى الكبرياء الوطنية، بل لأن شعارات القومية الروسية ـ مثل روسيا المقدسة، والنزعة السلافية الشاملة، وما إلى ذلك، كانت قد أُجهضت على يد القيصر، والكنيسة، وكل ما هو رجعي آنذاك. إن بيار بيزوهوف، وهو ربما كان الأكثر تشبعاً بالروح الروسية بين الشخصيات التي رسمها تولستوي (Tolstoi) (1828 ـ 1910) في رواية **الحرب والسلام** (*War and Peace*)، قد أرغم على السعي لاقتباس أفكار

(13) انظر الفصل الخامس عشر من هذا الكتاب.

متحررة من النزعة القومية والمحلية، بل والدفاع عن نابليون الغازي، لأنه لم يكن سعيداً بروسياً تلك الأيام، كما أن أبناء شقيقه الروحيين وأحفاده، وهم إنتلجنسيا الخمسينيات من القرن التاسع عشر، اضطروا إلى تبني هذا الموقف نفسه.

وبوصفهم من أبناء دولة كانت تعتبر البلد الأوروبي المتخلف بامتياز، فإنهم كانوا من «المحدثين، أي «المُغَرْبَنين». إلا أنه لم يكن بوسعهم أن يكونوا مجرد «مغربنين»، لأن الليبرالية والرأسمالية الغربيتين آنذاك لم تطرحا لروسيا نموذجاً يُحتذى وقابلاً للحياة، ولأن القوة الجماهيرية الوحيدة التي قد تغتلي في أوساطها بوادر الثورة في روسيا هي الفلاحون. فكانت «الشعبوية» هي النتيجة التي انطوت على هذه المفارقة بما فيها من التوازن المتوتر الموقت بين هذا وذاك. من هنا، فإن «الشعبوية» تلقي الضوء على جوانب من الحركات الثورية في العالم الثالث في أواسط القرن العشرين. ويبدو أن تقدم الرأسمالية السريع الذي تضمن النمو السريع لبروليتاريا صناعية قابلة للتنظيم في روسيا بعد هذه الفترة، قد أسهم في تبديد الشكوك حول تلك الحقبة الشعبوية - كما أن انهيار تلك المرحلة البطولية من الشعبوية في الفترة الممتدة بين الأعوام 1868 و1881، قد شجع على التقييم النظري لهذه التجربة، فالماركسيون، الذين خرجوا من بين أطلال الشعبوية، كانوا، نظرياً على الأقل، من المتغربنين تماماً. وكانوا يرون أن روسيا ستسلك السبيل نفسه الذي سلكه الغرب، وستولد فيها قوى التغير الاجتماعي والسياسي نفسها - في مجتمع بورجوازي ستنشأ فيه جمهورية ديمقراطية ستُدفن، بدورها، في قبر تحفره لها البروليتاريا. بيد أن بعض الماركسيين سرعان ما أدركوا خلال ثورة 1905، أن تلك الاحتمالات المستقبلية لم تكن واقعية، فالثورة البورجوازية الروسية ستكون من الضعف بحيث لن تستطيع أداء دورها التاريخي، وستتولى البروليتاريا، بدعم لا يمكن مقاومته من جانب الفلاحين وتحت قيادة «الثوريين المحترفين»، الإطاحة بكل من النظام القيصري والرأسمالية الفجة المحكوم عليها بالهلاك.

كان الشعبويون من دعاة التحديث وكانوا يحلمون بروسيا جديدة ـ روسيا التقدم، والعلم، والتربية، والإنتاج المثوّرن ـ الاشتراكي لا الرأسمالي. غير أن الأساس الذي سيقوم عليه ذلك كله هو المؤسسة الأقدم والأكثر تقليدية بين المؤسسات الشعبية في روسيا، وهي «الأوبتشينا» (Obshchina)، أو المجتمع المحلي في القرية الذي سيكون الأب المباشر والنموذج المثالي للمجتمع الاشتراكي. وقد دأب المثقفون الشعبويون في سبعينيات القرن، مرة بعد أخرى، على سؤال ماركس الذي تبنوا نظرياته، عما إذا كان يعتقد بإمكانية ذلك. وشغل ماركس نفسه كثيراً بهذا الافتراض المغري، على الرغم من استحالته وفق نظرياته، لكنه، بعد تردد طويل، أجاب بأن ذلك قد يكون ممكناً. ومن جهة أخرى، يجب على روسيا أن ترفض تقاليد أوروبا الغربية ـ بما فيها أنماط المذاهب الليبرالية والديمقراطية الشائعة فيها ـ لأن روسيا لا تقاليد لها في هذا الميدان. ذلك أن جانب الشعبوية الوحيد الذي كان ذا صلة ظاهرية مباشرة بالنزعة الثورية الغربية آنذاك كان، على نحو ما، مختلفاً وجديداً.

لقد كان الرجال والنساء الذين تألبوا سرّاً وتآمروا للإطاحة بالقيصرية عن طريق الانتفاضات وأعمال الإرهاب أكثرَ من ورثةٍ لليعاقبة أو من الثوريين المحترفين الذين تولدوا عنهم. وكان عليهم أن يقطعوا صلاتهم بالمجتمع القائم تماماً ليكرسوا حياتهم كلياً للعمل من أجل «الشعب» والثورة، وليتغلغلوا في صفوف الشعب ويعبروا عن إرادته. وبلغوا في تفانيهم الكلي غير الرومانطيقي، واستعدادهم للتضحية بالنفس حداً غير معهود في الغرب. كانوا أقرب إلى لينين منهم إلى بوناروتي. ووجدوا أوائل كوادرهم في صفوف الطلبة، شأنهم شأن الكثير من الحركات الثورية التي برزت فيما بعد. وكان من أبرز هؤلاء الطلبة الجدد الفقراء الذين دخلوا الجامعات التي كانت، حتى ذلك الوقت حكراً على أبناء النبلاء.

كان نشطاء الحركة الثورية الجديدة شباباً «جدداً» بالفعل، وليسوا من أبناء الذوات، ففي الفترة الممتدة بين الأعوام 1873 و1877، بلغ العدد الإجمالي للثوريين السجناء أو المنفيين 924 شخصاً، كان بينهم 279 فقط من أولاد العائلات النبيلة، و117 من أبناء المسؤولين غير النبلاء، و33 من التجار؛ وكان بينهم 68 من اليهود، و92 ممن يمكن وصفهم بأبناء البورجوازية الصغيرة في المراكز الحضرية أو الجماعات المتواضعة في المدن (Meshchane)، و138 من الفلاحين اسمياً ـ وربما من أوساط حضرية مشابهة، و197 على الأقل من أبناء الكهنة. غير أن المدهش هو عدد الشابات بين هؤلاء الثوريين. فقد كان 15 في المئة على الأقل بين نحو 1600 من الدُّعاة المعتقلين في تلك السنوات من النساء[14]. وقد تذبذبت الحركة، أول الأمر، بين جماعة صغيرة من الفوضويين المناصرين للإرهاب (تحت تأثير باكونين ونيتشاييف)، ودعاة التربية السياسية الجماهيرية في أوساط «الشعب»، غير أن التيار الذي كانت له الغلبة، آخر الأمر، هو المنظمة التآمرية المركزية السرية المتزمتة الانضباط المتأثرة بالتيار اليعقوبي ـ البلانكي، التي كانت نخبوية في ممارساتها على الرغم من تنظيراتها المبدئية، ومهدت بذلك لبروز البلشفية.

لا تكمن أهمية الشعبوية في ما حققته، وهو ليس بذي بال، ولا في أعداد من حشدتهم من الأنصار، الذين لم يتجاوز عددهم بضعة آلاف. وإنما تكمن أهميتها في أنها تمثل في روسيا بداية تاريخ موصول من الهياجات الثورية التي تمكنت، في غضون خمسين سنة، من الإطاحة بالنظام القيصري، وإقامة أول نظام مكرس لبناء الاشتراكية في التاريخ البشري. وقد أظهرت أعراض الأزمة التي عجلت بتحول روسيا القيصرية بين الأعوام 1848 و1870، وعلى نحو لم يتوقعه أغلب المراقبين الغربيين، من صرح راسخ من صروح الرجعية العالمية، إلى عملاق

---

(14) Hugh Seton - Watson, *The Russia Empire, 1801-1917*, Oxford History of Modern Europe (Oxford: Clarendon P., 1967), pp. 422-423.

خزفيّ القدمين ستأخذ الثورة الوشيكة بدكّ أركانه. بل إن الأهمية التي انطوت عليها التحركات الشعبوية كانت أعمق من ذلك، فقد كانت، إذا جاز التعبير، هي المختبر الكيميائي الذي اختبرت فيه الأفكار الثورية الرئيسية كلها في القرن التاسع عشر، ودُمجت وولّدت أفكار القرن العشرين. وكان من حُسن الطالع، ولأسباب غامضة تماماً، أن الشعبوية تلازمت وواحدةً من ألمع فورات الإبداع الفكري والثقافي وأكثرها توهجاً في التاريخ البشري. إن البلدان المتخلفة الساعية إلى ارتياد آفاق الحداثة تكون، في العادة، اقتباسية وبعيدة عن الأصالة في ما يصدر عنها من أفكار، مع أن ذلك ليس هو ما يحدث بالضرورة في واقع الممارسة. وكثيراً ما تستعير من غيرها على نحو اعتباطي لا تمييز فيه لأن المثقفين البرازيليين والمكسيكيين تبنوا فلسفة أوغست كونت على عواهنها[15]، مثلما فعل الإسبان، في الفترة نفسها، مع فيلسوف ألماني مغمور من الدرجة الثانية في مطلع القرن التاسع عشر هو كارل كراوس، الذي اتخذوا منه كبشاً يشقون به طريق التنوير ويدكون به أسوار الفكر الكهنوتي. غير أن اليسار الروسي لم يكن يحرص على التواصل مع فكر ذلك العصر المتقدم ويتبناه فحسب (إذ إن الطلبة في كازان كانوا يدرسون «رأس المال» حتى قبل أن يترجم إلى الروسية)، بل إن المفكرين اليساريين نجحوا على التوّ في تحويل الفكر الاجتماعي في البلدان المتقدمة نفسها، وجرى الإقرار بقدرتهم على ذلك. وكان لبعض هؤلاء سمعة عالية على الصعيد الوطني في المقام الأول، مثل ن. تشيرنيشفسكي (N. Chernishevsky) (1828 ـ 1889)، ف. بيلنسكي (V. Belinsky) (1811 ـ 1848)، ن. دوبروليبيوبوف (N. Dobrolyubov) (1812 ـ 1870). وحتى على نحو

---

(15) Arturo Ardao, «Assimilation and Transformation of Positivism in Latin America,» *Journal of the History of Ideas*, vol. 24, no. 4 (1963), p. 519.

يلاحظ أن دستور أوغست كونت الفعلي قد فُرض على ولاية ريو غرانده دو سول (البرازيل).

ما، المفكر الرائع ألكسندر هيرزن (Alexander Herzen) (1812 ـ 1870). وعكف آخرون، ربما بعد عقد أو عقدين، على التحويل المضموني لمناهج علم الاجتماع، والأنثروبولوجيا، وتأريخ الدول الغربية، مثل ب فينوغرادوف (P. Vinogradov) (1854 ـ 1925) في بريطانيا، ف لوتشسكي (V. Lutchisky) (1877 ـ 1949)، ن .كارييف (N. Kareiev) (1850 ـ 1936) في فرنسا. وقد أعرب ماركس على الفور، عن تقديره للإنجازات الفكرية التي حققها قراؤه الروس، الذين كانوا في طليعة من اطلعوا على أفكاره في وقت مُبكر.

إلى هنا، تنتهي إطلالتنا على فكر الثوريين الاجتماعيين. ولكن ما حال الثورات؟ ربما كانت الثورة الأعظم في تلك الفترة خافية على أغلب المراقبين، ولا صلة لها بالتأكيد بالأيديولوجيات الثورية في الغرب، وهي ثورة تايبنغ[16]. أما الأكثر تواتراً، وهي الثورات في أمريكا اللاتينية، فقد تجلت، كما يبدو، في الانقلابات العسكرية (Pronunciamentos) أو الحركات الانفصالية في الأقاليم التي لم تغير ملامح تلك البلدان بشكل ملموس، بل إن المكون الاجتماعي في بعضها كان نسياً منسياً في بعضها على العموم. أما الثورات الأوروبية، فإما أن تكون قد مُنيت بالفشل، مثل الانتفاضة البولندية عام 1863، أو انصهرت وذابت في الليبرالية المعتدلة، مثل غزو غاريبالدي الثوري لصقلية وجنوب إيطاليا عام 1860، أو اكتسبت أهميتها على الصعيد الوطني فحسب، مثل الثورات الإسبانية التي اندلعت عام 1854، وخلال الأعوام 1868 ـ 1874. وكانت الأولى من تلك الثورات، وهي الثورة الكولومبية في أوائل خمسينيات القرن، مجرد أصداء بعيدة لتطورات عام 1848. وكانت الساحة الآيبيرية، تغرد خارج السرب في بقية أوروبا. أما الثورة الثانية، فإنها في نظر معاصري تلك الفترة المتوترين، حدثت في غمرة الاضطراب السياسي، وانعقاد «الأممية»،

(16) انظر الفصل السابع من هذا الكتاب.

وبوادر جولة جديدة من الثورات الأوروبية. بيد أن ثورات 1848 لم تتكرر ثانية. ولم يكن ثمة غير كومونة باريس عام 1871.

كانت كومونة باريس، شأنها شأن الكثير من معالم التاريخ الثوري لتلك الفترة، بالغة الأهمية، لا لما حققته من إنجازات، بل لاستشرافها ما حدث من تطورات لاحقة؛ لقد كان لها وزنها الهائل بوصفها رمزاً لا مجرد واقعة تاريخية. وغطت تاريخها الحقيقي الأسطورة القوية التي أسفرت عنها، سواء في فرنسا نفسها أم (من خلال كارل ماركس) في الحركة الاشتراكية الأممية؛ وهي أسطورة لا تزال أصداؤها تتردد حتى اليوم، وبخاصة في جمهورية الصين الشعبية[17]. لقد كانت خارقة للعادة، وبطولية، ومثيرة، ومأساوية، ولكنها، من الناحية الواقعية، كانت، في نظر المراقبين الجادين، حكومة عماليةً انتفاضية وجيزة محكوماً عليها بالهلاك، وفي مدينة واحدة، وكان إنجازها الأساسي هو أنها كانت حكومة، مع أنها لم تستمر أكثر من شهرين. وكان لينين، بعد ثورة تشرين الأول/أكتوبر عام 1917، يحسب الأيام يوماً بعد يوم إلى أن حانت اللحظة التي أعلن فيها بلهجة المنتصر: «لقد تخطينا عمر الكومونة». غير أن على المؤرخين أن يقاوموا إغراء الانتقاص منها بأثر رجعي. فهي، إن لم تكن تهديداً خطيراً للنظام البورجوازي، فإن مجرد قيامها قد بعث الرعب في أوصال ذلك النظام. واكتنفت مولدها ووفاتها موجة من الفزع والهستيريا، وبخاصة في الصحافة العالمية التي اتهمتها بإقامة الشيوعية، وبمصادرة أموال الأغنياء ومشاركتهم في زوجاتهم، وبالإرهاب، والمذابح الجماعية، والعبث، والفوضى، وبكل المصائب والهواجس الكابوسية التي ساورت الطبقات المحترمة؛ وغني عن البيان أن تلك الموجة الهستيرية اعتبرت «الأممية» هي المخطط المدبر لهذه الكوارث كلها. والأهم من ذلك، أن الحكومات نفسها بدأت باتخاذ

---

(17) Georges Haupt, «La Commune comme symbole et comme exemple,» *Le Mouvement social*, no. 79 (avril-juin 1972), pp. 205-226.

إجراءات ضد الخطر العالمي الذي يتهدد النظام والحضارة. فبالإضافة إلى التعاون الدولي بين أجهزة الشرطة، والميل (الذي أُعتبر آنذاك فضيحة أعلى دوياً مما هو في أيامنا هذه) لحرمان الكومونيين حق اللجوء السياسي، فإن المستشار النمساوي ـ بدعم من بسمارك الذي لم تُعرف عنه ردودُ الفعل الفزعة ـ اقترح تشكيل أممية رأسمالية مضادة لِـ «الأممية». وكان الخوف من الثورة هو الذي أدى إلى إقامة «رابطة الأباطرة الثلاثة» عام 1873 (وتضم ألمانيا، والنمسا، وروسيا)، التي اعتُبرت «تحالفاً مقدساً» جديداً «ضد الراديكالية الأوروبية التي أخذت تُهدد العروش والمؤسسات»[(18)]، مع أن الانهيار السريع الذي أصاب «الأممية» جعل من هذا الأمر قضية أقل إلحاحاً عند التوقيع الفعلي على اتفاقية تلك الرابطة. والمهم في نوبة التشنج تلك أن ما غدت تخافه الحكومات الآن لم يعد الثورة الاجتماعية، بل الثورة البروليتارية. وهكذا أصبح الماركسيون، الذين اعتبروا «الأممية» والكومونة حركتين بروليتاريتين في الأساس، يقفون على طرفي نقيض مع الحكومات والرأي العام «المحترم» في تلك الآونة. وقد كانت الكومونة، بالفعل، انتفاضة **عمالية**. وإذا كان هذا المصطلح وصفاً للرجال والنساء الذين يقعون «في المنزلة بين المنزلتين، بين **الشعب** و**البروليتاريا**»، فإنه يصدق كذلك على نشطاء الحركات العمالية في مناطق أخرى في تلك الفترة[(19)]. فقد كان الستة وثلاثون ألف كوموني يمثلون قطاعاً عرضياً لباريس العمالية الشعبية: 8 في المئة من العمال ذوي الياقات البيض، 7 في المئة من الخدم، 10 في المئة من أصحاب الحوانيت الصغيرة، وأمثالهم. غير أن الأغلبية الساحقة كانت من الشغيلة ـ العاملين في

---

(18) Samuel Bernstein, *Essays in Political and Intellectual History* (New York: Paine-Whitman Publishers, 1955), chapter XX: «The First International and a New Holy Alliance,» Especially pp. 194-195, and 197.

(19) Jacques Rougerie, *Paris libre, 1871*, politique; 44 (Paris: Editions du seuil, 1971), pp. 256-263.

مجالات البناء، والصناعات المعدنية، والعمال اليدويين، يليهم العمال المهرة في الصناعات الحرفية التقليدية (الأثاث، والتحف، وأدوات الرفاهية، والطباعة، والملابس) ممن كانوا يمثلون عدداً لا تناسب فيه من الكوادر[20]؛ وكذلك، بطبيعة الحال، الإسكافيون الراديكاليون على الدوام. ولكن، هل كانت الكومونة ثورة اشتراكية؟ والإجابة شبه المؤكدة هي بالإيجاب، مع أن هذه الاشتراكية كانت، في جوهرها، من الأحلام التي راودت الساعين، قبل عام 1848، إلى إقامة تعاونيات أو وحدات تعاونية للحكم الذاتي بين المنتجين، غير أنها غدت الآن تنادي بالتدخل الحكومي الراديكالي المُنظم. وكانت الإنجازات العملية في هذا المضمار غاية في التواضع، بيد أن ذلك لم يكن نتيجة أخطاء وقعت فيها.

ذلك أن الكومونة كانت نظاماً مطَّوقاً، ووليداً للحرب وحصار باريس، وردّاً على دعوات الاستسلام. لقد وجد تقدم البروسيين عام 1870 ضربة قاصمة لإمبراطورية نابليون الثالث. وواصل الجمهوريون المعتدلون الذين أطاحوا به خوض الحرب بروح خائرة فاترة ثم أعلنوا الاستسلام، بعد أن أدركوا أن المقاومة الوحيدة الممكنة لن تتم إلا بالحشد الثوري للجماهير، وبقيام جمهورية اجتماعية يعقوبية جديدة. وفي باريس المحاصرة التي هربت منها الحكومة والبورجوازية، انتقلت السلطة الفعلية على كل حال إلى أيدي عُمد (المقاطعات) (Arrondissments)، والحرس الوطني، أي إلى أحياء الطبقة الشعبية والعاملة في واقع الأمر. وبعد الاستسلام الذي أشعل فتيل الثورة، اتخذت محاولات نزع سلاح الحرس الوطني، شكل تنظيمات بلدية مستقلة في باريس (هي «الكومونة») غير أن الكومونة سرعان ما تعرضت للحصار من جانب الحكومة الوطنية التي اتخذت من فرساي

(20) كان اثنان وثلاثون في المئة من عمال الطباعة المعتقلين لدى الحرس الوطني ضباطاً أو ضباط صف، بينما بلغت هذه النسبة 19 في المئة من النجارين، و7 في المئة فقط من عمال البناء.

مقراً لها ـ وامتنع الجيش الألماني الظافر الذي يطوق المدينة عن التدخل. وكان الشهران اللذان عاشتهما الكومونة فترة حرب موصولة ضد قوات فرساي المتفوقة عدداً وعدةً. وقد فقدت الكومونة زمام المبادرة بعد أقل من أسبوعين من إعلان قيامها في الثامن عشر من آذار/ مارس، وبحلول الحادي والعشرين من أيار/ مايو، كان العدو قد اقتحم باريس، وأظهر الأسبوع الأخير أن أهل باريس العاملين سيواجهون الموت، مثلما واجهوا الحياة، بعد نضال مرير ومقاومة ضارية. وربما خسرت قوات فرساي نحو ألف ومئة قتيل، وربما أعدم الكومونيون كذلك نحو مئة رهينة.

ترى، من يعلم عدد الكومونيين الذين سقطوا صرعى خلال القتال؟ لقد وقعت مذبحة شملت الآلاف منهم بعد سقوط الكومونة، واعترفت حكومة فرساي بسبعة عشر ألف قتيل، غير أن هذا الرقم قد لا يتجاوز نصف الحقيقة. وقد أُسِر أكثر من ثلاثة وأربعين ألفاً، وصدرت أحكام بحق عشرة آلاف، وعوقب نحو نصفهم بالنفي إلى نيوكاليدونيا، وزُجَّ بالنصف الآخر في السجن. لقد كان ذلك هو العقاب الذي أوقعه «الناس المحترمون». فسالت أنهار من الدم بين شغيلة باريس من جهة، و«الأفاضل» من جهة أخرى. وغدا الثوريون الاجتماعيون يعرفون منذئذ ما ينتظرهم إذا لم يتولوا هم زمام الحكم.



القســم الثالــث

النتائج



الفصل العاشر

الأرض

ما إن يكسب الهندي ثلاثة ريالات في اليوم، حتى يتوقف تماماً عن العمل أكثر من نصف أسبوع، وتبقى لديه الريالات التسعة نفسها التي يحصل عليها في الوقت الحاضر. وعندما تكون قد غيّرت كل شيء، فعليك بالعودة إلى النقطة التي بدأت منها: إلى الحرية، إلى الحرية الحقيقية التي ترفض الضريبة مثلما ترفض التعليمات، وإجراءات تنمية الزراعة: إلى سياسة «دعه يعمل» التي تمثل الكلمة الأخيرة في الاقتصاد السياسي.

أحد ملاكي الأرض المكسيكيين، 1865[1].

إن التعصب الذي استخدم ضد جميع الطبقات الشعبية ما زال يمارس ضد الفلاحين، فهم لا يتلقون التعليم الذي تتلقاه الطبقة الوسطى: من هنا كانت الفروق، وقلة الاحترام تجاه أهل الريف، ورغبتهم الجارفة في الهروب من القمع والازدراء. وذلك هو مصدر

---

(1) ورد في: Jean A. Meyer, *Problemas campesinos y revueltas agrarias (1821-1910)* ([México: Secretaria de Educación Pública, 1973]), p. 93.

الانحلال الذي أصاب التقاليد القديمة، والفساد والانحطاط المنتشرين في أوساط شعبنا.

إحدى صحف مانتوا (Mantua)، 1856[2].

I

عام 1848، كانت الأغلبية الساحقة من سكان العالم، حتى في أوروبا، من الريفيين. وحتى في بريطانيا، وهي الاقتصاد المصنّع الأول، كان عدد قاطني المدن حتى عام 1851 لا يكاد يتجاوز عدد ساكني الأرياف، حيث بلغت النسبة آنذاك 51 في المئة فحسب. ولم يكن واحد من أصل كل عشرة من السكان يعيش في مدن يتجاوز عدد سكانها عشرة آلاف نسمة، إلا في فرنسا، وبلجيكا، وسكسونيا، وبروسيا، والولايات المتحدة. وبحلول الأواسط والأواخر من السبعينيات، كان قد طرأ على هذا الوضع تعديل جوهري، غير أن سكان الريف كانوا، مع استثناءات قليلة، أكثر عدداً بكثير من الحضر. ومن ثم، كانت سُبل العيش للجزء الأغلب من البشر لا تزال تعتمد على ما يحدث للأرض وعليها.

كان ما يحدث على الأرض يعتمد في جانب منه على العوامل الاقتصادية، والتقنية، والديمغرافية التي عملت، مع أخذ الخصوصيات والتفاوتات بالاعتبار، على مستوى العالم بأسره، أو في مناطق جغرافية ومناخية واسعة، أو تعتمد على عوامل مؤسسية (اجتماعية، وسياسية، وقانونية، وغيرها) يختلف بعضها عن بعض اختلافاً عميقاً، حتى وإن كانت الاتجاهات العامة في التنمية العالمية تعمل من خلالها، فمن الناحية الجغرافية، كانت سهوب أمريكا الشمالية، ومروج أمريكا

---

(2) ورد في: Renato Giusti, «L'Agricoltura e i contadini del Mantovano (1848-1866),» *Movimento Operaio*, vol. VII, nos. 3-4 (May-August 1955), p. 386.

الجنوبية، وسهول روسيا الجنوبية أو هنغاريا، متشابهة تماما: فهي أراض متسعة كل الاتساع في مناطق معتدلة المناخ، وتصلح لزراعة الحبوب على نطاق واسع. وكانت كلها، من وجهة نظر الاقتصاد العالمي، قد طورت زراعة نوع واحد من المحاصيل، وغدت مراكز كبرى لتصدير الحبوب. ومن الناحية الاجتماعية، والسياسية، والقانونية، كان ثمة فرق كبير بين السهول الأمريكية، التي لم يكن يقطنها غير قبائل الصيد الهندية، والمروج الأوروبية التي كانت مأهولة بالسكان الزراعيين، على نحو مستقر وإن لم يكن كثيفاً؛ وبين المزارعين ـ المستوطنين الأحرار في العالم الجديد، والفلاحين العاملين بالسخرة في القديم، وبين أشكال تحرير الفلاحين بعد عام 1848 في هنغاريا، والأشكال اللاحقة بعد عام 1861 في روسيا، وبين أصحاب المزارع والعِزَب الكبيرة في الأرجنتين وملاك الأرض النبلاء أو الوجهاء في شرق أوروبا، وبين الأنساق القانونية، والإدارية، والسياسات المتصلة بالأرض في مختلف الدول المعنية. وليس من النزاهة في شيء بالنسبة للمؤرخ أن يغفل العناصر المشتركة بينها، مثلما لا يصح تجاهل ما بينها من اختلافات.

كان القاسم المشترك في قطاع متزايد من الزراعة في كل أنحاء العالم هو خضوعه للاقتصاد الصناعي العالمي، فقد عملت متطلباته على مضاعفة حجم الأسواق التجارية وحاجتها من المنتجات الزراعية ـ وبخاصة المواد الغذائية والمواد الخام لصناعة النسيج، وكذلك بعض المحاصيل الصناعية الأقل أهمية ـ على الصعيدين المحلي، جراء التوسع السريع في نمو المدن، والعالمي. وقد تمكنت، بفعل ما لديها من تقانة من أن تُدخل في نطاق السوق العالمية عن طريق القطارات والسفن البخارية، بصورة فعلية، مناطقَ لم تكن، حتى ذلك الحين، قابلة للفلاحة. وقد أفضت التشنجات الاجتماعية التي أعقبت انتقال الزراعة إلى أنماط رأسمالية، أو على الأقل تجارية واسعة النطاق، إلى تفكيك الوشائج التقليدية التي كانت تربط الناس بأراضي الآباء، ولا سيما عندما أدركوا أنهم لم يكونوا يمتلكون شيئاً منها، أو لا يمتلكون إلا

القليل الذي يكفي لسد احتياجاتهم العائلية، وفي الوقت نفسه، اجتذبهم الطلب المتعطش على الصناعات الجديدة والمهن الحضرية في ميدان العمالة، والفجوة المتزايدة بين المناطق الريفية المتخلفة أو «القائمة» من جهة، والمدن المتعاظمة الاتساع والمستوطنات الصناعية من جهة أخرى. وخلال تلك الفترة التي نعالجها، نشاهد، في آن معاً، التزايد التجاري الهائل في المحاصيل الزراعية، والتوسع المشهود في المناطق المستخدمة للزراعة، و«الهروب الكبير من الأرض»، وبخاصة في البلدان التي تتأثر مباشرة بتنمية الرأسمالية العالمية على الأقل.

ثمة سببان لتعاظم هذه العملية خلال الربع الثالث من القرن التاسع عشر. ويمثل هذان السببان جانبين من الهوّة المتعاظمة المتزايدة الاتساع والعمق في الاقتصاد العالمي الذي يجسد المحور الأساسي للتاريخ البشري في تلك الفترة، فقد أسهمت التقانة في فتح مناطق جغرافية نائية أو عصيّة في وجه إنتاج الصادرات، وعلى رأسها السهول الممتدة في وسط الولايات المتحدة، والجنوب الشرقي من روسيا، ففي الفترة بين الأعوام 1844 ـ 1853، صدّرت روسيا نحو 11,5 مليون طن هكتوليتر [الهكتوليتر = 100 ليتر] من الحبوب في السنة. مقابل ما يتراوح بين 47 و89 مليوناً في سبعينيات القرن. وبالمقارنة، فإن صادرات الولايات المتحدة التي تكاد لا تُذكر، وقد لا تتجاوز 5 ملايين في الأربعينيات، بلغت الآن أكثر من 100 مليون[3]. كما أننا نجد، في الوقت نفسه، المحاولات الأولى لتطوير مناطق معينة بوصفها مختصة بتصدير منتجات معينة إلى العالم «المتقدم»، مثل: صبغ النيلة، وقنب الخيش في البنغال، والتبغ في كولومبيا، والبنّ في البرازيل وفنزويلا، ناهيك عن القطن في مصر. واعتُبرت تلك بديلاً أو مُكملاً لمحاصيل التصدير التقليدية لهذه الأنواع ـ مثل: السكر المتناقص من البحر

(3) Franz Xaver von Neumann-Spallart, *Übersichten der Weltwirtschaft* (Stuttgart: Julius Maier, 1880-), p. 65.

الكاريبي والبرازيل، والقطن من الولايات الأمريكية الجنوبية التي تعثرت فيها التجارة بعض الوقت جراء الحرب الأهلية 1861 ـ 1865. وعلى العموم، ومع بعض الاستثناءات، مثل: القُنّب الهندي، والقطن المصري، لم تكن لهذه التخصصات الاقتصادية صفة الدوام. وإذا كانت كذلك، فإنها لم تكن من الضخامة بحيث تماثل ما بلغته في القرن العشرين. ولم يتخذ نمط السوق الزراعية العالمية طابع الثبات إلا في مرحلة الاقتصاد العالمي الإمبريالي الاستعماري بين الأعوام 1870 ـ 1930، فقد ارتفعت منتجات الازدهار ثم انخفضت؛ والمجالات التي زوّدت الجانب الأكبر من هذه الصادرات أصيبت فيما بعد بالركود، أو هُجّرت كلياً. وإذا كانت البرازيل تتصدر قائمة منتجي البن الرئيسيين، فإن سان باولو، التي أصبحت في القرن العشرين عَلَماً على هذا المنتج في المقام الأول، كانت تُنتج ربع محصول ريو فحسب، أو خُمس محصول البلاد على الأكثر؛ كذلك كان الأمر لما يقارب إنتاج إندونيسيا من الشاي، وما يعادل ضعف هذه الكمية من إنتاج سيلان، حيث كانت فلاحة الشاي من الضآلة بحيث لم تدخل صادراتُه السجلاتِ الرسمية بصورة مستقلة حتى النصف الثاني من السبعينيات، وبكميات ضئيلة كذلك.

ومع ذلك، فإن تجارة دولية رئيسية في مجال المحاصيل الزراعية كانت قد بدأت تتشكل آنذاك، ولأسباب واضحة، لتفضي بعدها إلى الإمعان في التخصص، بل إلى حصر الصادرات في مناطق التصدير بمنتج واحد. وقد يسّرت التقانة ذلك، فمن الوسائل الأربع التي نعرفها الآن لنقل حمولات المحاصيل الضخمة عبر مسافات طويلة لم تكن السكة الحديد موجودة قبل أربعينيات القرن التاسع عشر. وفي الوقت نفسه، فإن التقانة كانت، بصورة واضحة، تحذو حذو الطلب، أو تسعى إلى استباقه. وتبدى ذلك بأجلى صوره، في السهول الواسعة في المناطق الجنوبية الغربية من الولايات المتحدة وأجزاء عديدة من أمريكا الجنوبية، حيث كانت الماشية تتكاثر وتتضاعف أعدادها من دون جهد بشري،

ويرعاها رعاة البقر على اختلاف أسمائهم: الكاوبوي (Cowboy)، الغوشو (Gauchos)، لانيرو (llaneros) وفاكويرو (Vaquero)، وأغرت جميع من يهمهم الربح والكسب المادي بالانخراط فيها. وقد دفعت تكساس بعض الماشية إلى نيو أورلينز، وبعد عام 1849 إلى كاليفورنيا، غير أن جاذبية السوق الشمالية الشرقية الكبيرة هي التي حثت أصحاب المزارع على استكشاف الدروب الطويلة التي غدت جزءاً لا يتجزأ من الحكايات الخيالية عن «الغرب الوحشي»، وأصبحت تربط ما بين الجنوب الغربي البعيد، وبدايات السكة الحديد الوافدة الوشيكة التي ستعبر تلك المنطقة ومركز النقل العملاق في شيكاغو، حيث بُنيت الأفنية والحظائر عام 1865. وقد جاء هؤلاء بعشرات الآلاف قبل الحرب الأهلية، وبمئات الآلاف في العشرين سنة التالية، إلى أن استكملت شبكة خطوط القطارات وآذن انتشار المحاريث في السهوب بانقضاء عصر «الغرب الوحشي» (الذي كان اقتصادَ ماشيةٍ في الأساس) في ثمانينيات القرن. وفي تلك الأثناء، اكتشف أسلوب آخر لاستغلال الثروة الحيوانية: وهو حفظ لحم الذبائح بالوسائل التقليدية بالتمليح والتجفيف، وبعد تركيزه وتكثيفه على نحو ما (وقد بدأ إنتاج خلاصات اللحم على طريقة ليبغ في ولايات ريفربليت عام 1883)، ثم بالتعليب، ثم، آخر الأمر، بطريقة حاسمة هي التبريد والتثليج. ومع أن بوسطن قد استوردت بعض اللحوم المبردة في أواخر الستينيات، ووصل بعضها إلى لندن من أستراليا اعتباراً من عام 1865، فإن هذه التجارة لم تتنامَ بالفعل إلا بعد نهاية الفترة التي نعالجها. ولم يكن من قبيل المصادفة أن الرائدين الأمريكيين الكبيرين لهذه التجارة، وهما عملاقا صناعة التعليب سويفت وآرمور، لم يتخذا من شيكاغو مقراً لهما إلا عام 1875.

لقد كان الطلب، إذاً، هو العنصر الديناميّ في تطوير الزراعة: إنه الطلب المتزايد باطراد على المواد الغذائية في المراكز الحضرية والصناعية في العالم، والطلب المتزايد على الأيدي العاملة في هذه القطاعات، وما نجم

عن الجمع بينهما من ازدهار اقتصادي رفع من مستوى الاستهلاك بين الجماهير، ومن ثم مستوى الطلب للفرد الواحد. فمع قيام نظام اقتصادي عالمي فعلي، انبثقت (كما لاحظ ماركس وإنجلز) أسواق جديدة من لا مكان، فيما كانت القديمة تتنامى بصورة وفيرة. وللمرة الأولى منذ الثورة الصناعية، أخذت قدرة الاقتصاد الرأسمالي الجديد على خلق مجالات العمالة تضاهي قدرته على مضاعفة الإنتاج[4]. وكان من نتائج ذلك، على سبيل المثال، أن استهلاك الفرد من الشاي في بريطانيا تضاعف ثلاث مرات بين الأعوام 1844 و1876، كما ارتفع استهلاك الفرد من السكر من 17 إلى 60 ليبره تقريباً في الفترة نفسها[5].

من هنا، انقسمت الزراعة العالمية بصورة متزايدة إلى قسمين؛ تسيطر على أحدهما الأسواق الرأسمالية، سواء منها الوطني أم الدولي، ويحتفظ الآخر باستقلاله إلى درجة كبيرة. ولا يعني ذلك أن عمليات الشراء والبيع لم تكن تجري في القطاع الخاص، أو أن المنتجين الزراعيين فيه كانوا يتمتعون بالاكتفاء الذاتي، على الرغم من أن نسبة عالية من زراعة الفلاحين ربما كان يستهلكها الفلاحون الذين كانوا يتحكمون بنظام التبادل المحلي أو يتحركون في إطاره. ويعود ذلك إلى أنه كان من الممكن تزويد صغار المدن في مناطق عديدة بمتطلباتها من المواد الغذائية في دائرة لا يتجاوز قطرها عشرة أميال أو عشرين. ومع ذلك، كان ثمة فرق جوهري بين اقتصاد زراعي تحتل فيه المبيعات إلى مجال خارجي واسع مرتبة هامشية أو اختيارية، وآخر يعتمد عليها اعتماداً كلياً؛ أي، بعبارة أخرى، بين من يطاردهم شبح القحط وما يليه من مجاعات، ومن يطاردهم ما هو عكس ذلك، أي فائض الإنتاج أو المنافسة المفاجئة وانهيار الأسعار. ومع سبعينيات القرن، كان قدرٌ كافٍ من الزراعة

---

(4) انظر الفصل الثاني عشر من هذا الكتاب.

(5) Brian Redman Mitchell and Phyllis Deane, *Abstract of British Historical Statistics* (Cambridge: University Press, 1962), pp. 356-357.

العالمية أميل إلى الجانب الثاني، ما جعل من الكساد الزراعي قضية واسعة الانتشار على الصعيد العالمي، ومتفجرة من الوجهة السياسية.

اقتصادياً، كان القطاع الزراعي التقليدي يمثل قوة سلبية: إذ كانت لديه المناعة ضد تقلبات الأسواق الكبيرة، أو أنه قاوم تأثيراتها قدر المستطاع. وعندما كان على قدر عالٍ من القوة، استطاع أن يُبقي الرجال والنساء مرتبطين بالأرض، طالما أمدّتهم الأرض بمورد الرزق، وإلا فإن الأعداد الفائضة منهم ستسلك الطرق التقليدية المعهودة للهجرة الموسمية، وذلك ما فعله صغار الملاك في وسط فرنسا عندما تنقلوا جيئةً وذهاباً من مواقع البناء في باريس وإليها. وربما كانت في بعض الحالات القصوى غير معروفة بالفعل لدى أهالي البلدات. فقد أدت سنوات القحط الفتاكة في الشمال الشرقي من البرازيل إلى هجرات دورية من جانب سكان الغابات الخلفية المُعدمين الذين لم يكن يضاهيهم في هزالهم غير أغنامهم العُجْف؛ وكان هؤلاء يعودون أدراجهم حالما تبلغهم أخبار انقضاء الجدب، ويرجعون إلى المتاهات الجافة المرصعة بالصبّار، وإلى بقاع لم يزرها برازيلي «متمدن» قط، إلا في حملات عسكرية ضد بعض الدعاة المتنبئين المهووسين في تلك الأطراف النائية. وفي نطاق القارة الأكثر تقدماً، ثمة مناطق في كاراباثيا، والبلقان، وتخوم روسيا الغربية، وفي اسكندنافيا وإسبانيا لم يكن يهمها حال الاقتصاد العالمي، ومن ثم بقية العالم الحديث بشقيهِ المادي والمعنوي. بل إن أهل بوليزيا، في وقت متأخر، عام 1831، لم يفهموا السؤال الذي طرحه موظفو الإحصاء البولنديون عن جنسيتهم، فكانت إجابتهم «نحن من هنا» أو «نحن محلّيون»[6].

كان قطاع السوق أكثر تعقيداً، لأن عناصره كانت تعتمد على

(6) Miroslav Hroch, *Die Vorkämpfer der nationalen Bewegung bei den kleinen Völkern Europas*, eine vergleichende Analyse zur gesellschaftlichen Schichtung der patriotischen Gruppen (Praha: Universita Karlova, 1968), p. 168.

طبيعة السوق، أو، في بعض الحالات، على آليات التوزيع، أو على درجة التخصص بين المنتجين، وعلى البنية الاجتماعية للزراعة، ففي بعض الحالات تسود بصورة كاملة تقريباً الزراعة الأحادية في المناطق الزراعية الجديدة، وذلك ما فرضه توجهها نحو أسواق العالم البعيدة. وإذا لم تكن قائمة أصلاً، فقد أسهمت في قيامها وتعزيزها الآليات المعهودة التي كانت تستخدمها الشركات التجارية الأجنبية في موانئ المدن الكبرى التي سيطرت على تجارة الصادرات. وكان ذلك هو شأن اليونانيين الذين سيطروا على تجارة الذرة الروسية عبر أوديسا، والبونجيين والبورنيين من هامبورغ الذين كانوا على وشك تولي هذه المهمة نفسها لبلدان نهر بلاته من بيونس آيريس ومونتيفديو. وكان نمط التخصص كاملاً عندما كانت هذه الصادرات تُنتج في الإقطاعات الزراعية الكبيرة، كما كان الحال في المزروعات الاستوائية (السكر، والقطن، وما إليها)، التي كانت شبيهة بالمناطق التي ترعى فيها الماشية والأغنام، مع أنها أقل شيوعاً من محاصيل الأرض المحروثة. ومن اللافت أن تماثل المصالح في مثل هذه الحالات يولّد حالة من التكافل الوثيق بين كبار المنتجين، عندما يكونون من أبناء البلاد الأصليين لا الأجانب، والبيوت التجارية الكبرى، ومصالح الوسطاء الكومبرادور في موانئ التصدير والاستيراد، وسياسات الدول التي تمثل الأسواق والمورّدين الأوروبيين. وكانت الأرستقراطية المالكة للرقيق في الولايات المتحدة الجنوبية. وملاك العِزب (Estancieros) في الأرجنتين، وأصحاب مُرَبيّات الماشية الصوفية الكبار في أستراليا، من غُلاة المتحمسين للتجارة الحرة والمشروعات الاقتصادية الأجنبية، شأنهم في ذلك شأن البريطانيين الذين كانوا يعتمدون عليهم. ذلك أن دخولهم كانت تعتمد كل الاعتماد على ما تنتجه مزارعهم من محاصيل. وكانوا مستعدين تماماً لقاء ذلك أن يقبلوا أي منتجات غير زراعية يصدرها زبائنهم. وكان الوضع أكثر تعقيداً عندما تقوم الإقطاعات الزراعية الكبيرة، وصغار المزارعين والفلاحين ببيع المحاصيل، على الرغم من أن

نسبة المحصول - في الاقتصادات الفلاحية - الذي يصل من المزارع الكبيرة إلى الأسواق العالمية، أي الذي لا يستهلكه منتجوه، كانت لأسباب واضحة، أكبر بكثير في العادة من المحاصيل الواردة من مزارع الفلاحين.

من الناحية الأخرى، ضاعف توسع المناطق الحضرية من الطلب على أنواع شتى من المواد الغذائية التي لم يكن مجرد حجم الوحدة الزراعية مؤثراً بصورة خاصة في إنتاجها، ولا سيما إذا قورنت بالأغذية المستمدة من الفلاحة المكثفة، ومن الحماية الطبيعية الناجمة عن ارتفاع كلفة النقل وتردّي التقانة، فمنتجو الحبوب الأساسية قد يتخوفون من منافسة الأسواق الوطنية أو العالمية التي قلّما أَبِهَ لها من كانوا يبيعون منتجات الألبان، والبيض، والخضار، والفواكه، أو حتى اللحوم، أو من يخشون المزاحمة من جانب السلع الأخرى السريعة التلف التي لم يكن من الممكن نقلها عبر مسافات طويلة. من هنا، كان الكساد الزراعي الكبير في السبعينيات والثمانينيات من القرن التاسع عشر، في جوهره، كساداً للمحاصيل الغذائية الأساسية على الصعيدين الوطني والعالمي. فالزراعة المختلطة، والزراعة الفلاحية، وبخاصة تلك التي يمارسها الفلاحون الأغنياء ذوو العقلية التجارية، كانت ستزدهر في مثل تلك الأوضاع.

كان ذلك واحداً من الأسباب التي أدت إلى فشل التنبؤات التي توقعت الدمار لطبقة الفلاحين في تلك المرحلة، بل إلى استبعاد تحققها على أرض الواقع حتى في البلدان الأكثر تصنيعاً وتقدماً. لقد كان من السهل التكهن بأن وحدة فِلاحية ما لن تكون قادرة على البقاء إذا، لم يتوفر لها الحد الأدنى المطلوب من الحجم والموارد، وذلك مرهون بجودة التربة، والمناخ، ومستوى الإنتاج. إلا أن الأمر الأكثر صعوبة هو التأكيد بأن الاقتصاد القائم على الملكيات الزراعية الأضخم حجماً متفوقٌ على ذلك القائم على وحدات متوسطة أو صغيرة الحجم،

وبخاصة عندما تكون متطلبات العمالة في مثل هذه الوحدات هي مما يمكن أن تلبيه عائلات الفلاحين الكبيرة، من دون أجر تقريباً. وقد تآكلت طبقة الفلاحين بصورة مطردة جراء برْتلة (Proletarianization) أولئك الذين لم تكن أملاكهم الصغيرة قادرة على توفير الدعم لهم، أو جراء هجرة تلك الأفواه الإضافية التي ضاعف منها التزايد الديمغرافي، ولم يكن بالوسع إطعامها من ناتج أرض العائلة. حيث كان جانب كبير من هذه الطبقة يرزح تحت براثن الفقر على الدوام. وقطاع صغار الملّاك أو الفلاحين المتواضعين يميل إلى التزايد دون شك. ولكن أعداد أملاك الفلاحين المتوسطة تلك، بصرف النظر عن أهميتها من الوجهة الاقتصادية، لم تستطع المحافظة على نفسها فحسب، بل تزايدت في بعض الأحيان[7].

إن نمو الاقتصاد الرأسمالي، بما ينطوي عليه من تعاظم في جانب الطلب، قد أدى إلى تحوّلٍ في الزراعة. فلا عجب، إذاً، أن تشهد تلك الفترة توسعاً في مساحة الأرض المستخدمة للزراعة، ناهيك عن التزايد الكبير في حجم الإنتاج بفضل التحسن في مستوى الإنتاجية. ومن الضروري الإقرار بضخامة هذا التوسع في الأراضي الزراعية، فإذا نظرنا إلى الإحصاءات المتوفرة عن العالم بمجمله لوجدنا أن الأرض

---

(7) ازداد عدد كبار الفلاحين قليلاً في الراين لاند وفشتفاليا، حيث انخفض عدد الملكيات الصغيرة بصورة مثيرة، وعدد الملكيات الأصغر (التي تتراوح مساحتها بين هكتار وربع وسبعة هكتارات ونصف) بصورة ملحوظة بين الأعوام 1858 و1878. وبسبب اختفاء الكثير من الوحدات الأصغر ـ لاندماجها في الصناعة على الأغلب، فإنها غدت الآن تشكل نصف العدد الإجمالي، بينما كانت تمثل الثلث في الماضي. وفي بلجيكا، تزايد عدد الملكيات منذ عام 1846 وحتى الأزمة في السبعينيات، غير أن الفلاحين (الذين يمتلكون بين هكتارين و50 هكتاراً) كانوا يفلحون ما يقرب من 60 في المئة من الأرض الصالحة للزراعة، بينما تقاسمت الإقطاعات الضخمة والملكيات الأصغر البقية بنسبة متساوية. والواضح أن الزراعة الفلاحية حافظت على مكانتها في تلك البلدان الصناعية المعهودة. انظر: «Bauerngut,» *Handwörterbuch der Staatswissenschaften*, vol. II, pp. 441, and 444.

المزروعة بالمحاصيل قد ازدادت، بين الأعوام 1840 و1880، بمعدل النصف، أي من نحو 500 مليون إلى 750 مليون فدان[8]. وقد حدثت نصف هذه الزيادة في أمريكا، إذ تضاعفت مساحة الأرض المزروعة ثلاث مرات خلال تلك الفترة (وتضاعفت أربعة أضعاف في أستراليا، ومرتين ونصف المرة في كندا)، واتخذت هناك، في الأساس، شكل الامتداد الجغرافي البسيط للزراعة إلى المناطق الداخلية. وبين الأعوام 1849 و1877، تقدم إنتاج القمح نحو تسع درجات من خطوط الطول في الولايات المتحدة، وبخاصة في ستينيات القرن. ويجدر بنا أن نتذكر، بالطبع، أن المنطقة الواقعة غرب الميسيسبي كانت ناقصة النمو بالمقارنة مع غيرها. ومن الممكن الاستدلال على ذلك من أن «الكوخ المبني بجذوع الشجر» قد غدا رمزاً للمزارعين الرواد: فالأخشاب لم تكن بهذه الكثرة في النجود الجرد غرب النهر.

غير أن الأرقام الخاصة بأوروبا، على الرغم من أنها لا تظهر بصورة مباشرة موزعة على المناطق المفلوحة وحولها، تظل مدهشة بحد ذاتها، فقد زادت المساحة المزروعة بالمحاصيل في السويد أكثر من ضعفين بين الأعوام 1840 و1880، واتسعت بأكثر من النصف في إيطاليا والدانمارك، وبنحو الثلث في روسيا، وألمانيا، وهنغاريا[9]. وكان أكثر ذلك نتيجة إلغاء نظام إراحة الأرض موسماً بعد موسم، ومن فلاحة ما كان حتى ذلك الحين يدخل في عداد الأراضي السبخة أو البور أو الأهوار، وكثير منه، لسوء الحظ، جراء تدمير الغابات. وبين الأعوام 1860 و1911، انقرض في إيطاليا والجزر التابعة لها نحو 600,000 دونم من الأشجار ـ أي ما يعادل ثلث الإجمالي المتواضع الذي

---

(8) «Agriculture,» in: Michael G. Mulhall, *The Dictionary of Statistics* (London; New York: G. Routledge and Sons, 1892), p. 7.

(9) I. Wellman, «Histoire rurale de la Hongrie,» *Annales économies sociétés civilisations (ESC)*, vol. 23, no. 6 (1968), p. 1203, and Mulhall, Ibid.

ظل على حاله في تلك التضاريس الطبيعية المجففة[10]. كما أن أنظمة الري الواسعة النطاق في بعض المناطق المفضّلة، مثل مصر والهند، كانت لها أهميتها، مع أن الإيمان البسيط العارم بالتقانة قد أسفر آنذاك، مثلما يسفر الآن، عن آثار جانبية كارثية غير متوقعة[11]. وكانت بريطانيا هي البلد الوحيد الذي غطت الزراعة الحديثة فيه البلاد بأسرها. ومع ذلك، لم تزد المساحة المزروعة هناك على أكثر من خمسة في المئة.

وسيكون من دواعي الإملال أن نُعدد، في هذا المجال، معدلات الزيادة في المخرجات ومستويات الإنتاجية الزراعية. والأهم من ذلك هو أن نكتشف إلى أي حد كانت تلك الزيادة مترتبة على التصنيع، وإلى أي مدى استخدمت الأساليب والتقانة أنفسهما لتحويل الصناعة. وفي الفترة السابقة على أربعينيات القرن، كانت الإجابة عن هذه التساؤلات هي: إلى حد بسيط جداً. وحتى في الفترة التي نعالجها هنا، كان جانب كبير من الزراعة يجري وفق أساليب مألوفة ومعروفة تماماً قبل ذلك بمئة عام، إن لم يكن، بمئتي عام. وكان ذلك أمراً طبيعياً، لأنه كان من

---

(10) Emilio Sereni, *Storia del paesaggio agrario italiano* (Bari: Laterza, [1962]), pp. 351-352.

ولا ينبغي كذلك تجاهل تدمير الغابات لأغراض صناعية. «إن كمية الوقود الضخمة المطلوبة [لأتونات البحيرة الكبرى في الولايات المتحدة] قد ألحقت أضراراً بالغة بأخشاب الغابات المحيطة بها»، انظر: Hilary Bauerman, *A Treatise on the Metallurgy of Iron; Containing Outlines of the History of Iron Manufacture, Methods of Assay, and Analyses of Iron Ores, Processes of Manufacture of Iron and Steel*, 3d Ed., Rev. and Enl. Illustrated with Numerous Wood Engravings, from Drawings by J. B. Jordan (London: Lockwood & Co., 1872), p. 227,

فالوقود المطلوب يومياً لأتون واحد يستلزم تجريد فدان كامل من أشجار الغابات.

(11) Elizabeth Whitcombe, *Agrarian Conditions in Northern India* (Berkeley: University of California Press, [1972-]), vol. 1: *The United Provinces under British Rule, 1860-1900*, pp. 75-85,

تناقش المؤلفة هنا، بصورة نقدية، عواقب الري الواسع النطاق في الأقاليم الشرقية.

الممكن تحقيق نتائج باهرة عن طريق تطبيق أفضل الوسائل التي كانت معروفة في الفلاحة السابقة على مرحلة التصنيع. وكان قد جرى تنظيف الأراضي البكر في أمريكا بالنار والفأس، مثلما كانت الحال في القرون الوسطى؛ ولم تكن المتفجرات تؤدي غير دور ثانوي في اجتثاث جذوع الأشجار. وكانت قنوات مياه التصريف تحفر بالمجارف، والمحاريث تجرها الخيول أو الثيران. وبالنسبة للإنتاجية، فإن الاستعاضة عن المحراث الخشبي بالحديدي، والمِحشّ بالمنجل ـ وذلك تطور مهم على الرغم من إغفاله ـ كانت أكثر أهمية من استخدام الطاقة البخارية التي لم يكن العمل الزراعي الأساسي ملائماً لها، لأنها كانت ثابتة لا متحركة. وكان الحصاد هو الاستثناء الرئيسي، لأنه كان يتكون من سلسلة من العمليات القياسية التي تتطلب جهداً عضلياً فائقاً بعض الوقت. ومع نقص الأيدي العاملة المتزايد، فإن كلفة هذا الجهد التي كانت عالية أصلاً، ارتفعت بصورة حادة. وكانت آلات الدرس تنتشر في مواقع حصاد الحنطة في البلدان المتقدمة. أما الابتكار الأكبر، وهو القطّافات والحصّادات والجزّازات، فقد انحصر أساساً في الولايات المتحدة، حيث كانت القوى العاملة شحيحة، والحقول غاية في الاتساع. غير أن تطبيق المخترعات والآلات المبتكرة في الزراعة تزايد بصورة مشهودة على العموم، ففي الفترة بين الأعوام 1849 و1851، سجلت 191 براءة اختراع زراعية في الولايات المتحدة؛ و1282 براءة (1859 ـ 1861)، ثم 3,217 براءة على الأقل بين الأعوام 1869 -1871[12].

لكن الزراعة والمزارع ظلت، في كل الأحوال، على الحالة التي كانت عليها في أغلب أنحاء العالم: أي أكثر ازدهاراً في المناطق المتقدمة. من هنا، تعاظم الاستثمار في مجالات التطوير، والمباني، وغيرها، وبصورة اقتصادية في أكثر من موقع. ولكن لم يخرج عن أشكاله المعتادة.

---

(12) Irwin Feller, «Inventive Activity in Agriculture, 1837-1890,» *The Journal of Economic History*, vol. 22, no. 4 (Dec. 1962), p. 576.

بل إن الصناعة وما تنطوي عليها من تقانة لم تكن تتطلع إلى آفاق جديدة خارج العالم الجديد، فقد دفنت أنابيب المياه الخزفية التي تُنتَج إنتاجاً جماعياً، وتعتبر أهم مساهمة قدمتها أمريكا للزراعة، واقتصر استخدام الشبكات السلكية والأسلاك الشائكة التي حلت مكان الجدران، والأسيجة، والحواجز الخشبية، على المراعي في أستراليا، والولايات المتحدة، كما توسع استعمال ألواح الصفيح المغضّن خارج نطاق خطوط السكة الحديد التي صنعت من أجلها في الأساس. ومع ذلك، أسهم الإنتاج الصناعي إسهاماً كبيراً في رأس المال الزراعي. وكذلك فعل العلم الحديث من خلال تطور علم الكيمياء العضوية (الألماني أساساً). ولم تكن الأسمدة الصناعية (البوتاس والنترات) قد استخدمت على نطاق واسع حتى ذلك الحين: إذ لم يتجاوز ما تستورده بريطانيا من نترات التشيلي 60,000 طن عام 1870. ومن جهة أخرى، نمت تجارة ضخمة، لمصلحة الحركة المالية في البيرو مؤقتاً، ولمصلحة بعض الشركات البريطانية والفرنسية بصورة دائمة، في نطاق المتاجرة بسماد الغوانو الطبيعي الذي صُدّر منه نحو 12 مليون طن منذ عام 1850 وحتى انهيار هذه السلعة عام 1880؛ ولم يكن لهذه التجارة أن تزدهر قبل تطور حركة النقل العالمية بالجملة[13].

---

(13) الغوانو، سماد طبيعي من ذرق الطيور البحرية أو من مصانع تعليب الأسماك. بدأ تصديره عام 1841، وبلغت قيمته نحو 600,000 جنيه استرليني بحلول عام 1848. وكان معدل قيمة الصادرات 2,1 مليون جنيه استرليني سنوياً في الخمسينيات، و2,6 مليون في الستينيات، ثم أخذت بالانخفاض بعد ذلك. انظر: Charles Alfred McQueen, *Peruvian Public Finance*, United States. Bureau of Foreign and Domestic Commerce. Trade Promotion Series; no. 30 (Washington: U. S. Govt. Print. Off., 1926), pp. 5-6, وساهم سماد الغوانو الطبيعي بنحو 75 في المئة من دخل الحكومة في البيرو بين العامين 1861 و1866، وبنحو 80 في المئة بين العامين 1869 -1875. انظر: Heraclio Bonilla, *Guano y burguesía en el Perú*, Perú problema; 11 (Lima: Instituto de Estudios Peruanos, 1974), pp. 138-139.

II

كانت القوى الاقتصادية المحركة للزراعة في المناطق التي كان يمكن إحداث التغيير فيها هي قوى التوسع. غير أنها واجهت، لا محالة، عقباتٍ اجتماعيةً ومؤسسيةً اعترضتها أو حدّت من قدرتها في بقية أنحاء العالم، ما أدى بدوره إلى إعاقة تنفيذ المهمة الكبيرة الأخرى التي تضعها لنفسها التنمية الرأسمالية الصناعية ـ أو أي تنمية أخرى، في مجال القطاع العقاري. ذلك أن دورها في الاقتصاد الحديث لا يقتصر على توفير الغذاء والمواد الخام بكميات سريعة التزايد، بل يتعداه إلى توفير مخزون ـ إن لم يكن المخزون الوحيد ـ من قوة العمل للمهن غير الزراعية. وكانت مهمتها الكبيرة الثالثة، وهي توفير رأس المال للتنمية الحضرية والصناعية نفسها، متعذرة التحقيق في البلدان الزراعية، حيث كانت ثمة مصادر أخرى قليلة لواردات الحكومات ودخول الأثرياء؛ وإذا ما تحققت هذه المهمة، فإن النتيجة ستكون قاصرة وغير ملائمة.

جاءت تلك العقبات من ثلاثة مصادر: الفلاحين أنفسهم، ورؤسائهم الاجتماعيين، والسياسيين، والاقتصاديين، والثقل الكامل للمجتمعات التقليدية المُمَأْسسة، التي كانت الزراعة تمثل لُحمتها وسداها في آنٍ معاً. وكان مقدراً لهذه الأطراف الثلاثة أن تكون من ضحايا الرأسمالية، مع أن الطبقة الفلاحية والتراتبية الاجتماعية الراسخة في الأرياف التي تتحكم بها لم تكن تواجه خطر الانهيار المباشر. غير أن هذه الظواهر الثلاث المترابطة لم تكن، كما سنرى، تنسجم نظرياً، والرأسمالية، وكانت، من ثم، أميل إلى الصدام معها.

بالنسبة للرأسمالية كانت الأرض واحدة من عوامل الإنتاج، وسلعة محدودة الكمية تتميز بالثبات، مع أن الاكتشاف الكبير لأراضٍ جديدة في تلك الفترة جعلت من هذه الحدود أمراً عديم الأهمية نسبياً آنذاك. وكان من الممكن، على هذا الأساس، التعامل مع مشكلة ما يتوجب عمله مع أولئك الذين يتمتعون بهذا «الاحتكار الطبيعي» الذي جعلهم يفرضون الأعباء على جوانب الاقتصاد الأخرى. لقد كانت

الزراعة «صناعة» مثل الصناعات الأخرى وتجب إدارتها وفق المبادئ السليمة التي ترتكز على تعظيم الأرباح، كما أن المزارع كان واحداً من أصحاب المشروعات التجارية. أما عالم الريف برمته، فقد كان يمثل السوق، ومصدر الأيدي العاملة، ومنبع رأس المال. وحيث إن النزعة التقليدية قد حالت بين الزراعة، وبين تلبية متطلبات الاقتصاد السياسي، فقد توجب تمهيد هذا السبيل أمامها.

لم يكن هناك من سبيل للتوفيق بين هذه النظرة، وموقف الفلاحين أو ملاك الأرض الذين لم تكن الأرض بالنسبة لهم مجرد وسيلة لتحقيق دخل قابل للتزايد حتى حدوده القصوى، بل إطاراً للحياة والعيش؛ ويصدق ذلك على الأنساق الاجتماعية التي لم تكن فيها العلاقات بين الناس والأرض وبين بعضهم وبعض اختيارية إذا جاز التعبير، بل إرغامية. كما احتدم النزاع حول هذه المسألة بصورة صارخة، حتى على صعيد الحكم والتفكير السياسي، حيث كان من الممكن القبول الفوري المتزايد بـ «قوانين الاقتصاد». وربما كانت سياسات ملاك الأرض التقليدية غير مرغوب فيها من الوجهة الاقتصادية، ولكن ألم تكن هي المِلاط الذي يحفظ التماسك للبنية الاجتماعية ويحول دون انهيارها وانزلاقها إلى مهاوي الفوضى والثورة؟ (وقد منيت سياسة بريطانيا حول الأرض بفشل ذريع بسبب هذا المأزق). وربما كان الأمر أبسط من ذلك، اقتصادياً، لو لم تكن ثمة طبقة من الفلاحين في الأصل، ولكن، ألم تكن النزعة المحافظة العنيدة في أوساط الفلاحين هي الضمان للاستقرار الاجتماعي، مثلما كانت هذه الروح العنيدة لدى الجماهير الحاشدة من ذريتهم هي العمود الفقري لأغلبية جيوش الحكومة؟ فهل كان بوسع دولة ما، فيما كانت الرأسمالية تدمر طبقاتها العاملة، أن تستغني عن مخزونها من رجال الريف الأصحاء الذين تحاول استقطابهم للوفود إلى المدن؟[14].

(14) «إن... الفلاحين (Bauernstand) يمثلون الجانب الأقوى والأكثر عافية جسمية بين السكان، وهم الذين يتعين على المدن، بصورة خاصة، أن تجتذبهم على الدوام»، على حد=

على الرغم من ذلك، لم تسعَ الرأسمالية إلا إلى تقويض الأسس الزراعية للاستقرار السياسي، وبخاصة في الأطراف الهامشية أو التابعة للغرب المتقدم. فمن الوجهة الاقتصادية أدى الانتقال إلى إنتاج السوق، وبخاصة الفلاحة الأحادية، كما رأينا، إلى إشاعة الاضطراب في العلاقات الاجتماعية، وإلى زعزعة الاقتصاد. إن «التحديث»، سياسياً، يعني لمن يعتزمون الخوض فيه مواجهة صِدامية مع العماد الأساسي للنزوع التقليدي، ألا وهو المجتمع الزراعي[15]. وكان من الممكن الركون إلى ولاء الأرياف من جانب الطبقات الحاكمة في بريطانيا، التي كان قد اختفى منها ملاك الأرض والفلاحون المنتمون للمرحلة قبل الرأسمالية، وفي ألمانيا وفرنسا، حيث تبلور أسلوب عمل مع الفلاحين يرتكز على سوق محلية مزدهرة، ومحمية عند الضرورة. إلا أن ذلك لم يكن مُمكناً في أي مكان آخر، فقد كانت الأرياف، في أغلب الأحيان، يشيع فيها الغليان الاجتماعي، والتفجر في بعض الحالات.

ولسبب أو لآخر، كانت ثلاثة أنواع من المشروعات الزراعية تتعرض بصفة خاصة للضغوط: مزارع العبيد، وإقطاعيات السخرة، والاقتصاد الفلاحي التقليدي غير الرأسمالي. وقد تمت تصفية الأول في فترتنا هذه بإلغاء الرق في الولايات المتحدة وفي أكثر أنحاء أمريكا اللاتينية، عدا البرازيل وكوبا اللتين كانت أيام الرق فيهما قد آذنت

= ما يقوله جوزيف كونراد، الذي كان بذلك يعبر عن الرأي الشائع في القارة الأوروبية: «إنهم يكونون لب الجيش... ومن الوجهة السياسية جعلتهم طبيعتهم المستقرة وولاؤهم للأرض الركن الركين لازدهار المجتمع المحلي الريفي... لقد كان الفلاحون يمثلون على الدوام العنصر الأكثر محافظةً في الدولة... وقد حولهم تقديرهم لما يمتلكون، وحبهم لتراب بلادهم، إلى أعداء طبيعيين للأفكار الحضرية الثورية، وسدوداً منيعة تقف في وجه الجهود الديمقراطية ـ الاجتماعية. من هنا، فإنهم وصفوا، بحق، بأنهم الأعمدة الأرسخ التي تقوم عليها الدولة المعافاة، وتعاظمت أهميتهم مع النمو السريع للمدن الكبيرة». انظر: «Bauerngut,» p. 439.

(15) انظر الفصلين السابع والثامن من هذا الكتاب.

بالانقراض، وقد تم إلغاؤه رسمياً عام 1889. ومع نهاية تلك الفترة، كان الرق قد تقهقر إلى البقاع الأكثر تخلفاً في الشرق الأوسط وآسيا، حيث لم يعد له دور زراعي ذو بال. أما الثاني، فقد جرت تصفيته في أوروبا بين الأعوام 1848 و1868، مع أن أحوال الفلاحين المعوزين، وعلى رأسهم المعدمون الذين لا يمتلكون شيئاً في مناطق الإقطاعات الواسعة في الجنوب والشرق من أوروبا، ظلت أقرب إلى أوضاع السخرة، واتخذت في أغلب الأحيان طابع القسر الاقتصادي. وإذا كانت حقوق الفلاحين الثانوية والمدنية دون ما كان يتمتع به الأثرياء المتنفذون، فقد كانوا يتعرضون للإرغام غير الاقتصادي. وكذلك كان حالهم في الإقطاعيات الفالاتشية، والأندلسية، والصقلية. ولم تُلْغَ خدمات العمل القسري في كثير من بلدان أمريكا اللاتينية، بل إنها تزايدت إلى حد لا يسمح بالحديث عن التصفية الكاملة للسخرة هناك[16].

ومع ذلك، يبدو أن السخرة اقتصرت، على نحو مطرد، على الفلاحين الهنود الذين كانوا لاستغلال ملاك الأرض غير الهنود. أما النوع الثالث من المشروعات، فقد استطاع، كما رأينا، المحافظة على نفسه.

ثمة أسباب مركبة وراء تلك التصفية الإجمالية لأشكال التبعية الزراعية السابقة على الرأسمالية (أي غير الاقتصادية). وقد أدّت العوامل السياسية دوراً واضحاً وحاسماً في بعض الأحيان، ففي إمبراطورية الهابسبيرغ عام 1848، كما في روسيا عام 1861، لم يكن الدافع إلى

---

(16) يجب تحاشي اللبس بين استمرار مثل هذه الالتزامات (التي تنعت بمصطلحات محلية شتى مثل ياناكوناس، هواسبنغو، وغيرها)، وترتيبات أخرى ذات وظيفة مماثلة مثل استرقاق الدَيْن. كما يجب عدم الخلط بين استيراد العمال بموجب عقود استخدام موثقة من جهة، والرق من جهة أخرى، ففي كلتا الحالتين، يتم إلغاء الرق والسخرة، شكلياً، ثم استحداثهما مُجدداً في إطار عقود عمل «حرة» من الناحية الفنية.

إعتاق الرقيق هو كراهية نظام السخرة بقدر ما كان التخوف من ثورة غير فلاحية قد تكتسب زخماً حاسماً عن طريق تجييش تظلمات الفلاحين. وكانت حركات التمرد الفلاحية احتمالاً قائماً على الدوام، وتجلى ذلك في انتفاضات الفلاحين في غاليقيا (Galicia) عام 1846، وفي جنوب إيطاليا عام 1848، وفي صقلية عام 1860، وفي روسيا خلال السنوات التي أعقبت حرب القرم. بيد أن ما كان يُفزع الحكومات لم يكن حركات التمرد الفلاحية العمياء - فهي قصيرة الأجل، ويمكن إخمادها بالحديد والنار حتى من جانب الليبراليين، كما حدث في صقلية[17] - بل حشد السخط في صفوف الفلاحين في تحدٍ سياسي للسلطة المركزية. وهكذا، حاولت أسرة هابسبيرغ عزل مختلف الحركات الساعية إلى الاستقلال الوطني عن القاعدة الفلاحية، وفعل قيصر روسيا الأمر نفسه في بولندا. يضاف إلى ذلك أن الحركات الراديكالية - الليبرالية لم يكن يؤبه بها، أو حتى التعامل معها، بغير دعم الفلاحين في البلدان الزراعية، وذلك ما أدركته أسرة هابسبيرغ، وأسرة رومانوف، وتصرفتا على هذا الأساس.

إلا أن هذه الانتفاضات والثورات، سواء قام بها الفلاحون أم غيرهم، لا تفسر لنا غير التوقيت الزمني لبعض حالات العتق من السخرة، فخلافاً لما كانت عليه الحال في انتفاضات السخرة، لم يكن تمرد العبيد أمراً شائعاً نسبياً، حتى في الولايات المتحدة[18]. كما أنه على الإطلاق يعتبر تهديداً عظيم الخطر من الوجهة السياسية في القرن التاسع

---

(17) انظر القصة القصيرة التي كتبها ج. فيرغا (G. Verga) «الحرية» التي تتناول انتفاضة برونتي وإحدى القصص التي تناقشها دراسة: D. Mack Smith, «The Peasants' Revolt in Sicily in 1860,» in: *Studi in onore di Gino Luzzatto*, 4 vols. (Milano: A. Giuffrè, 1949-1950), pp. 201-240.

(18) Eugene D. Genovese, *In Red and Black; Marxian Explorations in Southern and Afro-American History* (New York: Pantheon Books, [1971]), pp. 131-134.

عشر، فهل كان الضغط لإلغاء السخرة اقتصادي الطابع؟ والإجابة هي: إلى حد ما، بالتأكيد. وقد يرى بعض مؤرخي الاقتصاد الرياضي، بأثر رجعي، أن الزراعة القائمة على الرق أو السخرة كانت في واقع الأمر أكثر ربحيةً وكفاءة من تلك القائمة على العمالة الحرة[19]. وذلك ممكن تماماً، كما أنه يستند إلى حجج قوية بالفعل، غير أنه لا بد من الإقرار بأن معاصري تلك الفترة كانوا، باستخدامهم أساليب تلك المرحلة ومعاييرها، يعتقدون بقصور هذا النوع من الزراعة، مع أننا، بالطبع، لا نعرف كيف تأثرت حساباتهم بموقف الفزع المتميز المبرر الذي وقفوه ضد الرق أو السخرة. إلا أن توماس براسي (Thomas Brassey)، وهو من أساطين خطوط السكة الحديد، في معرض حديثه عن السخرة بمنطق تجاري بسيط، لاحظ أن المحصول في الزراعة التي تعتمد على السخرة في روسيا كان نصف ما في إنجلترا وسكسونيا، وأقل مما كان في أي بلد أوروبي آخر. كما أنه رأى أن «من الواضح أن الرق كان أقل إنتاجيةً من الأيدي العاملة الحرة، وأعلى كلفة مما كان يعتقده الناس، إذا أخذنا بالاعتبار كلفة الشراء، والتربية، والرعاية»[20]. وقد أعرب القنصل البريطاني في بيرنامبوكو (في تقرير أبلغه إلى حكومته العنيفة العداء للرق)، عن اعتقاده بأن أرباب العمل الذين يستخدمون الرقيق يخسرون فائدة تُقدر باثني عشر في المئة، فيما كان بوسعهم ادخار رأس المال الذي أنفق على شرائهم. وبصرف النظر عما إذا كان هذا الرأي صحيحاً أو مجانباً للصواب، فإنه كان شائعاً خارج صفوف مُلاّك العبيد.

---

(19) طرحت هذه الحجة، أكثر ما طرحت، بصورة مفصلة في ما يتعلق بالرق، ولكن ليس بالقدر نفسه في حالة السخرة. من أجل أوسع مناقشة لهذه الحجج، انظر: Robert William Fogel and Stanley L. Engerman, *Time on the Cross; the Economics of American Negro Slavery* (Boston: Little, Brown, [1974]).

(20) Thomas Brassey, Works and Wages, 2nd Edition (London: Bell & Daldy, 1872).

من الواضح أن الرق كان، في واقع الأمر، على وشك الانهيار، ولكن ليس لأسباب إنسانية. مع أن الإلغاء الفعلي للرق، دولياً، بفعل الضغط البريطاني (وقد رضخت البرازيل للمطالبة بالإلغاء عام 1850)، قد ضيّق الخناق على إمدادات العبيد ورفع من أسعارهم. وقد انخفض استيراد الأفريقيين إلى البرازيل من 54000 عام 1849 إلى ما يقرب من الصفر في أواسط خمسينيات القرن. ويبدو أن تجارة العبيد المحلية لم تؤدِ دوراً أساسياً في هذا الصدد، على الرغم من أنها كانت طرفاً في مناقشات الإلغاء. غير أن النقلة من الرقيق إلى غير الرقيق كانت مُدهشة. فمع عام 1872، كان عدد السكان الملونين الأحرار في البرازيل يقارب ثلاثة أضعاف حجم السكان العبيد، بل إن النسبة العددية كانت متقاربة حتى في أوساط الزنوج الخُلَّص. وبحلول عام 1877، كان عدد العبيد قد انخفض في كوبا إلى النصف: من 400000 إلى 200000[21]. وربما كانت مَكْننة معامل السكر منذ أواسط القرن، حتى في مجال قصب السكر، وهو المجال التقليدي الأقدم لتسخير الأقنان، قد أفضت إلى تقليل الطلب على الأيدي العاملة لتصنيع المُنتج، مع أن الازدهار في اقتصادات السكر، كما في كوبا، قد أدى إلى ارتفاع الطلب على العمال في الحقول. وقد تزايدت الضغوط لخفض كلفة الأيدي العاملة بالنظر إلى اشتداد المنافسة من جانب صناعة سكر الشمندر الأوروبية، وارتفاع كلفة العمال في إنتاج سكر القصب. ترى، هل كان بوسع اقتصاد زراعي رقيقيّ أن يتحمل كلفة مضاعفة في استثمار مكثف في المكننة واستخدام العبيد في آن معاً؟ وقد شجعت مثل هذه الحسابات في كوبا على الأقل على الاستعاضة عن العبيد لا بالعمال الأحرار، بل بالعمال

---

(21) H. S. Klein, «The Colored Freedmen in Brazilian Slave Society,» *Journal of Social History*, vol. 3, no. 1 (1969), p. 36, and Julio Le Riverend, *Historia económica de Cuba*, 2. Ed. (La Habana: Editorial Nacional de Cuba, 1965), p. 160.

المتعاقدين من هنود المايا في يوكاتان الذين كانوا من ضحايا الحرب العنصرية[22]، أو من الصين التي فتحت أبوابها قبيل ذلك بوقت قصير. ومما لا شك فيه، على الرغم من ذلك كله، أن الرق، بوصفه نمطاً من أنماط الاستغلال، كان في طريقه إلى الزوال، وبخاصة في أمريكا اللاتينية، حتى قبل إلغائه، وأن الحجة الاقتصادية ضد هذا الشكل من أشكال العمل كانت تزداد قوة بعد عام 1850.

أما نظام السخرة، فقد كانت الحجة الاقتصادية ضده عامةً ومحددةً في الوقت نفسه، فقد بدا من الواضح أن سيطرة مفهوم الفلاح الملتزم تقف حائلاً دون التنمية الصناعية التي كان يعتقد أنها تتطلب عمالاً أحراراً. وعلى هذا الأساس، كان إلغاء السخرة شرطاً ضرورياً مُسبقاً لحراك العمل الحر. يضاف إلى ذلك أن نظام السخرة الزراعية، لن يكون نظاماً عقلانياً رشيداً على حد تعبير أحد المدافعين الروس عن السخرة في الخمسينيات، «إذا ظل يستثني احتمال تحديد كلفة الإنتاج بأي درجة من الدقة»[23]. إنه، في هذه الحالة، سيستثني كذلك أي تكيّف عقلاني مناسب مع السوق.

وعلى نحو أكثر تحديداً، فإن تطوير سوق محلية لشتى أنواع المواد الغذائية والمواد الزراعية الخام، وتنمية سوق للتصدير - في مجال الحبوب أساساً - سيؤديان كلاهما إلى تقويض الأسس التي تقوم عليها السخرة، ففي مناطق روسيا الشمالية، التي لم تكن ملائمة على الإطلاق لزراعة الحبوب بصورة مكثفة، حلت مزارع الفلاحين مكان الإقطاعيات المنتجة

---

(22) انظر الفصل السابع من هذا الكتاب.

(23) Peter Ivanovich Lyashchenko, *History of the National Economy of Russia, to the 1917 Revolution*, [American Council of Learned Societies Devoted to Humanistic Studies. Russian Translation Project. Series 4], Translated by L. M. Herman; Introd. by Calvin B. Hoover; Maps Redrawn under the Supervision of Leonard H. Dykes (New York: Macmillan, 1949), p. 365

للقنّب، والكتان والمحاصيل الكثيفة الأخرى، بينما أخذت الصناعات اليدوية توفر للفلاحين أسواقاً إضافية، فانخفض بذلك عدد الأقنان الذين يؤدون خدمات عملية. وقد كانوا دائماً أقلية قليلة. واستفاد ملاك الأرض من تحويل الخدمات إلى إيجارات مالية تستهدف السوق. أما في أراضي الجنوب الخالية، التي تحولت فيها السهوب البكر إلى مزارع لتربية الماشية، وبعدها إلى حقول للقمح، فلم تكن للقنانة أهمية ذات بال. إن ما يطلبه ملاك الأرض لإنعاش اقتصاد التصدير إنما كان وسائل النقل، والائتمان المالي، والأيدي العاملة الحرة، وحتى الآلات. وقد عاشت السخرة في روسيا، كما في رومانيا، أساساً، في مناطق إنتاج الحبوب ذات الكثافة السكانية الفلاحية العالية. وكان بوسع ملاك الأرض في تلك المناطق إما أن يعوضوا عن الضعف في قدرتهم التنافسية بالارتقاء بخدمات العمال، أو بأن يأملوا بالأسلوب نفسه في خفض حاد ومؤقت في أسعار الحبوب في سوق التصدير.

بيد أن إلغاء العمل المقيّد لا يمكن تحليله تحليلاً مُبسطاً بالحسابات الاقتصادية، فقد كانت قوى المجتمع البورجوازي تعارض الرق والسخرة لا لأنها تعتقد أنهما غير مرغوب فيهما من الوجهة الاقتصادية، ولا لأسباب أخلاقية، بل لأنهما لم يتواءما ومجتمعَ السوق القائم على السعي الحر لتحقيق المصلحة الفردية. ومن ناحية أخرى، وقف ملاك العبيد وسادة الأقنان بمجموعهم موقف التأييد لهذا النظام لأنه كان، في نظرهم، هو الركن الركين لمجتمعهم ولطبقتهم. وربما كان من المستحيل أن يتصوروا أنفسهم بغير عبيد أو أقنان تتحدد بهم مكانتهم. ولم يكن لملاك الأرض الروس القدرة أو الرغبة في الثورة على القيصر، الذي يستطيع وحده أن يسبغ عليهم بعض الشرعية في مواجهة الفلاحين الذين كانوا يؤمنون إيماناً عميقاً بأن الأرض لمن يحرثها. كما آمنوا بضرورة خضوعهم التراتبي لممثل الله، وللإمبراطور، ومن ثم عارضوا العتق معارضة صلبة نسبياً، فقد كان مثل هذا الخضوع مفروضاً عليهم من الخارج، ومن فوق، وبواسطة قوة عُلوية.

ولو كان الإلغاء/الإعتاق وليد القوى الاقتصادية وحدها، لما كانت العملية ستُسفر في واقع الأمر عن تلك النتائج غير المرضية في روسيا والولايات المتحدة كلتيهما. لقد تكيفت بسهولة مع تصفية الرق والقنانة المناطقُ التي كان لهذين النظامين فيها أهمية هامشية، أو آثار «غير اقتصادية»، وهي، على سبيل المثال، الأطراف الشمالية والجنوبية من روسيا، أو الولايات الحدودية أو الجنوبية الغربية في الولايات المتحدة. إلا أن المشكلات في المناطق التي تمثل نواة النظام القديمة، كانت أكثر عسراً، ففي أقاليم «التربة السوداء» الروسية الصرفة (التي تتمايز مع أراضي أوكرانيا والسهوب الحدودية)، كانت الرأسمالية الزراعية بطيئة النمو، وبقيت كلفة العمالة ثقيلة الوطأة على نطاق واسع في أواخر الثمانينيات من القرن التاسع عشر، بينما تباطأ توسع الفلاحة كثيراً عما كان عليه في أراضي الجنوب المزروعة بالحبوب[24] (وعلى حساب المروج والمراعي، وكذلك على حساب تعزيز النظام القديم للدورات الزراعية الثلاث). ومجمل القول إن الفوائد الاقتصادية المخصصة لإنهاء الاقتصاد القائم على الإرغام الجسدي ظلت مثاراً للجدل.

وذلك ما لا يمكن تفسيره على أسس سياسية في اقتصادات الرق السابقة، حيث إن الجنوب كان قد تم غزوه آنذاك، كما أن أرستقراطية المزارع القديمة كان قد تولاها العجز، بصورة مؤقتة على الأقل، مع أنها استعادت قوتها بعد قليل. وفي روسيا، روعيت بالطبع مصالح طبقة ملاك الأرض وأحيطت بحراسة مشددة.

وتتمثل المشكلة هنا في أن الإعتاق لم يؤدِّ إلى حل زراعي مرض

(24) في الفترة الواقعة بين الستينيات والثمانينيات من القرن التاسع عشر كان معدل الزيادة في أراضي منطقة التربة السوداء الصالحة للزراعة نحو 60 في المئة. وتضاعفت مرتين في أوكرانيا الجنوبية، والفولغا السفلى، وشمال القوقاز. إلا أنها لم تصل الربع بين الأعوام 1860 و1913 في كورسك، رايازان، أورل وفورونيج. انظر: المصدر نفسه، ص 440، و450.

للوجهاء، ولا للفلاحين، كما أنه لم يُعْطِ الدلائل على زراعة رأسمالية حقيقية في المستقبل. وفي كلتا الحالتين تعتمد الإجابة عن هذه المسألة على ماهية الشكل الأفضل للزراعة، ولا سيما الزراعة على نطاق واسع، في ظل ظروف رأسمالية.

هناك تنويعان أساسيان على الزراعة الرأسمالية أسماهما لينين، على التوالي، الطريق «البروسي» والطريق «الأمريكي»: الإقطاعات الكبيرة التي يديرها مقاولون من ملاك الأرض الرأسماليين باستخدام العمال المأجورين، والمزارعون التجاريون المستقلون، على اختلاف أحجامهم، ممن يديرون العمل باستخدام العمال المأجورين عند الضرورة، ولكنهم يعملون على نطاق أصغر من ذلك بكثير. ويفترض النوعان وجودَ اقتصاد سوق. ولكن أغلب الإقطاعات الواسعة كانت، حتى قبل انتصار الرأسمالية، تعمل بوصفها وحدات منتجة ترمي إلى بيع كميات كبيرة من منتجاتها[25]، وذلك ما لا تفعله أغلبية الأملاك الموجودة في حوزة الفلاحين، وهي مكتفية بنفسها في الأساس.

من هنا، فإن فائدة الإقطاعات والمزارع الكبيرة للتنمية الاقتصادية لم تكن تكمن في تفوقها التقني، وإنتاجيتها العالية، وتوفيرات الحجوم وما إلى ذلك، بل في قدرتها غير المعتادة على توليد الفائض الزراعي لأغراض السوق.

وفي الأوضاع التي بقي فيها الفلاحون في الطور «قبل - التجاري»، كما كانت الحال في أجزاء واسعة من روسيا، ولدى العبيد المحرَّرين الذين عادوا، في الأمريكتيْن، إلى الاشتغال بزراعة الكفاف، احتفظت العِزب الكبيرة بهذه الميزة، غير أنها، في غياب القسر الجسدي الذي تميز به الرق والقنانة، وجدت من الصعب الحصول على الأيدي

---

(25) لا يتوقع من الإقطاعية أن تكون منتجة بالطبع، فقد تكون أقرب إلى جمع الدخل على شكل إيجار نقدي أو عيني، أو حصة في المحصول من جانب ملاك الأرض المقيمين عليها، الذين يشكلون بأنفسهم وحدات إنتاج فعلية.

العاملة، إلا إذا كان العبيد والأقنان السابقون لا يمتلكون الأرض، أو يحتاجونها إلى حد يدفعهم إلى العمل بصفتهم عمالاً مأجورين، وإلا إذا لم تتح لهم فرص عمل أخرى أكثر جاذبية.

بيد أن العبيد السابقين حصلوا، على العموم، على بعض الأرض (مع أنها لم تكن ألـ «أربعين فداناً، مع بغل»، التي كانوا يحلمون بها). كما أن الأقنان السابقين ظلوا فلاحين، مع أنهم خسروا بعض الأراضي لصالح الملاّك، ولا سيما في المناطق التي توسعت فيها الزراعة التجارية[26]. والواقع أن استمرار المشاعات القروية القديمة، بل انتعاشها بترتيباتها الرامية إلى التوزيع الدوري العادل للأرض، قد وفر الحراسة والحماية للاقتصاد الفلاحي. من هنا، تزايد الميل لدى ملاك الأرض لتنمية اتجاهات المشاركة في المحصول للاستعاضة بها عن المحاصيل التي كان من الصعب عليهم إنتاجها بأنفسهم. أما إذا كان ملاك الأراضي الأرستقراطيون الروس، من أمثال شخصية الكونت روستوف في رواية ليو تولستوي **الحرب والسلام**، أو مدام رانيفسكايا في مسرحية أنطون تشيخوف **بستان الكرز** كانوا سيتحولون إلى مقاولين زراعيين رأسماليين أكثر من أصحاب العِزب الحالمين بأبطال روايات السير وولتر سكوت (Walter Scott) في فترة ما قبل الحرب، فتلك مسألة أخرى.

ولكن الطريقة «الروسية»، شأنها شأن الطريقة «الأمريكية» لم تُتَّبع بصورة منهجية.

واعتمد ذلك على إيجاد قاعدة عريضة من المزارعين الريفيين النشيطين الذين يزرعون المحاصيل التي تُباع نقداً في الأساس. وكان من الضروري توفر حد أدنى من حجم الأرض المملوكة لهذا الغرض، تبعاً

(26) غير أن الخسائر في مناطق التربة السوداء الوسطى كانت ضئيلة، بل كانت ثمة مكاسب في بعض الأحيان.

للظروف. وعلى هذا الأساس، في جنوب الولايات المتحدة بعد الحرب الأهلية، «أثبتت التجربة أنه من المشكوك فيه أن تتجمع الأرباح لدى مزارع يقل محصوله السنوي عن خمسين بالة . . . ومَن لا يمكنه إنتاج ثماني بالات أو عشر بالات على الأقل ستُسد في وجهه سُبل العيش، ولن يجد ما يعتاش منه»[27]. فبقي بالتالي جانب كبير من الفلاحين يعتمدون على زراعة الكفاف إذا سمحت أملاكهم بذلك، أو اعتمدوا في الحالات الأخرى على كدحهم ليقيموا أَوَدَهم إذا لم يفِ بذلك ما لديهم من أرض (لم يكن فيها، على الأغلب، أي ماشية أو عربات). ونشأت في أوساط الفلاحين بلا شك جماعة لا يستهان بحجمها من المزارعين ـ وكانت عظيمة الأهمية في روسيا خلال الثمانينيات. إلا أن مجموعة شتى من العوامل حالت دون التمايز الطبقي، ومنها التعصب العِرقي في الولايات المتحدة، واستمرار المجتمعات المحلية القروية المنظمة في روسيا[28]. وكما يحدث في العادة، كانت القطاعات الريفية الرأسمالية أو التجارية الكاملة النضج من التجار والمقرضين الأجانب (أي الشركات التجارية والبنوك).

لم يسفر الإلغاء ولا الإعتاق، إذاً، عن حل رأسمالي مرض لـ «المشكلة الزراعية»، ومن المشكوك فيه أن ذلك كان ممكن التحقيق إلا إذا توافرت الشروط اللازمة لنمو زراعة رأسمالية، مثلما كانت الحال في المناطق الواقعة على هامش اقتصاد الرق/ القنانة مثل تكساس أو (في أوروبا) بوهيميا وأجزاء من هنغاريا. ويمكننا أن نشاهد العملية

---

(27) David Ames Wells, *Recent Economic Changes, and their Effect on the Production and Distribution of Wealth and the Well-being of Society* (New York: D. Appleton and Company, 1889), p. 100.

(28) أدى الإعتاق هنا إلى نتائج متضاربة - من وجهة نظر الليبراليين، فقد أخرج الفلاحين بالفعل من نطاق القانون الرسمي، وجعلهم، شكلياً، خاضعين لقانون الفلاحين الاعتيادي، وذلك بعيد كل البُعد عن النزعة الرأسمالية.

«البروسية» و/ أو «الأمريكية» تفعل فعلها هناك. وقد أسهمت إقطاعات النبلاء الواسعة في حقن الأموال المتأتية عن التعويضات المدفوعة لقاء فقدان الخدمات العمالية[29]، التي استثمرت عندها في مشروعات رأسمالية. وفي أراضي التشيك، كان لهؤلاء النبلاء 43 في المئة من مصانع الجعة، و65 في المئة من معامل السكر، و60 في المئة من معامل التقطير في أوائل السبعينيات من ذلك القرن. ومع التركيز على المحاصيل الكثيفة العمالة، ازدهرت هنا العِزب الكبيرة التي تستخدم الأيدي العاملة المأجورة ومزارع الفلاحين الواسعة[30]، بل إنها أخذت تضاهي الإقطاعيات. وقد غلبت تلك في هنغاريا، ونال الأقنان حريتهم من دون أن يحصلوا على أي أرض على الإطلاق[31].

ومع ذلك، فإن تمايز الفلاحين إلى فئة غنية، وأخرى فقيرة، وثالثة مُعدمة، قد أصبح واضح المعالم في أراضي التشيك المتقدمة. وتجلى ذلك

(29) في أراضي التشيك، تلقت أسرة شفارزنبرغ تعويضات بقيمة 2,2 مليون غلدن، ولوبكوفيتس 1,2 مليون، وكذلك نحو مليون لكل من عائلتي فالدتشتين وألويز لختنشتين، ونحو نصف مليون لكل من كينسكي، ديتريشتين، وكولوريدو ـ مانسفلد. انظر: Jaroslav Purš, «Die Entwicklung des Kapitalismus in der Landwirtschaft der böhmischen Lönder in der Zeit von 1849 bis 1879,» *Jahrbuch für Wirtschaftsgeschichte*, vol. III (1963), p. 38.

(30) في الثلث الأخير من القرن التاسع عشر، كانت التقديرات، في هنغاريا على الأقل. تشير إلى أن اليوخ (وهو نحو ستة أعشار الفدان)، كان يحتاج إلى يوم عمل إذا كان يُستخدم للمراعي، وستة أيام عمل للمروج، و8,5 لمحاصيل الحبوب، و22 للذرة، و23 للبطاطا، و30 للمحاصيل الجذرية، و35 للحدائق، و120 للتبغ. انظر: I. Orosz, «Arbeitskräfte in der ungarischen Landwirtschaft,» *Jahrbuch für Wirtschaftsgeschichte*, vol. II (1972), p. 199.

(31) János Varga, *Typen und Probleme des bäuerlichen Grundbesitzes in Ungarn, 1767-1849*, Studia historica - Academiae Scientiarum Hungaricae; 56 (Budapest: Akadémiai Kiadó, 1965).

ورد في: *Annales économies sociétés civilisations (ESC)*, vol. 23, no. 5 (1968), p. 1165.

في أن أعداد الماعز ـ وهي الماشية المعتادة للفقراء ـ تضاعفت تقريباً بين الأعوام 1846 و1869. (ومن جهة أخرى تضاعفت كذلك حصة الفرد من لحم البقر في المناطق الزراعية، ما يشير إلى اتساع أسواق المواد الغذائية في المدن).

وفي بؤرة المناطق التي شاع فيها العمل القسري، مثل روسيا ورومانيا، حيث استمرت القنانة فترة أطول، ظل الفلاحون طبقة متجانسة إلى حد كبير، (إلا إذا انقسموا في ما بينهم على أسس عِرقية أو قومية). كما كانوا طبقة ساخطة، إن لم تكن مهيأة للثورة. وقد أُرغموا على التزام السكينة جراء العجز المطلق، والقمع العِرقي، وروح التبعية التي خيّمت على من لا أرض له بينهم، كما كانت الحال بين زنوج الأرياف في الجنوب الأمريكي، أو العمال في سهول هنغاريا. ومن ناحية أخرى، فإن الفلاحين التقليديين، وبخاصة عندما اكتمل تنظيمهم الجماعي، غدوا أكثر سطوة. وقد فتح الكساد الكبير عام 1870 الأبواب على مصاريعها أمام التململ الريفي والثورة الفلاحية.

ترى، هل كان بالإمكان تجنب ذلك بشكل آخر من الإعتاق «أكثر رشاداً». ذلك موضع شك. فإننا نجد نتائج مماثلة في مناطق جرت فيها محاولات لخلق الظروف اللازمة لتطور الزراعة الرأسمالية، لا عن طريق إصدار مرسوم شمولي بإلغاء الاقتصاد القائم على القسر، بل بعملية أوسع فرضت فيها قوانين الليبرالية البورجوازية: أي تحويل ملكية الأرض بأكملها إلى ملكيات فردية، وتحويل الأرض إلى سلعة يمكن المتاجرة بها بحرية، شأنها شأن أي شيء آخر. ومن الوجهة النظرية، كانت هذه العملية قد طبقت على نطاق واسع في النصف الأول من القرن التاسع عشر[32]، غير أنها لم تتعزز وتترسخ بالممارسة

---

(32) انظر الفصل الثامن من: Eric John Hobsbawm, The *Age of Revolution: Europe 1789-1848* (London: Weidenfeld and Nicolson 1962).

إلا بانتصار الليبرالية بعد عام 1850. ويعني ذلك، في المقام الأول، تفكيك المنظمات الجماعية القديمة، وتوزيع الأرض المملوكة جماعياً أو مصادرتها، أو استملاك الأرض التي تمتلكها مؤسسات غير اقتصادية مثل الكنيسة. وقد تم ذلك، بصورته الأكثر إثارة وقسوة، في أمريكا اللاتينية، مثل المكسيك في عهد جواريز (Juarez) في الستينيات، وبوليفيا في عهد الديكتاتور ميلغاريجو (Melgarejo) (1866 ـ 1871)، غير أنه حدث على نطاق أوسع في إسبانيا بعد ثورة عام 1854، وفي إيطاليا بعد توحيد البلاد في ظل مؤسسات بيدمونت الليبرالية، وفي كل مكان آخر انتصرت فيه الليبرالية الاقتصادية والقانونية. وقد قطعت الليبرالية أشواطاً متقدمة حتى في ظل حكومات كانت غير مؤهلة لتبنيها في كل الأحوال، فقد اتخذت السلطات الفرنسية بعض الإجراءات لحماية الممتلكات الجماعية لرعاياها المسلمين في الجزائر، مع أن نابليون الثالث (في مجلس الشيوخ عام 1863) رأى أنه من غير المعقول أن تظل حقوق ملكية الأرض الفردية بين أعضاء الجماعات المسلمة غير مقررة رسمياً، «بحسب مقتضى الحال». وكان من نتائج هذا الإجراء الفعلي أن سُمح للأوروبيين بابتياع هذه الممتلكات للمرة الأولى. غير أن تلك الخطوة لم تكن وثيقة للمصادرة الجماعية مثل قانون عام 1873 الذي سمح، (بعد الانتفاضة العظمى عام 1871)، بوضع ممتلكات أهل البلاد الأصليين فوراً تحت مظلة القانون الفرنسي، وهو الإجراء الذي «لم يحقق أي فائدة إلا لرجال الأعمال والمضاربين [الأوروبيين]»[33]. وسواء تم ذلك بمساندة رسمية فرنسية أو لم يتم، فقد خسر المسلمون أراضيهم لصالح المستوطنين البيض أو الشركات العقارية.

لقد أدى الجشع دوره في تلك المصادرات: وجاء ذلك من جانب

(33) Arthur Girault, *Principes de colonisation et de législation coloniale*, 7. éd. (Paris: Librairie du recueil sirey (société anonyme), 1938), pp. 383, et 386.

الحكومات سعياً وراء تحقيق الأرباح من بيع الأرض أو دخل آخر، ومن جانب ملاك الأراضي، والمستوطنين، والمضاربين على الأراضي التي يمكن الحصول عليها بسهولة وبكلفة زهيدة. غير أن من الظلم أن ننكر على هؤلاء المشرعين إخلاصهم في اعتقادهم بأن تحويل الأرض إلى سلعة منقولة بحرية، وتحويل الممتلكات الجماعية أو الكَنَسية، أو الموقوفة، أو أيٍّ من مخلفات الماضي البالية تاريخياً إلى أملاك خاصة، سيمثل وحده أساساً لتنمية زراعية مرضية. إلا أن مثل هذه التنمية لم تتحقق، وعلى الأقل لطبقة الفلاحين التي رفضت بمجموعها أن تحول نفسها إلى طبقة مزدهرة من المزارعين التجاريين حتى عندما سنحت لها الفرصة. (وهي لم تفعل ذلك لأنها لم تستطع الحصول على الأرض المعروضة في السوق، أو حتى فهم الإجراءات القانونية المعقدة الخاصة بالمصادرة). فهذه الإجراءات لم تعزز أوضاع «العِزب الكبيرة» (Latifundivm) بحد ذاتها، فالمصطلح نفسه كان مُبهماً ومغلفاً بهالة من الأساطير السياسية. وهي لم تنفع مزارعي الكفاف، قدامى ومحدثين، ولا القرويين الهامشيين الذين كانوا يعتمدون على الأراضي المشاع، أو على الأرض نفسها في المناطق التي تعرضت الغابات فيها للاجتثاث أو التعرية والتآكل، ولم تعد السيطرة الجماعية تحميها وتنظم استخدامها[34]. وكان الأثر الأساسي الذي خلفته اللبرلة هو زيادة حدة السخط لدى الفلاحين.

والعنصر الجديد في مشاعر السخط هذه هو أنه كان من الممكن حشدها وتعبئتها من جانب اليسار السياسي. والواقع أنها لم تكن معبأة على هذا النحو خارج أجزاء من جنوب أوروبا، ففي صقلية وجنوب

---

(34) يشير رايموند كارّ (Raymond Carr) إلى أنه من إسبانيا في منتصف القرن «كان السؤال الأساسي يبدأ بموضوع مركزي في الأدب المُعبر عن النزعة الإقليمية». انظر: Raymond Carr, *Spain: 1808-1939*, Oxford History of Modern Europe (Oxford: Clarendon Press, 1966), p. 273.

إيطاليا، ربطت الانتفاضات الفلاحية نفسها بغاريبالدي، هذا الأشقر الرائع الذي كان، بقميصه الأحمر، يمثل رمزاً لمحرر الشعب، وكان إيمانه بالمبادئ الديمقراطية الراديكالية، والجمهورية العَلْمانية وحتى «الاشتراكية» الغامضة منسجماً، وإيمان الناس بالقديسين، وبالعذراء، وبالبابا، وبملوك البوربون (خارج صقلية). وفي جنوب إسبانيا كانت النزعة الجمهورية، و«الأممية» (بشكلها الباكونيني) تقطع أشواطاً إلى الأمام: إذ لم تكن ثمة بلدة واحدة في إقليم الأندلس بين الأعوام 1870 و1874 لم تقم فيها «جمعية للعمال»[35]، (وفي فرنسا، بالطبع، كانت النزعة الجمهورية، وهي السمة الغالبة على اليسار، راسخة الجذور في بعض المناطق الريفية بعد عام 1848، وتمتعت، بصيغتها المعتدلة بدعم الأغلبية في بعض تلك المناطق بعد عام 1871). وربما برز يسار ثوري ريفي في أيرلندا مع الفِنْيانيين في ستينيات القرن إلى أن تبلورت جهوده في إنشاء «رابطة الأرض» العظيمة النفوذ في أواخر السبعينيات والثمانينيات.

صحيح أنه كان ثمة عدد وافر من البلدان، حتى في أوروبا - وعملياً خارج تلك القارة - أخفق فيها اليسار، الثوري وغير الثوري، في التأثير بالفلاحين؛ وذلك ما اكتشفه الشعبويون الروس[36] عندما قرروا «الاحتكام إلى الشعب» في ثمانينيات القرن، والواقع أنه مثلما كان اليسار حضرياً وعَلْمانيا أو حتى معادياً نشيطاً للكنيسة[37]، وينظر بازدراء إلى «التخلف» الريفي، ويعزف عن الاهتمام بشؤون الأرياف، فإن الفلاحين أنفسهم كان يساورهم الشك، بل يكنّون العداء لليسار. وكان نجاح الأرياف في أوساط الفوضويين المناوئين للمسيحية في

(35) José Termes Ardévol, *El movimiento obrero en España: La primera Internacional, 1864-1881* (Barcelona: [n. pb.], 1965).

(36) انظر الفصل التاسع من هذا الكتاب.

(37) انظر الفصل الرابع عشر من هذا الكتاب.

إسبانيا أو الجمهوريين في فرنسا أمراً استثنائياً. إلا أن انبعاث الولاء للكنيسة والملك في الأرياف المتمسكة بالتقاليد ضد المدن الليبرالية الملحدة في تلك الفترة أخذ بالانحسار، وفي أوروبا على الأقل. بل إن الحرب الكارلية الثانية في إسبانيا (1872 ـ 1876) كانت أقل انتشاراً من الأولى التي وقعت في ثلاثينيات القرن، وانحصرت تقريباً في أقاليم الباسك. وفيما كان الازدهار في الستينيات وأوائل السبعينيات يفتح الطريق للكساد الزراعي في أواخر السبعينيات وأوائل الثمانينيات، لم يعد من تحصيل الحاصل اعتبار الفلاحين عنصراً محافظاً في النشاط السياسي.

ولكن، ما مدى التمزق الذي أصاب نسيج الحياة في الأرياف جراء ظهور قوى العالم الجديد؟ ليس من السهل الحكم على ذلك من موقعنا المتميز في أواخر القرن العشرين، لأن الحياة الريفية في النصف الثاني من هذا القرن شهدت تحولات عميقة غير مسبوقة في التاريخ البشري منذ اختراع الزراعة. وعندما ننظر إلى الوراء، يتبين لنا أن أساليب حياة الرجال والنساء في الريف في أواسط القرن التاسع عشر كانت متجذرة في تقاليد قديمة تتغير بسرعة لا تتجاوز سرعة السلحفاة، هذا إذا تغيرت على الإطلاق. وذلك أمر خادع ومضلل بالطبع. إلا أن طبيعة هذا التغير وماهيته أمر قد لا نتبيَّنُه الآن إلا لدى الزُرَّاع الجُدد تماماً من أمثال المستوطنين في الغرب الأمريكي، المستعدين لتغيير نوع الزراعة والمحاصيل حسبما يقتضيه تغير الأسعار وتوقعات الربح، والمجهزين بالآلات، والقادرين على شراء منتجات المدينة عبر وسائل مستحدثة مثل كاتالوغات الطلب بالبريد.

بيد أن التغيرات حدثت في الأرياف. فقد مُدَّت خطوط السكة الحديد. وانتشرت، بتواتر متزايد، المدارس الابتدائية التي يجري التعليم فيها باللغة القومية (وهي لغة جديدة ثانية لأغلب أبناء الفلاحين)، وتولِّد، هي والإدارة الوطنية والسياسات الوطنية، حالة من انفصام الشخصية في نفوسهم. وتفيد بعض التقارير أنه، بحلول عام 1875،

اندثرت تقريباً عادة استخدام الألقاب والنعوت التي كان الناس يعرفون ويعرَّفون بها في قراهم في منطقة بْرِيْ الريفية في نورمندي، واختفت حتى الكُنْية المحلية لأسمائهم الأولى، «ويعود ذلك بأكمله إلى مديري المدارس الذين لم يسمحوا للأطفال في مدارسهم باستخدام أي أسماء غير أسمائهم الصحيحة»[38]. وربما لم تكن تلك الأسماء قد اختفت، بل تراجعت، مع اللهجات المحلية، إلى العالم الثقافي السفلي الخاص الذي يعيش فيه غير المتعلمين. ومع ذلك، كان الانقسام بين المتعلمين وغير المتعلمين في الأرياف قوة متنفذة تدفع للتغيير. وفي العالم الشفوي الذي يعيش فيه غير المتعلمين، لم يكن ثمة ضير في أن لا يكون المرء مُلّماً لبعض الوقت بالأحرف الهجائية، أو باللغة القومية، أو بالمؤسسات الوطنية، إلا إذا كان يمارس التجارة (المختلفة كل الاختلاف عن الزراعة) التي تجعل مثل هذه المعرفة أمراً ضرورياً. يضاف إلى ذلك أن الأمي يُعتبر، بحكم التعريف، قاصراً، ولكنّ لدى الرجل أو المرأة دافعاً قوياً للتخلص من هذا القصور، وإن كان ذلك عن طريق أطفال العائلة.

كان من الطبيعي عام 1849 أن تتخذ السياسات الفلاحية في مورافيا شكل إشاعة مفادها أن الزعيم الثوري الهنغاري كوسوث (Kossuth) كان ابناً لـ «إمبراطور الفلاحين» جوزيف الثاني، القريب النسب بالملك سفاتوبلوك، وأنه كان يوشك على غزو البلاد على رأس جيش عرمرم[39]. غير أن النشاط السياسي في الريف التشيكي كان عام 1875 يتم عبر وسائل أكثر تقدماً، فانتابَ الحرج كلَّ من توقع الخلاص الوطني على يد القريب المفترض لـِ «أباطرة الشعب»، القدامى

---

(38) A. Dubuc, «Les Sobriquets dans le pays de Bray en 1875,» *Annales de Normandie* (août 1952), pp. 281-282.

(39) Purš, «Die Entwicklung des Kapitalismus in der Landwirtschaft der böhmischen Lönder in der Zeit von 1849 bis 1879,» p. 40.

والمحدثين. وانحصر هذا النوع من التفكير بصورة متزايدة في البلدان غير المتعلمة التي كان حتى الفلاحون في وسط أوروبا يعتبرونها متخلفة بمقاييس ذلك الزمان، ومن بينها روسيا التي كان الثوريون الشعبويون قد حاولوا ـ وأخفقوا ـ في تنظيم ثورة فلاحية عن طريق «مُطالب شعبي» بعرش القيصر[40].

نسبياً، لم يكن بين سكان الأرياف غير قلة قليلة من المتعلمين خارج أجزاء من أوروبا الغربية والوسطى (وفي مقدمها المناطق البروتستانتية)، وأمريكا الشمالية[41].

ولكن حتى في المناطق المتخلفة والتقليدية، كان ثمة نوعان من

---

(40) Franco Venturi, *Les Intellectuels, le peuple et la révolution: Histoire du populisme russe au XIXe siècle = Il populismo russo*, Bibliothèque des histoires, 2 vols., traduit de l'italien par Viviana Pâques ([Paris]: Gallimard, 1972), vol. 2, pp. 946-948.

وهذا الكتاب، وهو نسخة مبكرة من الترجمة الإنجليزية: Franco Venturi, *Roots of Revolution: A History of the Populist and Socialist Movements in Nineteenth-Century Russia* (London: Weidenfeld & Nicolson, 1960),

يمثل عملاً نموذجياً حول هذه القضية.

(41) يُقال في إسبانيا، إن 75 في المئة من جميع الرجال، و89 في المئة من النساء كانوا أُميين عام 1860. وفي جنوب إيطاليا، شملت الأمية نحو 90 في المئة من جميع السكان. بل إن هذه النسبة تراوحت بين 57 في المئة و59 في المئة (1865) في الأقاليم المتقدمة مثل لومباردي وبيدمونت، وفي دلماسيا 99 في المئة في أوساط المجندين (نحو عام 1870). وبالمقابل كان 80 في المئة من الرجال و67 في المئة من النساء في الريف الفرنسي متعلمين عام 1876. وبلغت نسبة المتعلمين بين المجندين في الأراضي الواطئة 84 في المئة، وبين 89 و90 في المئة في إقليمي هولندا وغرونينجن. وحتى في بلد تدنّى فيه التحصيل العلمي مثل بلجيكا، كان أكثر من 65 في المئة من المجندين قادرين على القراءة والكتابة (1869). ولا شك في أن مقاييس التعلم المطبقة هنا كانت شديدة التواضع. انظر: M. Fleury et P. Valmary, «Les Progrès de l'instruction élémentaire de Louis XIV à Napoléon III d'après l'enquête de Louis Maggiolo (1877-1879),» *Population*, vol. 12 (1957), pp. 69 ff, et Emile de Laveleye, *L'Instruction du peuple* (Paris: Hachette, 1872), pp. 174, 188, 196, 227-228 et 481.

أهالي الريف الذين كانوا يمثلون العماد الرئيسي للتقاليد القديمة: الشيوخ والنساء، اللواتي رَوَيْنَ «حكايات الزوجات» القديمة من جيل إلى جيل، وأحياناً لمصلحة رجال المدينة، ولجامعي المأثورات والأغاني الشعبية. ومن المفارقات في تلك الفترة أن التغير غالباً ما كان يلحق بالريف بمبادرة من النساء. وازداد مستوى التعلم بين الفتيات الريفيات على مستواه بين الصبيان، كما هي الحال في إنجلترا. ويبدو أن ذلك حدث في خمسينيات القرن. ومن المؤكد أن النساء في الولايات المتحدة هنَّ اللواتي تميزن بأنماط السلوك المتمدين المتحضر ـ مثل: مطالعة الكتب، والعناية الصحية، والبيوت «اللطيفة»، وتأثيث المنزل على غرار ما كان في المدن، والسلوك الوقور ـ مقابل تصرفات الرجال الأجلاف السكيرين العنيفين؛ وذلك ما اكتشفه هَكِلْبَري فِنْ، 1884، [بطل الرواية التي تحمل هذا العنوان لمارك توين] بعد أن دفع ثمناً غالياً لذلك. وكانت النساء لا الرجال في أغلب الأحيان يدفعن الأبناء إلى «تحسين أوضاعهم». بيد أن العامل الأكثر نفوذاً في عملية «التحديث» هذه كان هجرة الفتيات الفلاحات ودخولهن مجال الخدمة المنزلية لدى الطبقات الوسطى والشرائح الدنيا من الطبقة الوسطى في المراكز الحضرية. بل إن عملية الاقتلاع الكبيرة تلك، بالنسبة للرجال والنساء على السواء، كانت، لا محالة، عملية تقويض للأساليب القديمة وتعلم الطرائق الحديثة. وذلك هو ما سنلتفت إليه الآن.



الفصل الحادي عشر

حراك الناس

سألناها أين زوجها.

«إنه في أمريكا».

«وماذا يفعل هناك؟»

«إنه يشغل منصب قيصر».

«ولكن كيف يستطيع يهودي أن يكون قيصرَ؟»

قالت: «كل شيء ممكن في أمريكا».

شولم أليشيم[1]، عام 1900 أو نحوه.

قيل لي إن الأيرلنديين بدأوا في كل مكان يحلون محل الزنوج في خدمة المنازل... أما هنا، فتلك هي القاعدة العامة؛ فليس ثمة خادم غير أيرلندي في أي مكان.

آ. هـ. كلوغ إلى توماس كارلايل، بوسطن، 1853[2].

---

(1) [Scholem Alejchem, *Aus den nahen Osten* (Berlin: [n. pb.], 1922)].

(2) Arthur Hugh Clough, *The Correspondence of Arthur Hugh Clough*, 2 vols., Edited by Frederick L. Mulhauser (Oxford: Clarendon Press, 1957), vol. 2, p. 396.

I

تُشير أواسط القرن التاسع عشر إلى بداية أضخم هجرة للشعوب في التاريخ. ومن الصعب تحديد تفصيلاتها بدقة؛ لأن الإحصاءات الرسمية، كما كانت آنذاك، لا تغطي، بشكل كامل، كل تحركات الرجال والنساء داخل البلد الواحد، ناهيك عن انتقالهم من دولة إلى أخرى: ومن ذلك الهجرة الجماعية من الريف إلى المدينة، والهجرة بين الأقاليم وبين مدينة وأخرى، وعبور المحيطات واختراق المناطق الحدودية، وتدفق الرجال والنساء المتنقلين جيئة وذهاباً عبر مسالك صعبة التحديد. ومع ذلك، يمكننا أن نوثق تقريباً شكلاً مثيراً من أشكال الهجرة، ففي الفترة الواقعة بين الأعوام 1846 و1876، ارتحل من أوروبا ما ينوف على تسعة ملايين نسمة، توجه معظمهم إلى الولايات المتحدة[3]. ويعادل ذلك أربعة أضعاف سكان لندن عام 1851. أما في نصف القرن المنصرم، فلم يكن عدد المهاجرين الإجمالي يزيد على مليون ونصف المليون نسمة.

تسير التحركات السكانية والتصنيع جنباً إلى جنب، لأن التنمية الاقتصادية الحديثة في العالم استلزمت انتقال الناس بأحجام ضخمة، ويسرت ذلك، تقنياً، وبكلفة قليلة جراء الاتصالات الجديدة المحسنة، كما أنها مكنت العالم من استيعاب المزيد من التكاثر السكاني. ولم يكن الاقتلاع الجماعي في تلك الفترة أمراً غير متوقع ولا تطوراً غير مسبوق بمقدمات تمهيدية متواضعة؛ فقد كان من الممكن التكهن بوقوعه في الثلاثينيات والأربعينيات من ذلك القرن[4]، غير أن ما كان آنذاك سيلاً

---

(3) *International Migrations,* Publications of the National Bureau of Economic Research, Incorporated; no. 14 (New-York: National Bureau of Economic Research, 1929), vol. I: *Statistics*, Compiled... with Introduction and Notes by Imre Ferenczi and Edited... by Walter F. Willcox.

(4) انظر الفصل العاشر من: Eric John Hobsbawm, *The Age of Revolution: Europe 1789-1848* (London: Weidenfeld and Nicolson, 1962).

متدفقاً تحول بعد ذلك إلى تيار هادر، فقبل عام 1845 لم يكن يصل إلى الولايات المتحدة أكثر من مئة ألف مسافر في السنة. غير أن المعدل السنوي لمن غادروا أوروبا في الفترة بين عامي 1846 و1850 ارتفع إلى أكثر من ربع مليون مسافر، وزاد هذا المعدل في السنوات الخمس اللاحقة إلى 350,000؛ ووصل إلى الولايات المتحدة عام 1854 ما لا يقل عن 428,000. وعلى الرغم من تقلب المعدلات تبعاً للأوضاع الاقتصادية في مواطن المهاجرين أو البلدان المستقبلة لهم، فقد ظلت هذه الأعداد في تصاعد مطرد، وعلى نطاق أوسع بكثير مما كان في الماضي.

غير أن موجات الهجرة تلك، على ضخامتها، كانت ذات طابع جغرافي، فإذا وضعنا جانباً مخلفات تجارة الرقيق (التي كانت عندئذ قد ألغيت، وغدا الأسطول البريطاني يمسك بخناقها بالفعل)، فإن الأغلبية العظمى من المهاجرين كانت من الأوروبيين، وبعبارة أدق من غرب أوروبا وألمانيا في تلك الفترة. وكان الصينيون، بالتأكيد، قد بدأوا يتحركون صوب التخوم الشمالية والوسطى لإمبراطوريتهم بعيداً عن الموطن الأصلي لشعب الهان، ومن المناطق الساحلية الجنوبية إلى شبه الجزر والجزر الواقعة في الجنوب الشرقي من آسيا، بأعداد لا يمكن تحديدها. وربما كانت الأعداد متواضعة، ووصلت عام 1871 إلى 120,000 في مستوطنات المضائق (الملايو)[5]. أما الهنود فبدأوا بالهجرة بعد عام 1852 بأعداد معتدلة إلى بورما المجاورة. وقد أسهم انتقال العمال «المتعاقدين» الوافدين من الهند والصين، حيث لم يكونوا أفضل حالاً، في ملء الفراغ الذي خلفه حظر تجارة الرقيق. وبين عامي 1853 و1874، وصل إلى كوبا 125,000 صيني[6]. وخلقوا بذلك مواطن

(5) Ta Chen, *Chinese Migrations, with Special Reference to Labor Conditions* (Washington: Government Printing Office, 1923), p. 82.

(6) S. W. Mintz, «Cuba: Terre et esclaves,» *Etudes rurales*, vol. 48 (1972), p. 143.

الشتات الهندية في غيانا وترينيداد، وفي جزر المحيط الهندي، والمحيط الهادي، والمستوطنات الصينية الأصغر في كوبا، وبيرو، وجزر الكاريبي البريطانية. واستهوت المغامرة الرواد الصينيين الذين اجتذبت بعضهم مناطق المحيط الهادي الأمريكية، ما وفر للصحافيين المحليين النكات عن الغسالين، والطباخين (الذين اخترعوا المطعم الصيني خلال هجمة الذهب[7])، وأمد الدهماء المحليين أيضاً خلال فترات الكساد بشعارات تنضح بالتمييز العنصري العرقي تجاه الوافدين. وكان البحارة المستخدمون من جزر الهند الشرقية يسيرون أساطيل العالم التجارية المتزايدة الحجم، فخلفوا وراءهم أقليات صغيرة من السكان الملونين في الموانئ العالمية الكبرى. وقد أدى استخدام الجنود من المستعمرات، وبخاصة من جانب الفرنسيين الذين كانوا يأملون في مضاهاة التفوق الديمغرافي الألماني (وهو موضوع كان مداراً لمناقشات حامية في الستينيات)، إلى استقدام آخرين للمرة الأولى إلى البيئة الأوروبية[8].

انحصرت الهجرة العابرة للقارات بين الأوروبيين في بلدان قليلة نسبياً، وبخاصة من بريطانيا في تلك الفترة، ثم أيرلندا، وألمانيا، تليها، منذ ستينيات القرن، النرويج والسويد. وكانت أعداد المهاجرين القليلة من البلدين الأخيرين تخفي الضخامة النسبية للنزيف السكاني فيهما. أما الدانماركيون، فلم يصل مستوى المهاجرين منهم إلى هذا الحد. وهكذا أرسلت النرويج ثلثي الزيادة السكانية فيها إلى الولايات المتحدة، ولم يتفوق عليها إلا الأيرلنديون العاثرو الحظ الذين أرسلوا إلى

(7) تقول مجلة **بانكرز ماغازين** (*Bankers Magazine*) الصادرة في بوسطن: «إن أفضل المطاعم في المنطقة يمتلكها المغامرون الوافدون من (الأرض الوردية) [الصين]». انظر: *The Bankers' Magazine*, vol. V (1850-1851), p. 12.

(8) كانت الأغلبية العظمى من الجنود الذين جندهم البريطانيون من أهل البلاد الأصليين خلال تلك الفترة هم من الهند للعمل فيها أو في المناطق القريبة الواقعة في نطاق مكاتب الحكومة البريطانية في الهند لا في لندن.

خارج البلاد أكثر من كل معدلات الزيادة بينهم: فقد كانت بلادهم تخسر السكان بصورة مطردة كل عقد، منذ المجاعة الكبرى التي داهمتهم عام 1846/ 1847. ومع أن البريطانيين والألمان لم يرسلوا إلى الخارج أكثر من 10 في المئة من الزيادة السكانية الصافية بينهم، فإن هذه النسبة، بالأرقام المطلقة، تمثل جمهرة عريضة جداً من المهاجرين، ففي الفترة الواقعة بين الأعوام 1851 و1880، غادر الجزر البريطانية نحو 5,3 مليون شخص (بينهم 3,5 مليون مهاجر إلى الولايات المتحدة، ومليون واحد إلى أستراليا، ونصف مليون إلى كندا) ـ ويمثل ذلك أعظم موجة من المهاجرين عبرت المحيط في العالم.

كان الإيطاليون الجنوبيون، والصقليون، الذين تدفقوا فيما بعد على المدن الكبرى في الأمريكتين، بالكاد قد بدأوا التململ والزحف خارج قراهم الرثة. أما الأوروبيون الشرقيون، والكاثوليك أو الأرثوذوكس، فقد آثر أكثرهم البقاء في مواطنهم، فيما واصل اليهود تسربهم بل تدفقهم نحو البلدات الإقليمية التي كانوا قد حُرموا منها حتى ذلك الحين، ومن ثم أخذوا يتحولون إلى مدن كبرى[9]. وكان الفلاحون الروس بالكاد قد بدأوا بالهجرة إلى فضاءات سيبيريا الشاسعة قبل عام 1880، مع أنهم تحركوا بأعداد ضخمة إلى سهوب روسيا الأوروبية التي استوطنوها بصورة كلية تقريباً بحلول الثمانينيات من القرن التاسع عشر. أما البولنديون، فلم يبدأوا الاستيطان في مناجم نهر الرور قبل عام 1890، مع أن التشيكيين كانوا يتحركون جنوباً باتجاه فيينا. وبالنسبة للسلافيين، واليهود، والإيطاليين، بدأت فترة الهجرة الضخمة إلى الأمريكتين في الثمانينيات. وعلى العموم، تولت الجزر البريطانية، وألمانيا، واسكندنافيا تزويد هذه المناطق بالمهاجرين العالميين، باستثناء الأقليات المترحلة، مثل: الغاليقيين والباسك الذين انتشروا في أرجاء العالم الإسباني.

---

(9) لم يسمح لليهود بالاستيطان في البلدات الهنغارية إلا عام 1840.

كانت أغلبية المهاجرين، شأنهم شأن أغلبية الأوروبيين، من الريفيين، إذ كان القرن التاسع عشر آلة عملاقة اقتلعت أهل الريف من جذورهم، فتوجه أكثرهم إلى المدن أو، في كل الأحوال، بعيداً عن سُبل العيش الريفية التقليدية، ليجدوا طريقهم، قدر المستطاع، إلى عوالم جديدة غريبة، مفزعة، ولكنها في أفضل حالاتها حافلة بآمال لا حدود لها، في مدن قيل لهم إن شوارعها مرصوفة بالذهب، مع أن المهاجرين قلما حصلوا على بعض القطع النحاسية. ومن الخطأ القول إن تيارات الهجرة والتحضر كانت متماثلة ومتطابقة. صحيح أن جماعات قليلة من المهاجرين، وفي مقدمهم الألمان والاسكندنافيون، الذين ذهبوا إلى منطقة البحيرات الكبرى في الولايات المتحدة، أو الاسكوتلنديون الذين استوطنوا كندا قبل ذلك، قد استبدلت بيئة زراعية فقيرة بأخرى أفضل منها: إذ إن 10 في المئة فحسب من المهاجرين الأجانب إلى الولايات المتحدة في ثمانينيات القرن كانون يعملون بالزراعة. لا بوصفهم مزارعين في أكثر الحالات. وربما كان السبب، على حد زعم أحد المراقبين، هو أن «ابتياع مزرعة وتجهيزها يستلزمان توفر رأس المال»[10]، فقد كانت كلفة المعدات وحدها 900 دولار في أوائل السبعينيات من القرن التاسع عشر.

وإذا كانت إعادة توزيع أهالي الأرياف على وجه المعمورة مدعاة للاهتمام، فإنها كانت أقل إثارة من هجرتهم الجماعية من عالم الزراعة. لقد تلازمت عمليتا الهجرة والتحضر وسادتا جنباً إلى جنب، وكانت أبرز البلدان التي ارتبطت بِهاتين المسيرتين في النصف الثاني من القرن التاسع عشر (وهي الولايات المتحدة، وأستراليا، والأرجنتين) تشهد زحفاً حضرياً مركزاً غير مسبوق إلا في بريطانيا والأجزاء الصناعية من ألمانيا. (عام 1890، كانت المدن العشرون الأضخم في العالم الغربي تضم

---

(10) Richmond Mayo-Smith, *Emigration and Immigration: A Study in Social Science* (New York: C. Scribner's Sons, 1890).

خمساً في الأمريكتين، وواحدة في أستراليا) وكان الرجال والنساء يتوجهون إلى المدن، مع أنهم ربما (وفي بريطانيا بالتأكيد) كانوا يتحركون من مدن أخرى بصورة متزايدة.

ولم يكن تحركهم داخل البلد الواحد يثير أي مشكلات جديدة من حيث الطابع والأسلوب، فهم لم يذهبوا بعيداً، في أغلب الأحيان، وإذا فعلوا ذلك، فإنهم سلكوا في الطريق من مناطقهم إلى المدينة دروباً طالما طرقها أقاربهم وجيرانهم، على نحو ما كان يفعله الباعة المتجولون وعمال البناء الموسميون الذين دأبوا على الوفود إلى باريس، وتزايدت أعدادهم مع انتعاش الحركة العمرانية من وسط فرنسا إلى أن تحولوا، بعد عام 1870، من مهاجرين موسميين إلى مقيمين[11]. وقد فتحت التقانة، في بعض الأحيان، طرقاً جديدة، مثل خط السكة الحديد الذي نقل البريتونيين إلى باريس، لتتبدد آمالهم (كما يقول المثل) على أبواب محطة مونبارناس، وليزودوا مواخير المدينة بساكنيها المعهودين. وحلت البنات البريتونيات محل القادمات من اللورين، بوصفهن المومسات الأكثر شهرة.

انخرطت النساء المهاجرات داخل كل بلد في الخدمة المنزلية في المقام الأول، إلى أن أتيح للواحدة منهن فرصة الاقتران بريفيٍّ مثلها، أو تحولت إلى مهنة حضرية أخرى. ولم تكن هجرة الأسر، أو حتى الأزواج وزوجاتهم، أمراً شائعاً. وتابع الرجال في المدينة المهن التقليدية التيمارسوها في الريف ـ إذ عمل أهالي كارديغانشير في إنتاج اللبن والزبدة أينما ذهبوا، والمهاجرون من أوفيرنياه في بيع الوقود، أو إذا كانوا من المهرة، حرفهم القديمة، أو دخلوا، إذا كانوا طموحين، مجال التجارة على نطاق ضيق، وبخاصة في المأكولات والمشروبات. وفي ما

(11) M. - A. Caron, «Prélude à l'éxode rural en France: Les Migrations anciennes des travailleurs creusois,» *Revue d'histoire économique et sociale*, vol. 43 (1965), p. 320.

عدا هذا المجالات وجدوا فرصاً للعمل أساساً في أشهر مهنتين لا تتطلبان أي مهارات خاصة لا يعرفها الريفيون، وهما البناء والنقل، فعام 1885 في برلين، كان 81 في المئة من الرجال العاملين في مجال التموين، و83,5 في المئة في أعمال البناء، وأكثر من 85 في المئة في مجال النقل قد ولدوا خارج المدينة[12]. وإذا كان هؤلاء من القلة التي توفرت لها الفرصة في أعمال يدوية تتطلب مهارة خاصة، إلا إذا تدربوا في موطنهم الأصلي على حرف مُعينة، فإن من المحتمل أن يكونوا أوفر حظاً من الشريحة الأفقر بين مواليد المدينة. وربما كانت فرصة تعاطي الأعمال الرثة المنهكة الزهيدة الأجر في جيوب الفقر من نصيب أبناء المدينة الأصليين لا المهاجرين. وفي تلك الفترة لم يكن الإنتاج في المصانع قد بلغ درجة تستحق الذكر في أغلب المدن الرئيسية الكبيرة.

كان أكثر هذا الإنتاج الصناعي، بالمعنى الدقيق للمصطلح، يجري في المدن المتوسطة الحجم، والمتنامية بسرعة في الوقت نفسه ـ أو حتى في القرى والبلدات الصغيرة، وبخاصة في صناعة التعدين، وأنواع من صناعة النسيج. ولم يكن ثمة طلب مماثل على النساء في هذه المجالات، باستثناء النسيج. أما الأعمال المعروضة على الرجال فكانت، بحكم التعريف، غير ماهرة وزهيدة الأجر.

لقد طرحت الهجرة عبر الحدود والمحيطات مشكلات أكثر تعقيداً، لا لأنها كانت، في أكثر الأحيان، تمثل دخول المهاجر إلى بلد لا يفهم لغته، مع أنها، في تلك الفترة، لم تكن هي المشكلة الأولى. والواقع أن أغلب المهاجرين الذين غادروا الجزر البريطانية، لم يعانوا من أي مشكلات ذات بال في ما يتصل باللغة، بينما صادفتها أعداد كبيرة

---

(12) Adna Ferrin Weber, *The Growth of Cities in the Nineteenth Century* (New York: Pub. for University Columbia by the Macmillan Company, 1899), p. 374.

من المهاجرين داخل المنطقة الواحدة، مثل الإمبراطوريات المتعددة القوميات في المناطق الوسطى والشرقية من أوروبا، فإذا وضعنا مسألة اللغة جانباً، فإن الهجرة أثارت بلا ريب قضية الجهة التي ينتمي إليها الرجل أو المرأة بصورة حادة[13]. فإذا أقام المرء في البلد الجديد، فهل يتعين عليه أن يقطع صلاته بالبلد القديم؟ وإذا كان الأمر كذلك، فهل يرغب المرء في قطع تلك الصلات؟ ولم يثر مثل هذا السؤال في نفوس من استوطنوا المستعمرات التابعة لدولهم، الذين كان بوسعهم أن يظلوا إنجليزاً أو فرنسيين في نيوزيلندا أو الجزائر، ويعتبرون البلد القديم هو «الوطن». لكن السؤال أثير بشكل حاد في الولايات المتحدة التي رحبت بالمهاجرين، غير أنها فرضت عليهم ضغوطاً ليتحولوا، بأسرع وقت ممكن، إلى مواطنين أمريكيين ناطقين بالإنجليزية لأن المواطن العاقل هو من يريد أن يغدو أمريكياً. وذلك، في الواقع، هو ما فعله أكثر المهاجرين.

إن تغيّر الجنسية لم يكن، بطبيعة الحال، يعني الطلاق مع الموطن القديم. لقد كان الأمر على العكس من ذلك، فالمهاجر العادي الذي وجد نفسه مع أمثاله في بيئة جديدة غريبة استقبلته ببرود كان يرتد بصورة طبيعية إلى الوضع الإنساني الوحيد المألوف الذي يمكن أن يستمد منه العون، وهو رفقة أبناء بلده الأصلي. إن الرُّهاب المتوجس إزاء «النكرات الجهلة» كان هو رد الفعل الأمريكي الأصيل تجاه تدفق الأيرلنديين الجياع في خمسينيات القرن التاسع عشر. إن الـ «أمريكا» التي لقنت المهاجر العبارات الأولى التي تعلمها باللغة الإنجليزية، «أسمع الصفارة. وعليّ أن أنطلق»[14] لم تكن مجتمعاً، بل مجرد وسيلة لكسب

(13) انظر الفصل الخامس من هذا الكتاب.

(14) وردت هذه العبارة في كتيب أصدرته مؤسسة إنترناشونال هارفستر كوربوريشن (International Harvester Corporation) لتعليم الإنجليزية للعمال البولنديين. وتقول الجمل اللاحقة في «الدرس الأول»:

أسمع صفارة الدقائق الخمس.

=

المال. وبصرف النظر عن درجة حماسة الجيل الأول من المهاجرين لتعلم طرائق الحياة الجديدة، فإنهم عاشوا في «غيتّو» فرضوه على أنفسهم، واستمدوا الدعم من أساليبهم القديمة، ومن ناسِهِم، ومن ذكريات البلد القديم الذي تركوه بسرعة خلفهم. وقد حافظ الأيرلنديون ذوو العيون الباسمة على أصالتهم عندما تحولوا من جوالين بوهيميين إلى رواد في إقامة متاجر الموسيقى الشعبية الحديثة في مدن الولايات المتحدة. كذلك كان حال المولين اليهود الأثرياء في نيويورك، مثل عائلات غوغنغهايم، كوهْن، سيلينغمان وليهان، الذين جمعوا كل ما يمكن شراؤه بالمال في الولايات المتحدة، وهو كل شيء تقريباً، فهم لم يكونوا أمريكيين بالطريقة نفسها التي كانت عائلة يرتهايمشتين في يينا تعتبر نفسها نمساوية، أو عائلة بليخرويدر في برلين بروسية، أو حتى عائلة روتشيلد في لندن وباريس إنجليزية وفرنسية. لقد ظلوا ألماناً وأمريكيين في آن معاً. وتحدثوا، وكتبوا، وفكروا بالألمانية، وغالباً ما أرسلوا

= لقد حان الوقت لأهرع لدخول المتجر.
إنني ألتقط بطاقة الدخول من لوحة البوابة.
وأُعلقها على لوحة المتجر الداخلية.
أغير ملابسي وأستعد للعمل.
تنطلق صفارة البدء.
أتناول غدائي.
من المحظور تناول الطعام حتى ذلك الوقت.
تنطلق الصفارة قبل خمس دقائق من بدء العمل.
إنني أُجهز نفسي للعمل.
أعمل إلى أن تنطلق الصفارة للمغادرة.
أترك مكاني مُرتباً ونظيفاً.
وعلي أن أتوجه إلى البيت.

انظر: Herbert Gutman, «Work, Culture and Society in Industrializing America, 1815-1819,» *American Historical Review*, vol. 78, no. 3 (June 1973), p. 533.

أطفالهم للتعلم في بلادهم الأصلية، وانضموا للجمعيات الألمانية وساندوها[15].

غير أن الهجرة انطوت على مصاعب مادية أكثر أهمية، فقد كان على المهاجر أن يكتشف أين سيذهب، وماذا سيفعل إذا وصل إلى هناك كان عليه أن يصل إلى مينيسوتا من إحدى المخاضات النرويجية النائية، وإلى مقاطعة غرين ليك في ويسكونسن من بوميرانيا أو براندنبيرغ، وإلى شيكاغو من إحدى القرى في كيري. ولم يكن من الصعب تذليل مشكلة الكلفة، على الرغم من أن أوضاع المسافرين على متن السفن بأجرة رخيصة، ولا سيما في السنوات التي أعقبت المجاعة في أيرلندا، كانت مفزعة وسيئة السمعة، إن لم تكن قاتلة بالفعل، فعام 1885، كانت كلفة نقل المهاجر من هامبورغ إلى نيويورك سبعة دولارات. (وكانت الخطوط البحرية من ساوثهامتون إلى سنغافورا، التي توفر خدمة تجارية أرقى، قد انخفضت من 110 جنيهات إنجليزية في الخمسينيات إلى 68 جنيهاً في الثمانينيات[16]. وكانت أجور النقل منخفضة، لا لأنه كان يُعتقد أن المسافرين من الطبقات الدنيا سيطلبون، أو يستحقون سكناً أفضل مما يعطى للأغنام، و من ثم سيحتلون حيزاً أقل على متن السفينة. ولا بسبب التحسينات التي طرأت على الاتصالات، ولكن جراء أسباب اقتصادية، فقد كان المهاجرون المسافرون يعاملون معاملة حمولات شحن. وفي ما يختص بأغلب الناس، كانت كلفة الرحلة حتى النزول في موانئ الهار، وبريمين، وهامبورغ، والمرفأ الأكثر أهمية في ليفربول، أقل بكثير من كلفة العبور الفعلية.

---

(15) Barry E. Supple, «A Business Elite: German-Jewish Financiers in Nineteenth Century New York,» *Business History Review*, vol. XXXI (1957), pp. 143-178.

(16) Mayo-Smith, *Emigration and Immigration: A Study in Social Science*, p. 47, and C. M. Turnbull, «The European Mercantile Community in Singapore, 1819-1867,» *Journal of South East Asian History*, vol. X, no. 1 (1969), p. 33.

ومع ذلك، فإن هذه الكلفة لم تكن في متناول الكثير من الفقراء المدقعين، على الرغم من أنه كان من الممكن ادخار هذا المبلغ بسهولة وإعادته من أمريكا أو أستراليا، لما تدفعانه من أجور عالية، إلى الأقارب في الوطن الأصلي. والحقيقة أن هذه الدفعات كانت تشكل جانباً كبيراً من التحويلات الضخمة التي كان المهاجرون يرسلونها من الخارج. وكان هؤلاء ميالين إلى الادخار لأنهم لم يعتادوا بعد على الإنفاق العالي الشائع في بلدانهم الجديدة. وقد أرسل الأيرلنديون وحدهم ما بين مليون ومليون وسبعمئة ألف جنية سنوياً إلى بلدهم الأصلي في أوائل الخمسينيات من ذلك القرن[17]. وفي الحالات التي لم يستطع فيها الأقارب استلام هذه الدفعات، غدا من مصلحة تشكيلة واسعة من الوسطاء والمقاولين تقديم مثل هذه الخدمات. وقد ازدهرت أحوال هؤلاء بسبب الفجوة القائمة بين الطلب المتزايد على العمالة (أو الأرض)[18] من ناحية، وجهل السكان بظروف البلد المستلِم من جهة أخرى.

مثل هؤلاء الرجال كانوا يجنون أرباحهم بتسليم تلك القطعان الآدمية إلى شركات الشحن الحريصة على ملء السفن، وإلى السلطات العامة وشركات القطارات المهتمة بإعمار أراضيها الفارغة، وإلى أصحاب المناجم، وشركات الحديد وغيرهم من أرباب العمل الساعين إلى استقدام الأيدي العاملة. ومقابل ذلك، كان هؤلاء الوسطاء يتقاضون أتعابهم، علاوة على المبالغ الزهيدة التي يدفعها رجال ونساء لا حول لهم ولا قوة، ممن يجدون أنفسهم مضطرين إلى الارتحال عبر نصف

---

(17) *International Migrations,* vol. 2, p. 270 n.

(18) من هنا، كان بوسع حداد ألماني في برنستون، ويسكونسن أن يشتري أراضي زراعية، ويبيعها، بموجب اعتماد مالي، لمواطنيه المهاجرين. انظر: K. E. Levi, «Geographical Origin of German Immigration to Wisconsin,» *Collections of the State Historical Society of Wisconsin*, vol. XIV (1898), p. 354.

القارة الغربية قبل أن تقلهم السفن لعبور الأطلسي: من وسط أوروبا إلى الهار، أو عبر بحر الشمال من خلال وديان بنين إلى ليفربول. ويمكننا أن نفترض أن الوسطاء غالباً ما استغلوا الجهل والعجز، مع أن النهايات القصوى لقوة العمل التعاقدية وسخرة الدّيْن ربما لم تكن شائعة في تلك الفترة، إلا بين الهنود والصينيين الذين تم شحنهم إلى الخارج بعد أن سحبوا من عملهم في المزارع الكبرى. (ولا يعني ذلك أنه لم تكن ثمة أعداد غفيرة من الأيرلنديين الذين دفعوا مالاً لا ضرورة له لـ «أصدقاء» من البلد الأصلي ليحظوا بإيجاد عمل لهم في العالم الجديد). وعلى العموم، لم يكن مقاولو الهجرة يخضعون لأي رقابة، باستثناء بعض الإشراف على شروط الشحن البحري في أعقاب الأوبئة المرعبة في أواخر أربعينيات القرن التاسع عشر. لقد تمتعوا بدعم الرأي العام في أوساط ذوي النفوذ. وكانت البورجوازية في أواسط القرن ما زالت تعتقد أن قارّتها الأوروبية كانت تعاني الازدحام والاكتظاظ بالفقراء، وكلما ازداد عدد من يشحنون إلى الخارج من هؤلاء، كان ذلك أفضل لهم (لأن ذلك سيؤدي إلى التحسن في أوضاعهم المعيشية) ولمن يخلفونهم وراءهم (لأن سوق العمل ستخفف مما تعانيه من المزاحمة). وراحت الجمعيات الخيرية، وحتى النقابات العمالية، تدعم هجرة أعضائها والمنتسبين إليها على اعتبار أن ذلك هو الوسيلة العملية الوحيدة لمعاجلة العوز والبطالة. ويبدو أن هذه الأطراف وجدت مبرراً لذلك في أن الدول الأسرع تصنيعاً في تلك الفترة كانت هي المصدّر الأكبر للمهاجرين.

كانت هذه الحجة، وما زالت حتى الآن، مجانبة للصواب. لقد كان بوسع اقتصادات البلدان المُرْسِلة على العموم أن تحقق من توظيف مواردها البشرية نفعاً أكثر مما ستجنيه من طردها. وفي الاتجاه المعاكس، حققت اقتصادات العالم الجديد فوائد لا حصر لها جراء الهجرة الجماعية من العالم القديم. وكذلك فعل المهاجرون أنفسهم بالطبع. ويبدو أن مرحلة الفقر الأسوأ الذي عاناه هؤلاء لم تحدث إلا بعد نهاية فترتنا تلك.

تُرى، لِمَ كان الناس يهاجرون؟ إن الأسباب كانت، في الأغلبية الساحقة من الحالات، اقتصادية؛ أي أنهم كانوا فقراء، فعلى الرغم من حملات الاضطهاد السياسي بعد عام 1848، فإن المهاجرين لاعتبارات سياسية وأيديولوجية لم يشكلوا إلا جانباً بسيطاً من الهجرة الجماعية، حتى بين الأعوام 1849 و1854، مع أن المهاجرين الراديكاليين كانوا في وقت من الأوقات يسيطرون على نصف الصحف الألمانية الصادرة في الولايات المتحدة. وقد استخدموا تلك الصحف للتنديد بالبلد الذي لجأوا إليه[19]. وسرعان ما استقرت قواعدهم في الخارج، وسخّرت طاقاتها الثورية في الحملات المعادية للرق. ومن المحتمل أن هجرة أتباع الطوائف الدينية سعياً وراء مزيد من الحرية لممارسة أنشطتهم الغريبة إلى حد ما، كانت أقل أهمية مما كانت عليه في نصف القرن السابق؛ ذلك أن حكومات العهد الفيكتوري لم تقف موقفاً مُتشدّداً ممن يجنحون عن الصراط الديني المُتعارف عليه، بل ربما أثلج صدرها رحيل المورمون البريطانيين أو الدانماركيين الذين كان وَلَعُهم بتعدد الزيجات مثاراً للقلق. وحتى في أوروبا الشرقية، فإن الحملات المعادية للسامية التي أدت إلى هجرة اليهود الجماعية، لم تكن لتحدث إلا في مرحلة مُقبلة.

وهل كان الناس يهاجرون هرباً من سوء الأوضاع في بلدانهم الأصلية أم بحثاً عن حياة أفضل في الخارج؟ لقد كان هذا السؤال موضعاً لمساجلات طويلة عقيمة. ولا شك في أن الفقراء كانوا أميل إلى الهجرة من الأغنياء، وأنهم لم يكونوا ليهاجرون لو لم تضق بهم أو تُسَدَّ في وجوههم سُبل العيش التقليدية. فقد كان الحرفيون في النرويج أكثر استعداداً للهجرة من عمال المصانع؛ وهاجر البحارة في ما بعد عندما حلت السفن البخارية مكان الشراعية، والسماكون عندما استعيض عن المراكب الشراعية بالعاملة بالنفط. وبالمثل، فإنه لا شك أنه كانت ثمة

(19) Carl Wittke, *We who Built America; the Saga of the Immigrant* (New York: Prentice-Hall, 1939), p. 193.

حاجة في تلك الفترة إلى قوة استقطابية تدفع المهاجرين إلى ارتياد المجهول، في الوقت الذي كانت فيه فكرة اقتلاع الجذور القديمة مستهجنة أو مفزعة لدى أغلب الناس. وقد أعرب عامل زراعي من «كِنت» في رسالة بعث بها من نيوزيلندا عن شكره لأصحاب المزارع الذين طردوه من العمل بعد إغلاق نقابة العمال، لأنه غدا الآن أفضل حالاً: فهو، لولا ذلك، لم يكن ليفكر بالرحيل.

على الرغم من ذلك كله، وبينما أصبحت الهجرة الجماعية جزءاً من تجربة الناس العاديين، وبات لكل طفل في مقاطعة كلدير ابن عم أو عم أو أخ في أستراليا أو الولايات المتحدة، فإن الاقتلاع غدا خياراً شائعاً ـ وليس من المتعذر إلغاؤه بالضرورة ـ أي خياراً قائماً على استقراء ما يحمله المستقبل لا أمراً حكم به القدر. وكانت الهجرة تتعاظم كلما وردت أنباء عن اكتشاف بعض الذهب في أستراليا، أو عن توفر فرص العمل مع ارتفاع الأجور في الولايات المتحدة. وفي الاتجاه المعاكس، شهدت الهجرة هبوطاً عمودياً لسنوات عدة بعد عام 1873، مع الكساد الاقتصادي الحاد في أمريكا. ومع ذلك، فإنه لا مراء في أن موجة الهجرة الكبيرة الأولى خلال تلك الفترة (1845 ـ 1854) كانت، في جوهرها، هروباً من الجوع أو تعاظم الضغط البشري على الأرض، وبخاصة في أيرلندا وألمانيا اللتين صدرتا 80 في المئة من المهاجرين عبر المحيط الأطلسي في تلك السنوات.

كما أن الهجرة لم تكن دائمة بالضرورة. لقد كان المهاجرون، بنسبة لا نعرفها، يحلمون بالغنى في الخارج، ثم بالعودة، أثرياء محترمين، إلى مواطنهم الأصلية في قراهم. وذلك ما فعلته نسبة معتبرة منهم تتراوح بين 30 و40 في المئة، ولأسباب تتصل بالمعارضة في أكثر الأحيان، لأن العالم الجديد لم يَرُقْ لهم، أو لأنهم لم يشعروا هناك بالاستقرار. وقد هاجر بعضهم مرة أخرى. ومع ثورة الاتصالات، فإن سوق العمل، ولا سيما في أوساط العمال المهرة، أخذت بالتوسع إلى أن شملت العالم

الصناعي بأكمله. وتحفل قائمة زعماء النقابات في بريطانيا في تلك الفترة برجال عملوا بعض الوقت في الولايات المتحدة أو أماكن أخرى في الخارج، كما عملوا في أوقات أخرى في نيوكاسل وبَروْ ـ إن ـ فيرنس. بل إنه قد غدا من الممكن الآن حتى للهجرات المؤقتة أو الموسمية للحصّادين وبناة الخطوط الحديد الإيطاليين أو الأيرلنديين أن تنتشر عبر المحيطات.

كانت الزيادة الضخمة في الهجرة تنطوي، في واقع الأمر، على قدر معتبر من الحركة المتقطعة، ومنها المؤقت، والموسمي، أو الرعوي المجرد. ولم يكن ثمة جديد في تلك الحركات ـ بحد ذاتها. إذ كان من المشاهد المألوفة قبل الثورة الصناعية، مرأى عمال المياومة الجوالين، والصفّاحين الرحَّل، والباعة المتجولين، ورعاة الماشية، وسائقي العربات. بيد أن توسع الاقتصاد الجديد المتسارع المنتشر في كل أنحاء العالم كان لا بد أن يستلزم، أو يخلق أنواعاً جديدة من هؤلاء المسافرين.

ولننظر إلى السكة الحديد بوصفها رمزاً لهذا التوسع. لقد انتشر المقاولون في هذا المجال في أرجاء المعمورة، وانتقلت معهم كوادر (بريطانية أو أيرلندية في الغالب) من المشرفين، والعمال المهرة، ونخبة الشغيلة؛ واستقروا أحياناً بصورة دائمة في بلد غريب، ليصبح أبناؤهم، على سبيل المثال، الجيل الأنجلو ـ أرجنتيني في الجيل القادم[20]، وينتقل بعضهم من بلد إلى آخر مثلما يفعل العديد من عمال النفط الأقل عدداً في أيامنا هذه. وحيث إن خطوط السكة الحديد كانت تُمَدُّ في كل مكان، فإنهم لم يكونوا يعتمدون بالضرورة على الأيدي العاملة المحلية، بل طوروا فئات من العمال المترحلين (كان يطلق عليهم

---

(20) شَغَلَ الوظائف في خطوط السكة الحديد الهندية، في أغلب الأحيان، عمال يورأسيويون من أبناء النساء الهنديات والعمال البريطانيين الذين كانوا أقل تردداً في التزاوج المختلط من الطبقات الوسطى والعليا.

في بريطانيا اسم «الأغرار»)، مثل ما تتميز به الآن مشروعات الإنشاءات الكبرى في كل أنحاء العالم. ويجري استخدام هؤلاء، في أغلب الدول الصناعية، من بين العمال الهامشيين أو المترحلين، المستعدين لتحمل الأعمال الشاقة مقابل أجر مُغْرٍ في ظروف سيئة، وأن يهدروا في القمار أو الشراب ما يكسبونه بالسرعة نفسها، من دون أن يفكروا كثيراً في المستقبل، فمثلما كان البحارة يعتقدون أن ثمة سفينة أخرى سيعملون على متنها في المستقبل، وهؤلاء العمال الجوالون كانوا يرون أن مشروعاً كبيراً آخر سيبرز فور انتهائهم من المشروع الراهن. كذلك كان العمال الطليقون على تخوم الصناعة، فقد أصابوا المحترمين من جميع الطبقات بالصدمة، وغدوا هم رموز الرجولة في الفولكلور غير الرسمي، وأدوا أدواراً تماثل ما فعله البحارة وأصحاب المناجم والمستكشفون الحدوديون، على الرغم من أنهم لم يحققوا الكسب الذي أحرزه هؤلاء، ولم يخامرهم الأمل الذي راود أولئك في أن يكون لهم نصيب من الثروة.

شكّل هؤلاء البناة المتحركون في المجتمعات الزراعية الأقرب إلى الروح التقليدية جسراً مُهماً بين الحياة الصناعية وحياة الريف. لقد كانوا يضمون فرقاً أو جماعات نظامية منظمة على غرار الحصادين الموسميين، يتزعمهم نقيب منتخب يتولى التفاوض عنهم ويقاسمهم عائدات ما يبرم من عقود، كما كان منهم فلاحون فقراء من إيطاليا، وكرواتيا، أو أيرلندا، ممن عبروا القارات، أو حتى المحيطات، لتوفير الأيدي العاملة لأصحاب المشروعات الذين تولوا بناء البلدات، والمصانع، وخطوط السكة الحديد. وبرزت هذه الهجرات على السهول الهنغارية اعتباراً من خمسينيات القرن التاسع عشر. أما الجماعات الأقل تنظيماً، فكانت غالباً ما تظهر امتعاضها من هؤلاء الفلاحين لما يتمتعون به من كفاءة متفوقة، وانضباط (أو خنوع) مُتميز، واستعداد للعمل بأجور أقل.

ولا يكفي هنا أن نلفت الانتباه إلى ما أسماه ماركس «الخيّالة

الخفيفة» للرأسمالية، ولا نشير إلى التمايز المهم داخل البلدان المتقدمة، أو، بعبارة أدق، بين العالمين القديم والجديد، فقد خلق التوسع الاقتصادي «حدوداً» في كل مكان. وبمعنى من المعاني، فإن جماعة العاملين في المناجم في غلسنكيرشن (في ألمانيا)، التي ارتفع عدد سكانها من 3500 نسمة إلى 96000 خلال ما يقل عن أربعة عقود (1858 ـ 1895)، كانت «عالماً جديداً» بالمقارنة مع المراكز الصناعية في بيونس آيريس أو بنسلفانيا. غير أن تلبية الحاجة إلى جماعات سكانية متحركة كانت، على العموم، لا تتم في العالم القديم إلا بخلق تكتلات سكانية متواضعة نسبياً ومؤقتة وعائمة، إلا في موانىء الشحن البحرية الكبيرة، وفي المراكز التقليدية لهذه الكتل السكانية المتنقلة أو الثابتة مثل المدن الكبرى. وربما كان يعود ذلك إلى أن أفرادها كانوا قد رموا بجذورهم، أو أوشكوا أن يرسخوها في جماعة تنتمي إلى مجتمع ذي بنية واضحة المعالم، ففي هذه المناطق التي تنخفض فيها الكثافة السكانية على حدود الاستيطان أو بعدها في الخارج، حيث تتحرك جماعات الشغيلة حيثما اقتضت الحاجة، أثبتت تلك الجماعات من الأفراد الطليقين غير المرتبطين بالفعل وجودها وحضورها، أو أنها كانت على الأقل، «ظاهرة للعيان». لقد كان العالم القديم حافلاً برعاة القطعان ومربي الماشية، غير أن أحداً لم يكن يضاهي الـ «كاوبوي» الأمريكي في تلك الفترة، مع أن نظيره في أستراليا، جَزّاز الصوف المتطوّف وغيره من العمال الريفيين داخل البلاد، ولّدوا أساطير محلية مؤثرة.

II

كانت الهجرة هي النمط المُعتاد للسفر لدى الفقراء. أما بالنسبة للطبقة الوسطى والأغنياء، فكانت لغايات السياحة، وبصورة متزايدة، من خلال الوسائل والمنتجات المستحدثة، في المقام الأول، مثل السكة الحديد والمراكب البخارية، وكذلك الاتصالات البريدية الجديدة المتعاظمة الضخامة والسرعة (وقد كانت البطاقة البريدية المصورة جزءاً

أساسياً من مبتكرات تلك الفترة. وقد تجلت أهمية الدور الذي تؤديه وسائل الاتصال الجديدة في إنشاء اتحاد البريد العالمي عام 1869). وكان فقراء الريف يسافرون من قبيل الضرورة، وقلما سافروا للمتعة، إلا سيراً على الأقدام ولفترات قصيرة ـ وتزخر المذكرات الشخصية، التي كتبها الحرفيون الفنيون الفيكتوريون الذين حاولوا توسيع مداركهم، بذكريات عن رحلات واسعة النطاق قاموا بها في الأرياف. ولم يكن فقراء الريف ينتقلون بقصد الاستمتاع على الإطلاق بل حاولوا الجمع بين التنزّه والعمل عند زيارتهم للأسواق والمعارض. أما الأرستقراطيون، فقد تعددت أسفارهم لأغراض غير نفعية، ولكن بأساليب لا تشبه الرحلات السياحية الحديثة، فقد كانت عائلات النبلاء تنتقل من بيت لها في المدينة إلى آخر في الريف على التناوب في فصول محددة، ومعها فريق من الخدم وعربات الأمتعة تتحرك مثل كتيبة عسكرية صغيرة. (بل إن الأمير كروبوتكين كان يُصدر الأوامر لزوجته وخَدمِها للسير بالطريقه العسكرية). وقد يتخذ هؤلاء لأنفسهم وضعاً مناسباً في مراكز الحياة الاجتماعية لبعض الوقت، كما فعلت عائلة أمريكية ـ لاتينية ورد ذكرها في «دليل باريس» عام 1867 عندما وصلت ومعها ثماني عشرة شاحنة من الأمتعة. ولم تكن الرحلات الكبرى التي قام بها أبناء الذوات آنذاك، بما فيها تلك التي تتضمن الإقامة في الفنادق الفخمة، تضاهي الرحلات التي جرت في الحقبة الرأسمالية، إذ إن المؤسسات القائمة على مثل هذه الأسفار كانت عندها في طور الولادة، وارتبطت بداياتها على الأغلب بالسكة الحديد، لأن النبلاء كانوا يترفعون عن التوقف في الفنادق الصغيرة.

وقد استحدثت الرأسمالية الصناعية شكلين جديدين من أسفار المتعة: السياحة، وعطلات الصيف للبورجوازية، ورحلات اليوم الواحد على العربات الآلية للجماهير في عدد من البلدان من بينها بريطانيا. وكان هذان النوعان نتيجة مباشرة لاستخدام البخار في عمليات النقل، لأن ذلك جعل من الممكن، للمرة الأولى في التاريخ،

تنظيم رحلات آمنة لأعداد ضخمة من الناس والأمتعة، براً وبحراً وفي مختلف الظروف، فعلى العكس من العربات التي كانت تجرها الخيول، ويعترضها قطّاع الطرق في المناطق النائية، كانت القطارات وسيلة منيعة الجانب منذ بداياتها في كل الأحوال، ما عدا الغرب الأمريكي، وحتى في البقاع غير الآمنة، مثل: إسبانيا والبلقان.

وإذا استثنينا نزهة القاطرات البخارية، فإن رحلة اليوم الواحد الجماعية كانت وليدة الخمسينيات من القرن التاسع عشر، وبعبارة أدق، المعرض الأكبر عام 1851 الذي اجتذب جماهير غفيرة من الزوار لمشاهدة المعروضات الباهرة فيه في لندن. وشجعت على الإقبال على هذا المعرض شركات القطارات بتقديم تذاكر مخفضة الكلفة. كما أشرفت على تنظيم الزيارات الجماعية والمشاركة فيها أعداد لا تحصى من الجمعيات المحلية، والكنائس، والجماعات. وكان توماس كوك (Thomas Cook) نفسه الذي أصبح خلال الخمس وعشرين سنة بعدها من أعلام السياحة المنظمة، قد بدأ حياته العملية بتنظيم مثل هذه النزهات، وطورها إلى عملية تجارية ضخمة عام 1851. واجتذبت المعارض الدولية العديدة[21]، كلٌّ بدوره، جماهير حاشدة من المتفرجين، مثلما شجعت إعادة بناء المدن أهالي الأقاليم على زيارتها والتمتع بمباهجها. ولا يمكننا الحديث بمزيد من التفصيل عن السياحة الجماعية في تلك الفترة، فقد انحصرت في رحلات قصيرة، تكتنفها المصاعب إذا ما نظرنا إليها بمعايير أيامنا هذه، وحملت معها بوادر الازدهار لصناعة صغيرة هي «التحف التذكارية». وعلى العموم، قلما أبدت شركات القطارات، في كل المناسبات في بريطانيا اهتماماً بمسافري الدرجة الثالثة، مع أن الحكومة أرغمتها على استحداث حد أدنى منها. واستمر هذا الوضع، حتى عام 1872، عندما أصبح نصف المسافرين على تلك القطارات من عامة الناس. والواقع أنه قد رافق التزايد المنتظم في عدد المسافرين بالدرجة الثالثة انخفاض في

---

(21) انظر الفصل الثاني من هذا الكتاب.

أهمية السفر والتنزه في قطارات خاصة.

إلا أن أسفار الطبقة الوسطى كانت أكثر جديةً. وربما كان أهم أشكال هذا السفر، من الوجهة العددية، هو عطلات العائلة الصيفية أو (لدى العائلات المرفهة المتخمة) وزيارات الاستطباب إلى ينابيع المياه المعدنية. وقد شهد الربع الثالث من ذلك القرن توسعاً مشهوداً في تلك المنتجعات ـ على الشواطئ في بريطانيا، وفي جبال القارة. (ومع أنِ زيارة منتجع بياريتز كانت ممارسة رائجة في الستينيات بفضل رعاية نابليون الثالث، واللوحات الانطباعية تُظهر اهتماماً ملموساً ومنظوراً بشواطئ نورماندي، فإن البورجوازية الأوروبية لم تكن حتى ذلك الحين شغوفة بمياه البحر المالحة وبأشعة الشمس). وبحلول أواسط الستينيات، كان ازدهار عطلات الطبقة الوسطى قد بدأ يحول أجزاء من الساحل البريطاني إلى مُتَنزهات وأرصفة ممتدة في البحر وغيرها من المرابع التي مكنت ملاك العقارات من تحقيق أرباح لم تكن تخطر على بالهم من وراء استغلال أشرطة غير اقتصادية من الجبال والسواحل. وكانت تلك من الظواهر التي ارتبطت بالطبقات الدنيا والوسطى. غير أن منتجعات الطبقة العاملة على الشواطئ لم تكتسب أهمية كبيرة إلا في ثمانينيات القرن. كما أن النبلاء والوجهاء كانوا يترفعون عن أن يقضوا عطلة الصيف في بورنماوث (التي كان يتردد عليها الشاعر الفرنسي فيرلين) أو فنتنور (حيث كان يستجم تورغينيف وكارل ماركس).

وفي أوروبا، كانت ينابيع المياه المعدنية (التي لم تكن مثيلاتها في بريطانيا مرموقة بالقدر نفسه) أكثر أناقة وترفاً، وقدمت لمرتاديها، من ثم، الفنادق ومرافق الترويح الضرورية الأكثر فخامة. مثل صالات القمار والمواخير المرفهة. وكانت فيشي، سبا، بادن بادن، آكس لي بين، والينابيع المعدنية الدولية الشهيرة الخاصة بأسرة هابسبيرغ في غاشتين، مارييباد وكارلسباد وغيرها، في أوروبا القرن التاسع عشر تماثل ما كانت عليه حمامات باث في إنجلترا القرن الثامن عشر، حيث كانت ملتقى للمترفين

الذين عكفوا على شرب نوع من المياه المعدنية غير المستساغة أو الغطس في نوع من السوائل تحت إشراف مدرب طبي متسلط[22].

غير أن الكبد العليلة تُساوي بين الجميع، فينابيع المياه المعدنية اجتذبت خليطاً من الأثرياء غير الارستقراطيين والمهنيين من أبناء الطبقات الوسطى ممن عزز الازدهار شهيتهم إلى الطعام والشراب حتى التخمة. ومن اللافت أن الدكتور كوغلمان اقترح كارلسباد على آخر من يمكن أن يخطر على البال من أفراد الطبقة الوسطى وهو كارل ماركس الذي سجل اسمه هناك بوصفه «من ذوي الدخل الخاص»، ليتحاشى التعرف عليه وملاحقته، إلى أن اكتشف أن بوسعه، بوصفه الدكتور ماركس أن يدخر بعض الضريبة لأعراض العلاج[23] (Kurtaxe). وفي أربعينيات القرن التاسع عشر، خرجت عدة أمكنة من هذا النوع عن بساطتها الريفية. وفي وقت أواخر عام 1858، وصف «دليل موراي» مارينباند بأنها «حديثة النشأة نسبياً» مع الإشارة إلى أن غاشتين لم يكن فيها غير مئتي حجرة للضيافة. لكنها كانت، بحلول الستينيات في أوج ازدهارها.

كانت المنتجعات الصيفية، والمنتجعات الطبية، مُخصصة للبورجوازية العادية. وتؤكد فرنسا وإيطاليا التقليديتان اليوم أن الاكتئاب السنوي مؤسسة بورجوازية. وقد وُصفت لذوي النفوس الحساسة لأشعة الشمس اللطيفة، أي أجواء الشتاء على شواطئ البحر الأبيض المتوسط. وقد اكتشف الساحل اللازَوَردي اللورد بروهام، السياسي الراديكالي

---

(22) تتجلى مكانة هذه المنتجعات في الدور الذي أدّته في النشاط الدبلوماسي في تلك الفترة، فقد التقى نابليون بسمارك في بياريتز، وكافور في بلومبيير، وعُقد أحد المؤتمرات في غاشتين: وكان المؤتمر الأخير فاتحة لسلسلة من المؤتمرات الدبلوماسية العديدة التي انعقدت على شاطئ إحدى البحيرات أو في الريفييرا على مدى نصف قرن بين الأعوام 1890 و1940.

(23) Egon Erwin Kisch, *Karl Marx in Karlsbad.* 2. Aufl. (Berlin: Weimar, Aufbau-Verlag, 1968).

الذي ما زال تمثاله يطل على مدينة كان، كما أن اسم الـ «بروميناد ديزانغليه» في نيس يدل على من اكتشف الحدود الجديدة للرفاهية التي يستطيع ابتياعها المال، مع أن النبلاء والوجهاء الروس كانوا أكثر الزوار إقبالاً عليها. وقد بنت مونتي كارلو «فندق باريس» فيها عام 1866. وبعد افتتاح قناة السويس، وبخاصة بعد بناء خط السكة الحديد صعوداً مع النيل، غدت مصر هي الموئل المفضل لدى من كانت اعتبارات الصحة تثنيهم عن فصول الخريف والشتاء الرطبة الكئيبة في الشمال، فجمعوا بذلك الاستمتاع بالطقس، والإثارة، ومشاهدة صروح الحضارة القديمة، (وبصورة غير رسمية في تلك المرحلة) الهيمنة الأوروبية. وقد وضع بيديكر الدؤوب أول دليل له عن تلك البلاد عام 1877.

ظل التوجه إلى البحر الأبيض المتوسط صيفاً نوعاً من أنواع الجنون، إلا لأغراض تتصل بالفن، حتى أوائل القرن العشرين، وهي فترة الولع الجديد بالشمس والبشرة السمراء. وفي المواسم الحارة، لم يكن ثمة إلا بقاع قليلة يمكن احتمال الإقامة فيها، مثل خليج نابولي وكابري اللذين كانا قد انتعشا بالفعل بفضل رعاية إمبراطورة روسيا. وتشير الأسعار المحلية المتواضعة في سبعينيات القرن إلى بوادر الحركة السياحية. وبطبيعة الحال توجهت أنظار الأثرياء الأمريكيين، سواء أكانوا أصحاء أم مرضى، وبعبارة أدق، أنظار زوجاتهم وبناتهم، إلى مراكز الحضارة في أوروبا، مع أن أصحاب الملايين منهم كانوا، مع نهاية تلك الفترة، قد بدأوا نمطاً من أنماط الإقامة الصيفية في منازل صُممت وبنيت على نحو خاص على امتداد سواحل نيوإنغلاند الكالحة. أما الأغنياء في البلدان الحارة، فقد توجهوا إلى الجبال.

ويجب علينا، على أي حال، أن نميز الآن بين نوعين من العطلات: فهناك الإقامة الطويلة (صيفاً أو شتاءً) والجولة التي غدت، بصورة متزايدة، عملية وسريعة. وكما هي الحال دائماً، كانت المشاهد الطبيعية الرومانطيقية والنصب الحضارية أول ما يستهوي المسافرين، غير

أن البريطانيين (الرواد، كالعادة) غدوا في أواخر الستينيات يصدّرون شغفهم بالرياضة البدنية إلى جبال سويسرا، حيث دشنوا التزلج فيما بعد باعتبارها رياضة شتوية، فأسس «نادي الألب» عام 1858، وتسلق إدوارد ومير جبل ماترهورن عام 1865. ولأسباب غامضة استهوت تلك الأنشطة الشاقة في أحضان الطبيعة الخلابة المثقفين والمهنيين الأنجلوساكسونيين ذوي الميول الليبرالية على نحو خاص (وربما كان لرفقة الأدلاء المحليين الأشداء الوسيمين علاقة بذلك)، فارتبط تسلق الجبال بالمشي مسافات طويلة في أرجاء الريف، حتى إنه غدا سمة مميزة لأنشطة أكاديميي كامبريدج وكبار موظفي الدولة، ومديري المدارس الحكومية، والفلاسفة، وعلماء الاقتصاد. ما أثار دهشة المثقفين اللاتينيين، ولكن ليس الجرمانيين بأكملهم. أما المسافرون الأقل همةً، فقد تولى أمرهم توماس كوك، والكتب الإرشادية الموثّقة التي كانت تنشر آنذاك، وتضاءلت باطراد، مقابل ذلك، أهمية كتب موراي الإرشادية البريطانية، وحلت مكانها تلك المطبوعات السياحية الجديدة، وسلسلة بيديكر الألمانية التي غدت تُطبع الآن بلغات عدة.

لم تكن هذه الجولات زهيدة الكلفة، ففي أوائل سبعينيات القرن التاسع عشر. كانت تكلفة رحلة الذهاب والعودة لشخصين لستة أسابيع من لندن عبر بلجيكا ووادي الراين، وسويسرا، وفرنسا - وربما كان ذلك هو جدول الرحلات المعتاد، تقدر بنحو 85 جنيهاً إنجليزياً، أو ما يقارب 20 في المئة من دخل شخص يتقاضى 8 جنيهات في الأسبوع - وكان ذلك دخلاً محترماً لموظف يحتفظ بخادمة في بيته في تلك الأيام[24]. وكان مثل هذا المبلغ يمثل ثلاثة أرباع ما يتقاضاه في السنة عامل ماهر عالي الأجر في بريطانيا. ويتضح من ذلك أن السائح الذي

---

(24) Charles Toll Bidwell, *The Cost of Living Abroad*, Reports and Statistics Showing the Prices of House-rent, Wages, Commodities, Clerk-hire, &c., at the Present time, and Compared with those of the Year 1858, at Most of the Principal =

كانت تستهدفه شركات السكك الحديد، والفنادق، وكتب الإرشاد السياحي إنما كان من الطبقة الوسطى المرفهة إلى حد ما. وهو الشخص الذي شكا أمثاله من الرجال والنساء من أن أجرة المنزل غير المؤثث ارتفعت في مدينة نيس بين الأعوام 1858 و1876 من 64 جنيهاً إلى 100 جنيه في السنة، وأن أجر الخادمة المنزلية ارتفع بصورة صارخة من نحو 8 ـ 10 جنيهات إلى 24 ـ 30 جنيهاً[25]. إلا أن ثمة أناساً كانوا، من دون شك، قادرين على تحمل تلك التكاليف.

تُرى، هل كان عالم السبعينيات من القرن التاسع عشر برمته حافلاً بموجات الهجرة، والأسعار، والتدفق الديمغرافي السكاني؟ ينبغي، بهذا الصدد، ألا نغفل عن أن أغلب سكان المعمورة كانوا آنذاك يولدون ويموتون في مكان ولادتهم، وأن تحركاتهم، بعبارة أدق، لم تكن تختلف عما كانت ستكون عليه قبل الثورة الصناعية. ولا بد أنه كان ثمة كثيرون في العالم يشبهون الفرنسيين الذين كان 88 في المئة منهم عام 1861 يعيشون في المقاطعة التي ولدوا فيها، بل إن 97 في المئة من سكان مقاطعة «لـو» كانوا يعيشون في الأبرشية التي ولدوا فيها، خلافاً لما كان عليه الحال مع الجماعات السكانية الأكثر ميلاً إلى الحركة والهجرة[26]. ومع ذلك، فإن الناس كانوا يبتعدون عن مراسيهم، ويعتادون على حياة شاهدوا فيها ما لم يشاهده، بل ما لم يكن يتوقع أن

Places in Foreign Countries. Compiled from Official Returns Laid before = Parliament.... With an Appendix Showing Hotel Charges and other Particulars not Included in the Official Reports, Compiled from the Queen Newspaper, and Published by Permission (London: S. Low, Marston, Searle & Rivington, 1876), Appendix,

كانت سويسرا هي الهدف الأساسي لتلك الرحلة.

(25) المصدر نفسه، ص 16.

(26) Georg von Mayr, *Statistik und Gesellschaftslehre*, 2., umgearb. und verm. Aufl. (Tübingen: Mohr, 1914-), vol. 2: *Bevölkerungsstatistik*, 1922, p. 176.

يشاهده أسلافهم على الإطلاق. وبحلول نهاية الفترة التي نعالجها، كان المهاجرون يمثلون أغلبية ذات وزن مؤثر. لا في بلدان مثل أستراليا فحسب، أو في مدن مثل نيويورك وشيكاغو، بل مثل ستوكهولم، كريستيانيا (أوسلو حالياً). بودابست، برلين، وروما (بين 55 و60 في المئة)، وباريس وينا (نحو 65 في المئة)[27]. وغدت تجتذبهم، على العموم، المدن والمناطق الصناعية كالمغناطيس. تُرى، ما نوعية الحياة التي كانت بانتظارهم هناك؟

---

(27) E. G. Ravenstein, «The Laws of Migration,» *Journal of the Royal Statistical Society*, vol. 52 (1889), p. 285.

الفصل الثاني عشر

المدينة، الصناعة، والطبقة العاملة

إنهم يخبزون خبزنا اليومي الآن

بالبخار وبالطوربينات

وعما قريب، فإن الثرثرة في ما بيننا

سيدخلونها في آلة.

وفي ترونتناو، مقبرتان

واحدة للفقراء، وأخرى للأغنياء؛

وحتى في القبر نفسه

فإن الشيطان الفقير لا يقف معهم على قدم المساواة

قصيدة في مجلة أسبوعية في ترونتناو [التشيك]، 1869[1].

في الأيام الخوالي، إذا أطلق أحدهم على أحد الحرفيين المياومين صفة «عامل»، فإن الاثنين سيتضاربان بالأيدي... أما اليوم، فقد غدا

(1) Jaroslav Purš, «The Working Class Movement in the Czech Lands,» *Historica*, vol. X (1965), p. 70.

المياومون والعمال كلاهما في أعلى مرتبةٍ في الدولة، ويصر الجميع
على أن يسمّوا أنفسهم عمالاً.

م. ماي، 1848[2].

إن قضية الفقر هي قضية الموت، والمرض، أو أي ظاهرة طبيعية.
ولا أعلم كيفية إيقاف أي منها.

وليام ميكبيس ثاكَري (William Makepeacec Thackeray)، 1848[3].

I

لن نضيف جديداً إذا قلنا إن المهاجرين قد وفدوا إلى عالم الصناعة والتقانة، أو أن جمهرة الأجيال الجديدة قد ولدوا فيه، فهذه المقولة وحدها لا غناء فيها. والسؤال هو: كيف كان حال ذلك العالم.

إنه لم يكن، في المقام الأول، عالماً زاخراً بالمصانع، وأرباب العمل، والبروليتاريين، بقدر ما كان عالماً فعلت فيه التحولات فعلها جراء التقدم الهائل في قطاعه الصناعي. إن التغيرات الناجمة عن انتشار الصناعة لم تكن، بحد ذاتها، مقياساً للآثار التي خلفتها الرأسمالية، على الرغم من ضخامتها، فعام 1866، كانت مدينة رايخنبيرغ (ليبيريك)، وهي مركز صناعة النسيج في بوهيميا، لا تزال تنتج نصف منتجاتها على أنوال النساجين الحرفيين الفنيين، معتمدة، إلى حد كبير، على عدد قليل من المصانع. ولا شك في أنها لم تكن بتنظيمها الصناعي متقدمة مثل لانكاشير، التي كان أواخر النساجين العاملين على الأنوال اليدوية

(2) Rolf Engelsing, «Zur politischen Bildung der deutschen Unterschichten, 1789-1863,» *Historische Zeitschrift*, vol. 206, no. 2 (April 1968), p. 356.

(3) William Makepeace Thackeray, *The Letters and Private Papers of William Makepeace Thackeray*, 4 vols., Collected and Edited by Gordon N. Ray (Cambridge, Mass.: Harvard University Press, 1945-1946), vol. 2, p. 356.

فيها قد اندمجوا في مجالات عمل أخرى بحلول خمسينيات القرن. لكن من غير الواقعي أن نقول إنها لم تكن صناعية، ففي أوج ازدهار إنتاج السكر أوائل السبعينيات، كان نحو 40,000 عامل فقط يعملون في مصانع السكر التشيكية. غير أن ذلك إنما يقيس آثار صناعة السكر الجديدة، ويفيد بأن مساحة الفدادين المزروعة بالشمندر في الريف البوهيمي قد تضاعفت أكثر من عشرين مرة بين الأعوام 1853/ 1854 (4,800 فدان) و1872-1873 (123,800 فدان)[4]. والأهم من النسبة المئوية الدقيقة للبضائع الصناعية والسفر لأغراض تجارية التي تخفيها هذه الأرقام هو أن عدد المسافرين بالقطارات في بريطانيا قد تضاعف تقريباً بين الأعوام 1848 و1854 من نحو 58 مليوناً إلى 108 ملايين، فيما زاد دخل الشركات من حركة الشحن نحو ضعفين ونصف الضعف.

بيد أن الشكل الأكثر إثارة في الحياة الجديدة كان، بالتأكيد، العمل الصناعي نفسه، ببنيته ووضعه المُتميزين، والتحضّر - أي العيش في مدن متسارعة النمو؛ وهي جديدة، لأن استمرار بعض المهن المحلية والبلدات كان يخفي تغيرات بعيدة الأثر، فبعد سنوات عدة من انتهاء فترتنا تلك (1887)، ميّز البروفيسور الألماني فرديناند تونيس بين (الجماعة) (Gemeinschaft) و(المجتمع المكون من أفراد) (Gesellschaft)، وهما التوأمان المألوفان الآن لدى جميع طلاب علم الاجتماع. وهذا التمايز وغيره مما بيّنه معاصرو تلك الفترة يشابه ما اصطُلح على تسميته في أزمنة لاحقه مجتمعات «تقليدية» و«حديثة». ومن ذلك المعادلة التي وضعها السير هنري مين ملخصاً تقدم المجتمع من حالتي «المكانة» إلى «العَقْد». وما يهمنا هنا هو أن تونيس لم يبنِ تحليله على الفوارق بين المجتمع المحلي الفلاحي والمجتمع الحضري، بل بين البلدة القديمة العهد من جهة، وبين المدينة الرأسمالية، أي

(4) Jaroslav Purš, «The Industrial Revolution in the Czech Lands,» *Historica*, vol. 2 (1960), pp. 210, and 220.

«أساساً، بلدة المصانع التي تسيطر التجارة على قوة العمل المنتجة فيها»[5]. وسنتناول في هذا الفصل هذه البيئة المستجدّة، والبُنى التي رافقت نشأتها.

كانت المدينة، بالفعل، الرمزَ الخارجي الأكثر إبهاراً، بالإضافة إلى خطوط السكة الحديد، بين رموز العالم الصناعي. لقد تزايد الزحف الحضري بعد عام 1850. وخلال النصف الأول من ذلك القرن، لم يكن للتحضر معدل سنوي أكثر من 0,20 نقطة[6]. مع أن بلجيكا كادت تصل إلى هذا المستوى. إلا أن هذا المستوى من التحضر هو ما بلغته بين عامي 1850 و1890 حتى النمسا ـ هنغاريا، والنرويج، وأيرلندا، كما وصلت بلجيكا والولايات المتحدة إلى ما يتراوح بين 0,30 و0,40 نقطة، وبروسيا، وأستراليا، والأرجنتين بين 0,40 و0,50 نقطة، وإنجلترا وويلز (المتقدمتان قليلاً)، وسكسونيا، إلى ما يزيد على 0,50 سنوياً. وغني عن البيان أن تركز الناس في المدن كان «الظاهرة الأشد بروزاً في ذلك القرن»[7]. وذلك مستوى متواضع بمقاييس أيامنا هذه، ففي نهاية القرن التاسع عشر، لم تكن ثمة غير اثنتي عشرة دولة بلغ فيها التركز السكاني المستوى الذي بلغته إنجلترا وويلز عام 1801. ومع ذلك، فإن هذه البلدان كلها (باستثناء اسكوتلندا وهولندا) حققت هذا المستوى منذ عام 1850.

كانت البلدة الصناعية القياسية في تلك الفترة مدينة متوسطة الحجم، حتى بالمقاييس المعاصرة، مع أن بعض المدن الكبيرة، المنتشرة

(5) ورد في: Harold James Dyos and Michael Wolff, eds., *The Victorian: Images and Realities*, 2 vols. (London; Boston: Routledge and K. Paul, 1973), vol. 1, p. 110.

(6) يمثل ذلك نسبة تغير المعدل في مستوى السكان الحضريين في الفترة بين الإحصاء الأول والأخير، مُقسماً على عدد السنوات. انظر: المصدر نفسه، ج 1، ص 5.

(7) A. F. Weber (1898),
ورد في: المصدر نفسه، ج 1، ص 7.

في المناطق الوسطى والشرقية من أوروبا، (وهي مدن تميل إلى الضخامة البالغة)، أصبحت مراكز كبرى للتصنيع - مثل برلين، وفيينا، وسان بطرسبرغ، وعام 1871، كان عدد سكان أولدهام 83,000 نسمة، وبارمِنْ 75,000، وروبيه 65,000. بل إن المدن الشهيرة القديمة قبل الصناعية قلما اجتذبت أنواع الإنتاج الجديدة، حتى إن الإقليم الصناعي القياسي اتخذ، على العموم، شكل قرى عدة منفصلة يلتئم شملها على هيئة بلدات صغيرة تتحول، بدورها، إلى بلدات أكبر. ولم تكن تلك تماثل ما شهدناه في القرن العشرين من مناطق معمورة شاهقة الصروح، على الرغم من مظاهر التماسك والانسجام التي أسبغتها عليها مداخن المصانع الممتدة غالباً بمحاذاة الأودية والأنهار، وجدران محطات القطار، ورتابة مشاهد الطوب الكالح، وسحب الدخان الملبدة فوقها. وكان أكثر سكانها يعيشون ويقطعون المسافة بينها وبين حقولهم مشياً على الأقدام. وحتى سبعينيات القرن، كانت المدن الأكبر في الأجزاء الصناعية الغربية من ألمانيا تحصل على المواد الغذائية التي يحملها الفلاحون من المناطق المحيطة إلى الأسواق الأسبوعية[8]. وبمعنى من المعاني، كانت صدمة التصنيع تكمن في المفارقة بين المستوطنات السود، الرتيبة المزدحمة المندَّبة من جهة، والمزارع والتلال الملونة المجاورة لها من جهة أخرى. وكانت شيفيلد «مليئة بالضوضاء، والدخان، ومنفرة (ولكنها)... محاطة من الجهات كلها بأجمل ما في الأرض من مشاهد ريفية خلابة»[9].

وذلك هو ما مكن العمال في المناطق الحديثة التصنيع - ولكن إلى حدود آخذة بالتناقص السريع - من البقاء في حالة شبه زراعية، فحتى بعد عام 1900، كان عمال المناجم في بلجيكا يأخذون إجازاتهم في

---

(8) [H. Croon, «Die Versorgung der Staedte des Ruhrgebietes im 19. u. 20. Jahrhundert,» (Mimeo) (International Congress of Economic History, 1965)], p. 2.

(9) Dyos and Wolff, eds., Ibid., vol. 1, p. 341.

الفصل المناسب (وعند الضرورة في «إضراب البطاطا» السنوي) للعناية بأثلام البطاطا المزروعة في منازلهم. وحتى في إنجلترا الشمالية، كان بوسع المتعطلين عن العمل في المراكز الحضرية أن يتحولوا بسهولة إلى العمل في المزارع القريبة في الصيف: وكان عمال الغزل الذين أضربوا عن العمل في باديهام (لانكاشير) عام 1859 يكسبون رزقهم عن طريق التِّبانة[10].

إن المدينة الكبرى ـ وقد تكون في تلك المرحلة مستوطنة يتجاوز عدد سكانها 200,000 نسمة بما فيها بلدات مُبعثرة يقطنها أكثر من نصف مليون شخص[11] ـ لم تكن صناعية (مع أنها قد تضم العديد من المصانع) بل قد تكون مركزاً للتجارة، والمواصلات، والإدارة والخدمات المتعددة التي تتطلبها مجموعات ضخمة من الناس وتزيد، بدورها، في أعدادها. وكان أغلب سكانها، بالفعل، من العمال، من نوع أو آخر، بمن فيهم أعداد كبيرة من خدم المنازل، بمعدل واحد من كل خمسة أشخاص لندنيين (1851)، مع أن هذه النسبة كانت أقل في باريس إلى

---

(10) Louise Henneaux-Depooter, *Misères et luttes sociales dans le Hainaut, 1860-1869*, centre d'histoire économique et sociale (Bruxelles: Université libre de Bruxelles, institut de sociologie solvay, 1959), p. 117, and Dyos and Wolff, eds., vol. 1, p. 134.

(11) في أواسط السبعينيات من القرن التاسع عشر، كان من المُعتقد أن ثمة أربع مدن يبلغ عدد سكانها، أو يتجاوز، مليون نسمة في أوروبا (لندن، باريس، برلين، وفيينا)، وستّ مدن يزيد عدد سكانها على نصف مليون (سان بطرسبرغ، القسطنطينية، موسكو، غلاسغو، ليفربول، ومانشستر)، وخمساً وعشرين أكثر من 200,000. وكانت خمس من تلك في المملكة المتحدة، وأربع في كل من ألمانيا وإيطاليا، وثلاث في فرنسا، واثنتان في إسبانيا، وواحدة في كل من الدانمارك، وهنغاريا، وهولندا، وبلجيكا، وروسيا، وبولندا، ورومانيا، والبرتغال. كما كانت هناك إحدى وأربعون مدينة يزيد عدد سكان كل منها على 100,000 نسمة، ومنها تسع في المملكة المتحدة وثمانٍ في ألمانيا. انظر: Georg Friedrich Kolb, *Handbuch der vergleichenden Statistik der Völkerzustands- und Staatenkunde, für den allgemeinen praktischen Gebrauch* (Leipzig: A. Felix, 1879).

حد مدهش[12]. إلا أن نسبتهم تلك شملت أعداداً ضخمة وعناصر أساسية من الطبقات الوسطى والدنيا، أي ما يتراوح بين 20 و23 في المئة في كل من لندن وباريس.

اتسعت مثل هذه المدن بسرعة فائقة. وارتفع عدد سكان فيينا بما يزيد على 400,000 نسمة عام 1846، إلى 700,000 عام 1880؛ وبرلين من 378,000 (1849) إلى ما يقرب من مليون (1875)؛ وباريس من 2,5 مليون إلى 3,9 مليون (1851 ـ 1881). لكن هذه الأعداد تتضاءل أمام بعض نظائرها في ما وراء البحار: شيكاغو وملبورن. وقد أصاب التغير شكلَ المدينة، وصورتَها، وبُنيتَها، بفعل الضغوط التي تعرضت لها جراء إعادة التخطيط والعمران بدوافع سياسية (وبخاصة في باريس وفيينا)، أو المشروعات المتعطشة للربح. ولم يكن أي من هذين الضغطين يرحب بوجود فقراء المدينة، وهم أغلبية سكانها، مع الإقرار بأنهم يمثلون ضرورة لا بد من قبولها، وإن كان ذلك على مضض.

كان الفقراء، بالنسبة لمخططي المدينة، يمثلون خطراً عاماً، ولا بد، من ثم، من عزل مناطق تمركزهم التي قد تثير الشغب في الشوارع والجادّات، وإزاحة قاطني الأحياء الشعبية المكتظة التي استبدلوها إلى مواقع غير محددة، ولكن يفترض أن تتوافر فيها خدمات صحية أفضل، ولا تنطوي على أي مخاطر. وكان ذلك هو الموقف الذي دعت إليه شركات السكة الحديد، ومهدت له برسم أحزمة عديدة من الخطوط والمسارات المنسابة إلى مراكز المدن، مع تفضيل عبورها للأزقة الفقيرة التي كانت أسعار العقارات متدنية فيها، ومخاطر الاحتجاج ضئيلة في أحيائها. وبالنسبة لمقاولي البناء وأصحاب مشروعات التطوير العقاري، كان الفقراء سوقاً غير مربحة بالمقارنة مع جماعات الأثرياء الوافدين من مجالات التجارة المتخصصة ومواقع التسوق، والمنازل والشقق المناسبة

(12) Dyos and Wolff, eds., Ibid., vol. 1, p. 424.

للطبقة الوسطى في الضواحي العمرانية. وكان الفقراء يتجنبون الاكتظاظ في المناطق المركزية التي تخلى عنها من هم أفضل حالاً، ويسكنون بيوتاً بناها لهم صغار المضاربين. وأغلب هؤلاء من الحرفيين الفنيين، أو المقاولين الذين بنوا العمارات المتطاولة الهزيلة من الشقق السكنية التي يطلق عليها بالألمانية وصف معبّر هو «معسكرات التأجير» (Mietskasernen). ففي غلاسغو كانت ثلاثة أرباع المساكن التي بنيت بين الأعوام 1866 و1874 تتكون من غرفة واحدة أو غرفتين فحسب، بل إن هذه المساكن سرعان ما غدت مكتظة بالقاطنين.

إن الحديث عن المدن القائمة في أواسط القرن التاسع عشر، إذاً، يعني الحديث عن الاكتظاظ، و«الأزقة الرثة». وكلما ازدادت سرعة اتساع المدينة، تفاقمت حالة الاكتظاظ فيها. وعلى الرغم من إصلاح مرافق الصحة العامة، وما رافق ذلك من تخطيط طفيف، فإن الازدحام السكاني في المراكز الحضرية ربما ازداد في تلك الفترة، مع عدم حدوث تحسن في المستوى الصحي أو انخفاض في نسبة الوفيات، هذا إذا لم يكن الوضع قد ازداد سوءاً في كلتا الحالتين. ذلك أن التحسن الأساسي المدهش، ومن ثم المستمر، في تلك الأوضاع لم يبدأ إلا بعد نهاية تلك الفترة، فقد استمرت المدن في التهام سكانها مع أن البريطانيين، وهم الأقدم في مجال التصنيع، قد اقتربوا من مرحلة إعادة إنتاج أنفسهم؛ أي التكاثر دونما حاجة إلى عملية ضخمة ومستمرة لنقل الدم من خلال الهجرة.

لم تكن تلبية متطلبات الفقراء لتضاعف عدد المهندسين المعماريين في لندن خلال عشرين سنة (ما يزيد قليلاً على 1000 إلى 2000 - بينما لم يتجاوز عددهم المئة مهندس خلال الثلاثينيات)، مع أن بناء العقارات وتأجيرها في المناطق الرثة قد يكون تجارة مربحة. ويتجلى ذلك في الدخل المترتب على القدم المربع في المناطق القليلة الكلفة[13]. والواقع أن

(13) المصدر نفسه، ص 326.

ازدهار العمران وتطوير الأملاك العقارية قد بلغ مستويات عالية جداً. ويعود ذلك، بالتحديد، إلى أنه لم يكن ثمة ما يغير مسار رأس المال المتدفق، على حد تعبير مجلة **ذي بيلدر** (البنّاء) (*The Builder*) عام 1848 «من أحد نصفي العالم... الطامح إلى الاستثمار» إلى «النصف الآخر الساعي باستمرار إلى تأمين سكن عائلي مناسب»[(14)]، ولا ما يحوله إلى خدمة الفقراء الحضر، الذين لم يكونوا، كما هو واضح، ينتمون إلى هذا العالم على الإطلاق. فالربع الثالث من القرن التاسع عشر يمثل، للمرة الأولى على النطاق العالمي، مرحلة التطوير العقاري وازدهار العمران ـ لصالح البورجوازية. وقد كتب الروائي إميل زولا (Emile Zola) تاريخها في باريس، فهي الفترة التي شهدت قيام المنازل في مواقع عالية الكلفة، وارتفاعها المتعاظم على الدوام، وميلاد «المصعد» في ما بعد، ثم بناء أول «ناطحة سحاب» في الولايات المتحدة في الثمانينيات من القرن. وجدير بالذكر أنه في الوقت الذي تصاعدت فيه عمارات مانهاتن إلى عنان السماء، كانت منطقة «لوْوَرْإيست» في نيويورك ربما البقعة الأكثر اكتظاظاً بالسكان في العالم الغربي بأسره، بمعدل 520 شخصاً في الفدان الواحد. ولم يقم أحد ببناء ناطحات سحاب للفقراء؛ وربما كان ذلك من باب حُسن الطالع بالنسبة إليهم.

من المفارقات أن تزايد البحبوحة في أوساط الطبقة الوسطى المتزايدة العدد، وتحوّل مواردها إلى ما يخصها من المساكن، والمكاتب، والمخازن التجارية التي كانت من مستجدات ذلك العصر، رافقه تضاؤل نسبي في حصة أحياء الطبقة العاملة، ويستثنى من ذلك الإنفاق الاجتماعي في الخدمات العامة الأكثر شيوعاً ـ مثل الشوارع، وخدمات الصحة العامة، والإنارة، والمرافق العامة. والشكل الوحيد من أشكال المشروعات التجارية الخاصة (بما فيها الأبنية) الذي استهدف جمهور العامة، علاوة على الأسواق والحوانيت الصغيرة، هو المقصف العمومي

(14) المصدر نفسه، ص 379.

الذي أصبح في الستينيات والسبعينيات حانة الشراب المتعددة الأغراض، وتفرعت عنه المسارح وصالات الموسيقى في وقت لاحق. ذلك أن الطرائق والممارسات القديمة التي جلبها الناس معهم من الريف أو البلدة قبل ـ الصناعية لم تعد، مع تزايد التحضر، عملية أو ذات بال.

II

كانت المدينة الكبيرة أمراً عجباً، مع أنها لم تكن تضم غير أقلية من السكان. إن المشروع الصناعي الكبير كان في ذلك الحين أقل أهمية، بل إن حجم تلك المشروعات لم يكن آنذاك باهراً بالمقاييس الحديثة، على الرغم من أنه كان يتعاظم على نحو مطّرد، ففي خمسينيات القرن، اعتبر المصنع الذي يعمل فيه 300 شخص مصنعاً كبيراً جداً في بريطانيا، وكان مصنع القطن البريطاني عام 1871 يشغّل، ما معدله، 180 شخصاً، والمصنع الآلي بمعدل 85 شخصاً لا أكثر[15]. إلا أن الصناعة الثقيلة التي تميزت بها هذه الفترة كانت أكبر من ذلك بكثير، واتجهت إلى تطوير تركّزات رأسمالية سيطرت على مدن بل أقاليم بأكملها، وحشدت تحت إمرتها جحافل من العمال.

وكانت شركات الخطوط الحديد مشروعات عملاقة، حتى ولو كانت قد بُنيت وأديرت وفق شروط المنافسة الحرة، مع أن الحال لم تكن كذلك. وفيما كان نظام السكة الحديد البريطاني يرسي أركانه في أواخر الستينيات، كان كل قدم مربع من الخط الحديدي الممتد من الحدود الأسكوتلندية، إلى تلال بيناين، والبحر ونهر همبر، خاضعاً لسيطرة شركة السكة الحديد الشمالية الشرقية وكانت مناجم الفحم حتى ذلك الحين مشروعات فردية، وبعضها صغير جداً، ولعل حجم الخسائر الناجمة عن بعض كوارث المناجم تُعطينا فكرة عن اتساع نطاق تلك

---

(15) J. H. Clapham, *An Economic History of Modern Britain: Free Trade and Steel 1850-1886* (Cambridge: University Press, 1932), vol. 2, pp. 116-117.

العمليات: 145 قتيلاً في ريسكا عام 1860؛ و178 في فيرنديل (في ويلز أيضاً) عام 1867؛ و140 في سويث (يوركشير)؛ و110 في مونز (بلجيكا) عام 1875؛ و200 في هاي بلانتير (اسكوتلندا) عام 1877. لكن التوسع العمودي والأفقي المتزايد، وبخاصة في ألمانيا، هو الذي ولّد هذه الإمبراطوريات الصناعية التي تحكمت بحياة الآلاف. والشركة المعروفة منذ عام 1873 باسم غوتيهوفننغشوتي أ. ج. (Gutehoffnungshütte A. G.) لم تكن، بأي حال من الأحوال، هي الأكبر في حوض نهر الرور، إلا أنها كانت آنذاك قد وسعت أعمالها من سبك المعادن لتشمل قلع الأحجار واستخراج الحديد الخام والفحم - وأنتجت، عملياً، الحديد الخام كله (215,000 طن) ونصف ما تحتاج (415,000 طن) من الفحم، ونوّعت أنشطتها لتشمل المواصلات والنقل، وصُنع القاطرات، وبناء الجسور، والآليات المتنوعة[16].

لا عجب، إذاً، أن تتسع أعمال شركة كروب في إيسن، ويزداد عدد مستخدميها من سبعة وخمسين عام 1848 إلى ما يقرب من 12,000 عام 1873، أو يتضاعف عدد العاملين في شركة شنايدر في فرنسا إلى نحو 12,500 عام 1870 حتى إن نصف سكان بلدة كروسو كانوا يعملون في مرافقها من أفران الصهر، إلى مصانع المَطْل والقضبان، والمطارق المتحركة، والمشاغل الهندسية[17]. وكان إنتاج الصناعة لا يتركز في المنطقة الصناعية بأكملها بقدر ما ينحصر في بلدة الشركة التي كان مصير الرجال والنساء فيها يعتمد على ما يريده رب العمل وحده،

---

(16) Erich Maschke, *Es entsteht ein Konzern* (Tübingen: Wunderlich, 1969).

(17) [Richard Ehrenberg, *Krupp-Studien*, in: *Thünen-Archiv*, Bd. II (1906-1909)], p. 203; Carlo M. Cipolla, ed., *The Fontana Economic History of Europe. 4, 1-2, The Emergence of Industrial Societies*, 2 vols. (London; Glasgow: Collins, 1976), vol. 1, p. 60, and Jean-Pierre Rioux, *La Révolution industrielle, 1780-1880*, points. Série histoire; 6 (Paris: Editions du seuil, 1971), p. 163.

تسانده قوة القانون والدولة التي تَعتبر سلطته أمراً ضرورياً ونافعاً[18].

ذلك أن «السيد»، صغيراً كان أم كبيراً، لا السلطة الاعتبارية اللاشخصية لـِ «الشركة» هو الذي يحكم المشروع التجاري، بل إن الشركة تعرَّف بصاحبها لا بمجلس إدارتها. وبالنسبة لأغلب الناس، وفي واقع الأمر كذلك، كانت الرأسمالية تعني مؤسسة تجارية يديرها رجل واحد، أو عائلة واحدة. إلا أن ذلك أثار مشكلتين تتصلان ببنية الشركة؛ هما: توفير رأس المال، والإدارة.

كانت الشركات التجارية خلال النصف الأول من القرن التاسع عشر تموَّل، على العموم، تمويلاً خاصاً ـ من الأصول التي تمتلكها العائلة على سبيل المثال ـ ثم تتوسع عن طريق إعادة استثمار الأرباح، مع أن ذلك قد يعني أن الشركة، بعد أن يتقيد أغلب رأسمالها على هذا النحو، قد تعتمد إلى حد كبير، على الاعتمادات المالية لإدارة عملياتها الراهنة. غير أن الأمر غدا أكثر صعوبة مع ازدياد كلفة هذه المبادرات، وبخاصة خطوط السكة الحديد، والتعدين والأنشطة الأخرى المرتفعة التكاليف التي يتطلب الشروع فيها مخصصات مالية عالية. وتجلت تلك الصعوبة، على نحو خاص، في البلدان الحديثة التصنيع التي تفتقر إلى تراكمات ضخمة من رأس المال الاستثماري الخاص. والواقع أن بعض البلدان كان لديها هذا المخزون الرأسمالي الوفير لا للوفاء باحتياجاتها

---

(18) كانت المادة 414 من القانون الفرنسي، التي عُدلت عام 1864، تجرّم كل من يحاول أو يسبب أو يواصل توقف العمال الجماعي عن العمل بقصد رفع الأجور أو خفضها بأي شكل من الأشكال، ما يشكل تدخلاً في ممارسة الصناعة أو العمالة بحرّية، عن طريق العنف، أو التهديد، أو الخداع. وحتى لو لم يكن ذلك النموذج الذي وضع على غراره التشريع المحلي، كما كانت الحال في إيطاليا؛ فإنه كان يمثل موقع القانون الشامل تقريباً. انظر: Guido Neppi Modona, *Sciopero, potere politico e magistratura 1870-1922*, Biblioteca di cultura moderna; no. 679, Prefazione di Alessandro Galante Garrone (Bari: Laterza, 1969), p. 51.

المحلية فحسب، بل ليعتمد عليه باقي الاقتصاد العالمي ويسحب منه (إذا ما عُرضت لقاء ذلك نسبة الفائدة المناسبة). وفي هذه الفترة استثمر البريطانيون خارج بلادهم كما لم يفعلوا في أي وقت أو، على ما يرى البعض، كما لم يفعلوا، نسبياً، منذ ذلك الوقت حتى الآن. كذلك فعل الفرنسيون، ربما، من الوجهة النظرية، على حساب صناعاتهم التي تباطأ نموها بالمقارنة مع منافسيها. غير أنه كان على البريطانيين والفرنسيين ابتكار طرائق جديدة لحشد تلك المدخرات، وتحويلها إلى المشروعات المطلوبة، ولتنظيم الشركات المساهمة بدلاً من الأنشطة التي يدعمها التمويل الخاص.

كان الربع الثالث من القرن التاسع عشر، إذاً، حقلاً خصباً للتجارب من حشد رأس المال لأغراض التنمية الصناعية. وإذا وضعنا بريطانيا جانباً بوصفها الاستثناء الأبرز، فإن هذه التجارب اعتمدت، بطريقة أو بأخرى، على البنوك، إما بصورة مباشرة أو من خلال «الاعتماد المالي الدوّار» (Credit mobilier)، وهو نوع من شركات التمويل الصناعي التي نافست البنوك المعتادة مُعتبرة إياها وسيلة قاصرة، أو غير معنيّة، بالتمويل الصناعي. وقد وضع النواة النموذجية لهذا الأسلوب، الأخوان بيريير (Pereier)، وهما من أرباب التصنيع النشيطيْن اللذين استلهما آراء سان سيمون (Saint-Simon)، وتمتعا ببعض الدعم من نابليون الثالث. ونشرا الفكرة في كل أنحاء أوروبا، ودخلا معترك المنافسة المرّة مع عائلة روتشيلد، ولم تُعجب الأخيريْن الفكرة، غير أنهما اقتديا بها، وهو ما يحدث في العادة خلال فترات الازدهار، عندما تزهو نفوس المولين، وتبدأ النقود بالتدفق. كما جرى تقليدها مراراً، ولا سيما في ألمانيا. وكانت الاعتمادات الدوارة هي البدعة السائدة في تلك الآونة، وعلى الأقل حتى كسب آل روتشيلد معركتَهم مع آل بيريير وغامر بعض المشغّلين، كما يحدث غالباً في فورات الازدهار، بتجاوز الخطوط الهلامية الفاصلة بين التفاؤل التجاري والاحتيال. وعلى الرغم من ذلك، ابتكرت أساليب متنوعة أخرى لتحقيق أغراض مشابهة،

وعلى رأسها ما يسمى بنك الاستثمار أو (Banque d'affaires). كذلك ازدهرت بالطبع، على نحو غير مسبوق، الأسواق المالية التي غدت الآن تتاجر في المقام الأول بأسهم مشروعات الصناعة والنقل، ففي عام 1856، طرحت بورصة باريس وحدها للتداول أسهُمَ 33 شركة للسكة الحديد والنقل البحري، و38 من شركات المناجم، و22 من شركات التعدين، و11 للشحن البحري، و7 للحافلات والناقلات البرية، و11 للغاز، علاوة على 42 شركة صناعية تراوحت أنشطتها بين النسيج، والحديد المُغَلْفَن (حديد مطلي بطبقة من التوتياء المعدنية لمنع الصدأ)، والمطاط، مما كانت قيمته نحو 5,5 مليون فرنك ذهبي؛ أي ما يعادل أكثر من ربع الائتمانات المالية المتداولة[19].

تُرى، إلى أي حد كانت هذه الأساليب الجديدة مطلوبة لحشد رأس المال؟ وإلى أي مدى كانت فاعلة؟ إن أرباب الصناعة لم يكن يروق لهم المولون على الإطلاق، وحاول الصناعيّون التقليل، قدر المستطاع، من تعاملهم مع البنوك. إن بلدة «ليل»، كما كتب أحد المراقبين عام 1866: «ليست مدينة رأسمالية؛ إنها، في المقام الأول والأخير، مركز صناعي وتجاري عظيم»[20]. يعيد رجال الأعمال فيه استثمار أرباحهم في مزيد من النشاط التجاري، ولا يعبثون بتلك الأرباح، وهم يأملون ألا يضطروا إلى الاقتراض إطلاقاً. وما من صناعي يريد أن يضع نفسه تحت رحمة الدائنين. ومع ذلك، فإنه قد يجد نفسه مرغماً على ذلك، فقد نمت شركة كروب بين الأعوام 1855 و1866 بسرعة فائقة إلى حد نفد فيه رأسمالها. وثمة نموذج تاريخي لافت يُستدل منه على أنه كلما ازداد

---

(19) Pierre-Joseph Proudhon, *Manuel du spéculateur à la bourse* (Paris: Garnier frères, 1857), pp. 429 ff.

(20) Bertrand Gille, in: Carlo M. Cipolla, ed., *The Fontana Economic History of Europe*, [6 vols.] (London; Collins: Fontana, 1973), vol. 3: *The Industrial Revolution*, p. 278.

تخلف الاقتصاد وتأخره في البدء بالتصنيع، ازداد اعتماده على الأساليب الجديدة الواسعة النطاق لحشد المدخرات وإدارتها. وكانت موارد القطاع الخاص وأسواق رأس المال قد بلغت مستوى مناسباً في البلدان المتقدمة. وفي أوروبا الوسطى، اضطرت البنوك والمؤسسات المماثلة إلى أن تتصرف على نحو أكثر منهجية وانتظاماً بوصفها هي التي «تطور» التاريخ. أما في الشرق، والجنوب، ومناطق ما وراء البحار، فقد اضطرت الحكومات نفسها إلى التدخل، إما لتأمين رأس المال أو، على الأغلب، للتأكد من أن المستثمرين سيضمنون ـ أو أنهم «سيعتقدون» بأنهم سيضمنون ـ حصصهم التي تستطيع وحدها أن تدفعهم إلى تشغيل أموالهم، أو الاستعاضة عن ذلك بالانخراط في أنشطة اقتصادية بديلة. ومهما كان مدى الصحة في هذه النظرية، فإن ما لا شك فيه أن البنوك والمؤسسات المماثلة أدّت في تنمية الصناعة وإداراتها في ألمانيا، وهي الوافد الجديد الكبير على الميدان الصناعي في تلك الفترة دوراً أكبر من دورها في الغرب. ومن الصعب التأكد من أن البنوك كانت تسعى من وراء ذلك إلى تحقيق أغراض معينة ـ مثل الاعتمادات الدّوّارة ـ أو أنها أفلحت في ذلك. وربما لم تبرع في ذلك إلا عندما هيمن كبار الصناعيين أنفسهم على تلك البنوك الكبيرة، بعد أن أدركوا حاجتهم إلى تعزيز التمويل بطرق أكثر تقدماً من وسائل الماضي البسيطة. وذلك ما فعله هؤلاء، بصورة مطّردة، في ألمانيا بعد عام 1870.

لم يؤثر التمويل كثيراً في تنظيم العمل التجاري، ولكنه أثّر في سياساته. وكانت مشكلة الإدارة أكثر صعوبة. ذلك أن النموذج الأساسي للمشروع التجاري الذي يمتلكه أو يديره الفرد أو العائلة، والأوتوقراطية العائلية الأبوية، أصبح، على نحو مطّرد، غير ذي بال لصناعات النصف الثاني من القرن التاسع عشر. «إن التعليمات الفضلى»، كما يقول كتيب إرشادي ألماني نُشر عام 1868: «هي ما يصدر شفوياً. وليكن من يصدرها دائماً هو المقاول نفسه، الكلّي البصيرة، الشامل الحضور، المستديم الجاهزيّة، الذي تتعزّز أوامره

الشخصية بطرح القدوة الحسنة التي يراها الموظفون ماثلة للعيان كل يوم»[21]. وهذه النصيحة، الصالحة لصغار أرباب العمل الحرفي الفني أو الزراعي، قد تكون ذات غناء في مكاتب المحاسبة الصغيرة نسبياً التابعة لكبار أصحاب البنوك والتجار. كما أنها ظلت صالحة طالما أن «التعليمات» كانت عنصراً جوهرياً من عناصر الإدارة في البلدان الحديثة التصنيع، ففي هذا الميدان، كان من الضروري إكسابُ العمال الفنيين ذوي التدريب الأساسي (وبخاصة في مجال التعدين)، المهارات التي يتمتع بها عمال المصانع المهرة. ويبدو أن الأغلبية العظمى من عمال كروب المهرة، بل عمال الشركات الألمانية المصنعة للآلات كافة، كانت تتلقى تدريبها في موقع العمل بالطريقة نفسها. ولم يكن بوسع أرباب العمل الاعتماد على عاملين عصاميين عموماً أو من ذوي الدربة والخبرة الصناعية إلا في بريطانيا. وتدين الإدارة الأبوية في العديد من المؤسسات التجارية القارّية الكبرى ببعض الفضل إلى الوشائج الوثيقة التي تنامت مع الزمن بين العمال والشركة التي ترعرعوا في أحضانها، إذا جاز التعبير، واعتمدوا عليها. بيد أن أرباب السكة الحديد، والمناجم، ومعامل الصلب لم يكن بوسعهم، في الواقع، أن يمارسوا مراقبة أبوية حثيثة على كل ما يقوم به عمالهم، وهم، بالتأكيد، لم يقوموا بذلك.

كان البديل التكميلي للتعليمات هو إصدار الأوامر. غير أن المؤسسات الرأسمالية الضخمة، بالفعل، لم تجد ما يمكن أن تسترشد به لا في استبداد العائلة ولا في العمليات الضيقة النطاق للصناعات الحرفية والأعمال التجارية. من هنا، كان من المفارقات أن الشركات الخاصة مالت، في أكثر مراحلها انفلاتاً وفوضوية، إلى الرجوع إلى

---

(21) Jürgen Kocka, «Industrielles Management: Konzeption und Modelle in Deutschland vor 1914,» *Vierteljahrschrift für Sozial- und Wirtschaftsgeschichte* (*VSWG*), vol. 56, no. 3 (October 1969), p. 336.

النماذج الوحيدة المتوفرة للإدارة الواسعة النطاق، التي على رأسها النموذجان العسكري والبيروقراطي. ونجد مثالاً متطرفاً على ذلك في شركات السكة الحديد، بعمالها المنضبطين المنظمين هرمياً، ويرتدون زيّاً موحداً، ويتمتعون بالأمن الوظيفي، وبالترقية في أغلب الأحيان على أساس الأقدمية، وحتى بالرواتب التقاعدية. ولم تكن جاذبية الألقاب والرتب العسكرية، التي شاعت كثيراً في أوساط الرعيل الأول من المتنفذين في السكة الحديد ومديري الموانئ الكبرى في بريطانيا، تكمن في الاعتزاز بتَراتُبية الجنود والمسؤولين كما كان الأمر في ألمانيا، بل في عجز القطاع الخاص عن استحداث شكل محدد لإدارة الشركات الكبيرة. ومن الواضح أن لتلك الجاذبية فوائدها من الوجهة التنظيمية، إلا أنها لم تستطع حل المشكلة المتمثلة في إبقاء العمال على رأس عملهم، مع المحافظة على روح الولاء والمثابرة والتواضع لديهم. وكان الوضع على ما يرام في البلدان التي شاع فيها ارتداء الزي الموحد، ما عدا بريطانيا والولايات المتحدة بالتأكيد، بغرض تعزيز فضائل الجندية بين العمال، ومن بينها القناعة بالأجر الزهيد.

إنني جندي، مجنّد في الصناعة

وأنا مثلك، لديّ رايتي

وعملي الذي جلب الثراء للوطن

وها أنا ذا أغذّ الخطى على طريق المجد[22].

ذلك هو ما أنشده الشُّوَيْعر النظَّام من مدينة ليل (فرنسا). ولكن الروح الوطنية، حتى في ذلك المكان، لم تكن كافية.

كان من الصعب على عصر رأس المال أن يتعايش مع هذه المشكلة.

---

(22) P. Pierrard, «Poésie et chanson ...à Lille sous le 2e empire,» *Revue du nord*, vol. 46 (1964), p. 400.

إن إصرار البورجوازية على الولاء، والانضباط والرضى القنوع لم يستطع، في الواقع، إخفاء الاختلاف في وجهات نظرها الحقيقية حول الحوافز التي تدفع الشغيلة إلى العمل. ولكن، ما هي؟ إن على العمال، نظرياً، أن يكدحوا لكي لا يعودوا عُمّالاً، وفي أسرع وقت ممكن، ويدخلوا عندها عالم البورجوازية. وعلى حد قول «إيْ. بي» عام 1867 في «أغانٍ ينشدها العمال الإنجليز»:

اعملوا، أيها الأولاد، وكونوا قانعين

طالما أن لديكم ما يكفي لشراء وجبة؛

والرجل الذي تعوّلون عليه

سيغدو ثرياً عما قريب

إذا ما دفع العجلة بكتفه[23].

وكان من الواضح كل الوضوح أن أغلب العمال سيظلون عمالاً طيلة حياتهم، بل إن النظام الاقتصادي يتطلب منهم ذلك، على الرغم من أن الأمل كان يخامر بعضهم في الخروج فعلاً من أوساط الطبقة العاملة، وربما كان يراود أعداداً أكبر ممن لم يتجاوزوا حدود الحلم بالنجاح عندما قرأوا كتاب صامويل سمايلز (Samuel Smiles) **العون الذاتي** (*Self-Help*) (1859)، أو كتيبات إرشادية أخرى مماثلة، فالوعد بعصا الماريشالية في جعبة كل مجند غرّ لم يقصد به أبداً أن يكون برنامجاً لترقية جميع الجنود إلى رتبة الماريشال.

وإذا لم تكن الترقية حافزاً مناسباً، فهل كانت النقود كذلك؟ لقد كان من البديهيات المأثورة في أوساط أرباب العمل في منتصف القرن التاسع عشر أن الأجور يجب أن تظل، قدر المُستطاع، في حدودها

(23) G. D. H. Cole and Raymond William Postgate, *The Common People, 1746-1946*, 2d Ed. (London: 23 Methuen, [1946]), p. 368.

الدنيا، على الرغم من أن المقاولين الأذكياء من ذوي الخبرة العالمية مثل بنّاء السكة الحديد توماس براسي (Thomas Brassey) كانوا قد بدأوا يشيرون إلى أن عمل الشغيلة البريطانيين المرتفعي الأجر كان في، واقع الأمر، أقل كلفة من عمل الحمّال الذي يتقاضى أجراً تافهاً؛ لأن مستوى الإنتاجية عالٍ جداً لديهم. بيد أن مثل هذه الأحاجي لم تكن كافية لإقناع رجال الأعمال الذين ترعرعوا في أحضان النظرية الاقتصادية المتمثلة في «صندوق الأجر»، التي كانوا يرون فيها دليلاً علمياً على أن رفع الأجور أمر مستحيل، وأن نقابات العمال، من ثم، سيكون مصيرها الفشل لا محالة. غير أن «العلم» أصبح أكثر مرونة نحو عام 1870، عندما أصبحت التنظيمات العمالية طرفاً فاعلاً دائماً في حلبة الصناعة، لا مجرد فورة عرضية قصيرة الأجل. وقد عدّل علامة الاقتصاد العظيم جون ستيورات مِلْ (الذي كان يتعاطف شخصياً مع العمال) من موقفه تجاه هذه المسألة عام 1869، ففقدت نظرية «صندوق الأجر» بعدها سلطتها المهيبة. ومع ذلك، لم يطرأ تغيّر على مبادئ العمل التجاري، ولم تعد هناك غير قلة قليلة من أرباب العمل مستعدة لدفع أجور أعلى، إلا إذا اضطرت إلى ذلك.

وإذا ما وضعنا الاقتصاد جانباً، فإن الطبقة الوسطى في بلدان العالم القديم كانت تعتقد أن العمال يجب أن يكونوا فقراء، لا لأن الفقر خصلة أصيلة مستدامة فيهم فحسب، بل كذلك لأن الدونية الاقتصادية هي المؤشر الصحيح على الدونية الطبقية، فإذا كان بعض العمال خلال فترة الازدهار الكبير عامي 1872 ـ 1873، على سبيل المثال، يحصلون بالفعل على ما يكفي ليستمتعوا بعض الوقت بالرفاهية التي يعتبرها أرباب العمل حقاً لهم ـ وذلك ما يحدث أحياناً ـ فإن إحساسهم بالسخط والنقمة سيكون صادقاً وعميقاً. فما شأن العمال بآلات البيانو الفخمة والشمبانيا؟ وقد يكون الأمر مختلفاً كل الاختلاف في بلدان تُعاني نقص الأيدي العاملة، والتراتبية الاجتماعية غير المكتملة، وتتميز بفئات سكانية مشاكسة وديمقراطية؛ أما في بريطانيا، وفرنسا، وألمانيا،

وإمبراطورية الهابسبيرغ، وخلافاً لما هو في أستراليا أو الولايات المتحدة، فإن الحد الأقصى اللائق الذي تطمح إليه الطبقة الكادحة هو توفر غذاء كافٍ وطيب وجيد (وحبذا لو صاحبه قدر أقل من الشراب القوي)، وسكنٍ لا اكتظاظ فيه، وملبس مناسب للمحافظة على الصحة والأخلاق، والراحة، ولكن من دون المخاطرة بمحاكاة من هم أفضل حالاً منهم. وكان من المؤمل أن التقدم الرأسمالي سيختصر المسافة في المستقبل بين العمال وتلك الحدود القصوى. إلا أن من المؤسف أن كثيرين منهم ظلوا دون ذلك المستوى (مع أن ذلك لم يكن أمراً غير مرغوب فيه، لأنه حافظ على تدني الأجور). وعلى الرغم من ذلك، فإن ارتفاع الأجور بما يزيد على تلك النسبة كان أمراً خطيراً، وغير ضروري، وغير مرغوبٍ فيه.

كانت النظريات الاقتصادية من جهة، والافتراضات الاجتماعية التي انطوت عليها ليبرالية الطبقة الوسطى من جهة أخرى، تقفان، في واقع الأمر، على طرفي نقيض. وبمعنى من المعاني، كانت الغلبة للنظريات، ففي تلك الفترة، حُوّلت العلاقة مع الأجر، بصورة متزايدة، إلى مجرد علاقة مع السوق، أي إلى مردودٍ نقدي. من هنا، رأينا الرأسمالية البريطانية تتخلى في ستينيات القرن عن إرغام العمال غير الاقتصادي (مثل قوانين السادة والخدم التي كانت تعاقب العمال بالسجن على انتهاكهم للاتفاقات)، وعقود الاستخدام الطويلة الأمد (مثل «الرباط السنوي» لعمال مناجم الفحم في الشمال)، والدفعات للشاحنات، بينما جرى تقصير معدل فترة الاستخدام، وخفض مدة دفع الأجور تدريجياً إلى أسبوع في المعدل، بل إلى حسابها باليوم أو الساعة، ما جعل الصفقات في السوق أكثر حساسيةً ومرونة. ومن ناحية أخرى، كانت الطبقات الوسطى ستصاب بالصدمة والفزع لو أن العمال طالبوا بالفعل بنوع الحياة التي تمتعت بها بوصفها أمراً مفروغاً منه، وبصدمة أكبر لو غدوا على وشك تحقيقها. إن عنصر اللامساواة في الحياة وفي التوقعات كان قائماً في صلب النظام.

وقد حدَّ ذلك من الحوافز الاقتصادية التي كانت النظريات الاقتصادية على استعداد لتقديمها، فقد كانت على استعداد لربط الأجور بالمخرجات من خلال أنظمة عدة لتقييم «العمل بالقطعة»، وذلك ما كان شائعاً على ما يبدو في تلك الفترة، مع التأكيد على أن من الأجدر بالعمال أن يشعروا بالامتنان لمجرد أنهم وجدوا فرصة للعمل أصلاً، لأن ثمة طوابير طويلة من الاحتياطي ما زالت تقف في الخارج بانتظار مثل هذه الفرصة.

كان لنظام دفع الأجور على أساس النتائج فوائدُ واضحة: وقد وصفه ماركس بأنه أنسب شكل من أشكال دفع الأجور بالنسبة للرأسمالية، فهو يمنح العامل حافزاً حقيقياً لتكثيف جهوده، ومن ثم رفع مستوى إنتاجيته، ويقدم ضمانة ضد التراخي في العمل، ووسيلة تلقائية لخفض الأجور المستحقة في فترات الكساد، كما أنه، من خلال حساب العمل بالقطعة، سيخفض كلفة الأيدي العاملة ويمنع الأجور من تجاوز الحدود العليا التي تعتبر ضرورية أو مناسبة. كما أن هذا النظام يفصل العمال بعضهم عن بعض، لأن مداخيلهم ستكون شديدة التفاوت حتى في المؤسسة الواحدة، وستختلف أساليب الدفع تماماً باختلاف أنواع العمل. وفي بعض الأحيان، كان العمال المهرة يمثلون طائفة فرعية من المقاولين، ويتقاضون أجرهم بحسب إنتاجهم، وهم الذين يتولون بدورهم استخدام مساعديهم من العمال غير المهرة، ودفع أجورهم على أساس المياومة والإشراف على أدائهم للعمل وفق جدول زمني محدد. غير أن المشكلة كانت تكمن في أن استحداث العمل بالقطعة (ما لم يكن جزءاً من التقاليد) كان يواجه بالمقاومة، وبخاصة من جانب المهرة، كما أنه كان يتسم بالتعقيد والإبهام لا بالنسبة للعاملين فحسب، بل كذلك لأرباب العمل الذين لم تكن لديهم، في أغلب الأحيان، غير فكرة غامضة عن المعايير التي سيضعونها للإنتاج. يُضاف إلى ذلك أن نظام العمل ذلك لم يكن قابلاً للتطبيق في مهن أخرى. وقد حاول العمال التخلص من تلك الجوانب السلبية بإعادة إدخال مفهوم

الأجر الأساسي «القياسي» الثابت الذي لا يمكن إنقاصه، من خلال النقابات العمالية أو الممارسات غير الرسمية. كما حاول المستخدمون من جانبهم تحاشي تلك الشوائب من خلال نظام أطلق عليه دُعاتُه الأمريكيون اسم «الإدارة العلمية»، غير أنهم كانوا في تلك المرحلة يحاولون الوصول إلى هذا الحل.

ربما أفضى ذلك إلى تشديد التركيز على الحافز الاقتصادي الآخر. فإذا كان ثمة عامل واحد يهيمن على حياة العمال في القرن التاسع عشر فهو عامل «عدم الأمان». فلم يكن الواحد منهم يعلم أول الأسبوع مقدار ما يحضره إلى بيته آخر الأسبوع. كما لم يكن يعرف المدة التي سيستغرقها عمله الراهن أو أنه، إن فقده، سيجد عملاً آخر، ووفق أي شروط. ولم يكن يعلم كذلك متى سيقع له حادث أو يصيبه مرض. ومع أنه كان يدرك أنه في لحظة ما من أواسط العمر ـ ربما في الأربعينيات للعامل غير الماهر، والخمسينيات للأكثر مهارة ـ سيغدو عاجزاً عن أداء عمل جسماني كامل لشخص بالغ، فإنه لم يكن يعرف ما سيحدث له منذ ذلك الوقت حتى وفاته. ولم يكن عدم الأمان الذي يحس به أمثال ذاك العامل شبيهاً بما يشعر به الفلاحون الذين يعيشون تحت رحمة الكوارث الدورية، والأكثر فتكاً في الواقع، جراء الجدب والمجاعة، ولكنهم يستطيعون التكهن، بقدر من الدقة، بالكيفية التي سيمضي بها الفقير، سواء أكان رجلاً أم امرأة، أكثر أيام العمر من المهد إلى اللحد. لقد كان قلق أولئك العمال أبعد غوراً، على الرغم من أن جانباً مهماً منهم ربما كانوا يعملون فترة طويلة من الزمن لصالح رب عمل واحد. بل إن الاستقرار في العمل لم يكن متوفراً حتى للعمال ذوي المهارة العالية: ففي فترة الكساد عام 1857 ـ 1858، انخفض عدد العاملين في الصناعة الهندسية في برلين بنحو الثلث[24]. ولم يكن ثمة ما يماثل

---

(24) Hans Mottek, *Wirtschaftsgeschichte Deutschlands* (Berlin: [n. pb.], 1973), vol. II, p. 235.

الضمان الاجتماعي الحديث، إلا ما يتصل منه بأعمال الخير والإغاثة من الفقر المدقع، أو جانبٍ من كليهما أحياناً.

بالنسبة لعالم الليبرالية، كان عدم الأمان ذاك هو الثمن الذي يجب تكبده لقاء التقدم والحرية كليهما، ناهيك عن الثروة، وكان استمرار التوسع الاقتصادي هو الذي جعل احتماله أمراً ممكناً. لقد كان من الواجب ابتياع هذا الأمان ـ أحياناً على الأقل ـ ولكن ليس لصالح الرجال والنساء الأحرار، بل، وفق المصطلح الإنجليزي الواضح، لصالح «الخدم» ـ الذين تعرضت حريتهم لقيود مشددة: أي خدم المنازل، و«خدم السكة الحديد»، وحتى «رجال الخدمة المدنية» (أو المسؤولين في القطاع العام). بل إن الأغلبية، حتى في أوساط هؤلاء، أي خدم المنازل الحضر، لم يتمتعوا بالأمان من جانب العائلات التي كانت تفضل استخدامهم، وهي أسر النبلاء والوجهاء، بل كانوا على الدوام عرضة للهواجس في أسوأ حالاتها، جرّاء التهديد بالطرد الفوري من الخدمة مع الحرمان من «شهادة حُسن السلوك»، أي من التوصية من جانب رب البيت السابق، أو بالأحرى ربة البيت، بتشغيلهم لدى مستخدِمٍ آخر في المستقبل. ذلك أن عالم البورجوازيين المستقر نفسه لم يكن يعتَبر آمناً في الأساس؛ فقد كانوا يعيشون حالة حرب ربما يسقطون فيها ضحايا للمنافسة، أو الاحتيال، أو الكساد الاقتصادي، مع أن رجال الأعمال المعرضين لمثل هذه المخاطر كانوا، في واقع الممارسة، يمثلون الأقلية في أوساط الطبقة الوسطى. وقلما كانت العقوبة هي العمل اليدوي، ناهيك عن إصلاحيات الأحداث، فقد كان الخطر الأكبر الذي يواجهونه تجاه النساء اللواتي كن، رغماً عنهن، عالةً عليهم، هو وفاة الرجل ـ مصدر رزق العائلة.

وقد أسهم التوسع الاقتصادي في تخفيف حدة عدم الأمان المستمر ذاك. وليس ثمة من دليل كاف على أن الأجور الحقيقية قد بدأت ترتفع بصورة ملموسة في أوروبا حتى أواخر الستينيات من ذلك القرن. ولكن

حتى قبل ذلك الوقت، كان ثمة شعور عام لا يخفى على العيان بتحسن ملموس في الأوضاع في البلدان المتقدمة، مقارنةً بما كانت عليه الحال في الثلاثينيات والأربعينيات المضطربة الحافلة باليأس. فلم يتولد اضطراب اجتماعي جدّي في أعقاب ارتفاع تكاليف المعيشة في كل أرجاء القارة الأوروبية عام 1853 ـ 1854، ولا بسبب الكساد العالمي الحاد عام 1858. والحقيقة أن الازدهار الاقتصادي العظيم قد خلق مجالات للعمل، على نطاق غير مسبوق، داخل البلد وللمهاجرين إلى الخارج. وكانت فترات الكساد الدوري في البلدان المتقدمة تُعتبر لحظات من التعثر في النمو، لا دليلاً على الانهيار الاقتصادي. ومن الواضح أنه لم يكن هناك نقص مطلق في الأيدي العاملة، لأن احتياطي الجحافل الوافدة من الأرياف (داخل البلد وخارجها) كانت آنذاك تزحف «بصورة جماعية» على أسواق العمالة الصناعية. غير أن قدوم هؤلاء الوافدين وحدّة المنافسة التي جلبوها معهم لم يلحقا الضرر بما يتفق البحاثة على اعتباره تحسّناً مُتميزاً، وإن كان متواضعاً، في بيئة وظروف العمل بكاملها للطبقة العاملة، كما أن ذلك لم يغير شيئاً في زخم التوسع الاقتصادي واتساع نطاقه.

غير أن العامل، خلافاً لأفراد الطبقة الوسطى، كان على قيد شعرة من العوز. وكان عدم الأمان، من ثَمّ، هَمّاً حقيقياً ودائماً بالنسبة له. وكان من يستطيعون العيش على مدخراتهم أسابيع أو شهوراً قليلة «طبقة نادرة»[25]. بل إن أجور المهرة منهم كانت، في أحسن حالاتها، متواضعة. وفي الأحوال العادية، كان المشرف العامل مع أطفاله السبعة في مصنع لغزل النسيج في بريستون، ويتقاضى أربعة جنيهات عن أسبوع عمل كامل موضعَ حسد من جانب جيرانه. ولكن ما هي إلا بضعة أسابيع من مجاعة القطن في لانكاشير (جراء تعثر إمدادات المواد

(25) Edwin Waugh, *Home-Life of the Lancashire Factory Folk during the Cotton Famine* (London: Manchester, [1867]), p. 13.

الخام خلال الحرب الأهلية الأمريكية) حتى غدت أمثال تلك العائلة تقيم أودها بالتبرعات الخيرية. وكان على من يسلك طريق الحياة الاعتيادية، بل المحتمة، أن يتجاوز أكثر من هوّة سحيقة، هذا إذا لم يسقط في إحداها: من مولد الأطفال، إلى الشيخوخة والتقاعد. ففي بريستون، كان من المتوقع أن يعيش تحت خط الفقر 52 في المئة من جميع عائلات الطبقة العاملة ممن كان أطفالها دون سن العمل، ويعمل البالغون منها بدوام كامل في سنة من سنوات الخير (1851)[26]. أما الشيخوخة، فكانت كارثة يجب قبولها والصبر عليها. ذلك أنها كانت تعني انخفاضاً في القدرة على الكسب مقارنةً بما كان عليه المرء في سن الأربعين، وانحساراً في قوة الجسم، وبخاصة لدى الأقل مهارة - يليها الفقر الذي لا يبعد كثيراً عن مرتبة الحاجة إلى التبرعات الخيرية وأعمال الإغاثة. غير أن منتصف القرن التاسع عشر كان يمثل الحقبة الذهبية لمن هم في أواسط العمر من أفراد الطبقة الوسطى، حين يبلغ الرجال ذروة حياتهم الوظيفية، وأعلى مستويات الدخل والنشاط، قبل أن يفعل الانحطاط الفسيولوجي فعلَه. أما المستضعَفون، من الشغيلة من الجنسين، ومن النساء من جميع الطبقات، فلم يشهدوا ربيع العمر إلا في ريعان الشباب.

إن الحوافز الاقتصادية وعدم الأمان على السواء لم يوفّرا، إذاً، الآليات العامة الفاعلة لإبقاء العمال على رأس عملهم؛ ويعود السبب إلى أن نطاق الحوافز كان محدوداً، مثلما أن الجانب الأكبر من عنصر عدم الأمان بدا، أو كان بالفعل، مثل الأحوال الجوية، أمراً يستحيل تحاشيه. وكان من الصعب على الطبقة الوسطى أن تفهم ذلك، فلماذا يقدم العمال الأكثر وقاراً وقدرة على تشكيل النقابات العمالية، طالما أنهم يتقاضون أعلى الأجور ويتمتعون بفرص العمل الأكثر انتظاماً؟ بيد

(26) Michael Anderson, *Family Structure in Nineteenth Century Lancashire* (Cambridge: [Eng.] University Press, [1973]), p. 31.

أن هذا النوع من الرجال هو الذي كان يمثل العنصر الأساسي في النقابات، وهو الذي تولى زعامتها بالتأكيد، مع أن الأساطير البورجوازية صورتهم جماعةً من الدهماء الأغبياء المضَلَّلين ممن أثار حميّتهم المشاغبون الذين لم يكن بمقدورهم أن يعيشوا حياة مريحة بغير ذلك. ولم يكن ثمة جانب غامض في هذا الأمر بطبيعة الحال. فلم يكن العمال الذين كان أرباب العمل يتنافسون للفوز بهم مفاوضين أقوياء نيابةً عن النقابات فحسب، بل الأكثر وعياً على أن «السوق» وحدها لا تؤمن لهم الأمان ولا الحقوق التي يعتبرونها مستحقة لهم.

ومع ذلك، فإن العمال، سواء نظموا أنفسهم أم لا، قدموا لأرباب العمل حلاً لمشكلة إدارة القوى العاملة: فقد كانوا، على العموم، راغبين في العمل، وكانت توقعاتهم غاية في التواضع. وكان المهاجرون غير المهرة، أو الأغرار الوافدون من الأرياف فخورين بقوتهم، وقد قِدموا من بيئة يعتبر العمل الشاق فيها معياراً لقيمة الشخص، وتُختار الزوجات لا لجمالهن، بل لقدرتهن على العمل. وفي ذلك يقول ملاحظ أمريكي لأحد مصانع الصلب عام 1875: «علمتني تجربتي الشخصية أن الألمان، والأيرلنديين، والسويديين، والآخرين الذين أُسميهم «الحنطة السوداء» - أي الأولاد الأمريكيين الريفيين - سيشكلون إذا ما خلطناهم بصورة حكيمة قوة عمل هي الأكثر كفاءة وطواعية مما يمكن أن تجده على الإطلاق؛ والحقيقة أنهم أفضل من الإنجليز المهذارين الذين يتقاضون أجوراً عالية لقاء الإنتاج الشحيح والإضرابات»[27].

من جهة أخرى، كانت الحوافز السابقة على الرأسمالية، وهي الدربة الحرفية والفخر الفني الحرفي هي التي تحرك العمال المهرة. ويتضح ذلك بأجلى صوره في الآلات الحديد والنحاسية التي طُرقت

(27) Oscar Handlin, *Immigration as a Factor in American History* (Englewood Cliffs, N. J.: Prentice-Hall, 1959), pp. 66-67.

وخُرطت ولُمعت يدوياً، وبمحبة، وظلت قيد الاستعمال الكامل (طالما توفرت) بعد قرن كامل من صنعها. ويمكننا أن نتلمس اعتزاز صانعيها بما صنعوا من استعراض قوائم الآلات التي عرضت في المعارض الدولية آنذاك، على الرغم من مظهرها المنفر من الناحية الجمالية. إن هؤلاء الرجال لم يتعودوا الخضوع للأوامر أو للإشراف، بل كانوا بالفعل خارج حدود السيطرة، إلا ما كان يدور بين جماعة المشغل. كما أنهم غالباً ما أظهروا امتعاضهم من الأجر على أساس القطعة، ومن أي وسيلة أخرى للانتقاص من جودة العمل المحترم. وإذا كانوا لا يعملون أكثر ولا أسرع مما تتطلبه مهماتهم، فإنهم لم يتعمدوا كذلك التباطؤ في عملهم أو الإقلال منه: فليس ثمة من يقدم لهم حوافز خاصة ليعرضوا أفضل ما عندهم. وكان شعار الواحد منهم: «يوم عمل طيب، لقاء أجر يوم طيب». وإذا كان الآخرون يدفعون المال للواحد منهم لاسترضائه، فإنه كان يتوقع، بثقة أن يبذل قصارى جهده لإرضائهم وإرضاء الآخرين.

والواقع أن نهج العمل هذا غير الرأسمالي، في جوهره، كان أنفع لأرباب العمل منه للعمال أنفسهم. ذلك أن المشترين في سوق العمل عملوا بمبدأ الشراء في أرخص الأسواق، والبيع في أغلاها. إلا أن البائعين لم يكونوا يطلبون الحد الأقصى من الأجر المناسب تجارياً، ويعرضون بالمقابل الحد الأدنى من العمال الذين يستطيعون الحصول عليهم. لقد كانوا يسعون إلى حياة كريمة كغيرهم من البشر. وربما كانوا يحاولون «تحسين أوضاعهم». لأنهم، باختصار، كانوا، على الرغم من إدراكهم للفرق بين الحدود الدنيا والقصوى للأجر، يريدون الانخراط في الحياة الإنسانية لا في المعاملات الاقتصادية[28].

(28) ظهر مثال متطرف لهذه المفارقة في ميدان مشاهدة الألعاب الرياضية الاحترافية، مع أن الأشكال المحدثة لهذه الرياضات كانت في بداياتها الأولى في تلك الفترة، فقد كان على لاعب الكرة البريطاني المحترف، الذي ظهر في أواخر السبعينيات من ذلك القرن، حتى بعد الحرب العالمية الأولى، أن يلعب في الأساس مقابل أجر منتظم، علاوة على السمعة=

III

ولكن، هل نستطيع، على الإطلاق، أن نتحدث عن «العمال» بصفتهم فئة أو طبقة واحدة؟ ما هو القاسم المشترك الذي ربط بين جماعات متمايزة أغلب الأحيان من حيث البيئة، والأصولُ الاجتماعية، والتكوين، والوضع الاقتصادي، وحتى اللغة والتقاليد أحياناً؟ إنه ليس الفقر، لأن دخلهم كان متواضعاً بمقاييس الطبقة الوسطى، باستثناء من عملوا منهم في خمسينيات القرن في الفردوس الأسترالي، حيث كان منضّد الحروف في مطبعة صحفية يتقاضى 18 جنيهاً في الأسبوع[29]. أما بمقاييس الفقراء، فثمة فرق شاسع بين طرفين، فهناك، من جهة، «الحرفي الفني» العالي الأجر، الماهر، المستخدم بصورة منتظمة تقريباً، الذي يرتدي نسخة مقلَّدة من ثياب الطبقة الوسطى المحترمة أيام الأحد أو حتى في ذهابه إلى العمل وقدومه منه. وهناك، من جهة أخرى، المُعدم الذي يتضور جوعاً ويكاد لا يدري من أين ستأتي اللقمة التي يسد بها رمقه، ناهيك عن رمق عائلته. إن ما كان ما يجمع بين تلك الفئات كلها، في واقع الأمر، إحساسها المشترك بالعمل اليدوي وبالاستغلال، ويجمعها، بصورة متزايدة، أسلوب واحد لكسب الرزق. كما يوجد انفصال مطّرد بينها وبين بورجوازية تتعاظم ثروتها على نحو مثير بينما ظلت هي في وضع متزعزع، فيما كانت تلك البورجوازية تتمتع بالمزيد من الاكتفاء الذاتي في موقعها المتغطرس، وتسد الطريق

= الطيبة، والعطايا التي تنهال بين حين وآخر، مع أن قيمته النقدية في سوق التحويل المالي ستصل عما قريب إلى آلاف الجنيهات. وتمثل اللحظة التي توقع فيها نجم الكرة أن يتقاضى ما يعادل قيمته في السوق نقطة تحول أساسية في هذه الرياضة؛ وذلك ما تحقق في الولايات المتحدة قبل أوروبا.

(29) Jim Hagan and C. Fisher, «Piece-Work and Stone of its Consequences in the Printing and Coal Mining Industries in Australia, 1850-1930,» *Labour History*, vol. 25 (November 1973), p. 26.

أمام كل من يفكر الانضمام إليها من المراتب الاجتماعية الدنيا[30]. وهناك كان يتجسد كل الفرق بين الروابي المتواضعة المريحة التي كان العامل الناجح أو العامل السابق يفكر أو يحلم باحتمال صعودها من جهة، وأكداس الثروة المذهلة من جهة أخرى. وما كان يدفع بالعمال إلى تنمية الوعي المشترك لم يقتصر على هذا الاستقطاب الاجتماعي المتضاد، بل عززه، في المدن على الأقل، أسلوب مشترك للحياة أدى فيه المقصف أو الحانة (وهي، كما وصفها أحد الليبراليين البورجوازيين، «كنيسة العامل") دوراً مركزياً، وكذلك أسلوب مشترك للتفكير. وكان الأقل وعياً بين العمال أميل ضمناً إلى النزعة العَلْمانية. والأكثر وعياً كانوا راديكاليين، وغدا أنصار «الأممية» في الستينيات والسبعينيات من ذلك القرن أتباعاً للاشتراكيين. وقد تلازمت الظاهرتان؛ لأن الدين التقليدي كان على الدوام رابطة توحيدية من خلال التأكيد الشعائري على تماسك الجماعة. إلا أن المواكب والاحتفالات الجماعية كانت قد بدأت بالضمور في مدينة «ليل» خلال الإمبراطورية الثانية. كما أن صغار العمال الحرفيين في فيينا، الذين لاحظ لو بلاي (Le Play) في الخمسينيات ورعهم البسيط وابتهاجهم الساذج بالأبّهة الكاثوليكية، لم يعودوا يأبهون لمثل هذه الأمور. وخلال أقل من عقدين، تحولوا بإيمانهم إلى الاشتراكية[31].

---

(30) في مدينة لِيْلْ، ارتفعت نسبة أفراد «الطبقة العليا» (البورجوازية) من 7 في المئة إلى 9 في المئة من السكان بين عام 1820 والأعوام 1873 ـ 1875، غير أن نسبة الثروات التي دونها هؤلاء في وصاياهم ارتفعت من 58 في المئة إلى 90 في المئة. أما أبناء «الطبقات الشعبية» فخلفوا ما يتراوح بين 23.0 في المئة فحسب من الإرث الوصائي. وفي عام 1821، لم تكن هذه النسبة المتواضعة في جميع الحالات تتجاوز 1,4 في المئة. انظر: Alain Plessis, *De La Fête impériale au mur des fédérés: 1852-1871*, collection points. Série histoire. Nouvelle histoire de la France contemporaine; 9 (Paris: Editions du seuil, 1973), p. 157.

(31) Eugen Peter Schwiedland, *Kleingewerbe und Hausindustrie in Österreich* = *Beiträge zur Kenntnis ihrer Entwicklung und ihrer Existenzbedingungen*, 2 vols.

ولا ريب أن جماعات «الفقراء الكادحين» المتغايرة الخواص والعناصر نزعت إلى الانضمام إلى «كتلة بروليتارية» في المدن والأقاليم الصناعية. ويشهد على ذلك تعاظم أهمية النقابات العمالية في الستينيات، كما أن وجود «الأممية»، ناهيك عن قوتها كان لولا تلك الجماعات أمراً مستحيلاً. ومع ذلك، لم يكن «الفقراء الكادحون» مجرد تجمع لجماعات متباعدة. لقد انصهروا في جماعة واحدة واسعة متجانسة من المقهورين الساخطين، ولا سيما في لحظات التأزم والعجز في النصف الأول من ذلك القرن. لكن هذا التجانس تبدد آنذاك، فقد عرض عهد الرأسمالية الليبرالية المستقرة المزدهرة على «الطبقة العاملة» إمكانية تحسين أوضاعها الجماعية من خلال التنظيم الجماعي. بيد أن من ظلوا فئات «فقيرة» مبعثرة لم يستفيدوا كثيراً من النقابات العمالية، وكانت إفادتهم أقل من «جمعيات العون المتبادل». ذلك أن النقابات، بوجه عام، كانت تنظيمات للأقليات التي تتمتع بمعاملة تفضيلية، مع أن الإضرابات الجماعية كانت قادرة على حشد الجماهير. يضاف إلى ذلك أن الرأسمالية الليبرالية عرضت على العامل الفرد فرصاً متميزة للتحسن، وفق الشروط البورجوازية. وهذه هي الفرص التي لم يكن السكان العاملون قادرين أو راغبين في اغتنامها.

من هنا، حدث صدع في جسم ما أصبح يسمى، بصورة مطّردة، «الطبقة العاملة»، ففُصل «العمال» عن «الفقراء»، أو بعبارة أخرى، «المحترمين» عن «غير المحترمين». وعلى الصعيد السياسي[32]، فصل هذا الصدع بين «الحرفيين الأذكياء» الذين حرص راديكاليو الطبقة الوسطى البريطانيون على اجتذاب أصواتهم من ناحية، والجماهير المعوزة الخطرة التي عقدوا العزم على استبعادها من ناحية أخرى.

(Leipzig: Duncker and Humblot, 1894), vol. 2: *Besonderer Teil. Die Wiener = Muscheldrechsler*, pp. 264-265, and 284-285.

(32) انظر الفصل التاسع من هذا الكتاب.

ليس ثمة مصطلح يصعب تحليله أكثر من «المُحتَرَميّة» (Respectability) في أوساط الطبقة الوسطى في أواسط القرن التاسع عشر، لأنه يعبر، في آن معاً، عن تغلغل قيم الطبقة الوسطى ومقاييسها، والتوجهات التي لم يكن للطبقة الوسطى أن تحقق احترام الذات بغيرها، وعن حركة النضال الجماعي المستحيل: لقد كان المصطلح ينطوي على الوقار، والتضحية، والاكتفاء المؤجل. وكان التمايز سيتجلى بصورة كافية لو أن حركة العمال كانت ثورية بشكل أوضح، أو على الأقل منفصلة عن عالم الطبقة الوسطى (كما كانت قبل عام 1848، وكما أصبحت، في ما بعد، في فترة «الأممية الثانية»). غير أنه كان من المتعذر في أغلب الأحيان في الثلث الأخير من القرن التاسع عشر وضع خطوط مميزة بين التطوير الذاتي والتطوير الجماعي، محاكاة الطبقة الوسطى من جهة، وإلحاق الهزيمة بها، إذا جاز التعبير، باستخدام أسلحتها الخاصة من جهة أخرى. تُرى، أين سنضع شخصاً مثل وليام ماركروفت (William Marcroft) (1822 ـ 1894)؟ يمكننا أن نعتبره تجسيداً متواضعاً لمفهوم صامويل سمايلز عن العون الذاتي ـ فهو ابن غير شرعي لعلاقة بين خادمة في مزرعة وعامل للنسيج، لم يكن لهما حظ من التعليم الرسمي على الإطلاق. وقد ارتقى بنفسه من عامل نسيج في أولدهام ليصبح مشرفاً في شركة هندسية، إلى أن تمكن عام 1861 من أن يفتح عيادة بصفته طبيب أسنان مستقلاً، ويحقق قبل وفاته ثروة تُقدر بخمسة عشر ألف جنيه، وهي مبلغ لا يستهان به على الإطلاق في تلك الأيام لشخص ليبرالي راديكالي ظل طيلة حياته يدعو إلى الاعتدال. ومع ذلك، فإن الفضل في موقعه المتواضع في التاريخ، إنما يعود إلى حماسه طيلة عمره للإنتاج التعاوني (أي الاشتراكية عن طريق التطوير الذاتي) الذي كرّس له أيامه. وفي الاتجاه المعاكس، يقف وليام ألان (William Allan) (1813 ـ 1874) الذي لم يكن ثمة شك في إيمانه بالصراع الطبقي، وفي ميله، كما يقول النعي الصادر عند وفاته، «على الانتماء لمدرسة روبرت أوين (Robert Owen) حول القضايا

الاجتماعية». إلا أن هذا العامل الراديكالي، الذي ترعرع في المدرسة الثورية قبل عام 1848، قد ترك بَصْمته على تاريخ الحركة العمالية بوصفه مديراً حذراً ومعتدلاً وكفوءاً لواحد من أعظم الاتحادات النقابية التي أقيمت للعمال المهرة وفق «النموذج الجديد»، ألا وهو «الجمعية المدمجة للمهندسين»؛ وكان، في الوقت نفسه، رجلاً متديناً ممارساً من أتباع الكنيسة الإنجليزية، ومن الناحية السياسية «ليبرالياً ملتزماً على الدوام، لا تستهويه الشعوذة السياسية بأي حال من الأحوال»[33].

والواقع أن العامل القادر الذكي، وبخاصة الماهر، كان آنذاك يقدم الدعم للرقابة الاجتماعية والانضباط الصناعي لكل من الطبقة الوسطى، والكوادر الأكثر نشاطاً في أوساط الدعم الذاتي الجماعي للعمال. وقد قدم النوع الأول من الدعم لأن الرأسمالية المستقرة المزدهرة الآخذة بالتوسع كانت بحاجة إليه، ووفرت له فرصة التحسن المتواضع، وإن كانت في كل الأحوال كما يبدو عاجزة عن ذلك، فهي لم تعد تبدو مجرد مرحلة عابرة مؤقتة. وفي الاتجاه الآخر، فإن الثورة الكبيرة لم تكن مثل الدفعة الأخيرة للثورة الماضية دفعةً أولى من تغيير قادم أعظم أثراً: لقد كانت، في أحسن حالاتها، ذكرى رائعة حافلة بالألوان البهيجة، وفي أسوأ الحالات كانت دليلاً على عدم وجود طريق مختصرة إلى التقدم. غير أنه قدم النوع الثاني من الدعم لأن الطبقة العاملة كانت تدرك أن السوق الليبرالية الحرة وحدها لن تفيهم حقوقهم وتلبي حاجاتهم، ولأن تلك البلدان، ربما باستثناء الولايات المتحدة، وعدت الفقراء بمخرج شخصي من نطاق الفقر الذي عاشوا فيه طيلة حياتهم، وعللت العمال بمنفذ خاص من دائرة الطبقة العاملة، ومننت جميع المواطنين بالمساواة في ما بينهم. وكان على العمال، من ثم، أن ينظموا أنفسهم ويخوضوا المعركة. وقد أسهم في تحول حزب الليبراليين

---

(33) Joyce M. Bellamy and John Saville, eds., *Dictionary of Labour Biography*, vol. 1, p. 17.

[الأحرار] البريطاني إلى حزب قادر، بشكل حقيقي، على اجتذاب الجماهير. كما أن «الأرستقراطية العمالية البريطانية»، وهي طبقة خاصة حصراً بذلك البلد الذي لم يكن فيه لطبقة صغار المنتجين وأصحاب المتاجر المستقلين وزن يُذكر مثل الشريحة الدنيا من الطبقة الوسطى المؤلفة من ذوي الياقات البيض والبيروقراطيين، شكلت، في الوقت نفسه، النواة الصلبة للحركة النقابية المنظمة على نحو غير معهود في العادة. وفي ألمانيا، اندفع حتى العمال «المحترمون» إلى صفوف البروليتاريا جراء المسافة التي كانت تفصل بينهم وبين البورجوازية، وقوة الطبقات الوسيطة. وهنا أخذ الرجال المنتسبون في الستينيات إلى جمعيات «التحسن الذاتي» (Bildungsvereine) ـ وكان منها 1000 نادٍ عام 1863، ونحو 2000 في بافاريا وحدها عام 1872 ـ ينأون بأنفسهم بسرعة عن ليبرالية الطبقة الوسطى التي تميزت بها هذه الهيئات، وليس بالضرورة بشكل كاف عن ثقافة الطبقة الوسطى التي تلقنوها(34). وأصبح هؤلاء في وقت لاحق هم كوادر الحركة الديمقراطية ـ الاجتماعية الجديدة، ولا سيما في أعقاب الفترة التي نعالجها في هذا الكتاب. غير أنهم عكفوا على تطوير ذواتهم في كل الأحوال، وكانوا «محترمين» لأنهم كانوا يحترمون أنفسهم، وحملوا معهم الجوانب السيئة والحسنة في كيانهم المحترم ذاك إلى حزبي لاسال (Lassalle) وماركس. ولم تكن تلك «المحترمية» عاملاً لا أهمية له نسبياً، أو عنصراً يقتصر على الطبقات الوسطى ومَن والاها، إلا عندما تبين أن الثورة هي الحل «الوحيد» المعقول لأوضاع الفقراء الكادحين، أو أن تقاليد الانتفاض والجمهورية الثورية، كانت، كما في فرنسا، هي التقاليد السياسية السائدة في أوساط العمال.

وماذا عن الآخرين؟ إننا، في الواقع، لا نكاد نعلم شيئاً على الإطلاق عن هؤلاء، غير ما كانوا يعيشون فيه من فقر وقذارة، مع أنهم

(34) Engelsing, «Zur politischen Bildung der deutschen Unterschichten, 1789-1863,» p. 364.

كانوا أكثر تعرضاً للاستقصاء من الطبقات العاملة «المحترمة» (ولكن بنسبة أقل في ذلك الجيل مقارنة بما قبل عام 1848 وبما بعد عام 1880). إنهم لم يعبروا عن آراء عامة، وقلما اتصلت بهم تلك المنظمات، والناشطون النقابيون، سواء أكانوا سياسيين أم غير ذلك، ممن كانوا يتهافتون على اجتذابهم. بل إن «جيش الخلاص»، الذي أُسِّس تحديداً لخدمة الفقراء «غير المحترمين»، لم يفلح في أن يكون (بأزيائه وفِرَقه الموسيقية، وأناشيده البهيجة) أكثر من إضافة مشكورة إلى جماعات الترفيه في المجال العام. ومصدر مفيد من مصادر الأنشطة الخيرية. والواقع أن المنظمات التي عززت من قدرة الحركات العمالية لم تكن عملية بالنسبة لكثيرين من غير المهرة أو العاملين في حِرَف مُعْرِقة مُنهكة. وقد أخذت تيارات مؤثرة من الحركات السياسية الصاعدة باستقطابهم مثل الميثاقية في أربعينيات القرن: فكان جميع بائعي الخضار المتجولين في لندن، ممن وصفهم هنري مايهو(Henry Mayhew)، من الميثاقيين. وكانت الثورات الكبرى مصدراً للإلهام، وإن لفترات وجيزة، حتى للمقموعين اللاسياسيين. وكانت مومسات باريس من أشد أنصار كومونة باريس عام 1871. إلا أن عمر الانتصار البورجوازي لم يكن يماثل عمر الثورات ولا حتى عمر الحركات السياسية في أوساط الجماهير الشعبية. وربما لم يكن باكونين (Bakunin) يجانب الصواب تماماً عندما افترض أن الروح الانتفاضية المحتملة على الأقل في تلك الآونة كانت ستنفجر على الأغلب في أوساط المهمّشين وأشباه البروليتاريين، غير أنه جانب الصواب كلياً في اعتقاده بأنهم سيكونون هم قاعدة الحركات الثورية. وقد ساندت طوائف شتى من الفقراء كومونة باريس، غير أن الناشطين بينهم كانوا من العمال والحرفيين الأكثر مهارة؛ كما أن القسم الأكثر تهميشاً بين الفقراء، وهم المراهقون، كانوا على مستوى متدنٍ من التمثيل. أما البالغون، ولا سيما من ظلوا منهم يتمتعون بحافظة قادرة على التذكر، وإن بقدر بسيط، فكانوا هم القيمون على انتفاضة عام 1871.

لم يكن الخط الفاصل بين الكادحين الفقراء والمناضلين المحتملين في أوساط الطبقة المحتملة خطّاً حاداً حاسماً، غير أنه كان قائماً على أي حال. لقد كان التَنَظُّم، أي التشكل الحر الواعي للجمعيات الديمقراطية الطوعية، هو المعادلة السحرية للعهد الليبرالي؛ بل إنه الأسلوب الذي نمت من خلاله حتى الحركات العمالية التي تخلت عن الليبرالية[35]. وكان بوسع الراغبين أو القادرين على «التنظّيم» الفاعل في أحسن الحالات، أن يتحاشوا أو، على الأقل، أن ينظروا شزراً في أسوأ الحالات، إلى غير القادرين وغير الراغبين، وفي مقدمهم النساء اللواتي استُبعدن تقريباً من شكليات الانتساب، والإجراءات النظامية، والعضوية. وكانت حدود هذا الجانب من الطبقات العاملة، المتداخلة مع حدود المستقلين من الحرفيين، وأصحاب المتاجر، وحتى صغار المقاولين، الذين بدأ الإقرار بهم باعتبارهم قوة اجتماعية وسياسية، تتطابق تماماً وحدود عالم النوادي التي تضم جمعيات العون المتبادل وجماعات الأخويات الخيرية (التي كانت لها طقوسها الخاصة على العموم)، وفرق المُنشدين، ونوادي الرياضة والجمباز، وحتى المنظمات الطوعية الدينية. كما ضمت هذه الجماعات، على الجانب الآخر من الطيف المجتمعي، النقابات العمالية والجمعيات السياسية. واشتمل ذلك، بدرجات متفاوتة ولكنها مهمة، على جزء من الطبقة العاملة ـ

(35) Rudolf Braun, *Sozialer und kultureller Wandel in einem ländlichen Industriegebiet (Zürcher Oberland) unter Einwirkung des Maschinen- und Fabrikwesens im 19. und 20. Jahrhundert* (Erlenbach-Zürich; Stuttgart: E. Rentsch, [1965]), p. 139.

يستخدم هذا المصطلح لتلك الفترة تحديداً. وكتبه القيمة الممتازة. انظر: Rudolf Braun, *Industrialisierung und Volksleben, die Veränderungen der Lebensformen in einem ländlichen Industriegebiet vor 1800, Zürcher Oberland* (Erlenbach-Zürich: E. Rentsch, [1960]),

هي من المراجع الضرورية بهذا الصدد.

ربما بلغ في بريطانيا 40 في المئة مع نهاية تلك الفترة. بيد أن أعداداً غفيرة ظلت خارج هذا النطاق. وكان هؤلاء من أهداف الحقبة الليبرالية لا من موضوعاتها. أما الآخرون، فقد انتظروا ونالوا ما يكاد يكفيهم: بل إنهم اكتفوا بأقل من ذلك.

إذا أعدنا النظر في تلك الفترة، يتعذر علينا أن نرسم صورة متوازنة لأحوال أولئك الناس العاملين جميعهم. إن نطاق البلدان التي نشأت فيها المدن الحديثة والصناعة الحديثة كان آنذاك أكثر اتساعاً مما هو عليه الآن، وكذلك كان نطاق المراحل التي تمثل التنمية الصناعية فيها. وليس من السهل في هذه الحالة إطلاق التعميمات التي ستكون محدودة القيمة، حتى وإن قصرناها ـ كما يجب ـ على البلدان النامية، مقارنةً بالمتخلفة، وعلى الطبقات العاملة الحضرية مقارنةً بالقطاعات الزراعية والفلاحية. وتكمن المشكلة في ضرورة حفظ التوازن بين حالتين، فهناك، من جهة، الفقر الحاد الذي هيمن على معيشة الكادحين، والبيئة الطبيعية المنفرة والفراغ المعنوي الذي اكتنف حياة الكثيرين منهم. وهناك، من جهة ثانية، التحسن العام المؤكد في ظروفهم والفرص التي فتحت أمامهم منذ أربعينيات القرن. وكأنما كان الناطقون بلسان البورجوازية يهنئون أنفسهم عندما يؤكدون جوانب التحسن، مع أن أحداً منهم لن ينكر مقولة السير روبرت غيفن (Robrt Giffen) (1837 ـ 1900) حين نظر إلى نصف القرن السابق على عام 1883 في بريطانيا، وتوخّى الكياسة في وصفه للأوضاع آنذاك بأنها «ثُفْلٌ (ترسبات) غير مُحسَّن بعد»، أو أن التحسن «يظل في منتهى الضآلة، حتى لو استخدمنا لتقييمه مقاييس متدنية»، أو «ما من امرئ يتأمل أحوال جماهير الناس ولا يتمنى ثورة ما تفضي إلى الأحسن»[36]. أما المصلحون الاجتماعيون الأقل إحساساً بالرضى، فمع أنهم لم ينكروا التحسن ـ بما فيه التحسن الكبير الذي طرأ على نخبة العمال ممن وجدوا أنفسهم مع ندرة

---

(36) *Industrial Remuneration Conference* (London: [n. pb.], 1885), p. 27.

مؤهلاتهم النسبية في سوق دائمة للبائعين ـ إلا أنهم لم يعطوا مثل هذه الصورة الوردية عن الأوضاع. إذ تقول الآنسة إيديث سيمكوكس (Edith Simcox)، في أوائل الثمانينيات من القرن التاسع عشر كذلك:

«يبقى. . . نحو عشرة ملايين من عمال البلدة، بمن فيهم مشغلو الآلات، والشغيلة، ممن لا يخيم على حياتهم الخوف في العادة من «الذهاب إلى الكنيسة»، ولا يمكن وضع خط واضح وحاسم بين العمال الذين يصنفون «فقراء»، والعمال الذين يصنفون غير ذلك؛ فهناك تدفق متبادل مستمر إلى كلا الاتجاهين. يضاف إلى ذلك أن الكثيرين ممن يعانون الإجحاف المزمن في ما يتقاضونه، وكذلك الصناع الفنيين، والحرفيين، والوافدين من الريف، إنما يغرقون في وهدة البؤس. وليس من السهل أن نخمن كم من هؤلاء الملايين العشرة قد ينضمون، أو يفلحون في الانضمام إلى أرستقراطية الطبقة العاملة المزدهرة، أي إلى ذلك الجانب الذي يختلط به السياسيون، أو يأتي منه من يتوهمون أن المجتمع سرعان ما يرحب بهم باعتبارهم «ممثلي الشغيلة». . . إنني أُقرّ أنني لن أخاطر بالأمل في أن يكون أكثر من مليونين من العمال المهرة، الذين يمثلون ما مجموعه خمسة ملايين عامل، يتمتعون دائماً بحياة متواضعة . . . تتميز بالراحة والأمان النسبي . . . أما الخمسة ملايين الآخرين، فأنهم يشملون الشغيلة والعمال الأقل مهارة، ذكوراً وإناثاً، ممن تكاد الحدود القصوى لأجورهم لا تكفي لتغطية ضرورات الحياة والاحتياجات الأساسية للعيش اللائق، وممن تتحول أي عثرة تعترض طريقهم إلى فقر مدقع سرعان ما يدفعهم إلى مستنقع العوز»[37].

إن بعض التفاؤل يشوب هذه الانطباعات المطّلعة الحسنة النية. ولذلك سببان: **الأول** (كما تُبين المسوح الاجتماعية التي غدت متوافرة

(37) المصدر نفسه، ص 26 و30.

اعتباراً من ثمانينيات القرن) هو أن العمال الفقراء ـ الذين كانوا يشكلون نحو 40 في المئة من الطبقة العاملة في لندن ـ بالكاد تمتعوا بـ «الاحتياجات الأساسية للعيش اللائق»، حتى بالمقاييس التقشفية التي طُبقت آنذاك على الفئات الدنيا. أما السبب **الثاني**، فهو أن التمتع بـِ«حياة متواضعة تتميز بالراحة والأمان النسبي» لم يكن يعني الكثير. إن الشابة بياتريس بوتر (Beatrix Potter)، التي عاشت، مجهولة الهوية، بين عمال النسيج في باكَب، لم يكن يساورها الشك في أنها شاركت «الطبقة العاملة المرتاحة» حياتها ـ وهي الفئات التي تضم المنشقين، والتعاونيين؛ أي جماعة وثيقة التماسك لا مكان فيها للعابرين والمُهمّشين و«غير المحترمين»، وهي تعيش في بحبوحة عامة، ويمارس أفرادها «أعمالاً عالية الدخل عظيمة المكسب»، وفي «أكواخ مريحة جيدة الأثاث، ويتناولون الشاي الفاخر». غير أن هذه المراقبة الدقيقة الملاحظة كانت تصف هؤلاء الناس أنفسهم، من دون أن تدرك طبيعة من تراقبهم: إنهم منهكون جسدياً جراء العمل الشاق خلال فترة النشاط المكثف، وهم لا يأكلون أو يشربون إلا القليل، ويحول الإعياء الجسدي بينهم وبين الجهد الثقافي. إنهم يعيشون تحت رحمة «ظروف عديدة يتعرضون فيها للانهيار والفشل، وتؤدي إلى فقدان الراحة الجسدية». لقد رأت في ورع هؤلاء الرجال والنساء الطهرانيّ البسيط ردَّ فعل على الخوف من «حياة فانية خائبة».

«إن «الحياة في المسيح»، والأمل في حياة أخرى يجلبان الراحة والرقة لتلطيف حدة الصراع من أجل البقاء، والتخفف من وطأة الولع التواق لطيّبات هذا العالم، والاستعاضة عنها بـِ«دنيا أُخْرَوية»، وبتصوير الإخفاق على أنه «من دلائل النعمة» وليس نزوعاً مُعيباً إلى النجاح»[38].

---

(38) Beatrice Potter Webb, *My Apprenticeship*, 2 vols. (Harmondsworth: Middlesex, Eng., Penguin Books Limited, [1938]), pp. 189, and 195.

إنها ليست صورة لمجوّعين يتأهبون للاستيقاظ من سباتهم العميق. ولا لرجال ونساءٍ يشعرون بأنهم «أفضل، بل أفضل بكثير، مما كانوا عليه قبل خمسين سنة»، أو لطبقة «تمتع أفرادها بالمباهج المادية كلها خلال الخمسين سنة الماضية» (غيفن)[39]، كما اعتقد علماء الاقتصاد الليبراليون القانعون الجهلة. إنها صورة لأناسٍ تمتعوا باحترام النفس واعتمدوا على أنفسهم، وكانت تطلعاتهم متواضعة إلى حدّ يدعو للرثاء. وقد أدركوا أن أوضاعهم كان من الممكن أن تكون أسوأ من ذلك. وربما تذكروا زماناً كانوا فيه أفقر حالاً، بيد أن شبح الفقر (كما فهموا هذا المصطلح) كان يخيم عليهم على الدوام. إن مقاييس حياة الطبقة الوسطى لن تعود قط إلى ما كانت عليه لمثل هؤلاء، غير أن العوز والإدقاع كانا ماثلين للعيان، إن «على المرء ألا يغالي في التمتع بالطيبات، فإن المال سرعان ما يتبدد»، على حد قول واحد من مضيفي بياتريس بوتر، وهو يضع على رف الموقد، بعد نَفَسٍ أو نفسين، من سيجارة قدمتها إليه، ليدخنها في ليلة الغد. إن من ينسى أن هذه هي الطريقة التي فكر فيها الرجال والنساء في طيبات الحياة في تلك الآونة لن يكون قادراً على الإطلاق على تفهم التحسن الحقيقي الذي جلبه التوسع الرأسمالي الكبير لجانب مهم من الطبقات العاملة خلال الربع الثالث من القرن التاسع عشر. بيد أن الهوّة التي كانت تفصل بينهم وبين البورجوازيين كانت واسعة لا يمكن تجسيرها.

---

(39) *Industrial Remuneration Conference*, pp. 27, and 30.



الفصل الثالث عشر

العالم البورجوازي

أنت تعلم أننا ننتمي إلى قرن يُقيِّم فيه الرجال على أساس ما لديهم. وإذا كان سيد من السادة خائر الهمة قليل العزم، فإنه سيُرغم ذات يوم على النزول من الرتبة الاجتماعية التي كانت تبدو مُخصصة له على الدوام، ليحل مكانه موظف كتابي ذكي جسور.

مدام مُوتْ ـ بوسو إلى ابنها، 1861[1].

انظروا إلى أطفاله الصغار حوله، يستظلون بدفء ابتسامته،
وتشرق على وجوههم المغتبطة براءة الطفولة والبهجة.
إنه مُقدس، وهم يُجِلّونه، وهو مُحب، وهم يحبونه،
وهو مستقيم وهم يوقرونه، وهو حازم، وهم يخافونه.
وأصدقاؤه هم خير الرجال.
وها هو الآن يدخل بيته الأنيق.

مارتن توبّر، 1876[2].

(1) ورد في: L. Trénard, «Un Industriel roubaisien du XIX siècle,» *Revue du nord*, vol. 50 (1968), p. 38.

(2) Martin Farquhar Tupper, *Proverbial Philosophy in Four Series; now First Complete* (London: [n. pb.], 1876).

I

لنلقِ الآن نظرة على المجتمع البورجوازي. إن الظواهر الأكثر سطحية تكون، في بعض الأحيان، هي الأكثر عُمقاً، فلنبدأ تحليلنا لذلك المجتمع، الذي بلغ أوجه في تلك الفترة، بدراسة أزياء الملابس التي كان الناس يرتدونها آنذاك، والأجواء الداخلية التي عاشوا بين ظهرانيها. يقول المثل الألماني: «الملبس هو الذي يصنع الإنسان». ولم يكن هناك عصر أكثر وعياً لذلك من العصر الذي كان فيه الحراك الاجتماعي يضع العديد من الناس في وضع تاريخي جديد يؤدون فيه أدواراً اجتماعية جديدة (ومتفوقة) تتطلب منهم، من ثم، أن يرتدوا أزياء مناسبة. إذ لم يكن قد مضى وقت طويل منذ أن وضع النمساوي نستروي (Nestroy) ملهاته المُسلّية المُرّة **التميمة** (*The Talisman*) (1840). التي تتغير فيها، بصورةٍ مثيرة، أحوال شخص فقير أحمر الشعر عندما يكتسب، ثم يُضيع، جُمةً من الشعر الأسود المستعار. لقد كان بيت البورجوازي هو لُباب العالم البورجوازي وجوهره، ففيه، وفيه وحده، يمكن تناسي المشكلات والتناقضات التي يزخر بها المجتمع من حوله، ويمكن تذليلها بطريقة مصطنعة. هنا، وهنا فقط، يستطيع البورجوازي، وكذلك العائلة البورجوازية الصغيرة، أن يتعللوا بسعادة متناغمة تراتبية، تكتنفها المصنوعات والزينات المادية اليدوية التي تعبر عنها وتدل عليها، والحياة الحالمة التي تجسدت تجلياتها القصوى في شعائر بيتية طورت، على نحو منهجي، لهذا الغرض، ألا وهي احتفالات عيد ميلاد المسيح. لقد كان عشاء عيد الميلاد (الذي احتفى به الروائي تشارلز ديكنز)، وشجرة الميلاد (التي اخترعت في ألمانيا، ثم شاعت بسرعة بفعل الرعاية الملكية في إنجلترا)، وأنشودة عيد الميلاد - التي عُرفت أكثر ما عُرفت بأصلها الجرماني (Stille Nacht) - نقول إن هذه المظاهر كلها كانت ترمز، في آن معاً - إلى برود العالم الخارجي، ودفء الوسط العائلي في الخارج، والمفارقة بين العالمين.

كان الانطباع الأولي المباشر الذي تُعطيه أجواء المنزل الداخلية في

أواسط القرن يوحي بالاكتظاظ والتكتم. فثمة أكوام من العاديات، تخفيها في أكثر الأحيان الستائر، والوسائد، والأقمشة، وورق الحائط. وهي، على اختلاف أنواعها، زاخرة بالتفصيلات والإضافات. فلا صورة بغير إطار مُذهّب، أو محدَّد، أو منحوت أو حتى مُغطى بالمخمل، ولا كرسي بغير تنجيد أو غطاء. ولا قطعة قماش بغير طُرَّة، ولا قطعة خشب بغير لمسة من المخرط، ولا سطح بغير غطاء أو زينة فوقه. كان ذلك، ولا شك، دليلاً على الثروة، والمكانة: فالتقشف الجميل الذي تبدّى في أثاث بيدرماير كان يعكس مدى الاستقامة والنزاهة في المعاملات المالية البورجوازية في الأقاليم الجرمانية أكثر مما يدل على رهافة الذوق، كما أن الأثاث في غرف الخدم في البيوت البورجوازية كان غاية في الكآبة. والأشياء تعكس كلفتها. وفي الوقت الذي كانت فيه أغلب التحف البيتية مصنوعة يدوياً، فإن التفصيلات والإضافات، علاوة على المواد الثمينة، كانت مؤشراً على مستوى التكلفة، فالكلفة تجلب الراحة، وذلك ما كان يتجلى للعيان مثلما كان يولّد الارتياح. غير أن تلك العاديات كانت أكثر من أدوات نفعية أو رموز للمكانة والإنجاز، فلها، بحد ذاتها، قيمتها الخاصة بوصفها تعبيراً عن السمات الشخصية، ومؤشراً على نهج الحياة البورجوازية وواقعها، بل إنها أداة لصقل شخصية المرء وتحويلها من حال إلى حال. وكانت هذه الأشياء كلها متوافرة ومركّزة في المنزل، فاكتسبت، من هنا، قيمتها التراكمية الداخلية.

كانت هذه الأشياء «صلبة»، شأنها شأن المنازل التي احتوتها، وذلك هو المصطلح الذي درجت العادة على استخدامه كأفضل نعت لمشروع تجاري. لقد صنعت لتدوم، وقد دامت. وكان يجب عليها، في الوقت نفسه، أن تعبر من خلال جمالها، عن أسمى التطلعات الروحية في الحياة، إلا إذا كانت هي نفسها، بحد ذاتها، تلك التطلعات، مثل الكتب والآلات الموسيقية التي ما زالت تؤدي وظيفتها بإتقان مدهش، وبتصميمها القديم، باستثناء بعض الترميمات السطحية الثانوية، إلا إذا

كانت تستخدم لأغراض نفعية تماماً، مثل أدوات المطبخ وحقائب الأمتعة. كان الجمال يعني التزيين، لأن مجرد بناء البيوت البورجوازية وتأثيثها بالمتاع شأنه شأن قاطرات السكة الحديد والسفن البخارية، لم يكن كافياً للتعبير عن القيم الروحية والأخلاقية. فواجهات المنازل الخارجية ظلت تؤدي دورها كما هي؛ غير أن الزينة كانت هي البطانة الداخلية التي تخص العالم البورجوازي، مثل عربات النوم من طراز بولمان (1865)، وقمرات الدرجة الأولى والحجرات الفخمة في البواخر. لقد كان الجمال، إذاً، يعني التزيين والتزويق؛ أي شيئاً مضافاً على سطوح الأشياء الخارجية.

هذه الازدواجية بين الصلابة والجمال، إذاً، تعبر عن الفصل الحاد الذي ميز فيه العالم البورجوازي، بين المادي والمثالي، وبين الجسماني والروحي. غير أن الروح والمثال كانا يعتمدان على المادة، ولا يمكن التعبير عنهما إلا بالمادة أو، على الأقل، بالمال القادر على شرائها. ولم يكن هناك ما هو روحيّ أكثر من الموسيقى، ولكن الشكل المميز الذي دخلت به البيتَ البورجوازي كان البيانو، وهو جهاز بالغ الضخامة، كثير التفصيلات باهظ الكلفة، حتى عندما يخفض سعره ليناسب الطبقات الأخرى المتواضعة الطامحة إلى القيم البورجوازية الخالصة، وبمقاييس وأبعاد يمكن التعامل معهما. وعندها سيتغير اسمه إلى «بيانينو». ولم يكن المحتوى الداخلي للمنزل البورجوازي يكتمل إلا بهذا الجهاز؛ ولم يكن ثمة بنت في أي عائلة بورجوازية لم تمارس العزف لساعات لا نهاية لها على السلالم الموسيقية.

إن الصلة القائمة بين البُعدين الأخلاقي والروحي من جهة، والفقر من جهة أخرى - وهي التي كانت واضحة كل الوضوح في المجتمعات غير البورجوازية - لم تنقطع تماماً. فقد تم الإقرار بأن السعي الحثيث إلى القيم العليا قد لا يكون مُجزياً إلا في أنواع محددة من الفنون القابلة للمتاجرة، وقد لا يتحقق الازدهار، حتى هنا، إلا في سنوات

النضج اللاحقة: فالطالب الفقير، أو الفنان الشاب، بوصفهما من المدرسين الخصوصيين أو الضيوف على مائدة العشاء أيام الأحد، كانا جزءاً من أهل البيت البورجوازي، وعلى الأقل في أجزاء العالم التي تتمتع فيها الثقافة باحترام كبير. والنتيجة التي يمكن استخلاصها هنا لا تعني أن ثمة تناقضاً بين متابعة المنجزات المادية والفكرية، بل إن الواحدة منهما كانت بمثابة الأساس للأخرى. ومثلما وضعها الروائي إ. م. فورستر (E. M. Forster) في سياق عطلة الصيف البورجوازية: «عندما تتدفق الأرباح، تتسامى الأفكار الراقية». والفيلسوف المحظوظ الحَسَن الطالع هو من يكون أبوه من أصحاب البنوك، مثل جورج لوكاتش (George Lukács). وتكمن عظمة التعليم الألماني (أو المربي الخاص) (Privatgelehrter) في أنه كان يقوم على الدخل الخاص. ولا ضير في أن يتزوج اليهودي الفقير ابنةَ واحد من أثرى التجار المحليين؛ لأنه كان من المستهجن أن لا يقوم المجتمع المحلي الذي يحترم العلم بمكافأة اللامعين فيه إلا بعبارات المديح.

كانت ازدواجية المادة والفكر هذه تنطوي على قدر من النفاق لم يقتصر المراقبون غير المتعاطفين على اعتباره شائعاً وواسع الانتشار فحسب، بل عّدوه من الخصائص الجوهرية للعالم البورجوازي. وتجلى ذلك في أوضح صوره المنظورة، وبالمعنى الحرفي الملموس للكلمة، في موضوع الجنس. ولا يعني ذلك أن البورجوازي (الرجل) أو من كان يحلم بأن يكون كذلك، في أواسط القرن التاسع عشر، كان شخصاً مُخادعاً، يلقي مواعظه الأخلاقية في ناحية، ويمارس عامداً ما يناقضها في ناحية أخرى. ذلك أننا، في أغلب الأحيان، لا نتبين وجود المنافق الواعي إلا في الفجوة التي لا يمكن تجسيرها بين الأخلاق الرسمية ومتطلبات الطبيعة البشرية، كما كان الحال غالباً في تلك الفترة. ولا بد أنه كان على شخص مثل هنري وارد بيتشز (Henry Ward Beeches)، وهو داعية الطهرانية الكبير في نيويورك، إما أن يتجنب العلاقات الغرامية العاصفة خارج نطاق الحياة الزوجية، أو يختار مهنة لا تستلزم

منه أن يكون من دعاة العفة الجنسية. غير أن المرء لا يسعه إلا أن يتعاطف مع هذا الذي شاء حظه العاثر أن يرتبط في أواسط سبعينيات القرن بالمناضلة النسوية الجميلة الداعية إلى العلاقات الغرامية المتحررة، فيكتوريا ووذْهَلْ (Victoria Woodhull). وكان من شأن الدعوة التي روّجت لها هذه السيدة، أن الحياة الخاصة ستكون مسألة في منتهى الصعوبة[3]. ولكن من المغالطة الافتراض، كما فعل بعض المؤلفين الذين كتبوا مؤخراً عن «الفيكتوريين الآخرين»، بأن الأخلاق الجنسية في ذلك العصر كانت مجرد واجهة خارجية.

إن عنصر الرياء هذا لم يكن، بدايةً، مجرد أكذوبة إلا ربما في أوساط أولئك الذين كانت نزعاتهم الشهوانية عارمة ولا يمكن التصريح بها على الملأ، مثل حالة السياسيين البارزين ممن يعتمدون على أصوات الطهرانيين أو رجال الأعمال المثليي الجنس المحترمين في مدن الأقاليم. كما أن عنصر النفاق لم يكن وارداً على الإطلاق في البلدان (وبخاصة الكاثوليكية) التي كانت المقاييس المزدوجة الصريحة تلقى فيها القبول: العفاف للنساء البورجوازيات غير المتزوجات، والوفاء للمتزوجات، ملاحقة جميع الشبان البورجوازيين بحرّية للنساء، (ربما باستثناء الصالحات للزواج من بنات الطبقات المتوسطة والعليا، والتساهل في موضوع الخيانة الزوجية للمتزوجين منهم. وتكون قواعد اللعبة هنا مفهومة تماماً، بما فيها الحاجة إلى الاستتار في حالات معينة يكون فيها استقرار العائلة البورجوازية أو أملاكها مهددة بالخطر. إن «العاطفة»،

---

(3) تسببت هذه المرأة المدهشة، وهي إحدى شقيقتين جذابتين ومتحررتين بالقدر نفسه، ببعض الحرج لكارل ماركس جراء مساعيها لتحويل الفرع الأمريكي من «الأممية»، إلى منبر للدعوة إلى النزعة الروحية والعلاقات الغرامية الحرة. وأبلت الشقيقتان بلاءً حسناً بفضل علاقتهما مع الكومودور فاندبيلت، الذي كان يرعى شؤونهما المالية. وتزوجت فيكتوريا آخر الأمر وتوفيت، وسط مظاهر الاحترام، في وورتشسترشير، بريدون نورتون، إنجلترا. انظر: Emanie Nahm Arling, «*The Terrible Siren,*» *Victoria Woodhull (1838-1927) by Emanie Sachs* ... (New York: Harper & Brothers, 1928), Especially pp. 174-175.

كما يعتقد أفراد الطبقة الوسطى الإيطالية حتى الان، تكون في كفّة، بينما «أم أولادي» في كفة أخرى. ولم يدخل الرياء هذا النمط السلوكي إلا بافتراض أن المرأة البورجوازية ستظل خارج نطاق اللعبة تماماً؛ أي جاهلة بما قد يفعله الرجال أو غيرهن من النساء الأخريات. وفي البلدان الكاثوليكية، كان يفترض في أخلاقيات الاحتشام الجنسي أن تصدق على الطرفين وتكون ملزمة لهما، غير أن مجرد الوعي لهذه الضرورة بحد ذاته، حتى في نفوس المخالفين، قد دفعتهم إلى الغلوّ في الرياء بقدر غلوهم في تعذيب النفس. فلا يصح من الوجهة القانونية، معاملة شخص في مثل هذا الوضع معاملة النصابين.

يضاف إلى ذلك أن الأخلاقيات البورجوازية كانت تُطبق بالفعل إلى حد بعيد؛ بل إنها ربما ازدادت فاعلية مع تبني جماهير الطبقة العاملة «المحترمة» قيمَ الثقافة المهيمنة، وتضاعفت أعداد الشرائح الدنيا من الطبقة الوسطى التي حذت حذوها. وكما يتحسر أحد الكتب المرجعية في أواخر القرن التاسع عشر، فإن هذه القضايا لم تدر في خُلد البورجوازية العالمية المهتمة كل الاهتمام بـ «الإحصاءات الأخلاقية»، التي توقعت الإخفاق لأي محاولة لقياس مدى انتشار الدعارة. إن المحاولة الوحيدة الشاملة لقياس انتشار الأمراض التناسلية، ولها علاقة وثيقة واضحة بأنواع من العلاقات الجنسية خارج نطاق الزوجية، فلم تكشف عن الكثير، باستثناء القول إن نسبتها كانت في بروسيا، كما هو متوقع، أعلى بكثير في برلين الكبرى مما كانت عليه في أي إقليم آخر، (وتقل هذه النسبة في العادة تبعاً لحجم المدينة أو القرية)، وإنها بلغت ذروتها في الموانئ البحرية، والحصون العسكرية، ومعاهد التعليم العالي - أي في المواقع التي يتركز فيها بقوة وجود الشبان العُزّاب بعيداً عن بيوتهم[(4)]. وليس هناك ما يدعونا

---

(4) طُلب من الأطباء في بروسيا أن يعطوا أعداد جميع المرضى بالأمراض التناسلية في نيسان/ إبريل 1900. وليس ثمة ما يدعو إلى الاعتقاد بأن الأرقام النسبية التي قدموها ستكون مختلفة كثيراً عما كانت عليه قبل ذلك بثلاثين سنة. انظر: [Georg von Mayr, *Statistik* =*und Gesellschaftslehre*, 3 vols. (Freiburg i. Br.; Leipzig: Mohr, 1895-1917), vol. 3:

إلى الافتراض بأن الشخص العادي من الطبقة الوسطى أو أدنى في إنجلترا الفيكتورية أو في الولايات المتحدة قصر/قصّرت في المحافظة على مقاييس الأخلاق الجنسية. إن الصبايا الأمريكيات اللواتي فاجأن الرجال المتأففين الوافدين إلى باريس أيام نابليون الثالث بالحرية التي منحهن إياها الأهل للتجوال مع الشبان الأمريكيين في المدينة يقدمن دليلاً قوياً عن الأخلاقيات الجنسية، وذلك ما تقدمه، وربما بصورة أقوى مما تقدمها التقارير الصحفية عن تتبع جرائم الآداب في لندن في أواسط العصر الفيكتوري(5). ولا يصح هنا على الإطلاق أن نطبق المقاييس التي سادت بعد ـ فرويد على عالم ما قبل ـ فرويد، أو أن نفترض أن السلوك الجنسي في تلك الأيام كان لا بد أن يماثل سلوكنا اليوم، فوفقاً للمعايير الحديثة، فإن رهبانيّات العوام وكليات أكسفورد وكامبريدج في تلك الآونة ستبدو أشبه بالحالات المرضية المدونة في الكتب الدراسية، فما الذي سنظنه اليوم في مؤلف مثل لويس كارول (Lewis Carroll) الذي كان مولعاً بتصوير الصبايا الصغيرات عاريات؟ فوفقاً للمقاييس الفيكتورية، إن أسوأ الرذائل كانت، بالتأكيد، الشَّرَه لا الغُلْمة، وكان الذوق العاطفي لكثير من المدرسين الجامعيين

Moralstatistik mit Einschluss der Kriminalstatistik (Sozialstatistik 1. Teil), 1909], = pp. 43-45.

وحول الإحصاءات التي لا يمكن الركون إليها حول البغاء في تلك الفترة، انظر: المصدر نفسه، ص 988. وللعلاقة القوية بين البغاء والأمراض التناسلية، انظر: [Gunilla Johansson, «Prostitution in Stockholm in the Latter part of the 19th Century,» (Mimeo) (1974)].

وهناك تقديرات للانتشار ومعدل الوفيات من الزُهري في فرنسا، انظر: Theodore Zeldin, *France, 1848-1945*, Oxford History of Modern Europe, 2 vols. (Oxford: Clarendon Press, 1973-1977), vol. 1, 1974, pp. 304-306.

(5) ثمة تنويه بمدى حرية البنات الأمريكيات في الجزء الخاص بالأجانب في باريس في الكتاب الرائع: *Paris guide*, par les principaux écrivains et artistes de la France, 2 vols., 2. éd. (Paris: Librairie internationale, 1867).

للشباب، يتلخص بصورة مؤكدة تقريبا بصورة «أفلاطونية»، وهذا الاصطلاح له دلالاته، في سياق الهوى العابر الذي يستحوذ على النفس ثم يزول في نفوس الفقريات، وهم العزاب. أما في أيامنا هذه، فقد تحولت عبارة «فعل الحب» باللغة الإنجليزية إلى «المضاجعة الجنسية». لقد كان العالم البورجوازي يتوجس خيفة من الجنس، ولكن ليس بالضرورة من الإباحية الجنسية: إن آلهة الانتقام المعهودة في الفولكلور الأسطوري للبورجوازية، كما عبر عنها بوضوح الروائي توماس مانّ (Thomas Mann)، ستجيء في أعقاب سقطة «وحيدة» من مراتب النعمة، شأنها شأن مرض الزهري من الدرجة الثالثة الذي أصاب المؤلف الموسيقى آدريان ليفركون في **الدكتور فاوستوس** (*Dr. Faustus*). والذروة القصوى لمخاوفه إنما تعبر عن السذاجة السائدة، أو عن البراءة[6].

إن هذه البراءة، بعينها، تسمح لنا برؤية العنصر الجنسي القوي في عالم البورجوازية مُتجلياً تماماً في مَلْبَسها الذي يضم مزيجاً خارقاً للعادة من الإغواء والحَظْر. كان البورجوازي في أواسط العهد الفيكتوري ملفّعا بّالملابس، لا ينكشف منه شيء للآخرين غير الوجه، حتى في القيظ. وفي الحالات المتطرفة (كما في الولايات المتحدة) قد

---

(6) تكشفت قوة المقاييس الأخلاقية السائدة في البلدان البروتستانتية في أنماط سلوك ملاك العبيد في أمريكا الشمالية تجاه الإناث من الرقيق. وخلافاً للتوقعات، وللتوجهات السائدة في البلدان الكاثوليكية ـ المتوسطية ـ وكما يقول المثل الكوبي: «ليس ثمة ما هو أطيب من التمر الهندي أو العذراء الخلاسية»، يبدو أن حجم التوليد والتضريب بين جنس وآخر، أو بالأحرى العلاقات غير الشرعية، كان قليلاً في الجنوب الذي شاع فيه الرقيق. بالنسبة إلى كوبا، انظر: Verena Martinez Alier, «Elopement and Seduction in 19th Century Cuba,» *Past and Present*, vol. 55 (May 1972),

وفي ما يتعلق بالجنوب الأمريكي، انظر: Eugene D. Genovese, *Roll, Jordan, Roll: The World the Slaves Made* (New York: Pantheon Books, [1974]), pp. 413-430, and Robert William Fogel and Stanley L. Engerman, *Time on the Cross; the Economics of American Negro Slavery* (Boston: Little, Brown, [1974]).

تُستر حتى الجوامد التي تذكر بالجسم الإنساني (مثل أرجل المناضد). وفي الوقت نفسه، وفي الستينيات والسبعينيات على نحو خاص، كان ثمة تشديد قبيح على كل السمات الثانوية ذات الإيحاءات الجنسية: شعر الرجال ولحاهم، وشعر النساء، والثديين، والعجيزتين والردفين، التي نفختها كلها الطُرُز الصناعية وضخمت أحجامها، وكذلك نافخات القفا (*Culs-de-Paris*) وما إلى ذلك[7]. وتعود آثار الصدمة التي أحدثتها لوحة الرسام مانيه (Manet) «وجبة على العشب» (Déjeuner sur l'herbe) (1863) بالتحديد إلى طابع الاحتشام الكلي لملابس الرجال مقابل عري المرأة. وكان إصرار الحضارة البورجوازية الشديد على اعتبار المرأة، في جوهرها، كائناً روحياً يعني، في آن معاً، أن الرجال كانوا غير ذلك، وأن الجاذبية الجسدية الظاهرة بين الجنسين لا تنسجم ومنظومة القيم. فالإنجاز لا يتواءم والمتعة، وذلك ما يفترضه حتى الآن المفهوم الشعبي للبطولة الرياضية عندما يفرض العزوبة الموقتة على رجال الرياضة قبل المباريات أو الجولات الرياضية الكبرى. وبصورة عامة، ارتكزت هذه الحضارة على كبت الدوافع الغريزية. وقد جعل أعظم علماء النفس البورجوازيين سيغموند فرويد هذه الفرضية حجر الأساس لنظرياته، مع أن الأجيال اللاحقة فهمت منها الدعوة إلى إزالة الكبت.

ولكن، لماذا جرى تبني وجهة النظر غير المعقولة تلك بمثل هذا التطرف الحماسي، بل المَرَضي، الذي يقابل بصورة صارخة ما وصفه برنارد دشو، بفكاهته المعتادة، بنموذج الاعتدال المثالي، والوسطية المعتدلة التي حددت، تقليدياً، طموحات الطبقة الوسطى وأدوارها الاجتماعية[8]؟ والإجابة عن هذا السؤال سهلة بالنسبة للمراتب السفلى

---

(7) كان شيوع القماش المقوى القفقاف، الذي يغطي الأجزاء السفلى تغطية تامة بينما يؤكد انثناء الخصر فوق الردفين الغامضين، يمثل مرحلة انتقالية في خمسينيات القرن.

(8) من «تعاليم الثوريين» في *Man and Superman*: «رجل معتدل الأمانة مع زوجة معتدلة الوفاء، وكلاهما معتدل الإقبال على الشراب، ومنزل معتدل في مستواه الصحي: هذه هي الوِحدة الحقيقية للطبقة الوسطى».

لتطلعات الطبقة الوسطى، فالجهود البطولية لا تكفي وحدها لرفع الرجال والنساء الفقراء، أو حتى أطفالهم، من وهدة انحطاط الروح المعنوية ولوضعهم على قاعدة صلبة ومحترمة وتحديد مكانتهم هناك. ومثلما يحدث في أوساط مدمني الكحول المجهولين، يتعذر الوصول إلى حل وسط: فإما التعفف التام، أو الانحلال التام. والواقع أن الحركة الداعية إلى الامتناع كلياً عن الكحول، التي انتعشت آنذاك في البلدان البروتستانتية والبيوريتانية، توضح هذا الأمر بصورة جلية. إذ لم يكن مخططاً لها أن تستهدف، بالفعل، إلغاء الإدمان العام على الكحول، ناهيك عن الحد منه، بل سعت إلى أن تعرّف وتحدد مجموعة الأفراد الذين أظهروا، بعزيمتهم وقوتهم الشخصية، أنهم متميزون عن الفقراء غير المحترمين. وقد أدت الطهرانية الجنسية الوظيفة نفسها. غير أنها كانت ظاهرة «بورجوازية» من حيث إنها كانت تعبر عن هيمنة المُحتَرَميّة البورجوازية. وقد حلت مكان النجاح البورجوازي أكثر مما مهدت له، فكانت بذلك أقرب إلى مطالعة ما كتبه صامويل سمايلز، أو ممارسة أشكال أخرى من «العون الذاتي» أو «التحسن الشخصي». وعلى مستوى الصانع الفني أو الموظف الكتابي «المحترم»، كانت المكافأة المترتبة على التعفف كامنة في التعفف نفسه. أما من الوجهة المادية، فكانت متواضعة المردود.

ومشكلة الطهرانية الجنسية البورجوازية أكثر تعقيداً. وليس ثمة ما يدعو إلى الاعتقاد بأن البورجوازيين في أواسط القرن التاسع عشر كانوا من الحيوية بحيث اضطروا إلى بناء تحصينات منيعة وخارقة للعادة لحماية أنفسهم من الغواية الجسدية: فما رفع مستوى الإغراء إلى هذا الحد هو درجة التطرف في المقاييس الأخلاقية المتعارف عليها، ما جعل السقوط حدثاً مثيراً، كما هي الحال مع الكاثوليكي الطهراني الكونت موفا في رواية إميل زولا **نانا** التي تدور حول البغاء في باريس في ستينيات القرن. وكانت المشكلة، كما سنرى، اقتصادية إلى حد ما بطبيعة الحال. إن «العائلة» لم تكن الوحدة الاجتماعية الأساسية في المجتمع

البورجوازي فحسب، بل الوحدة الأساسية كذلك للتملك وللمشروع التجاري، وترتبط بوحدات أخرى في إطار نسق من المعاملات. وتضمن هذا النسق، من جملة ما تضمن اعتبار المرأة والملكية كليهما طرفاً في عملية التبادل (أي حصة «الزواج») التي كانت فيها المرأة، وفقاً للعُرف المتشدد، تستمد عذريتها الكاملة من التقاليد قبل الصناعية. وكان كل ما يمكنه إضعاف العائلة أمراً محرماً، ومن الواضح أنه لم يكن هناك ما قد يسبب مثل هذا التفكك العائلي أكثر من العاطفة الجسدية التي لا ضابط لها ولا رابط. وأدى ذلك بدوره إلى قدوم الخُطّاب والعرسان «غير المحترمين» (أي غير المرغوبين اقتصادياً) وفصل الأزواج عن الزوجات، وهدر الموارد المشتركة.

بيد أن التوترات كانت أكثر من اقتصادية. لقد كانت كبيرة خلال تلك الفترة، عندما اصطدمت أخلاقيات التعفف، والاعتدال، والاحتشام بصورة مثيرة بواقع النجاح البورجوازي. ذلك أن البورجوازيين لم يعودوا يعيشون في اقتصاد الندرة العائلي أو في موقع اجتماعي بعيد عن إغراءات المجتمع الراقي. وكانت مشكلتهم تتركز في الإنفاق لا في الادخار، ولم يقتصر الأمر على التزايد المطرد في عدد البورجوازيين المتعطلين - وقد ارتفع عدد الريفيين الذين يدفعون ضريبة دخل في كولون من 162 عام 1854 على نحو 600 عام 1874[(9)] - بل تعداه إلى الكيفية التي يمكن بها للبورجوازيين الناجحين أن يعرضوا غناهم بغير الإنفاق، سواء أكانوا يمارسون نفوذا سياسياً، باعتبارهم طبقة، أم لم يكونوا. لقد أصبحت كلمة «محدث النعمة» مرادفةً لكلمة «المنفق المتلاف». وسواء حاول هؤلاء البورجوازيون محاكاة أسلوب الحياة الذي شاع لدى الأرستقراطيين، أو أنهم، مثل «كروب» وأقرانه

---

(9) F. Zunkel, «Industriebürgertum in Westdeutschland,» in: Hans Ulrich Wehler, ed., *Moderne Deutsche Sozialgeschichte,* Neue wissenschaftliche Bibliotek; 10 (Köln; Berlin: Kiepenheuer u. Witsch, 1966), p. 320.

من أساطين الصناعة الواعين طبقياً في حوض نهر الرور، ابتنوا لأنفسهم القلاع والإمبراطوريات الإقطاعية ـ الصناعية التي تضاهي، بل تبز، ما يمتلكه «اليونكز» الذين رفض البورجوازيون ألقابهم، فقد كان عليهم في كل الحالات أن ينفقوا، وأن ينفقوا بطريقة تجعل أسلوب حياتهم بصورة حتمية قريب الشبه بأسلوب الحياة الأرستقراطية المبتذلة. ويصدق ذلك على نسائهم أكثر مما يصدق عليهم. وقبل خمسينيات القرن، كانت تلك هي المشكلة لعدد قليل نسبياً من العائلات، بل إنها في بعض البلدان، مثل ألمانيا، لم تكن تمثل مشكلة لأحد. أما الآن، فقد غدت مشكلة لطبقة بأكملها.

لقد واجهت البورجوازية، بوصفها طبقة، صعوبة هائلة في الجمع بين الكسب والإنفاق بطريقة مُرضية أخلاقياً، مثلما فشلت في حل المشكلة المادية المعادلة لها، وهي كيفية تأمين الخلافة والتوريث لرجال أعمال يتمتعون بمستوى مماثل من الدينامية والقدرة في العائلة نفسها. وقد أدى ذلك إلى تعظيم دور البنات اللواتي استطعن حقن دم جديد في بنية التجمعات التجارية. وبين الأبناء الأربعة للمصرفي فريدريخ فيشيلهاوس (Friedrich Wichelhaus) (1810 ـ 1886) في فوبرتال، بقي روبرت (ولد عام 1836) وحده في المجال البنكي، فيما تحول الثلاثة الآخرون (الذين ولدوا في الأعوام 1831، 1842، 1846) إلى اثنين من ملاك الأراضي وواحد أكاديمي. غير أن ابنتيه الاثنتين (اللتين ولدتا في العامين 1829 و 1838) تزوجتا اثنين من رجال الصناعة كان أحدهما من عائلة إنجلز[10]. والشيء الوحيد الذي كان البورجوازيون يكافحون لتحقيقه، وهو الربح، الذي لم يعد حافزاً كافياً بعد أن جلب لهم قدراً كافياً من الثروة. ومع نهاية القرن، اكتشف البورجوازيون صيغه مؤقتة على الأقل للجمع بين الكسب والإنفاق، تساندها مكتسبات الماضي. وأصبحت العقود الأخيرة قبل كارثة عام 1914 بمثابة «الصيف

(10) المصدر نفسه، ص 526، الهامش رقم 59.

الهندي»، والزمن الجميل (belle époque) لحياة البورجوازيين، التي أخذ الباقون منهم على قيد الحياة يبكونها في ما بعد ويترحمون عليها. إلا أن الربع الثالث من القرن التاسع عشر شهد تناقضات ربما كانت هي الأكثر حدة: لقد تعايش الجهد والاستمتاع، غير أنهما دخلا مرحلة التصادم. وكان النشاط الجنسي واحداً من الضحايا، بينما كان النصر من نصيب النفاق.

II

كان هذا، إذاً، حال العائلة البورجوازية في أواسط القرن التاسع عشر، بملبسها، وجدران بيوتها الحافلة بالتحف، فكانت بذلك أكثر المؤسسات غموضاً في ذلك العصر. وإذا كان من اليسير علينا أن نكتشف، أو نخلق الترابط بين البيوريتانية والرأسمالية، وذلك ما تشهد به وفرة من الأدبيات، فالعلاقة بين بُنية العائلة والمجتمع البورجوازي تظل مُبهمة. والحقيقة أن النزاع بين الجانبين قلما كان مثاراً للاهتمام. فكيف يمكن لمجتمع تبنّى اقتصاد المشروعات التنافسية الربحية، ويعلي من جهود الأفراد المنعزلين، ويؤمن بالمساواة في الحقوق والفرص وبالحرية، أن يرتكز على مؤسسة تنكر كل هذه التوجهات جملة وتفصيلاً؟

كانت الوحدة الأساسية في هذا المجتمع، وهي الأسرة المكونة من عائلة واحدة، في آن معاً، أوتوقراطية أبوية، وأنموذجاً مُصغراً للمجتمع الذي نددت به الطبقة البورجوازية أو الناطقون باسمها وعكفت على تدميره؛ لقد كانت تلك الأسرة تراتبية هرمية للتبعية الشخصية:

«هناك يتولى الحكمَ الصالح، بحكمته الحازمة، الأبُ الزوجُ السيد. ويغدق عليها النعم، وليّاً، ومرشداً، وقاضياً»[11].

---

(11) Tupper, *Proverbial Philosophy in Four Series; now First Complete*, p. 361: «of Home».

ووفقاً لـرسكين (Ruskin) العظيم، فإن الفيلسوف الذائع الصيت مارتن توبر (Martin Tupper)، يمضي إلى القول: إن تحت الرجل ملاكاً طيباً يرفرف بجناحيه في البيت: الأم، الزوجة والعشيقة[12] التي تنحصر مهماتها في:

I) إرضاء الناس.

II) إطعامهم وجبات طيبة المذاق.

III) وإلباسهم.

IV) وترتيب شؤونهم.

V) وتعليمهم[13]،

وما يثير العجب أن تلك المهمات لا تتطلب من المرأة أن تظهر، أو تمتلك أي قدر من الذكاء أو المعرفة. (وعلى حد تعبير تشارلز كينغزلي (Charles Kingsley): «كوني خادمة طيبة لطيفة، ودعي الأمور الأخرى للأذكياء»). ولا يعود ذلك إلى أن الوظيفة الجديدة للزوجة البورجوازية هي أن تُظهر فقط قدرة الزوج البورجوازي على توفير الراحة والرفاهية لها، ما يتعارض مع وظيفتها القديمة في التدبير المنزلي، بل كذلك التأكيد، علناً، على دونيتها بالنسبة للرجل:

«هل لديها الحكمة؟ إنها كنز ثمين، فإياكِ أن تبالغي في إظهاره:
لأن على المرأة الخضوع، أما التفوق الحقيقي فهو تفوق العقل»[14].

إلا أنه كان على هذه الأمة المليحة الغبية أن تمارس سيطرتها؛ لا

(12) المصدر نفسه، ص 362.

(13) John Ruskin, «Fors Clarigera,» in: [E. T. Cook and A. Wedderburn (eds.), *Collected Works* (London; New York: [n. pb.], 1903-1912)], vol. 27, Letter 34.

(14) Tupper, Ibid., p. 118: «of Marriage».

على الأطفال الذين يخضعون لرب العائلة (pater familias) وحده[15]، بل على الخدم الذين يميزون البورجوازي اجتماعياً عمن دونه من البشر. وكان تعريف السيدة/ الليدي هو أنها المرأة التي لا تعمل، بل تأمر أشخاصاً آخرين بأن يعملوا نيابة عنها[16]، ويقوم تفوقها، من ثم، على هذه العلاقة. ومن الوجهة السوسيولوجية، كان الفرق بين الطبقتين الوسطى والعاملة هو الفرق بين ذوي الخدم من جهة، والخدم المحتملين من جهة أخرى، واستخدم هذا المفهوم في المسح الاجتماعي الرائد الذي أجراه سيبوم راونتري (Seebohm Rowntree) في يورن في نهاية القرن. وكان الخدم، بصورة متزايدة وغالبة، من النساء - ففي الفترة الواقعة بين الأعوام 1841 و1881، انخفضت نسبة الرجال العاملين في المجالات البيتية والشخصية من 20 إلى نحو 12 في المئة - فأصبح النموذج المثالي للأسرة البورجوازية يتألف من الرجل السيد المهيمن على عدد من الإناث ذوات المراتب المتفاوتة، وازدادت معالم هذا النموذج تحديداً عندما أخذ الأبناء الذكور يغادرون البيت حالما يشبون عن الطوق أو، في حالة الطبقات العليا البريطانية، حالما يبلغون السن المناسبة للمدارس الداخلية.

ومع أن الخادم كان يتقاضى أجره، ما جعله أقرب شبهاً بالعامل

---

(15) بذل الأطفال قصارى جهدهم لإسعاد والدهم العزيز الغالي؛ فمارسوا الرسم، والعمل، والقراءة، وكتابة الإنشاء، والعزف على البيانو. وفعلوا ذلك كله احتفالاً بعيد ميلاد ألبرت، الأمير القرين، زوج الملكة فيكتوريا. انظر: Victoria, *Further Letters of Queen Victoria, from the Archives of the House of Brandenburg-Prussia*, Translated from the German by Mrs. J. Pudney and Lord Sudley and Edited by Hector Bolitho (London: T. Butterworth, 1938), p. 49.

(16) «اعتقد أنه إذا اضطرت المرأة للعمل، (ومع أنها قد تكون مسيحية وحسنة التربية)، فإنها ستفقد، على الفور، مكانتها المتميزة بوصفها تحمل لقب «ليدي/ سيدة» الذي أكسبها إياه العرف الاجتماعي»، Letter to the *Englishwoman's Journal*, vol. VIII (1866), p. 59.

الذي حدد العمل علاقته بالبورجوازي الذكر في الميدان الاقتصادي، فإن وضعه كان يختلف كل الاختلاف. ذلك أن صلتها، وإلى حد نادر صلته برب العمل لم تكن قائمة على الأجر النقدي، بل كانت تبعيةً شخصيةً بل، لأغراض عملية، تبعية كلية. لقد كان كل ما يتصل بحياتها موصوفاً على نحو مشدد ومحدد، كما كان خاضعاً للإشراف بحكم عيشها في عِلّية شحيحة الأثاث في منزل العائلة وابتداء من المئزر أو الزي الذي ترتديه وحتى شهادة «حُسن السيرة والسلوك» التي تتلقاها عند انتهاء الخدمة على أمل أن تجد لنفسها عملاً آخر، فإن كل ما يتصل بها كان تجسيداً للعلاقة بين السلطة والخضوع. ومثلما كان الوضع في مجتمعات الرق القديمة لم يتضمن ذلك إلغاءً للعلاقة الشخصية الوثيقة، على ما فيها من تفاوت وإجحاف. بل ربما تعززت العلاقة بفعل ذلك، مع أننا يجب أن ننسى أنه، مقابل كل مربية أو بستاني عاشا طيلة العمر في خدمة عائلة واحدة، كانت ثمة مئات من الفتيات الريفيات اللواتي طوحت بهن المقادير من أسرة إلى أخرى، وعرفن تجربة الحمل، أو الزواج، أو العمل البديل، وعُوملت هذه الحالات في تلك الأثناء باعتبارها من «مشكلات الخدم» التي لا بد أنها كانت من محاور الحديث بين ربات البيوت البورجوازيات. والنقطة المهمة هنا هي أن بنية العائلة البورجوازية كانت تتناقض بصورة صارخة مع بنية المجتمع البورجوازي، ففي تلك العائلة لم تكن الحرية، ولا الفرصة، ولا البدل النقدي والسعي إلى الربح الشخصي هي العناصر الحاسمة في الموقف.

وقد يقول قائل إن الحالة كانت على هذا النحو لأن الفوضوية الفردانية الهوبزية التي أطرت المثال النظري للاقتصاد البورجوازي لم ترسِ الأسس لأي شكل من أشكال التنظيم الاجتماعي، بما في ذلك بنية الأسرة. والواقع أنها، في أحد جوانبها، كانت تمثل واحة من الأمان قبالة العالم الخارجي، بعيداً عن هدير المعركة؛ أي استراحة المحارب (Le Repos du guerrier). إذ تقول زوجة أحد الصناعيين الفرنسيين في رسالة إلى أبنائها عام 1856:

تعلمون أننا نعيش في قرن يكتسب فيه الرجال قيمتهم من جهودهم فحسب، ففي كل يوم، يتولى مساعد شجاع وذكي مكان رئيسه الذي أفضى به خموله وتراخيه إلى النزول من المرتبة التي توهم ذات يوم أنها ستكون من نصيبه على الدوام.

وكتب زوجها الذي كانت تشغله المنافسة مع أصحاب مصانع النسيج البريطانيين: «يا لها من معركة! سيموت كثيرون في تلك المعركة، وسيكون المصابون إصابات بالغة أكثر من ذلك»[17].

وقد ترددت استعارة الحرب المجازية تلك بصورة طبيعية على شفاه الرجال الذين تحدثوا عن «الصراع من أجل البقاء» أو «البقاء للأصلح»، مثلما خامرتهم استعارة السلام عندما وصفوا بيوتهم بأنها «موطن الفرح»، والمكان الذي «غمرته البهجة عندما تحققت أحلام القلوب الطامحة»، وهو نبع البهجة الذي لا مثيل له في أي مكان آخر لأن النفس لا يمكن أن تحسب بالاكتفاء أو تعترف بالاكتفاء إلا فيه[18].

وربما نستطيع أن ننظر إلى هذا الأمر من زاوية أخرى، فنعتبر أن اللامساواة الجوهرية في العائلة البورجوازية ما هي إلا تعبير ضروري عن مبدأ التفاوت الذي تقوم عليه الرأسمالية. لقد كان على التبعية أن تكون علاقة فردية، لأنها لم تقم على أساس اللامساواة والتفاوت المرتكزين إلى أسس جماعية مؤسسية تقليدية. ولأن التفوق لم يكن أمراً مؤكداً بالنسبة للفرد، فقد كان عليها أن تتخذ شكلاً دائماً ومُستقراً ومأموناً. ولأن التعبير الأساسي الأول عنها كان بالمال، الذي يعكس علاقة التبادل، فإنه كان لا بد من أن تستكملها أشكال التعبير الأخرى التي تظهر سيطرة شخص على شخص آخر. ولم يكن ثمة جديد بالطبع في بنية عائلة بطريركية تقوم على إخضاع النساء والأطفال. إلا أن

---

(17) Trénard, «Un Industriel roubaisien du XIX siècle,» pp. 38, and 42.

(18) المصدر نفسه، ص 133: «of Joy».

المرحلة الكلاسيكية للمجتمع البورجوازي إنما عززتها وبالغت في التشديد عليها بدلاً من أن تقوم بما كان متوقعاً منها، منطقياً، وهو تفكيكها أو تحويلها، أو ربما تفتيتها في مرحلة لاحقه.

أما كيفية تمثيل هذا «النموذج المثالي» الأبوي البورجوازي بالفعل على أرض الواقع، فمسألة أخرى. لقد لخص أحد المراقبين نموذج البورجوازي في مدينة ليل بأنه «رجل يخاف الله، ولكن زوجته فوق كل شيء، وهو يقرأ **صدى الشمال** (*Echo du nord*)»[19]. وفي ذلك، على الأقل، وصف قريب من واقع العائلة البورجوازية كما تمثلها النظرية التي وضعها الرجل عن عجز الأنثى وتبعيتها، وبُولغَ في تحديد معالم هذه النظرية أحياناً بصورة مَرَضيّة، كحلم ذكوري، كما طبقت أحياناً أخرى بالممارسة، باعتبارها تجسيداً لعلاقة زوج المستقبل بالزوجة والطفل اللذين سيقع عليهما اختياره. ومع ذلك، فإن وجود العائلة البورجوازية، ناهيك عن تعزيزها وفق هذا النموذج المثالي، سيظل أمراً مهماً بحد ذاته في تلك الفترة. كما أنه كاف لتفسير البدايات المنظمة للحركة النسوية في أوساط نساء الطبقة الوسطى خلال تلك الفترة، وبخاصة في البلدان الأنجلوساكسونية أو البروتستانتية.

بيد أن الأسرة البورجوازية كانت مجرد نواة لمجال العائلة الأوسع الذي يتحرك فيه الفرد: إنه يضم (آل كروب)، و(آل روتشيلد)، وفي هذا السياق (آل فورسايث) وأمثالهم، الذين يمثلون ما يشبه السلالات الملكية في جانب كبير من التاريخ الاجتماعي والاقتصادي للقرن التاسع عشر. وعلى الرغم من أكداس الكتابات الضخمة التي وضعت عن هذه العائلات خلال القرن الماضي، فإن علماء الأنثروبولوجيا الاجتماعية، وخبراء علم الأنساب (وهو مهنة أرستقراطية)، لم يولوا اهتماماً كافياً

---

(19) Jean Lambert-Dansette, «Le Patronat du nord. Sa période triomphante,» *Bulletin de la société d'histoire moderne*, no. 18, série 14 (1971), p. 12.

بهذه المسألة بحيث نستطيع بسهولة وثقة استخلاص تعميمات دقيقة عن هذه المجموعة من العائلات.

ما هو الشوط الذي قطعته هذه العائلات في حراكها صعوداً من مراتب أدنى في السلم الاجتماعي؟ يبدو أن ذلك الشوط لم يكن كبيراً، مع أنه لم يكن ثمة ما يمنع هذا الحراك الاجتماعي، من الوجهة النظرية. ففي عام 1865، كان 89 في المئة من أصحاب مصانع الفولاذ في بريطانيا قد تحدروا من أوساط الطبقة الوسطى، و7 في المئة من الشريحة الدنيا للطبقة الوسطى (بمن فيهم صغار التجار، والصناع المستقلون، وغيرهم) و4 في المئة فقط من العمال، المهرة أو ـ على الأغلب، غير المهرة[20]. وبالمثل، كانت الأغلبية من أصحاب مصانع النسيج في فرنسا في الفترة نفسها من أبناء الفئات التي يمكن تصنيفها طبقة وسطى؛ وكانت الأغلبية من أصحاب مصانع الملابس المحبوكة في نوتنغهام من أصول اجتماعية مماثلة، وكان ثلثاهم من تجارة الملابس نفسها ولم يكن الآباء المؤسسون للمشروعات الرأسمالية في الجنوب الغربي من ألمانيا دائماً من الأغنياء، غير أن أعداداً معتبرة منهم كانت ذات خبرة عائلية طويلة في مجال هذه الصناعة التي عملوا على تطويرها، ومنهم: الألزاسيون البروتستانت مثل كوشلان، غيجي، ساراسان، واليهود الذين نشأوا في الأوساط المالية للمقاطعات الصغيرة، وكذلك، إلى حد أقل، المقاولون والصناع المبتكرون فنياً. أما المتعلمون، وفي مقدمهم أبناء القساوسة البروتستانت وأبناء الموظفين الحكوميين، فقد عدّلوا، ولكنهم لم يغيروا، مرتبتهم في الطبقة الوسطى[21]. وكانت المسارات الوظيفية

(20) Charlotte Erickson, *British Industrialists: Steel and Hosiery, 1850-1950*, National Institute of Economic and Social Research. Economic and Social Studies; 18 (Cambridge [Eng.]: University Press, 1959).

(21) Hermann Kellenbenz, «Unternehmertum in Südwestdeutschland,» *Tradition: Zeitschrift für Firmengeschichte und Unternehmerbiographie*, vol. 10, no. 4 (August 1965), pp. 183 ff.

في عالم البورجوازية مفتوحة بالفعل أمام الموهوبين، غير أن العائلة التي كان لها، من جملة أمور أخرى، قدر متواضع من المستوى التعليمي، والملكية، والروابط الاجتماعية في أوساطها، استطاعت أن تبدأ طريقها مُعتمدة على مثل هذه الميزات الضخمة نسبياً؛ بما في ذلك قدرتها على التزاوج في نطاق مرتبتها الاجتماعية، أو في مجال العمل نفسه، أو الموارد التي يمكن جمعها بين تلك الأطراف بصورة مشتركة.

بطبيعة الحال، كانت الميزات الاقتصادية للعائلة الكبيرة، أو للعائلات المترابطة بالزواج، نافذة ومؤثرة. ففي مجال العمل التجاري، أمنت رأس المال، وربما العلاقات التجارية المفيدة، وفوق هذا وذاك، إدارة موثوقاً بها، فعائلة ليفيفر في مدينة ليل مَوّلت شركةً لغزل الصوف لواحد من أنسبائها هو أميدي بروفوست (Amedée Prouvost) عام 1851. وحصلت عائلتا سيمينز وهالسكي، صاحبتا شركة الكهرباء الشهيرة التي تحمل اسميهما عند تأسيسها عام 1851 على رأسمالها من واحد من أبناء العم؛ وكان أحد الأخوة أول موظف مدفوع الأجر فيها، وكان من الطبيعي جداً قيام الإخوة الثلاثة، فيرنر، وكارل، ووليام بإدارة فروع الشركة في برلين، سان بطرسبرغ، ولندن. واعتمدت كل من عشائر مولهاوس البروتستانتية على الأخرى: إن أندريه كوشلان، نسيب عائلة دولفوس الذي أسس شركة دولفوس ميغ (وقد تزوج هو وأبوه قبله من عائلة ميغ)، تولى إدارة الشركة إلى أن كبُر أشقاء زوجته الأربعة وأصبحوا قادرين على إدارتها، بينما تولى عمه نيكولاس إدارة شركة كوشلان العائلية «التي أَشرك فيها، حصرياً، أشقاءه وأشقاء زوجته وكذلك والده العجوز»[22]. وفي تلك الأثناء،

---

(22) *Nouvelle biographie générale: Depuis les temps les plus reculés jusqu'à nos jours....* Tomes trente-cinquième-trente-sixième, Mérat-Murr, publ. par Mm. Firmin Didot frères; sous la dir. de M. le Dr Hoefer (Paris: Firmin Didot frères, 1861), p. 954: articles Koechlin.

أسس شخص آخر من عائلة دولفوس، وهو واحد من أحفاد أبناء المؤسس، شركة عائلية محلية أخرى هي شلمبرجيه إي ساي. ويحفل تاريخ المؤسسات التجارية والصناعية في القرن التاسع عشر بمثل هذه التحالفات والتداخلات العائلية. لقد تطلبت تلك الشركات أعداداً غفيرة من الأبناء والبنات، وكانت هناك أعداد وفيرة من كليهما. من هنا، وخلافاً لما كان عليه الحال لدى الفلاحين الفرنسيين، حيث كان ثمة وريث واحد فحسب تؤول إليه أملاك العائلة، لم يكن هناك حافز قوي لضبط النسل، إلا في أوساط الشريحة الدنيا الكادحة من الطبقة الوسطى.

تُرى، كيف كان تنظيم تلك العشائر؟ وكيف كانت تعمل؟ وما هو الوقت الذي لم تعد تمثل فيه تجمعات عائلية بل تحولت إلى مجموعة اجتماعية متماسكة؛ أي إلى بورجوازية محلية، أو (كما كانت حال أصحاب البنوك اليهود والبروتستانت) إلى شبكات أوسع نطاقاً تمثل التحالفات العائلية جانباً واحداً منها فحسب؟ إننا لا نستطيع حتى الآن الإجابة عن هذا السؤال.

III

بعبارة أخرى ما الذي نعنيه بـ «البورجوازية»، بوصفها طبقة، في تلك الفترة. إن تعريفاتها الاقتصادية، والسياسية، والاجتماعية تتفاوت نوعاً ما، غير أنها تتقارب في ما بينها إلى حد لا يسبب أي مشكلة. من هنا، كان البورجوازي النموذجي، من الوجهة الاقتصادية، «رأسمالياً"؛ أي إما مالكاً لرأس المال، أو يتقاضى دخلاً مستمداً من مثل هذا المصدر، أو كان مقاولاً يجني الأرباح، أو هذه العناصر كلها. والحقيقة أنه لم يكن ثمة إلا قلة قليلة من «البورجوازيين» الاعتياديين أو أعضاء الطبقة الوسطى في تلك الفترة ممن لم تنطبق عليهم واحدة أو أكثر من تلك الخصائص. إن أرقى 150 عائلة في بوردو عام 1848 ضمن تسعين رجل أعمال (مثل التجار، وأصحاب البنوك، وأصحاب

الحوانيت، وغيرهم، علماً بأنه لم يكن في البلدة انذاك إلا عدد قليل من الصناعيين)، وخمسة وأربعين من الملاّك وأصحاب الدخل، وخمسة عشر من المهنيين في الأعمال الحرة التي كانت في تلك الأيام، بطبيعة الحال، تضم تشكيلة منوعة من الأنشطة الخاصة. ولم تكن بينهم على الإطلاق فئة من التنفيذيين ذوي الدخل العالي أو العاملين بأجر (اسميّاً على الأقل) في الشركات، ممن شكلوا الفئة الأعرض بين مجموعة الأربعمئة وخمسين عائلة التي أصبحت الأبرز والأعلى دخلاً في بوردو عام 1960[(23)]. ويمكننا أن نضيف أنه على الرغم من أن تملك الأرض أو العقارات في المراكز الحضرية ظلَ مصدراً مهماً من مصادر دخل البورجوازيين، ولا سيما البورجوازية الوسطى أو الدنيا في المناطق التي لم يكن قد شملها التصنيع بعد، فإن أهمية الملكية كانت آنذاك قد أخذت بالتضاؤل. لقد كانت، حتى في بوردو غير المصنعة بعد (1873) تمثل 40 في المئة من الثروة المخلفة للوارثين عند الوفاة (و23 في المئة من فئة الثروات الأضخم)، بينما شكلت آنذاك 31 في المئة فقط في مدينة ليل الصناعية[(24)] يمثل العاملون في المجال السياسي للبورجوازية نمطاً مختلفاً إلى حد ما، لأن مثل هذا النشاط له طابع اختصاصي يستغرق وقتاً طويلاً، وقد لا يجذب أو يناسب الكثيرين بالمقدار نفسه. ومع ذلك، فإن انخراط الممارسين (أو المتقاعدين) البورجوازيين في العمل في المجال السياسي البورجوازي بلغ حداً مُدهشاً. ففي النصف الثاني من القرن التاسع عشر كان ما يتراوح بين 25 و40 في المئة من أعضاء المجلس الاتحادي السويسري يتألف من مقاولين وأصحاب دخل (وكان 20 ـ 30 في المئة من أعضاء المجلس يشكلون البارونات الاتحاديين الذين

---

(23) Christian Pucheu, «Les Grands notables de l'agglomération bordelaise du milieu du XIXème siècle à nos jours,» *Revue d'histoire économique et sociale*, vol. 45 (1967), p. 493.

(24) Pierre Guillaume, «La Fortune Bordelaise au milieu du XIX siècle,» *Revue d'histoire économique et sociale*, vol. 43 (1965), pp. 331, 332, and 351.

تولوا إدارة البنوك، وشركات السكة الحديد والصناعات)، وهي نسبة أعلى مما أصبحت عليه في القرن العشرين. وكانت نسبة أخرى تتراوح بين 15 و25 في المئة تتكون من الأعضاء الممارسين لمهن حرة، أي من المحامين ـ مع أن 50 في المئة من الأعضاء كانوا يحملون شهادة في القانون، وكان ذلك هو المؤهل التعليمي القياسي لدخول مجال الخدمة والإدارة العامة في أغلب البلدان. كما أن جانباً آخر يمثل 20 ـ 30 في المئة كان يتألف من «الشخصيات العامة» المهنية (مثل مديري الشرطة، وقضاة الأرياف، وفئات أخرى ممن كانوا يسمون «الحكام»)[25]. وضم الجناح الليبرالي في المجلس النيابي البلجيكي في أواسط القرن 83 في المئة من الأعضاء البورجوازيين: كان 16 في المئة منهم من رجال الأعمال، و16 في المئة من الملاّك، و15 في المئة من ذوي الدخل، و18 في المئة من الإداريين المهنيين، و42 في المئة من أصحاب المهن الحرة، أي المحامين وعدد من الأطباء[26]. وقد تجلى ذلك بالقدر نفسه، وربما بصورة أكثر وضوحاً، في السياسات المحلية في المدن، التي سيطر عليها، كما هو متوقع، من الوجهاء «البورجوازيين (وهم عادةً من الليبراليين). وإذا كان المتقدمون في السن يحتلون أغلب المراتب العليا في سلم السلطة، التي أنشئت هناك منذ عام 1830 (في فرنسا)، و1848 (في ألمانيا)، فإن البورجوازية «غزت واحتلت المراتب الدنيا من هيكل السلطة السياسية»، مثل المجالس البلدية، وإدارة المحافظة، والمجالس الإقليمية وما إليها، واحتفظت بسيطرتها عليها حتى ظهور الأنشطة السياسية الجماهيرية في العقود الأخيرة من ذلك القرن. ومنذ عام 1830

(25) E. Gruner, «Quelques reflexions sur l'élite politique dans la conféderation Helvetique depuis 1848,» *Revue d'histoire économique et sociale*, vol. 44 (1966), pp. 145 ff.

(26) B. Verhaegen, «Le Groupe libéral à la chambre belge (1847-1852),» *Revue Belge de philologie et d'histoire*, vol. 47, no. 4 (1969), pp. 1176 ff.

أصبح رؤساء المجالس البلدية في مدينة ليل، في أغلب الأحيان، من رجال الأعمال البارزين[27]. أما في بريطانيا، فقد استأثرت عصبة من رجال الأعمال المحليين الذائعي الصيت، بالهيمنة على المدن الكبرى.

لم تكن التعريفات بمثل هذا الوضوح من الوجهة الاجتماعية، مع أن «الطبقة الوسطى» شملت جميع الجماعات المذكورة آنفاً طالما أنها كانت ثرية ومستقرة: رجال الأعمال، والملاّك، وأصحاب المهن الحرة، والشرائح الإدارية العليا التي كانت بالطبع قليلة العدد خارج العواصم. وكانت الصعوبة تكمن في تعريف الحدود «العليا» و«السفلى» في تلك الطبقة في سياق تراتبية المكانة الاجتماعية، وكذلك في السماح بتنوع وتعددية واضحة في عناصر العضوية في إطار تلك الحدود. وقد كان هناك دائماً نظام متفق عليه لتصنيف الشرائح الاجتماعية إلى «الأوساط العالية» والبورجوازية «الصغيرة». و تشتمل الطبقة الأخيرة على طائفة شتى من الشرائح التي تقع، بالفعل، خارج نطاق تلك الطبقة.

وفي ما يتصل بالشرائح العليا، كانت البورجوازية متميزة على نحو ما عن الأرستقراطية (العليا والدنيا). ويعتمد ذلك، جزئياً، على الطبيعة الحصرية لتلك المجموعة أو على درجة وعيها الطبقي. ولم يكن بوسع البورجوازي أن يكون ارستقراطياً حقيقياً - على سبيل المثال - في روسيا أو بروسيا، وحتى في الحالات التي توهب فيها ألقاب النبالة بسخاء، كما كان الأمر في إمبراطورية الهابسبيرغ، لم يكن الكونت من عائلة تشوتيك أو أويرسبرغ يقبل أن يكون عضواً في مجلس الإدارة لإحدى مؤسسات الأعمال. كما لم يكن يقبل بوجود بارون من عائلة ون يرتايمشتين إلا صاحب بنك أو يهودي من الطبقة الوسطى. وكانت بريطانيا في تلك الفترة هي البلد الوحيد تقريباً الذي استُوعب فيه رجال

(27) Lambert-Dansette, «Le Patronat du nord. Sa période triomphante,» p. 9.

الأعمال في الطبقة الأرستقراطية بصورة منظمة، وإن كانت متواضعة، مع التركيز على أصحاب البنوك والمولين، لا الصناعيين.

من ناحية أخرى، وحتى عام 1870، وربما بعد ذلك، كان ثمة صناعيون ألمان يرفضون السماح لأبناء أشقائهم بالانضمام إلى الجيش كضباط احتياط، لأن ذلك لا يناسب الشباب من هذه الطبقة. ويصرون على أن يؤدي أبناؤهم خدمتهم العسكرية في سلاح المشاة أو المهندسين، لا في سلاح الخيالة الأكثر تميزاً من الناحية الاجتماعية. غير أن علينا أن نضيف هنا أنه مع استمرار تدفق الأرباح - وكانت وافرة جداً في تلك الفترة، فإن الأثرياء لم يستطيعوا، في أغلب الأحيان، مقاومة إغراءات الأوسمة والزينات والتزاوج مع الأسر النبيلة، وبشكل عام - أسلوب الحياة الأرستقراطية. وأخذ أصحاب المصانع البروتستانت الإنجليز يتحولون إلى كنيسة إنجلترا، كما أن أتباع «النزعة الفولتيرية» غير المُعلنة في شمال فرنسا قبل عام 1850 راحوا، بعد 1870، يتحولون بحماسة متزايدة إلى الكاثوليكية المتشددة[28].

أما في القاعدة، فقد كان الخط الفاصل أكثر وضوحاً من الناحية الاقتصادية، مع أن رجال الأعمال - في بريطانيا على الأقل - قد يرسمون خطاً نوعياً بينهم وبين من يعتبرونهم منبوذين اجتماعياً، ممن يبيعون بالفعل سلعهم مباشرة للجمهور، مثل أصحاب الحوانيت؛ وعلى الأقل إلى أن يتبين لهم أن بوسع تجارة القطاعي أن تجلب الملايين لمن يمارسونها. ومن الواضح أن الصناع المستقلين وصغار التجار كانوا ينتمون إلى شريحة دنيا في الطبقة الوسطى (Mittelstand) لا تشارك البورجوازية إلا في طموحها لشغل مكانتها الاجتماعية. إن الفلاح الثري لم يكن بورجوازياً،

---

(28) المصدر نفسه، ص 8، انظر: *Master and Artisan in Victorian England. The Diary of William Andrews and The Autobiography of Joseph Gutteridge*, Documents of Social History, Edited and with an Introd. by Valerie E. Chancellor (New York: A. M. Kelley, [1969]), p. 7.

وكذلك الموظف من ذوي الياقات البيض. وعلى الرغم من ذلك، كان في منتصف القرن التاسع عشر احتياطيٌ ضخم من النوع القديم من صغار منتجي السلع وبائعيها المستقلين اقتصادياً، بل من العمال المهرة والمشرفين (الذين غالباً ما احتلوا مكان الكوادر التقنية الحديثة)، ما زاد في تحديد الخط الفاصل: لقد ازدهرت أحوال بعضهم وتمتعوا، على الأقل في مواطنهم، بالقبول في صفوف البورجوازيين.

ذلك أن السمة الأساسية للبورجوازية، باعتبارها طبقة، تمثلت في كونها هيئة من الأشخاص ذوي السلطة والنفوذ لا صلة لها بالسلطة والنفوذ المترتبين على نبل المحتد والمولد والمكانة الموروثة. وعلى من يشاء الانتماء إليها أن يكون «شخصاً ما»؛ أي شخصاً «فرداً» بسبب ثروته، وقدرته على قيادة الناس الآخرين أو، على الأقل، التأثير فيهم. من هنا، كان الشكل المعهود للنشاط السياسي البورجوازي، كما رأينا، مختلفاً كل الاختلاف عن النشاط الجماهيري الذي كان يقوم به من هم دونه مرتبةً، بمن فيهم صغار البورجوازيين. لقد كان الملجأ التقليدي للبورجوازيين إذا ما ألمت بهم ملمّة أو مَظْلمة أن يمارسوا النفوذ الشخصي أو يتوسلونه: بالحديث مع العمدة، أو النائب في البرلمان، أو الوزير، أو رفيق المدرسة أو الجامعة، أو أحد الأقارب أو زملاء العمل. وكانت أوروبا البورجوازية حافلة بأنساق غير رسمية تقريباً من الجماعية والعون المتبادل، وبشبكات من «رفاق الأيام الخوالي»، والمافيات («أصدقاء الأصدقاء»)، وكان من نتائج ذلك أن من نشأوا سوياً في بيئة مشتركة أو درسوا في مؤسسات تعليمية واحدة، وبخاصة معاهد التعليم العالي، كانوا على قدر كبير من الأهمية والنفوذ. وأدى ذلك إلى قيام ترابطات وطنية لا محلية[29]. وكان لواحدة من هذه الشبكات، وهي

---

(29) في بريطانيا، عملت ما تسمى «المدارس العامة» التي انتشرت بسرعة في تلك الفترة، على الجمع بين أبناء البورجوازيين الوافدين من مختلف أرجاء البلاد وهم في سن مبكرة. وربما خدمت مدارس الليسيه (Lycées) الكبيرة في باريس الهدف نفسه للمثقفين.

منظمة الماسونيين الأحرار، دور في خدمة غرض أهم من ذلك في بعض البلدان، ولا سيما في الأقطار الكاثوليكية الرومانية اللاتينية، فقد عملت في الجانب السياسي على تعزيز الأواصر الأيديولوجية بين البورجوازيين الليبراليين، بل إنها، كما في إيطاليا، كانت المنظمة الوطنية الدائمة الوحيدة لهذه الطبقة[30]. وكان الشخص البورجوازي الذي يطلب منه التعليق على إحدى القضايا العامة يدرك أن رسالة منه إلى صحيفة **التايمز** (*The Times*)، أو **نيو فْري بريسْ** (*Neue Frei Presse*) لن تصل فقط إلى قطاع عريض من طبقته ومن صناع القرار، بل إنها، وذلك هو الأهم، ستُنشر على أساس مكانته هو «كفرد». إن البورجوازية، بوصفها طبقة، لم تنظم الحركات الجماهيرية، بل نظمت جماعات ضغط. ولم يكن نموذجها السياسي «الحركة الميثاقية»، بل «الرابطة المناوئة لقانون الذرة».

وبطبيعة الحال، تنوعت إلى حد كبير درجة «الوجاهة» التي كانت للبورجوازي، فهناك البورجوازية الكبيرة (Grande bourgoisie) التي كانت تصرفاتها تترك أصداءها على الصعيد الوطني، بل العالمي. وهناك الشخصيات الأكثر تواضعاً ممن كانوا يتمتعون بالأهمية في أوسيغ (أوستي ولابن) وخرونيغن. وقد توقع كروب، وحظي، بقدر من الاحترام أكبر مما تلقاه تيودور بوننغر في ديوسبيرغ، حيث إن الإدارة

---

(30) Serge Hutin, *Les Francs-maçons*, le temps qui court; 19 ([Paris]: Editions du seuil, 1960), pp. 103 ff, et Pierre Chevallier, *Histoire de la franc-maçonnerie française*, les grandes études historiques ([Paris]: Fayard, [1974-1975]), vol. 2: *La Maçonnerie: missionnaire du libéralisme, 1800-1877*, 1974.

بالنسبة للعالم الإيبيري، كان الحكم الصادر كما يلي: «إن حركة الماسونيين الأحرار لم تكن خلال تلك الفترة غير مؤامرة عالمية تقوم بها الطبقة الوسطى الثورية ضد الطغيان الإقطاعي، الملكي، والإلهي. لقد كانت تلك الحركة هي «أممية» تلك الطبقة». وقد ورد ذلك في: Iris M. Zavala, *Masones. Comuneros y carbonarios, por*, Historia y arqueología (Madrid: Siglo Vientiuno de España Editores, [1971]), p. 192.

الإقليمية رشحت الأخير ليكون المستشار التجاري (Kommerzienrat) لأنه كان صناعياً قديراً وثرياً ونشطاً في الحياة العامة والكنسية، وساند الحكومة في انتخابات كل من مجلسي البلدية والمقاطعة. إلا أن كلا الرجلين كانا، كل على طريقته، من الناس «الذين يحسب حسابهم». ولو قام جدار حديدي من التعالي والاستعلاء بفصل أصحاب الملايين عن الأثرياء، وبفصل هؤلاء بدورهم عن المرتاحين مادياً ـ وذلك أمر طبيعي تماماً في طبقة تقوم، في جوهرها، على التسلق إلى المراتب العليا عن طريق الجهد الفردي، فإن ذلك لن يلحق الضرر بالوعي الجماعي الذي حول «المرتبة الوسطى» في المجتمع إلى «الطبقة الوسطى»، أو البورجوازية.

تستند البورجوازية إلى افتراضات مشتركة، ومعتقدات مشتركة، وأشكال مشتركة للفعل والعمل. لقد كانت الأغلبية الساحقة من بورجوازية الثلث الرابع من القرن التاسع عشر «ليبرالية» النزعة، لا بالمعنى الحزبي، (مع أن الأحزاب الليبرالية [الأحرار]، كما رأينا، انتشرت على نطاق واسع)، بل بالمعنى الأيديولوجي. فقد آمنوا بالرأسمالية، وبالمشروع التجاري الخاص التنافسي، وبالتقانة، والعلوم، والعقل. وآمنوا بالتقدم، وبقدر من الحكم التمثيلي، وبقدر من الحقوق والحريات المدنية، طالما أن ذلك كله يتفق وحكم القانون، وبنوع من النظام العام الذي يُبقي الفقراء في أماكنهم. كما آمنوا بالتقانة أكثر من إيمانهم بالدين. واستعاضوا، في حالات متطرفة، عن الذهاب إلى الكنيسة بالتردد الطقوسي على الأوبرا، والمسرح، والحفلات الموسيقية. وآمنوا كذلك بأن السُبل مفتوحة أمام روح المبادرة وأصحاب المواهب، وأن حياتهم هي التي تثبت نفسها وجدارتها. وكما رأينا، فإن الاعتقاد التقليدي والطهراني في أغلب الأحيان بفضائل الاعتدال والتعفف، كان أضعف من مقاومة واقع الإنجاز، غير أنها بقيت حسرةً في النفوس. ويرى أحد الكتاب عام 1855، أنه لو قدر للمجتمع الألماني الانهيار، فسيكون السبب انجراف الطبقات الوسطى مع المظاهر والبذخ «من دون

أن تسعى إلى موازنتها بإحساس البورجوازية (Buergersinn) البسيط الجدي (الكفء)، وباحترام القوى الروحية في الحياة، وبالجهود الرامية إلى توحيد العلوم، والأفكار والمواهب في التنمية المطردة للطبقة الثالثة»[31]. وربما كان الإحساس السائد بضرورة الصراع من أجل البقاء، والاصطفاء الطبيعي الذي يكون فيه النصر، بل مجرد البقاء، برهاناً على كل من الصلاحية والخصائص الأخلاقية في المقام الأول هي وحدها التي تحقق مثل هذه الصلاحية، نقول إن هذا الإحساس السائد ربما كان يعبر عن تعديل للأخلاق البورجوازية القديمة لتنسجم والوضع الجديد. إن الداروينية، سواء أكانت اجتماعية أم غير ذلك، لم تكن مجرد علم، بل كانت أيديولوجية، حتى قبل أن تُصاغ على هذا النحو. فأن تكون بورجوازياً لا يعني فحسب أن تكون متفوقاً، بل أن تكون قد أظهرت المناقب الأخلاقية التي تُعادل الصفات الأخلاقية القديمة.

ولكنها، قبل كل شيء، كانت تعني التفوق، فالبورجوازي لم يكن مستقلاً فحسب، أي كان رجلاً لا يأتمر بغير (أمر الدولة أو الله) بل هو رجل يأتمر بأمر نفسه، أنه لم يكن مجرد رب عمل، أو مقاول، أو رأسمالي، بل هو، من الوجهة الاجتماعية «سيد»، أو «راعي الرعية» (Fabrikher)، وهو الأب الراعي (Patron) أو الرئيس (Chef). لقد كان استحواذه على القيادة، في المنزل، وفي العمل، وفي المعمل، عاملاً حاسماً في تعريفه لنفسه، وكان التأكيد الرسمي لهذه الزعامة، سواء أكان اسمياً أم حقيقياً، هو العنصر الرئيسي في المنازعات الصناعية كلها في تلك الفترة: «لكنني أنا مدير المناجم. أي، بعبارة أخرى،

---

(31) [Theodor Mundt, *Die neuen Bestebungen zu einer wirtschaftlichen Reform der unteren Volksklassen* ([n. p.: n. pb.], 1855)], cited in Zunkel, «Industriebürgertum in Westdeutschland,» in: Wehler, ed., *Moderne Deutsche Sozialgeschichte*, p. 327.

الرئيس [Chef] لجمهرة عريضة من العمال، إنني أمثل مبدأ السلطة، وأنا ملتزم بأن أجعلها، ممثلةً بي، موضع احترام: وذلك هو ما كان الهدف الواعي لعلاقتي مع الطبقة العاملة»[32]. ولم تكن صفة «السيد» هذه تصدق أصلاً على أصحاب المهن الحرة، أو الفنان، أو المفكر أو من لم يكن أساساً رب عمل أو مشرفاً على مرؤوسين. وحتى في هذا المجال، لم يكن «مبدأ السلطة» غائباً عن الساحة، سواء في تصرفات الأستاذ الجامعي التقليدي الأوروبي، أم الطبيب الآمر الناهي، أم قائد الفرقة السيمفونية، أم الرسام المتقلب الأهواء. وإذا كان كْروبْ هو الذي يملي أوامره على جحافل العمال، فإن الموسيقار ريتشارد فاغنر (Richard Wagner) كان يتوقع من جمهوره الانصياع التام.

إن الهيمنة تتضمن الدونية والنقص. غير أن البورجوازية كانت في منتصف القرن التاسع عشر منقسمة على نفسها حول طبيعة هذه الدونية التي لم يكن ثمة اختلاف على وجودها في الطبقات الدنيا. وكانت تلك هي الحال، على الرغم من أنه كان يجب القيام بمحاولات للتمييز، في تلك الجماعات والشرائح الفرعية، بين من يُتوقع منهم النهوض والصعود إلى مرتبة الطبقة الدنيا الوسطى على الأقل، والجماعات الأخرى الميؤوس منها تماماً. وحيث إن النجاح رهن بالجدارة الشخصية، فإن من الواضح أن الفشل يعود إلى غياب هذه الجدارة أصلاً. وكانت الأخلاق البورجوازية التقليدية، سواء منها البيوريتانية أم العَلْمانية، تعزو هذه الحال إلى وَهَنٍ روحي، لا إلى نقص في الذكاء، لأنه كان من الجلي أن النجاح في التجارة لا يستلزم قدرة ذهنية فائقة، مثلما أن حدة الذكاء ليست ضماناً للثراء، أو حتى لعرض وجهات النظر «السليمة». ولم يكن ذلك يعني بالضرورة عداءً للفكر، مع أن مثل هذا الاعتقاد

(32) Rolande Trempé, «Contribution à l'étude de la psychologie patronale: Le Comportement des administrateurs de la societé des mines de carmaux (1856-1914),» *Mouvement social*, vol. 43 (1963), p. 66.

كان شائعاً في بريطانيا والولايات المتحدة، لأن من يحرزون النجاح التجاري قد يكونون من ذوي التحصيل العلمي المتواضع ولكنهم استخدموا التجريب والحس العام. بل إن الشاعر الفنان والناقد الاجتماعي جون رسكين (1819 ـ 1900) عبّر عن وجهة النظر هذه عندما قال «إن الميتافيزيقيين المشغولين ما فتئوا يربكون الناس «الطيبين» و«البسطاء»، ويحوكون حولهم شبكات عنكبوتية، ويضعون العصي في أفضل دواليب التجارة في العالم». وقد صاغ صامويل سمايلز هذا المعنى بعبارة أبسط:

إن الخبرة المستقاة من الكتب، على ما فيها من قيمة، إنما نكتسبها عبر «التعلم»، بينما الخبرة المستفادة من الحياة الفعلية هي من باب «الحكمة». ورُبَّ حفنة من الثانية تُعادل أكداساً مكدسة من الأولى»[33].

غير أن تصنيف الناس البسيط إلى «متفوقين» و«وضيعين» أخلاقياً، مع أنه صالح للتمييز بين «المحترمين»، والجماهير العاملة المخمورة المنحلة، لم يعد ملائماً، إلا للطبقة الدنيا الكادحة، لأن الفضائل القديمة لم تعد تصدق بصورة جلية على البورجوازية الناجحة الغنية، فأخلاق التعفف والجُهد لا تنطبق على نجاح أصحاب الملايين الأمريكيين في الستينيات والسبعينيات من ذلك القرن، أو حتى على أصحاب المصانع الأثرياء الذين تقاعدوا ليعيشوا حياة مرفهة في منزل ريفي، ناهيك عن انطباقها على أقاربه من ذوي الدخل؛ الذين كان مثالهم الأعلى، على حد قول جون رسكين:

«أن يمضوا العمر في عالم مترع بالبهجة والحبور، زاخرة أسافله

(33) John Ruskin, *Modern Painters*, cited in: Walter E. Houghton, *The Victorian Frame of Mind, 1830-1870* (New Haven: Conn; Yale University Press, 1957), p. 116, and Samuel Smiles, *Self-Help*, with Illustrations of Character and Conduct (London: J. Murray, 1859), Chapter 11, pp. 359-360.

بالحديد والفحم. وعلى كل منحدر في هذا العالم المفعم بالمسرة، تتراءى عزبة خلابة وقصر... وحديقة معتدلة المساحة؛ وبستان جميل ومستنبتات زجاجية؛ وعربة لطيفة تمر عبر الشجيرات. في هذه العزبة... سيعيش الوجيه الإنجليزي وزوجته الفاتنة وعائلته الكريمة؛ إنه قادر دوماً على أن يؤمن لزوجته المخدع وحجرة اللبس والجلوس، والمجوهرات، ولبناته ملابس الرقص الرائعة، والصيادين لأبنائه، ورحلة قنص لنفسه في أعالي هايلند»[34].

من هنا، تعاظمت أهمية النظريات البديلة عن التفوق الطبقي «البيولوجي» التي انتشرت كثيراً في القرن التاسع عشر وغلبت على نظرة البورجوازي للعالم (Weltanschauung)، فالتفوق، وفق هذه النظرية محصلة للانتقاء الطبيعي المنقول جينيّاً[35]، وإذا لم يكن البورجوازي نوعاً مختلفاً، فإنه، على الأقل عضو في عرق متفوق، ومرحلة متقدمة من التطور البشري، متميزة على المراتب الأخرى الدنيا التي توقف نموها، في السياق التاريخي والثقافي، عند مرحلة الطفولة أو، في أحسن الحالات، في مرحلة المراهقة.

هي، إذاً، خطوة واحدة تفصل بين السيد والعِرْق السيد. غير أن حق الهيمنة، وتفوق البورجوازية الأكيد، بوصفها نوعاً، لا ينطوي على الدونية فحسب، بل، في الأوضاع المثالية، على دونية طيّعة ومقبولة، كما هي الحال بين الرجل والمرأة (ما يجسد، مرة أخرى، نظرة البورجوازية إلى لعالم)، فيجب على العمال، شأنهم شأن النساء، أن يظهروا الولاء والرضى. وإذا لم يفعلوا، فإن ذلك سيكون مردّه إلى ذلك الشخص الخطير في عالم البورجوازية الاجتماعي: إنه «الإهاجي الخارجي». ومع أنه كان واضحاً للعيان كل الوضوح أن أعضاء

---

(34) John Ruskin, «Traffic,» in: *The Crown of Wild Olive* [(Orpington: Kent, Allen, 1866)], *Works* 18, p. 453.

(35) انظر الفصل الرابع عشر من هذا الكتاب.

النقابات الحرفية هم الأفضل والأذكى والأمهر بين العمال، فإن الغلبة المطلقة كانت للأسطورة التي تفيد بأن ثمة عاملاً عازفاً عن العمل ما يفتأ يحرض العمال البسطاء الذين ينصب اهتمامهم على عملهم بالدرجة الأولى. «إن سلوك العمال لا يستحق إلا التنديد»، على حد قول أحد مديري المناجم في فرنسا عام 1869، خلال حملة القمع الضارية التي شنت على إضراب شبيه بذاك الذي عرض إميل زولا صورةً حيةً له في رواية **جيرمينال** (*Germinal*)، «علينا الإقرار بأنهم إنما كانوا مجرد أدوات همجية في أيدي الإهاجيّين»[36]. وبمزيد من الدقة: «يجب» أن يُعَرَّف مناضل الطبقة العاملة النشيط أو الزعيم المحتمل بأنه إهاجيّ (agitator)؛ لأنه لا يمكن تطويعه ودمجه في سياق التنميط الذي ينص على الطاعة، والخمول، والغباء. وعام 1859، اعُتقل تسعة من أكثر العمال نزاهة واستقامة في سيتون ديلافال «وجميعهم ممن لا يشربون الخمر، وستة منهم من المتدينين الميثوديين، وأربعة من الواعظين المحليين»، وأُودعوا السجن مدة شهرين بعد إضراب كانوا جميعهم من معارضيه. وكان مدير المنجم واضحاً تماماً حول هذه المسألة «إنني أعلم أنهم رجال محترمون، ولهذا السبب أودعتهم السجن، فلا يُعقل أن يرسل إلى السجن من لا إحساس لهم»[37].

كان هذا الموقف يعبر عن التصميم على دق عنق الطبقات الدنيا؛ لأنها رفضت التخلي عن قادتها المحتملين والاندماج في الشريحة الدنيا من الطبقة الوسطى. غير أنه كان في الوقت نفسه يعبر عن درجة عالية من الثقة، فقد مضى عهد طويل على أيام أصحاب المصانع في ثلاثينيات

---

(36) Trempé, «Contribution à l'étude de la psychologie patronale: Le Comportement des administrateurs de la societé des mines de carmaux (1856-1914),» p. 73.

(37) William Laurence Burn, *The Age of Equipoise; a Study of the Mid-Victorian Generation* (New York: Norton, [1964]), p. 244 n.

القرن الذين كان يؤرقهم خوفهم الدائم مما يشبه انتفاضة العبيد[38]. فعندما تحدث السادة المصنِّعون عن مخاطر الشيوعية التي كانت تستهدف الحد من حق أرباب العمل المطلق في استخدام العمال وطردهم حسبما شاءوا، فإنهم لم يكونوا يعنون الثورة الصناعية، بل التأكيد على أنه لا يمكن التمييز أو الفصل بين حق التملك وحق السيطرة، وعلى أن السماح بالتدخل في حق الملكية من شأنه أن يقوّض المجتمع البورجوازي[39]. ومن ثم فإن ردة الفعل التي جمعت الخوف والكراهية بلغت درجة هستيرية عندما لاح شبح الثورة الاجتماعية مرة أخرى في العالم الرأسمالي الواثق، وتشهد على ذلك المذابح التي اقترفت بحق كومونيّي باريس[40].

IV

طبقة من السادة: نعم. طبقة حاكمة؟ الجواب هنا أكثر تعقيداً، فمن الواضح أن البورجوازية لم تكن طبقة حاكمة على النحو الذي كان عليه مالك الأرض التقليدي الذي منحه وضعُه سلطة الدولة الفاعلة، قانوناً أم فعلاً، على سكان أراضيه. لقد كان يعمل في إطار قوة الدولة والإدارة التي لم تكن مُلكاً له، على الأقل خارج المنزل الذي يسكنه («بيتي هو حصني»). ولم يكن بوسع السيد البورجوازي، إلا في مناطق بعيدة عن نطاق سلطته، كما هي الحال في مستوطنات المناجم النائية، أو كانت سلطة الدولة ضعيفة فيها، مثل الولايات المتحدة، أن يمارس الحكم المباشر سواء عن طريق السيطرة المباشرة على القوى المحلية للسلطة العامة، أو باستخدام الجيش الخاص من رجال بنكرتون، أو بتكوين عصابات من «المحترسين» للمحافظة على «النظام». يضاف إلى ذلك، أن حالة الدول التي تولت فيها

---

(38) انظر الفصل الحادي عشر من: Eric John Hobsbawm, *The Age of Revolution: Europe 1789-1848* (London: Weidenfeld and Nicolson, 1962).

(39) H. Ashworth in 1853-1854, cited in: Burn, p. 243.

(40) انظر الفصل التاسع من هذا الكتاب.

البورجوازية السلطة السياسية الرسمية، أو لم تُشرك فيها النخب السياسية القديمة كانت حالة استثنائية غير معتادة، فإن البورجوازية، أيّاً كان تعريفها، لم تتولَّ السيطرة أو تمارس السلطة السياسية في معظم البلدان، إلا ربما على مستوى البلديات أو المجالات الضيقة المتفرعة عنها.

وإنما كان مامارسته هو الهيمنة، وما حددته على نحو متزايد هو السياسة. ولم يكن ثمة بديل للرأسمالية باعتبارها أسلوباً للتنمية الاقتصادية. وتضمن ذلك في تلك الفترة تحقيق برامج البورجوازية الليبرالية (مع بعض التنويعات المحلية)، وتطبيق البرامج الاقتصادية والمؤسسية، وتعزيز مواقع البورجوازية المؤثرة في الدولة. وحتى بالنسبة للاشتراكيين، فإن الطريق المفضية إلى انتصار البروليتاريا كانت لا بد أن تمر من خلال رأسمالية ناضجة كاملة النمو. فقبل عام 1848، بدا لبعض الوقت أن أزمة الرأسمالية خلال فترة الانتقال[41] قد تكون كذلك أزمتها النهائية، وفي إنجلترا على الأقل. غير أنه اتضح في الخمسينيات أن الفترة الرئيسية لنموها واتساعها إنما كانت في بداياتها. لقد كانت راسخة الأسس في حصنها الرئيسي، بريطانيا. أما في البلدان الأخرى فقد ظهر أن احتمالات الثورة الاجتماعية، كانت، بصورة متناقضة، تعتمد أكثر من أي وقت مضى، داخلياً وخارجياً، على مستقبل البورجوازية، التي ستولّد نظاماً رأسمالياً يمكّن من الإطاحة بها نفسها. وبمعنى من المعاني، فقد أقر بهذا الوضع العالمي نفسه كل من ماركس، الذي هلل لغزو بريطانيا للهند وغزو الولايات المتحدة لنصف المكسيك باعتبار هاتين الحملتين خطوتين متقدمتين تاريخياً، وكذلك العناصر التقدمية في المكسيك والهند التي سعت إلى التحالف مع الولايات المتحدة والراج البريطاني

(41) Hobsbawm, Ibid.

ضد القوى التقليدية في البلدين. أما حكام الأنظمة المحافظة المعادية للبورجوازية والليبرالية في أوروبا، سواء في فيينا، أو برلين، أو سان بطرسبرغ، فقد اعترفوا ـ وإن على مضض ـ بأن البديل من التنمية الاقتصادية الرأسمالية هو التخلف وما يليه من ضعف. وكانت مشكلتهم تنحصر في كيفية مساندة الرأسمالية، ومعها البورجوازية، من دون تبني أنظمة الحكم السياسية البورجوازية الليبرالية. إلا أن الرفض الصريح للمجتمع البورجوازي وأفكاره لم يعد موقفاً قابلاً للحياة. وقد تنحّت جانباً المنظمة الوحيدة القادرة على التصدي لمقاومته دونما تحفظ، وهي الكنيسة الكاثوليكية. وبيّن كتاب **مدوّن الأخطاء** (*Syllabus of Errors*) الصادر عام 1864، ومجلس الفاتيكان، أنهما يقفان تماماً موقف الدفاع عندما رفضا رفضاً قاطعاً كل ما كان يتميز به منتصف القرن التاسع عشر.

وقد بدأ احتكار البرنامج البورجوازي (بأشكاله «الليبرالية») بالتداعي اعتباراً من السبعينيات. إلا أنه كان متماسكاً ومنيعاً على العموم في الربع الثالث من القرن التاسع عشر. ومن الوجهة الاقتصادية، وجد الحكام المطلقون في وسط أوروبا وشرقها وهم يلغون القنانة ويفككون آليات الضوابط الاقتصادية التقليدية في الدولة. وفي ميدان الشؤون السياسية، وجدوا أنفسهم يطالبون، أو على الأقل يصالحون الليبراليين البورجوازيين المعتدلين، وربما اسمياً، مؤسساتهم التمثيلية. وثقافياً، كان أسلوب الحياة البورجوازي هو الذي ساد، عوضاً عن الأسلوب الأرستقراطي، عن طريق انسحاب الأرستقراطية القديمة عموماً من عالم الثقافة (حيث إن هذا المصطلح قد بدأ الآن يدخل حيز الفهم): لقد أصبحوا، إن لم يكونوا قد غدوا منذ بعض الوقت، من «البرابرة الذين تحدث عنهم ماثيو آرنولد (Matthew Arnold) (1822 ـ 1888). وبعد عام 1850، يصعب التفكير في ملوك تولوا رعاية الفنون باستثناء بعض المجانين مثل لودفيغ الثاني ملك بافاريا (1822 ـ 1886)، أو أي من أساطين النبلاء ممن ولعوا بجمع التحف والأعمال الفنية، ما عدا بعض

غريبي الأطوار[42]، ففي الفترة السابقة على عام 1848، كانت الحقائق اليقينية التي آمن بها البورجوازيون قد بدأت تهتز بفعل الخوف من الثورة الاجتماعية. وبعد عام 1870، تقوضت مرة أخرى بالخوف من تعاظم حركات الطبقات العاملة. إلا أن انتصارهم بدا مؤكداً لا ريب فيه في الفترة بين هذين العامين. وعلى حد قول بسمارك، الذي لم يكن يتعاطف مع المجتمع البورجوازي، فإن هذا العصر كان «عصر المصالح المادية»، وكانت المصالح الاقتصادية هي «القوة الأولية»، «إنني أعتقد بأن تقدم المسائل الاقتصادية في مجال التنمية المحلية ما زال يمضي قدماً، ولن يتوقف»[43]. ولكن، ما الذي جسد هذه «القوة الأولية» في تلك الفترة، غير الرأسمالية والعالم الذي صنعه البورجوازيون لمصلحتهم؟

---

(42) ربما كانت الباليه الإمبراطورية الروسية هي الاستثناء من القاعدة؛ غير أن العلاقات بين أعضاء الأسر الحاكمة وراقصات الباليه تجاوزت الحدود الثقافية الصرفة.

(43) Hans Ulrich Wehler, *Bismarck und der Imperialismus* (Köln: Berlin, Kiepenheuer u. Witsch, 1969), p. 431.

الفصل الرابع عشر

العلم، الدين، والأيديولوجيا

إن طبقتنا الأرستقراطية هي الأكثر وسامةً (والأكثر قبحاً في نظر الصينيين والزنوج) من الطبقات الوسطى في اختيار النساء؛ ولكن واحسرتاه؛ إن حق الولد البكر في الإرث كله قد دمر الاصطفاء الطبيعي!

تشارلز داروين، 1864[1].

يبدو الأمر كما لو أن الناس يريدون أن يظهروا مدى ذكائهم، في نظرهم، بمدى خروجهم على الكتاب المقدس والصلوات.

ف. شاوباخ حول الأدب الشعبي، 1863[2].

ما فتيء جون ستيوارت مِلْ يدعو إلى حق الاقتراع للزنوج وللنساء.

---

(1) Charles Darwin, *More Letters of Charles Darwin, a Record of his Work in a Series of Hitherto Unpublished Letters..*, 2 vols., Edited by Francis Darwin and A. C. Seward (New York: D. Appleton and Company, 1903), vol. 2, p. 34.

(2) ورد في: Rolf Engelsing, «Zur politischen Bildung der deutschen Unterschichten, 1789-1863,» *Historische Zeitschrift*, vol. 206 (1968), p. 361.

وهذه المستخلصات إنما هي محصلة للمسلّمات التي انطلق منها. . .
وستفضي به إلى نتائج مستحيلة.

المجلة الأنثروبولوجية، 1866[3].

I

كان المجتمع البورجوازي في الربع الثالث من القرن التاسع عشر واثقاً من نفسه وفخوراً بما حققه من إنجازات. وبين الجهود الإنسانية كافة، تجلى ذلك، بأبهى مظاهره في تقدم المعرفة، أي «العلم»، ولم يكن المتعلمون في تلك الفترة فخورين بما لديهم من علوم فحسب، بل كانوا مستعدين لتسخير كل أنواع الأنشطة الفكرية لها، فعام 1861، لاحظ عالم الإحصاء والاقتصاد كورنو (Cournot) أن «الاعتقاد بالحقيقة الفلسفية فتر إلى حد لم يعد معه الجمهور ولا المعاهد الأكاديمية يتقبلون مثل هذه الأعمال والترحيب بها، إلا باعتبارها نتاجاً للبحث الصافي والفضول التاريخي»[4]. إن هذه الفترة لم تكن، بالتأكيد، مرحلة سعيدة للفلاسفة. وحتى في موطنهم التقليدي في ألمانيا، لم يكن بينهم شخص له مكانة يمكن مقارنتها بمكانة شخصيات الماضي العظيمة، ناهيك عن خلافتها لها. بل إن هيغل نفسه، الذي وصفه الفرنسي المعجب السابق به، إيبوليت تين (Hippolyte Tain) (1828 ـ 1893) بأنه يمثل «البالونات المفرغة» للفلسفة الألمانية تقادم به العهد في موطنه الأصلي، بل إن الطريقة التي قام فيها «المتشدقون المغرورون المملون بالتمهيد للانتقاص من قدره في أوساط المتعلمين الألمان» قد دفعت ماركس في ستينيات القرن إلى القول: «إنني أعلن على الملأ أنني واحد من تلاميذ

(3) *Anthropological Review*, vol. 4 (1866), p. 115.

(4) Fernandet L'Huillier et Pierre Benaerts, *Nationalité et nationalisme, 1860-1878*, peuples et civilisations; 17, nouvelle édition... refondue (Paris: Presses universitaires de France, 1968), p. 623.

هذا المفكر العظيم»[5]. وقد انضوى التياران الفلسفيان السائدان آنذاك تحت راية العلم: الوضعية الفرنسية، التي ارتبطت بمدرسة أوغُست كونت (Auguste Comte) المثير للفضول، والتجريبية/الإمبيريقية البريطانية المرتبطة بجون ستيورات مِلْ. ولا يفوتنا هنا أن نذكر المفكر المتوسط الجودة الذي كان نفوذه آنذاك أقوى من نفوذ أي مفكر آخر في العالم، ألا وهو هربرت سبنسر (Herbert Spencer) (1820 ـ 1903). وكان المرتكز الثنائي لِـ"الفلسفة الوضعية التي طرحها كونْت يقوم على استحالة التغير في قوانين الطبيعة، واستحالة المعرفة اللانهائية المطلقة. وبقدر ما كانت الوضعية (Positivism) خروجاً على المذهب الغريب الأطوار المسمى «دين البشرية»، فإنها كانت في الوقت نفسه مجرد تبرير فلسفي لمنهج العلوم التجريبية الدارج آنذاك. وبالمثل، فإن مِلْ في نظر معاصريه، على حد تعبير تِيْنْ، مهّد «السبيل المعهود إلى الاستقراء والتجريب». غير أن وجهة النظر هذه انطوت، أو بالأحرى قامت لدى كونت وسبنسر على نظرة تاريخية للتقدم التطوري. فالمنهج الوضعي أو العلمي كان، (أو سيكون) انتصاراً لآخر الأطوار التي ستمر بها البشرية. وهذه الأطوار، لدى كونْت، هي: اللاهوتية والميتافيزيقية/ الماورائية، والعلمية؛ ولكل منها مؤسساته، فقد اتفق مِلْ وسبنسر، على الأقل، على أن الليبرالية (بمفهومها الأوسع)، تمثل التعبير الأنسب عنها. ويمكن القول، مع بعض المبالغة، إن تقدم العلم، وفق وجهة النظر تلك، قد جعل من الفلسفة أمراً لا غناء فيه، إلا بوصفها عوناً فكرياً مُخبرياً للعالِم.

علاوة على ذلك، وبهذا المستوى من الثقة بمناهج العلم، فليس من المستغرب أن إنجازاتها ولّدت انطباعاً عميقاً لدى المتعلمين في النصف الثاني من ذلك القرن. بل إن هؤلاء أوشكوا على الاقتناع بأن

(5) Karl Marx, *Capital*, I.

هذه الإنجازات لم تكن باهرة فحسب، بل نهائية. إن اللورد كِلفن (Kelvin)، وليام طومبسون، عالم الفيزياء الشهير، اعتقد أن المشكلات الأساسية كلها في الفيزياء قد حُلَّتْ، مع أن قضايا بسيطة نسبياً قد ظلت تنتظر الحل. وكان، كما نعلم الآن، بعيداً كل البُعد عن الحقيقة.

على الرغم من ذلك، كان الخطأ الذي ارتكبه مهماً ومفهوماً، ففي العلوم، كما في المجتمع، تمر فترات ثورية وأخرى غير ثورية. ومع أن القرن العشرين كان ثورياً في كلتا الناحيتين: العلمية؛ والاجتماعية، بل أكثر ثورية من «عصر الثورة» (1789 ـ 1848)، فإن الفترة التي نعالجها في هذه الدراسة لم تكن، مع استثناءات قليلة، ثوريةً في أي من المجالين. ولا يَعني ذلك أن الرجال الأذكياء القادرين اعتقدوا أن العلم والمجتمع قد تمكنا من حل المشكلات كافة، مع أن عدداً من أولئك العلماء الأكفاء اعتقدوا أن المشكلات الأساسية كلها قد حلت في بعض المجالات، مثل الأنماط الأساسية للاقتصاد، وللعالم الفيزيائي الطبيعي. لكن ذلك يعني، على كل حال، أن مثل هؤلاء الرجال لم تكن تساورهم الشكوك حول الوجهة التي كانوا يسيرون، أو يتوجب عليهم أن يسيروا صوبها، والمناهج، الفكرية والعملية، الكفيلة بوصولهم إلى هناك. لم يكن هناك من يشكك في أن التقدم، المادي والفكري، واقع ماثل للعيان لا يمكن إنكاره. بل إن ذلك كان هو المفهوم السائد في ذلك العصر، مع أنه كان ثمة خلاف جذري بين من اعتقدوا أن التقدم سيمضي بصورة مستمرة وفي خط مستقيم تقريباً، ومن أدركوا (مثل ماركس) أنه سيكون متقطعاً وحافلاً بالتناقض. وثارت الشكوك فقط حول قضايا تتصل بالذوق، إذا جاز التعبير، مثل آداب السلوك، والأخلاق، التي لا يمكن فيها الاسترشاد بأي تراكمات كميّة. ولا ريب في أن الناس كانوا عام 1860 يعرفون ما لم يعرفوه في أي وقت مضى، غير أنه لم يكن بالمستطاع البرهنة بالطريقة نفسها على أنهم كانوا «أفضل حالاً»، فتلك كانت من المسائل التي تشغل اللاهوتيين (الذين لم يتمتعوا بسمعة فكرية عالية) والفلاسفة، والفنانين (الذين كانوا موضع إعجاب،

ولكن أقرب إلى إعجاب الأثرياء بالماسات التي يستطيعون شراءها لنسائهم)، والنقاد الاجتماعيين، يساريين كانوا أو يمينيين، ممن لم يَرُقْ لهم المجتمع الذي كانوا يعيشون فيه أو يرغمون على الانخراط في شؤونه. وكان هؤلاء أقلية متميزة في أوساط المتعلمين الفصحاء.

تجلى التقدم الهائل في فروع المعرفة كلها، إلا أنه كان من الواضح أن بعض هذه الفروع كان أكثر تقدماً أو أكثر نضجاً من غيره. من هنا، بدت الفيزياء أكثر نضجاً من الكيمياء، بعد أن تجاوزت بأشواط بعيدة مرحلة التقدم الفوّار المتفجر التي كان ذلك العلم منشغلاً بها كل الانشغال آنذاك. و كانت الكيمياء، وحتى «الكيمياء العضوية»، قد حققت، بدورها، تقدماً ملموساً على علوم الحياة التي بدا وكأنها تمهد للانطلاق إلى مرحلة من التقدم المثير. والواقع أنه إذا كانت نظرية علمية واحدة قادرة على تمثيل أشواط التقدم في العلوم الطبيعية في تلك الفترة، وجرى الإقرار بخطورتها، فإنها كانت نظرية التطور. وإذا هيمن شخص واحد على الصورة العامة للعلم، فإنه كان ذلك الشخص الأشعث القِرَديّ الملامح على نحو ما، وهو تشارلز داروين (Charles Darwin) (1809 ـ 1882). أما عالم الرياضيات الغريب التجريدي، المذهل منطقياً، فقد ظل معزولاً عن الأوساط العلمية والعامة، ربما أكثر مما كان من قبل، لأن حلقة الاتصال الأساسية معها، وهي الفيزياء (من خلال التقانة الفيزيائية)، بدت في تلك المرحلة وكأنها لا تنتفع كثيراً بالتجريدات الرياضية المتقدمة المغامرة مثلما كانت في الأيام المشهورة التي طُورت فيها ميكانيكا الأجرام السماوية. أما حساب التفاضل والتكامل، الذي لم تكن إنجازات الهندسة والاتصالات في تلك المرحلة ممكنة من دونه، فقد كان آنذاك متأخراً عدة أشواط عن آفاق الرياضيات المتزايدة الاتساع. وربما تمثل ذلك بأجلى صوره في أعظم العلماء الرياضيين في تلك الفترة، غيورغ برنهارد ريمان (Georg Bernhard Riemann) (1826 ـ 1866)، الذي لا يمكن تجاهل أطروحته العلمية الجامعية عام 1854 «حول الفرضيات التي يقوم عليها علم

الهندسة» (التي نشرت عام 1868)، في أي مناقشة للعلوم في القرن التاسع عشر، أسوة بدراسة نيوتن **المبادئ** (*Principia*) في القرن السابع عشر، فهي قد أرست الأسس لعلم الهندسة اللامقدارية، والهندسة التفاوتية للمَشاعب، ونظرية المكان ـ الزمان، والجاذبية الأرضية. بل إن ريمان طرح نظرية في الفيزياء تنسجم ونظريةَ الكمّ الحديثة. غير أن هذه النظريات والكشوف الرياضية الأخرى لم تتبلور إلا في عصر الفيزياء الثوري الذي بدأ في أواخر القرن التاسع عشر.

غير أن العلوم الطبيعية لم يكن بينها ما يدل على الشك في الاتجاه العام الذي اتخذته حركة التقدم المعرفي، أو في الإطار المفهومي والمنهجي الأساسي لهذا التقدم. لقد كانت المكتشفات وفيرة، والنظريات جديدة أحياناً مع أنها، كما هو متوقع، لم تكن كلها مفاجئة. وكانت حتى النظرية الداروينية حول التطور باهرة، لا لأن «مفهوم» التطور كان جديداً بحد ذاته ـ فقد كان مألوفاً ومعروفاً لعقود عدة خلت ـ بل لأنها طرحت، للمرة الأولى، نموذجاً تفسيرياً مُرْضياً لأصل الأنواع، وفعلت ذلك بتقديم مصطلحات مألوفة تماماً حتى لغير العلماء؛ لأنها كانت أصداء للمفهوم المألوف تماماً أيضاً حول الاقتصاد الحر، وهو مفهوم المنافسة. والواقع أن أعداداً غفيرة، على نحو غير عادي، من العلماء الكبار كانوا يكتبون بلغة سمحت بانتشار شعبيتهم ـ وبصورة مبالغ فيها أحياناً ـ وبينهم داروين، باستور (Pasteur)، الفيزيولوجي كلود برنارد (Claude Bernard) (1813 ـ 1878)، رودولف فيرشاو (Rudolf Virchow) (1821 ـ 1902)، وهيلمهولتز (Helmholtz) (1821 ـ 1894) الذي سيرد ذكره لاحقاً في هذا الفصل، ناهيك عن علماء الفيزياء من أمثال اللورد كِلفن، وليام طومبسون. وكان النموذج الأساسي، أو «المنظومة الفكرية» للنظريات العلمية يبدو ثابتاً واضح المعالم، مع أن بعض العلماء، مثل جيمس كلارك ماكسويل (James Clerk Maxwell) (1831 ـ 1879) صاغوا أطروحاتهم بحذر غريزي جعلهم أكثر تواؤماً مع نظريات لاحقة كانت تسترشد بنماذج أخرى مختلفة جداً.

في نطاق العلوم الطبيعية، لم يكن ثمة مواجهة حماسية مرتبكة كما يحدث عادةً في حالات الصدام، لا بين الفرضيات المختلفة، بل بين الطرائق المختلفة لدراسة المشكلة نفسها، أي عندما لا ينحصر اقتراح أحد الأطراف في تقديم إجابة مختلفة، بل إجابة يرفضها الطرف الآخر على أساس أنها محظورة أو «لا يمكن تصورها». وحدث مثل هذا الصدام في عالم الرياضيات الصغير النائي عندما تغوَّل هـ. كرونيكر (H. Kronecker) (1839 ـ 1916)، على ك. فايرستراس (K. Weierstrass) (1815 ـ 1897)، ر. ديديكند (R. Dedekind) (1831 ـ 1916)، وج. كانتور (G. Cantor) (1845 ـ 1918) حول مسألة رياضيات اللانهاية. وقد قسمت «معركة المناهج» (Methodenstreite) تلك صفوف العلماء الاجتماعيين. ولكنها عند دخولها ميدان العلوم الطبيعية ـ وحتى البيولوجية منها ـ حول قضية التطور الحساسة، عبرت عن إقحام التفضيلات الأيديولوجية، لا عن نقاش مهني. وليس هناك من سبب علمي لعدم حصولها. من هنا، فإن العالم النموذجي في أواسط العهد الفيكتوري اللورد كلفن وليام طومبسون (الذي جمع بين عظمة القدرة النظرية ولكن العادية، وضخامة الخصوبة التقنية[6]، وما تلاها من نجاح في مجال الأعمال) لم يكن سعيداً بالرياضيات التي استخدمها كلارك ماكسويل في النظرية الكهرومغناطيسية عن الضوء، التي يعتبرها كثيرون منطلقاً للفيزياء الحديثة. ولكن بما أنه استطاع صياغتها بمصطلحات نابعة من رياضيات الهندسة الخاصة به (ولم تكن كذلك)، فإنه لم يخالفها. كذلك بيّن طومبسون، بصورة رضي هو عنها، أن عمر الشمس لا يمكن أن يكون أكثر من 500 مليون عام، ومن ثم فإنه يستحيل تحديد المدى الزمني الذي يتطلبه التطور الجيولوجي والبيولوجي

---

(6) يذكّرني الدكتور س. زيناو (S. Zienau) بأنه «لم تكن هنا أداة قياس كهربائية قبل العصر الإلكتروني إلا واستمدّت شيئاً من طومبسون، سواء منها التلغراف، أم كابينات الإشارة على خطوط السكة الحديد، أم محطات البريد أم شركات تزويد الكهرباء».

على الأرض. (وحيث إنه كان مسيحياً ملتزماً، فقد رحب بهذه النتيجة). والواقع أنه كان على صواب، وفق قوانين الفيزياء عام 1864: إذ لم يكن بوسع الفيزيائيين افتراض مدى زمني أطول لعمر الشمس، وبالتالي الأرض، إلا بعد اكتشاف مصادر الطاقة النووية التي لم تكن معروفة آنذاك. غير أن طومبسون لم يتساءل عما إذا كانت نظرياته الفيزيائية ناقصة عندما كانت تناقض الجيولوجيا ـ علم طبقات الأرض المتعارف عليه. وعليه، مضى الجيولوجيون قدماً بصرف النظر عن مقولات الفيزياء. ولم يكن لهذا السجال أن يحدث لو أن هذين العلمين حققا مزيداً من التطور.

هكذا، إذاً، تقدم عالم العلوم على سكة المسارات الفكرية السائدة آنذاك، وبدا أن المزيد من ذلك التقدم، شأنه شأن السكة الحديد نفسها، سيشق المزيد من المسارات من النوع نفسه، في مناطق جديدة. ولم يظهر في القبة السماوية ما يمكن أن يدهش الفلكيين القدامى، عدا مجموعة من المشاهدات الجديدة باستخدام المِرقابات وأدوات القياس (وهي مخترعات ألمانية بالدرجة الأولى)[7] وأساليب جديدة في التصوير الفوتوغرافي والتحليل المِطيافي الذي أجري أولاً على ضوء النجوم عام 1861، وثبت في ما بعد أنه أداة فائقة القوة للبحث.

كانت العلوم الفيزيائية قد حققت في نصف القرنِ السابق إنجازات مثيرة، عندما جمعت القوانين الدينامِحرارية

---

(7) حتى تسعينات القرن، ظل نموذج المرقاب/التلسكوب، الذي وضعه جوزيف فراونهوفر (Joseph Fraunhofer) (1787 ـ 1826) هو النواة الأولية للمرقابات العملاقة الخاصة بقياس انكسار الأشعة التي رُكبت آنذاك في المراصد الأمريكية. وقد تخلف علم الفلك في بريطانيا، من حيث النوعية، عن بقية المناطق في القارة، ولكن استُعيضَ عن ذلك بسلسلة طويلة مستمرة من المشاهدات الفلكية. «ويمكن مقارنة غرينتش بشركة عريقة لإجراء المشاهدات المنتظمة. وكانت راسخة السمعة، ذات قاعدة مضمونة من المتعاملين معها، أي الملاحة الدولية» (س. زيناو).

(Thermodynamics) ظواهر متباعدة في الظاهر، مثل الحرارة والطاقة. بينما اتجهت الكهرباء والمغناطيسية، وحتى الضوء، نحو نموذج تحليلي واحد. ولم تتقدم الديناميِحرارية أشواطاً بعيدة خلال تلك الفترة، مع أن طومبسون كان قد استكمل عملية التوثيق بين الاتجاهات الجديدة في علم الحرارة مع قوانين الميكانيكا الأقدم عام 1851 (المعادل الدينامي للحرارة). والنموذج الرياضي الباهر للنظرية الكهرومغناطيسية، الذي وضعه رائد الفيزياء النظرية الباهر للنظرية الكهرومغناطيسية الحديثة، جيمس كلارك ماكسويل، عام 1862، كان، في آنٍ معاً، عميقاً ومنفتحاً. وقد ترك الطريق مفتوحاة لاكتشاف الإلكترون. غير أن ماكسويل، وربما لأنه لم يحظَ إطلاقاً بعرض مناسب لما أسماه «نظريتي الخرقاء بعض الشيء»، (ولم يتحقق ذلك إلا عام 1941!)[8] أخفق في إقناع كبار معاصريه مثل طومبسون وهلمهولتز، أو حتى النمساوي اللامع لودفيغ بولتزمان (Ludwig Boltzmann) (1844 ـ 1906)، الذي أعلنت مذكرته الموضوعة عام 1868 إطلاق الميكانيكا الإحصائية باعتباره موضوعاً علمياً. وربما لم تكن الفيزياء في منتصف القرن التاسع عشر مشهورة ومثيرة كما كانت في الفترتين السابقة واللاحقة، إلا أن القفزات النظرية التي حققتها كانت في الواقع عظيمة الأثر. ومع ذلك، ظلت النظرية الكهرومغناطيسية، ومنها قوانين الديناحرارية، على رأي برنال (Bernal) «تنطوي على حدود نهائية حاسمة»[9]. وفي كل الأحوال، استهوت البريطانيين (وفي مقدمهم طومبسون)، بل جميع الفيزيائيين الذين أبدعوا في مجال الديناحرارية،

---

(8) في كتاب **النظرية الكهرومغناطيسية** (*Electromagnetic Theory*) الذي وضعه جوليوس ستراتون (Julius Stratton) من معهد ماساشوستست للتقانة «MIT». وقد أبلغني الدكتور س. زيناو، الذي أقر له بفضل عظيم في إشاراتي إلى العلوم الفيزيائية، بأن ذلك قد حدث في لحظة مؤاتية خلال الجهد الحربي الأنجلوسكسوني في مجال الرادار.

(9) John Desmond Bernal, *Science in History*, Pelican Book; A994-A997, 4 vols., [New Ed.] (Harmondsworth: Penguin, 1969), vol. 2, p. 568.

الفكرة القائلة إن الإنسان قد اكتسب الآن فهماً أكيداً لقوانين الطبيعة (مع أن هلمهولتز وبولتزمان كانا، بحق، غير مقتنعين بذلك). وربما جعلت غزارة الإنتاج التقني المشهود في مجال بناء النماذج الفيزيائية في الميكانيكا وَهْمَ الحسم النهائي أكثر إغراء لهؤلاء.

ومن الواضح أنه لم يكن ثمة حسم نهائي في ثاني أعظم العلوم الطبيعية، الذي ربما كان الأكثر ازدهاراً بينها كلها في القرن التاسع عشر، وهو الكيمياء. وقد شهد هذا العلم توسعاً مثيراً، وبخاصة في ألمانيا، لأن استخداماته الصناعية كانت متعددة الجوانب: من مادة تبييض القماش، والأصبغة، والأسمدة، إلى المنتجات الطبية والمتفجرات. وكاد عدد الكيميائيين ينوف على نصف عدد المهنيين العاملين على العموم في الميادين العلمية كلها[10]. وكانت أسس الكيمياء، باعتباره علماً ناضجاً، قد أرسيت في الثلث الأخير من القرن الثامن عشر، فازدهر منذئذٍ، وتنامى على نحو مثير بتدفق الأفكار والمكتشفات خلال الفترة التي تغطيها هذه الدراسة.

كانت العمليات الأولية الأساسية في الكيمياء مفهومة، والأدوات التحليلية الرئيسية متوافرة؛ ومنها وجود عدد محدود من العناصر الكيميائية المؤلفة من أعداد مختلفة من الوحدات الأساسية (الذرّات)، ومركبات من العناصر تتكون من وحدات أساسية أخرى متعددة الذرّات من الجزيئات، وفكرة عن قواعد الجمع بينها، مثلما كان الحال بالنسبة لخطوات التقدم الكبيرة التي قطعها الكيميائيون في أنشطتهم الرئيسية، وتحليل المواد المتنوعة وتوليفها. وكان الميدان الخاص للكيمياء العضوية قد بدأ بالازدهار، مع أنه اقتصر على خصائص المواد ـ وبخاصة المستخدمة منها في الإنتاج ـ المستمدة من مصادر كانت حية ذات يوم، مثل الفحم. غير أن المسافة ظلت حتى ذلك الحين بعيدة عن الكيمياء

---

(10) المصدر نفسه.

الحيوية، أي فهم الكيفية التي كانت تتصرف فيها هذه المواد في المُتَعَضّيات الحية (Living Organism). وعلى الرغم من ذلك، ظلت نماذج الكيمياء ناقصة غير مكتملة، وتحققت مراحل متقدمة من التطور نحو فهمها في الربع الثالث من القرن التاسع عشر، فألقت الضوء على «بنية» المكونات الكيميائية التي كانت حتى ذلك الحين باستخدام الأساليب الكمّية (أي عدد الذرّات في الجزيء).

أصبح من الممكن تحديد الأعداد الصحيحة لكل نوع من الذرات في الجزيء بوساطة قانون أفوغادرو (Avogadro) 1811، الذي وضعه كيميائي وطني إيطالي أمام حلقة دراسية حول هذه المسألة عام 1860، أي عام الوحدة الإيطالية. وفي استعارة مثمرة أخرى من الفيزياء، اكتشف باستور عام 1848 أن المواد المتماثلة كيميائياً يمكن أن تتمايز فيزيائياً؛ أي تدير أو لا تدير سطح الضوء المستقطب. ويستتبع ذلك، من جملة أمور أخرى، أن الجزيئات تتشكل في حيز ثلاثي الأبعاد. وفي تلك الفترة وضع الكيميائي الألماني اللامع كيكولي (Kekulé) (1829 ـ 1896)، فيما كان يجلس على السطح العلوي لحافلة في لندن الفيكتورية عام 1865، أول تصور لنماذج بنية الجزيئات المعقدة، وهي دائرة من البنزين تتألف من ست ذرات كربونية تلتصق بكل منها ذرة من الهيدروجين. ويمكن القول إن تصور المهندس أو المعماري لنموذج ما قد حل مكان ما اعتبر حتى ذلك الوقت نموذجاً حسابياً ـ C6H6، وهو مجرد حساب للذرات ـ في صلب المعادلة الكيميائية.

وربما كان الأمر الأكثر إثارة هو التعميمات الرئيسية التي حدثت في تلك الفترة في ميدان الكيمياء، ومنها «الجدول الدوري للعناصر» (1869) الذي وضعه مندلييف (Mendeleev) (1834 ـ 1907). وبفضل حل المشكلات المتعلقة بوزن الذرة والتكافؤ (عدد الحلقات التي تصل الذرة في أحد العناصر بالذرات الأخرى)، فإن النظرية الذرية التي أغفلت بعد مرحلة من الازدهار في مطلع القرن التاسع عشر، عادت

إلى مكانتها بعد عام 1860. وفي الوقت نفسه، سمحت التقانة، ممثلةً بالمِطياف (Spectroscope) (1859) باكتشاف أنواع عدة من العناصر الجديدة. يضاف إلى ذلك أن الستينيات كانت فترة عظيمة لتوحيد المقاييس والمعايير، فقد شهدت، من جملة أمور أخرى، تثبيت الوحدات المعروفة لقياس الكهرباء مثل الفولت، والأمبير، والوات، والأُوم). وجرت من ثم، محاولات مختلفة لإعادة تصنيف العناصر الكيميائية وفق معامل التكافؤ والوزن الذري. واعتمدت محاولات مندلييف والألماني لوثار ميير (Lothar Meyer) على أن خواص العناصر تتنوع بصورة دورية مع أوزانها الذرية. وتتمثل براعة هذه المحاولات في الافتراض بأن بعض الخانات في الجدول الدوري لكل العناصر الاثنين وتسعين كانت، وفقاً لهذا المبدأ، فارغة، وكذلك في التنبؤ بخصائص العناصر التي ستملؤها ـ التي لم تكن قد اكتشفت بعد. وبدا للوهلة الأولى أن جدول مندلييف سيختتم دراسة النظرية الذرية بوضع حد لوجود أنواع مختلفة جوهرياً من المواد. وكان، في واقع الأمر، «سيجد تفسيره الكامل بمفهوم جديد للمادة لا يقوم على ذرات ثابتة غير متغيرة، بل على ترابطات غير دائمة بين عدد قليل من الجزيئات القابلة للتغير والتحول». إلا أنه بدا في ذلك الوقت كما لو أن مندلييف، وكذلك ماكسويل، قد قالا الكلمة الختامية في جولة قديمة من المناقشات، لا الكلمة الأولى في مستهل جولة جديدة.

وتخلف علم الأحياء/ البيولوجيا عن العلوم الطبيعية الأخرى، حيث أعاقت تقدمه هيئتان رئيسيتان من المعنيين باستخدامه العملي، وهما المزارعون، وبصورة خاصة، الأطباء. ونجد، عند استرجاعنا الماضي، أن الأعظم بين الرعيل الأول من علماء الفيزيولوجيا/ وظائف الأعضاء، هو كلود برنارد، الذي وضعت أعماله الأساس للفيزيولوجيا والكيمياء الحيوية الحديثة بأكملها. كما كتب، علاوة على ذلك، أذكى التحليلات على الإطلاق للعمليات العلمية في دراسته المسماة **مقدمة في دراسة الطب التجريبي** (1865). وعلى الرغم مما لقيه من تكريم، وبخاصة في

بلده الأصلي فرنسا، فإن اكتشافاته لم تكن قابلة للتطبيق الفوري، وكان تأثيره أقل من تأثير زميله ومواطنه لوي باستور الذي ربما أصبح، مثل داروين، هو العالم الأوسع انتشاراً بين الناس في أواسط القرن التاسع عشر. وقد دخل باستور ميدان علم البكتيريا وأصبح الرائد الأكبر فيه (بالإضافة إلى روبرت كوخ (Robert Koch) [1843 ـ 1910]، وهو طبيب في الريف الألماني)، من خلال الكيمياء الصناعية، وبعبارة أدق، من خلال تحليل تعفن الجعّة والخل أحياناً، لأسباب لم يستطع التحليل الكيميائي الكشف عنها. وما جعل هذا الميدان الجديد أكثر جاذبية وقرباً من أذهان الناس، وأكثر قابلية للفهم، الوسائل المستخدمة، القابلة للتطبيق في علم البكتيريا، مثل الميكروسكوب/ المجهر، وزراعة الخلايا والعينات، والشرائح الزجاجية وغيرها. وكانت هذه الأساليب جاهزة آنذاك، ومنها التطهير (الذي طوّره لِستر (Lister) [1827 ـ 1912] نحو عام 1865)، و«البسترة» وأي وسيلة أخرى لحماية المنتجات العضوية من تعدّي الميكروبات، والتطعيم. كما كانت الحجج والنتائج من الوضوح بحيث أزالت العداء الراسخ لدى المهنة الطبية. وقد قدمت دراسة البكتيريا لعلم الأحياء بعدها منهجاً عظيم الفائدة لمقاربة طبيعة الحياة، غير أنها لم تثرْ في تلك الفترة أي تساؤلات نظرية يقبل بها العلماء المغرقون في النزعة التقليدية فور إقرارها بأي حال.

وقد تحقق التقدم الأهم والأكثر إثارة في علم الأحياء، وهو الذي لم تكن له غير أهمية هامشية في تلك الأيام بالنسبة لدراسة البنية الفيزيائية والكيميائية للحياة وآلياتها. وكانت نظرية التطور والاصطفاء الطبيعي قد وصلت آفاقاً أوسع بكثير من الدائرة البيولوجية. وهنا تكمن أهميتها الحقيقية، فقد عززت انتصار التاريخ على العلوم كافة، مع أن الالتباس كان قائماً بهذا الصدد في أذهان المعاصرين عموماً بين «التاريخ» و«التقدم». وعلاوة على ذلك، فإن تلك النظرية، بجلبها الإنسان نفسه إلى حلبة التطور البيولوجي، ألغت الخط الحاد الفاصل بين الطبيعي والإنساني أو العلوم الاجتماعية. وعلى هذا الأساس، يجب

النظر إلى النظام الكوني، أو على الأقل النظام الشمسي، بوصفه سيرورة من التغير التاريخي الثابت. وكانت الشمس والكواكب في دوامة هذا التاريخ، وكذلك الأرض، كما كان الجيولوجيون قد أثبتوا في وقت سابق[11]. وغدت الكائنات الحية الآن من مكونات هذه السيرورة، مع أن التساؤل حول ما إذا كانت الحياة قد نشأت عن جماد ظل من دون حل، ولأسباب أيديولوجية بالغة الحساسية بالدرجة الأولى. (وكان باستور العظيم يعتقد أن ذلك ليس بمستطاع). ولم يقتصر داروين على إدخال الحيوانات في المخطط التطوري، بل ضم إليها الإنسان.

لم تكن مشكلة العلوم في منتصف القرن التاسع عشر تكمن في تَأْرَخَة الكون ـ فلم يكن ثمة أبسط من وضع هذا التصور في عهد حافل بالتغيرات التاريخية الهائلة الواضحة كل الوضوح ـ بل في جمع أطرافه معاً في إطار متسق، مستمر وغير ثوري، من عمليات خاضعة لقوانين طبيعية ثابتة. وكان من جملة هذه الاعتبارات عدم الثقة بالثورات الاجتماعية، وكذلك بالدين التقليدي الذي أضفت نصوصه المقدسة على هذا الكون طابع التغير غير المستمر («الخَلْق»)، والتدخل في انتظام الطبيعة («المعجزات»). ومع ذلك، بدا في تلك المرحلة أن العلم كان يعتمد على الاتساق والثبات. وكان الاختزال هو الصفة الجوهرية فيه. ولم يكن من اليسير إلا على المفكرين الثوريين من أمثال كارل ماركس أن يتصوروا أوضاعاً لم تعد فيها 2 + 2 تساوي 4، بل قد تساوي شيئاً آخر بدلاً منها[12]. وكان الإنجاز الأكبر للجيولوجيين إيضاح الكيفية التي فسرت فيها القوى المنظورة التي نشاهدها الآن التنوع الهائل لما يمكن أن نعاينه على

---

(11) انظر الفصل الخامس عشر من: Eric John Hobsbawm, *The Age of Revolution: Europe 1789-1848* (London: Weidenfeld and Nicolson, 1962).

(12) في سجالات العلماء الرياضيين حول اللانهاية، كانت تلك هي المشكلة التي سببت الصدمة؛ لأن قواعد الحساب لم تعد تستطيع إعطاء النتائج المتوقعة.

الأرض الجماد، في الماضي والحاضر، إذا ما أتيح الوقت الكافي. وكان الإنجاز الأكبر للاختيار الطبيعي هو تفسير حتى التنوع الأكبر من ذلك لأنواع الكائنات الحية، بما فيها البشر. وقد أغرى هذا النجاح، وما زال يغري، المفكرين بالوقوف موقف الإنكار أو الانتقاص من السيرورات الجديدة المختلفة التي تحكم التغير التاريخي وإرجاع التغيرات في المجتمعات البشرية حصراً إلى قواعد التطور البيولوجي ـ وما يستتبعه ذلك من تداعيات، وأحياناً، نوايا سياسية مهمة («الداروينية الاجتماعية»). وقد اجتمع الاستقرار والتغير، وكذلك النظريات التطورية، في المجتمع الذي عاش فيه العلماء الغربيون ـ وكان جميع العلماء ينتمون إلى العالم الغربي، حتى من كانوا منهم في مناطقه الهامشية مثل روسيا.

بيد أن هذه السيرورات كانت مثيرة، بل عاصفة؛ لأنها بلغت للمرة الأولى حد المواجهة الصّدامية المباشرة مع قوى التقاليد المحافظة، وبخاصة الدين. لقد أبطلت مكانة الإنسان المتصوَّرة حتى ذلك الحين. وكان العنف الذي ووجهت به نظرية التطور أيديولوجياً. فهل يعقل أن يكون الإنسان، الذي خلقه الله على صورته، قرداً معدَّلاً؟! وعندما تُرك لخصوم داروين الخيار بين القردة والملائكة، اختاروا جانب الملائكة. وتبين قوة المقاومة سطوة النزعة التقليدية والدين المنظم حتى في أوساط أكثر الجماعات تحرراً وتعليماً بين سكان الغرب، لأن المناقشات كانت تدور في أوساط من أحرزوا تحصيلاً علمياً عالياً فحسب. إلا أن اللافت بالقدر نفسه، وربما أكثر من ذلك، هو استعداد التطوريين العلني لتحدي القوى التقليدية ـ وانتصارهم السريع نسبياً. وكانت ثمة أعداد وفيرة من التطوريين في النصف الأول من ذلك القرن، غير أن البيولوجيين منهم عالجوا الأمر بحذر، وربما ببعض التخوف الشخصي، بل إن داروين نفسه أحجم عن التصريح بما توصل إليه من آراء.

لم يكن ذلك لأن الدلائل على تحدّر الإنسان من الحيوانات قد غدت الآن كاسحة إلى حد لا يمكن مقاومته، مع أنها تراكمت بسرعة في خمسينيات القرن، فالجمجمة شبه القردية لإنسان النياندرتال (1856) حجة لا سبيل إلى تنفيذها. إلا أن الدلائل كانت قوية بما فيه الكفاية قبل عام 1848. وكان ذلك نتيجة إلتقاء حقيقتين هما: التقدم السريع لبورجوازية ليبرالية «تقدمية»، وغياب الثورة. وقد عظم التحدي ضد قوى التقاليد، بيد أنه لم يعد ينذر بثورة اجتماعية. ويوضح داروين نفسه هذا الائتلاف بين الأمرين، فهو، كرجل بورجوازي يساري ليبرالي معتدل، وقادر، من دون ريب، على مواجهة قوى النزعة المحافظة والدين اعتباراً من خمسينيات القرن (وليس قبلها)، رفض بأدب أن يقوم كارل ماركس بإهدائه المجلد الثاني من كتاب **رأس المال**. فهو، آخر الأمر، لم يكن رجلاً ثورياً.

من هنا، فإن مصير الداروينية لم يكن يعتمد كثيراً على نجاحها في إقناع الأوساط العلمية؛ أي على البيّنات الواضحة في كتاب **أصل الأنواع**، بل على الأوضاع السياسية والأيديولوجية في نقطة التقاطع بين الزمان والمكان. ومن الطبيعي أن يسارع إلى تبنيها اليسار المتطرف الذي درج منذ أمد بعيد على دعم واحد من المكونات القوية للتفكير التطويري. إن ألفرد رسل والاس (Alfred Russel Wallace) (1823 - 1913)، الذي اكتشف بالفعل نظرية الاصطفاء الطبيعي بصورة مستقلة عن داروين وشاركه ذلك المجد، قد تحدّر من تقاليد الصناع العلمية الراديكالية التي أدت دوراً مهماً كل الأهمية في مطلع القرن التاسع عشر، وراقت لها فكرة الاصطفاء الطبيعي، فقد نشأ في أوساط الميثاقية و«قاعة العلم» ذات النزعة الأُوينتيّة (Owenite)، وظل يسارياً متطرفاً، ثم تحول في أواخر حياته إلى نصير نشيط لتأميم الأرض، بل للاشتراكية، بينما حافظ في الوقت نفسه، على إيمانه بنظريات أيديولوجية عامية متغايرة الخواص، وبفراسة الدماغ والروحانيات (وذلك ما سنتطرق إليه في موقع آخر من هذا الفصل). وقد هلل

ماركس على الفور لصدور **أصل الأنواع** بوصفه «القاعدة في العلوم الطبيعية، من وجهة نظرنا»[13]، واتجه الديمقراطيون الاجتماعيون، بقوة، إلى الداروينية - وكان بينهم عدد من تلاميذ ماركس مثل كاوتسكي (Kautsky) الذي تشدد في ذلك الموقف.

هذه الوشائج الواضحة بين الاشتراكيين والداروينية البيولوجية لم تمنع الطبقات الوسطى الدينامية الديمقراطية الليبرالية من الترحيب بهذه النظرية، بل الدعوة إليها. وقد حققت انتصاراً سريعاً في إنجلترا، وفي الأجواء الليبرالية الواثقة من ألمانيا خلال العقد الذي تحقق فيه التوحيد. وفي فرنسا كانت الطبقات الوسطى فيها تؤثر الاستقرار في الإمبراطورية الثالثة، ولم يشعر المثقفون بالحاجة إلى استيراد الأفكار من أي مصادر غير فرنسية أي، من وجهة نظرهم، من أجانب متخلفين، ومن ثم، لم تحقق فيها الداروينية تقدماً سريعاً إلا بعد نهاية الإمبراطورية وهزيمة كومونة باريس. أما في إيطاليا، فكان دعاة الداروينية أكثر تخوفاً من مُنْطَوَياتها الثورية الاجتماعية مما كانوا من الصواعق البابوية، بيد أنهم كانوا على قدر كافٍ من الثقة بالنفس. ولم يقتصر الأمر على أن النظرية حققت انتصاراً سريعاً في الولايات المتحدة بل إنها سرعان ما حُوِّلت على أيديولوجية عارمة للرأسمالية. وعلى الطرف المقابل، كانت معارضة التطورية الداروينية، حتى بين العلماء، تأتي من أطراف محافظة اجتماعية.

II

تربط نظرية التطور بين العلوم الطبيعية والعلوم الاجتماعية، مع أن المصطلح الأخير ينطوي على مفارقة تاريخية. لقد بدأ للمرة الأولى

---

(13) Karl Marx, *Karl Marx, Friedrich Engels. Werke* (Berlin: Dietz, 1956-), vol. XXX, p. 131: Marx to Engel (19 December 1860).

إحساس جدّي بالحاجة إلى علم عام محدد حول المجتمع (متميزٍ عن الدراسات الخاصة الأخرى القائمة حول الشؤون البشرية)، فقد سعت الجمعية البريطانية للارتقاء بالعلوم الاجتماعية (1857) إلى هدف متواضع، هو تطبيق المنهج العلمي بغرض تحقيق الإصلاح الاجتماعي. غير أن الحديث كان يدور على نطاق واسع عن «علم الاجتماع» (Sociology)، الذي ابتكر اسمه أوغست كونت عام 1839، وأشاعه هربرت سبنسر (الذي وضع كتاباً فجّاً مبتسراً عن هذا المجال وعن علوم عديدة أخرى [1867]). غير أنه لم يكن مع نهاية تلك الفترة قد تبلور إلى مبحث منهجي معترفٍ به، ولا كموضوع تعليمي أكاديمي. ومن ناحية أخرى، كان حقل الأنثروبولوجيا الأوسع مجالاً والقريب الصلة بعلم الاجتماع يبرز إلى الوجود، كعلم متعارفٍ عليه، مستمداً مكوناته من القانون، والفلسفة، والإثنولوجيا/ علم الأعراق البشرية، وأدب الرحلات، ودراسة اللغة والفولكلور والعلوم الطبية (من خلال الأنثروبولوجيا الفيزيقية التي كانت آنذاك موضوعاً شعبياً أثيراً، أدى إلى الولع بقياس الجماجم وجمعها من شعوب عدة). وكان أول من تولى تدريسها هو كاترفاج عام 1855 من خلال كرسي الأستاذية الذي كان قائماً لهذا العلم في المتحف الوطني في باريس. وأعقب قيام الجمعية الأنثروبولوجية في باريس (1850) موجة من الاهتمام الشديد بهذا المجال في الستينيات، عندما أسست جمعيات مماثلة في لندن، مدريد، موسكو، فلورنسا وبرلين. أما علم النفس (الذي نُحت اسمه مؤخراً، وعلى يد جون ستيورات مِلْ هذه المرة)، فظل حتى ذلك الحين مرتبطاً بالفلسفة ـ وقد دمجه أ. بين (A. Bain) بموضوع الأخلاق في كتابه **علم الذهن والأخلاق** (1878) ـ إلا أنه أخذ منحىً تجريبياً على يد ف. وندت (W. Wundt) (1832 ـ 1920) الذي كان من مساعدي همهولتز العظيم. وأصبح، من دون ريب، علماً مقبولاً في سبعينيات القرن، وفي الجامعات الألمانية بشكل خاص. كما أنه دخل مجالات العلوم الاجتماعية والأنثروبولوجية، بل أصبحت له مجلة متخصصة تربطه

بالعلوم اللغوية في وقت مبكر عام 1859[14]. ولم يكن سجلّ هذه الميادين الدراسية الثلاثة مشهوداً بمقاييس العلوم «الوضعية»، والتجريبية منها على نحو أخص، على الرغم من أنها قد تدَّعي لنفسها تحقيق إنجازات حقيقية ومنظمة، كمجالات علمية، قبل عام 1848؛ ومنها علوم الاقتصاد، والإحصاء، واللغة[15]. وغدت الصلة الآن وثيقة ومباشرة بين الاقتصاد والرياضيات (على أيدي الفرنسيينْ آ. آ. كورنو (A. A. Cournot) [1801 ـ 1877] و ل. والْراسْ (L. Walras) [1834 ـ 1910])، وكان استخدام الإحصاء لدراسة الظواهر الاجتماعية قد تطور بصورة كافية حفزت تطبيقه في العلوم الفيزيائية. وذلك، على الأقل، هو ما يراه من تتبعوا أصول الميكانيكا الإحصائية التي وضع مرتكزاتها كلارك ماكسوِلْ. وقد ازدهرت الإحصاءات الاجتماعية، من دون شك أكثر من أي وقت مضى، وتوافر لممارسيها العديد من فرص الاستخدام في المجال العام. وبدأت مؤتمرات الإحصاء الدولية تنعقد بصورة منتظمة اعتباراً من عام 1853، وأُقرت المكانة العلمية لهذا المبحث بانتخاب الدكتور وليام فار (William Farr) (1807 ـ 1883)، الذي كان موضع حفاوة وإعجاب بالغين، عضواً في الجمعية الملكية. واتخذ تقدم العلوم اللغوية، كما سنرى، سبيلاً آخر وباتجاه مختلف. وفيما عدا المجالات المنهجية، لم تكن هذه النتائج مرموقة على العموم. لقد كانت مدرسة الانتفاع الهامشي في الاقتصاد، التي برزت في وقت واحد في بريطانيا، والنمسا، وفرنسا نحو عام 1870، أنيقة ومتقدمة من الناحية الشكلية، إلا أنها كانت، من دون شك، أضيق نطاقاً بكثير من مدرسة «الاقتصاد السياسي» القديمة (أو حتى من «المدرسة التاريخية في الاقتصاد» الألمانية المتمردة)، وبالتالي أقل واقعية في نظرتها إلى المشكلات

---

(14) H. Steinthal and M. Lazarus, eds., *Zeitschrift für Völkerpsychologie und Sprachwissenschaft,* 20 vols. (Berlin: Ferd. Dümmler, 1860-1890).

(15) انظر الفصل الخامس عشر من: Hobsbawm, *The Age of Revolution: Europe 1789-1848.*

الاقتصادية. وخلافاً للعلوم الطبيعية، فإن العلوم الاجتماعية لا تتوفر لها حوافز التقدم التقني في مجتمع ليبرالي. وحيث إن النموذج الاقتصادي الأساسي كان مرضياً تماماً، فإنه لم يخلف مشكلات كبرى تستوجب الحل، مثل قضايا النمو، واحتمال الانهيار الاقتصادي، أو توزيع الدّخول. وكان من المعتقد أنه إذا لم تكن هذه المشكلات قد حلت بالفعل، فإن عمليات السوق التلقائية (التي تركز عليها التحليل آنئذٍ) ستتولى تذليلها، هذا إذا لم يكن التدخل البشري قادراً على حلها. وعلى كل حال، كانت الأمور تتحسن وتتقدم، وبصورة لا تدفع الاقتصاديين إلى التركيز على الجوانب الأعمق في علمهم.

كانت التحفظات لدى المفكرين تجاه عالمهم اجتماعية وسياسية أكثر مما كانت اقتصادية، لا سيما أن خطر الثورة ما زال يلوح في الأفق، وبخاصة في فرنسا، أو يأخذ بالبروز مع اشتداد عود الحركة العمالية، كما في ألمانيا. بيد أن المفكرين الألمان، الذين لم يتقبلوا النظرية الليبرالية كلياً على علاتها كانوا، كما هي حال المحافظين في كل مكان، يتوجسون من أن المجتمع الذي ستفضي إليه الرأسمالية الليبرالية سيكون خطراً ومزعزعاً، ولم يكن ثمة ما يمكن أن يقترحوه غير الإصلاحات الاجتماعية الوقائية. وكانت الصورة التي تخيّلها علماء الاجتماع تتمثل في النموذج البيولوجي، إلى «الكائن العضوي الاجتماعي»، والتعاون الوظيفي بين جميع الفئات في المجتمع، وهو وضع يختلف اختلافاً بيّناً عن الصراع الطبقي. إنها النزعة المحافظة القديمة وقد تزيّت بزي القرن التاسع عشر، التي كان من المتعذر التوفيق بينها وبين الصورة البيولوجية الأخرى في ذلك القرن، الداعية إلى التغيير والتقدم، أي إلى «التطور». لقد كانت، في واقع الأمر، أقرب إلى الدعاوة منها إلى العلم.

من هنا، كان المفكر الوحيد الذي طور في تلك الفترة نظرية شاملة محترمة للبنية الاجتماعية والتغير الاجتماعي هو الثوري الاجتماعي كارل ماركس. وقد حظي بالإعجاب، إن لم يكن بالاحترام

على الأقل، بين الاقتصاديين، والمؤرخين، وعلماء الاجتماع. وكان ذلك، بحد ذاته، إنجازاً مشهوداً، لأن معاصريه (عدا بعض الاقتصاديين) كانوا قد انطووا في عالم النسيان حتى في أوساط المتعلمين والمتعلمات، أو أنهم قاوموا تقلبات العصر بأساليب بالية جعلت العاكفين على تاريخ الفكر في تلك الفترة يبذلون قصارى جهدهم لتتبّع الآثار التي خلفتها كتابات أولئك المفكرين. إلا أن المدهش لا يكمن في أن أوغست كونت وهربرت سبنسر كانا يتمتعان بمكانة فكرية مرموقة أعلى من تلك التي لشخصيات أخرى اعتبرت، بمنطق تلك الأيام، بمرتبة أرسطو، ولكنها اختفت وانقرضت آثارها. فقد كان هذان في تلك الأيام أكثر شهرة ونفوذاً من ماركس الذي وصف أحد الخبراء الألمان المجهولين كتابه **رأس المال** عام 1875، بأنه من وضع رجل ثقّف نفسه بنفسه، وجاهل بالتقدم الذي حصل خلال الخمس وعشرين سنة الفائتة[(16)]. ذلك أن ماركس كان آنذاك يؤخذ مأخذ الجد في الغرب في أوساط الحركة العمالية الدولية فحسب، وبخاصة الحركة الاشتراكية المتعاظمة في وطنه الأصلي، بل إن نفوذه الفكري كان طفيفاً حتى في تلك الأوساط. غير أن المثقفين في الأوساط الروسية التي كانت النزعة الثورية تتعاظم فيها بشكل مطرد قرأوا ماركس بحماسة. وقد استغرق بيع الطبعة الألمانية الأولى (1867) من **رأس المال**، وهي ألف نسخة، خمس سنوات، غير أن مثل هذا العدد من الطبعة الروسية عام 1872 نفد في أقل من شهرين.

كانت القضية التي وضعها ماركس نصب عينيه هي نفسها التي

---

(16) Franz Mehring, *Karl Marx; the Story of his Life*, with Illustrations and Facsimile Reproductions, Notes by the Author, an Appendix Prepared under the Direction of Eduard Fuchs on the Basis of the Researches of the Marx-Engels Institute, a Bibliography and an Index, Translated by Edward Fitzgerald (London: John Lane, [1936]), p. 383.

حاول العلماء الاجتماعيون مواجهتها: الكشف عن الطبيعة والآليات الخاصة بالانتقال من مجتمع قبل - رأسمالي إلى مجتمع رأسمالي، واستشفاف أنماط العمل والاتجاهات في تطورات المستقبل. وقد غدت إجاباته مألوفة نسبياً في أيامنا هذه إلى حد يغني عن تكرارها في هذا المقام. غير أنه تجدر الإشارة إلى أن ماركس قاوم الميل، الذي كان يتعاظم على نحو مطرد في كل مكان آخر. لفصل التحليل الاقتصادي عن سياقاته الاجتماعية التاريخية. وقد دفعت مشكلة التنمية الاجتماعية في القرن التاسع عشر المُنَظّرين، وحتى الممارسين العمليين، إلى أعماق الماضي، ففي نطاق البلدان الرأسمالية، وفي المواضع التي واجه فيها المجتمع البورجوازي المجتمعات الأخرى، ودمّرها، كان الماضي الحي والحاضر الوليد يقفان، وجهاً لوجه، في صراع مكشوف. وكان المفكرون الألمان يرون أن النظام التراتبي لِـ«الطبقات» في بلادهم قد مهّد لقيام مجتمع من الطبقات المتصارعة. وعقد المحامون البريطانيون، وبخاصة المطلعون منهم على أوضاع الهند، مقارنة بين مجتمع «المكانة» القديم من جهة، ومجتمع «التعاقد» الجديد، ورأوا أن الانتقال من الأول إلى الثاني هو النمط الرئيسي للتطور التاريخي. بل إن الكتّاب الروس كانوا، في واقع الأمر، يعيشون في هذين العالمين في آن معاً - عالم المَشاعية الفلاحية القديم، الذي عرفه الكثيرون منهم خلال فصول الصيف التي كانوا يقضونها في عزبهم الإقطاعية من ناحية، وعالم المثقف المتغرّبن الكثير الأسفار من ناحية أخرى، فالتاريخ، بالنسبة للمراقبين في أواسط القرن التاسع عشر، كان يتعايش بعضه مع بعض، باستثناء المدنيات والإمبراطوريات المعهودة المغرقة في القدم التي سادت ثم بادت (حرفياً)، إلى أن بدأت تكشف عنها التنقيبات التي قام بها هـ. شلايمان (H. Schliemann) (1822 ـ 1890) في طروادة وميسينا، وفلِنْدرز بتري (Flinders Petrie) (1853 ـ 1942) في مصر.

وقد يتوقع المرء من المبحث الأكثر التصاقاً بالماضي، وهو التاريخ، أن يسهم إسهاماً متميزاً في تقدم العلوم الاجتماعية، غير أن إسهامه،

باعتباره تخصصاً أكاديمياً، كان في الواقع غايةً في التواضع، فقد غلب على ممارسيه الاهتمام المفرط بالحكام، والمعارك، والمؤسسات السياسية ـ القانونية أي، بعبارة أخرى، بالسياسات المسترجَعة، إن لم يكن بالسياسات الراهنة في إهابِ تاريخي منمنم مزوّق. لقد بنوا منهجية بحثية مفصلة على أساس الوثائق التي كانت آنذاك قد نظمت ورتبت وحفظت في الأرشيفات الحكومية. كما أنهم (على غرار المبادرين الألمان) نظموا إصدار مطبوعاتهم، بصورة مطردة، على محورين هما: الأطروحات الأكاديمية والمجلات العلمية المتخصصة: إذ نُشرت **الدورية التاريخية** الألمانية (*Historische Zeitschrift*) للمرة الأولى عام 1858، و**المجلة التاريخية** (*Revue historique*) عام 1876، و**المجلة التاريخية** الإنجليزية (*Historical Review*) عام 1886، و**المجلة التاريخية الأمريكية** (*American Historical Review*) عام 1895. غير أن ما أنتجته هذه الدوريات كان، في أحسن حالاته، صروحاً دائمة من البلاغة التي ما زلنا نقتبس منها، وفي أسوأ الحالات، مؤلفات عملاقة لا نرجع إليها الآن، وإذا ما رجعنا إليها، فإن ذلك سيكون من قبيل الاهتمام بقيمتها الأدبية. أما التاريخ الأكاديمي، فعلى الرغم من الليبرالية المعتدلة لدى بعض ممارسيه، فإنه كان يبدي تحيّزاً طبيعياً للحفاظ على الماضي، والشك، إن لم يكن التنديد، بالمستقبل. غير أن العلوم الاجتماعية في تلك المرحلة كانت تبدي تحيزاً معاكساً لذاك.

ومع أن المؤرخين الأكاديميين سلكوا طريقاً فرعية إلى هذا الميدان الدراسي، فإن التاريخ ظل هو المكون الرئيسي للعلوم الاجتماعية الجديدة. واتضح ذلك، بصورة جلية، في الازدهار الهائل الذي شهده حقل جديد هيمن عليه الألمان ـ مثلما هيمنوا على العديد من المباحث العلمية، هو علم اللغة أو، إذا استخدمنا المصطلح المعاصر، فقه اللغة التاريخي المقارن (Philology). وقد عُني أساساً بإعادة بناء التطور التاريخي للغات الهندو ـ أوروبية، وأثار اهتماماً وطنياً، إن لم يكن قومياً، ربما لأنها كانت تسمى في ألمانيا «اللغات الهندو ـ ألمانية». كما

بذلت أيضاً جهوداً لبناء نموذج تطوري للغات، أي لاكتشاف أصول الكلام واللغة وتتبع تطورهما التاريخي، على أيدي هـ. ستاينثال (H. Steinthal) (1823 ـ 1899)، وأ. شـــليخـــر (A. Schleicher) (1821 ـ 1868)، غير أن شجرة الأنساب اللغوية التي رُسمت على هذا النحو ظلت «تخمينية للغاية، والعلاقات بين «الفروع» و«الأنواع» مشكوك فيها تماماً. والحقيقة أنه لم تجر دراسة لغوية بطريقة منهجية خارج نطاق اللغات الهندو ـ أوروبية في البلدان التي ازدهر فيها فقه اللغة في أواسط القرن التاسع عشر[17]، باستثناء العبرية واللغات السامية المرتبطة بها التي اجتذبت اهتمام البحاثة اليهود أو دارسي الكتاب المقدس، وبعض البحوث عن الفينوغرية (التي كانت هنغاريا تمثلها في أوروبا الوسطى). ومن ناحية أخرى، فإن الأفكار الجوهرية اللامعة التي طرحت في النصف الأول من ذلك القرن قد بدأت تطبق وتطوَّر بصورة منظمة في العلوم اللغوية الهندو ـ أوروبية التطورية. وبدأت عندها عمليات الاستقصاء والتمحيص الدقيق لأنماط التغيرات الصوتية المنتظمة التي اكتشفها غْريم (Grimm) في الألمانية، ووضعت الأسس لبناء «أشجار العائلات» اللغوية لمنهجيات إعادة بناء أشكال الكلمات السابقة غير المكتوبة، كما اقتُرحت نماذج أخرى للتغيراتُ التطورية (مثل «نظرية الموجات» التي طرحها شميدت (Schmidt))، وأدخلت تحسينات على استخدام المشابهة، وبخاصة المشابهة النحوية؛ لأن فقه اللغة لا قيمة له إذا لم يكن مقارناً. وبحلول سبعينيات القرن كانت مدرسة «علماء النحو والصرف الشبان» (Junggrammatiker) تعتقد أنها قادرة على إعادة بناء الهندو ـ أوروبية الأصلية التي تحدرت منها لغات عديدة منها السنسكريتية في الشرق والكِلتية في الغرب، بل إن شميدت الجسور كتب بالفعل نصوصاً بهذه اللغة التي أعيدت هيكلتها. وقد

(17) لم تكن قد ازدهرت حتى ذلك الحين المدرسة الأمريكية لدراسة اللغات، التي قامت على دراسة اللغات الأمريكية ـ الهندية.

سلكت العلوم اللغوية الحديثة سبيلاً مختلفاً كل الاختلاف، فرفضت، ربما بعنف، التوجهات التاريخانية والتطورية التي برزت في أواسط القرن التاسع عشر. وبذلك كان التطور الأساسي في فقه اللغة في تلك الفترة هو إعادة طرح أصول معروفة مألوفة لا استشفاف مبادىء جديدة. إلا أنه كان، على العموم، علماً تطورياً، مثلما كان، بالمقاييس المعاصرة، علماً ناجحاً جداً، في أوساط الدارسين والناس العاديين على السواء. غير أنه لسوء الحظ، شجع على المواقف العنصرية في أوساط عامة الناس (على الرغم من أن علماء مثل ف. ماكس موللر (F. Max Muller) [1823 ـ 1900] في أكسفورد تنصلوا منها)، إذ سرى الاعتقاد بأن المتحدثين باللغات الهندو ـ أوروبية (وهي مفهوم لغوي محض)، ينتمون إلى «العرق الآري». أدت النزعة العرقية دوراً مركزياً في علم آخر سريع النمو بين العلوم الاجتماعية، وهو الأنثروبولوجيا، وهو حصيلةٌ لدمج مبحثين آخرين كانا، في الأصل، متمايزين كل التمايز، هما «الأنثروبولوجيا الفيزيقية» و«الاثنوغرافيا»، أي الأنثروبولوجيا الوصفية، التي تتمثل في وصف شتى الجماعات ـ أي، بصفة عامة، المتخلفة أو البدائية. وكان على كلا المبحثين أن يواجها، بل أن يكرسا الجهد، لمشكلة الفروق بين الجماعات البشرية (وحيث إنهما انساقا مع النموذج التطوري)، لمشكلة تحدّر الإنسان واختلاف أنواع المجتمعات، التي كان المجتمع البورجوازي يعتقد أنه هو الأفضل والأرقى بينها لا محالة. وقد أفضت الأنثروبولوجيا الفيزيقية إلى مفهوم «العِرْق»؛ لأنه لم يكن ثمة مجال لإنكار الفروق بين الشعوب البيضاء، والصفراء، والسوداء، والزنوج، والمنغول، والقوزاق (أو ما قد يستخدم من أي تصنيفات أخرى). ولم يكن ذلك يعني، بحد ذاته، أي اعتقاد بالتفاوت أو اللامساواة العرقية، تفوقاً أو انحطاطاً، مع أنه كان يعني ذلك عندما تمت المزاوجة بينه وبين دراسة تطور الإنسان على أساس سجل الأحافير قبل ـ التاريخية. ذلك أن الأسلاف الذين يمكن تتبعهم والأقدم عهداً من الإنسان ـ وبخاصة إنسان «النياندرتال» ـ كانوا، في آن معاً، أقرب شبهاً

بالقرود، ومتدنّين ثقافياً عمن اكتشفوهم. فإذا كان بالإمكان إثبات أن الأعراق الحالية أقرب شبهاً بالقرود من غيرها، ألا يعتبر ذلك برهاناً على دونيتها؟

وتلك حُجة متهافتة، غير أنها استهوت من يريدون البرهنة على دونيّة السود العرقية بالنسبة للبيض ـ بل دونيّة كل من هو غير أبيض للبيض. (وعين التعصب العنصري ترى هيئة القرد حتى في الصينيين واليابانيين، كما يتجلى في صور الكرتون هذه الأيام). ولكن إذا كانت التطورية البيولوجية الداروينية قد اقترحت تراتبية للأعراق، فذلك ما فعله المنهج المقارن الذي طبق في «الأنثروبولوجيا الثقافية» التي كانت في طليعتها كتاب إ. ب. تيْلور (E. B. Tylor) **الثقافة البدائية** (*Primitive Culture*) (1871). إن إ. ب. تَيْلور (1832 ـ 1917)، ومثله الكثيرون من المؤمنين بـِ«التقدم» الذين راقبوا جماعات وثقافات قائمة لم تندثر بعد، خلافاً للإنسان الأحفوري، لم يعتبروا هذه الدونية أمراً فطرياً طبيعياً كما لو كانت تمثل مرحلة سابقة من التطور على الطريق إلى المدنية الحديثة. إنها كانت مماثلة لمرحلة الرضاعة أو الطفولة في حياة الإنسان الفرد. وتضمن ذلك نظرية حول الأطوار ـ تأثر تيْلور فيها بأوغست كونت ـ وطبقها على الدين، مع الجذر الذي اعتاد عليه الرجال المحترمون عندما يمسون مثل هذا الموضوع المتفجر، فقد بدأ طريق الدين بـ «الأرواحية» (Animism) (وهو الذي اخترع هذا المصطلح) [وقصد به حيوية المادة؛ أي الاعتقاد بأن لكل ما في الكون، وحتى الكون ذاته، روحاً أو نَفْساً]، وأفضى إلى الأديان التوحيدية، وانتهى، آخر الأمر، بانتصار العلم الذي سيستطيع، بقدرته على تفسير مجالات متزايدة من التجربة عن طريق الروح، «أن يستعيض عن الفعل الطوعي المستقل بالقوانين المنتظمة»[18]. وفي تلك الأثناء، يمكن استشفاف «العناصر الباقية»

---

(18) Edward Burnet Tylor, «The Religion of Savages,» *Fortnightly Review*, vol. 6 (1866), p. 83.

المعدلة من أطوار المدنية السابقة في كل مكان، وحتى في الجوانب «المختلفة» في حياة الشعوب المتمدينة، مثل الخزعبلات والعادات الريفية. من هنا، أصبح الفلاح يمثل حلقة الوصل بين الإنسان الهمجي والمجتمع المتمدين. إلا أن تيْلر، الذي اعتبر الأنثروبولوجيا بمثابة «علم الإصلاح أساساً»، لم يعتقد بالطبع أن ذلك يدل على جانب من عجز الفلاحين عن أن يصبحوا أعضاء كاملي العضوية والأجر في المجتمع المتمدين. ولكن هل كان ثمة ما هو أسهل من الافتراض بأن هؤلاء الذين يمثلون طور الطفولة أو المراهقة في تطور المدنية إنما كانوا، أنفسهم، يعيشون «حالة الطفولة»، وأنه يجب أن يعاملوا معاملة الأطفال من جانب «والديهم» الناضجين؟

مثلما أن النوع الزنجي يمثل حالة جنينية [كما تقول **المجلة الأنثروبولوجية**]، كذلك يمثل المنغولي حالة طفولية. ووفقاً لذلك بالتحديد، نجد أن حكومتهم، وأدبهم، وفنونهم، تكون في حالة طفولية. إنهم أطفال لا لحيَ لهم، وحياتهم عبء عليهم، وفضيلتهم الكبرى هي الطاعة العمياء[19].

أو كما قال الكابتن أوزبورن (Osborn) بعبارة فظة لا نجدها إلا عند البحارة: «عاملوهم كما تعاملون الأطفال. دعهم يفعلون ما يعتقدون أنه لصالحهم مثلما تعتقد أنه لصالحنا، وستنتهي كل المشكلات في الصين»[20].

إن الأعراق الأخرى، إذاً، دونية ناقصة، إما لأنها تمثل طوراً سابقاً من التطور البيولوجي أو التطور الاجتماعي الثقافي، أو كليهما. والدليل القاطع على هذا النقص هو أن «العرق المتفوق» أصبح في

---

(19) *Anthropological Review*, vol. 4 (1866), p. 120.

(20) V. G. Kiernan, *The Lords of Human kind: European Attitudes Towards the Outside World in the Imperial Age*, Pelican Books (Harmondsworth: Penguin, 1972), p. 159.

الواقع متفوقاً وفقاً لمعايير مجتمعه هو: الأكثر تقدماً تقنياً، والأقوى عسكرياً، والأكثر ثراءً، والأكثر «نجاحاً». وكانت هذه الحجة مُشبعة للغرور وملائمة في الوقت نفسه ـ وذلك إلى حد مالت معه الطبقة الوسطى إلى اقتباسها عن الأرستقراطية (التي توهمت منذ أمد بعيد أنها هي العرق المتفوق) لتحقيق أهداف داخلية وخارجية: فالفقراء فقراء لأنهم كانوا، بيولوجياً، ناقصين، وإذا كان المواطنون ينتمون إلى «الطبقة الدنيا» فلا عجب إذاً أن يظلوا فقراء ومتخلفين. ولم تكن تلك الحجج مغلفة بمصطلحات علم الجينات الحديث الذي لم يكن قد ابتكر بعد: فالتجارب الشهيرة التي أجراها الراهب غريغور مندل (Gregor Mendel) (1822 ـ 1884) على البازلاء الحلوة في حديقة الدير الذي كان يعيش فيه في مورافيا (1865)، لم يأبه لها أحد إطلاقاً، إلى أن أعيد اكتشافها عام 1900. إلا أن ثمة وجهة نظر شاعت في تلك الآونة، وبصورة بدائية، مفادها أن الطبقات العليا تمثل نوعاً راقياً من البشر، ممن عززوا تفوقهم بالتزاوج الداخلي بينهم، وهم الذين يتهددهم الاختلاط بالفئات الدنيا، وربما أكثر من ذلك، التزايد السريع في أعداد الناقصين. ومن جانب آخر، وكما زعمت الأدلة التي عرضتها مدرسة «الأنثروبولوجيا الجنائية» (الإيطالية أساساً)، فإن المجرم، والمعادي للمجتمع، والمستضعفين اجتماعياً، إنما ينتمون إلى أرومةٍ بشرية أخرى متدنية تحت مرتبة «المحترمين»، ويمكن التعرف إلى ذلك بقياس جماجمهم، أو بوسائل بسيطة أخرى.

كان التمييز العنصري واسع الانتشار في فكر تلك الفترة. ووصل ذلك حداً لا يمكن التسامح فيه ولا يسهل فهمه في أيامنا هذه. (لماذا، على سبيل المثال، يشيع الفزع من التوليد والتضريب، والاعتقاد الشامل تقريباً بأن الأبناء الهجين يرثون «أسوأ» الخصائص في عِرْقَيْ الوالدين؟)، وبالإضافة إلى أن هذه الحجة كانت ملائمة لإضفاء الشرعية على قاعدة تفوق البيض على الملونين، والأغنياء على الفقراء، فإن أفضل تفسير لها قد يكمن في اعتبارها آلية توسل بها مجتمع لامساواتي في

جوهره، يقوم، أساساً، على أيديولوجية مساواتية، لتبرير التفاوت واللامساواة فيه. كما حاول بها أن يبرر ويدافع عن تلك الامتيازات التي يجب للديمقراطية المتجسدة في مؤسساته أن تتصدى لها وتتحداها. إن الليبرالية لم تستطع الدفاع عن نفسها بأسلوب منطقي ضد المساواة والديمقراطية، ولذلك أقيم حاجز العرق غير المنطقي ذاك: ذلك أن العلم نفسه، وهو الورقة الرابحة في يد الليبرالية، يبرهن على أن الناس «غير» متساوين.

بيد أن العلم في الفترة التي نعالجها لم يثبت ذلك بطبيعة الحال، مع أن بعض العلماء كانوا يتمنون ذلك، فالمقولة الداروينية («البقاء للأصلح»، وبرهان الصلاحية هو البقاء) لا يثبت أن البشر متفوقون على ديدان الأرض، لأن كليهما نجحا في البقاء. وقد أُدرج «التفوق» في السجل بافتراض أن التاريخ التطوري معادل لـ «التقدم». وصحيح أن التاريخ التطوري للإنسان يكشف عن تحقيق التقدم في بعض المجالات المهمة، وبخاصة العلوم والتقانة ـ مع أنه لم يأبه كثيراً لمجالات أخرى، فإنه لم ينجح، بل لم يكن بوسعه أن يجعل «التخلف» حالة دائمة لا يمكن إصلاحها. ذلك أنه كان قائماً على الافتراض بأن البشر، ومنذ بروز الإنسان العاقل على الأقل، ظلوا على ما كانوا عليه، يلتزمون بقواعد السلوك نفسها، مع اختلاف الظروف التاريخية، فاللغة الإنجليزية تختلف عند الهندو ـ أوروبية الأصلية، لا لأن الإنجليز في العصر الحديث تصرفوا بأسلوب يختلف لغوياً عن أسلافهم القبليين، كما كان يُعتقد بصورة عامة، في وسط آسيا. إن المنظومة الفكرية الأساسية التي تنضوي تحتها «شجرة العائلة»، وهو ما يتجلى في كل من الأنثروبولوجيا وفقه اللغة، تنطوي على ما هو عكس اللامساواة القائمة على اعتبارات جينية أو أشكال دائمة أخرى من التفاوت. إن نظام القربى لدى أهل أستراليا الأصليين، وسكان الجزر الأطلسية، وهنود الإيروكوا، الذين درسهم، بصورة جدية آنذاك، الرواد الأوائل للأنثروبولوجيا الاجتماعية مثل لويس مورغان (Lewis Morgan) (1818 ـ 1881) كانوا يعتبرون من

«المتبقين/الباقين» من أطوار سابقة في تطور ما أصبح «العائلة» في القرن التاسع عشر، مع أن هذا الأمر كان موضع دراسة في المكتبات لا في الميدان. غير أن المهم في هذه الدراسات أنها وضعت في سياق مقارن: أي تركز على الاختلاف لا على الدونية بالضرورة[21]. إن «الداروينية - الاجتماعية»، وأنثروبولوجيا أو بيولوجيا التعصب العرقي لم تكن في القرن التاسع عشر امتداداً للعلم، بل للسياسة.

وإذا نظرنا إلى كل من العلوم الطبيعية والاجتماعية خلال تلك الفترة، لتولتنا الدهشة البالغة لما انطوت عليه من الثقة بالنفس. ولم تكن تبريراتها أقوى حجة مما كان للعلوم الاجتماعية، إلا أنها كانت واضحة وبارزة بالقدر نفسه. وقد أعرب الفيزيائيون، الذين أحسوا أنهم لم يتركوا لخلفائهم الكثير ليفعلوه غير توضيح بعض المسائل الثانوية، عن موقف مشابه لموقف أوغست شليخر (August Scheicher) الذي كان على يقين من أن الآريين القدماء إنما تحدثوا اللغة المفترضة التي تولى إعادة هيكلتها لهم. ولم يكن هذا الشعور مبنياً على النتائج - فأتباع المنهج التطوري لم يلجأوا إلى التزييف التجريبي - لأنهم كانوا يؤمنون بعصمة «المنهج العلمي»، فمفتاح الكون هو العلم «الوضعي»، الذي يقوم على الحقائق الموضوعية اليقينية، والمترابطة في ما بينها ترابطاً وثيقاً تحكمه قواعد العلة والمعلول، وتتولد عنه «قوانين» عامة متناسقة ثابتة لا تتغير ولا تقبل التشكيك أو التعديل المقصود. وكان القرن التاسع عشر يمتلك هذا المفتاح. والأهم من ذلك أن «الطور الثالث»، وهو العلم الوضعي، الذي تحدث عنه كونْت قد أطلّ، بعد أن انتهى، بقيام عالم القرن التاسع عشر، الطوران الجنيني والطفولي للبشرية، اللذان تميزا بالخزعبلات، واللاهوت، والتخمين. ومن السهل الآن أن نسخر من تلك الثقة، من

(21) لقد قُبل ذلك بالطبع بالنسبة لشعوب التاريخ القديم العتيق، التي كانت أنظمة القربى فيها تشكل قاعدة للدراسات الرائدة لتطور العائلة التاريخي. ج. ج. باخوفن (J. J. Bachofen) (القانون البطريركي) (Mutterrecht)، عام 1861.

حيث سلامة المنهج واستدامة النماذج النظرية على حد سواء. لكن نفوذ هذه الثقة كان ذا شأن، وإن كان قد وُضع في غير محله، كما كان قدامى الفلاسفة يقولون. وإذا كان العلماء يشعرون أنهم يتحدثون عن معرفة يقينية، فما بالك بالدعاة والمنظرين الأيديولوجيين الذين كانوا أكثر اقتناعاً بيقين الخبراء، لأنهم قادرون على فهم ما يقوله هؤلاء الخبراء طالما كانوا يعرضون آراءهم من دون اللجوء إلى المعادلات الرياضية المعقدة؟ وقد بدت وجهات النظر في متناول «الإنسان العملي»، أي المهندس المدني مثلاً، حتى في ميدانيْ الفيزياء والكيمياء. وكان مؤلَّف داروين **أصل الأنواع** قريب المنال للإنسان العادي المتعلم. ولن يكون من السهل أبداً على المنطق البسيط الفجّ الذي عَرف في كل الأحوال أن عالم التقدم الليبرالي الرأسمالي الظافر هو أفضل العوالم الممكنة، أن يحشد الكون وراءه ويدفعه إلى تبني مواقفه المتحيزة.

كان الدعاة، والمروجون، والأيديولوجيون قد انتشروا آنذاك في أرجاء العالم الغربي، حيثما وجدت نخبة محلية استهواها «التحديث»[22]. وكان العلماء والباحثون الأصليون ـ الذين تمتعوا، وما زالوا، بسمعة خارج بلدانهم على أي حال ـ موزعين بصورة أكثر تشتتاً، بل إنهم كانوا في واقع الأمر شبه منحصرين في أجزاء معينة من أوروبا وأمريكا الشمالية. وفي المناطق الوسطى والشرقية في أوروبا، وبخاصة في روسيا، أُنتجتْ في ذلك الوقت أعمال على مستوى ملموس من الجودة، واستأثرت باهتمام عالمي. وربما كان ذلك هو التغير الأكثر إثارة في الخارطة «الأكاديمية» في العالم الغربي في تلك الفترة، مع أن تاريخ تلك المرحلة لن يكتمل إلا بذكر بعض اللامعين في أمريكا الشمالية، وعلى رأسهم ويلارد غيبْزْ (Willard Gibbs) (1839 ـ 1903). بيد أنه لا بد من الإقرار بأن ما كان يجري، عام 1870 مثلاً،

(22) في أوروبا، بقيت شبه الجزيرة الإيبيرية، وشبه جزيرة البلقان متخلفتين نوعاً ما في هذا المجال.

في جامعتي كازان وكييكان أكثر أهمية مما كان يجري في جامعتي ييل وبرنستون.

غير أن التوزيع الجغرافي وحده لا يستطيع أن يوضح واقع السيطرة المتزايدة التي شهدتها الحياة الأكاديمية في تلك الفترة، أي هيمنة الألمان، التي عززتها جامعات عديدة تستخدم لغتهم (بما فيها الجامعات في أغلب المناطق في سويسرا، وفي إمبراطورية الهابسبيرغ والمناطق الروسية في البلطيق)، وتدعمها الجاذبية الشديدة التيمارستها الثقافة الألمانية في اسكندنافيا، وأوروبا الشرقية والجنوبية الشرقية. وفي خارج العالم اللاتيني وبريطانيا، بل في داخلهما إلى حد ما، جرى تبني نموذج الجامعات الألمانية بصورة عامة. ومن الأهمية بمكان أن غلبة الطابع الألماني كانت كمّية أيضاً: فربما نشرت في تلك الفترة مجلات علمية جديدة باللغة الألمانية أكثر مما نُشر بالإنجليزية والفرنسية مجتمعتين. وخارج نطاق مجالات محددة من العلوم الطبيعية مثل الكيمياء، وربما الرياضيات ـ وقد خضعا لسيطرة ألمانية واضحة ـ فإن الإنجازات النوعية المرموقة ربما كانت أقل بروزاً للعيان، لأنه (خلافاً لما كان عليه الحال في مطلع القرن التاسع عشر)، لم يكن ثمة تيار ألماني محدد في مجال الفلسفة الطبيعية. ولم يفعل الألمان ما فعله الفرنسيون الذين نهجوا، ربما لأسباب قومية، نهجهم الخاص ـ مع عزل العلوم الطبيعية الفرنسية (ولكن ليس الرياضيات الفرنسية) وفي وقت لاحق، إلا لقلة من الأفراد المرموقين، وربما لم يتبلور النهج الألماني الخاص ـ الذي هيمن على الساحة في القرن العشرين ـ إلا بعد أن دخلت العلوم مرحلة النظرية والتنسيق التي كانت (لأسباب غامضة نوعاً ما) تناسبهم تماماً. وفي الأحوال كافة، واصلت العلوم الطبيعية البريطانية ذات القاعدة الأضيق إنتاج العلماء من ذوي المكانة المرموقة، مثل طومبسون وداروين. وكانت هذه القاعدة تتمتع بنفوذ مؤثر في المجال العام في أوساط العلماء والناس العاديين على حد سواء.

وباستثناء التاريخ الأكاديمي وعلوم اللغة، لم تكن للألمان سيطرة في ميدان العلوم الاجتماعية. وظل علم الاقتصاد بريطانياً في المقام الأول، مع أننا سنكتشف، إذا ما استرجعنا الماضي، أعمالاً تحليلية أساسية في فرنسا، وإيطاليا، والنمسا (ومع أن إمبراطورية الهابسبيرغ التي كانت، بمعنى من المعاني، جزءاً من الثقافة الألمانية، اتخذت مساراً فكرياً مختلفاً كل الاختلاف)، فارتبط علم الاجتماع، وبواكيره المتواضعة، بفرنسا وبريطانيا، وتلقّفه العالم اللاتيني بحماسة. أما في ميدان الأنثروبولوجيا، فإن الصلات التي نمّاها البريطانيون مع مختلف أرجاء العالم قد منحتهم ميزة واضحة. وقد احتفظ «التطور»، وهو الجسر الذي يصل بين العلوم الطبيعية والعلوم الاجتماعية، بمركز ثقله على العموم في بريطانيا. والواقع أن العلوم الاجتماعية كانت انعكاساً للمدركات المسبقة والمشكلات التي تميزت بها الليبرالية البورجوازية بصيغتها الكلاسيكية. ولم يكن ذلك موجوداً في ألمانيا، حيث حشر المجتمع البورجوازي نفسه داخل الإطار البسماركي الذي يضم الأرستقراطيين والبيروقراطيين. وقد عاش عالم الاجتماع الأبرز في تلك الأيام، وهو كارل ماركس، في بريطانيا، واستمد الإطارَ لتحليلاته العيانية من علم الاقتصاد غير الألماني، والقاعدةَ الإمبيريقية لعمله من نموذج المجتمع البورجوازي البريطاني الذي كان يواجه بوادر التحدي آنذاك.

III

كان «العلم» هو النواة الأيديولوجية لتقدم العَلْمانية، سواء أكانت ليبرالية أم، إلى حد بسيط ولكنه متزايد، اشتراكية. ولا يتطلب ذلك مناقشة خاصة، لأن طبيعته العامة لا بد أن تكون قد اتضحت من خلال هذا التاريخ.

ومقارنةً بالأيديولوجية العلمانية، فإن الدين خلال تلك الفترة يبدو نسبياً قليل الأثر ولا يستلزم معالجة مطولة. غير أنه يستحق مع

ذلك بعض الاهتمام، لا لأنه ظل اللغة التي تفكر بها الأغلبية الساحقة من سكان المعمورة فحسب، بل لأن البورجوازية نفسها، على الرغم من تعاظم العَلْمنة، كانت مهمومة بالنتائج المحتملة لهذه المغامرة الجسورة التي أقدمت عليها، فقد كان من السهل الإعلان علناً عن عدم الإيمان بالله في منتصف القرن التاسع عشر، وفي العالم الغربي بصورة خاصة، لأن كثيراً من المقولات التي يمكن التحقق منها في النصوص الدينية اليهودية ـ المسيحية المقدسة قد تقوض أو فنّدت بالفعل العلوم التاريخية، والاجتماعية، والأهم من هذه وتلك، العلومُ الطبيعية. وإذا أخذنا بما يقوله لْييلْ (Lyell) (1797 ـ 1875) وتشارلز داروين، فإن «سفر التكوين» كان، بمعناه الحرفي، على خطأ؛ وكان من الواضح أن خصوم لييل وداروين الفكريين قد استؤصلوا من جذورهم. وكان التفكير الحر شائعاً منذ زمن بعيد في أوساط الطبقة العليا، وبخاصة بين الرجال. كما أن الإلحاد الفكري والشائع في أوساط الطبقة الوسطى لم يكن أمراً جديداً، وأصبح أكثر نشاطاً مع تزايد الأهمية السياسية للعداء للكنيسة. أما التفكير الحر في صفوف الطبقة العاملة فقد اتخذ شكلاً محدداً، مع أن ارتباطه قد خف بالأيديولوجية الثورية القديمة، وترك خلفه الجوانب القليلة الصلة بالناحية السياسية المباشرة، فيما كانت ترسي دعائمها أيديولوجياتٌ جديدة من هذا النوع راسخةُ الجذور في الفلسفة المادية. وقد ارتكزت الحركة «العلمانية» في بريطانيا مباشرة على الحركات الأُونية والميثاقية، ولكنها غدت الآن هيئة مستقلة، تجتذب الرجال والنساء الذين برزت ردود فعلهم ضد خلفيات دينية متشددة على نحو غير عادي. ولم يقتصر الأمر على تنحية الله جانباً، بل تعداه إلى مهاجمته بصورة نشطة.

وتزامن هذا الهجوم الحماسي على الدين مع التيار النشيط بالقدر نفسه المعادي للكنيسة. ولكنه لم يكن يماثله، وإن كان يحتضن التيارات الفكرية كلها من الليبراليين المعتدلين، إلى الماركسيين والفوضويين. ولا يدخل في باب الإلحاد الهجومُ الذي تعرضت له الكنائس، وأبرزها

كنائس الدولة الرسمية والكنيسة الرومانية الكاثوليكية العالمية ـ التي ادعت لنفسها وحدها الحق في تعريف الحقيقة، وفي احتكار أنشطة معينة تؤثر في حياة المواطنين ـ مثل (الزواج، والدفن، والتعليم). وفي البلدان التي انتشرت فيها أكثر من ديانة واحدة، كان أفراد من أعضاء طائفة دينية هم الذين يشنون هذه الهجمات على ديانة أخرى. وفي بريطانيا، شنتها بعض الطوائف المنشقة على الكنيسة الأنجليكانية؛ أما في ألمانيا، فإن بسمارك، الذي خاض كفاحاً ثقافياً (Kulturkampf) ضد الكنيسة الرومانية الكاثوليكية عام 1870/ 1871، لم يقصد، بوصفه لوثرياً رسمياً، المساس بالذات الإلهية أو بقدسية المسيح. من جهة أخرى، كانت معاداة الكنيسة في البلدان ذات الديانة الواحدة، ولا سيما الكاثوليكية بالطبع، تتضمن رفض الدين برمته. وفي الواقع، كان ثمة تيار ضعيف «ليبرالي» داخل الكنيسة الكاثوليكية يقاوم النزعة المحافظة المتشددة المتزايدة التصلب داخل السلك الكهنوتي في روما. وقد برزت هذه النزعة في ستينيات القرن (انظر ما أوضحناه آنفاً عن «سجل الأخطاء»). وحققت انتصارها رسمياً في مَـجْمع الفاتيكان عام 1870، الذي أصدر الإعلان عن العصمة البابوية. غير أن التيار الليبرالي استؤصل من جذوره داخل الكنيسة، مع أنه تلقى الدعم من جانب عدد من الكهنة الذين سعوا إلى المحافظة على بعض الاستقلال النسبي لكنيستهم الكاثوليكية الوطنية، وكان نفوذهم هو الأقوى في فرنسا. ولا تصدق على هذا الاتجاه «الغاليّ» (Gallicanism) صفة «الليبرالية» بالمعنى المتواضع عليه، مع أنه، لاعتبارات عملية وأخرى تتصل بمناهضة روما، كان الأكثر استعداداً للمصالحة مع الحكومات العَلمانية والليبرالية الحديثة.

كانت الحركة المناهضة للكنيسة عَلمانيةً وكفاحية في توجهاتها الرامية إلى حرمان الدين من أي مكانة رسمية في المجتمع («تجريد الكنيسة»، فصل الكنيسة عن الدولة)، واعتبار الدين مسألة خاصة بحتة. ويجب، بمنطق تلك المرحلة، أن يتحول إلى منظمة أو منظمات

طوعية تشبه نوادي جامعي الطوابع، تنتسب لها جمهرة أكثر عدداً. ولم يكن هذا التيار ينطلق من زيف الإيمان بالله أو أي نسخة عن هذا الاعتقاد، بل يرتكز على مستويات القدرة الإدارية، والمجال، والطموح المتعاظمة للدولة العلمانية ـ حتى في شكلها الأكثر ليبرالية وانفتاحاً ـ وهي الدولة التي كانت قد عقدت العزم على طرد المنظمات الخاصة مما كانت تعتبره مجال العمل الخاص بها. لكن التيار المناهض للكنيسة كان سياسياً في جوهره؛ لأن الدافع الرئيسي وراءه كان الاعتقاد بأن الديانات القائمة كانت مناوئة للتقدم. وقد كانت كذلك بالفعل، لأنها، من الوجهتين السوسيولوجية والسياسية، مؤسسات محافظة جداً. بل إن الكنيسة الكاثوليكية في روما رفعت راية العداء السافر لكل ما يمثله منتصف القرن التاسع عشر، فقد تكون الطوائف الأخرى وفئات المنشقين ليبرالية أو حتى ثورية، وربما يجتذب التسامح الليبرالي الأقليات الدينية، بيد أن الكنائس التي تسلك الصراط المستقيم لن تنحو هذا النحو. وحيث إن الجماهير ـ وبخاصة جماهير الأرياف ـ ما زالت في قبضة القوى الغيبية، والنزعة التقليدية، والرجعية السياسية، فإن شوكة هذه القوى جميعها لا بد أن تُكسر إذا ما أريد للتقدم أن يشق طريقه دونما عثرات. من هنا، كان التيار المناوئ لسلك الكهنوت أكثر إقداماً وتوهجاً، إزاء ما تعانيه البلاد من «تخلف» وكان السياسيون في فرنسا يتداولون الرأي حول أوضاع المدارس الكاثوليكية في البلاد، لكن المكسيك شهدت قضايا أخطر من ذلك في صراع الحكومات الشعبية ضد الكهنة.

كان «التقدم»، والانعتاق من التقاليد ـ لكل من المجتمع والأفراد، ينطويان، على ما يبدو، على انبتات عنيف مع المعتقدات القديمة. وتمثَّلَ التعبير الحماسي عن هذا الانقطاع في سلوك النشطين في الحركات الشعبية، وكذلك في أوساط مثقفي الطبقة الوسطى، وكان الكتاب المعنون **موسى أمْ داروين** (*Moses or Darwin*) أوسع انتشاراً في صفوف القراء في مكتبات العمال الديمقراطيين الاجتماعيين الألمان من كتابات

ماركس نفسه. وعلى رأس هذا التقدم، حتى وإن كان تقدماً اشتراكياً، يقف، في نظر الناس العاديين، المحرِّرون، والمعلمون الكبار كذلك كان العلم (الذي ترجم، منطقياً، بوصفه مرادفاً لـ «الاشتراكية العلمية») هو مفتاح الانعتاق الفكري من أغلال خزعبلات الماضي وقمع الحاضر. والفوضويون الأوروبيون، الذين عبروا، بدقة خارقة، عن الغرائز التلقائية لهؤلاء المكافحين، كانوا هم الأكثر شراسة في عدائهم للكنيسة. ولم يكن من قبيل المصادفة أن حدّاداً راديكالياً في روماغنا الإيطالية سمّى ابنه بينيتو موسوليني تيمناً برئيس المكسيك المعادي للكنيسة بينيتو خواريز.

ومع ذلك، ظل الحنين إلى الدين قائماً في النفوس، حتى في صفوف أحرار المفكرين وأيديولوجيي الطبقة الوسطى الذين ثمّنوا دور الدين باعتباره مؤسسة تعلم الفقراء القناعة المتواضعة، وتعمل على ضمانة النظام العام. وكان لهم أحياناً نصيب في تجارب الديانات الجديدة مثل «دين الإنسانية» الذي دعا إليه أوغست كونْت، الذي استعاض عن البانتيون [مقبرة المشاهير] وتقويمات القديسين بمجموعة مختارة من الرجال العظماء، مع أن هذه التجارب لم تُكلل بالنجاح. ولكن كان هناك نزوع حقيقي لإنقاذ سلوان الدين في عصر العلم. ومن هذه المحاولات حركة «العلم المسيحي» (Christian Science) التي أسستها ماري بيكر إدّي (Mary Baker Eddy) (1821 ـ 1910)، وطبعت منشوراتها عام 1875، وربما كان ذلك هو السبب في الشعبية الكاسحة للروحانية، التي برزت أولى موجاتها في خمسينيات القرن. وكانت ارتباطاتها الأيديولوجية تدور حول محاور التقدم، والإصلاح، واليسار الراديكالي، وكذلك تحرر المرأة، وبخاصة في الولايات المتحدة التي كانت آنذاك مركز الإشعاع الرئيسي لها. ولكن، بالإضافة إلى مواطن الجذب الأخرى فيها، انطوت على ميزة ملموسة عندما بدت وكأنها وضعت قضية الحياة بعد الموت على أساس العلم التجريبي؛ بل إنها (كما أثبت التصوير الفوتوغرافي الحديث النشأة آنذاك) ارتكزت على

الصورة الموضوعية. وحيثما لم تعد المعجزات مقبولة بعد الآن، فإن شبه - علم النفس يزيد من اتساعه في أوساط العامة. وعلى الرغم من ذلك، فإنها اقتصرت على إبراز الجوانب الشعائرية الملونة التي أخفق فيها الدين التقليدي إخفاقاً ذريعاً. إن منتصف القرن التاسع عشر حافل بالطقوس العلمانية المبتكرة، ولا سيما في البلدان الأنجلوساكسونية، حيث اصطنعت النقابات العمالية رايات مجازية وشهادات مفصلة. وأحاطت «جمعيات العون المتبادل» (الجمعيات الصديقة) نفسها في مقارها المختلفة بالأساطير والشعائر والمعدات، وقامت جمعيات مثل «كو - كلوكس كلان» و«أورانجمن» وطائفة من الفئات الأخرى «السرية» الأقل تسيّساً باستعراض ما كانت ترتديه من أزياء وملابس. وكانت الأقدم أو الأكثر نفوذاً في كل الحالات من هذه الجماعات السّرية الطقوسية الهرمية التنظيم، وهي الماسونيون الأحرار ملتزمة، في واقع الأمر، بالفكر الحر وبالنزعة المناهضة للكنيسة، وبخاصة في البلدان الأنجلوساكسونية. ولا نعلم ما إذا كانت قاعدة أعضائها قد توسعت في تلك الفترة، مع أن من المؤكد أن أهميتها السياسية، كما أسلفنا، قد تعاظمت.

وحتى لو كان أحرار الفكر يتوقون إلى بعض العزاء الروحي من النوع التقليدي، فإنهم كانوا، في واقع الأمر، عدواً مدحوراً متراجعاً. ذلك أن المؤمنين، وبخاصة المثقفين، كانت تخامرهم «الهواجس». وذلك ما نشهده بكل جلاء وبلاغة في كتابات العصر الفيكتوري في ستينيات القرن. لقد كان الدين، من دون شك، في طور الانحسار، لا في أوساط المثقفين فحسب، بل في المدن الكبرى المتسارعة الاتساع، حيث كانت التسهيلات المقدمة للعبادة الدينية، شأنها شأن المرافق الصحية، متخلفة عن متطلبات السكان، وضغوط الجماعات الداعية إلى الالتزام بالممارسات الدينية وبالأخلاق ضعيفة الأثر.

غير أن العقود الوسطى في القرن التاسع عشر لم تشهد انحساراً في الدين الجماعي، يماثل الهزيمة الفكرية لعلم اللاهوت. لقد ظلت

أغلبية الطبقات الوسطى الأنجلوساكسونية في عداد المؤمنين، والمؤمنين الممارسين على العموم، أو ربما من المرائين في كل الأحوال. ومن بين كبار أصحاب الملايين الأمريكيين لم يعلن غير واحد فقط (أندرو كارنيغي) أنه من غير المؤمنين. وتباطأت سرعة التوسع للطوائف البروتستانتية غير الرسمية، إلا أن «أصحاب الضمير غير الملتزم» الذين كانت تمثلهم هذه الفئات أصبح، في بريطانيا على الأقل، أعظم نفوذاً بتحول المزيد منهم إلى الطبقة الوسطى. كما أن مستوى التدين لم يتراجع بين جماعات المهاجرين في ما وراء البحار: فقد ارتفعت نسبة المترددين على الكنيسة بين من بلغوا الخامسة عشرة أو تجاوزوها من 36,5 في المئة عام 1850 إلى نحو 59 في المئة عام 1870، واستقرت على 45 في المئة على المعدل في عقود القرن الأخيرة[23]. وعلى الرغم من جهود الملحد الشهير الكولونيل إنغرسول (Ingersoll) (1833 ـ 1899)، ظلت الولايات المتحدة أكثر بكثير إيماناً من فرنسا.

بالنسبة للطبقة الوسطى، فإن ما وضع حداً لانحسار الدين لم يكن فقط قوة التقاليد ولا إخفاق القومية الليبرالية الذريع في توفير أي بديل عاطفي للعبادة والشعائر الدينية الجماعية (إلا، ربما، من خلال الفن[24]. إنما حال كذلك دون هذا الانحسار عدم الرغبة في التخلي عن ذلك الركن الضروري الذي قد لا يستغنى عنه، للاستقرار، والأخلاق والنظام الاجتماعي. أما بالنسبة للجماهير، فربما كان التوسع فيه يعود أساساً إلى تلك العوامل الديمغرافية التي كانت الكنيسة الكاثوليكية تعتمد عليها بصورة مطردة لتحقيق أهدافها النهائية. وتتمثل هذه العوامل في هجرة الرجال والنساء الجماعية من البيئات الأكثر تشبثاً بالتقاليد، أي الأكثر تديناً، إلى المدن، والأقاليم والقارات الجديدة،

---

(23) W. Philips, «Religious Profession and Practice in New South Wales 1850-1900,» *Historical Studies* (October 1972), p. 388.

(24) انظر الفصل الخامس عشر من هذا الكتاب.

وارتفاع معدلات الإنجاب للفقراء الورعين. بالمقارنة مع غير المؤمنين الذين أفسدهم التقدم (بما في ذلك تنظيم النسل). وليس ثمة من دليل على أن الأيرلنديين غدوا خلال تلك الفترة أكثر تديناً أو أن الهجرة قد خففت من سطوة الدين في صفوفهم: غير أن انتشارهم ومعدلات الإنجاب بينهم ساعدت، دون شك، على تزايد انتشار الكنيسة الكاثوليكية نسبياً وبصورة مطلقة في أرجاء العالم المسيحي. ولكن، ألم تنشأ داخل الدين نفسه قوى عملت على تنشيطه ونشره؟

إن الجهود التبشيرية المسيحية في تلك الفترة لم تحقق نجاحاً ملحوظاً، سواء منها ما استهدف استعادة البروليتاريا الضائعة في بلادها أو الوثنيين، ناهيك عن المؤمنين في عالم الديانات الأخرى المنافسة في الخارج. وقياساً على الاستثمارات الضخمة ـ ومنها أن بريطانيا أنفقت على البعثات التبشيرية[25] ثمانية ملايين جنيه بين الأعوام 1871 و1877 ـ فإن المحصلة النهائية كانت غاية في التواضع. لقد أخفقت المسيحية، بطوائفها كافة، في أن تكون مزاحماً جدياً للدين الوحيد الذي كان يشهد انتشاراً حقيقياً مطرداً: ألا وهو الإسلام. ذلك أن هذا الدين واصل انتشاره من دون مقاومة، ومن دون مساعدة من منظمات البعثات التبشيرية، أو التمويلات، أو دعم من القوى الكبرى، واستمر تقدمه عبر الأقاليم الخلفية من أفريقيا وأجزاء من آسيا. ولا ريب أن ما ساعده في ذلك لم يقتصر على المبادئ المساواتية فيه، بل الوعي بالتفوق على قيم الأوروبيين الغزاة. ولم تستطع البعثات التبشيرية قط في التغلغل في المناطق الآهلة بالمسلمين، لكنها أفلحت في تحقيق تقدم طفيف في التجمعات غير المسلمة؛ لأنها كانت، على العموم، تفتقر إلى السلاح

---

(25) Joseph Haydn, *Haydn's Dictionary of Dates and Universal Information Relating to all Ages and Nations*, 19th Ed., Containing the History of the World to the Autumn of 1889, by Benjamin Vincent (New York: G. P. Putnam's Sons, 1889), Article: Missions.

الرئيسي الذي استخدمه الاختراق المسيحي، أي الغزو الاستعماري المباشر، أو على الأقل، تنصير الحكام الذين جرّوا رعاياهم خلفهم، كما حدث في مدغشقر التي أعلنت نفسها جزيرةً مسيحيةً عام 1869. وقد حققت المسيحية بعض التقدم في جنوب الهند (وبخاصة في الشرائح الدنيا من نظام الكاست (Cast) الطبقي) مع أن الحكومة لم تبد أي حماسة لذلك، وكذلك في الهند الصينية في أعقاب الغزو الفرنسي. ولكن لم يحدث تقدم يذكر في أفريقيا، إلا عندما ضاعفت الإمبريالية من أعداد المبشرين (من نحو 3000 مبشر بروتستانتي في أواسط الثمانينيات إلى نحو 18,000 عام 1900)، وضعت ثقلها وقدرتها المادية إلى جانب القدرة الروحية لـ«المخلِّص الفادي»[26]. والواقع أن الجهد التبشيري ربما فقد جانباً من زخمه عندما كانت الليبرالية في أزهى مراحلها، ففي الفترة بين عامي 1850 و1880، لم يفتتح غير ثلاثة أو أربعة من مراكز التبشير الكاثوليكية الجديدة، مقارنة بستة في الأربعينيات، وأربعة عشر في الثمانينيات وسبعة عشر في تسعينيات القرن[27]. وكانت المسيحية أكثر فاعلية عندما اندمجت بعض عناصرها في الأيديولوجية الدينية المحلية على شكل عبادة توفيقية «أصلية». وكانت حركة تايبنغ في الصين[28] هي، بما لا يقاس، أعظم هذه الظواهر وأكثرها نفوذاً.

غير أن ثمة دلائل على ظهور هجمات مضادة للعَلْمنة داخل المسيحية. وخلافاً لما تم في نطاق الكنيسة الكاثوليكية، فإن ذلك لم

(26) Eugene Stock, *A Short Handbook of Missions* (London: Longmans & Co., 1904), p. 97.
وقد أُخذت الإحصاءات المتحيزة ـ والمؤثرة ـ في هذا الدليل الإرشادي من: James Shepard Dennis, *Centennial Survey of Foreign Missions* (New York; Chicago: Fleming H. Revell Co., 1902).

(27) *Catholic Encyclopedia*, Article: Missions, Africa.

(28) انظر الفصل السابع من هذا الكتاب.

يتجلَّ في العالم البروتستانتي الذي بدا فيه أن تشكيل الطوائف غير الرسمية الجديدة وانتشارها قد فقدا الكثير من الروح الدينامية التي أظهراها قبل عام 1848 ـ ربما باستثناء السود في أمريكا الأنجلوساكسونية، والعبادة الوثنية، التي ولدت في لُوورْدْ في فرنسا برؤيا تراءت لراعيةٍ صبيةٍ عام 1858، تنامت بسرعة خارقة؛ وربما بدأت بصورة تلقائية أول الأمر، بيد أنها سرعان ما حظيت بمساندة كهنوتية نشيطة. وعام 1870، افتتحت مؤسسة فرعية منبثقة عن اللوورد في بلجيكا. وعلى نحو أقل إثارةً، كان التيار المناوىء للكنيسة هو القوة الدافعة وراء حركة إنجيلية/بروتستانتية مؤثرة في أوساط المؤمنين، عززت، في الوقت نفسه، نفوذ الكهنة. وكان أغلب الفلاحين في أمريكا اللاتينية مسيحيين من دون كهنة؛ وحتى عام 1860 كان أكثر الكهنة المكسيكيين من الحضر. ومقابل الجهود المناهضة رسمياً للمؤسسة الكنسية، شنت الكنيسة حملة منظمة لاسترجاع الريف أو لتحديد دعوتها فيه. وبمعنى من المعاني، كان رد فعل الكنيسة، بعد أن واجهت مخاطر الإصلاح العلماني، مشابهاً لما قامت به في القرن السادس عشر، وهو الهجوم المعاكس على الحركة الإصلاحية. وفي أعقاب انعقاد مجمع الفاتيكان عام 1870، غدت الكاثوليكية قوة أكثر سطوة، من أي وقت مضى، وبلغت أقصى درجات العناد والتعنت، ورفضت أي مصالحة فكرية مع قوى التقدم. والتصنيع والتيار الليبرالي. إلا أنها تركت لخصومها الكثير من المواقع. وخارج المسيحية، اعتمدت الديانات أساساً على قوة النزعات التقليدية لمواجهة التآكل الذي طرأ على العهد الليبرالي، أو لمواجهة الغرب. وانصبت لعنة المؤمنين المستقيمي الرأي واحتقار اللاأدريين على المحاولات الرامية إلى «لَبْرَلة» هذه النزعات البورجوازية شبه المندمجة (مثل اليهودية الإصلاحية التي برزت في أواخر الستينيات)، وكانت قوى التقاليد في أوج سطوتها، وعززتها، في أكثر الأحيان، مقاومة التقدم، والتوسع الأوروبي. بل إن اليابان، كما رأينا، خلقت دين دولة جديداً هو الشّنتوية، من عناصر تقليدية، لأغراض

مناهضة للغرب في أساسها[29]. وفي العالم الثالث، تعلم حتى دعاة الغَرْبَنة والثوريون أن السبيل الأقصر إلى نجاح السياسي هو أن يتولى دور الراهب البوذي أو الهندوسي أو على الأقل، أن يكتسب ما لهما من مكانة في أوساط الجماهير. وعلى الرغم من أن أعداد غير المؤمنين الصريحين في تلك الفترة كانت قليلة نسبياً (فحتى في أوروبا، كانت الإناث، وهن نصف الجنس البشري، بعيدات كل البُعد عن اللاأدرية)، فإنهم سيطروا على عالم علمانيّ في جوهره. وكان أقصى ما يستطيع أن يفعله الدين إزاءهم هو أن ينثني ويتحصن في قلاعه الواسعة المنيعة، ويهيئ نفسه لحصار طويل الأمد.

(29) انظر الفصل الثامن من هذا الكتاب.



الفصل الخامس عشر

الفنون

علينا أن نقتنع اقتناعاً راسخاً بأن تاريخنا اليوم إنما تصنعه الكائنات البشرية نفسها التي أنتجت الأعمال الفنية اليونانية ذات يوم. وحيث إن أولئك البشر أنجزوا ما أنجزوه، فإن علينا أن نكتشف ما الذي غيّرهم على هذا النحو الجوهري، لأننا لا ننتج نحن الآن غير منتجات الترف الصناعية، بينما أنتجوا هم أعمالاً فنية.

ريتشارد فاغنر[1].

لماذا تكتب الشعر؟ لا أحد يأبه له الآن. . . ففي عصر النضج المتشكك والاستقلال الجمهوري، أحيل الشعر على المعاش. ونحن نؤثر النثر لأنه، بفضل ما يتمتع به من حرية الحركة، ينسجم على نحو أكثر صدقاً وغرائز الديمقراطية.

يوجين بلليتان (Eugene Pelletan)، برلماني فرنسي، نحو عام 1877[2].

(1) Richard Wagner, «Kunst und Klima,» in: *Gesammelte schriften und dichtungen* (Leipzig: C. F. W. Siegel, [1907]), vol. 3, p. 214.

(2) Edward Dowden, *Studies in Literature 1789-1877* (London: K. Paul, Trench & Co., [1892]), p. 404.

I

إذا كان انتصار البورجوازية مواتياً للعلوم، فإنه لم يكن كذلك بالنسبة للآداب. صحيح أن تقدير قيمة الفنون الإبداعية يشوبه الطابع الذاتي دائماً، غير أنه لا يمكننا أن ننكر أن عصر الثورة المزدوجة (1789 ـ 1848) قد حفل بمنجزات مشهودة وعريضة لرجال ونساء، من ذوي المواهب الخارقة للعادة. والنصف الثاني من القرن التاسع عشر، وبخاصة العقود التي يعالجها هذا الكتاب لا يعطي انطباعاً مؤثراً وطاغياً بالقدر نفسه، إلا في واحد أو اثنين من البلدان المتخلفة نسبياً، أبرزها، بما لا يقاس، روسيا. ولا يعني ذلك أن المنجزات الإبداعية في تلك الفترة كانت متوسطة القيمة، مع أننا إذا استعرضنا أولئك الذين كانت أعظم أعمالهم وأبرز فترات الترحيب بإنتاجهم في المجال العام كانت بين عام 1848 والسبعينيات من ذلك القدر، لأدركنا أن كثيراً منهم كانوا قد بلغوا مرحلة النضج، وأنتجوا أعمالاً مرموقة قبل عام 1848. فإذا أخذنا، على سبيل المثال، ثلاثة ممن كانوا آنذاك هم الأعظم دون ريب ـ فإن تشارلز ديكنز (Charles Dickens) (1812 ـ 1870) كان في ذروة حياته الإبداعية في مجال الرواية، كما أن الرسام أونوريه دومييه (Honoré Daumier) (1808 ـ 1879) كان فناناً تصويرياً نشيطاً منذ عام 1833، والموسيقار ريتشارد فاغنر (Richard Wagner) (1813 ـ 1883) كان قد أنتج حتى ذلك الحين أوبرات عدة: وكانت لوهنغرِن (Lohengrin) قد أُنتِجت في وقت مبكر عام 1851. مع ذلك، فإن ما لا شك فيه أن الأدب النثري، وبخاصة الرواية، ازدهر بصورة مشهودة، جراء الروائع التي أنجزها الفرنسيون والبريطانيون، وتلاهم في ذلك الروس. ومن الواضح أن تلك الفترة كانت في تاريخ فن الرسم مرحلة متألقة، بل مرحلة خارقة للعادة. ويعود الفضل في ذلك بأكمله تقريباً إلى الفرنسيين. وفي الموسيقى، فإن أعمال فاغنر وبرامز (Brahms) لا يمكن اعتبارها متدنية إلا إذا قورنت بأعمال موتزارت (Mozart)، وبيتهوفن (Beethoven)، وشوبرت (Schubert) في الفترة السابقة.

إذا أمعنّا النظر في المشهد الإبداعي، فإنه سيغدو باهتاً بعض الشيء. وكنا قد أشرنا إلى ما فيه من بعثرة جغرافية، فقد كان بالنسبة إلى روسيا متألقاً كل التألّق، في ميدان الموسيقى، والأهم من ذلك في ميدان الأدب، علاوة على العلوم الطبيعية والاجتماعية. ولم يكن ثمة ما يماثل العقد الممتد في سبعينيات القرن التاسع عشر من الناحية الإبداعية، فقد شهد قمة العطاء من جانب دستويفسكي (Dostoievsky)، تولستوي (Tolstoi)، تشايكوفسكي (P. Tchaikovsky) (1840 ـ 1893)، وموسورغسكي (M. Mussorgsky) (1835 ـ 1831) والباليه الإمبراطورية العريقة. وحافظت بريطانيا وفرنسا، كما رأينا، على مستوى متميز، الأولى في الأدب النثري في المقام الأول، والثانية في الرسم والشعر[3]. أما الولايات المتحدة، فمع أنها لم تقدم شيئاً يذكر في مجال الفنون البصرية والموسيقى الراقية، فقد بدأت تثبت حضورها كقوة أدبية بمؤلفين مثل ملفيل (Melville) (1819 ـ 1891)، هوثورن (Hawthorne) (1804 ـ 1864)، وويتمان (Whitman) (1819 ـ 1891) في الشرق، وجيل جديد من الكتاب الشعبيين الطالعين من الأوساط الصحفية في الغرب ـ وكان مارك توين (Mark Twain) (1835 ـ 1910) هو الأكثر تألقاً بينهم. ومع ذلك، فإن هذه الأعمال كانت، بالمقاييس العالمية، منجزات إقليمية وأقل ألمعية في أكثر من ناحية، وأقل تأثيراً في الصعيد العالمي من العمل الإبداعي الذي صدر في تلك الآونة في بلدان صغيرة تؤكد هويتها الوطنية. (ومن الطريف أن عدداً من الكتاب الأمريكيين الأقل تميّزاً وصلت أصداؤهم إلى الخارج في النصف الأول من ذلك القرن). فقد اكتشف الموسيقيون، التشيكيون، ومنهم آ. دفوراك (A. Dvorak) [1841 ـ

(3) كانت منجزات تينيسون، وبراوننغ وآخرين في الشعر الإنجليزي أكثر تواضعاً مما حققه الشعراء الرومانطيقيون الكبار في عصر الثورة؛ إلا أن فرنسا بودلير ورامبو كانت أحسن حالاً.

1904] وب. سميتانا (B. Smetana) 1824 ـ 1884، أن نيل القبول العالمي أسهل عليهم من نظرائهم الكتاب الذين فرضت عليهم العزلة لغة لا يهتم بتعلمها غير قلة قليلة من الناس خارج بلدانهم. كما أن المصاعب اللغوية تفرض نوعاً من الحصار المحلي على سمعة الكتاب من مناطق أخرى، مثل الهولنديين الفلمنكيين. واستطاع الإسكندنافيون فقط الوصول إلى جمهور أعرض، ربما لأن ممثلهم الألمع ـ هنريك إبسن (Henrik Ibsen) (1828 ـ 1906) الذي بلغ مرحلة النضوج الإبداعي مع نهاية تلك الفترة، توخى أن يكتب للمسرح.

مقابل ذلك، علينا أن نلاحظ هبوطاً متميزاً وصارخاً، من أكثر من ناحية، في جودة النتاج الذي عُرف به مركزان عظيمان للنشاط الإبداعي، وهما الشعوب الناطقة بالألمانية، والإيطاليون. وقد يسأل سائل عن الموسيقى، بيد أننا لا نجد في إيطاليا غير ج. فيردي (G. Verdi) (1813 ـ 1901)، الذي كانت حياته الفنية قد انطلقت قبل عام 1848. ومن بين الموسيقيين العظماء المرموقين في النمسا ـ ألمانيا، لا نجد بين من برزوا في تلك الفترة غير برامز (1833 ـ 1897) وبروكنر (Bruckner) (1824 ـ 1896)، بينما كان فاغنر قد دخل مرحلة النضج تقريباً. ومع ذلك، فإن لهؤلاء إنجازاتٍ مؤثرة، وبخاصة فاغنر، وهو عبقري عملاق، على الرغم من أنه شخصية وظاهرة ثقافية بغيضة. غير أن ما تحقق في ميدان الفنون الإبداعية لا بد أن يقتصر على ما حققه هذان الفنانان في الموسيقى فحسب. ولا جدال في أن الأدب والفنون التصويرية كانت آنذاك دون ما كانت عليه قبل عام 1848.

وإذا تناولنا الفنون المتنوعة، كلاً على حِدة، فإننا نتلمس في بعضها هبوطاً عاماً واضحاً، ولكننا لن نجد تفوقاً في أي منها بالمقارنة مع الفترة السابقة. لقد ازدهر الأدب، كما رأينا، عبر وسط مناسب هو الرواية. ويمكن اعتبارها النوع الأدبي الذي استطاع أن يتكيف مع المجتمع البورجوازي الذي أصبح نهوضه وأزماته هي موضوعاتها

الرئيسة. وقد جرت محاولات لإنقاذ سمعة العمارة في منتصف القرن التاسع عشر، وتحققت، لا ريب، منجزات مشهودة في هذا المجال. غير أننا إذا نظرنا إلى فورة البناء التي انجرف معها المجتمع البورجوازي منذ خمسينيات القرن، لأدركنا أن المباني الجديدة لم تكن باهرةً، لا نوعاً ولا عدداً. إن باريس التي أعاد هاوسمان (Haussman) بناءَها، مدهشة من حيث تخطيطها، لا من حيث المباني التي صُفَّت على شوارعها وحول ساحاتها. كما أن فيينا، التي سعت إلى إنجاز الروائع بمفردها، لم تحقق غير نجاح مشكوك فيه. أما روما في عهد الملك فيكتور عمانوئيل، الذي ربما ارتبط اسمه بعمارات رديئة أكثر من أي عاهل آخر، فكانت أشبه بكارثة عمرانية. وإذا قورنت مباني النصف الثاني من القرن التاسع عشر بالمنشآت النيوكلاسيكية المثيرة للإعجاب، على سبيل المثال، التي تمثل الطراز المعماري الموحد الأخير قبل انتصار مدرسة القرن العشرين «الحديثة»، فإن هذه العمارات ستكون مدعاة للرثاء لا للإعجاب الشامل. ولا يصدق ذلك، بالطبع، على الأعمال التي صممها مهندسون لامعون مبتكرون، مع أنها كانت تستتر خلف واجهات «الفنون الجميلة».

وحتى وقت قريب، كان من الصعب حتى على النقاد المتعاطفين أن يتحدثوا بعبارات الإطراء عن أكثر اللوحات التي رُسمت في تلك الفترة. والعمل الذي أصبح من العناصر الدائمة في المتحف التخيُّلي لفناني القرن العشرين كان، من دون استثناء، فرنسياً: فالذين استمروا بعد عصر الثورة هم الذين برزوا في ستينيات القرن، ومنهم: دوميه وج. كوربيه (1819 ـ 1877)، ومدرسة باربيزون، وجماعة الانطباعيين الطليعية (Avant-garde) (وهي صفة اعتباطية لا نود الخوض في تفاصيلها الآن). وكانت هذه الإنجازات باهرة وعميقة التأثير، وفي فترة متألقة شهدت ظهور إ. مانيه (E. Manet) (1832 ـ 1883): إ. دوغا (E. Degas) (1834 ـ 1917)، والشاب بول سيزان (P. Cézanne) (1839 ـ 1906). بيد أن هؤلاء الرسامين لم يخرجوا فقط عن المألوف في ما

وضعوه من لوحات، وبكميات متعاظمة في ذلك الوقت، بل إنهم كانوا يتشككون في الفن المحترم وذوق الجمهور العام. وأكثر ما يمكن قوله في ما يتصل بالفن الرسمي الأكاديمي والشعبي على حد سواء في تلك الفترة، وفي كل البلدان، هو أنه لم يكن موحداً في عناصره وأساليبه، وأنه كان على مستوى راق من حيث معايير الصنعة الفنية، وأن بالإمكان العثور على بعض الميزات المتواضعة فيه في هذا الجانب أو ذاك. غير أن أكثره كان غاية في الرداءة.

ربما كان النحت الذي ظهر في أواسط القرن التاسع عشر وأواخره يستحق اهتماماً أكبر مما قوبل به في الماضي، بالنظر إلى الأعداد الوفيرة التي لا تكاد تحصى من التماثيل والأنصاب التي ما زالت ماثلة للعيان، فهذه الفترة، آخر الأمر، هي التي نبغ فيها رودين (Rodin) (1840 ـ 1917) في مطلع شبابه. غير أننا إذا نظرنا إلى الأكداس الضخمة من الفنون التشكيلية التي ظهرت خلال العهد الفيكتوري، وحفلت بها منازل البنغاليين الأثرياء الذين كانوا يشترونها من على ظهور القوارب، فإننا سندرك أن حصيلة تلك المرحلة إنما كانت مشهداً يدعو إلى الاكتئاب.

II

كان هذا الوضع مشهداً امتزجت فيه، على نحو ما، عناصر المأساة والملهاة على السواء. إن قلة قليلة من المجتمعات قدمت ما قدمته بورجوازية القرن التاسع عشر من حفاوة ورعاية لأعمال العباقرة المبدعين (وذلك، بوصفه ظاهرة اجتماعية، ابتكار بورجوازي تقريباً)[4]. ولم يكن غير عدد قليل من المجتمعات مستعداً لإنفاق الأموال بهذا السخاء على الفنون، ولم يكن أي منها قبل تلك الفترة قد ابتاع، من الوجهة الكمية، العدد نفسه من الكتب القديمة والجديدة، والتحف المادية، واللوحات،

---

(4) انظر الفصل الرابع عشر من: Eric John Hobsbawm, *The Age of Revolution: Europe 1789-1848* (London: Weidenfeld and Nicolson, 1962).

والتماثيل، أو الأنصاب الحجرية المزينة، أو التذاكر للعروض الموسيقية والمسرحية. (ومن شأن الزيادة السكانية وحدها أن تعزز مثل هذا القول). والأهم من ذلك، وهذه إحدى المفارقات، أن مجتمعات قليلة فقط كانت على قناعة راسخة بأنها تعيش العصر الذهبي للفنون الجميلة.

إن ذوق تلك المرحلة كان، بكل معنى الكلمة، معاصراً، مثلما كان طبيعياً لجيل كان أبناؤه يؤمنون بالتقدم الشامل المستدام. ومن الأمثلة النموذجية على هذا النوع كان الهِرْ آهرنز (Herr Ahrens) (1805 ـ 1881)، وهو صناعي ألماني شمالي استقر في بيئة فيينا الأكثر ملاءمة من الناحية الثقافية، وبدأ وهو في العقد الخامس من عمره بجمع الأعمال الفنية، فاشترى من اللوحات الحديثة لا من روائع الفنانين القدامى[5]. كما أن كبار الصناعيين مثل: بولكو (Bolckow) (الحديد)، هولواي (Holloway) (حبوب الدواء المرخصة)، مندل (Mendel) «التاجر الأمير» (القطن)، جمعوا ثروات طائلة جراء التنافس في ما بينهم لرفع أسعار اللوحات الزيتية في بريطانيا[6]. ودرج الصحافيون والوجهاء على الاحتفاء بتدشين المباني العامة العملاقة، التي راحت بعد عام 1848 تشوّه ملامح المدن الشمالية، وسرعان ما بدأ الضباب والسخام يُخفِيان أكثر معالمها. كما دوّنوا تكاليفها الكاملة، اعتقاداً منهم بأنهم يحتفلون ببداية نهضة جديدة، يمولها رجال الأعمال ـ الأفراد، مثلما فعلت أسرة مديتشي. غير أن النتيجة الجلية التي يمكن أن يستخلصها المؤرخون من تطورات الفترة المتأخرة من القرن التاسع عشر هي، للأسف، أن إنفاق المال لا يضمن بالضرورة قيام عصرٍ ذهبيٍ للفنون.

---

(5) Theodor von Frimmel, *Lexicon der Wiener Gemäldesammlungen* (München: [G. Müller], 1913-1914), Article: Ahrens.

(6) Gerald Reitlinger, *The Economics of Taste*, 3 vols. (London: Barrie and Rockliff, [1961-1970]), Chapter 6.

اعتمدت كثيراً على هذا العمل القيم، الذي وضع دراسة الفن في تلك الفترة في إطار مالي واقعي صلب يتفق ومتطلبات تلك الفترة.

بيد أن المبالغ التي أنفقت لهذا الغرض كانت باهظة بأي مقياس، باستثناء ما أنفق على تعزيز القدرة الإنتاجية غير المسبوقة للرأسمالية. إلا أن إنفاقها لم يأت من مموّل واحد. إن الثورة البورجوازية حققت النصر حتى في خصائص الأنشطة التي يقوم بها الأفراد والنبلاء. ذلك أن العمارات الكبرى في المدن بين الأعوام 1850 و1875 لم تكن، في سياق التضاريس العمرانية السائدة في المدينة، تدخل في عداد الصروح الملكية أو الإمبراطورية، أو مجمعات القصور الأرستقراطية، فحيثما كانت البورجوازية ضعيفة، كما كانت الحال في روسيا، كان بمقدور القيصر أو الغراندوقات أن يكون كل منهم هو الراعي الرئيس بمفرده. غير أن دورهم، حتى في أمثال تلك البلدان، غدا أقل محوريةً مما كان عليه قبل الثورة الفرنسية. أما في الأمكنة الأخرى، فقد يبرز بين الفينة والفينة أمير صغير غريب الأطوار مثل لودفيغ الثاني أمير بافاريا، أو شخص آخر لا يقل عنه غرابة مثل مركيز هارتفورد، ويصبح مولعاً بشراء الفن والفنانين، غير أن الخيول، والقمار، والنساء كانت كلها، على العموم، أقدر على إغراقهم بالديون من رعاية الفنون.

من الذي دفع للفنون إذاً؟ إنها الحكومات والهيئات العامة الأخرى، والبورجوازية، ثم طرف آخر يجب التأكيد عليه، وهو قطاع مهم من «الشرائح الدنيا» التي جعلت السيرورات التقنية والصناعية منتجات العقول المبدعة في متناول يدها وبكميات متزايدة وأسعار متناقصة.

كانت السلطات العَلْمانية العامة هي الزبون الوحيد تقريباً لتلك المباني والصروح العملاقة، التي كان الغرض من إقامتها هو أن تكون شاهداً على الثروة والأبهة في ذلك العصر على العموم، وفي المدن بصورة خاصة. وقلما كان الهدف منها نفعياً، ففي عهد «دعه يعمل، دعه يمرّ» ذاك، لم تكن المباني الحكومية مفرطة الفخامة. ولم تكن تقام لأغراض دينية إلا في البلدان الشديدة الكثلكة، أو لتستخدم محلياً من

جانب جماعات (أقلية) دينية مثل اليهود أو البريطانيين غير الملتزمين بأعراف الكنيسة الإنجليزية، الذين أرادوا إظهار ما يتمتعون به من ثراء واكتفاء ذاتي متزايدين. واكتسحت أوروبا في أواسط القرن التاسع عشر حماسة، ذات طابع مدني لا روحي، لِـ«ترميم» واستكمال الكنائس والكاتدرائيات الكبرى الباقية منذ القرون الوسطى. وحتى في الأنظمة الملكية الأفخم، كانت هذه الصروح تعود، بصفة متزايدة، إلى «جمهور العامة» لا إلى البلاط الملكي: وغدت تلك المجموعات تضم المتاحف، كما أن دور الأوبرا فتحت شباك التذاكر للناس. بل إنها هي التي أصبحت رموزاً للمجد والثقافة. وغدت قاعات المدن البالغة الاتساع التي تنافس مؤسسو المدن على بنائها أوسع بكثير مما تتطلبه احتياجات الإدارة البلدية المتواضعة. لقد رفض رجال الأعمال العنيدون في ليدز بإصرار أي حسابات نفعية في ما يتولون بناءه، فماذا لو دُفعت بضعة آلاف إضافية للتشديد على أن أهل ليدز «حرصوا، في غمرة البحث عن المكاسب التجارية. على تنمية الإحساس بالجمال وتذوق الفنون الجميلة»؟ (وكانت الكلفة، في الواقع، 122.000 جنيه؛ أي نحو ثلاثة أضعاف التقدير الأصلي، الذي يعادل أكثر قليلاً من واحد في المئة من المجموع «الإجمالي» لضريبة الدخل للمملكة المتحدة «بأكملها» عند الافتتاح عام 1858)[7].

ويمكن للمثال التالي أن يوضح الخصائص العامة لمثل هذه المباني. لقد ردمت مدينة فيينا تحصيناتها القديمة في خمسينيات القرن، وملأت الحيز الفارغ في العقود اللاحقة بشارع رئيسي دائري فخم صنعت على جانبيه مبانٍ عامة. وما هي هذه المباني؟ كان أحدها مخصصاً للتجارة (سوق الأوراق المالية)، وآخر للدين (Vortivkirche)، وثلاثة للتعليم العالي، وثلاثة للسلطات المدنية والشؤون العامة (قاعة البلدية، وقصر

(7) Asa Briggs, *Victorian Cities* (London: Odhams Books, [1963]), pp. 164, and 183.

العدل، والبرلمان)، وثمانية على الأقل للآداب: مسارح، ومتاحف، ومعاهد أكاديمية . . . إلخ.

كانت مطالب البورجوازيين متواضعة، على الصعيد الفردي، غير أنها كانت أكثر من ذلك بكثير على الصعيد الجماعي. وربما لم تكن رعايتهم الفردية للآداب والفنون آنذاك على القدر نفسه من الأهمية مثل الجيل الأخير منهم قبل عام 1914، عندما رفع أصحاب الملايين في الولايات المتحدة أسعار بعض الأعمال الفنية إلى مستويات غير مسبوقة حتى ذلك الحين وفي ما بعد. (وحتى عند نهاية فترتنا هذه، كان البارونات اللصوص منشغلين بالسرقة إلى حد لم يتح لهم الفرصة للاهتمام بالفنون واستخدام الأموال التي جنوها من أعمال اللصوصية). ومع ذلك، كان من الواضح، ومنذ عام 1860، أنه كانت هناك أموال وفيرة. ولم تبرز في الخمسينيات إلا قطعة واحدة من أثاث القرن الثامن عشر في فرنسا (وهي الرمز العالمي الذي يدل على علو المكانة والثراء الفاحش في إعداد الزينات الداخلية)، وبيع بأكثر من ألف جنيه في المزادات، وبثمانية آلاف في الستينيات، وأربعة عشر ألفاً في السبعينيات. ومن جملتها واحدة بيعت بالفعل بمبلغ 3.000 جنيه؛ وكانت إحدى أواني الزينة هذه، وهي زهرية من طراز سيفر (وهي من رموز المكانة المماثلة) قد بيعت بألف جنيه أو أكثر ثلاث مرات في الخمسينيات، وسبع مرات في الستينيات، وإحدى عشرة مرة في سبعينيات القرن[8]. وكانت حفنة من التجار ـ الأمراء المتنافسين كافية لإثراء حفنة من الفنانين والمتاجرين بالأعمال الفنية، غير أنه كان بوسع جمهور عام مقتدر مالياً، وإن كان محدود العدد، أن يحافظ على مستوى جيد من الإنتاج الفني. ونجد برهاناً على ذلك في المسرح، وفي حفلات الموسيقى الكلاسيكية إلى حد ما، لأن كلا الفنَّيْن ازدهر على أساس هذه الأعداد القليلة. (وقد اعتمدت الأوبرا والبالية الكلاسيكية آنذاك، مثلما

(8) Reitlinger, Ibid.

تعتمد الآن، على دعم تقدمه الحكومة أو الأغنياء الساعون إلى تعزيز مكانتهم الاجتماعية ممّن لم يكن يفوتهم أن مساهماتهم تلك ستقربهم من راقصات البالية والمغنيات الجميلات المشاركات في تلك الأنشطة). كما ازدهر المسرح، على الأقل من الناحية المالية. كذلك كان شأن ناشري الكتب الأنيقة المكلفة في أسواق محدودة، وذلك ما يتجلى في توزيع صحيفة **التايمز** اللندنية التي كانت توزع نحو 50,000 و60,000 في الخمسينيات والستينيات، بل تصل إلى 100,000 في مناسبات خاصة قليلة. وكيف لنا أن نفسر أن كتاب ليفنغستون (Livingstone) **أسفار** (*Travels*) (1857) قد بيعت منه 30,000 نسخة من طبعةٍ تجريبية في غضون ست سنوات[9]. وعلى أي حال، فإن الاحتياجات التجارية والمنزلية للبورجوازية جلبت الثراء للعديد من المهندسين المعماريين الذين بنوا لها أو أعادوا البناء في ساحات واسعة من المدن.

كان وجه الجِدّة في السوق البورجوازية في تلك الأيام أنها واسعة ومطردة الازدهار. ومن ناحية أخرى، أنتج منتصف القرن التاسع عشر ظاهرة ثورية حقاً: ذلك أنه غدا من الممكن، بفضل التقانة والعلوم، إنتاج أنواع من العمل الإبداعي بصورة فنية وقليلة الكلفة، وعلى نطاق غير معهود من قبل. واستطاع واحد فقط من تلك المبتكرات أن يدخل ساحة المنافسة بالفعل مع الإبداعات الفنية نفسها، ألا وهو التصوير الفوتوغرافي، الذي بلغ مرحلة النضج في خمسينيات القرن. وكان لذلك، كما سنرى، آثار مباشرة وعميقة في الرسم. أما التطورات الأخرى، فقد أتاحت الفرصة لوضع طبعات متوسطة الجودة من المنتجات الفردية في متناول الجمهور العام: فقد أسهم تقدمُ خدمات السكة الحديد في المقام الأول، في نشر الإبداعات الكتابية، التي زادت

(9) Richard Daniel Altick, *The English Common Reader; a Social History of the Mass Reading Public, 1800-1900*, Phoenix Books (Chicago; London: University of Chicago Press, 1963), pp. 355, and 388.

أضعافاً مضاعفة جراء طباعة الكتب ذات الأغلفة الورقية. (وكانت الكتب المسلسلة تدعى، في العادة، مكتبات «السكة الحديد» أو «المسافرين»). كما يسّر الحفر على الفولاذ الذي أصبح ممكناً بفعل عملية الطباعة الكهربائية الجديدة (1845)، استنساخ الصور بكميات ضخمة من دون أن تفقد تفصيلاتها وملامحها الدقيقة: ورافق ذلك تطور الصحافة، والأدب، والتعليم الذاتي على مراحل، وما إلى ذلك[10].

وكثيراً ما تُقَلَّل الأهمية الاقتصادية لهذه السوق الجماعية المبكرة. لقد كانت مداخيل مشاهير الرسامين مرتفعة حتى بالمقاييس الحديثة، فكان دخل جون إيفرت ميلايز (J. E. Millais) يتراوح في السنة بين 20 ـ 25 ألف جنيه إسترليني في أواسط العهد الفيكتوري (1868 ـ 1874). وكان يحفر رسومه بمعدل جنيهين للمنقوشة في إطار ثمنه خمسة شلنات ـ وهي الصنعة التي أطلقها غامبارت (Gambart) وفلاتو (Flatou) ومقاولون آخرون. وبيعت لوحة فريث (Frith) «محطة القطار» (1860) بمبلغ 4500 جنيه من نسبة حقوق الدعم هذه، إضافة إلى 750 جنيهاً لقاء حقوق العرض[11]. وجلب الوسطاء التجاريون الثراء للمدموازيل روزا بونور (Rosa Bonheur) (1822 ـ 1899) بعد أن أخذوها إلى مرتفعات اسكوتلندا العالية وأقنعوها بإضافة الصخور المتحدرة والأيّل إلى الخيول والأغنام التي برع في رسمها إدوين لاندسير (E. Landseer) في لوحاته، فأقبل على اقتنائها البريطانيون من عشاق الحيوانات. وبالمثل، لفت هؤلاء الوسطاء انتباه الرسام لورنس ألما ـ تاديما (L. Alma-Tadema) (1836 ـ 1912) إلى روما القديمة بتاريخها الحافل بالعري والعربدة، ما حقق النفع المشترك للطرفين. وفي وقت مبكر عام 1853، قام إ. بولور ـ ليتون (E. Bulwer-Lytton) (1803 ـ

---

(10) صحيح أن هذه التطورات قد تم ارتيادها منذ الثلاثينيات والأربعينيات، غير أن ذلك لم يقلل من أهمية انتشارها في الخمسينيات.

(11) Reitlinger, Ibid.

1873)، الذي لم يغفل النواحي الاقتصادية في كتاباته، ببيع حقوق نشر الروايات التي كتبها بغلاف ورقي لمدة عشر سنوات إلى مكتبة السكة الحديد التابعة لدار روتلِدْج بمبلغ 20,000 جنيه، مع دفع 5,000 منها مقدماً[12]. وباستثناء رواية هارييت بيتشر ستو (Harriet Beecher Stowe) **كوخ العم توم** (*Uncle Tom's Cabin*)، التي ربما باعت في سنة واحدة نحو 1,5 مليون نسخة في الإمبراطورية البريطانية في أربعين طبعة، أغلبها مُقَرصَن، فإن السوق الجماعية للآداب والفنون لا يمكن مقارنتها بما هي عليه في أيامنا هذه. غير أنها كانت موجودة مع ذلك، وذات أهمية لا يمكن إنكارها.

ولا بد من الإشارة إلى ملاحظتين حول هذا الأمر. **الأولى** تتصل بالانحسار الواضح للحرف التقليدية التي أثر فيها، في الأساس، التقدم في إعادة الإنتاج الآلية. وأفضى ذلك، في غضون جيل واحد، وبخاصة في بريطانيا، وهي مهد التصنيع، إلى ولادة رد الفعل السياسي - الأيديولوجي، ممثلاً في حركة الفنون والحرف (الاشتراكية في أغلبها). ويمكن أن نتتبع جذور هذه الحركة المعادية للتصنيع، والمناوئة، ضمناً، للرأسمالية مروراً بشركة التصميم التي أقامها وليام موريس (William Morris) عام 1860، وصولاً إلى رسامي المرحلة قبل - الرفائيلية في خمسينيات القرن. أما الملاحظة **الثانية** فتتعلق بطبيعة الجمهور الذي ترك آثاره في الرسامين. إنه، ببساطة، جمهور من الزبائن الأرستقراطيين أو البورجوازيين الذين حددوا مضمون حي وست إند في لندن، أو شارع المسارح في باريس. كما كان، على الأقل، جمهرة من عامة الناس من الشريحة الدنيا المتواضعة من الطبقة الوسطى وآخرين، بمن فيهم العمال المهرة الذين كانوا يطمحون إلى المكانة المحترمة والثقافة. ولقد كانت

(12) Frank Arthur Mumby, *The House of Routledge, 1834-1934, with a History of Kegan Paul, Trench, Trübner and Other Associated Firms* (London: G. Routledge & Sons, Ltd., 1934).

فنون الربع الثالث من القرن التاسع عشر «شعبية» بكل ما تحمله الكلمة من معانٍ، وذلك ما عرفه مسؤولو الدعاية الجُدد في الثمانينيات عندما اشتروا ووضعوا على ملصقاتهم الإعلانية عدداً من اللوحات المكلفة التي تدعو للأسف.

ازدهرت الفنون، وأينعت معها المواهب الإبداعية التي استهوت الجمهور - وهي لم تكن سيئة في العادة بأي حال من الأحوال. ومن باب الخرافة أن يقال إن المتزمتين الأجلاف تركوا أصحاب المواهب البارزة في تلك الفترة ليتضوروا جوعاً ويعيشوا حياة بوهيمية. وبوسعنا، بالتأكيد، أن نلمح بعض الذين قاوموا أو حاولوا، لأسباب متنوعة، أن يصدموا جمهرة البورجوازيين، أو أنهم، ببساطة، أخفقوا في اجتذاب المشترين، وفي فرنسا على الأغلب. (مثل غوستاف فلوبير (G. Flaubert) [1821 ـ 1880]، وأوائل الرمزيين، والانطباعيين)، وفي أمكنة أخرى. غير أن الرجال والنساء الذين صمدوا لتجربة القرن اللاحق هم ممن كانت سمعتهم آنذاك تتراوح بين الاحترام البالغ والتأليه. وتراوح دخلهم المهني بين دخل الطبقة الوسطى الميسورة إلى المستوى الخيالي. لقد عاشت عائلة تولستوي في بحبوحة نسبية على الريع المتأتي من حفنة من الروايات التي ألفها، بعد أن منح الرجل العظيم إقطاعاته [للرقيق وعمال السخرة لديه]. أما تشارلز ديكنز، الذي نعرف أوضاعه المالية كل المعرفة، فقد وصل دخله، بعد عام 1848، إلى 10,000 جنيه في السنة، بينما ارتفع دخله في الستينيات ليصل إلى 33,000 جنيه عام 1868 (وقد أتى أغلبه من جولات المحاضرات الأمريكية الوفيرة الربح)[13]. وربما كان مبلغ 150,000 دولار دخلاً محترماً في أيامنا هذه، غير أنه كان سيضع المرء في عداد كبار الأثرياء

(13) M. V. Stokes, «Charles Dickens: A Customer of Coutts & Co,» *The Dickensian*, vol. 68 (1972), pp. 17-30.

أنا مدين بهذه الإحالة لمايكل سليتر (Michael Slater).

عام 1870. ويمكن القول، على العموم، إن فنان تلك المرحلة قد تصالح مع السوق، بل إن من لم يجنوا الثروة آنذاك كانوا يتمتعون بالاحترام. فلننظر إلى ديكنز، و. ثاكري (W. Thackeray) (1811 ـ 1863)، جـــــــــورج إليوت (George Eliot) (1819 ـ 1880)، تينيسون (Tennyson) (1809 ـ 1892)، فيكتور هوغو(Victor Hugo) (1802 ـ 1885). إميل زولا (1840 ـ 1902)، تولستوي، دستويفسكي، تورغنيف (Turgenev)، فاغنر (Wagner)، فيردي، برامز، لِيسْت (List) (1811 ـ 1886)، دفوراك، تشايكوفسكي، مارك توين، هنريك إبسن: فهم رجال حظوا في حياتهم بالنجاح والتقدير.

III

الأهم من ذلك، أن الأدباء أو الفنانين من الجنسين كانوا (في تلك الفترة أكثر مما كانوا في النصف الأول من القرن التاسع عشر) لا يتمتعون بإمكانية الرفاه المادي فحسب، بل حظوا بمكانة خاصة. ذلك أن الفنان في المجتمع الملكي والأرستقراطي لم يكن أكثر من مزيِّن أو زينة في البلاط والقصر، وقطعة غالية من الأملاك، أو أنه كان، في أسوأ الحالات واحداً من المورّدين المرتفعي الكلفة، وربما المزاجيين، للخدمات والتحف المرفهة، شأنهم شأن مُسرِّحي الشعر ومصممي الأزياء الذين تتطلبهم حياة البحبوحة. وبالنسبة للمجتمع البورجوازي، كان يمثل «النبوغ»، وهو صورة عن المشروع الفردي لا ترتبط بالمال؛ إنه «المثال» الذي يجسّد النجاح المادي ويتوّجه، وبصورة عامة، القيم الروحية في الحياة.

لا يمكن فهم الفنون في النصف الثاني من القرن التاسع عشر إلا باعتبارها مطلباً اجتماعياً يستلزم من الفنان أن يكون مورّداً متعدد الأغراض للمضامين الروحية لأكثر المدنيات ماديّةً في التاريخ. ويمكن القول إن الفنانين حلّوا مكان الدين التقليدي في أوساط المتعلمين المتحررين، أي الطبقات الوسطى الناجحة، معزَّزاً، بالطبع، بمناظر «الطبيعة» الساحرة. وتجلى ذلك، في أبرز مظاهره، بين الشعوب الناطقة

بالألمانية التي كانت ترى أن الثقافة حكر خاص لها، فيما استأثر البريطانيون بالنجاح الاقتصادي، والفرنسيون بالسياسي. وهنا أصبحت دور الأوبرا والمسارح أشبه بالمعابد يتردد عليها الرجال والنساء للتعبد الشغوف، لا لمجرد «الاستمتاع» بالذخائر الفنية الكلاسيكية، بل لتهيئة الأطفال الذي دُرِّسوا، حتى في المرحلة الابتدائية، أعمالاً مثل مسرحية شيللر (Schiller) **فيلهلم تِلْ** (*Wilhelm Tell*) بل لإعدادهم في المستقبل لاستيعاب الخفايا التي لا يقبلها إلا البالغون في مسرحية غوته (Goethe) **فاوست** (*Faust*). وقد فهم العبقري البغيض ريتشارد فاغنر هذه الوظيفة فهماً سليماً عندما ابتنى كاتدرائيته في بايروث (1872 ـ 1876)، حيث كان الحجاج المخلصون يهرعون ليستمعوا بخشوع متهدج، لساعات طويلة ولأيام عدة، مع الامتناع التام عن تفاهات التهليل السيئ التوقيت، لروائع المعلم الأكبر الممثلة للوثنية الجرمانية الجديدة. ولم تكن سلامة هذا الفهم مقصورة على تقدير الصلة بين التضحية والجذل الديني، بل تجاوزت ذلك إلى أهمية فهم الدور الذي تتولاه الآداب والفنون بوصفها حاملةً لدين القومية العَلماني الجديد، فمن الذي يستطيع، غير الجيوش، التعبير عن مفهوم الأمة المحيّر، بصورة أفضل مما تعبر عنه رموز الفن البدائي، مثل: الأعلام والأناشيد الوطنية، المعمق المتقن مثل المدارس الموسيقية «الوطنية» التي ارتبطت ارتباطاً وثيقاً بأمم تلك الفترة في مساعيها الرامية إلى اكتساب الوعي الجماعي، والاستقلال، والوحدة، مثلما فعل جوسيبي فردي في حركة الانبعاث (Risorgimenti) الإيطالية، وأنطونين دفوراك وبيدريك سميتانا في التشيك؟

لم يحدث أن رَوَّجت دولةُ عبادة الآداب والفنون إلى هذه الدرجة كما فعلت بلدان أوروبا الوسطى، وتحديداً في أوساط الطبقة الوسطى اليهودية[14] التي اندمجت في ما حولها، أو الجماعات الثقافية الألمانية أو

(14) من المتعذر حصر ما تدين به الفنون، وبخاصة الموسيقى الكلاسيكية، لرعاية هذه الجماعة الصغيرة، الثرية، العميقة التشبع بالثقافة، في أواخر القرن التاسع عشر.

المؤَلْنة في أغلبية المناطق في أوروبا والولايات المتحدة. وكان رأسماليو الجيل الأول، على العموم، من المتزمتين في التمسك بكل ما هو قديم، مع أن زوجاتهم بذلن ما في وسعهن لإبداء الاهتمام بالأشياء الراقية.

وكان الوحيد غير اليهودي من أساطين المال الأمريكيين الذي أولع بالأمور الروحية هو أندرو كارنيغي. وكان هو الوحيد بينهم كذلك من أحرار الفكر المناوئين للسلك الكهنوتي. ولم ينسَ تماماً تقاليد والده النساج المتمرد المثقف. أما خارج ألمانيا، وبالتحديد في النمسا، فقد رغبت قلة من أصحاب البنوك في أن يكون أبناؤهم موسيقيين أو قادة للفرق الموسيقية، ربما لأنه لم يكن يراودهم أمل كبير في أن يصبحوا وزراء أو رؤساء للوزارة. وكانت الاستعاضة عن الدين بالتثقيف الذاتي، وبالمزج بين عبادة الطبيعة والآداب، هي الخصيصة المميزة لشرائح المثقفين من أبناء الطبقة الوسطى، على غرار الإنجليز الذين شكلوا في ما بعد رابطة «البْلوومْزبِري» (Bloomsbury)، وهم رجال ونساء تيسرت أمورهم باستيراثهم موارد خاصة قلما ألزمتهم بالانشغال بالأعمال التجارية.

على الرغم من ذلك كله، فإن الفنون كانت موضع احترام وتقدير خاصين، حتى في المجتمعات البورجوازية المتمسكة بالقديم، ربما باستثناء الولايات المتحدة، فقد برزت الرموز الجماعية الكبرى، وهي المسرح والأوبرا، في مراكز العواصم ـ متركزةً في بؤرة تخطيط المدن كما في باريس (1860)، وفيينا (1869)، أو ماثلةً للعيان مثل كاتدرائيات درسدن (1869)، أو أنصاباً عملاقة على الدوام كما في برشلونة (اعتباراً من عام 1862)، أو باليرمو (اعتباراً من عام 1875). وأقيمت المتاحف والمعارض الفنية، أو وُسِّعت، وأعيدت هيكلتها أو عُدّل بنيانها، كما حدث في المكتبات الوطنية؛ إذ أعيد بناء قاعة المطالعة في المتحف البريطاني بين الأعوام 1852 و1875، والمكتبة الوطنية في باريس بين الأعوام 1852 و1875. وبصورة أعمّ، ازدادت أعداد

المكتبات الكبيرة، (خلافاً للجامعات)، أضعافاً مضاعفة في أوروبا، ولكن بشكل متواضع في الولايات المتحدة المتشبثة بالقديم. وعام 1848، كانت هناك أربعمئة مكتبة في أوروبا، ضمت نحو 17 مليون مجلد وكتاب؛ وبحلول عام 1880، تضاعف عدد المكتبات اثنتي عشرة مرة، والكتب نحو مرتين. وازدادت إلى ما يزيد على عشرة أضعاف أعداد المكتبات في النمسا، وروسيا، وإيطاليا، وبلجيكا، وكذلك كان الحال في بريطانيا، وازدادت نحو أربعة أضعاف حتى في إسبانيا، والبرتغال، مع أن الزيادة في الولايات المتحدة كانت أقل من ثلاثة أضعاف. (ومن جهة أخرى، ضاعفت الولايات المتحدة عدد ما فيها من الكتب أربع مرات، ولم تتفوق عليها في هذه النسبة غير سويسرا)[15].

لقد امتلأت رفوف المنازل البورجوازية بالكتب الأنيقة التغليف للمؤلفات الكلاسيكية الوطنية والعالمية. وتضاعفت أعداد المترددين على المعارض والمتاحف: فالمعرض الذي أقامته الأكاديمية الملكية عام 1848 اجتذب نحو 90,000 زائر، وارتفع العدد إلى ما يقرب من 400,000 في نهاية السبعينيات. وفي ذلك الوقت، أصبح «العرض الخاص» للوحات الذي كانت تقيمه الأكاديمية مناسبة وفرصة سانحة للطبقات العليا ورمزاً لعلو المكانة الاجتماعية، شأنه، في سياق المجتمعات المخملية، شأن حضور «العرض الأول» ليلة افتتاح الموسم المسرحي. وذلك ما بدأت لندن تنافس فيه باريس بعد عام 1870؛ وترك ذلك، في كلتا الحالتين، آثاراً كارثية في الفنون. ولم يكن بوسع السياح البورجوازيين أن

(15) Michael G. Mulhall, *The Dictionary of Statistics* (London; New York: G. Routledge and Sons, 1892), 14 Article: Libraries.

وتجدر الإشارة هنا إلى الحركة المطالبة بتعزيز المكتبات العامة في بريطانيا. وقد أقامت تسع عشرة مدينة مثل هذه المكتبات المجانية في خمسينات القرن التاسع عشر، وإحدى عشرة في الستينيات، وإحدى وخمسين في السبعينيات. انظر: William Arthur Munford, *Edward Edwards, 1812-1886; Portrait of a Librarian* (London: Library Association, 1963).

يتجنبوا رحلة الحج الطويلة المضنية إلى هياكل الفن وهم يذرعون الممرات والقاعات في اللور، وأوفيزي، وسان ماركو. وغدا الفنانون أنفسهم، بمن فيهم حتى الممثلون الرديئون في المسرحيات والأوبرات، محترمين ومدعاة للتكريم. ومرشحين مؤهلين ليُسبغ عليهم لقب فارس أو نبيل[16]. ولم يكن هؤلاء السياح مطالبين بالالتزام بأعراف البورجوازيين المعتادة طالما أن ما كانوا يرتدونه من ربطات العنق، والقبعات المخملية والعباءات مصنوعاً من أقمشة باهظة الثمن. (وفي هذا السياق، أظهر ريتشارد فاغنر إحساساً صائباً بما يريده الجمهور البورجوازي، حتى إن فضائحه أصبحت جزءاً لا يتجزأ من صورته الإبداعية). وكان غلادستون في أواخر الستينيات أول رئيس للوزراء يدعو الشخصيات اللامعة في الحياة الفنية والثقافية إلى ما كان يقيمه من حفلات العشاء الرسمية.

ترى، هل كان الجمهور البورجوازي يستمتع فعلاً بالفنون التي رعاها ودللها بهذه الدرجة من البذخ المتزايد؟ إن هذا السؤال ينطوي على مفارقة تاريخية. صحيح أنه كانت هناك أنواع من المبتدَعات الفنية التي كانت على صلة مباشرة بالجمهور الذي توخت إقناعه. ومن هذه الأنواع «الموسيقى الخفيفة» التي ربما شهدت، بين كل الفنون، عصرها الذهبي في هذه الفترة. وظهر مصطلح «الأوبريت» للمرة الأولى عام 1856. وفي العقد اللاحق بين عامي 1865 و1875، بلغت الإنجازات ذروتها في هذا الميدان على يد جاك أوفنباخ (Jacques Offenbach) (1819 ـ 1880)، ويوهان شتراوس الأصغر (Johann Strauss jr) (1825

---

(16) كثيراً ما أضفى لقب الفارس على الرسامين البريطانيين، غير أن هنري إرفينغ، الذي رسخت سمعته في تلك الفترة، كان أول ممثل يحظى بهذه المرتبة، وألفرِد تينيسون أول شاعر ـ أو فنان من أي مجال ـ ينال لقب «نبيل»، غير أن إسباغ ألقاب الشرف تلك كان نادراً في تلك الفترة، على الرغم من النفوذ الثقافي الذي كان يمارسه الأمير القرين (الألماني) ألبرت، زوج الملكة فيكتوريا.

ـ 1899)، ويعود «فالس الدانوب الأزرق» إلى عام 1874 ـ و«فأر الحقل» (Die Fledermouse) إلى عام 1874، وكذلك على يد سوبيه (Suppé) (1820 ـ 1895) في أوبريت «الخيالة الخفيفة»، والنجاح المبكر الذي أحرزه غيلبرت (Gilbert) (1836 ـ 1911). وسوليفان (Sullivan) (1842 ـ 1900). وإلى أن ألقى الفن الراقي بظلاله الثقيلة على الأوبرا، ظلت تحتفظ بعلاقة وثيقة وحميمة مع جمهور يرمي إلى الاستمتاع الصريح الصافي بأعمال مثل «المهرّج» (Rigoletto)، و«الفارس الفنان» (Il Trovadore)، و«المنحرفة» (La Traviata)، وهي أعمال لم تعرض إلا بُعَيْد عام 1848). وضاعف انتشار المسرح التجاري من الإقبال على الدراما المسرحية المحكمة التركيب والمهازل المعقدة التي لم يبق من آثارها على مدى الأيام إلا النوع الأخير (لابيش (Labich) [1815 ـ 1888]، ميلهاك (Meilhac) [1831 ـ 1897] وهاليفي (Halévy) [1834ـ 1908]). غير أن هذه العروض الترفيهية لم تُقبل إلا بوصفها متدنيةً ثقافياً، شأنها شأن عروض الفتيات الراقصات المغنيات التي انطلقت من باريس في خمسينيات القرن التاسع عشر، وشاركتها الكثير من الخصائص[17]. ولم يكن الفن الراقي الحقيقي يهدف إلى مجرد الإمتاع، أو إلى مجرد «تذوق جمالي» معزول عن سواه.

ولم يكن «الفن للفن» آنذاك غير ظاهرة ارتبطت بقلة قليلة من أواخر الفنانين الرومانطيقيين، وردّ فعل ضد الالتزام الاجتماعي والسياسي العارم خلال عصر الثورات الذي زادت من حدته مرارة الخيبات سنة 1848، التي ألهبت الروح الإبداعية لدى الكثير من الفنانين. ولم تصبح النزعة الجمالية تقليعة بورجوازية إلا في أواخر

---

(17) كانت عروض الفولي بيرجير (Folies Bergère) تحتل المرتبة الثانية بعد الأوبرا، وتتقدم بمراحل عديدة عن الكوميديا الفرنسية. انظر: Theodore Zeldin, *France, 1848-1945*, Oxford History of Modern Europe, 2 vols. (Oxford: Clarendon Press, 1973-1977), vol. 1, p. 310.

السبعينيات والثمانينيات من القرن التاسع عشر. وكان الفنانون المبدعون حكماء، وأنبياء، ومعلمين، ومرشدين أخلاقيين، ومنبعاً لـ «الحقيقة». وكان الجهد هو الثمن الذي كافأتهم به بورجوازية مستعدة للاعتقاد بأن كل ما ينطوي على قيمة ما (مالية أو روحية) إنما يتطلب الإمساك عن المتعة. كانت الفنون جزءاً لا يتجزأ من هذا الجهد الإنساني، ورعايتها وتهذيبها تتويجاً لهذا الجهد.

IV

ولكن، ما هي طبيعة تلك «الحقيقة»؟ علينا هنا أن نفصل فن العمارة (Architecture) عن الفنون الأخرى، لأنه يفتقر إلى الموضوع الذي انتظمها ومنحها ما يشبه الوحدة. الواقع أن السمة الرئيسة التي تميز المعمار هو غياب «الأساليب» الجمالية ـ الأيديولوجية ـ الأخلاقية التي كانت تترك بصماتها على الحقب السابقة. لقد كان الاصطفاء هو القاعدة. وكما لاحظ بييترو سلفاتيكو (Pietro Selvatico) في وقت مبكر من خمسينيات القرن في كتابه عن تاريخ فن التصميم (*Storia dell'Arte del Disegno*)، لم يكن ثمة أسلوب واحد أو جمال واحد. وكان كل أسلوب يتعرض للتعديل ليناسب مقتضى الحال. ومن ثم كانت بين البنايات التي امتدت على طول الشارع الدائري في فيينا كنيسة على الطراز القوطي بالطبع، والبرلمان على الطراز الإغريقي، وقاعة البلدية تمزج بين طراز عصر النهضة والأسلوب القوطي، وسوق الأوراق المالية (مثل أكثر نظيراتها في تلك الفترة) كلاسيكية متواضعة الزخرف، والمتاحف والجامعات بطراز صدر عصر النهضة، والمسرح ودار الأوبرا بما يمكن وصفه بأسلوب الإمبراطورية الثانية الأوبري الذي تسيطر عليه عناصر منتقاة من طراز عصر النهضة.

لقد وجدت متطلبات الفخامة والأبهة التعبير الأفصح عن نفسها في أساليب صدر عصر النهضة والطراز القوطي (أما الباروك والروكوكو، فكان ينظر إليها بازدراء حتى القرن العشرين). وكان طراز

عصر النهضة، الأمراء، عصر التجار، هو الأسلوب الأنسب لمن كانوا يعتبرون أنفسهم خلفاء لأولئك، إلا أن أساليب أخرى من أصداء الماضي انتشرت كذلك. وهكذا، شهدنا غزواً كاسحاً لتاريخ الطُرُز المعمارية كافة عبر القرون من جانب النبلاء ملاّكي الأرض الذين صاروا من أصحاب الملايين الرأسماليين في سيليسيا جراء اكتشاف الفحم في إقطاعاتهم، وكذلك فعل زملاؤهم الأكثر بورجوازيةً. إن قصر المصرفي فون آيخبورن (Von Eichborn) (1857) يظل بروسيّاً وعلى الطراز الكلاسيكي الجديد الذي كان يؤثره البورجوازيون الأثرياء في نهاية تلك الفترة. أما الطراز القوطي، الذي يوحي بعظمة المدن القروسطية وشهرة الفرسان آنذاك، فقد أغرى الأكثر أرستقراطيةً وبحبوحة، مثل كوبتز (Koppitz) (1859) وميخوفيتز (Miechowitz) (1858). كما برزت نماذج جديدة أيام نابليون الثالث في باريس، التي ترك فيها ملوك المال السيليسيون آثارهم، مثل الأمير هنكل فون دونرزمارك الذي تزوج واحدة من الغانيات الباريسيات هي لابايفا. واستوحى هذه النماذج أميران آخران من عائلة دونرزمارك، هما هوهنلوهي (Hohenlohe) وبْلِسْ (Pless). وقدمت طُرز النهضة التي حاكاها الإيطاليون، والهولنديون، والألمان الشماليون، نماذج جديدة على مستويات أدنى من العظمة، إما باختيار أسلوب واحد أو المزج بين أساليب عدة[18]. من هنا، فضّل اليهود الأثرياء في تلك الفترة الطراز المراكشي - الإسلامي في بناء معابدهم المتزايدة، تأكيداً على أرستقراطية شرقية لا تقف موقف المنافسة من الغربية[19]. (وقد ترددت أصداء ذلك في روايات دزرائيلي (Disraeli))، وكادت تكون المثال الوحيد على

---

(18) Günther Grundmann, «Schlösser und Villen des 19. Jahrhunderts von Unternehmen in Schlesien,» *Tradition*, vol. 10, no. 4 (August 1965), pp. 149-162.

(19) Rachel Bernstein Wischnitzer, *The Architecture of the European synagogue* (Philadelphia: Jewish Publication Society of America, 1964), Chapter X, Especially pp. 196, and 202-206.

الاستخدام المتعمد لنماذج معمارية غير غربية في فنون البورجوازية الغربية، إلى أن برز إدراج العناصر التصويرية اليابانية في أواخر السبعينيات وفي الثمانينيات.

جُماع القول إن المعمار في تلك الفترة لم يعبر عن «حقيقة» ما، بل عبّر عن ثقة وثقة بالنفس أحس بها المجتمع الذي أقام هذا العمران. إن هذه الأمثلة على عمارة تلك الفترة، بما فيها من ضخامة مهيبة، إنما تدل على إيمان البورجوازية العميق الراسخ بمصيرها. لقد كانت هي لغة الرموز الاجتماعية. من هنا، كان ثمة تسترٌ متعمد على عناصر الجدة والطرافة فيها، المتمثلة بالتقانة والهندسة الجبارة التي لا تظهر علنا إلا في ما ندر من المناسبات الرامية إلى التدليل على ما سيؤول إليه التقدم التقني نفسه. وتجلى ذلك في القصر البلوري (1851)، و«روتوندا» التي أقيم عليها معرض فيينا (1873)، وبعدها برج إيفل (1889). وفي ما عدا ذلك، أخفيت، بصورة مطردة، حتى النزعة الوظيفية لمباني النفع العام، مثل محطات السكة الحديد، وصروح أخرى اجتمعت فيها عناصر منتقاة على نحو جنوني، مثل برج لندن (1862) ومبنى سانت بنكراس القوطي الفخم في لندن (1868)، وسودباهوف النهضوي الطراز في فيينا (1869 ـ 1873). (وتجدر الإشارة إلى أن مواقع مهمة عديدة أخرى قاومت، لحسن الحظ، الذوق المبهرج لتلك الفترة). وتبدت أجلى مظاهر العظمة على الجسور، بهندستها الجميلة، التي تبدو الآن ثقيلة الوطأة نوعاً ما، ربما لتوفر الحديد القليل الكلفة آنذاك ـ مع أن تلك الظاهرة الغريبة المتمثلة في الجسور المعلقة القوطية (مثل جسر البرج في لندن) كانت تلوح في الأفق. ولكنه كان، من الوجهة الفنية، العنصر الجديد «الحديث» الأكثر جرأة وأصالة واستتاراً خلف الواجهات النهضوية الفخمة، فقد بدأت زينات الشقق السكنية خلال فترة الإمبراطورية الثانية في باريس بإخفاء الاختراع المتقدم الباهر: المصعد الذي يُقلُّ الناس إلى أعلى وأسفل في المباني والمنشآت. وربما كان ثمة مبرر للجسر المقوس المعلق العملاق، على ما فيه من تبّجح واستعلاء،

وهو الابتكار التقني الذي لم يستطع المهندسون إلا أن يستخدموه، حتى في المباني العامة ذات الواجهات «الفنية» ـ مثل: قاعات الأسواق، وقاعات المطالعة في المكتبات، وأروقة التسوق المقنطرة الفسيحة الأرجاء مثل معرض فيكتور إيمانويل في ميلانو. وفي ما عدا ذلك، لم يمر عبر التاريخ عصر كهذا في التستر المطرد على ما فيه من مواطن الجدارة.

لم يكن للمعمار «حقيقة» خاصة به؛ لأنه لم يكن له معنى يمكن التعبير عنه بالكلمات. أما الفنون الأخرى، فكان لها مثل هذه الحقيقة. وكان أكثر ما يدهش جيل أواسط القرن التاسع عشر، الذي نشأ وتعلم في بيئة نقدية دوغمائية مختلفة كل الاختلاف، الاعتقاد السائد آنذاك بأنه لا أهمية للشكل في الفنون، بل إن الأهمية كل الأهمية للمضمون. ومن الخطأ الاعتقاد بأن ذلك يعني إخضاع الفنون الأخرى كلها للأدب، مع أن من الممكن التعبير عن مضامينها بالكلمات، بدرجات متفاوتة من الجودة. والأدب هو مفتاح الفنون كلها في تلك الفترة. وإذا كانت «كل صورة تحكي قصة»، فذلك ما تفعله الموسيقى إلى درجة مدهشة في أكثر الأحيان. وعلى هذا الأساس، كانت تلك هي الخصائص التي تميز عصر الأوبرا، وموسيقى الباليه، والأوركسترات الرباعية الوصفية[20]، ما رفع من شأن هذه البرامج لدى الجمهور. ومن الأصح القول إن كل واحد من الفنون كان يمكن التعبير عنه عبر فن آخر بحيث يوحد في ما بينها كلها «العمل الفني الكلي المتكامل» (Gesamtkunstwerk) (الذي جعل فاغنر من نفسه ناطقاً باسمه). ومع ذلك، فإن الفن الذي كان من

(20) اتضح، بصورة جلية، الاستلهام المتبادل بين الموسيقى والأدب في أكثر من مجال. فقد ألهم غوته أعمال ليشت، وغونود، وبواتو، وأمبرويز توماس، ناهيك عن بيرليوز؛ واستقى فيردي الإلهام من شيللر، ومندلسون من تشايكوفسكي، وبيرليوز وفيردي من شكسبير. أما فاغنر، الذي ابتكر مسرحياته الشعرية، فقد رأى أن موسيقاه لا يمكن إخضاعها للنص الأدبي، مع أن شعره شبه القروسطي الأجوف لم يكن يعني شيئاً بغير الموسيقى التي غدت في الحفلات الموسيقية كياناً قائماً بذاته بغير الكلمات.

الممكن التعبير عنه بدقة، أي بالكلمات، أو الصور التمثيلية، كان يتمتع بميزة على الفنون الأخرى التي لم تكن على هذه الحال. فقد كان تحويل قصة من القصص إلى أوبرا (كارمن، مثلاً)، أو حتى الصور إلى معزوفة موسيقية (مؤلَّف موسورغسكي المعنون «صور من معرض» [1874])، أسهل بكثير من تحويل مقطوعة موسيقية إلى صورة أو حتى إلى قصيدة غنائية.

ويظل السؤال: «عمَّ يدور الفن؟»، إذاً، سؤالاً مشروعاً وأساسياً لتقييم فنون أواسط القرن التاسع عشر. والإجابة، بشكل عام، هي: «الواقع» و«الحياة». إن «الواقعية» هي المصطلح الذي أخذ يتردد، في كل مناسبة، على ألسنة المراقبين المعاصرين واللاحقين لتلك الفترة في معرض الحديث عن الأدب والفنون البصرية. وما من مصطلح أكثر غموضاً من ذلك. إنها تعني محاولة لوصف، أو تمثيل، أو، في كل الأحوال، إيجاد معادل دقيق للحقائق، والصور، والأفكار، والمشاعر، والأحاسيس، وفي الحالات القصوى، الموضوعة المحورية (Leitmotive) الموسيقية لدى فاغنر، التي يرتبط كل منها بشخص، أو وضع، أو فعل، أو موسيقيا، إعادة خلق النشوة الجنسية (تريستان وآيزولده [1865]). ولكن أي واقع سيعرض في هذا السياق، وأي حياة سوف «يماثلها» هذا الفن؟ إن بورجوازية منتصف القرن وجدت نفسها في مأزق ازداد حدة مع نجاحها، فالصورة التي رسمتها لنفسها، أو أرادت عرضها، لا تمثل الواقع «بأكمله»، لأن ذلك الواقع كان يجسد الفقر، والاستغلال، والقذارة، والنزعة المادية، والعواطف، والطموحات، وهي كلها تمثل تهديداً خطيراً للاستقرار كان يلوح في الأفق، على الرغم من الثقة بالنفس التي أحست بها البورجوازية. وعلى حد تعبير الشعار الذي رفعته جريدة **نيويورك تايمز**، كانت ثمة مسافة بين الأخبار من جهة، و«الأخبار التي تستحق أن تطبع» من جهة أخرى. وفي الاتجاه المعاكس، لم يكن الواقع، في مجتمع تقدمي ديناميّ، أمراً ساكناً. أليست الواقعية هي أن يصار لا إلى تمثيل حاضرٍ غير كامل بالضرورة،

بل تصوّر أوضاع أفضل يطمح الناس إلى بلوغها، بل لقد شرعوا بوضع أسسها؟ إن للفنّ بُعداً مستقبلياً (وقد ادعى فاغنر، كالعادة، أنه هو الذي يمثله). وباختصار، إن الصور الفنية «الواقعية» و«المماثلة للحياة» كانت تنأى، بصورة مطردة، عن الصور المتأنقة المشبعة بالغلوّ العاطفي. لقد كانت النسخة البورجوازية لـِ«الواقعية»، في أحسن حالاتها، مختارات مناسبة اجتماعياً، كما هي في رواية ج ـ ف. ميليت (J - F. Millet) (1814 ـ 1875) **أنجيلوس** (Angelus)، حيث حَوّل المؤلف الفقرَ والعملَ الشاق إلى صفتين مقبولتين لدى الفقراء الأتقياء الطيّعين؛ بل حوّلهما، في أحسن الحالات، إلى دغدغة عاطفية لصورة العائلة.

في الفنون التمثيلية، كانت هناك ثلاثة سُبل للهروب من هذه الورطة .**الأول** هو تصوير الواقع برمته، بما فيه جوانبه المنفّرة أو الخطرة. فتحولت «الواقعية» إلى «الطبعانية» (Naturalism) أو «الحقائقية» (Verismo). وتضمن ذلك، في العادة، نقداً سياسياً واعياً للمجتمع البورجوازي، مثلما فعل كوربيه في لوحاته، وزولا وفلوبير في الأدب، مع أن الجمهور والنقاد شعروا بالسخط على أعمال كانت تفتقر إلى هذا البُعد النقدي المتعمَّد، وكأنها أعمال سياسية، مثل رائعة جورج بيزيه (Bizet) (1838 ـ 1875) وهي أوبرا «كارمن» (1875) المحزنة. وكان البديل هو تحاشي الواقع الراهن كلياً، إما بقطع الصلات بين الفن والحياة، وبخاصة الحياة المعاصرة (الفن للفن)، أو بتعمد اختيار التصور الرؤيويّ، كما يتبدى في «الزورق السكران» (1871) للشاعر الثوري اليافع أرتور رامبو (Rimbaud)، أو في سياق مختلف، في الهزليات المراوغة للكتاب الفكاهيين مثل إدوارد لير (Edward Lear) (1812 ـ 1888)، ولويس كارول (Lewis Carroll) (1832 ـ 1898) في بريطانيا، وفيلهلم بوش (Wilhelm Busch) (1832 ـ 1908) في ألمانيا. وفي الحالات التي لم ينسحب فيها الفنان من عالم التخيل المتعمد (أو يدخل فيه)، كان يفترض في الصور الأساسية للعمل الفني أن تكون «مماثلة للحياة». وفي هذه الناحية واجهت الصور المنظورة صدمة

عميقة مؤلمة، هي منافسة التصوير الفوتوغرافي للتقانة. إن التصوير الفوتوغرافي، الذي اكتشف في العشرينيات من ذلك القرن، وانتشر في فرنسا اعتباراً من الثلاثينيات، أصبح وسيلة عملية لإعادة الإنتاج الجماعي للواقع خلال تلك الفترة، وطوِّر، في الأساس، بسرعة، إلى عمل تجاري في فرنسا في الخمسينيات في فرنسا على يد واحد من الفنانين البوهيميين غير الناجحين مثل نادار (Nadar) (1820 ـ 1911)، ممن حققوا من وراء ذلك نجاحاً فنياً ومالياً، وكذلك فعلت فئات أخرى من صغار المقاولين الذين سلكوا السبيل الممهدة إلى هذه التجارة القليلة الكلفة. وكانت الطلبات المتعطشة للبورجوازية، وبخاصة البورجوازية الصغيرة، على الصور الرخيصة، هي الأساس لنجاح هذه التجارة (وقد ظل التصوير الفوتوغرافي الإنجليزي لمدة أطول في أيدي السيدات والسادة الذينمارسوه لأغراض تجريبية أو على سبيل الهواية). وكان من الواضح على الفور أن هذا النوع من التصوير قد أنهى الاحتكار الذيمارسه الفنانون التمثيليون. ولاحظ أحد النقاد المحافظين في وقت مبكر عام 1850 أنه سيزعزع، لا محالة، أسس الفن بفروعه كافة، مثل الطباعة المنقوشة، والنقش الحجري، ورسوم الحياة اليومية، واللوحات الشخصية»[21]. فكيف لهذه الأنواع كلها أن تنافس إعادة إنتاج الطبيعة تماماً (عدا الألوان) بأسلوب يترجم «الحقائق» نفسها مباشرة على هيئة صورة، وبشكل علمي، إذا جاز التعبير؟ هل حلت الفوتوغرافيا، إذاً، مكان الفن؟ إن الكلاسيكيين الجُدد والرومانطيقيين (الذين غدوا الآن رجعيين) مالوا إلى الاعتقاد بأن ذلك هو ما حدث فعلاً، مع أنه غير مرغوب. واعتبره الرسام ج. أ. د. أنْغرْ (Ingres) (1780 ـ 1867) غزواً معيباً لعالم الفن من جانب التقدم الصناعي. كما أن شارل بودْلير (.Ch

(21) Gisèle Freund, *Photographie und bürgerliche Gesellschaft; eine kunstsoziologische Studie*, Passagen, Vorwort H. P. Gente (München: Rogner & Bernhard, 1968), p. 92.

(Baudelaire (1821 ـ 1867)، من منظاره المختلف جداً، تبنى الموقف نفسه: «هل تمكن إنسان يستحق لقب فنان، أو عاشق حقيقي للفن، أن يخلط بين الصناعة والفن؟»[22]. بالنسبة للطرفين، كان الدور الصحيح المنوط بالتصوير الفوتوغرافي هو أن يكون أداة مُعينةً ومحايدةً، وشبيهاً بدور الطباعة أو الاختزال في الأدب.

ما يدعو إلى الاستغراب أن الواقعيين، الذين تعرضوا أكثر من غيرهم للمخاطر، لم يقفوا جميعهم موقف العداء من التصوير الفوتوغرافي بالقدر نفسه. ذلك أنهم قبلوا بالتقدم والعلوم. ألم تكن لوحات مانيه ـ كما لاحظ زولا ـ مثل رواياته هو نفسه، مستوحاة من الأساليب العلمية التي انتهجها كلود برنارد[23]؟ ومع ذلك، فإنهم، حتى في دفاعهم عن الفوتوغرافيا، قاوموا المطابقة والتماهي المبسط بين الفن وإعادة الإنتاج الطبيعي الدقيق الذي كانت تنطوي عليه نظرياتهم في الظاهر، فعلى حد تعبير الناقد الطبيعي فرانسيس واي (Francis Wey): «لا الرسم، ولا اللون، ولا دقة التصوير، هي ما يصنع الفنان. وإنما يصنعه الإلهام السماوي (divina mens). إن ما يصنع الرسام ليس اليد، بل العقل: وما على اليد إلا أن تطيع»[24]. وكانت الفوتوغرافيا مفيدة، لأنها ساعدت الرسامين على مجرد نسخ موضوعاتهم نسخاً آلياً. وفيما كانت تتنازع الرسامين المثالية والواقعية في العالم البورجوازي، فإنهم رفضوا كذلك التصوير الفوتوغرافي، وإن كان ذلك ببعض الحرج.

كان النقاش حامي الوطيس، غير أن ما حسمه كان تلك الوسيلة

---

(22) المصدر نفسه، ص 94-96.

(23) ورد في: Linda Nochlin, *Realism and Tradition in Art, 1848-1900; Sources and Documents*, Sources and Documents in the History of Art Series (Englewood Cliffs (N. J.): Prentice-Hall, [1966]), pp. 71, and 74.

انظر الفصل الرابع عشر من هذا الكتاب.

(24) Gisèle Freund, *Photographie et société*, collection points: Série histoire; H15 (Paris: Editions du seuil, 1974), p. 77.

المميزة التي ابتكرها المجتمع البورجوازي: حقوق الملكية. إن القانون الفرنسي، الذي وفر الحماية لـ «المِلْكية الفنية» تحديداً ضد الانتحال والنسخ بموجب تشريعات «الثورة العظيمة» (1793)، ترك المنتجات الصناعية لحماية غامضة وردت في المادة 1382 من القانون المدني. وقد اجمع المصورون الفوتوغرافيون جميعهم، بقوة، بأن الزبائن المتواضعين الذين حصلوا على منتجاتهم لم يبتاعوا مجرد صور رخيصة يمكن التعرف إلى موضوعاتها فحسب، بل كذلك القيمة الروحية للفن. وفي الوقت نفسه، فإن هؤلاء المصورين الذين لم يعرفوا مشاهير ذلك العصر ليلتقطوا صورهم الرائجة السوق، لم يستطيعوا مقاومة الإغراء بقرصنة نسخ عنها، ما يعني أن الصور الفوتوغرافية الأصلية لم تكن، من الوجهة القانونية، محمية بوصفها فناً من الفنون. وقد تم اللجوء إلى المحاكم للنظر في دعوى أقامتها شركة ماير وبييرسون ضد شركة منافسة سرقت صوراً التقطتها للكونت كافور واللورد بالمرستون. وخلال عام 1862، مرت القضية عبر المحاكم كلها إلى أن انتهت إلى محكمة النقض التي قررت أن التصوير الفوتوغرافي هو، آخر الأمر، واحد من الفنون، لأن تلك كانت هي الوسيلة الوحيدة لحماية حقوق النشر لهذا الفن. ومع التعقيدات التي أدخلتها التقانة إلى عالم الفنون يمكننا أن نتساءل: هل كان بوسع القانون، على ما فيه من جلال، أن يتحدث في هذا الأمر بصوت واحد؟ ماذا سيحدث لو أن متطلبات الملكية كانت تتعارض مع المتطلبات الأخلاقية، كما حدث عندما اكتشف المصورون، لا محالة، الإمكانات التجارية التي تنطوي عليها صورة جسد الأنثى، وبخاصة إذا طبعت على هيئة «بطاقة زيارة» جاهزة ومحمولة؟

لم يكن ثمة شك في أن «هذه الصور لأجساد النساء العارية، سواء أكانت واقفة أم منبطحة، ولكنها، في عريها الكامل، مثيرة للعين»[25]

(25) Freund, *Photographie und bürgerliche Gesellschaft; eine kunstsoziologische Studie*, p. 111.

كانت بذيئة بالفعل: وهكذا كانت في نظر القانون في خمسينيات القرن. غير أن تلك الصور في أواسط القرن التاسع عشر، شأنها شأن ما تلاها، في وقت لاحق، من صور أكثر جرأة، حاولت، عبثاً، تفنيد حجج الأخلاق، بحجج الفن: فن الواقعية الراديكالية. لقد تضافرت التقانة، والتجارة، والطليعة، وشكلت في ما بينها تحالفاً يعمل تحت الأرض، ويعبّر عن تحالف رسمي بين المال والقيم الروحية. وكانت الغلبة، بطبيعة الحال، لوجهة النظر الرسمية. ففي معرض إدانته لأحد المصورين، ندد المدعي العام كذلك بـ«مدرسة الرسم هذه، التي تسمي نفسها واقعية، وتعكف على تشويه الجمال... إنها تستبدل حوريات اليونان وإيطاليا الفاتنات بحوريات من جنس لا نعرفه حتى الآن، يتسكعن، مع الأسف، على ضفاف نهر السين»[26]. وقد نشرت خطبته تلك في مجلة *Le Moniteur de la photographie* عام 1863، أي في السنة نفسها التي رسم فيها مانيه لوحة «وجبة على العشب» (Déjeuner sur l'herbe).

كانت الواقعية، إذاً، مبهمة ومتناقضة مع نفسها في آن معاً. لم يكن من الممكن تجنب مشكلاتها عن طريق الإسفاف، بقيام الفنان «الأكاديمي» برسم ما يعتبر مقبولاً وقابلاً للبيع، بحيث تتوازن العلاقة بين العلم والخيال، الحقيقة والمثال، التقدم والقيم الخالدة. والفنان الجدي، سواء أكان ناقداً للمجتمع البورجوازي أم منطقياً بما فيه الكفاية ليقبل بمزاعمه بصورة جدّية، كان في وضع أصعب من ذلك بكثير، فقد بدأت في ستينيات القرن سلسلة من التطورات أظهرت أن ذلك الوضع ليس عسيراً فحسب، بل يستحيل حله، فمع «الواقعية» الذرائعية، أي الطبيعة التي استنها كوربيه، آل تاريخ الرسم الغربي إلى انتهاء (وقد كان معقداً ولكنه متماسك منذ النهضة الإيطالية). وقد جعله مؤرخ الفن الألماني هيلدبراند (Hildebrand) في دراسته عن الرسم في القرن التاسع عشر خاتمةً لتلك

(26) المصدر نفسه، ص 112- 113.

الفترة التي امتدت عقداً واحداً من الزمان. أما ما تلا ذلك، أو بالأحرى ما بدأت بوادره تظهر مع بوادر التيار الانطباعي، فلم يكن ممكناً ربطه بالماضي؛ لأنه كان استشرافاً للمستقبل.

كان مأزق الواقعية الرئيسي يتصل بمادة الموضوع والأسلوب في آنٍ معاً، وكذلك بالعلاقات بين الطرفين. فمن ناحية مادة الموضوع، لم تكن المشكلة تكمن في اختيار الموضوعات العادية مقابل القضايا «الجليلة» و«المتميزة»، أي التي لم يتناولها الفنانون «المحترمون» مقابل تلك التي كانت تشكل العنصر الأولي للمدارس الفنية ـ وهو ما كان ينزع إليه، دونما مواربة، فنانو اليسار السياسيون، ومنهم كوربيه الثوري المشارك في كومونة باريس[27]. وبشكل من الأشكال، كان منهم، بطبيعة الحال، جميع الفنانين الذين أخذوا الواقعية الطبعانية على محمل الجد، لأنهم رسموا ما كانت تراه العين بالفعل، أي الأشياء أو بالأحرى، الانطباعات الحسية، لا الأفكار، أو الخصائص والأحكام القيمية. إن لوحة «أولمبيا» لم تكن تجسيداً مثالياً لـِ «فينوس»، بل، هي على حد تعبير زولا: «بالتأكيد، نسخة رسمها مانيه بهدوء عنها، مثلما كانت تماماً... وقد بدد العري جانباً من ريعان الصبا فيها»[28]، كما أنها تصدم المشاعر لأن فيها أصداء من لوحة «فينوس» الشهيرة التي رسمها الفنان تيتيان (Titian). وبصرف النظر عما إذا كان الهدف إصدار بيان سياسي أو غير ذلك، فإن الواقعية لم يكن بمقدورها أن ترسم فينوس، بل صبايا عاريات، مثلما أنها لم تكن قادرة على رسم أبهة المُلْك والمَلَكية، بل رسم أناس عاديين كللت رؤوسهم التيجان.

---

(27) حول مسألة الفنانين والثورة خلال تلك الفترة، انظر: Timothy J. Clark: *The Absolute Bourgeois: Artists and Politics in France, 1848-1851* (Greenwich, Conn.: New York Graphic Society, [1973]), and *Image of the People: Gustave Courbet and the 1848 Revolution* (London: Thames and Hudson, 1973).

(28) Nochlin, *Realism and Tradition in Art, 1848-1900; Sources and Documents*, p. 77.

ولهذا السبب كانت لوحات كولباخ عن تتويج وليام الأول إمبراطوراً لألمانيا عام 1871 أقل تأثيراً في النفس بما لا يقاس، إذا ما قورنت بلوحات دافيد وآنْغرْ لنابليون الأول. لقد بدت الواقعية راديكاليةً سياسياً، لأنها كانت توائم وتتماشى ومادة الموضوعات الشعبية المعاصرة في تلك الآونة[29]. غير أنها في الواقع حددت، إن لم تكن قد جعلت من المتعذر، ظهور فن الالتزام السياسي والأيديولوجي الذي سيطر على فترة ما قبل عام 1848، لأن اللوحات السياسية لا يمكن أن تتبلور إلا إذا لازمتها الآراء والأحكام. لقد أوشكت بالتأكيد على أن تنتزع من الفنون الجادة الشكل الأكثر شيوعاً للرسم السياسي خلال النصف الأول من القرن التاسع عشر، وهو اللوحة التاريخية. وبدأ هذا النوع بالانحسار منذ أواسط ذلك القرن. إن الواقعية الطبيعانية لدى كوربيه، الجمهوري، الديمقراطي الاشتراكي، لم تضع الأسس لفن ثوري سياسياً، حتى في روسيا التي أخضع فيها الأسلوب الطبيعاني (Naturalistic) للسرد القصصي من جانب جماعة بريدفيزنيكي (Peredvizhniki) من تلافيه المنظر الثوري تشيرنيشفسكي (Chernishevski). وتعذّر من ثم تميّزهم عن الرسم الأكاديمي إلا من مادة الموضوع. وكان ذلك علامة على نهاية منظومة من التقاليد، لا على بداية أخرى.

بدأ، إذاً، فن الثورة وثورة الفن يتخذان مسارين مختلفين على الرغم من الجهود المبذولة للجمع بينهما من جانب المنظرين والدعاويين مثل الثمانَرْبعيني تيوفيل توريه (Théophil Thoré) (1807 ـ 1869)،

---

(29) «عندما يحاول فنانون آخرون تصحيح الطبيعة عن طريق رسم فينوس، فإنهم يكذبون. وقد سأل مانيه نفسه عن السبب الذي يدعوه إلى الكذب. لماذا لا تقول الحقيقة؟ لقد عرّفنا على أولمبيا، وهي من صبايا أيامنا هذه، وقد رأيناها في الشوارع، تبسط على كتفيها الهزيلتين وشاحاً رقيقاً من الصوف الباهت البالي». وذلك ما نجد المزيد منه (زولا). انظر: المصدر نفسه، ص 77.

والراديكالي إميل زولا. وللانطباعيين أهميتهم، لا لمضمون الموضوعات الشعبية التي تناولوها ـ مثل نزهات يوم الأحد، ومعالم المدن، ومشاهد الشوارع، والمسارح، وحلبات السباق، والمواخير في نصف العالم الذي يمثله المجتمع البورجوازي ـ بل لطرائقهم المبتكرة، غير أن تلك المبتكرات إنما كانت مجرد محاولات لتعزيز قدرتهم على تجسيد الواقع، أي «ما تراه العين»، باستخدام أساليب مشابهة ومستعارة من التصوير الفوتوغرافي ومن العلوم الطبيعية المطردة التقدم. وكان ذلك يعني التخلي عن أساليب الرسم التقليدية الماضية، فما الذي تراه العين «حقاً» عندما يتساقط الضوء على الأشياء؟ إنه، بالتأكيد، ليس الرموز والمؤشرات التي تدل على زرقة السماء، وابيضاض السحب أو قسمات الوجه. إلا أن المحاولات الرامية إلى جعل الواقعية أكثر «علميةً» حتّمت إبعادها عن الحس السليم إلى أن تحولت الطرق الجديدة نفسها مع مرور الزمن إلى أساليب مألوفة. وبوسعنا الآن أن نتفهمها ونعجب بها كما هي في لوحات مانيه (Manet)، أ. رينوار (A. Renoir) (1841 ـ 1919)، ديغا، س. مونيه (Monet) (1840 ـ 1926) أو ك. بيسّارو (C. Pissarro) (1830 ـ 1903). وكانت كلها غير مفهومة آنذاك، «إناء من الدهان قذف في وجه الجمهور». كما قال رسْكن (Ruskin) باستهجان في معرض حديثه عن لوحات جيمس ماكنيل ويسْلر (James MacNeill Whistler) (1834 ـ 1903).

تبين في ما بعد أن المشكلة كانت مؤقتة وعابرة، غير أن جانبين آخرين من الفن الجديد كانا أكثر استعصاء. **الأول** أن الرسم وصل إلى الحدود النهائية في طبيعته «العلمية»، فالانطباعية، على سبيل المثال، لم تكن، منطقياً، تعني لوحات مفردة، بل فيلماً ملوناً يفضل أن يكون ثلاثي الأبعاد، وقادراً على إعادة إنتاج التغير المستمر في الضوء على الأشياء. وذهبت سلسلة لوحات كلود مونيه على واجهة كاتدرائية رُوين إلى أقصى حد يمكن الوصول إليه في هذه الناحية عبر استخدام الألوان الزيتية والقماش، ولكنه لم يتمادَ في ذلك. ولكن إذا لم يسفر السعي إلى

العلم في الفن عن حل محدد، فإن ما أنجزه بالفعل لا يتعدى تحطيم أسلوب مألوف ومقبول على العموم للتواصل البصري، ولم يستعض عنه بـ«واقع»، أو أي أسلوب واحد، بل مجموعة من الطرائق المتعددة الممكنة بالقدر نفسه. وحيث إن الستينيات والسبعينيات من القرن التاسع عشر كانت لا تزال بعيدة عن هذه النتيجة، فربما لم يكن ممكناً، في التحليل الأخير، الاختيار من الرؤى الذاتية لأي فرد؛ وعندما حان الوصول إلى هذه النقطة، تحوّل السعي إلى موضوعية كاملة في المعاينة البصرية إلى نصر للذاتية الكاملة. وكان ذلك السبيل مغرياً، لأنه إذا كان العلم واحداً من القيم الأساسية في المجتمع البورجوازي، فإن الفردانية، والمنافسة كانا كذلك قيمتين على القدر نفسه من الأهمية. وكانت حصون الفن المنيعة، الممثلة في التدريب والمقاييس الأكاديمية، تستعيض ـ ربما بصورة غير واعية ـ بمعايير «الأصالة» الجديدة عن معايير «الكمال» و«السلامة» القديمة في تلك الفترة، ما مهد لها السبيل لتَجُبَّها وتحل مكانها فيما بعد.

والجانب **الثاني** هو أن الفن، إذا كان مشابهاً للعلم، لا بد أن يشاركه خصائص «التقدم» الذي سيجعل من «الجديد» أو «الأخير» هو سيد الموقف «المتفوق». ولم يكن ذلك يثير أي مشكلة في العلوم، لأن ممارسيها العاديين عام 1875 لا بد أنهم كان يفهمون الفيزياء أكثر مما فهمها نيوتن أو فارادي. وذلك ليس صحيحاً في الفن: لقد كان كوربيه أفضل من البارون غروس، لا لأنه كان واقعياً أو جاء بعده، بل لأنه كان أكثر موهبة. يضاف إلى ذلك أن مصطلح التقدم نفسه كان غامضاً، لأنه يمكن أن يطبق، وقد طبق بالفعل، على أي تغيّر تاريخي تتم ملاحظته، ما أدى (أو اعُتقد أنه أدى) إلى التحسين، ويصدق كذلك على المحاولات الرامية إلى إحداث تغيّر مرغوب في المستقبل. وربما يكون التقدم، أو لا يكون، «حقيقة» ماثلة للعيان، بيد أن «التقدمية» كانت مؤشراً على النية السياسية. ومن الممكن أن يتيسر الخلط بين الثوري في السياسة والثوري في الفن، وبخاصة لدى من تشوّشت

أذهانهم مثل ب. ـ ج. برودون (P. J. Proudhon). كما قد يسهل الخلط بينهما من جهة، وبشيء مختلف عنها كل الاختلاف من جهة أخرى، هو الحداثة ـ وهي كلمة دُوِّنت للمرة الأولى عام 1849[30].

إن «المعاصرة» تتضمن التغيير والابتكار الفني، كما تعني تحولاً في مضمون الموضوع. ذلك أن متعة تجسيد الحاضر، كما لاحظ بودلير (Baudelaire) بذكائه اللّماح، لا تتأتى من جماله الممكن فحسب، بل كذلك «من طبيعته الجوهرية بوصفه حاضراً». لذلك يتوجب على كل «حاضر» لاحق أن يجد نمط التعبير المحدد الخاص به، لأنه ليس بوسع نمط آخر، إذا وجد، أن يعبّر عنه التعبير المناسب. وقد يكون ذلك، أو لا يكون، هو «التقدم»، بمعنى التحسن الموضوعي، ولكن كان كذلك. لأن فهم الماضي بمختلف مراحله وبشتى الوسائل قد أفسح الطريق لاستخدام الطرائق التي تمكننا من فهم العصر الذي نعيشه، وهي أفضل من سابقاتها لأنها معاصرة لنا. إن على الفنون أن تجدد نفسها باستمرار. ولا بد بذلك من أن يفقد كل واحد من سلسلة المبتكرين المتلاحقين جموعاً من المتمسكين بالتقاليد، والمتزمتين، وكل من يفتقر إلى «الرؤية» على حد تعبير الفتى أرتور رامبو (1854 ـ 1891) ـ الذي خلق كثيراً من عناصر المستقبل لكل الفنون. باختصار، فإننا نجد أنفسنا في عالم «الطليعة» الذي أصبح مألوفاً الآن ـ مع أن هذا المصطلح لم يكن قد استقر في الأذهان بعد. وليس من قبيل المصادفة أن تتبعنا لمنابع الفنون «الطليعية» لا يفضي بنا إلى ما هو أبعد من مرحلة الإمبراطورية الثانية

---

(30) «مجمل القول، إن كوربيه... هو خير معبّر عن عصره. لقد تزامنت أعماله مع **الفلسفة الوضعية** (*Positive Philosophy*) لأوغست كونت، و**الميتافيزيقا الوضعية** (*Positive Metaphysics*) لـ فاشيرو، ومع كتابَيْ **الحق الإنساني** (*Human Right*) أو **العدالة المتأصلة** (*Immanent Justice*)؛ وحق العمل وحق العامل، وإعلان نهاية الرأسمالية، وسيادة المنتجين، ودراسة غيل وسبورزهايم عن فراسة الدماغ، وأبحاث لافاتر عن فراسة الأسارير» (ب. ـ ج. برودون). انظر: المصدر نفسه، ص 53.

في فرنسا ـ إلى بودلير وفلوبير في الأدب، والانطباعيين في الرسم. ويدخل ذلك، من الوجهة التاريخية، حيز الأسطورة، غير أن التوقيت على شيء من الأهمية. ذلك أنه يشير إلى انهيار المحاولات الرامية إلى إنتاج فنٍ متناغم مع المجتمع البورجوازي (مع أنه غالباً ما يتخذ منه موقفاً نقدياً) ـ فن يجسد أوجه الواقع المادية للمجتمع الرأسمالي، والتقدم والعلوم من منظار الفلسفة الوضعية.

V

كانت آثار هذا الانهيار في الطبقات الهامشية بالعالم البورجوازي أبلغ ما كانت في بؤرته المركزية: الطلاب والمثقفين الشباب الكتاب والفنانين الطامحين، وفئات البوهيميين التي تضم، على العموم، من رفضوا، (وإن بصورة مؤقتة)، اتّباع أنماط السلوك التي تتطلبها المُحْترمية البورجوازية. واختلط هؤلاء بمن لم يستطيعوا التكيّف، أو كانت أساليب حياتهم تحول دون ذلك. وغدت الأماكن المتزايدة الاختصاص في المدن الكبرى التي كان هؤلاء يلتقون فيها ـ مثل الحي اللاتيني ومونمارتر[31] ـ هي مراكز تلك «الطلائع». وكان متمردو الأقاليم الشباب، مثل الغلام رامبو، المغرمون بمطالعة المجلات الصغيرة أو قراءة البدع الشعرية في مناطق مثل كاليل، يتوافدون على هذه الملتقيات. وقد زودوا كلاً من المنتجين والمستهلكين بما أصبح، بعد قرن من الزمان، يسمى «العالم السفلي»، أو «الثقافة المضادّة»، وكذلك بسوقٍ لا يستهان بها، مع أنها لم تكن توفر للفنان الطليعي السيولة الكافية لإقامة أَوَدِه. وأدت رغبة البورجوازية العارمة في احتضان الفنون إلى

(31) أدى التحول إلى الرسم الواقعي ـ أي في الهواء الطلق ـ إلى ولادة مستعمرات صغيرة غريبة، ومؤقتة في الغالب، للفنانين في الأرياف المحيطة بباريس، والساحل النورماندي، أو في وقت لاحق، البروفنس. ولم يكن ذلك ليتم قبل منتصف القرن التاسع عشر.

تكاثر أعداد المرشحين لمثل هذا التبني - ومنهم طلبة الفنون، والكتّاب الطامحون، وغيرهم. وكان من نتائج إصدار هنري ميرغر (Henry Murger) لكتابه **مشاهد من الحياة البوهيمية** (*Scenes of Bohemian*) (1851) إطلاق موجة عظيمة مما يمكن تسميته المعادلَ الحضري لـِ «المهرجانات الريفية» للترفيه وعرض الرسوم الفنية في القرن الثامن عشر، مع الإدعاء بأنها لا تنتمي لتلك الفترة. وغدت تلك المهرجانات الآن فردوساً علْمانياً في العالم الغربي، ومراكز فنية لا تستطيع إيطاليا مزاحمتها. وربما كان في باريس في النصف الثاني من القرن التاسع عشر، ما يتراوح بين عشرة آلاف وعشرين ألفاً ممن يطلقون على أنفسهم لقب «فنانين»[32].

ومع أن بعض الحركات الثورية في تلك الفترة حصرت نفسها تقريباً في أوساط الحي اللاتيني - ومنها البلانكيّون على سبيل المثال - ومع أن الفوضويين كانوا ميالين إلى تعريف العضوية في الثقافة المضادة بأنه مرادف للثورة، فإن «الطليعة»، بحد ذاتها، لم تكن لها سياسات محددة، بل لم تكن لها سياسات على الإطلاق. ومن جملة الرسامين اليساريين المتطرفين، هرب بيسّارو ومونيه إلى لندن عام 1870 ليتجنبا المشاركة في الحرب الفرنسية البروسية، غير أن سيزان، في معتكَفه الريفي، لم يكن، ببساطة، يبدي أي اهتمام بالآراء السياسية التي يتبناها صديقة الحميم الروائي الراديكالي إميل زولا. وشارك في الحرب، بهدوء، مانيه وديغا، وهما بورجوازيان من ذوي الموارد الخاصة - وكذلك رينوار ليتحاشوا الانضمام إلى كومونة باريس؛ واكتفى كوربيه بالظهور علناً بمظهر المؤيد لها. وكانت الحماسة للرسوم اليابانية المطبوعة

(32) كانت المراكز الأقل أهمية في بوهيميا، وميونيخ، ومونشر كونستفيرين، تضم نحو 4500 عضو في أواسط السبعينيات. انظر: Paul Drey, *Die wirtschaftlichen grundlagen der malkunst; versuch einer kunstökonomie* (Stuttgart und Berlin: J. G. Cotta, 1910).

ـ وهي من المنتجات الثقافية الجانبية لانفتاح الرأسمالية العالمية، هو من العناصر التي وحّدت بين الانطباعيين، ومعهم الجمهوري العنيف كليمنصو (Clemenceau)، عمدة مونمارتر أيام الكومون، والأخوان غونكور اللذان كانا مناوئين ضاريين للكومون، غير أن الدافع الوحيد الذي جمع بينهم، مثلما جمع بين الرومانطيقيين قبل عام 1848، هو كراهيتهم للبورجوازية وأنظمتها السياسية ـ ممثلة، في تلك الحالة، بالإمبراطورية الثانية ـ ولغلبة الغثاثة، والرياء، ونزعة الربح.

وحتى عام 1848، كان المترددون على الحي اللاتيني وأشباهه في المجتمع البورجوازي يأملون في قيام جمهورية وثورة اجتماعية، بل إنهم كانوا يظهرون إعجابهم، وإن على مضض، لدينامية بارونات الرأسمالية اللصوص النشطين الذين أفلحوا في اختراق الحواجز التقلدية في المجتمع. وتطرح رواية غوستاف فلوبير **التربية العاطفية** (*Sentimental Education*) (1869) قصة هذا الأمل العارم الذي كان يراود الشباب في أربعينيات القرن والخيبة المزدوجة التي أصابتهم جراء ثورة 1848 نفسها والحقبة اللاحقة التي انتصرت فيها البورجوازية متنكرة حتى للمُثُل العليا التي تمحورت حولها ثورتها: «الحرية، المساواة، والإخاء». وبمعنى من المعاني، كانت رومانطيقية الفترة 1830 ـ 1848 هي الضحية الرئيسية لهذه الخديعة، فقد تحولت واقعيتها الرؤيوية إلى واقعية «علمية» أو وضعية، واحتفظت بعنصر النقد الاجتماعي[33] ـ وربما طوّرته، أو على الأقل، إلى فضيحة فقدت الرؤية، فتحولت، بذلك، إلى «الفن للفن» أو إلى الانشغال بخصائص اللغة، والأسلوب، ووسائل الأداء. «لكل امرىء تطلعاته»، كما قال الشاعر العجوز غوتييه (Gautier) (1811 ـ 1872) لأحد الشباب. «جميع البورجوازيين يتأثرون بمشهد الشروق والغروب.

(33) لاحظ الأسقف المونسنيور دوبانلوب (Dupanloup) أن أي كاهن خبير باعترافات الناس في الأقاليم قادر على أن يدرك، كل الإدراك، الدقة التي تميزت بها رواية فلوبير **مدام بوفاري** (*Madame Bovary*).

أما الشاعر، فلديه الصنعة الفنية»[34]. وعندما أوشك شكل جديد من الفن الرؤيوي على البزوغ في أوساط الجيل الذي كان أفراده عام 1848 أطفالاً أو لم يولدوا بعد، كان لا بد أن يكون مُلْغزاً غير عقلاني وغير سياسي، أيّاً ما كانت أهداف ممارسيه ـ ولم يظهر عمل أرتور رامبو الرئيسي إلا بين الأعوام 1871 و1873، كما أن إيزيدور دوكاس (Isidor Ducasse) «كونت دي لوتريامون» (1846 ـ 1870) نشر ديوانه **أناشيد مالدورور** (*Chants de Maldoror*) عام 1869.

مع انهيار أحلام 1848، وانتصار واقع فرنسا الإمبراطورية الثانية، وألمانيا بسمارك، وبريطانيا بالمرستون وغلادستون، وإيطاليا فيكتور إيمانويل، تشعبت الفنون البورجوازية الغربية، وفي مقدمها الرسم والشعر، إلى فرعين: واحد يستهوي جمهور الناس عامة، والآخر يستهوي أقلية تحدد نفسها بنفسها. ولم يحظرها المجتمع البورجوازي كما يزعم التاريخ الأسطوري لفنون الطليعة. غير أنه لا يمكننا أن ننكر، على العموم، أن الرسامين والشعراء الذين نضجوا في الفترة بين عام 1848 ونهاية هذه الفترة، ولا نزال نُعجب بهم حتى الآن، لم تذع شهرتهم جراء انفتاح السوق لإنتاجهم آنذاك، بل بسبب ما أثاروه من فضائح: كوربيه والانطباعيين، بودلير ورامبو، أوائل الفنانين قبل ـ الرفائيليين، أ. ش. سوينبيرن (A. C. Swinburne) (1837 ـ 1909)، دانتي غابرييل روزيتي (Danti Gabriel Rossetti) (1828 ـ 1882). إلا أن ذلك لا يصدق على الآداب كلها، وحتى تلك التي كانت تعتمد كلياً على رعاية البورجوازيين، باستثناء الدراما المنطوقة في تلك الفترة، التي يحسن بنا أن لا نتعرض لها بمزيد من التفصيل. وربما كان ذلك يعود

---

(34) «تمثل الصنعة في الفن كل شيء تقريبا. والإلهام ـ نعم الإلهام شيء لطيف جداً، ولكنه مبتذل؛ فهو موجود في كل مكان. ولا بد أن كل بورجوازي يتأثر، بصورة أو بأخرى، بمشهد الشروق والغروب. ولديه قدْر من الإلهام». انظر: Dowden, *Studies in Literature 1789-1877*, p. 405.

إلى أن المشكلات التي واجهتها «الواقعية» في مجال الفنون البصرية كانت أقل استعصاءً مما كانت عليه في مجالات أخرى.

VI

إن تلك المصاعب لم تؤثر في الموسيقى على الإطلاق؛ لأن هذا الفن قلما ينطوي على عناصر تمثيلية واقعية. ولا بد لأي محاولة لإدخال مثل هذه العناصر فيه أن تكون إما مجازية أو معتمدة على النص المسرحي. وما لم تُدمج تلك في «توليفة الفنون» (Gesamtkunstwerk) التي ابتكرها فاغنر (وهي الإطار الفني الجامع الذي تدور فيه كل أعماله الأوبرالية)، أو في الأغاني البسيطة، فإن الواقعية في الموسيقى تعني التعبير عن عواطف محددة: ومنها، كما في أوبرا «تريستان وايزولدا» لفاغنر (1865) ـ المشاعر الجنسية التي يمكن تبيّنها. أما العواطف الأكثر شيوعاً، فهي المشاعر القومية التي جرى التعبير عنها برموز مناسبة مستقاة من الموسيقى الفلكلورية الشعبية وما إليها. وتجلى ذلك في مدارس المؤلفين الموسيقيين الوطنية المزدهرة، وبينهم سميتانا ودفوراك في بوهيميا، تشايكوفسكي، و ن. رِمْسكي كورساكوف (N. Rimsky Korsakov) (1844 ـ 1908)، موسورغسكي (Mussorgsky) وغيرهم في روسيا، إ. كريغ (E. Grieg) (1843 ـ 1907) في النرويج، وبطبيعة الحال، الموسيقيون الألمان (وليسوا النمساويين). غير أن الموسيقى الجادة، كما ألمحنا من قبل، لم تزدهر لأنها كانت تماشي الواقع وتضاهيه فحسب، بل لأنها كانت تشير إلى الأمور الروحية، وبذلك وفّرت، من جملة أشياء أخرى، بديلاً للدين، مثلما كانت، على الدوام، تمثل مُلْحقاً له. وإذا ما أريد لها أن تؤدّي، فإن عليها أول الأمر أن تستهوي من يساندها ويرعاها، أو تجتذب السوق. وعلى هذا الأساس، فإنها لا تستطيع معارضة البورجوازية إلا من الداخل، وتلك مهمة يسيرة؛ لأن البورجوازي لن يستطيع على الأغلب أن يدرك متى سيوجَّه إليه النقد، فهو قد يحس بأن ما يجري التعبير عنه هو تطلعاته

وعظمة ثقافته. وبهذا، ازدهرت الموسيقى، وبأسلوب رومانطيقي تقليدي تقريباً. وكان الطليعي الأنشط في هذا الميدان، ريتشارد فاغنر، هو الأشهر والألمع بين الجمهور، لأنه نجح بالفعل (والحقيقة أن هذا النجاح يعود للرعاية التي أسبغها عليه لودفيغ، ملك بافاريا المخبول)، وأفلح في إقناع الفئات الأكثر ثراء بين الهيئات الثقافية وأعضاء الجماعات البورجوازية بأنهم ينتمون إلى النخبة الروحية، وأن قدرهم أعلى بكثير من مرتبة جماهير الدهماء التي تغلب عليها فجاجة الذوق، وأنهم هم وحدهم من يستحق فن المستقبل.

ولأسباب مغايرة تماماً، ازدهر الأدب النثري، وبخاصة في شكله المتميز الذي اتسمت به الفترة البورجوازية، وهو الرواية، فالكلمات، خلافاً للنوتة الموسيقية، أقدر من غيرها على تصوير «الحياة الفعلية» والأفكار على حد سواء. وخلافاً للفنون البصرية كذلك، فإن أساليبها لا تدّعي بنفسها القدرة على محاكاة الحياة بالفعل. من هنا، لم تكن «الواقعية» في الرواية لا تتناقض تناقضاً لا يمكن تذليله كذلك الذي يمثله التصوير الفوتوغرافي بالنسبة للرسم. وقد تستهدف بعض الروايات توثيق الحقيقة على نحو أكثر صرامةً من غيرها، وقد تتوخى أخرى التوسع في مضامين موضوعاتها واقتحام مجالات تعتبر غير لائقة أو لا تستدعي اهتمام الناس (وكان الطبعانيون الفرنسيون يؤثرون كلا النوعين). ولكن هل ثمة من ينكر أنه حتى غير المهتمين بالأدب على الأقل، وذوي النزعة الذاتية، قد كتبوا قصصاً عن العالم الفعلي، وعن المجتمع الفعلي الذي عاشوا فيه وعايشوه؟ وليس بين روائيي تلك الفترة من لا يمكن تحويل أعماله الروائية إلى مسلسلات تلفازية في أيامنا هذه. ومن هنا كانت شعبية الرواية ومرونتها ومنجزاتها اللامعة آنذاك. ومع استثناءات قليلة نسبياً ـ منها فاغنر في الموسيقى، وبعض الرسامين الفرنسيين، وربما بعض الشعراء ـ فإن الإنجازات الباهرة كانت في ميدان الرواية: الروسية، والإنجليزية، والفرنسية، وحتى الأمريكية (إذا ما أخذنا بالاعتبار رواية هيرمان ملفيل (H. Melville) **موبي ديك**

(*Moby Dick*)). (وفيما عدا ملفيل)، تمتعت أعظم الروايات التي وضعها أعظم الروائيين بالإقرار والتقدير الفوري، إن لم يكن بالتفهم والقبول على الدوام.

كانت أعظم إمكانات الرواية تكمن في اتساع النطاق الذي تتحرك فيه، فكانت أوسع الآفاق وأكثر الموضوعات طموحاً في متناول الروائي: لقد أغرت **الحرب والسلام** (1869)، تولستوي، **والجريمة والعقاب** (1866) دستويفسكي، **وآباء وأبناء** (1862) تورغنيف. وحاولت الرواية أن تمسك بناصية مجتمع بأكمله. وما يدعو إلى الاستغراب أن أصحاب المواهب العظيمة آنذاك لم يأبهوا للمحاولات التي استهدفت ذلك في تلك الفترة، عبر سلسلة مترابطة من تلك المروّيات، على غرار ما فعله وولتر سكوت وأونوريه دي بلزاك: فحتى إميل زولا لم يبدأ باسترجاع الصورة العملاقة للإمبراطورية الثانية (في سلسلة روايات روغون ـ ماكار) إلا في عام 1871، وبيريز غالدوس (Pérez Galdos) (1843 ـ 1920) في **حكايات وطنية** (*Episodious Nacionales*) إلا في عام 1873. وغوستاف فريتاغ (Gustav Freytag) (1816 ـ 1895) ـ إذا انتقلنا إلى مستويات أدنى ـ في روايته **الأسلاف** (*Die Ahnem*)، إلا في عام 1872. وتنوعت حظوظ هذه الجهود الجبارة من النجاح خارج روسيا التي حققت فيها نجاحاً مطرداً. غير أن هذه الفترة تظل نسيجَ وحدِها من دون منازع، لأنها شهدت ظهور ديكنز الناضج، فلوبير، جورج إليوت، ثاكري وغوتفريد كيلر (1819 ـ 1890)، غير أن ما تميزت به الرواية وجعلها هي الشكل الفني النموذجي في تلك الفترة كان يكمن في أن إنجازاتها الأكثر طموحاً لم تتحقق عبر الأسطورة والأسلوب، (كما في أوبرا «الحلقة» التي وضعها فاغنر)، بل عبر قدرتها على وصف وقائع الحياة اليومية. إنها لم تخترق السماوات العليا، بل قاربتها بخطى وئيدة عنيدة. ولهذا السبب، كانت مهيأة للترجمة أغلب الأحيان، دونما خسارة. وكان واحد على الأقل من كبار الروائيين في تلك الفترة شخصية عالمية: تشارلز ديكنز.

غير أن من الغبن أن نقصر حديث الاداب والفنون في عصر انتصار البورجوازية على اللامعين الكبار والروائع، وبخاصة ما كان يتعلق منها بأقليات من الجمهور. لقد كانت تلك الأيام، كما شهدنا، فترة توجه فيها الفن للجماهير بوساطة تقانة إعادة الإنتاج، التي جعلت من الممكن إنتاج الصور الساكنة أضعافاً مضاعفة لا حصر لها. إنه عصر تزاوجت فيه الثقافة والاتصالات لينتج الصحف والمجلات الدورية - ولا سيما المصورة منها - والتعليم الجماعي الذي يسّر إيصال تلك المنتجات إلى جماهير جديدة، والأعمال الفنية التي كانت واسعة الانتشار آنذاك، أي معروفة خارج الأقلية «المثقفة» ليست هي الأعمال التي نعجب بها اليوم - مع استثناءات قليلة ربما يمثل تشارلز ديكنز الحالة الأبرز بينها[35]. وكان الأدب الأكثر مبيعاً هو ما ينشر في الصحف الشعبية التي اتسعت قاعدة قرائها إلى ربع مليون أو نصف مليون في بريطانيا والولايات المتحدة، وكانت الصور الدنيوية المعلقة على جدران الكابينات الريادية في الغرب الأمريكي أو أكواخ المصنِّعين الحرفيين في أوروبا نسخاً مطبوعة من لوحة الرسام لاندسير (Landseer) «ملك النبع» (أو ما يماثلها على الصعيد المحلي)، أو صور لنكولن، أو غاريبالدي أو غلادستون. وكانت المقطوعات الموسيقية المقتبسة من «الثقافة الراقية» والمتغلغلة في الوعي الجماعي آنذاك، هي من ألحان فيردي التي يؤديها عازفو الأرغن اليدوي الجوالون في الشوارع، أو مقاطع من ألحان فاغنر كانت تعدل لتستخدم في الأعراس، ولكن ليس في حفلات الأوبرا. إلا أن ذلك، بحد ذاته، كان ينطوي على ثورة ثقافية، فمع انتصار المدينة والصناعة، برزت شقة متزايدة الاتساع بين قطاعات الجماهير «الحديثة»، أي الفئات الحضرية، المتعلمة أو التي

(35) إلا أن ديكنز كان يكتب بصفته صحفياً، وتنشر رواياته على حلقات، ويتصرف بوصفه مؤدّياً- أي موسيقاراً أو رساماً أو ممثلاً. وكان معروفاً لدى آلاف عديدة من الناس بفضل قراءاته، على المسرح، للمشاهد المؤثرة من أعماله.

قبلت بمضمون الثقافة المهيمنة للمجتمع البورجوازي من جهة، والقطاعات «التقليدية» التي كانت تتضعضع بصورة متعاظمة من جهة أخرى. ويعود السبب لاتساع هذه الشقة إلى أن تراث الماضي الريفي لم يعد وثيق الصلة بأنماط الحياة في أوساط الطبقة العاملة الحضرية: ففي السبعينيات والثمانينيات من ذلك القرن، أخذ العمال الصناعيون في بوهيميا ينأون بأنفسهم عن الأغاني الفولكلورية، ويؤثرون عليها الأغاني الشائعة في مسارح المنوعات، والأناشيد الهزلية التي تتحدث عن حياة لم تعد لها صلة بما عهده آباؤهم. وكان ذلك هو الفراغ الذي أخذ يملؤه أسلاف الموسيقى الشعبية وصناعة الترفيه الحديثة لإرضاء ذوي الطموحات الثقافية المتواضعة، مثلما أخذت منظمات العون الذاتي الجماعية تملؤه منذ نهاية تلك الفترة، ومن خلال الحركات السياسية، لمن هم أكثر نشاطاً ووعياً وطموحاً، ففي بريطانيا، كانت الفترة التي تضاعف فيها عدد قاعات المنوعات الموسيقية الغنائية الراقصة هي نفسها الفترة التي تضاعفت فيها أعداد فرق الغناء الجماعية، وفرق الموسيقى النحاسية في المجتمعات المحلية الصناعية. ولا عجب في أن الثقافة خلال تلك العقود كانت تتدفق في اتجاه واحد - أي نزولاً من الطبقة الوسطى، على الأقل في أوروبا. وحتى في ما أصبح في ما بعد هو الشكل المعتاد للثقافة البروليتارية، أي التفرج الجماعي على المباريات الرياضية، نشأ النمط الشائع في أيامنا هذه، ومنه جمعيات كرة القدم، في أوساط الشباب من أبناء الطبقة الوسطى الذين أنشأوا النوادي ونظموا المباريات في هذا المجال. ولم تنتشر هذه الأنشطة في صفوف الطبقة العاملة إلا في السبعينيات والثمانينيات من القرن التاسع عشر[36].

(36) في بريطانيا، وهي «دولة الرياضة» بامتياز، شهدت تلك الفترة، بالفعل، هبوطاً في أنشطة الرياضات الاحترافية الشعبية البحتة التي كانت قد نشأت في وقت سابق، ومنها الكريكيت، على سبيل المثال. كما انقرضت تقريباً أنشطة عديدة كانت واسعة الانتشار قبل ذلك، مثلاً مسابقات المشي الاحترافية ومباريات السابلة والتجذيف.

بيْد أن ما أسهم في تقويض الأنماط الريفية الأكثر عراقة لم يكن الهجرة بقدر ما كان التعليم. فحالما تتاح للجماهير فرصة التعليم الابتدائي حتى تبدأ الثقافة التقليدية القائمة على التواصل الشفوي الوجاهي أساساً بالتراجع لا محالة، وتتفرع، من ثم، إلى ثقافة متفوقة ومهيمنة في أوساط المتعلمين، وأخرى متدنية منحسرة لغير المتعلمين. وتضافر التعليم والبيروقراطية المحلية لتحويل حتى القرية إلى تجمع فُصاميّ للناس انقسموا إثره إلى فئتين وفق الأسماء والنعوت والكُنى التي عرفوا بها لدى جيرانهم وأقربائهم (مثل «باكيتو الكسيح») أو الأسماء الرسمية للمدرسة أو الولاية التي تعرفهم بها السلطة (مثل «فرانشيسكو غونزاليس لوبيز»). وأصبحت الأجيال الجديدة تتحدث، في واقع الأمر، بلغتين. أما المحاولات العديدة المتزايدة الرامية إلى إنقاذ اللغة القديمة لأغراض التعليم على هيئة «أدب اللهجات المحكيّة»، فقد أثارت في صفوف الطبقة الوسطى الحنين الرومانطيقي للماضي، أو النزعة الشعبوية أو «الطبعانية». (ومن هذه المحاولات المسرحيات الفلاحية التي وضعها لودفيغ آنزنغروبر (Ludwig Anzengruber) [1839 ـ 1899]، وقصائد وليم بارنز [1800 ـ 1886] بلهجة أهالي دورسيت، والسير الذاتية التي كتبها بالألمانية المبسطة (*Flattdeutsch*) فريتز رويتر (Fritz Reuter) [1800 ـ 1886]، وبعدها بقليل، محاولة إنعاش أدب الأقاليم مثل حركة فيليبريج (Félibrige) [1854][37].

وبمقاييسنا الحالية، كان هذا الهبوط طفيفاً. غير أنه كان مهماً

(37) كان الاستثناء الوحيد هو الهجوم المضاد الشعبوي الديمقراطي الذي شنه على الثقافة «الراقية» (أي، في هذا السياق، «الأجنبية») الكتّاب الصحافيون الظرفاء في المناطق الغربية والجنوبية من الولايات المتحدة، واستخدموا، بصورة منهجية، اللغة المحكية الفعلية في هذه المواجهة؛ وكان كتاب مارك توين (Mark Twain) *Huckleberry Finn* (1884) هو المثال الأبرز في هذا المجال: Mark Twain, *Adventures of Huckleberry Finn (Tom Sawyer's Comrade)* (New York: Charles L. Webster and Company, 1885).

آنذاك، لأنه لم يكن يقابله بصورة ملموسة في تلك السنوات ما يمكن أن نسميه ثقافة حضرية معارِضة جديدة. (ولم تبرز مثل هذه الظاهرة على الإطلاق في الأرياف)، وتأكدت هيمنة الثقافة الرسمية، التي ارتبطت، بصورة حتمية، بصعود الطبقة الوسطى الظافرة، على الجماهير التابعة. ولم يكن ثمة ما يخفف من تلك التبعية في تلك الفترة.

الفصل السادس عشر

الخاتمة

«إفعل ما تشاء، فالقدر له الكلمة الأخيرة في المصائر البشرية. أما أنت، فإنك تحت رحمة الطغيان، ووفقاً لقوانين «التقدم»، فقد كان يجب إلغاء القدر منذ أمد بعيد».

يوهان نستروي، مؤلف مسرحي هزلي من فيينا[1].

بدأ عهد الانتصار الليبرالي بثورة مهزومة، وانتهى بكساد طويل الأمد. وتُشكِّل الأولى علامة مناسبة لتحديد بداية فترة تاريخية أو نهايتها أكثر من الثانية. غير أن التاريخ لا يستمزج المؤرخين حول ما يناسبهم، مع أن بعضهم لا يدرك ذلك دائماً. وربما كانت المتطلبات المسرحية تستلزم اختتام هذا الكتاب بحدث باهرٍ مثير ـ ربما بإعلان الوحدة الألمانية أو قيام كومونة باريس عام 1871، أو حتى بالانهيار المدوّي لسوق الأوراق المالية عام 1873. غير أن متطلبات الدراما والواقع لا يطابق أحدهما الآخر في أغلب الأحيان، فالمسار لا ينتهي بمنظر للقمة أو لشلّال هادر، بل بمشهدٍ مستجمَع للمطر قد يخفى على الناظرين: وقد برز في فترة زمنية ما بين عامي 1871 و1879. وإذا أردنا أن نحدد

(1) [Johann Nestroy, *Sie Sollen Ihn Nicht Haben* (1850)].

هذه الفترة، فلنقل إنها اللحظة التي ترمز إلى «أواسط السبعينيات» من القرن التاسع عشر، من دون أن ترتبط بأي حدث بارز ظاهر للعيان دونما ضرورة، ولتكن، مثلاً، عام 1875.

إن العهد الجديد الذي يلي عصر الانتصار الليبرالي كان مختلفاً كل الاختلاف، فمن الوجهة الاقتصادية، كان عليه أن يبتعد بسرعة عن مشروعات القطاع الخاص التي امتدت فيها المنافسة غير المقيدة، وعن امتناع الحكومة عن التدخل، وعما أسماه الألمان «المانشسترية» (وهي التجارة الحرة التي سادت في بريطانيا في عصر فيكتوريا)، وأن يتحول، عوضاً عن ذلك، إلى المؤسسات الصناعية الكبيرة، وإلى تدخل ملموس من جانب الحكومة، وسياسات مختلفة أكثر استقامة، ولكنها ليست بالضرورة في مجال النظرية الاقتصادية. ويتذمر المحامي البريطاني أ. ف. دايسي (A. V. Dicey) أن عصر الفردانية قد انتهى عام 1870، وبدأ عصر «الجمعانية»؛ ومع أن أكثر ما يشير إليه بحسرة من نواحي تقدم «الجمعانية» قد يبدو قليل الأهمية في أيامنا هذه، فإنه، على نحو ما، كان على حق.

لقد تغير الاقتصاد الرأسمالي في أربع نواح مهمة. **الناحية الأولى** أننا قد دخلنا الآن عصراً تقنياً جديداً لم تعد تحدده المبتكرات والأساليب التي استخدمت في الثورة الناحية الأولى: إنه عهد مصادر الطاقة الجديدة (كالكهرباء، والنفط، والطوربينيات، ومحركات الاحتراق الداخلي)، والمعدات الجديدة المصنوعة من مواد جديدة (مثل الفولاذ، والأشابة الناتجة عن خلط معدنين أو أكثر، والمعادن غير الحديد)، والصناعات الجديدة القائمة على العلم، مثل الصناعة الكيماوية العضوية الآخذة بالتوسع. **الناحية الثانية** هي أننا دخلنا كذلك اقتصاد سوق الاستهلاك المحلي، الذي كانت الولايات المتحدة هي الرائدة فيه، وتعاظم دوره، لا بسبب ارتفاع مستوى الدخل الجماعي (بتواضع في أوروبا) فحسب، بل بما هو أهم من ذلك، وهو التزايد السكاني في الدول المتقدمة، فبين عامي 1870 و1910، ارتفع عدد السكان في

أوروبا من 290 إلى 435 مليون نسمة، وفي الولايات المتحدة من 38,5 إلى 92 مليوناً. وبعبارة أخرى، فإننا دخلنا مرحلة الإنتاج الجماعي، بما فيه إنتاج المواد الاستهلاكية غير المعرضة للتلف.

أما الناحية **الثالثة**، وربما كانت هي التطور الحاسم، فهي أن حالة من الانعكاس التناقضي قد برزت الآن فقد كانت حقبة الانتصار الليبرالي تمثل، بالفعل، احتكاراً صناعياً فرضته بريطانيا على الصعيد العالمي، وضمنت فيه لنفسها الأرباح من دون أن تواجه أي صعوبات مع بعض الاستثناءات البارزة، من جانب منافسة المشروعات الصغيرة والمتوسطة. غير أن فترة ما بعد الرأسمالية كانت مرحلة من المزاحمة الدولية بين الاقتصادات الصناعية الوطنية المتنافسة ـ البريطانية، والألمانية، والأمريكية الشمالية؛ وهي منافسة زادت من حدتها الصعوبات التي اكتشفتها الشركات الآن داخل كل من هذه الاقتصادات، وخلال فترات الكساد، في مساعيها لتحقيق أرباح مناسبة. وهكذا، أفضت المنافسة إلى التركّز الاقتصادي، وسيطرة السوق، والتلاعب. وعلى حد ما يقوله أحد المؤرخين المرموقين:

«أصبح التوسع الاقتصادي الآن صراعاً اقتصادياً ـ صراعاً وضع خطاً فاصلاً بين الأقوياء والضعفاء، لإحباط أحدهما وتقوية الآخر، ليعطي الأفضلية للدول الجديدة الجائعة على حساب القديمة. وانحسر التفاؤل حول مستقبل من التقدم غير المحدود ليحل مكانه التشكك والإحساس بالكرْب، بالمعنى الكلاسيكي للكلمة. وعزز ذلك كله، وتعزز كذلك، بحدة المنافسة السياسية، والتقى هذان الشكلان من المنافسة في تعاظم فورة الشره والنهم على الأرض، وفي التكالب على «مناطق النفوذ»؛ وذلك هو الذي أصبح يسمى «الإمبريالية الجديدة»[2].

---

(2) David S. Landes, *The Unbound Prometheus: Technological Change and Industrial Development in Western Europe from 1750 to the Present* (London: Cambridge University Press, 1969), pp. 240-241.

لقد دخل العالم مرحلة الإمبريالية، بالمعنى العريض للكلمة (الذي يتضمن تغيرات في بنية التنظيم الاقتصادي، أي «رأسمالية الاحتكار»)، وكذلك بالمعنى الضيق للمصطلح: أي الاندماج الجديد للبلدان «الناقصة النمو» بوصفها انتصارات تابعة للاقتصاد العالمي الذي تهيمن عليه الدول «المتقدمة»، وبالإضافة إلى دوافع المنافسة (التي دفعت القوى الكبرى إلى تقاسم المعمورة على هيئة محميّات رسمية وغير رسمية لصالح رجال الأعمال فيها)، وإلى حوافز السوق والصادرات الرأسمالية، فإن ذلك كان يعود أيضاً إلى تزايد أهمية المواد الخام غير المتوفرة في أكثر الدول المتقدمة نفسها لأسباب مناخية وجغرافية. لقد تطلبت الصناعات التقانية الجديدة جملة من المواد: النفط، والمطاط، والمعادن غير الحديد. ومع نهاية القرن، كانت الملايو منتجاً معروفاً للتنك، وروسيا والهند والتشيلي للمنغنير، ونيوكاليدونيا للنيكل. وتطلّب الاقتصاد الاستهلاكي كميات متعاظمة لا من المواد التي تنتجها الدول المتقدمة (مثل الحبوب واللحوم) فحسب، بل كذلك من تلك التي يتعذر إنتاجها فيها (مثل الفواكه والمشروبات الاستوائية أو شبة الاستوائية، أو الزيوت النباتية اللازمة لصنع الصابون). وغدت «جمهورية الموز» شأنها شأن مستوطنات التنك، والمطاط، والكاكاو، جزءاً لا يتجزأ من الاقتصاد الرأسمالي العالمي.

في النطاق العالمي، بدأ هذا الفصام ـ الذي لم يكن جديداً بحد ذاته ـ بين الدول المتقدمة والمناطق الناقصة النمو (والتكميلية من الناحية النظرية) يأخذ شكلاً حديثاً. واستمرت بلورة هذه الصيغة الجديدة للتنمية/التبعية، مع فترات وجيزة من التعثر، حتى الكساد في الثلاثينيات من القرن العشرين. ويمثل ذلك التغير الكبير الرابع في الاقتصاد العالمي.

من الوجهة السياسية، كانت نهاية المرحلة الليبرالية تعني، حرفيّاً، ما تدل عليه هذه العبارة، ففي بريطانيا، كان الويغ/الأحرار (بالمعنى

الفضفاض لهذا المصطلح الذي يشير إلى من لم يكونوا من التوري/المحافظين) يمسكون بزمام السلطة (عدا فترات استثنائية وجيزة) من عام 1848 إلى عام 1874. أما في الربع الأخير من القرن التاسع عشر، فلم يتولوا الحكم لأكثر من ثماني سنوات. أما في ألمانيا والنمسا، فإن الليبراليين لم يعودوا، منذ السبعينيات، يمثلون القاعدة البرلمانية الأساسية للحكومات إذا اقتضى الأمر. وتضافرت، لتقويض نفوذهم، الهزيمة التي منيت بها دعوتهم إلى التجارة الحرة، وقصور الحكم (الخامل نسبياً)، وشيوع الديمقراطية في السياسات الانتخابية[3]، فتبدد بذلك كله الوهم الذي روجوا له بأنهم هم الذين يمثلون الجماهير. وقد عزز الكساد الاقتصادي من الضغوط الحِمائية لبعض الصناعات والمصالح الزراعية الوطنية. وانقلب تيار التجارة الحرة على أعقابه في روسيا والنمسا عام 1874/ 1875، وفي إسبانيا عام 1877، وألمانيا عام 1879، وفي كل مكان آخر، عملياً، باستثناء بريطانيا ـ بل إن التجارة الحرة كانت تتعرض هنا للضغط اعتباراً من الثمانينيات. ومن ناحية أخرى، تعاظمت الضغوط المؤثرة سياسياً. من الأسفل ومن «عامة الناس» المطالبين بالحماية من «الرأسماليين»، وبالضمان الاجتماعي، وباتخاذ الإجراءات ضد البطالة، وبإقرار الحد الأدنى من الأجور للعمال. ذلك أن «الطبقات المرفهة» سواء منها تراتبيات النبالة القديمة أو البورجوازية الجديدة، لم تعد مؤهلة للتحدث باسم «الطبقات الكادحة»، أو أنها، بعبارة أدق، لم تعد تعتمد على دعم لا ثواب له من جانب المستضعفين.

لقد تنامت، من ثم، دولة اقتحامية متعاظمة السطوة، ونشأت داخلها صيغة للنشاط السياسي طالما تخوف من قيامها المفكرون المعادون للديمقراطية. «إن النسخة الحديثة من حقوق الإنسان»، كما يقول المؤرخ جاكوب بيركهاردت (Jacob Burckhardt) (1870)، «تتضمن حق العمل والعيش. ذلك أن الناس لم يعودوا راغبين في أن يتركوا القضايا

---

(3) انظر الفصل السادس من هذا الكتاب.

الحيوية ليتدبرها المجتمع، لأنهم يطلبون المستحيل، وهم يتصورون أنه لا يمكن إقرار هذه الحقوق إلا بإجراءات إرغامية من جانب الدولة»[4]. إن ما كان يقلق أعداء الديمقراطية أولئك لم يكن مطالبة الفقراء شبه اليوتوبية بحقوق الحياة الكريمة فقط، بل قدرة الفقراء على فرض مثل هذه الحقوق. «إن الجماهير يريدون السلام والأجر. وسيصفّون إلى جانب الطرف الذي سيقدمهما إليهم، سواء أكان جمهورياً أم ملكياً، وإلا فإنهم سيرحبون، دونما جلبة، بأول دستور يعدهم بتحقيق ما يريدون»[5]. وفي هذه الحالة، فإن الدولة، التي لم يعد يسيّرها الاستقلال الأخلاقي أو التقاليد التي منحته، ولا الاعتقاد بأنه لا يمكن انتهاك القوانين الاقتصادية، ستتحول على نحو متزايد إلى لوياثان/ وحش رهيب جبار في واقع الممارسة، مع أنها، نظرياً، مجرد أداة لتحقيق أهداف الجماهير.

بمقاييسنا الحديثة، تبدو الزيادة متواضعة في دور الدولة والوظائف المنوطة بها، مع أن معدل الإنفاق على الفرد (أي الأنشطة)، تزايد في كل مكان تقريباً خلال تلك الفترة. ويعود ذلك أساساً إلى الارتفاع الحاد في الدين العام (إلا في المواقع الحصينة لليبرالية، والسلم، ومشروعات القطاع الخاص غير المدعومة، وهي: بريطانيا، هولندا، بلجيكا، والدانمارك)[6]. غير أن الإنفاق الاجتماعي على الخدمات العامة، ربما باستثناء التعليم، ظل زهيداً جداً في كل الحالات. ومن جهة أخرى، برزت في الميدان السياسي ثلاثة اتجاهات جديدة من غمرة التوترات

(4) Jakob Burckhardt, *Reflections on History* = *Weltgeschichtliche betrachtungen*, Translated by M. D. H. (London: G. Allen & Unwin ltd., [1943]), p. 116.

(5) المصدر نفسه، ص 171.

(6) تجلت زيادة الإنفاق تلك بصورة أكبر في البلدان النامية في ما وراء البحار، التي كانت عاكفة في تلك الفترة على إقامة البنية التحتية لاقتصادها عن طريق الصادرات الرأسمالية، وهي: الولايات المتحدة، كندا، أستراليا، والأرجنتين.

والحيرة التي ارتبطت بحقبة الكساد الاقتصادي. وقد اندمجت كلها في كل مكان تقريباً في تيار واحد من الاضطراب والتذمر الاجتماعي.

تمثل الاتجاه **الأول**، وهو الذي يبدو أكثر حدةً، في ظهور أحزاب وحركات عمالية مستقلة ذات توجهات اشتراكية على العموم (وماركسية على الأغلب). وكان الحزب الديمقراطي الاجتماعي الألماني هو الرائد والأكثر تأثيراً في هذا المجال. ومع أن الحكومات والطبقات الوسطى كانت تعتبر هذه الحركات هي الأكثر خطراً، فإنها كانت، في واقع الأمر، تشاركها القيم والافتراضات التي اتسم بها التنوير العقلاني الذي ارتكزت عليه الليبرالية. ولم تكن النزعة **الثانية** تتبنى مثل هذا التراث، بل تعارضه معارضة تامة، وبرزت الأحزاب الغوغائية المناوئة لليبرالية والاشتراكية في الثمانينيات والتسعينيات، بعد أن انسحب أعضاؤها من تحت مظلة انتمائهم الليبرالي السابق ـ مثل القوميين الألمان اللاساميين الذين أصبحوا هم أسلاف الهتلرية، أو بقوا في أحضان الكنيسة التي ظلت خاملة سياسياً حتى ذلك الوقت، ومنهم «الاشتراكيون المسيحيون» في النمسا[7]. أما التيار **الثالث**، فقد أنطلق بعد تحرر الأحزاب والحركات الجماهيرية القومية من ارتباطها الأيديولوجي السابق بالراديكالية الليبرالية. ونزعت بعض الحركات الداعية إلى الاستقلال الذاتي أو الوطني، نظرياً على الأقل، إلى الاشتراكية، وبخاصة عندما تؤدي الطبقة العاملة دوراً مهماً في بلادها. غير أنها كانت اشتراكية وطنية لا أممية (ومنها ما يسمى حزب الشعب الاشتراكي التشيكي، والحزب الاشتراكي البولندي)، كما أن العنصر الوطني كان يغلب فيها

---

(7) كان ذلك لأسباب عدة، أهمها الموقف الضيق الأفق، المغرق في الرجعية، الذي وقفه الفاتيكان في عهد البابا بيوس التاسع (1846 ـ 1878). وقد أخفقت الكنيسة الكاثوليكية في استخدام نفوذها الهائل بفاعلية في النشاط السياسي الجماهيري، إلا في عدد قليل من البلدان الغربية كانت تمثل فيها أقلية مضطرة إلى تنظيم نفسها بوصفها جماعة ضاغطة ـ قبل «حزب الوسط» في ألمانيا اعتباراً من سبعينيات القرن.

على الاشتراكي. واتجهت حركات أخرى إلى أيديولوجيات تقوم على رابطة الدم، والأرض، واللغة، وعلى ما كان يعتبر من مكونات التقاليد الإثنية.

غير أن ذلك لم يؤثر في النمط السياسي الأساسي للدول النامية التي برزت في ستينيات القرن، وهو التقرب التدرجي، وإن على مضض، من الديمقراطية الدستورية، إلا أن بروز الأنشطة السياسية الجماهيرية غير الليبرالية، مع أنها مقبولة من الوجهة النظرية هو الذي أفزع الحكومات، فقبل أن تتعلم كيفية تشغيل النظام الجديد، كانت أحياناً تميل إلى الانتكاس وتصاب بالهلع، وتلجأ إلى الإجراءات القسرية - وتجلى ذلك، على نحو خاص، خلال فترة «الكساد الكبير» فالإمبراطورية الثانية لم تسمح لمن بقي على قيد الحياة بعد مجزرة الكومون بالنشاط السياسي مجدداً إلا في أوائل الثمانينيات. كما أن بسمارك، الذي عرف كيف يسير البورجوازيين الليبراليين، ولكنه لم يحسن إدارة حزب اشتراكي جماهيري أو حزب كاثوليكي جماهيري، بل إنه حظر نشاط الديمقراطيين الاشتراكيين عام 1879، وانتهج غلادستون سياسة الإرغام والقسر في أيرلندا. غير أن ذلك كان إجراء موقتاً أكثر منه توجهاً دائماً. ذلك أن إطار البورجوازية السياسي (حيثما وجد) لم يبلغ درجة الانكسار إلا في وقت متقدم من القرن العشرين.

وعلى الرغم من أن الفترة التي تعالجها هذه الدراسة تمتد إلى أيام «الكساد الكبير» المضطربة، فإن من الخطأ أن نرسم صورة ملونة برّاقة لتلك المرحلة. فخلافاً للكساد الذي وقع في ثلاثينيات القرن العشرين، بلغت المصاعب الاقتصادية نفسها حدّاً من التعقيد والحدة، دفع المؤرخين إلى الشك فيما إذا كان لاستخدام مصطلح «الكساد» ما يبرره لوصف السنين العشرين التي أعقبت الانتهاء منه هذه المرحلة. وهم يجانبون الصواب في ذلك، غير أن في شكوكهم ما يكفي لتحذيرنا من الغلو والإثارة في معالجة هذه الفترة. إن بنية العالم الرأسمالي في منتصف

القرن التاسع عشر لم تتفسخ لا اقتصادياً ولا سياسياً. لقد دخل ذلك العالم طوراً جديداً، ولكن حتى في شكل الليبرالية المعدل بالتدريج، فإن مجالات التوسع كانت مفتوحة. وكان الوضع مختلفاً عما هو عليه في البلدان الفقيرة المقموعة المتخلفة الناقصة النمو، أو في تلك الواقعة، مثل روسيا، بين عالم المنتصرين وعالم الضحايا، ففي تلك البلدان كان «الفساد الكبير» استهلالاً لثورة وشيكة. ولكن عالم البورجوازية الظافرة بدا بعد جيل أو جيلين بأنه لا يزال محتفظاً بصلابته. وربما كان أقل ثقة بنفسه مما كان من قبل، وغدا تشدده في التأكيد على هذه الثقة أكثر حدّة، وربما أكثر قلقاً على مستقبله. وربما أصبح أكثر حيرة إزاء انهيار الحقائق الفكرية اليقينية القديمة التي أكدها المفكرون، والفنانون، والعلماء (وبخاصة بعد ثلاثينيات القرن) بالمغامرات الاستكشافية في أصقاع العقل الجديدة المحيرة. بيد أن التقدم استمر دونما هوادة في المجتمعات البورجوازية، والرأسمالية وأوساط الليبراليين عموماً. لقد كان «الكساد الكبير» مجرد فاصل بين عصرين. ألم يكن العالم آنذاك ينعم بالتوسع الاقتصادي، والتقدم العلمي والتقني، والتحسن، والسلام؟ ألن يكون القرن العشرون نسخة أكثر عظمة ونجاحاً من القرن التاسع عشر؟ إننا نعلم الآن أنه لم يكن كذلك.



الجدول (1)

أوروبا والولايات المتحدة: الدول والموارد

	1850-1847			1880-1876		
	السكان (بالمليون)	القوة البخارية (ألف حصان)	عدد المدن (50 ألف نسمة فأكثر)	السكان (بالمليون)	القوة البخارية (ألف حصان)	الوحدات البريدية للفرد
المملكة المتحدة	27	1,290	32	32,7	7,600	48,2
فرنسا	34,1	370	14	36,9(**)	3,070	29,5
ألمانيا	–	–	17	42,7	5,120	28,7
بروسيا	11,7	92				
بافاريا	4,8					
سكسونيا	1,8					
هانوفر	1,8					
فوتنبرغ	1,7					
بادن	1,3					
32 دولة أخرى بين 0,02 و 0,9 (النمسا)	(*)					
روسيا	66,0	70	8	85,7	1,740	2,6
النمسا وهنغاريا	37,0	100	13	37,1(**)	1,560	12,0
إيطاليا	–	–		27,8	500	13,4
2 صقلية	8,0		4			
سردينيا	4,0		2			
الدويلات البابوية	2,9		1			
توسكانيا	1,5		2			
3 دول أخرى بين 0,1 و 0,5 (النمسا) إسبانيا						
إسبانيا	12,3	20	8	16,6	470	7,1
البرتغال	3,7	0	2	4,1	60	5,4
السويد (بما فيها النرويج)	3,5	0	1	4,3	310	12,5

(*) أجزاء الإمبراطورية النمساوية الداخلة في «الاتحاد الجرماني» حتى عام 1866.

(**) خسارة أو زيادة رئيسية في الأرض/ السكان، 1847-1876.

الدانمارك	1,4	0	1	1,9[**]	90	26,6
هولندا	3,0	10	5	3,9	130	29,5
بلجيكا	4,3	70	5	5,3	610	35,5
سويسرا	2,4	0	0	2,8	230	46,1
الإمبراطورية العثمانية	30[***]	0	7	28 (1877)[**]	–	؟
اليونان	1,0	0	–	1,9	0	2,3
الصرب	0,5	0	–	1,4	0	0,7
رومانيا	–	–	–	5,0	0	1,5
الولايات المتحدة	23,2	1,680	7	50,2[**]	9,110	74,7

الجدول (2)

I كثافة شبكة السكة الحديد، 1880[1]

كم² (لكل 10,000 نسمة)	الدولة
1,000 فأكثر	بلجيكا
750 فأكثر	المملكة المتحدة
500 فأكثر	سويسرا، ألمانيا، هولندا
250–499	فرنسا، الدانمارك، النمسا، هنغاريا، إيطاليا
100–249	السويد، إسبانيا، البرتغال، رومانيا، الولايات المتحدة الأمريكية، كوبا
50–99	تركيا، تشيلي، نيوزيلندا، ترينيداد، فيكتوريا، جاوه
10–49	النرويج، فنلندا، روسيا، كندا، أوروغواي، الأرجنتين، بيرو، كوستاريكا، جامايكا، الهند، سيلان، تسمانيا، نيو ساوث ويلز، جنوب أستراليا، مستعمرة كيب، الجزائر، مصر، تونس

II السكة الحديد والسفن البخارية 1830–1876[2]

	السكة الحديد بالكيلومتر	السفن البخارية بالطن
1831	332	32,000
1841	8,591	105,121
1846	17,424	139,973
1851	38,022	263,679
1856	68,148	575,928

(***) مناطق أوروبية فقط.

(1) Franz Xaver von Neumann-Spallart, *Übersichten der Weltwirtschaft* (Stuttgart: Julius Maier, 1880-), pp. 335 ff.

(2) المصدر نفسه.

1861	106,886	803,003
1866	145,114	1,423,232
1871	235,375	1,939,089
1876	309,641	3,293,072

III حركة الملاحة البحرية في العالم، التوزيع الجغرافي لكميات الشحن بالطن، 1879[3]

المساحة	الإجمالي بالأطنان (بالألف)	المساحة	الإجمالي بالأطنان (بالألف)
أوروبا		بقية العالم	
البحر القطبي	61	أمريكا الشمالية	3,783
بحر الشمال	5,536	أمريكا الجنوبية	138
البلطيق	1,275	آسيا	700
الأطلسي، بما فيه بحر أيرلندا والقنال	4,553	أستراليا والمحيط الهادي	359
غرب البحر المتوسط	1,356		
شرق البحر المتوسط، بما فيه الأدرياتيكي	604		
البحر الأسود	188		

الجدول (3)

إنتاج الذهب والفضة في العالم، 1830–1875 (بالألف كيلوغرام)[4]

	الذهب	الفضة
1840–1831	20,3	596,4
1850–1841	54,8	780,4
1855–1851	197,5	886,1
1860–1851	206,1	905,0
1865–1861	198,2	1,101,1

(3) A. N. Kiaer, *Statistique internationale de la navigation maritime* (Christian: [n. pb.], 1880; 1881).

(4) Neumann-Spallart, Ibid., p. 250.

1870–1866	191,9	1,339,1
1875–1871	170,7	1,969,4

الجدول (4)

الزراعة في العالم 1840–1887[5]

	قيمة المنتجات (بملايين الجنيهات)		عدد المستخدمين (بالألف)	
	1840	1887	1840	1887
بريطانيا	218	251	3,400	2,460
فرنسا	269	460	6,950	6,450
ألمانيا	170	424	6,400	8,120
روسيا	248	563	15,000	22,700
النمسا	205	331	7,500	10,680
إيطاليا	114	204	3,600	5,390
إسبانيا	102	173	2,000	2,720
البرتغال	18	31	700	870
السويد	16	49	550	850
النرويج	8	17	250	380
الدانمارك	16	35	280	420
هولندا	20	39	600	840
بلجيكا	30	55	900	980
سويسرا	12	19	300	440
تركيا، إلخ	98	194	2,000	2,900
أوروبا	1,544	2,845	50,430	66,320
الولايات المتحدة الأمريكية	184	776	2,550	9,000
كندا	12	56	300	800
أستراليا	6	62	100	630
الأرجنتين	5	42	200	600
أوروغواي	1	10	50	100

(5) Michael G. Mulhall, *The Dictionary of Statistics* (London; New York: G. Routledge and Sons, 1892), p. 11.

الخـرائـط



العالم عام 1847

العالم عام 1880 أو نحوه

كندا
4,5 مليون نسمة

كوبا الإسبانية
1 مليون نسمة

المكسيك

البرازيل

الجزائر
الفرنسية
1 مليون نسمة

الترانسفال

دولة أورانج الحرة

الإمبراطورية الروسية

الإمبراطورية العثمانية

الإمبراطورية الفارسية

الإمبراطورية الصينية

اليابان

الهند
199 مليون نسمة

سيلان
3 مليون نسمة

الفيليبين الإسبانية
5,6 مليون
نسمة

كوتشن
الصين
2 مليون نسمة

الهند الشرقية
الهولندية
20 مليون نسمة

أستراليا
3 مليون نسمة

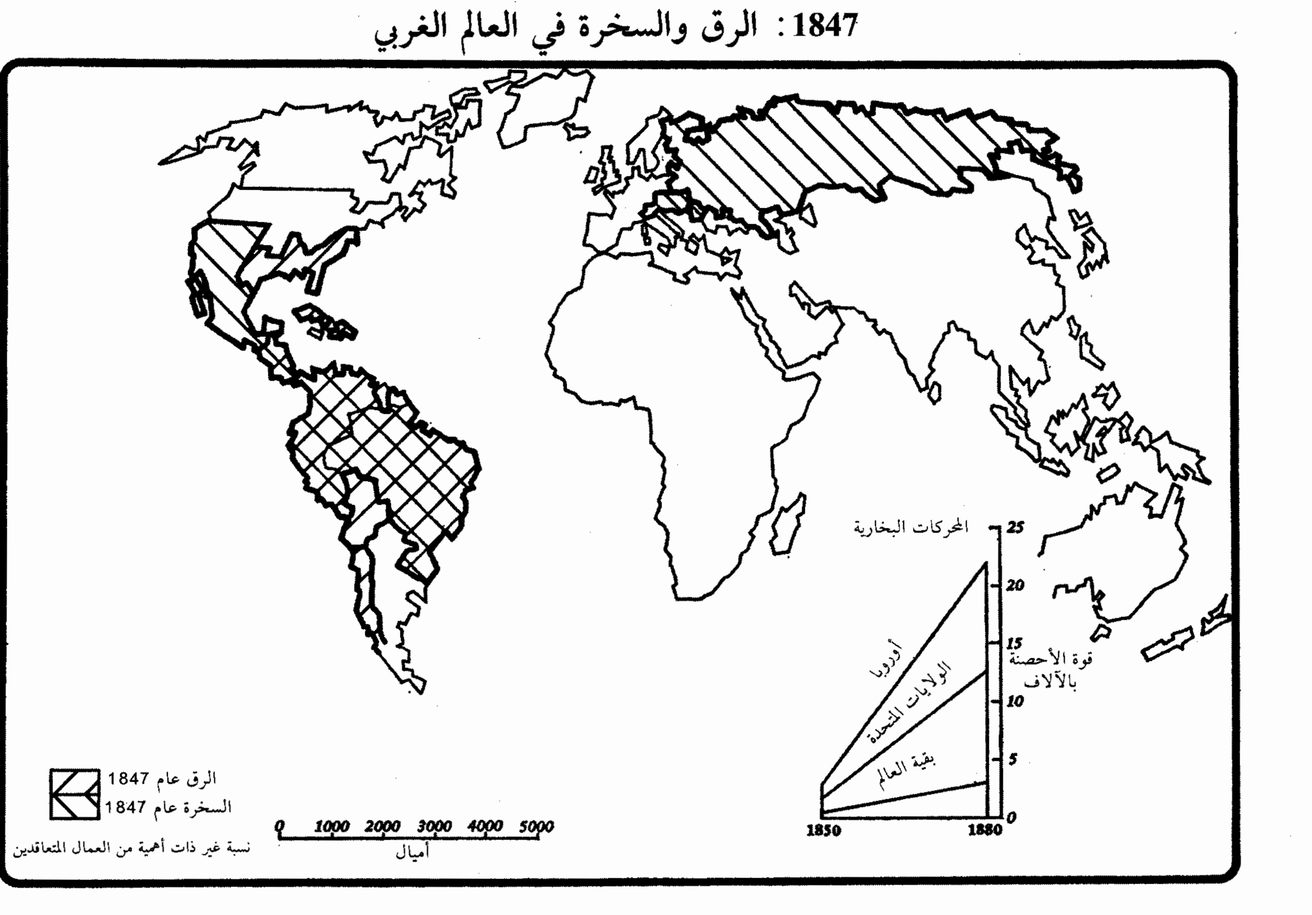
الدانمارك
السويد
المملكة
المتحدة
هولندا
بلجيكا
ألمانيا
الإمبراطورية الروسية
فرنسا
سويسرا
إمبراطورية
الهابسبرغ
رومانيا
الصرب
مونتي-
نيغرو
بلغاريا
البرتغال
إسبانيا
إيطاليا
اليونان
الإمبراطورية العثمانية

0 أميال 300

0 1000 2000 3000 4000 5000
أميال

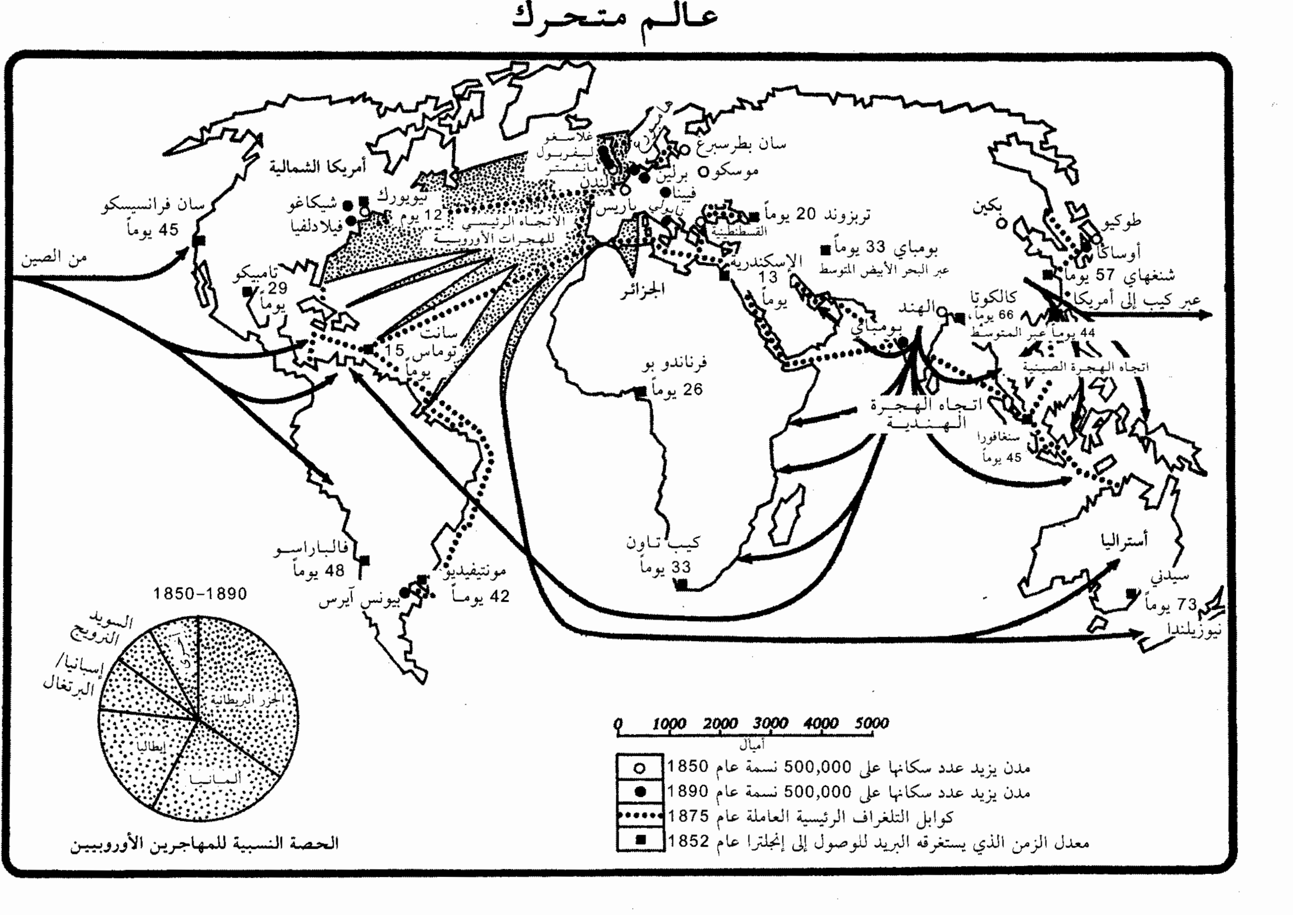
مستعمرات أوروبية
جمهوريات
دول عدد سكانها 5-10 مليون نسمة
دول عدد سكانها أكثر من 10 مليون نسمة

1847 : الرق والسخرة في العالم الغربي



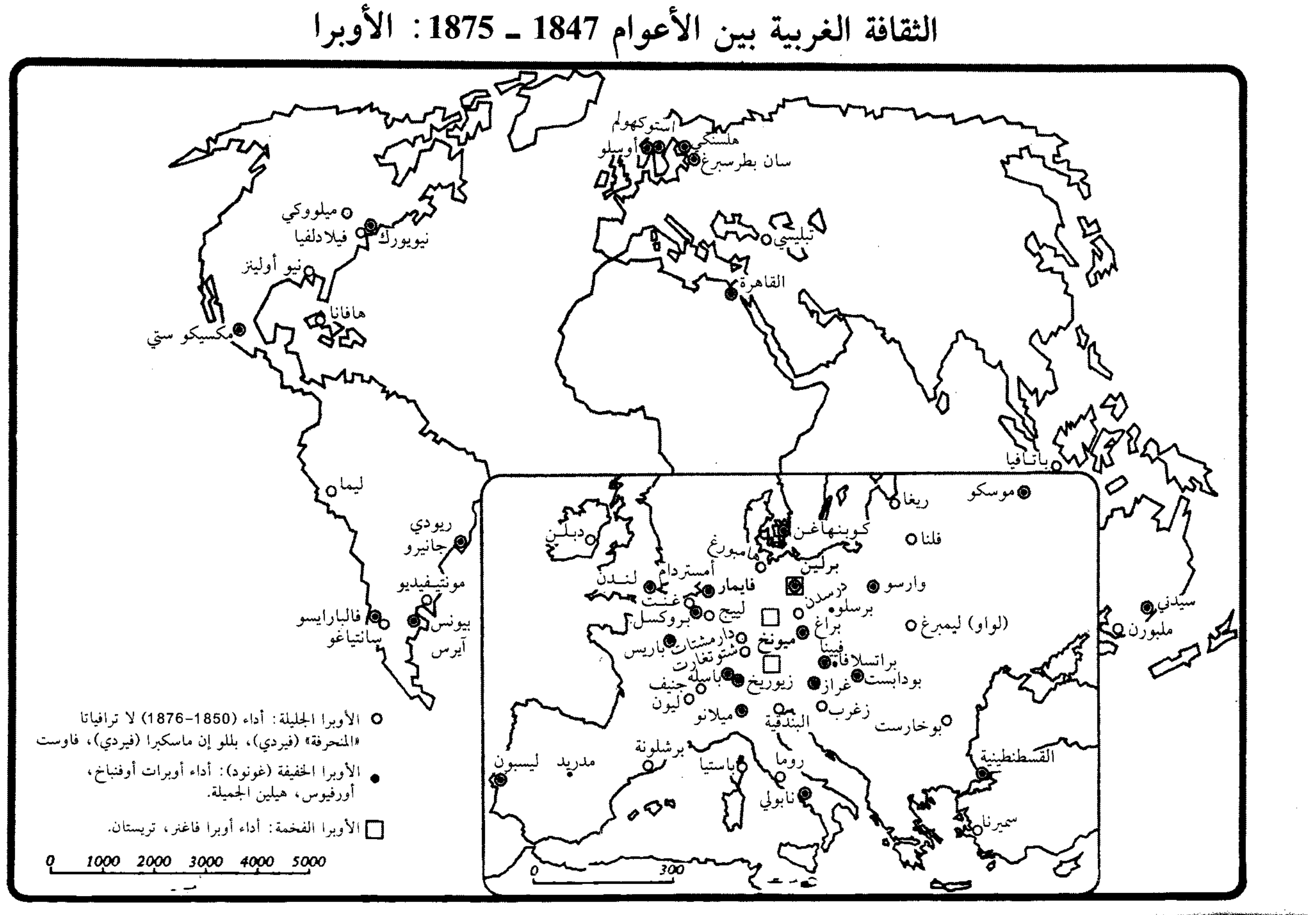
1880 : الرق والسخرة في العالم الغربي

عالم متحرك



أمريكا الشمالية
سان فرانسيسكو 45 يوماً
من الصين
شيكاغو
فيلادلفيا
نيويورك 12 يوم
تاميكو 29 يوماً
سانت توماس 15 يوماً
الاتجاه الرئيسي للهجرات الأوروبية
غلاسغو
ليفربول
مانشستر
لندن
باريس
برلين
فيينا
نابولي
سان بطرسبرغ
موسكو
تربزوند 20 يوماً
القسطنطينية
الإسكندرية 13 يوماً
بومباي 33 يوماً عبر البحر الأبيض المتوسط
الجزائر
فرناندو بو 26 يوماً
كيب تاون 33 يوماً
بومباي
الهند
كالكوتا 66 يوماً
44 يوماً عبر المتوسط
بكين
طوكيو
أوساكا
شنغهاي 57 يوماً
عبر كيب إلى أمريكا
اتجاه الهجرة الصينية
اتجاه الهجرة الهندية
سنغافورا 45 يوماً
أستراليا
سيدني 73 يوماً
نيوزيلندا
فالباراسو 48 يوماً
مونتيفيديو 42 يوماً
بيونس آيرس
1850–1890
السويد النرويج
إسبانيا/ البرتغال
إيطاليا
ألمانيا
الجزر البريطانية
الحصة النسبية للمهاجرين الأوروبيين
0 1000 2000 3000 4000 5000
أميال
مدن يزيد عدد سكانها على 500,000 نسمة عام 1850
مدن يزيد عدد سكانها على 500,000 نسمة عام 1890
كوابل التلغراف الرئيسية العاملة عام 1875
معدل الزمن الذي يستغرقه البريد للوصول إلى إنجلترا عام 1852

الثقافة الغربية بين الأعوام 1847 ـ 1875 : الأوبرا



الثبت التعريفي

يقدم المؤرخ البريطاني إريك هوبْزباوم في ثلاثيته المَعْلَمية (**عصر الثورة**[*]، **عصر رأس المال**، و**عصر الإمبراطورية**) تحليلاً نقدياً وموسوعياً شاملاً لتاريخ أوروبا بين الأعوام 1789 و1914، وتداعياته وانعكاساته على العالم والمنطقة العربية. ويتناول المؤلف، بمنهجه المعهود، التاريخ الحضاري بأبعاده السياسية والاقتصادية والثقافية (من حيث الدين، والعلوم، والفلسفة، والأدب، والفنون). من هنا، حفلت هذه المؤلفات بالعديد من المصطلحات والمفاهيم، علاوةً على كمٍّ هائل من أسماء الأعلام. وقد فعلنا في هذا الكتاب ما فعلناه في المجلد الأول من الثلاثية، فقصرنا هذا الثبت على المفاهيم والمصطلحات، وأرجأنا مسرد الأعلام الإيضاحي للثلاثية كلها لينشر كاملاً في ترجمة الكتاب الثالث **عصر الإمبراطورية**، الذي سيصدر قريباً استكمالاً لهذه السلسلة.

آركاديا (Arcadia): منطقة جبلية في أواسط شبه جزيرة البلوبونيز باليونان. اشتهرت بأنها مَوئل الرعاة البسطاء القانعين بما قُسم لهم. تغنّى بها الشعراء اليونانيون والرومانيون القدامى وأدباء عصر النهضة واعتبروها جنةً على الأرض.

(*) إريك هوبْزباوم، **عصر الثورة**، ترجمة فايز الصُيّاغ؛ تقديم مصطفى الحمارنة (بيروت: المنظمة العربية للترجمة، 2007) (المترجم).

الأبْرَشانيّة (Congregationalism): ضربٌ من التنظيم الكَنَسيّ تتمتع فيه كلُّ أبرشية - ضمن نطاق منطقتها - باستقلال ذاتي في الشؤون الكنسية. ويُطلق اسم الأبرشانيين (Congregationalists) أو المستقلين (Independents) على أعضاء مجموعة من الكنائس التي نشأت في إنجلترا في أواخر القرن السادس عشر وخلال القرن السابع عشر التي أكدت حقّ كل أبرشية في اتخاذ قراراتها بمعزل عن أي سلطة بشرية عُليا. والأبرشانيون يقبلون المعتقدات الأساسية التي قامت عليها البروتستانتية، وكنائسهم منتشرة، في المقام الأول، في بريطانيا والولايات المتحدة الأمريكية.

الإحاثة، علم/ البَلْيونتولوجيا (Paleontology): علمٌ يبحث بأشكال الحياة في العصور الجيولوجية الغابرة كما تمثّلها الأحافير الحيوانية والنباتية. نشأ في أوائل القرن التاسع عشر، فألقى الأضواء على كثير من المسائل النشوئية، وعلى مسائل تصنيف الحيوان والنبات والعوامل التي تحدّد توزّعهما الجغرافيّ.

الأرواحية (Animism): الاعتقاد بأن الروح (أو النفس) هي المبدأ الأساسي المنظِّم للكون. وبمعنى أخصّ، الاعتقاد بأن لكل شكل ماديّ من أشكال الحقيقة (كالنباتات والحجارة) ولكل ظاهرة من ظواهر الطبيعة (كالعواصف الرعدية والزلازل) روحاً أو نفساً، والإيمان بخلود الأرواح بعد موت الجسد، واهتمامها المستمرّ بالشؤون البشرية، وقدرتها على نَفْع الناس أو إنزال الأذى بهم. والأرواحية، بهذا المعنى، منتشرة في أفريقيا الوسطى وأجزاء من آسيا وبعض جزر المحيط الهادي.

الأزْتك؛ الأزْتكيون (Aztec): شعب هندي أحمر استقرّ في المكسيك (أواخر القرن الثاني عشر)، وأنشأ إمبراطورية أطاح بها الفاتح الإسباني كورتيز (عام 1521). ابتكر الأزتكيون نوعاً من الكتابة الهيروغليفية، ووضعوا تقويماً دقيقاً، وكانت لهم حضارة تميّزت بتقدّم نسبيّ في العلوم والفنون. وعبدوا آلهة متعددة، كان من عادتهم أن يقدّموا على مذبحها قرابين بشرية.

الإسبيرانتو (Esperanto): لغة دولية صُنعيّة بُنيت على أساس الكلمات المشتركة في اللغات الأوروبية الرئيسية. اخترعها عام 1887 العالم اللغوي البولندي الدكتور زامنهوف (Zamenhof) الذي اتخذ لنفسه اسماً مستعاراً هو الدكتور إسبيرانتو (أي المُفعم بالأمل). ويزيد عدد الناطقين بالإسبيرانتو اليوم على مئة ألف شخص. وهناك أكثر من مئة مجلة تُنْشَر بهذه اللغة. وصدر بها حتى الآن ما ينوف على 30 ألف كتاب، معظمها مترجَم.

الأسلوب الباروكي (Baroque; Baroque Style): أسلوب في التعبير الفني ازدهر في أوروبا من عام 1600 إلى عام 1750 وهو يتميز بدقة الزخرفة وتساوقها، وأحياناً بغرابتها، وباصطناع الأشكال المنحنية (في فن العمارة)، وبالحركيّة والحيوية (في الرسم) وبالتعقيد والصور الغريبة الغامضة (في الأدب)، وبالصّرامة والتوازن الدقيق بين مختلف العناصر (في الموسيقى). وهو ينسب إلى الرسّام الإيطالي فيديريكو باروتشي (Federigo Barocci) (1528 ـ 1612). أما مؤسسه الحقيقي، في ميدان العمارة بخاصة، فهو جيوفاني برنيني (Giovanni Bernini) (1598 ـ 1680).

الإعتاق، إعلان؛ إعلان تحرير الأرقّاء (Emancipation Proclamation): إعلان أصدره الرئيس أبراهام لنكولن في أول كانون الثاني/ يناير 1863، في أثناء الحرب الأهلية الأمريكية، مُلْغياً به الاسترقاق (Slavery) في الولايات الأمريكية الجنوبية، وداعياً الزنوج المحرَّرين إلى الامتناع عن استخدام العنف إلا في حال الدفاع عن النفس. وفتح هذا الإعلان أبواب الجيش الأمريكي في وجه المتطوّعين السُّود، فانضم إلى صفوفه منهم نحو 180 ألف رجل.

إعلان حقوق الإنسان والمواطن (Declaration of the Rights of Man and of the Citizen): وثيقة أساسية من وثائق حقوق الإنسان تبنّتها الجمعية الوطنية الفرنسية في 20 ـ 26 آب/ أغسطس من عام

1789. قوامها سبع عشرة مادة، اشتملت المبادئ التي استلهمتها الثورة الفرنسية. وأهمّ ما وردَ في هذه الوثيقة إعلانُها أن «جميع الناس وُلدوا أحراراً ومتساوين في الحقوق»، وتوكيدها احترام الملكية الشخصية، وحرية العبادة، وحرية التعبير، وحقّ المواطن في مقاومة الاضطهاد، وعدم جواز اعتقاله إلا بأمر قضائي.

الإنسان النِّيانْدَرتالي/ إنسان النِّياندَرتال (Neanderthal Man): إنسان قبل ـ تاريخي، سكن أجزاء واسعة من أوروبا والمناطق المحيطة بالبحر الأبيض المتوسط في أواخر الحينْ البليستوسيني أو العصر الحديث الأقرب. وُجدت بقايا هيكله العظميّ عام 1856 في وادي النِّياندرتال على مقربة من مدينة دوسَلْدورف في ألمانيا. وهو يتميّز بفكّيْه البارزين، وجبينه الخفيض، وعنقه القصير الضخم.

الانطباعيّة (Impressionism): مذهب في الرسم ازدهر في فرنسا ما بين العام 1867 والعام 1886، على وجه التخصيص، على يد مجموعة من الفنانين «الثوريين» الذين ضاقوا ذرعاً بالقواعد الأكاديمية التقليدية والموضوعات التوراتية الميثولوجية والتاريخية. وأبرز ما يميِّز الانطباعيين هَجْرهم «المحترَف» أو «الأستديو» وانطلاقهم إلى أحضان الطبيعة يصوّرون شواطىء البحار، والخمائل، والأشجار الملتفّة. ومن أبرز الانطباعيين أدوار مانيه، وكلود مونيه، وبيار أوغست رينوار، وإدغار ديغا، وكميل بيسّارو.

الأنغليكانية، الكنيسة (Anglican Church): كنيسة إنجلترا الرسمية. انفصلت عن الكنيسة الكاثوليكية عندما سحَبَ الملك هنري الثامن اعترافه بسلطة البابا وأعلن نفسه رئيساً أعلى لكنيسة إنجلترا (عام 1534). ويطلق اسم الاتحاد الأنغليكاني (Anglican Communion) على اتحاد الكنائس الأنغليكانية الوطنية المستقلة العاملة في مختلف أرجاء العالم. وهو اتحاد لا يُلزم هذه الكنائس بالتخلي عن شخصيتها بل يُلزمها بمجرد الولاء المشترك لكبير أساقفة كانتربري (Canterbury) بوصفه رئيسَ شرف لها.

الإنكاويّون (Incas): شعب بيرو الهندي الأحمر الذي أنشأ قبل الفتح الإسباني حضارةً راقية نسبيّاً وإمبراطوريةً واسعة كانت عاصمتها، ابتداءً من القرن الثاني عشر للميلاد، مدينة كوسكو في بيرو. وبلغت هذه الإمبراطورية أقصى اتساعها حوالى العام 1400، شملت ما يُعرف اليوم ببيرو، وإكوادور، وبوليفيا، والجزء الغربي من الأرجنتين، والنصف الشمالي من تشيلي. ولكنها سرعان ما انهارت بعد أن فتحها المستكشف الإسباني فرانسيسكو بتْزارّو (1531ـ 1533).

أوسترليتز (Austerlitz): بلدة في مورافيا (Moravia)، في تشيكوسلوفاكيا الحديثة، دارت قربها معركة تاريخية حاسمة (2 كانون الأول/ ديسمبر 1805) هَزم فيها نابليون بونابرت الجيوشَ الروسية والنمساوية مجتمعةً. وتُعرف هذه المعركة أيضاً بـ «معركة الأباطرة الثلاثة» (Battle of the Three Emperors) (نابليون بونابرت ـ فرنسا، وفرنسيس الأول ـ النمسا، وألكْسَندر الأول ـ روسيا).

برلين، مؤتمر (Congress of Berlin): مؤتمر عقده في برلين (13 حزيران/ يونيو ـ 13 تموز/ يوليو 1878) ممثلو الدول الأوروبية الكبرى، برئاسة بسمارك، لحلّ الأزمة الدولية التي نشبت بسبب من معاهدة سان ستيفانو (San Stefano) التي كانت قد عقدت في 3 آذار/ مارس 1878، بين روسيا والدولة العثمانية إثر الحرب الروسية التركية (1877 - 1878). وألغى المؤتمر هذه المعاهدة واستعاض عنها بمعاهدة جديدة عُرفت بمعاهدة برلين، مُرضياً بذلك بريطانيا (بحرمان روسيا من المكاسب التي منحتها إياها معاهدة سان ستيفانو وبالإبقاء على الإمبراطورية العثمانية دولةً أوروبية) ومُرضياً النمسا ـ (Bosnia and Herzegovina)، مّا عزَّز نفوذها في البلقان. ولكن المؤتمر أخفق في تحقيق آمال شعوب البلقان نفسها في الحرية والاستقلال، وبذلك مهد لأزمات مُقبلة شهدتها شبه جزيرة البلقان.

البنثامية (Benthamism): فلسفة جيريمي بنثام (1748 - 1832)

وهو مشرّع وفيلسوف وعالم اقتصاد إنجليزي. كان لمحاولاته حلّ المشكلات الاجتماعية بطريقة علمية أثرٌ كبير في الفكر الإصلاحي في القرن التاسع عشر. وقد وضع تلك الفلسفة في كتابه **مقدمة لمبادئ الأخلاق والتشريع** (*An Introduction to the Principles of Morals and Legislation*) (عام 1789)، وخلاصتها أن المتعة هي غايةُ الحياة الأساسية، وأن هدف القانون هو تحقيق أكبر قدر من السعادة لأكبر عدد من الناس.

بوربون، أسرة (Bourbon): أسرة ملكية فرنسية حكمت فرنسا (1589 ـ 1792) و(1814 ـ 1848)؛ وحكمَ فرعان آخران منها إسبانيا (1700 ـ 1931) باستثناء سنوات قليلة، ونابولي وصقلية (1734 ـ 1860 على وجه التقريب). ويُعتبر هنري الرابع أول ملوك آل بوربون في فرنسا (1589 ـ 1610).

البيوريتانية/ التَّطَهُّرية (Puritanism): حركة اجتماعية ولاهوتية ضمن الكنيسة البروتستانتية في إنجلترا والولايات المتحدة الأمريكية. نشأت في إنجلترا أواخر القرن السادس عشر بوصفها حركةً إصلاحية متأثرةً بالكالفينيّة، ومستهدفةً تبسيط طقوس العبادة وشعائرها والدعوة إلى التعلّق المتزمّت بأهداب الفضيلة. انفصلت في القرن السابع عشر عن كنيسة إنجلترا وقاومت الملك تشارلز الأول مقاومةً أدّت إلى نشوب الحرب الأهلية الإنجليزية (عام 1642). وقد حَمَلَها المهاجرون الإنجليز إلى نيو إنغلند في أمريكا الشمالية حيث تمتّعت حتى القرن التاسع عشر بسلطة أخلاقية كبيرة.

التحالف المقدّس (Holy Alliance): تحالفٌ عُقد في باريس 1815، بُعَيْد سقوط نابليون بونابرت، بين قيصر روسيا ألْكسَندر الأول وإمبراطور النمسا فرنسيس الأول وملك بروسيا فريدريخ وليم الثالث، وذلك بمبادرة من قيصر روسيا. تعهّد فيه المتعاقدون الثلاثة بأن يحكموا بلادهم وفقاً للمبادئ المسيحية، وبأن يبذلوا قصارى جهدهم للإبقاء على

الوضع الراهن في أوروبا. وقد انضمت إلى هذا التحالف فيما بعد الدول الأوروبية كلها باستثناء بريطانيا، واستغلّه ميترنيخ لتدعيم سياسته الرجعية.

التنوير؛ حركة التنوير (Enlightenment): حركة فكرية ظهرت في أوروبا في القرن الثامن عشر. شكّت في المعتقدات الموروثة، وبخاصة المعتقدات الدينية، وأكّدت التفكير العقلاني والطريقة العلمية، جاعلةً أولى مرتكزاتها الإيمانَ بأن الجنس البشري يستطيع، عن طريق العقل، الاهتداءَ إلى المعرفة والفوزَ بالسعادة في آنٍ معاً. أبرز ممثليها: لسِّنغ (Lessing) في ألمانيا، وهيوم (Hume)، ونيوتّن (Newton) في إنجلترا، وديديرو (Diderot)، ودالامبير (d'Alembert)، وفولتير (Voltaire)، ومونتيسكيو (Montesquieu)، وروسّو (Rousseau)، وسائر الأنسيكلوبيديين (Encyclopedists) في فرنسا.

الجرمانية، الجامعة (Pan-Germanism): حركة نشأت في أواخر القرن التاسع عشر مستهدفةً توحيدَ الشعوب الناطقة بالألمانية (وفي جملتهم أبناء البلدان الواطئة على اعتبار أن الهولندية والفلمنكية لهجتان ألمانيتان) في دولة ألمانيّة واحدة. والواقع أن بعض المتحمسين لهذه الحركة ذهبَ إلى حدّ المطالبة بضمّ الإسكندينافيين إلى تلك الدولة. وأدّت فكرة «الجامعة الجرمانية» إلى نشوء حركة التوسع الألماني قبل الحرب العالمية الأولى؛ ثمّ تبنّى أهدافَها، فيما بعد الحزبُ النازيّ.

الجمعيات التعاونية (Cooperative Societies): جمعيات للبيع بالتجزئة يؤلفها، على نحو طَوعي، جمهور من المواطنين، تحقيقاً لمنفعة مشتركة يَعُمُّ خيرُها جميع الأعضاء المنتسبين إليها. والجمعيات التعاونية يمتلكها عادةً العمال، أو الزُّراع، أو المستخدَمون، أو صغار المستهلكين وغيرهم من ذوي الدخل المحدود؛ هدفها الأساسي توفير السلع الضرورية لأعضائها بأسعار مخفضة تنشأ من إلغاء دور الوسيط. وخلال النصف الثاني من القرن التاسع عشر تطورت الحركة التعاونية، التي كان

روبرت أوين رائدها الأول، في المناطق الصناعية والتعدينية في اسكوتلندا وشمال إنجلترا.

الجيروندين؛ الحزب الجيروندي (Gironde also Girondins): حزب فرنسي جمهوري معتدل، قام بدور مهم في فترة معيّنة (1791 ـ 1793) من الثورة الفرنسية. عُرف بهذا الاسم لسيطرة عدد من نواب محافظة جيروند عليه. عارضت فئةٌ منه إعدام الملك لويس السادس عشر (عام 1793)، فاتُّهمت بالتواطؤ مع الملكيين. أطاح به اليعاقبة (Jacobins)، وأعدموا عدداً كبيراً من زعمائه (عام 1793).

الحرب الإسبانية الأمريكية (Spanish-American War): حرب دارت رحاها عام 1898 في كوبا والفيليبين وبورتوريكو بين إسبانيا من ناحية، والولايات المتحدة الأمريكية والثوار الكوبيين من ناحية ثانية. استهدفت تحرير كوبا من السيطرة الإسبانية، وأسفرت عن هزيمة الأسطول الإسباني وعقد معاهدة باريس (10 كانون الأول/ ديسمبر 1898) التي تخلّت إسبانيا بموجبها، للولايات المتحدة، عن الفيليبين وبورتوريكو وغُوام، وتنازلت عن حقوقها كلها في كوبا التي استقلّت بُعَيْد ذلك عام 1902. وعقبَ هذه الحرب برزت الولايات المتحدة الأمريكية، على المسرح الدولي، قوةً عالميةً ذات شأن.

حرب الأفيون (Opium War) (1839 ـ 1842): حرب بين بريطانيا والصين نشبت بسبب من محاولة الإنجليز إرغامَ الصين على استيراد الأفيون من الهند البريطانية وإكراهَها على وضع حدٍّ للقيود المفروضة على التجارة الخارجية. وبانتهاء الحرب تخلّت الصين عن هونغ كونغ لبريطانيا وفتحت خمسة موانئ في وجه التجارة البريطانية. ويُطلق اسم «حرب الأفيون» أيضاً على حرب تجارية أخرى نشبت بين بريطانيا وفرنسا من ناحية والصين من ناحية ثانية (1856 ـ 1860). وقد انتهت هذه الحرب بفتح موانئ جديدة في وجه التجارة الغربية، وبمنح الرحالة

الأجانب حقَّ التنقل داخل الصين والمبشّرين المسيحيين حريةَ العمل في إرجائها.

الحرب الفرنسية البروسية (Franco-Prussian War): حرب بين فرنسا وبروسيا (1870ـ1871) غزت فيها الجيوش البروسية الأراضي الفرنسية وحققت انتصارات حاسمة في سيدان وستراسبورغ وميتز، فطالب الباريسيون بتخلّي نابليون الثالث عن العرش، وأُعلنت الجمهورية الثالثة (4 أيلول/ سبتمبر 1870)، وتوّج الملك فيلهلم الأول (أو غليوم الأول) إمبراطوراً على ألمانيا، وذلك في قصر فرساي نفسه (18 كانون الثاني/ يناير 1871). وبموجب معاهدة فرانكفورت (10 أيار/ مايو 1871) التي أنهت هذه الحرب تخلّت فرنسا عن الألزاس واللورين لألمانيا، ووافقت على دفع غرامة حربية مقدارها خمسة مليارات فرنك.

حرب القِرم (Crimean War): حرب دارت رحاها (1853 ـ 1856) في شبه جزيرة القرم في المقام الأول بين روسيا من ناحية، وبين تركيا وبريطانيا وفرنسا وسردينيا من ناحية أخرى. من أسبابها التوسّع الروسي في البلقان ومطالبة القيصر بأن يكون له حق حماية رعايا السلطان الأرثوذوكس، والنزاع بين فرنسا وروسيا حول مسألة الإشراف على الأماكن المقدسة في فلسطين. من أبرز معالمها حصار الحلفاء قلعة سيباستوبول الروسية نحواً من سنة كاملة، انتهت بسقوطها في أيلول/ سبتمبر 1855. وخُتمت الحرب بتوقيع معاهدة باريس (عام 1856).

الحروب الثورية الفرنسية (French Revolutionary Wars): سلسلة من الحروب (1792 - 1802) خاضتها فرنسا الثورة ضد تحالفين أوروبيين شُكِّلا لمقاتلتها. تألف التحالف الأول عام 1792 من النمسا وبروسيا، ثم انضمت إليه سردينيا (عام 1792) وبريطانيا وإسبانيا والنّذرلند «الأراضي الواطئة» (عام 1793). وبعد سلسلة من الانتصارات والهزائم رجحت

كفة فرنسا، فاضطرت بروسيا والنّذرلند وإسبانيا إلى عقد الصلح معها (عام 1795). وعقب انتصار نابليون في حملته الإيطالية (1796 ـ 1797) عقدت سردينيا الصلح (عام 1796) وتبعتها النمسا (عام 1797). أما بريطانيا فاحتفظت بسيادتها البحرية في المحيط الأطلسي والبحر الأبيض المتوسط. وتألف التحالف الثاني ضد فرنسا عام 1798 من بريطانيا، وروسيا، والنمسا، ونابولي، والبرتغال، وتركيا. ولكن روسيا سرعان ما انسحبت منه (عام 1799). وبعد عودة نابليون من مصر إلى أوروبا (عام 1799) حققت القوات الفرنسية انتصارات حاسمة، فاستسلمت تركيا (عام 1800)، وتبعتها النمسا ونابولي والبرتغال (عام 1801)، وعقدت بريطانيا الصلح مع فرنسا في أميان (عام 1802)، ولكن النزاع بين الدولتين ما لبث أن استؤنف عام 1803 في الحروب النابليونية. وكان من نتائج هذه الحروب انتشار مبادىء الثورة الفرنسية في بلدان أوروبية كثيرة، وبروز نابليون بونابرت زعيماً عسكرياً وسياسياً لفرنسا.

حقّ الاقتراع النّسائي (Woman Suffrage): حقّ المرأة في التصويت في الانتخابات النيابية والبلدية وما إليها. كانت نيوزيلندا هي السبّاقة إلى ذلك (1893)، ثم تلتها أستراليا (1902)، وفنلندا (1906)، والنرويج (1913). وعام 1917 مُنحت المرأة حق الاقتراع الكامل في الاتحاد السوفياتي، ثم مُنِحَتْهُ في بريطانيا بين عامي 1918 و1928. أما في الولايات المتحدة الأمريكية فلم تَنَل المرأة هذا الحق إلا عام 1920 (وكانت قبل ذلك تتمتع بحق الاقتراع في بعض الانتخابات البلدية فقط).

الداروينية الاجتماعية (Social Darwinism): نظرية في التطور الاجتماعي والثقافي نشأت في القرن التاسع عشر واستمدّت اسمها من صلتها بدراسات داروين البيولوجية. والواقع أن الفكرة القائلة إن حياة الإنسان في المجتمع تمثّل صراعاً من أجل الوجود يحكمُهُ مبدأ «بقاء الأصلح» لم يستحدثها داروين ولكن دراساته مَنَحتها قوةَ القانون

الطبيعي. ويُعتبر هربرت سبنسر ووليم غراهام سَمْنر من أبرز القائلين بالداروينية الاجتماعية، إذ ذهبا إلى أن الجماعات كائنات حية تتطوّر بمثل الطريقة التي يتمّ بها تطوّر الأفراد. وقد استُخدمت هذه النظرية لتوطيد دعائم الرجعية السياسية ولتبرير التمايز الطَّبقي على أساس من التفاوت الفطري بين الأفراد. وعلى الصعيد القومي استُخدمت الداروينية الاجتماعية لتأييد السياسات الاستعمارية والعِرقية وتعزيز الزعم القائل بتفوّق الشعوب الأنجلوسكسونية أو الآرية على غيرها تفوّقاً بيولوجياً وثقافياً. وأخيراً اضمحلت هذه النظرية خلال القرن العشرين بعد أن أثبتت الدراسات الحديثة أنها لا تقوم على أساس علمي سليم.

دولة الرَّفاه (Welfare State): نظام اجتماعي تكون الدولة، بموجبه، مسؤولةً عن رفاه مواطنيها الفردي والاجتماعي. وهذا النظام يقوم على مبادئ أهمها تكافؤ الفرص، والتوزيع العادل للثروة، ومسؤولية المجتمع عن أولئك الذين يعجزون عن الحصول على الحدّ الأدنى من شروط الحياة الكريمة. وتسعى الدولة لتحقيق غايات هذا النظام عن طريق التعليم المجاني ومختلف أشكال الضمان. ويُعتبر مشروع الضمان الاجتماعي الذي وضعه السير وليم بيفريدج (Beveridge) البريطاني (عام 1942) منطلَقَ المفهوم الحديث لهذا المصطلح. ومن الدول التي تُعَدّ اليوم نماذج لدولة الرفاهة كندا والدول الإسكندينافية.

شِن فاين (Sinn Fein): حركة قومية استقلالية أُنشئت عام 1905 لفصل أيرلندا عن المملكة المتحدة. بدأت بالمقاومة السلبية للحكم البريطاني، كالامتناع عن دفع الضرائب وما إلى ذلك، ثم اتخذت خطاً أكثر تصلّباً بلغ أوجه في الثورة التي نشبت في دبلن عام 1916.

الشوفينيّة (Chauvinism): الغلوّ في الوطنية. وبخاصة الوطنية المتعصبة ذات الطابع العُدْواني، أو العسكري، أو الاستعماري، أو العرقيّ. واللفظة مشتقة من اسم نيكولا شوفان (Nicolas Chauvin)

وهو جندي فرنسي عُرف بوطنيّته المُفرْطة وبإعجابه الشديد بنابليون بونابرت وإخلاصه الأسطوري له.

الطَّبيعانية؛ المذهب الطبيعي (Naturalism): مذهب في الفنّ والأدب نشأ في فرنسا عام 1880، وتميّز بالنزوع إلى تطبيق مبادىء العلوم الطبيعية وأساليبها، وبخاصة النظرة الداروينية إلى الطبيعة، على الأدب والفن. يُعتبر إميل زولا مؤسسَ هذا المذهب، وقد أكّد في **الرواية التجريبية** (*Le Roman expérimental*) (عام 1880) التي تُعَدّ البيانَ الأدبيَّ لهذا المذهب، على أن الروائي ينبغي ألا يبقى مجرَّدَ مراقب يكتفي بتسجيل الظواهر، بل أن يكون «مجرِّباً» محايداً يُخضع شخصياته وأهواءها لسلسلة من الاختبارات ويعالج الوقائع العاطفية والاجتماعية كما يعالج الكيميائي المادة.

الظاهرات، علم/ الفينومينولوجيا (Phenomenology): طريقة جديدة في وصف الوعي أو الشعور وتحليله، وضعها في أوائل القرن العشرين الفيلسوف النمساوي إدموند هوسّرْل. وهي تستهدف فهمَ الظاهرات المُعاشة، عن طريق الدراسة المباشرة لمُعطَيات الوعي، ومن غير التأثُّر بأي افتراضات مُسبَقة، وبذلك يتمكّن الباحث من النفاذ إلى البُنى الأساسية للظاهرات وإلى فهم علاقة بعضها ببعضها الآخر.

الظاهراتية (Phenomenalism): نظرية فلسفية تقول إن المعرفة مبنيّة على الظاهرات (Phenomena) ليس غير، أي على المظاهر (Appearances) والخبرة الحسية فحسب، وبأن الأشياء المادية ليس لها وجود مستقلّ. أو تقول، بتعبير آخر، إن الظاهرات هي وحدها الأشياء التي نستطيع التوصل إلى معرفتها، وما عدا ذلك فهو إما غيرُ موجود أو موجودٌ ولكنَّ العقل البشري قاصرٌ عن إدراكه. ويُعتبر جورج باركلي من أبرز الذين قالوا بهذه النظرية الفلسفية.

عائلة كْروبّ (Krupp Family): أسرة ألمانية كانت مصانعها الحربية القائمة في مدينة أسِّن بمنطقة الرّور، المصدر الرئيسي لتسليح القوات

الألمانية في الحرب الفرنسية البروسية (عام 1870) وفي الحربين العالميتين الأولى والثانية. أبرز رجالها مؤسِّسُها فريدريتش كروبّ (1787 ـ 1826)، وابنُهُ ألْفْرَد كروب (1812 ـ 1887).

عايدة (Aida): أوبرا ذات أربعة فصول وضعها المؤلف الموسيقي الإيطالي فيردي (Verdi). مُثّلت لأول مرة، في 24 كانون الآول/ ديسمبر 1871، بدار الأوبرا المصرية، لمناسبة افتتاح قناة السويس (وافتتاح دار الأوبرا نفسها أيضاً) في عهد الخديوي إسماعيل.

العَبَثانية؛ فلسفة العبث (Absurdism): فلسفة مبنيّة على أساس من الاعتقاد بأن الإنسان موجودٌ في عالم لا عقلاني خِلْو من المعنى، وبأن محاولاته التي يقوم بها التماساً للنظام أو بحثاً عنه تجعلُهُ في صراع مع عالمه هذا. ولقد كان الفيلسوف الدانماركي كيركيغارد أول من اصطنع لفظة Absurd بهذا المعنى. ولقد ذهب هذا الفيلسوف إلى القول إن النصرانية عَبَثٌ من العبث، لأنه ليس في ميسور أيّما أمرىء أن يفهمها أو يُبَرِّرها، وفقاً لمبادئها التقليدية. ويُعتبر الكاتب الفرنسي ألبير كامو أول من أكّد هذه الفلسفة، في حقل الأدب، وذلك في روايته **الغريب** (*L'Etranger*) (عام 1942).

العِصمة (Infallibility): في اللاهوت الكاثوليكي، مبدأ يقول إنه لما كانت الكنيسة مؤتمنة على تعاليم المسيح، بتفويض من المسيح نفسه، فإنها سوف تظلّ وفيّةً لهذه التعاليم بمساعدة الروح القدس، وبالتالي فإن البابا ـ بوصفه رأس الكنيسة ـ لا يمكن أن يخطىء في الشؤون المتصلة بالإيمان. ولكن منتقدي هذا المبدأ يقولون إنه يتعارض مع وقائع التاريخ، بدليل أن عدداً من الباباوات (لعلّ أشهرهم هو البابا هونوريوس الأول) أتُّهموا بالهرطقة. ولا يزال الخلاف قائماً بين اللاهوتيين الكاثوليك، حول هذه المسألة، إلى اليوم. أما لاهوتيو الكنيسة الأرثوذوكسية فيذهبون إلى القول إن العِصمة هي للكنيسة كلّها، وليست لشخص بعينه، في حين ينكر اللاهوتيون البروتستانت

العِصمة أصلاً. هذا في النصرانية. أما في الإسلام فقد قال الشيعة بعصمة الأئمة الاثني عشر، على حين أنكر أهل السُّنة مبدأ العصمة.

عهد الإرهاب (Reign of Terror): عهد من عهود الثورة الفرنسية يمتدّ من 5 أيلول/ سبتمبر 1793 إلى 27 تموز/ يوليو 1794، حكمت فرنسا خلالَهُ «لجنة السلامة العامة» بزعامة روبسبيير حكماً إرهابياً أصبح مضرب المثل في التاريخ كله. وقد اعُتقل خلال هذا العهد ثلاثمئة ألف مشبوه على الأقلّ؛ وأُعدم على المقصلة، رسمياً، نحوٌ من سبعة عشر ألفاً، في حين مات كثيرون في السجن أو من غير محاكمة.

عودة المَلَكيّة؛ إعادة المَلَكيّة (Restoration): في التاريخ الإنجليزي، عودة للنظام الملكي أو إعادته بارتقاء تشارلز الثاني العرشَ عام 1660. وفي التاريخ الفرنسي، عودة أسرة بوربون إلى الحكم، إثرَ استقالة نابوليون بونابرت، وذلك بارتقاء لويس الثامن عشر العرشَ عام 1814. وقد يُطلق هذا التعبير على كامل الفترة الممتدة من عام 1814 إلى ثورة عام 1830 وبذلك يشمل عَهْدَ لويس الثامن عشر وعهْدَ شارل العاشر مُجتَمعَيْن، باستثناء فترة الأيام المئة التي هرب فيها نابليون من منفاه في جزيرة ألبا وخسر فيها معركة واترلو، فنفي إلى سانت هيلانه.

الغاليكانية (Gallicanism): حركة نشأت في فرنسا ودَعَتْ إلى استقلال الكنيسة الإداري، في البلدان الكاثوليكية، عن سيطرة البابا. ترقى جذورها إلى القرنين الثامن والتاسع للميلاد. بَلَغت أوْجها خلال القرن السابع عشر، في النزاع بين لويس الرابع عشر والبابا إينوسنت الحادي عشر، حين أعلن الأساقفة الفرنسيون استقلالهم (عام 1682)، ولكن لويس الرابع عشر ما لبث أن تنكّر للغاليكانية (عام 1693).

الفابيّة، الجمعية (Fabian Society): جمعية إنجليزية أنشئت عام 1884 ابتغاء تحقيق الاشتراكية، لا عن طريق الإطاحة بالدولة الرأسمالية، ولكن عن طريق الإصلاحات التدريجية. كان لها أثرٌ كبير في نشوء حزب العمال البريطاني. من أعضائها البارزين جورج برنارد

شو، وهربرت جورج وَلْز. يرمز اسمها إلى ما اتّسمت به سياستها من أناة وحذر واجتناب لخوض المعارك الحاسمة، وذلك على طريقة القائد الروماني فابيوس مكسيموس.

فراسة الدماغ (Phrenology): علم زائف يربط الملكات العقلية والخصائص المزاجية بتضاريس الجمجمة وأغوارها. مؤسسه الطبيب الألماني فرانز جوزيف غال (Gall) (1758 ـ 1828) الذي زعم أن لبعض الصفات والنزعات التجريدية، من مثل الكبرياء والشجاعة والجشع والموهبة الفنية، «مواقع» معيّنة في الدماغ، وأن أيما تضخّم في جزء بعينه من الدماغ يدلّ على إفراط في «الصفة» أو «النزعة» المرتبطة بذلك الموقع. وبعد فرانز غال واصلَ تلميذه يوهان كاسبار شبورتسهايم (Spurzheim) (1776ـ 1832) العمل في هذا الحقل مُفْرغاً مزاعم أستاذه في شكل نظاميّ، ومن أجل ذلك عدَّه بعضهم المؤسس الفعلي لفراسة الدماغ.

فيكتوري (Victorian): وصف للفترة التي تولت فيها الملكة فيكتوريا أَلَكْسَندرينا (Victoria Alexandrina) (1819 ـ 1901): الحكم في بريطانيا العظمى (1837ـ1901) وإمبراطورية الهند (1876 ـ1901)، فأبدت اهتماماً متواصلاً بسياسات بلادها وعملت على تعزيز مكانة العرش؛ واقترن عهدها بتقدم بريطانيا السريع في ميدان التصنيع وباتّساع رقعة الإمبراطورية البريطانية، وتنسب إلى عصرها الآداب والفنون السائدة في تلك الفترة.

فيينّا، مؤتمر (Congress of Vienna): مؤتمر عقده في فيينّا (أيلول/ سبتمبر 1814ـ حزيران/ يونيو 1815) مندوبو روسيا والنمسا وبروسيا وبريطانيا وفرنسا وغيرها لإعادة رسم خريطة أوروبا إثر سقوط نابليون بونابرت. عالج نزاعات الحدود، ووطَّد مبدأ «توازن القوى» في السياسة الدولية. بنتيجته وُحِّدت هولندا وبلجيكا، واستولت النمسا على لومبارديا وفينيسيا في شمال إيطاليا، وضُمّت بعض الأراضي وبخاصة

على نهر الراين إلى بروسيا، وسلخت روسيا شطراً كبيراً من أراضي بولندا، وتخلّت الدانمارك عن النرويج للسُّويد، وكسبت بريطانيا مستعمرة رأس الرجاء الصالح، واحتفظت بمالطا (وكانت قد احتلتها عام 1800)، وحُرمت فرنسا ثمرات فتوحها العسكرية، وفُرضت عليها تعويضات حربية ثقيلة.

الكاربوناري؛ مُشعلو الفحم (Carbonari): جمعية سياسية سرية إيطالية يكتنف الغموض أصولها وبرنامجها السياسيّ نفسه. والواقع أن «محافل» جمعية الكاربوناري الأولى ظهرت عند مطلع القرن التاسع عشر في إيطاليا الجنوبية، وكانت أشبه بالمحافل الماسونية من حيث رموزها وهيكليّتها الهَرَميّة. وعلى الجملة، فقد نادى أعضاء هذه الجمعية بتحرير إيطاليا من الحكم الأجنبي، ودعوا إلى إقامة الحكم الدستوري فيها، من غير أن يكون لهم برنامج سياسيّ موحَّد. وأدى «مشعلو الفحم» دوراً بارزاً في التمهيد للوحدة الإيطالية.

الكالفينيّة (Calvinism): مذهب جون كالفين البروتستانتيّ، يرى أن الكتاب المقدّس هو المصدر الوحيد لشريعة الله، وأن الخلاص يتمّ لفئة مختارة فقط فهو نعمة أو عطية من الله. وتتميّز الكالفينية بالتزمّت والصرامة وبالاعتقاد بأن قَدَر الإنسان مرسوم قبل ولادته.

كرايزي هورس (Crazy Horse) (الجواد المخبول) (1842 ـ 1877): زعيم هندي أمريكي أحمر. اسمه الحقيقي تا سونكو ويتكو (Ta-Sunko-Witko). عُرف بقوّة الشكيمة وبالبراعة في التكتيك الحربي. قاوم غزو الإنسان الأبيض للجزء الشمالي من «السهول العظمى» (Great Plains) مقاومةً شرسة، وقاتلَ القوات الأمريكية في معركة ضارية دارت رحاها عام 1876. قُتل وهو يحاول الإفلات من معتقليه.

اللاّأدرية (Agnosticism): مذهب يعتقد أصحابه بأن وجود الله وطبيعته وأصل الكون أمورٌ لا سبيل إلى معرفتها. ترقى جذوره إلى

السّفسطائيين اليونانيين، ويعتبر هيوم أبرز ممثليه بين المحدثين. والمصطلح من وضع توماس هنري هَكْسْلي، صاغه عام 1869.

لوردْ (Lourdes): بلدة في الجزء الجنوبي الغربي من فرنسا. أصبحت منذ العام 1858 محجّاً يقصده المرضى من الكاثوليك التماساً للشفاء بعد الذي أُذيع من أن العذراء تجلّت، غير مرة، في مغارة هناك، لفتاة ريفية اسمها برناديت. سكانها 25,000 نسمة.

مدوَّنة نابليون (Code Napoleon): مجموعة القانون الفرنسي المدني التي أُعدّت بإشراف نابليون بونابرت عام 1804 على أساس من الشرائع الرومانية في المقام الأول. وُضعت موضع التنفيذ عام 1804، في فرنسا والأراضي الخاضعة لسلطانها، كبلجيكا ولوكسمبورغ وأجزاء من ألمانيا الغربية وفي شمال غرب إيطاليا وغيرها. ثم وُضعت موضع التنفيذ أيضاً في البلدان التي فتحها نابليون، مثل إيطاليا والأراضي الواطئة/ هولندا وسويسرا، ولا تزال معمولاً بها حتى اليوم في بلجيكا ولوكسمبورغ.

المنْشقّون/ الخوارج (Dissenters): اسم عام يُطلق على مختلف المجموعات التي ترفض إعلان الولاء لمذهب دينيّ رسمي أو لعقيدة سياسية مُهَيْمنة. ويُستخدم المُصْطلح، بخاصة، للدلالة على جماعات الكاثوليك، والبيوريتانيين (Puritans)، والمَشْيخيين (Presbyterians)، والأبرشانيين (Congregationalists)، والمعمدانيين (Baptists)، والصّاحبيين أو المهتزّين (Quakers)، الذين رفضوا الانضواء تحت راية الكنيسة الأنغليكانية، أي كنيسة إنجلترا الرسمية.

المنشقون/ غير الممثلين للسلطة (Nonconformists): اسم عامّ يُطلق على مختلف الجماعات البروتستانتية التي انشقّت عن كنيسة إنجلترا. كان أوَّلُهم نحو من ألفَيْ قسّ تخلَّوا عن مناصبهم الكنسيّة رافضين الالتزامَ بأعراف تلك الكنيسة (عام 1662). وقد مُنح المنشقون بعض الحريات عام 1689 ثم كسبوا كامل الحقوق الدينية والمدنية في

القرن التاسع عشر (حوالى العام 1880). وأبرز الفرق المنشقة: المعمدانيون، والميثوديون، والمَشْيَخيون، والمهتزّون، والتوحيديون.

المهاجرون (Emigrés): اسم يُطلق على جمهرة النبلاء الفرنسيين الذين فرّوا من فرنسا خلال ثورة عام 1789 وراحوا يتآمرون، وهم في المنفى، على الحكومة الثورية ملتمسين العونَ من الأجنبي الذي يمكّنهم من القضاء على الثورة وإحياء النظام القديم. والواقع أنهم أنشأوا بزعامة أخي الملك لويس السادس عشر، الكونت دو بروفانس (Comte de Provence) (الملك لويس الثامن عشر فيما بعد) والبرنس دو كونديه (Prince de Condé) وغيرهما جيشاً من المهاجرين ساعد الدولَ الأجنبية في حروبها ضدّ فرنسا. وأقلق نشاطهم هذا الحكومةَ الثوريةَ، فطلبت إليهم العودة إلى الوطن قبل كانون الثاني/ يناير 1792 وإلاّ حُكم عليهم بالإعدام بوصفهم خونةً، وصادرت في العام نفسه ممتلكاتهم جميعاً. وعام 1802 أصدر نابليون بونابرت عفواً شمل كثرة المهاجرين الكاثرة فرجع عددٌ غير يسير منهم إلى فرنسا.

الموسوعيون؛ الأنسيكلوبيديون (Encyclopedists): المشاركون في وضع **الموسوعة الفرنسية** أو **المعجم العقلاني للعلوم والفنون والحِرَف** (*Encyclopédie ou dictionnaire raisonné des sciences, des arts et des métiers)* (1751 ـ 1772). وبخاصة محرّراها ديديرو (Diderot) ودالامبير (D'Alembert) وكبار معاونيهما من أمثال فولتير (Voltaire) ومونتيسكيو (Montesquieu) وروسّو (Rousseau). ويُعتبر الموسوعيون أبرز ممثلي حركة التنوير في فرنسا. وقد كان لتعاليمهم التحرّرية وآرائهم الثورية أثر عظيم تخطّى حدود فرنسا إلى عدد من بلدان العالم.

الميثاقية (Chartism): حركة عمالية إنجليزية نشطت في القرن التاسع عشر على أساس المبادئ التي اشتمل عليها ميثاق الشعب (People's Charter) الذي وضعه الزعيم الراديكالي اللندني وليم لوفيت (Lovett) عام 1838؛ ومن أبرز هذه المبادئ الاقتراع السري، وإلغاء

شروط الملكية المفروضة على المرشحين لعضوية البرلمان، وجَعلُ ولاية البرلمان عاماً واحداً. وتُعتبر الميثاقية أوّل حركة عمالية قومية النطاق انبثقت عن الاحتجاج ضدّ المظالم الاجتماعية الناشئة عن النظام الصناعي الجديد في بريطانيا.

النابليونية، الحروب (Napoleonic Wars): سلسلة من الحروب خاضتها فرنسا، في عهد نابليون بونابرت، ضدَّ مختلف الدول الأوروبية (1803 ـ 1815). أعلنت بريطانيا الحرب على فرنسا عام 1803 فجهّز نابليون أسطولاً لغزوها، ولكن الإنجليز انتصروا عليه في معركة «الطَّرف الأغرّ» البحرية (عام 1805). وفي العام نفسه (1805) أنشأت بريطانيا والنمسا وروسيا والسويد حلفاً ضدّ فرنسا (انضمت إليه بروسيا فيما بعد)، ولكن نابليون سَحَق هذا الحلف، فهَزَمَ النمسا في أُولم (عام 1805)، والنمسا وروسيا في أوسترليتز (عام 1805)، وبروسيا في يانا (عام 1806). وقد حاولت النمسا استئناف الحرب ولكنها هُزمت في فاغرام (عام 1809). وعام 1812 غزا نابليون روسيا، ولكنه ارتدّ خائباً. وأخيراً شكّلت بروسيا وروسيا وبريطانيا والسويد والنمسا حلْفاً ضدّ نابليون (عام 1813) فانتصرت عليه في «معركة الأمم» عام 1813. ومن ثَمَّ زحف الحلفاء على العاصمة الفرنسية فاضطُرَ نابليون إلى التّخلي عن العرش، ونُفي إلى جزيرة إلبا (عام 1814)، ولكنه ما لبث أن عاد إلى باريس. وفي ختام فترة الأيام المئة هُزم هزيمةً نهائية في واترلو (عام 1815).

النظام القارّي (Continental System): حصار اقتصادي حاول نابليون بونابرت فرضه على بريطانيا عام 1806 عن طريق حظر التجارة بينها وبين موانئ القارة الأوروبية. وقد أثبتت التجربة عدم قابليته للتطبيق فانهار عام 1812.

هابسْبيرغ؛ أسرة هابسْبيرغ (Habsburg): من أهمّ الأسر الأوروبية الحاكمة. حكمت النمسا (1278 ـ 1918)، والنمسا ـ المجر (1867 ـ

1918)، والإمبراطورية الرومانية المقدَّسة (1438ـ1806)، وإسبانيا (1516 ـ 1700). وعُرفت هذه الأسرة برجعيّتها الشديدة وبتأييدها الكثلكة تأييداً مطلقاً.

وارسو، دوقية؛ غراندوقيّة وارسو (Duchy of Warsaw; Grand Duchy of Warsaw): دولة بولندية مستقلة (1807 ـ 1815) أنشأها نابليون بونابرت بعد أن ساعده البولنديون على إنزال الهزيمة بالقوات البروسية. شملت هذه الدولة معظم الأراضي التي سبق لبروسيا أن استحقتها في التقسيم المتكرر لبولندا. احتلّها الروس عام 1813 خلال مطاردتهم قوات نابليون المتراجعة صوبَ الغرب. ثم جاء مؤتمر فيينّا فقسَّمها بين بروسيا وروسيا والنمسا.

الوثيقة العظمى (Magna Carta): وثيقة الحقوق التي اضطُرَّ ملك إنجلترا جون إلى إقرارها (15 حزيران/ يونيو 1215) بعد أن ثار النبلاء عليه وخشيَ نشوب حرب أهلية. تتألف من مقدَّمة وثلاث وستين مادة، تدور حول بضعة محاور هي «حريّة» الكنيسة، والعلاقات بين الملك وتابعيه من رجال الإقطاع، وسياسات الحكم الملكي وإجراءاته، وقواعد تسوية النزاع بين الملك والنبلاء الثائرين عليه. ولعلّ المادة التاسعة والثلاثين هي أهم هذه المواد كلها، ذلك أنها نصَّت على عدم جواز اعتقال أيما مواطن أو سَجنه أو نفيه من غير محاكمة. وانطوت الوثيقة العظمى على تسليم الملك جون بأنه مقيّد بالقانون، وبذلك وضعت الأساس لنشوء الملكيّة الدستورية ولصيانة الحريات الفردية. وهي تُعتبر أهمَّ وثيقة دستورية في التاريخ الإنجليزي كله.

اليعاقبة (Jacobins): جماعة سياسية متطرفة سيطرت على مقاليد الحكومة الثورية في فرنسا من منتصف عام 1793 إلى منتصف عام 1794. حكمت البلاد بالإرهاب، وكان أبرز زعمائها روبسبيير. نشأت، أول ما نشأت، بوصفها «نادي بريتون» (Club Breton) في فرساي، ثم أُعيد تنظيمها، في كانون الأول/ ديسمبر 1789 على الأرجح، تحت

اسم «جمعية أصدقاء الدستور» (Société des amis de la constitution)، ولكنها اشتهرت باسم «النادي اليعقوبي» أو «اليعاقبة» لأنها كانت تعقد اجتماعاتها في دير سابق للرهبان الدومينيكان الذين كانوا يُعرفون، في باريس باليعاقبة.



المراجع

I ـ العربية

هوبْزباوْم، إريك. **عصر الثروة: أوروبا (1789–1848)**. ترجمة فايز الصُّياغ. تقديم مصطفى الحمارنة. بيروت: المنظمة العربية للترجمة، 2006.

II ـ الأجنبية

Books

Alejchem, Scholem. *Aus den nahen Osten*. Berlin: [n. pb.], 1922.

Allain-Targé, François-Henri-René. *Déficits, 1852-1868*. Paris: Le Chevalier, 1868.

Altick, Richard Daniel. *The English Common Reader; a Social History of the Mass Reading Public, 1800-1900*. Chicago; London: University of Chicago Press, 1963. (Phoenix Books)

Anderson, James. *Statistics of Telegraphy*. London: Waterlow & Sons, 1872.

Anderson, Michael. *Family Structure in Nineteenth Century Lancashire*. Cambridge: University Press, [1973].

Ardévol, José Termes. *El movimiento obrero en España: La primera Internacional, 1864-1881*. Barcelona: [n. pb.], 1965.

Arling, Emanie Nahm. *«The Terrible Siren,» Victoria Woodhull*

(1838-1927) by Emanie Sachs ... New York: Harper & Brothers, 1928.

Bagehot, Walter. *Physics and Politics*. London: C. Kegan Paul, [1873].

Bauerman, Hilary. *A Treatise on the Metallurgy of Iron; Containing Outlines of the History of Iron Manufacture, Methods of Assay, and Analyses of Iron Ores, Processes of Manufacture of Iron and Steel.* 3d Ed., Rev. and Enl. Illustrated with Numerous Wood Engravings, from Drawings by J. B. Jordan. London: Lockwood & Co., 1872.

Bellamy, Joyce M. and John Saville (eds.). *Dictionary of Labour Biography*.

Bernal, John Desmond. *Science in History*. [New Ed.]. Harmondsworth: Penguin, 1969. 4 vols. (Pelican Book; A994-A997)

Bernstein, Samuel. *Essays in Political and Intellectual History*. New York: Paine-Whitman Publishers, 1955.

Bhatia, B. M. *Famines in India; a Study in Some Aspects of the Economic History of India, 1860-1965*. Bombay; New York: Asia Pub. House, [1967].

Bidwell, Charles Toll. *The Cost of Living Abroad.* Reports and Statistics Showing the Prices of House-rent, Wages, Commodities, Clerk-hire, &c., at the Present Time, and Compared with those of the Year 1858, at Most of the Principal Places in Foreign Countries. Compiled from Official Returns Laid before Parliament.... With an Appendix Showing Hotel Charges and other Particulars not Included in the Official Reports, Compiled from the Queen Newspaper, and Published by Permission. London: S. Low, Marston, Searle & Rivington, 1876.

Bonaparte, Louis. *Fragments historiques, 1688 et 1830*. Paris: Impr. de Vve Dondey-Dupré, 1841.

Bonilla, Heraclio. *Guano y burguesía en el Perú*. Lima: Instituto de Estudios Peruanos, 1974 (Perú problema; 11)

Bouvier, Jean, François Furet et Marcel Gillet. *Le Mouvement du profit en France au XIXe siècle: Matériaux et études*. Hague: [n. pb.], 1955.

Brassey, Thomas. *Works and Wages*. 2nd Edition. London: Bell & Daldy, 1872.

Braun, Rudolf. *Industrialisierung und Volksleben, die Veränderungen der Lebensformen in einem ländlichen Industriegebiet vor 1800, Zürcher Oberland*. Erlenbach-Zürich: E. Rentsch, [1960].

———. *Sozialer und kultureller Wandel in einem ländlichen Industriegebiet (Zürcher Oberland) unter Einwirkung des Maschinen- und Fabrikwesens im 19. und 20. Jahrhundert*. Erlenbach-Zürich; Stuttgart: E. Rentsch, [1965].

Briggs, Asa. *Victorian Cities*. London: Odhams Books, [1963].

Burckhardt, Jakob. *Reflections on History = Weltgeschichtliche betrachtungen*. Translated by M. D. H. London: G. Allen & Unwin ltd., [1943].

Burn, William Laurence. *The Age of Equipoise; a Study of the Mid-Victorian Generation*. New York: Norton, [1964].

Carr, Raymond. *Spain: 1808-1939*. Oxford: Clarendon Press, 1966. (Oxford History of Modern Europe)

Chandra, Bipan. *The Rise and Growth of Economic Nationalism in India; Economic Policies of Indian National Leadership, 1880-1905*. New Delhi: People's Pub. House, [1966].

Chevallier, Pierre. *Histoire de la franc-maçonnerie française*. [Paris]: Fayard, [1974-1975]. (Les Grandes études historiques)

Vol. 2: *La Maçonnerie: missionnaire du libéralisme, 1800-1877*.

Cipolla, Carlo M. (ed.). *The Fontana Economic History of Europe*. London; Collins: Fontana, 1973. [6 vols.].

Vol. 3: *The Industrial Revolution*.

———. *The Fontana Economic History of Europe. 4, 1-2, The Emergence of Industrial Societies*. London; Glasgow: Collins, 1976. 2 vols.

———. *Literacy and Development in the West*. Harmondsworth: Penguin, 1969. (Pelican Books; A1027)

Clapham, J. H. *An Economic History of Modern Britain: Free Trade and Steel 1850-1886*. Cambridge: University Press, 1932.

Clark, Timothy J. *The Absolute Bourgeois: Artists and Politics in France, 1848-1851*. Greenwich, Conn.: New York Graphic Society, [1973].

———. *Image of the People: Gustave Courbet and the 1848 Revolution*. London: Thames and Hudson, 1973.

Clough, Arthur Hugh. *The Correspondence of Arthur Hugh Clough*. Edited by Frederick L. Mulhauser. Oxford: Clarendon Press, 1957. 2 vols.

Cole, G. D. H. and Raymond William Postgate. *The Common People, 1746-1946*. 2d Ed. London: Methuen, [1946].

Darwin, Charles. *More Letters of Charles Darwin, a Record of his Work in a Series of Hitherto Unpublished Letters...* Edited by Francis Darwin and A. C. Seward. New York: D. Appleton and Company, 1903. 2 vols.

De Laveleye, Emile. *L'Instruction du peuple*. Paris: Hachette, 1872.

De Mauro, Tullio. *Storia linguistica dell'Italia unita*. Bari: [Editori Laterza], 1963.

De Rosa, Luigi. *Iniziativa e capitale straniero nell'industria metalmeccanica del Mezzogiorno, 1840-1904...* Napoli: Giannini, 1968. (Economia e società; 1)

Dennis, James Shepard. *Centennial Survey of Foreign Missions*. New York; Chicago: Fleming H. Revell Co., 1902.

Deutsch, Julius. *Geschichte der österreichischen Gewerkschaftsbewegung*. Vienna: [n. pb.], 1908.

Dowden, Edward. *Studies in Literature 1789-1877*. London: K. Paul, Trench & Co., [1892].

Dostoyevsky, Fyodor. *The Possessed*. [n. p.: n. pb.], 1871-1872.

Drey, Paul. *Die wirtschaftlichen grundlagen der malkunst; versuch einer kunstökonomie*. Stuttgart und Berlin: J. G. Cotta, 1910.

Dubois, Jean. *Le Vocabulaire politique et social en France de 1869 à 1872, à travers les oeuvres des écrivains, les revues et les*

journaux. Paris: Larousse, 1962. (Thèse. Lettres. Paris. 1963)

Dyos, Harold James and Michael Wolff (eds.). *The Victorian: Images and Realities*. London; Boston: Routledge and K. Paul, 1973. 2 vols.

Ellison, Thomas. *The Cotton Trade of Great Britain. Including a History of the Liverpool Cotton Market and of the Liverpool Cotton Brokers' Association*. London: E. Wilson, 1886.

Erickson, Charlotte. *British Industrialists: Steel and Hosiery, 1850-1950*. Cambridge [Eng.]: University Press, 1959. (National Institute of Economic and Social Research. Economic and Social Studies; 18)

Fejtö, François (ed.). *The Opening of an Era, 1848: An Historical Symposium*. With an Introd. by A. J. P. Taylor. London: A. Wingate [1948].

Flaubert, Gustave. *Dictionnaire des idées reçues*. [s. l.: s. n.], 1852.

Fogel, Robert William and Stanley L. Engerman. *Time on the Cross; the Economics of American Negro Slavery*. Boston: Little, Brown, [1974].

Foner, Eric. *Free Soil, Free Labor, Free Men: The Ideology of the Republican Party before the Civil War*. New York: Oxford University Press, 1970.

Vol. 3: *The Industrial Revolution*, 1973.

Freund, Gisèle. *Photographie et société*. Paris: Editions du seuil, 1974. (Collection points: Série histoire; H15)

———. *Photographie und bürgerliche Gesellschaft; eine kunstsoziologische Studie*. Vorwort H. P. Gente. München: Rogner & Bernhard, 1968. (Passagen)

Frimmel, Theodor von. *Lexicon der Wiener Gemäldesammlungen*. München: [G. Müller], 1913-1914.

Gagel, Walter. *Die Wahlrechtsfrage in der Geschichte der deutschen liberalen Parteien, 1848-1918*. Düsseldorf: Droste Verlag, [1958]. (Beiträge zur Geschichte des Parlamentarismus und der politischen Parteien; 12)

Genovese, Eugene D. *In Red and Black; Marxian Explorations in Southern and Afro-American History*. New York: Pantheon Books, [1971].

———. *Roll, Jordan, Roll: The World the Slaves Made*. New York: Pantheon Books, [1974].

Gerbod, Paul. *La Condition universitaire en France au XIXe siècle*. Paris: Presses universitaires de France, 1965. (Publications de la faculté des lettres et sciences humaines de Paris. Série recherches; 26)

Girault, Arthur. *Principes de colonisation et de législation coloniale*. 7éd. Paris: Librairie du recueil sirey (société anonyme), 1938.

Goldammer, Peter (Hrsg.). *1848 Augenzeugen der Revolution; Briefe, Tagebücher, Reden, Berichte*. Berlin: Rütten & Loening, [1973].

Goncharov, Ivan. *Oblomov*. [n. p.: n. pb.], 1859.

Graham, Hugh Davis and Ted Robert Gurr (eds.). *The History of Violence in America: Historical and Comparative Perspectives*. Special Introd. by John Herbers. New York: F. A. Praeger, [1969]. (Violence in America)

Grillparzer, Franz. *Sämtliche Werke, ausgewählte Briefe*. München: C. Hanser, [1960-1965]. 4 vols.

Hall, John Whitney. *Das Japanische Kaiserreich*. Illustrierte Originalausg. der Fischer Bücherei. [Frankfurt am Main]: Fischer Bücherei, [1968]. (Fischer Weltgeschichte; Bd. 20)

Handlin, Oscar. *Immigration as a factor in American History*. Englewood Cliffs, N. J.: Prentice-Hall, 1959.

Handwörterbuch der Staatswissenschaften. Hrsg. von dr. J. Conrad [et al.]. 2 gänzlich umgearb. Aufl. Jena: G. Fischer, 1898-1901. 7 vols.

Haydn, Joseph. *Haydn's Dictionary of Dates and Universal Information Relating to all Ages and Nations*. 19th Ed., Containing the History of the World to the Autumn of 1889, by Benjamin Vincent. New York: G. P. Putnam's Sons, 1889.

Henneaux-Depooter, Louise. *Misères et luttes sociales dans le Hainaut, 1860-1869*. Bruxelles: Université libre de Bruxelles, institut de sociologie solvay, 1959. (Centre d'histoire économique et sociale)

Hobsbawm, Eric John. *The Age of Revolution: Europe 1789-1848*. London: Weidenfeld and Nicolson, 1962.

Houghton, Walter E. *The Victorian Frame of Mind, 1830-1870.* New Haven: Conn., Yale University Press, 1957.

Hroch, Miroslav. *Die Vorkämpfer der nationalen Bewegung bei den kleinen Völkern Europas.* eine vergleichende Analyse zur gesellschaftlichen Schichtung der patriotischen Gruppen. Praha: Universita Karlova, 1968.

Hu, Sheng. *Imperialism and Chinese Politics.* Peking: Foreign Languages Press, 1955.

Hutin, Serge. *Les Francs-maçons.* [Paris]: Editions du seuil, 1960. (Le Temps qui court; 19)

Ideas and Beliefs of the Victorians; an Historic Revaluation of the Victorian Age. [London]: Sylvan Press, [1949].

Ikor, Roger. *L'Insurrection ouvrière de juin 1848 ou la première commune.* Paris: Bureau d'éd., 1936. (Episodes et vies révolutionnaires. Nouv. série)

International Migrations. New-York: National Bureau of Economic Research, 1929. (Publications of the National Bureau of Economic Research, Incorporated; no. 14)

Vol. 1: *Statistics.* Compiled... with Introduction and Notes by Imre Ferenczi and Edited... by Walter F. Willcox.

Kaye, John William. *A History of the Sepoy War in India 1857-1858.* London: W. H. Allen, 1870. 3 vols.

Keddie, Nikki R. *An Islamic Response to Imperialism; Political and Religious Writings of Sayyid Jamāl ad-Dīn «al-Afghānī».* Including a Translation of the Refutation of the Materialists from the Original Persian by Nikki R. Keddie and Hamid Algar. Berkeley; Los Angeles: University of California Press, 1968.

Kiaer, A. N. *Statistique internationale de la navigation maritime.* Christian: [n. pb.], 1880; 1881.

Kiernan, V. G. *The Lords of Human Kind: European Attitudes Towards the Outside World in the Imperial Age.* Harmondsworth: Penguin, 1972. (Pelican Books)

Kisch, Egon Erwin. *Karl Marx in Karlsbad.* 2. Aufl. Berlin: Weimar, Aufbau-Verlag, 1968.

Kolb, Georg Friedrich. *Handbuch der vergleichenden Statistik der*

Völkerzustands- und Staatenkunde, für den allgemeinen praktischen Gebrauch. Leipzig: A. Felix, 1879.

Kuczynski, Jürgen. *Die Geschichte der Lage der Arbeiter unter dem Kapitalismus*. Berlin: Akademie-Verlag, 1960-1972. 38 vols.

Landes, David S. *The Unbound Prometheus: Technological Change and Industrial Development in Western Europe from 1750 to the Present*. London: Cambridge University Press, 1969.

Le Riverend, Julio. *Historia económica de Cuba*. 2. Ed. La Habana: Editorial Nacional de Cuba, 1965.

Leroy-Beaulieu, Paul. *L'Algérie et la Tunisie*. 2e éd. Paris: Guillaumin, 1897.

L'Huillier, Fernandet et Pierre Benaerts. *Nationalité et nationalisme, 1860-1878*. Nouvelle édition... refondue. Paris: Presses universitaires de France, 1968. (Peuples et civilisations; 17)

Lindsay, William Schaw. *History of Merchant Shipping and Ancient Commerce*.... With... Illustrations. London: [n. pb.], 1874-1876. 4 vols.

Lyashchenko, Peter Ivanovich. *History of the National Economy of Russia, to the 1917 Revolution*. Translated by L. M. Herman; Introd. by Calvin B. Hoover; Maps Redrawn under the Supervision of Leonard H. Dykes. New York: Macmillan, 1949. [(American Council of Learned Societies Devoted to Humanistic Studies. Russian Translation Project. Series 4)]

Marx, Karl. *Capital*.

Marx, Karl. *Karl Marx, Friedrich Engels. Werke*. Berlin: Dietz, 1956-.

Marx, Karl and Friedrich Engels. *Manifesto of the Communist Party*. London: [n. pb.], 1848.

Maschke, Erich. *Es entsteht ein Konzern*. Tübingen: Wunderlich, 1969.

Master and Artisan in Victorian England. The Diary of William Andrews and The Autobiography of Joseph Gutteridge. Edited and with an Introd. by Valerie E. Chancellor. New York: A. M. Kelley, [1969]. (Documents of Social History)

May, Thomas Erskine. *Democracy in Europe, a History*. London: Longmans, Green and Co, 1877. 2 vols.

Mayo-Smith, Richmond. *Emigration and Immigration: A Study in Social Science*. New York: C. Scribner's Sons, 1890.

Mayr, Georg von. *Statistik und Gesellschaftslehre*. 2., umgearb. und verm. Aufl. Tübingen: Mohr, 1914-.

Vol. 2: *Bevölkerungsstatistik*, 1922.

McCoy, Joseph G. *Historic Sketches of the Cattle Trade of the West and Southwest*. Edited by Ralph P. Bieber. Glendale, Calif.: The Arthur H. Clark Company, 1940. (The Southwest Historical Series; 8)

———. *Historic Sketches of the Cattle Trade of the West and Southwest*. Kansas City, Mo.: Ramsey, Millett & Hudson, 1874.

McQueen, Charles Alfred. *Peruvian Public Finance*. Washington: U. S. Govt. Print. Off., 1926. (United States. Bureau of Foreign and Domestic Commerce. Trade Promotion Series; no. 30)

Mehring, Franz. *Karl Marx; the Story of his Life*. With Illustrations and Facsimile Reproductions, Notes by the Author, an Appendix Prepared under the Direction of Eduard Fuchs on the Basis of the Researches of the Marx-Engels Institute, a Bibliography and an Index. Translated by Edward Fitzgerald. London: John Lane, [1936].

Meyer, Jean A. *Problemas campesinos y revueltas agrarias (1821-1910)*. [México: Secretaría de Educación Pública, 1973].

Miller, William (ed.). *Men in Business; Essays in the History of Entrepreneurship*. Cambridge: Harvard University Press, 1952.

Mitchell, Brian Redman and Phyllis Deane. *Abstract of British Historical Statistics*. Cambridge: University Press, 1962.

Mottek, Hans. *Wirtschaftsgeschichte Deutschlands*. Berlin: [n. pb.], 1973.

Mulhall, Michael G. *The Dictionary of Statistics*. London; New York: G. Routledge and Sons, 1892.

Munford, William Arthur. *Edward Edwards, 1812-1886; Portrait of a Librarian*. London: Library Association, 1963.

Mumby, Frank Arthur. *The House of Routledge, 1834-1934, with a*

History of Kegan Paul, Trench, Trübner and Other Associated Firms. London: G. Routledge & Sons, Ltd., 1934.

Neppi Modona, Guido. *Sciopero, potere politico e magistratura 1870-1922*. Prefazione di Alessandro Galante Garrone. Bari: Laterza, 1969. (Biblioteca di cultura moderna; no. 679)

Nestroy, Johann. *Haeuptling Abendwind*. [n. p.: n. pb.], 1862.

Neumann-Spallart, Franz Xaver von. *Übersichten der Weltwirtschaft*. Stuttgart: Julius Maier, 1880-.

Nochlin, Linda. *Realism and Tradition in Art, 1848-1900; Sources and Documents*. Englewood Cliffs (N. J.): Prentice-Hall, [1966]. (Sources and Documents in the History of Art Series)

Nouvelle biographie générale: Depuis les temps les plus reculés jusqu'à nos jours.... Tomes trente-cinquième-trente-sixième, Mérat-Murr. Publ. par Mm. Firmin Didot frères; sous la dir. de M. le Dr Hoefer. Paris: Firmin Didot frères, 1861.

Owen, Roger. *Cotton and the Egyptian Economy, 1820-1914: A Study in Trade and Development*. Oxford: Clarendon Press, 1969.

Paris guide. Par les principaux écrivains et artistes de la France. 2. éd. Paris: Librairie internationale, 1867. 2 vols.

Paul, Rodman Wilson. *Mining Frontiers of the Far West, 1848-1880*. New York: Holt, Rinehart and Winston, [1963]. (Histories of the American Frontier)

Plessis, Alain. *De La Fête impériale au mur des fédérés: 1852-1871*. Paris: Editions du seuil, 1973. (Collection points. Série histoire. Nouvelle histoire de la France contemporaine; 9)

Procacci, Giuliano. *Le elezioni del 1874 e l'opposizione meridionale*. Milano: Feltrinelli editore, 1956. (Biblioteca G. G. Feltrinelli)

Proudhon, Pierre-Joseph. *Manuel du spéculateur à la bourse*. Paris: Garnier frères, 1857.

Reitlinger, Gerald. *The Economics of Taste*. London: Barrie and Rockliff, [1961-1970]. 3 vols.

Repgen, Konrad. *Märzbewegung und Maiwahlen des Revolutionsjahres 1848 im Rheinland*. Bonn: L. Rohrscheid, 1955. (Bonner historische Forschungen; Bd. 4)

Report of the Commissioner of Agriculture for 1873. Washington: [Government Printing Office, 1874].

Rinascita, Il 1848, Raccolta di Saggi e Testimonianze. Rome: [n. pb.], 1948.

Rioux, Jean-Pierre. *La Révolution industrielle, 1780-1880*. Paris: Editions du seuil, 1971. (Points. Série histoire; 6)

Rougerie, Jacques. *Paris libre, 1871*. Paris: Editions du seuil, 1971. (Politique; 44)

Ruskin, John. *The Crown of Wild Olive*. [Orpington: Kent, Allen, 1866].

Schwiedland, Eugen Peter. *Kleingewerbe und Hausindustrie in Österreich, Beiträge zur Kenntnis ihrer Entwicklung und ihrer Existenzbedingungen*. Leipzig: Duncker and Humblot, 1894. 2 vols.

Vol. 2: *Besonderer Teil. Die Wiener Muscheldrechsler*.

Sereni, Emilio. *Storia del paesaggio agrario italiano*. Bari: Laterza, [1962].

Seton-Watson, Hugh. *The Russian Empire, 1801-1917*. Oxford: Clarendon P., 1967. (Oxford History of Modern Europe)

Shinn, Charles Howard. *Mining Camps, a Study in American Frontier Government*. New York: Harper & Row, [1965]. (American Perspectives)

Simonin, Louis. *Mines and Miners or Underground Life*. London: [n. pb.], 1868.

Smiles, Samuel. *Self-Help*. With Illustrations of Character and Conduct. London: J. Murray, 1859.

Smith, D. Mack. *Il Risorgimento Italiano*. Bari: [n. pb.], 1968.

Smith, Henry Nash. *Virgin Land*. New York: [n. pb.], 1957.

Spitzer, Daniel. *Gesammelte schriften*. Herausgegeben von Max Kalbeck und Otto Erich Deutsch. München: Leipzig, G. Müller, 1912-1914. 3 vols.

Vol. 2: *Wiener Spaziergänge II*, 1912.

Stock, Eugene. *A Short Handbook of Missions*. London: Longmans & Co., 1904.

Studi in onore di Gino Luzzatto. Milano: A. Giuffrè, 1949-1950. 4 vols.

Ta Chen. *Chinese Migrations, with Special Reference to Labor Conditions*. Washington: Government Printing Office, 1923.

Thackeray, William Makepeace. *The Letters and Private Papers of William Makepeace Thackeray*. Collected and Edited by Gordon N. Ray. Cambridge, Mass.: Harvard University Press, 1945-1946. 4 vols.

Tupper, Martin Farquhar. *Proverbial Philosophy in Four Series; now First Complete*. London: [n. pb.], 1876.

Turner, Frederick Storrs. *British Opium Policy and its Results to India and China*. London: S. Low, 1876.

Twain, Mark. *Adventures of Huckleberry Finn (Tom Sawyer's Comrade)*. New York: Charles L. Webster and Company, 1885.

Übersichten der Weltwirtschaft. Stuttgart: Julius Maier, 1880-.

Varga, János. *Typen und Probleme des bäuerlichen Grundbesitzes in Ungarn, 1767-1849*. Budapest: Akadémiai Kiadó, 1965. (Studia historica - Academiae Scientiarum Hungaricae; 56)

Venturi, Franco. *Les Intellectuels, le peuple et la révolution: Histoire du populisme russe au XIXe siècle = Il populismo russo*. Traduit de l'italien par Viviana Pâques. [Paris]: Gallimard, 1972. (Bibliothèque des histoires). 2 vols.

———. *Roots of Revolution: A History of the Populist and Socialist Movements in Nineteenth-Century Russia*. London: Weidenfeld & Nicolson, 1960.

Verne, Jules. *From the Earth to the Moon*. [n. p.: n. pb.], 1865.

Victoria. *Further Letters of Queen Victoria, from the Archives of the House of Brandenburg-Prussia*. Translated from the German by Mrs. J. Pudney and Lord Sudley and Edited by Hector Bolitho. London: T. Butterworth, 1938.

Wagner, Richard. *Gesammelte schriften und dichtungen*. Leipzig: C. F. W. Siegel, [1907].

Ward, James. *Workmen and Wages at Home and Abroad; or, The Effects of Strikes, Combinations, and Trades Unions*. London: Longmans, Green, 1868.

Waugh, Edwin. *Home-Life of the Lancashire Factory Folk during the Cotton Famine*. London: Manchester, [1867].

Webb, Beatrice Potter. *My Apprenticeship*. Harmondsworth: Middlesex, Eng., Penguin Books Limited, [1938]. 2 vols.

Weber, Adna Ferrin. *The Growth of Cities in the Nineteenth Century*. New York: Pub. for Columbia University by the Macmillan Company, 1899.

Wehler, Hans Ulrich. *Bismarck und der Imperialismus*. Köln; Berlin: Kiepenheuer u. Witsch, 1969.

——— (ed.). *Moderne Deutsche Sozialgeschichte*. Köln; Berlin: Kiepenheuer u. Witsch, 1966. (Neue wissenschaftliche Bibliotek; 10)

Wells, David Ames. *Recent Economic Changes, and their Effect on the Production and Distribution of Wealth and the Well-being of Society*. New York: D. Appleton and Company, 1889.

Whitcombe, Elizabeth. *Agrarian Conditions in Northern India*. Berkeley: University of California Press, [1972-].

Vol. 1: *The United Provinces under British Rule, 1860-1900*.

Wischnitzer, Rachel Bernstein. *The Architecture of the European Synagogue*. Philadelphia: Jewish Publication Society of America, 1964.

Wittke, Carl. *We who Built America; the Saga of the Immigrant*. New York: Prentice-Hall, 1939.

Zavala, Iris M. *Masones. Comuneros y carbonarios, por*. Madrid: Siglo Vientiuno de Espanã Editores, [1971]. (Historia y arqueología)

Zeldin, Theodore. *France, 1848-1945*. Oxford: Clarendon Press, 1973-1977. 2 vols. (Oxford History of Modern Europe)

Zimmern, Alfred (ed.). *Modern Political Doctrines*. London; New York: Oxford University Press, 1939.

Periodicals

Alier, Verena Martinez. «Elopement and Seduction in 19th Century Cuba.» *Past and Present*: vol. 55, May 1972.

Annales économies sociétés civilisations (ESC): vol. 25, no. 3, 1970.

Anthropological Review: vol. 4, 1866.

Ardao, Arturo. «Assimilation and Transformation of Positivism in Latin America.» *Journal of the History of Ideas*: vol. 24, no. 4, 1963.

The Bankers' Magazine: vol. IV, 1849.

The Bankers' Magazine: vol. V, 1850-1851.

Caron, M.-A. «Prélude à l'éxode rural en France: Les Migrations anciennes des travailleurs creusois.» *Revue d'histoire économique et sociale*: vol. 43, 1965.

Conrad, J. «Die Frequenzverhältnisse der Universitäten der hauptsächlichen Kulturländer.» *Jahrbücher für Nationalökonomie und Statistik*: 3rd Ser., vol. 1, 1891.

Emerit, M. «Le Maroc et l'europe jusqu'en 1885.» *Annales économies sociétés civilisations (ESC)*: vol. 20, no. 3, mai-juin 1965.

Engelsing, Rolf. «Zur politischen Bildung der deutschen Unterschichten, 1789-1863.» *Historische Zeitschrift*: vol. 206, no. 2, April 1968.

Feller, Irwin. «Inventive Activity in Agriculture, 1837-1890.» *The Journal of Economic History*: vol. 22, no. 4, Dec. 1962.

Fleury, M. et P. Valmary. «Les Progrès de l'instruction élémentaire de Louis XIV à Napoléon III d'après l'enquête de Louis Maggiolo (1877-1879).» *Population*: vol. 12, 1957.

Giusti, Renato. «L'Agricoltura e i contadini del Mantovano (1848-1866).» *Movimento Operaio*: vol. VII, nos. 3-4, May-August 1955.

Grundmann, Günther. «Schlösser und Villen des 19. Jahrhunderts von Unternehmen in Schlesien.» *Tradition*: vol. 10, no. 4, August 1965.

Gruner, E. «Quelques réflexions sur l'élite politique dans la conféderation Helvetique depuis 1848.» *Revue d'histoire*

économique et sociale: vol. 44, 1966.

Guillaume, Pierre. «La Fortune Bordelaise au milieu du XIX siècle.» *Revue d'histoire économique et sociale*: vol. 43, 1965.

Gutman, Herbert. «Work, Culture, and Society in Industrializing America 1815-1919.» *American Historical Review*: vol. 78, no. 3, June 1973.

Hagan, Jim and C. Fisher. «Piece-Work and Stone of its Consequences in the Printing and Coal Mining Industries in Australia, 1850-1930.» *Labour History*: vol. 25, November 1973.

Haupt, Georges. «La Commune comme symbole et comme exemple.» *Le Mouvement social*: no. 79, avril-juin 1972.

Hoppe, Ruth and Jürgen Kuczynski. «Eine Berufs- bzw. Klassen- und Schichtanalyse der Märzgefallenen 1848 in Berlin.» *Jahrbuch für Wirtschaftsgeschichte*: vol. IV, 1964.

Kellenbenz, Hermann. «Unternehmertum in Südwestdeutschland,» *Tradition: Zeitschrift für Firmengeschichte und Unternehmerbiographie*: vol. 10, no. 4, August 1965.

Klein, H. S. «The Colored Freedmen in Brazilian Slave Society.» *Journal of Social History*: vol. 3, no. 1, 1969.

Kocka, Jürgen. «Industrielles Management: Konzeption und Modelle in Deutschland vor 1914.» *Vierteljahrschrift für Sozial- und Wirtschaftsgeschichte* (*VSWG*): vol. 56, no. 3, October 1969.

Laffey, John F. «Les Racines de l'impérialisme français en extrême-orient. A Propos des thèses de J.- F. Cady.» *Revue d'histoire moderne et contemporaine*: tome XVI, avril-juin 1969.

Lambert-Dansette, Jean. «Le Patronat du nord. Sa période triomphante.» *Bulletin de la société d'histoire moderne*: no. 18, série 14, 1971.

Levi, K. E. «Geographical Origin of German Immigration to Wisconsin.» *Collections of the State Historical Society of Wisconsin*: vol. XIV, 1898.

Marx, Karl. «The British Rule in India.» *New York Daily Tribune*: 25 June 1853.

Mintz, S. W. «Cuba: Terre et esclaves.» *Etudes rurales*: vol. 48, 1972.

Nakagawa, Keiichirō and Henry Rosovsky. «The Case of the Dying Kimono: The Influence of Changing Fashions on the Development of the Japanese Woolen Industry.» *Business History Review*: vol. 37, 1963.

Philips, W. «Religious Profession and Practice in New South Wales 1850-1900.» *Historical Studies*: October 1972.

Pierrard, P. «Poésie et chanson... à Lille sous le 2è empire.» *Revue du nord*: vol. 46, 1964.

Primack, Martin L. «Farm Construction as a Use of Farm Labor in the United States 1850-1910.» *Journal of Economic History*: vol. 25, no. 1, 1965.

Pucheu, Christian. «Les Grands notables de l'agglomération bordelaise du milieu du XIXème siècle à nos jours.» *Revue d'histoire économique et sociale*: vol. 45, 1967.

Purš, Jaroslav. «Die Entwicklung des Kapitalismus in der Landwirtschaft der böhmischen Lönder in der Zeit von 1849 bis 1879.» *Jahrbuch für Wirtschaftsgeschichte*: vol. III, 1963.

———. «The Industrial Revolution in the Czech Lands.» *Historica*: vol. 2, 1960.

———. «The Working Class Movement in the Czech Lands.» *Historica*: vol. X, 1965.

Pushkin, M. «The Professions and the Intelligentsia in Nineteenth-Century Russia.» *University of Birmingham Historical Journal*: vol. 12, no. 1, 1969-1970.

Ravenstein, E. G. «The Laws of Migration.» *Journal of the Royal Statistical Society*: vol. 52, 1889.

Sanchez-Albornoz, Nicolas. «La Modernisation démographique de l'Espagne: Le Cycle vital annuel 1863-1900.» *Annales économies sociétés civilisations (ESC)*: vol. 24, no. 6, novembre-décembre 1969.

Stokes, M. V. «Charles Dickens: A Customer of Coutts & Co.» *The Dickensian*: vol. 68, 1972.

Supple, Barry E. «A Business Elite: German-Jewish Financiers in Nineteenth Century New York.» *Business History Review*: vol. XXXI, 1957.

Thieme, Horst. «Statistische Materialien zur Konzessionierung von Aktienge- sellschaften in Preussen bis 1867.» *Jahrbuch für Wirtschaftsgeschichte*: vol. II, 1960.

Trempé, Rolande. «Contribution à l'étude de la psychologie patronale: Le Comportement des administrateurs de la societé des mines de carmaux (1856-1914).» *Mouvement social*: vol. 43, 1963.

Trénard, L. «Un Industriel roubaisien du XIX siècle.» *Revue du nord*: vol. 50, 1968.

Turnbull, C. M. «The European Mercantile Community in Singapore, 1819-1867.» *Journal of South East Asian History*: vol. X, no. 1, 1969.

Tylor, Edward Burnett. «The Religion of Savages.» *Fortnightly Review*: vol. 6, 1866.

Verhaegen, B. «Le Groupe libéral à la chambre belge (1847-1852).» *Revue Belge de philologie et d'histoire*: vol. 47, no. 4, 1969.

Wellman, I. «Histoire rurale de la Hongrie.» *Annales économies sociétés civilisations (ESC)*: vol. 23, no. 6, 1968.

Zeitschrift für Völkerpsychologie und Sprachwissenschaft. Berlin: Ferd. Dümmler, 1860-1890. 20 vols.

Conferences

Commission internationale d'histoire des mouvements sociaux et des structures sociales. *Mouvements nationaux d'indépendance et classes populaires aux XIXe et XXe siècles en occident et en orient*. [Sous la direction d'Ernest Labrousse]. Paris: A. Colin, 1971. 2 vols.

Industrial Remuneration Conference. London: [n. pb.], 1885.

المراجع المساندة

Books

Adamson, Alan H. *Sugar without Slaves: The Political Economy of British Guiana, 1838-1904*. New Haven: Yale University Press, 1972. (Caribbean Series; 13)

Agulhon, Maurice. *1848 ou l'apprentissage de la république: 1848-1852*. Paris: Ed. du seuil, 1973. (Collection points. Histoire; 108)

Anderson, Matthew Smith. *The Ascendancy of Europe: Aspects of European History 1815-1914*. [London]: Longman, 1972.

Bagehot, Walter. *Physics and Politics*. New York: D. Appleton and Company, 1875.

Baker, John Norman Leonard. *A History of Geographical Discovery and Exploration*. London [etc.]: G. G. Harrap & Co. ltd., [1931]. (Harrap's New Geographical Series)

Barraclough, Geoffrey. *An Introduction to Contemporary History*. Harmondsworth: Penguin, 1967. (Pelican Books; A827)

Beasley, W. G. *The Meiji Restoration*. Stanford, Calif.: Stanford University Press, 1972.

Bernal, John Desmond. *Science and Industry in the 19th Century*. London: Routledge and Kegan Paul, 1953.

———. *Science in History*. [3d Ed.]. New York: Hawthorn Books, [1965].

Best, Geoffrey Francis Andrew. *Mid-Victorian Britain: 1851-1875*. London: Weidenfeld and Nicolson, 1971.

Billington, Ray Allen. *Westward Expansion: A History of the American Frontier*. With the Collaboration of James Blaine Hedges. New York: Macmillan Co., 1949.

Blum, Jerome. *Lord and Peasant in Russia, From the Ninth to the Nineteenth Century*. Princeton, N. J.: Princeton University Press, 1961.

Brandes, Georg Morris Cohen. *Main Currents in 19th Century Literature*. [New York: Russell & Russell, 1901-1905].

Braun, Rudolf. *Sozialer und kultureller Wandel in einem ländlichen Industriegebiet. <Zürcher Oberland> unter Einwirkung des Maschinen- und Fabrikwesens im 19. und 20. Jahrhundert*. Erlenbach-Zürich, Stuttgart: Rentsch, [1965].

Briggs, Asa. *Victorian Cities*. London: Odhams Books, 1964.

———. *Victorian People: A Reassessment of Persons and Themes, 1851-1867*. [Chicago]: University of Chicago Press, [1955].

Burn, W. L. *The Age of Equipoise: A Study of the Mid-Victorian Generation*. New York: Norton, [1964].

Burnett, John (ed.). *Useful Toil: Autobiographies of Working People from the 1820s to the 1920s*. London: Allen Lane, 1974.

Burrow, John Wyon. *Evolution and Society: A Study in Victorian Social Theory*. London: Cambridge U. P., 1966.

Bury, John Patrick Tuer (ed.). *The Zenith of European Power 1830-1870*. Cambridge: University Press, 1960.

Carr, Raymond. *Spain 1808-1939*. Oxford: Clarendon Press, 1966.

Chesneaux, Jean. *The Political and Social Ideas of Jules Verne*. Translated [from the French] by Thomas Wikeley; with 41 Illustrations from the Original Editions of Novels by Jules Verne. London: Thames and Hudson, 1972.

Cipolla, Carlo M. *The Economic History of World Population*. Baltimore: Penguin Books, [1962]. (Pelican Books; A537)

———. *Literacy and Development in the West*. Harmondsworth: Penguin, 1969. (Pelican Books; A1027)

Clapham, John Harold. *An Economic History of Modern Britain*. Cambridge: The University Press, [1930].

Vol. 2: *Free Trade and Steel, 1850-1886*, 1932.

Clark, Timothy J. *The Absolute Bourgeois: Artists and Politics in France, 1848-1851*. Greenwich, Conn.: New York Graphic Society, [1973].

Cole, George Douglas Howard. *A History of Socialist Thought*. London: Macmillan and Co., 1953-1960. 5 vols.

Vol. 2: *Socialist Thought Marxism and Anarchism, 1850-1890*, 1954.

Darwin, Charles. *The Origin of Species by Means of Natural Selection; or, The Preservation of Favoured Races in the Struggle for Life*. Edited, with an Introd. by J. W. Burrow. Baltimore: Penguin Books, [1968]. (The Pelican Classics; AC1)

Daumard, Adeline. *La Bourgeoisie parisienne de 1815-1848*. [s. l.: s. n.], 1970.

Dawson, Llewellyn Styles. *Memoirs of Hydrography*. Including Brief Biographies of the Principal Officers who Have Served in H. M. Naval Surveying Service between the Years 1750 and 1885. Compiled by L. S. Dawson. Eastbourne H. W. Keay, [1883]-1885. London: Cornmarket P., 1969. 2 vols.

Dyos, Harold James and Michael Wolff (eds.). *The Victorian City: Images and Realities*. London; Boston: Routledge and K. Paul, 1973.

Encyclopaedia of the Social Sciences. New York: The Macmillan Company, 1931-1935.

Erickson, Charlotte. *Invisible Immigrants: The Adaptation of English and Scottish Immigrants in Nineteenth-Century America*. London: London School of Economics and Political Science; Weidenfeld and Nicolson, 1972.

Feis, Europe. *Europe, the World's Banker, 1870-1914. An Account of European foreign Investment and the Connection of World Finance with Diplomacy before the War*. New Haven: Council on Foreign Relations, 1930.

Findlay, Alexander. *A Hundred Years of Chemistry*. [2d Ed.]. London: G. Duckworth, [1948]. (100 Years Series)

Fogel, Robert and Stanley Engermann. *Time on the Cross; the*

Economics of American Negro Slavery. Boston: Little, Brown, [1974].

Foner, Eric. *Free Soil, Free Labor, Free Men: The Ideology of the Republican Party before the Civil War*. New York: Oxford University Press, 1970.

Franz, Michael. *The Taiping Rebellion. 1, History*. In Collaboration with Chung-Li Chang. Tokyo: University of Tokyo Press, 1966. (Publications on Asia - Institute for Comparative and Foreign Area Studies / University of Washington; 14)

Freund, Gisele. *Photographie und Urgerliche Gesellschaft*. [n. p.: n. pb.], 1968.

Genovese, Eugene G. *Roll, Jordan Roll: The World the Slaves Made*. New York: Pantheon Books, [1974].

———. *The World the Slaveholders Made: Two Essays in Interpretation*. New York: Pantheon Books, [1969].

Girvetz, H. K. *From Wealth to Welfare: The Evolution of Liberalism*. Stanford, Cal.: Stanford University Press, 1963.

Grosser Historischer Weltatlas. Herausgegeben vom Bayerischen Schulbuch-Verlag. III. Teil, Neuzeit. Redaktion: Dr. Josef Engel. München: Bayerischer Schulbuch-Verlag, 1957.

Grunebaum, G. von (ed.). *Unity and Variety in Muslim Civilization*. With Papers by Armand Abel. Chicago: University of Chicago Press, [1955].

Hamerow, Theodore S. *Restoration, Revolution, Reaction, Economics and Politics in Germany 1815-1871*. Princeton, New Jersey: Princeton University Press, 1958.

———. *Social Foundations of German Unification*. Princeton: N. J., Princeton University Press, 1969-1972. 2 vols.

Handlin, Oskar (ed.). *Immigration as a Factor in American History*. Englewood Cliffs: N. J., Prentice-Hall, 1959.

Hanke, Lewis (ed.). *Readings in Latin American History: Selected Articles from the Hispanic American Historical Review*. New York: Crowell, [1966].

Hansen, Marcus Lee. *The Immigrant in American History*. Edited with a Foreword by Arthur M. Schlesinger. Cambridge, Mass.: Harvard University Press, 1940.

Harrison, Royden. *Before the Socialists: Studies in Labour and Politics, 1861-1881.* London: Routledge & K. Paul, 1965. (Studies in Political History)

Hauser, Arnold. *The Social History of Art.* London: England Routledge & K. Paul, 1951. 2 vols.

Helps, Arthur. *The Life and Labours of Mr Brassey.* [New York]: A. M. Kelley, [1969]. (Documents of Social History)

Hennessy, Charles Alistair Michael. *The Federal Republic in Spain: Pi y Margall and the Federal Republican Movement, 1868-74.* Oxford: Clarendon Press, 1962.

Hobsbawm, Eric John. *Labouring Men: Studies in the History of Labour.* New York: Basic Books, [1964].

Hofstadter, Richard. *Social Darwinism in American Thought.* Rev. Ed. Boston: Beacon Press, [1955]. (Beacon Paperbacks; 16)

Holborn, Hajo. *A History of Modern Germany 1840-1945.* Princeton, N. J.; Guildford: Princeton University Press, 1969.

Hovde, B. J. *The Scandinavian Countries 1720-1865: The Rise of the Middle Classes.* Boston: Chapman & Grimes, [1943]. 2 vols.

Howard, Michael. *The Franco-Prussian War: The German Invasion of France, 1870-1871.* New York: Macmillan, 1961.

Hroch, Miroslav. *Die Vorkämpfer der nationalen Bewegung bei den kleinen Völkern Europas, eine vergleichende Analyse zur gesellschaftlichen Schichtung der patriotischen Gruppen.* Praha: Universita Karlova, 1968. (Acta universitatis Carolinae philosophica et historica. Monographia. 24)

Imperial China: The Eighteenth and Nineteenth Centuries. Edited, Annotated, and with Introductions by Franz Schurmann and Orville Schell. Harmondsworth: Penguin, 1967. (China Readings; 1)

Imperial Japan, 1800-1945. Edited, Annotated, and with Introductions by Jon Livingston, Joe Moore, and Felicia Oldfather. New York: Pantheon Books, [1973]. (Their Japan Reader; 1)

Jenks, Leland Hamilton. *The Migration of British Capital to 1875.* New York & London: A. A. Knopf, 1927.

Kiernan, Victor Gordon. *The Lords of Human Kind: Black Man,*

Yellow Man, and White Man in an Age of Empire. Boston: Little, Brown, [1969].

———. *The Lords of Human Kind: European Attitudes towards the Outside World in the Imperial Age*. Harmondsworth: Penguin, 1972. (Pelican Books)

———. *Industriegebiet*. [n. p.: n. pb.], 1965.

———. *The Revolution of 1854 in Spanish History*. Oxford: Clarendon Press, 1966.

Kuczynski, Jürgen. *Die Geschichte der Lage der Arbeiter Unter dem Kapitalismus*. Berlin: Akademie-Verlag, 1960-1972.

Landes, David Saul. *Bankers and Pashas: International Finance and Economic Imperialism in Egypt*. London: Heinemann, 1958.

———. *The Unbound Prometheus: Technological Change and Industrial Development in Western Europe from 1750 to the Present*. London: Cambridge U. P., 1969.

Langer, William L. *Political and Social Upheaval 1832-1852*. New York: Harper & Row, [1969]. (The Rise of Modern Europe)

Lichtheim, George. *The Origins of Socialism*. New York: Praeger, [1969].

Lindsay, William Schaw. *History of Merchant Shipping and Ancient Commerce*. London: S. Low, Marston, Low, and Searle, 1874-1876. 4 vols.

Lukács, György. *Studies in European Realism: A Sociological Survey of the Writings of Balzac, Stendhal, Zola, Tolstoy, Gorki, and Others*. Translated by Edith Bone; Foreword by Roy Pascal. London: Hillway Pub. Co., 1950.

Lyashchenko, Peter Ivanovich. *History of the National Economy of Russia to the 1917 Revolution*. New York: Macmillan, 1949.

Macartney, Carlile Aylmer. *The Habsburg Empire 1790-1918*. New York: Macmillan, [1969].

Mack Smith, D. *Italy, A Modern History*. Ann Arbor: University of Michigan Press, [1959]. (The University of Michigan History of the Modern World)

Magee, Bryan. *Aspects of Wagner*. London: Panther, 1972.

Mayer, Alfred. *Annals of European Civilization 1500-1900*. Fore-

word by G. P. Gooch. London: Cassell, 1949.

Mayhew, Henry. *London Labour and the London Poor*. London: Griffin, Bohn, and Company, 1861-1862. 4 vols.

McNally, Rand. *Atlas of World History*. Edited by R. R. Palmer. Contributing Editors: Knight Biggerstaff [and Others]. Chicago: [n. pb., 1957]. (Rand McNally History Series)

Mehring, Franz. *Karl Marx; the Story of his Life*. With Illustrations and Facsimile Reproductions, Notes by the Author, an Appendix Prepared under the Direction of Eduard Fuchs on the Basis of the Researches of the Marx-Engels Institute, a Bibliography and an Index. Translated by Edward Fitzgerald. London: John Lane, [1936].

Merz, John Theodore. *A History of European Thought in the Nineteenth Century*. Blackwood & Sons: Edinburgh & London, 1896-1914. 4 vols.

Moore, Barrington. *Social Origins of Dictatorship and Democracy: Lord and Peasant in the Making of the Modern World*. London: Penguin P., 1967.

Morazé, Charles. *The Triumph of the Middle Classes: Study of European Values in the Nineteenth Century*. London: Weidenfeld and Nicolson, [1966]. (Studies in World History)

Mosse, George Lachmann. *The Culture of Western Europe: The Nineteenth and Twentieth Centuries*. London: John Murray, 1963.

Mosse, Werner Eugen. *The European Powers and the German Question 1818-1871*. With Special Reference to England and Russia. New York: Octagon Books, 1969.

———. *Liberal Europe: The Age of Bourgeois Realism 1848-1875*. London: Thames and Hudson, [1974].

The New Cambridge Modern History. Cambridge [Eng.]: University Press, 1957-1979. 14 vols.

Vol. 10: *The Zenith of European Power, 1830-1870*. Edited by J. P. T. Bury.

Nochlin, Linda. *Realism*. Harmondsworth: Penguin, 1971. (Style and Civilization)

Owen, Roger. *Cotton and the Egyptian Economy 1820-1914: A*

Study in Trade and Development. Oxford: Clarendon P., 1969.

Paul, Rodman Wilson. *Mining Frontiers of the Far West 1848-1880*. New York: Holt, Rinehart and Winston, [1963]. (Histories of the American Frontier)

Penguin Historical Atlas. [n. p.: n. pb.], 1974.

Perkin, Harold. *The Origin of Modern English Society 1780-1880*. [n. p.: n. pb.], 1969.

Perrot, Michelle. *Les Ouvriers en grève, France 1871-1890*. Paris: Mouton, [1974]. 2 vols. (Civilisations et sociétés; 31)

Plessis, Alain. *De La Fête impériale au mur des fédérés: 1852-1871*. Paris: Editions du seuil, 1973. (Collection points. Série Histoire. Nouvelle histoire de la France contemporaine; 9)

Pratt, Edwin A. *The Rise of Rail Power in War and Conquest*. London: P. S. King, 1915.

Procacci, G. *History of the Italian People*. Translated by Anthony Paul. Harmondsworth: Penguin Books, 1973. (Pelican Books)

Reitlinger, Gerald. *The Economics of Taste*. London: Barrie and Rockliff, [1961-1970]. 3 vols.

Ridley, Jasper Godwin. *Garibaldi*. London: Constable, 1974.

Roach. J. (ed.). *A Bibliography of Modern History*. Cambridge: University Press, 1968.

Robbins, Michael. *The Railway Age*. London: Routledge & Paul, [1962].

Robinson, Geroid T. *Rural Russia under the Old Regime: A History of the Landlord-peasant World and a Prologue to the Peasant Revolution of 1917*. London; New York [etc.]: Longmans, Green and Company, 1932.

Roll, Eric. *History of Economic Thought*.

Rosenberg, Hans. *Grosse Depression und Bismarckzeit*. Berlin: De Gruyter, 1967. (Historische Kommission zu Berlin. Publikationen zur Geschichte der Industrialisierung; Bd. 2)

Rougerie, Jacques. *Paris libre, 1871*. Paris: Editions du seuil, 1971. (Politique; 44)

Rozwenc, Edwin Charles. *The Making of American Society: An*

Institutional and Intellectual History of the United States. Visual Material by Judith Mara Gutman. Boston: Allyn and Bacon, [1972-1973]. 2 vols.

Shanin, Teodor (ed.). *Peasants and Peasant Societies: Selected Reading*. Hardmondsworth: Penguin Books, 1971.

Shannon, Fred Albert. *The farmer's Last Frontier: Agriculture, 1860-1897*. New York: Farrar and Rinehart, 1945. (Economic History of the United States; vol. V)

Simon, Walter Michael. *European Positivism in the Nineteenth Century, an Essay in Intellectual History*. Ithaca, N.Y.: Cornell University Press, [1963].

Smith, Henry Nash. *Virgin Land: The American West as Symbol and Myth*. New York: Vintage Books, 1957.

Stavrianos, Leften Stavros. *The Balkans since 1453*. New York: Rinehart, [1958]. (Rinehart Books in European History)

Stearns, Peter N. *European Society in Upheaval: Social History since 1750*. 2d Ed. New York: Macmillan, [1975].

———. *1848 the Revolutionary Tide in Europe*. New York: W. W. Norton and Co., 1974. (Revolutions in the Modern World)

Stewart, Watt. *Henry Meiggs. A Yankee Pizarro*. Durham: N. C., 1946. (Duke University Publications)

Taylor, Alan John Percivale. *The Struggle for Mastery in Europe, 1848-1918*. Oxford: Clarendon Press, 1954. (Oxford History of Modern Europe)

Thomas, Brinley. *Migration and Economic Growth*. Cambridge [Eng.]: University Press, 1954. (National Institute of Economic and Social Research. Economic and Social Studies; 12)

Thompson, Francis Michael Longstreth. *English Landed Society in the Nineteenth Century*. London: Routledge & Kegan Paul; Toronto: University of Toronto Press, 1963. (Studies in Social History)

Thompson, Silvanus Phillips. *The Life of William Thomson, Baron Kelvin of Largs*. London: Macmillan, 1910. 2 vols.

Tinker, Hugh. *A New System of Slavery; the Export of Indian Labour Overseas, 1830-1920*. London; New York: Published for the Institute of Race Relations by Oxford University Press, 1974.

Trempé, Rolande. *Les Mineurs de Carmaux, 1848-1914*. Préf. de J. Godechot. Paris: Les Editions ouvrières, [1971]. 2 vols.

Tudesq, André Jean. *Les Grands notables en France, 1840-1849. Etude historique d'une psychologie sociale*. Paris: [s. n.], 1964. 2 vols. (Publications de la faculté des lettres et sciences humaines de Paris. Série «recherches»; tom. 20, 21)

Vagts, Alfred. *A History of Militarism: Romance and Realities of a Profession*. New York: W. W. Norton & Company, [1937].

Venturi, F. *Roots of Revolution: A History of the Populist and Socialist Movements in Nineteenth Century Russia*. Translated from the Italian by Francis Haskell. With an Introd. by Isaiah Berlin. New York: Knopf, 1960.

Vincent, John Russell. *The Formation of the British Liberal Party 1857-1868*. Harmondsworth: Penguin, 1972. (Pelican Books)

Weber, Adna Ferrin. *The Growth of Cities in the Nineteenth Century*. New York: Pub. for Columbia University by the Macmillan Company, 1899.

Wehler, Hans Ulrich (ed.). *Moderne deutsche Sozialgeschichte*. Köln: Berlin, Kiepenheur u. Witsch, 1966. (Neue wissenschaftliche Bibliotek, 10)

Wells, David Ames. *Recent Economic Changes, and their Effect on the Production and Distribution of Wealth and the well-being of Society*. New York: D. Appleton and Company, 1889.

Whitcombe, Elizabeth. *Agrarian Conditions in Northern India*. Berkeley: University of California Press, [1972-].

Vol. 1: *The United Provinces under British Rule, 1860-1900*.

White, Andrew Dickson. *A History of the Warfare of Science with Theology in Christendom*. New York: D. Appleton & Company, 1896. 2 vols.

Williams, Neville. *Chronology of the Modern World: 1763 to the Present Time*. London: Barrie & Rockliff, 1966.

Zeldin, Theodore. *France 1848-1945*. Oxford: Clarendon Press,

1973-1977. (Oxford History of Modern Europe)

———. *The Political System of Napoleon III.* London: Macmillan; New York: St. Martin's Press, 1958.

Zimmern, Alfred (ed.). *Modern Political Doctrines.* London; New York [etc.]: Oxford University Press, 1939.

Zola, Emile. *La Terre.* [s. l: s. n.], 1975.

Periodicals

Benjamin, Walter. «Paris-Capital of the Eighteenth Century.» *New Left Review*: vol. 48, 1968.

Mayer, G. «Die Trennung der proletarischen von der bürgerlichen. Demokratie in Deutschland, 1863-70.» *Grunberg's Archiv*: vol. 2, 1911.

Nickerson, Hoffman. «Nineteenth-Century Military Techniques.» *Cahiers d'histoire mondiale*: vol. 4, 1958.

Conferences

The Civil War in France. Address of the General Council of the International Working-men 's Association. [Dated 30 May 1871 by Karl Marx]. Second Edition, Revised. London: Edward Truelove, 1871.

Mouvements nationaux d'indépendance et classes populaires aux XIXe et XXe siècles en occident et en orient. Paris: A. Colin, 1971. 2 vols.



الفهرس

ـ ت ـ

ـ ث ـ

- ج -

- ز -

- س -

ـ ش ـ

ـ ص ـ

ـ ط ـ

ـ ك ـ





آخر ما صدر عن

المنظمة العربية للترجمة

بيروت ـ لبنان

توزيع مركز دراسات الوحدة العربيّة

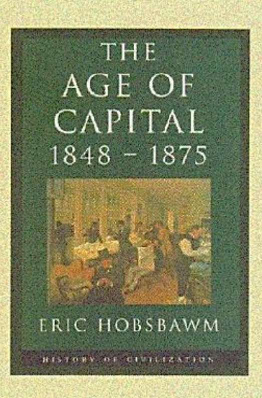
مدخل لفهم اللسانيات	تأليف : روبير مارتان ترجمة : عبد القادر المهيري
الممكن والتكنولوجيات الحيوية	تأليف : كلود دوبرو ترجمة : ميشال يوسف
أسس تدريس الترجمة التقنية	تأليف : كريستين دوريو ترجمة : هدى مُقَنَّص
الدين في الديمقراطية	تأليف : مارسيل غوشيه ترجمة : شفيق محسن
في الفرق بين نسق فيشته ونسق شلّنغ في الفلسفة	تأليف : غِيوُرْغ فِلْهِلْم فرِدْرِيشْ هيغِل ترجمة : ناجي العونلّي
إعادة الإنتاج في سبيل نظرية عامة لنسق التعليم	تأليف : بيار بورديو وجان ـ كلود باسرون ترجمة : ماهر تريمش
البحثُ عن التاريخ والمعنى في الدين	تأليف : ميرتشيا إلياده ترجمة : سعود المولى
الماءُ والأحلام: دراسة عن الخيال والمادّة	تأليف : غاستون باشلار ترجمة : علي نجيب إبراهيم
الشرق في الغرب	تأليف : جاك غودي ترجمة : محمد الخولي





عصر رأس المال

(1848 - 1875)



في كتابه **عصر الثورة** عرض هوبْزْباوْم تحولات الحياة الأوروبية بين عامي 1789 و1848. إلا أن نيران الثورة خبت في الأعوام اللاحقة وحل محلها نظام جديد من القيم والمعايير والخلقيات صنعت كلها معاً ما أسماه «عصر رأس المال».

في **عصر رأس المال (1848 - 1875)** يواصل هوبْزْباوْم تحليله الثاقب والعميق لصعود الرأسمالية الصناعية ولترسّخ الثقافة البورجوازية. إنّ امتداد الاقتصاد الرأسمالي وتوسعه ليشمل كل بقاع الأرض، وكذلك تمركز الثروة، والهجرات البشرية، وسيطرة أوروبا وثقافتها، قد جعلت من الفترة المذكورة حداً فاصلاً، لا في تاريخ أوروبا فحسب، بل في تاريخ العالم.

ويربط هوبْزْباوْم الاقتصاد بالتطورات السياسية والفكرية ليعطينا تاريخاً واقعياً عن الثورة وعن فشلها، وعن الاقتصاد الرأسمالي ودوراته، وعن انتصارات القيم البورجوازية وضحاياها.

- **اريك هوبْزْباوْم**: ولد في الإسكندرية عام 1917 وتابع دراسته في فيينا وبرلين ولندن وكامبريدج. عضو في الأكاديمية البريطانية والأكاديمية الأمريكية للفنون والعلوم. كان أستاذاً في جامعة بيربك وجامعة لندن ثم في المدرسة الجديدة للبحوث الاجتماعية في نيويورك.

من مؤلفاته التي تُرجمت إلى لغات عديدة: *The Age of Revolution, The Age of Empire, The Age of Extremes, Primitive Rebels, Labouring Men and Worlds of Labour, Industry and Empire* and *Bandits*.

- **فايز الصُيّاغ**: عالم اجتماع من الأردن، زميل زائر في مركز الدراسات الاستراتيجية - الجامعة الأردنية، عمل أستاذاً، لعدة سنوات، في جامعة تورنتو الكندية، له مؤلفات ومترجمات بالعربية والإنجليزية في المجالات الاجتماعية والتنموية والثقافية.

- أصول المعرفة العلمية
- ثقافة علمية معاصرة
- فلسفة
- علوم إنسانية واجتماعية
- تقنيات وعلوم تطبيقية
- آداب وفنون
- لسانيات ومعاجم



المنظمة العربية للترجمة



الثمن: 20 دولاراً
أو ما يعادلها